تفسير الكشاف

عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

وهو تفسير القرآن الكريم: للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري
المتوفى سنة ٥٢٨ هـ

الناشر دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الكشاف
عن حقائق غوامض التنزيل
وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

وهو تفسير القرآن الكريم : للإمام جادالله محمود بن عمر الزمخشري
المتوفى سنة ٥٢٨ هـ.

وبذيله أربعة كتب :

الاول : الانتصاف : للإمام احمد بن المنير الاسكندري.
الثاني: الكافي الشاف في تخريج احاديث الكشاف: للحافظ ابن حجر العسقلاني.
الثالث : حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشاف.
الرابع : مشاهد الانصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المذكور.

الجزء الثالث

الناشر دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان



سورة مريم

مكية [إلا آيتي ٥٨ و ٧١ فمدنيتان]

وآياتها ٩٨ [نزلت بعد سورة فاطر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)

﴿ كهيعص ﴾ قرأ بفتح الهاء [1] وكسر الياء حمزة ، وبكسرهما عاصم ، وبضمهما الحسن . وقرأ الحسن ﴿ ذكر رحمة ربك ﴾ أى : هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك . وقرئ : ذكر، على الأمر [2] . راعى سنة الله فى إخفاء دعوته ، لأنّ الجهر والإخفاء عند الله سيان ، فكان الإخفاء أولى ، لأنه أبعد من الرياء وأدخل فى الإخلاص . وعن الحسن : نداء لا رياء فيه ، أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد فى إبان الكبرة والشيخوخة [3] . أو أسره من مواليه الذين خافهم . أو خفت صوته لضعفه وهرمه ، كما جاء فى صفة الشيخ : صوته خفات ، وسمعه تارات .

---

(١) قوله «كهيعص قرأ بفتح الهاء» عبارة النسفى . قرأ على ويحيى بكسر الهاء والياء ، ونافع بين الفتح والكسر ، وإلى الفتح أقرب . وأبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء . وحمزة بعكسه . وغيرهم بفتحهما . (ع)

(٢) قوله «وقرأ الحسن (ذكر رحمة ربك) أى هذا الخ» يحتاج إلى تحرير ، فان الرفع قراءة الجمهور . وقوله «ذكر على الأمر» أى و(رحمة ربك) بالنصب . (ع)

(٣) قوله «فى إبان الكبرة والشيخوخة» فى الصحاح : الكبر فى السن ، والاسم الكبرة بالفتح . وفيه أيضاً : شاخ الرجل يشيخ شيخاً بالتحريك : جاء على أصله ، وشيخوخة اه وليس فيه شيوخة . وفيه أيضاً : إبان الشيء بالكسر والتشديد : وقته وأوانه . (ع)

واختلف في سنّ زكريا عليه السلام، فقيل: ستون، وخمس وستون، وسبعون، وخمس وسبعون، وخمس وثمانون.

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾

قرئ (وهن) بالحركات الثلاث، وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن. ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذى هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصداً إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها. إدغام السين فى الشين عن أبى عمرو. شبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وإنارته وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ، باشتعال النار؛ ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس. وأخرج الشيب مميزا ولم يضف الرأس: اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا، فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة. توسل إلى الله بما سلف له من الاستجابة. وعن بعضهم أن محتاجا سأله وقال: أنا الذى أحسنت إلىّ وقت كذا. فقال: مرحبا بمن توسل بنا إلينا، وقضى حاجته.

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

كان مواليه ـ وهم عصبته إخوته وبنو عمه ـ شرار بنى إسرائيل، فخافهم على الدين أن يغيروه ويبدلوه، وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقباً من صلبه صالحا يقتدى به فى إحياء الدين ويرتسم مراسمه فيه ﴿من ورائى﴾ بعد موتى. وقرأ ابن كثير: من وراى، بالقصر، وهذا الظرف لا يتعلق بخفت لفساد المعنى، ولكن بمحذوف. أو بمعنى الولاية فى الموالى: أى خفت فعل الموالى وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائى. أو خفت الذين يلون الأمر من ورائى. وقرأ عثمان ومحمد بن على وعلى بن الحسين رضى الله عنهم. خفت الموالى من ورائى، وهذا على معنيين، أحدهما: أن يكون (ورائى) بمعنى خلفى وبعدى، فيتعلق الظرف بالموالى: أى قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين، فسأل ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولىّ يرزقه. والثانى: أن يكون

بمعنى قدامى ، فيتعلق بخفت ، ويريد أنهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد ﴿من لدنك﴾ تأكيد لكونه ولياً مرضيا ، بكونه مضافا إلى الله تعالى وصادرا من عنده ، وإلا ـ فهب لى ولياً يرثنى ـ كاف ، أو أراد اختراعا منك بلا سبب لأنى وامرأتى لا نصلح للولادة ﴿يرثنى ويرث﴾ الجزم جواب الدعاء ، والرفع صفة . ونحوه (ردءا يصدقنى) وعن ابن عباس والجحدرى : يرثنى وارث آل يعقوب ، نصب على الحال . وعن الجحدرى : أويرث ، على تصغير وارث ، وقال : غليم صغير . وعن على رضى الله عنه وجماعة : وارث من آل يعقوب : أى يرثنى به وارث ، ويسمى التجريد فى علم البيان ، والمراد بالإرث إرث الشرع والعلم ، لأنّ الأنبياء لا تورّث المال . وقيل يرثنى الحبورة وكان حبراً ، ويرث من آل يعقوب الملك . يقال : ورثته وورثت منه لغتان . وقيل « من » للتبعيض لا للتعدية ، لأنّ آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء ، وكان زكريا عليه السلام من نسل يعقوب بن إسحق . وقيل : هو يعقوب بن ماتان أخو زكريا . وقيل : يعقوب هذا وعمران أبو مريم أخوان من نسل سليمان بن داود .

﴿يَـٰزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾

﴿سميا﴾ لم يسمّ أحد بيحيى قبله ، وهذا شاهد على أنّ الأسامى السنع جديرة بالأثرة ، وإياها كانت العرب تنتحى فى التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبز ، حتى قال القائل فى مدح قوم :

سُنْعُ الأَسَامِى مُسْبِلِى أُزُرٍ حُمْرٍ تَمَسُّ الأَرْضَ بِالْهُدْبِ (١)

وقال رؤبة للنسابة البكرى ـ وقد سأله عن نسبه ـ : أنا ابن العجاج ؛ فقال : قصرت وعرفت . وقيل : مثلا وشبيها عن مجاهد ، كقوله (هل تعلم له سميا) وإنما قيل للمثل « سمىّ » لأنّ كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثل والشبيه والشكل والنظير ، فكل واحد منهما سمىّ لصاحبه ، ونحو « يحيى » فى أسمائهم « يعمر ، ويعيش » إن كانت التسمية عربية ؛ وقد سموا بيموت أيضا ، وهو يموت ابن المزرع ، قالوا : لم يكن له مثل فى أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط ، وأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر ، وأنه كان حصوراً .

---

(١) يقال سنع الرجل كظرف ، فهو سنيع أى جميل ، وأسنع ، والمرأة سنعاء ، وسنع جمع أسنع : أى أسماؤهم حسنة ، فهى أنبه وأنوه وأنزه عن النبز ، والحمر : صفة الأزر ، وتمس : صفة أخرى لها . وهدب الشيء : طرفه ، والمناسب للمعنى أن المراد به الجمع ، ويمكن أن يكون ضمنه مفردا كقفل ، وجمعا كفلك . ويجوز أنه اسم جمع ، ولذلك جاء فى واحده هدبة ، ومس الأرض بالأطراف : كناية عن طولها ، بل عن غناهم وثروتهم اللازم لذلك .

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾

أى كانت على صفة العقر حين أنا شاب وكهل ، فما رزقت الولد لاختلال أحد السببين ، أفحين اختل السببان جميعاً أُرزقه ؟ فإن قلت : لم طلب أولا وهو وامرأته على صفة العتىّ والعقر [١] ، فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب ؟ قلت : ليجاب بما أجيب به ، فيزداد المؤمنون إيقانا ويرتدع المبطلون ، وإلا فمعتقد زكريا أولا وآخراً كان على منهاج واحد : فى أنّ الله غنى عن الأسباب ، أى بلغت عتياً : وهو اليبس والجساوة فى المفاصل والعظام كالعود القاحل [٢] . يقال : عتا العود وعسا من أجل الكبر والطعن فى السن العالية . أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتياً . وقرأ ابن وثاب وحمزة والكسائى بكسر العين ، وكذلك صليا ، وابن مسعود بفتحهما [٣] فيهما . وقرأ أبىّ ومجاهد : عسيا [٤] .

قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾

﴿كذلك﴾ الكاف رفع ، أى الأمر كذلك تصديق له ، ثم ابتدأ ﴿قال ربك﴾ أو نصب بقال ، وذلك إشارة إلى مبهم يفسره ﴿هو علىّ هين﴾ ونحوه (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) وقرأ الحسن : وهو على هين ، ولا يخرج هذا إلا على الوجه الأول : أى الأمر كما قلت ، وهو على ذلك يهون على . ووجه آخر : وهو أن يشار بذلك إلى ما تقدم من وعد الله ، لا إلى قول زكريا . و « قال » محذوف فى كلتا القراءتين : أى قال هو علىّ هين قال وهو علىّ هين ، وإن شئت لم تنوه ، لأن الله هو المخاطب ، والمعنى أنه قال ذلك ووعده

---

(١) قال محمود : « إن قلت لم طلب أولا وهو وامرأته على صفة العتى ... الخ » قال أحمد : وفيما أجاب به نظر ؛ لأنه التزم أن زكريا استبعد ماوعده الله عز وجل بوقوعه ، ولا يجوز للنبي النطق بما لا يسوغ ، لمثل هذه الفائدة التى عينها الزمخشرى ويمكن حصولها بدونه ، فالظاهر فى الجواب ـ والله أعلم ـ أن طلبة زكريا إنما كانت ولدا من حيث الجملة ، وبحسب ذلك أجيب ، وليس فى الاجابة مايدل على أنه يولد له وهو هرم ، ولا أنه من زوجته وهى عاقر ، فاحتمل عنده أن يكون الموعود وهما بهذه الحالة ، واحتمل أن تعاد لهما قوتهما وشبابهما ، كما فعل الله ذلك لغيرهما . أو أن يكون الولد من غير زوجته العاقر ، فاستبعد الولد منهما وهما بحالهما ، فاستخبر أيكون وهما كذلك ، فقيل : كذلك ، أى : يكون الولد وأنتما كذلك ، فقد انصرف الابعاد إلى عين الموعود فزال الاشكال ، والله أعلم .

(٢) قوله « كالعود القاحل » أى اليابس ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله « بفتحهما » لعله بفتحها . (ع)

(٤) قوله « عسياً » فى الصحاح : عسى الشيخ يعسو عسياً : ولى وكبر ، مثل عتا . (ع)

وقوله الحق ﴿شيئا﴾ لأن المعدوم ليس بشيء . أو شيئا يعتد به [١]، كقولهم : عجبت من لا شيء ، وقوله :

* إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا * [٢]

وقرأ الأعمش والكسائي وابن وثاب : خلقناك .

قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

أى اجعل لى علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به . قال : علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه، وأنت سليم الجوارح سوىّ الخلق . ما بك خرس ولا بكم . دل ذكر الليالى هنا ، والأيام فى آل عمران ، على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن .

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

أوحى : أشار عن مجاهد ، ويشهد له (إلا رمزاً) .وعن ابن عباس : كتب لهم على الأرض ﴿سبحوا﴾ صلوا ، أو على الظاهر ، وأن : هى المفسرة .

يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾

أى خذ التوراة بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد ﴿الحكم﴾ الحكمة . ومنه :

* وَاحْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الْحَيِّ * [٣]

---

(١) قال محمود : «إنما قيل ذلك لأن المعدوم ليس بشيء أوشيئا يعتد به ... الخ» قال أحمد : فسر أولا على ظاهر النفى الصرف وهوالحق ، لأن المعدوم ليس شيئا قطعا ، خلافا للمعتزلة فى قولهم : إن المعدوم الممكن شيء . ومن ثم كانح الزمخشرى عن البقاء على التفسير الأول إلى الثانى بوجه من التأويل يلائم معتقد المعتزلة . فجعل المنفى الشيئية المعتد بها ، وإن كانت الشيئية المطلقة ثابتة عنده للمعدوم ، والحق بقاء الظاهر فى نصابه .

(٢) وضاقت الأرض حتى كان هاربهم ... إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

يقول : وضاقت الأرض على أعدائنا ؛ لأن كل مسلك يريدونه يظنون أحداً منا فيه فيرجعون ، فاستعير الضيق الحسى لذلك على طريق التصريح ، حتى كان الهارب منهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا منا ، فيرجع خوفا ، والشيء هو الموجود وغيره هو المعدوم ، ولكن استعير للشيء الحقير التافه لعدم الاعتداد بكل على طريق التصريح ، وذلك ليصح وقوع الرؤية عليه .

(٣) واحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت ... إلى حمام سراع وارد الثمد

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا ... إلى حمامتنا ونصفه فقد

فحسبوه فألفوه كما وجدت ... ستا وستين لم تنقص ولم تزد

للنابغة واسمه زياد ، يخاطب النعمان بن المنذر ، والفتاة : زرقاء اليمامة التى يضرب بها المثل فى حدة البصر ، نظرت إلى حمام مسرع إلى الماء فقالت : ليت الحمام ليه . إلى حمامتيه . ونصفه قديه . ثم الحمام ميه . فوقع فى شبكة =

يقال حكم حكما كحلم ، وهو الفهم للتوراة والفقه فى الدين عن ابن عباس . وقيل : دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبي فقال : ما للعب خلقنا ، عن الضحاك . وعن معمر : العقل ، وقيل النبوة ، لأنّ الله أحكم عقله فى صباه وأوحى إليه .

وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾

﴿حنانا﴾ رحمة لأبويه وغيرهما ، وتعطفا وشفقة . أنشد سيبويه :

وَقَالَتْ حَنَانٌ مَاأَتَى بِكَ هٰهُنَا ... أَذُو نَسَبٍ أَمْ أَنْتَ بِالْحَيِّ عَارِفُ (١)

وقيل : حنانا من الله عليه . وحنّ : فى معنى ارتاح واشتاق ، ثم استعمل فى العطف والرأفة ، وقيل لله « حنان » كما قيل « رحيم » على سبيل الاستعارة . والزكاة : الطهارة ، وقيل الصدقة ، أى : يتعطف على الناس ويتصدّق عليهم :

وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

═ صياد ، فوجدوه ستا وستين حمامة ، ونصفه ثلاثة وثلاثون ، فاذا ضم الكل إلى حمامتها صار مائة ، والحمام : كل ذى طوق من الطيور . وسراع : جمع سريع ، وصفه به لأنه جمع فى المعنى ، وبوارد لأنه مفرد فى اللفظ . ويروى « شراع » بالشين المثالة جمع شارع . والثمد : الماء القليل . وروى الحمام ونصفه بالرفع ، على إهمال ليتما . وبالنصب على إعمالها ؛ لأن « ما » زائدة لا كافة ، وإلا وجب الاهمال . وروى « أو نصفه » فأو بمعنى الواو . والكلام على تقدير مضاف ؛ لأنها تمنت أن يكون هذا الحمام ومقدار نصفه لها . وإلى حمامتنا : متعلق بمحذوف ، أى : منضما إليها . وقد : اسم بمعنى حسب ، أضيفت إلى ياء المتكلم بغير نون الوقاية ، كما يقال : حسبي : ويحتمل أن الياء حرف إطلاق ، فلا إضافة ولكنها متعينة فى كلام زرقاء ، والهاء فيه للسكت ، وهو يرجح الاضافة فى كلام النابغة ، والفاء فيه زائدة لتحسين اللفظ كفاء فقط ، وكلاهما بمعنى انته ، وكأنها فاء الجواب ، أى : إذا بلغت هذا الحد فانته كما أفاده السعد فى مطوله ، وحبسوه ينبغي تشديده ليسلم الشعر من الخبل ، وهو نوع من الزحاف يقبح دخوله هنا . ويروى « حسبوه » بتقديم السين على الباء .

(١) وأحدث عهد من أمينة نظرة ... على جانب العلياء إذ أنا واقف
فقالت حنان ما أتى بك هاهنا ... أذو نسب أم أنت بالحى عارف

لمنذر بن درهم الكلبي ، يقول : وأقرب عهد : أى لقاء ورؤية لأمينة محبوبتي تصغير آمنة ، هو نظرة منى لها بجانب تلك البقعة ، إذ أنا واقف هناك : أى حين وقوفى بها . وفيه إشعار بأنه كان واقفاً يترقب رؤيتها ، فلما رأته هى قالت له : حنان أى أمرى حنان ورحمة لك ، وهو من المواضع التى يجب فيها حذف المبتدأ لنيابة الخبر عن الفعل ؛ لأنه مصدر محول عن النصب . وقولها « ماأتى بك ماهنا » استفهام تعجبي . أذو نسب : أى أأنت ذو نسب أم أنت عارف بهذا الحى ؟ ويجوز أن « أذو نسب » بدل من ما الاستفهامية : أى الذى حملك على المجىء هنا أو الذى دلك عليه صاحب قرابة من الحى أى معرفتك به ؟ ويجوز أن الاستفهام حقيقى حكته على لسان غيرها ، لتلقنه الجواب بقولها : أذو نسب ... الخ ، مع معرفتها سبب مجيئه وهو حبها ، وربما يسأله أحد من أهلها فيجيبه بأحد هذين الجوابين .

سلم الله عليه فى هذه الأحوال ، قال ابن عيينة : إنها أوحش المواطن .

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾

﴿ إذ ﴾ بدل من ﴿ مريم ﴾ بدل الاشتمال ، لأنّ الأحيان مشتملة على ما فيها . وفيه أنّ المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا ، لوقوع هذه القصة العجيبة فيه . والانتباذ : الاعتزال والانفراد ، تخلت للعبادة فى مكان مما يلى شرقى بيت المقدس ، أو من دارها معتزلة عن الناس . وقيل : قعدت فى مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بحائط أو بشىء يسترها ، وكان موضعها المسجد ، فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها ، فإذا طهرت عادت إلى المسجد ، فبينا هى فى مغتسلها أتاها الملك فى صورة آدمى شاب أمرد وضىء الوجه جعد الشعر سوىّ الخلق ، لم ينتقص من الصورة الآدمية شيئاً . أوحسن الصورة مستوى الخلق ، وإنما مثل لها فى صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها فى الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه . ودلّ على عفافها وورعها أنها تعوّذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن ، وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاء لها وسبراً لعفتها . وقيل : كانت فى منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه ، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب ، فتمنت أن تجد خلوة فى الجبل لتفلى رأسها ، فانفجر السقف لها فخرجت فجلست فى المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك . وقيل : قام بين يديها فى صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس . وقيل : إنّ النصارى اتخذت المشرق قبلة لانتباذ مريم مكانا شرقيا . الروح : جبريل ، لأنّ الدين يحيا به وبوحيه . أو سماه الله روحه على المجاز محبة له وتقريباً ، كما تقول لحبيبك : أنت روحى . وقرأ أبو حيوة : روحنا ، بالفتح ؛ لأنه سبب لما فيه رَوح العباد ، وإصابة الرَّوح عند الله الذى هو عدّة المقربين فى قوله (فأمّا إن كان من المقرّبين فروح وريحان) أو لأنه من المقرّبين وهم الموعودون بالروح ، أى : مقرّبنا وذا روحنا .

قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾

أرادت إن كان يرجى منك أن تتقى الله وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به ، فإنى عائذة به منك كقوله تعالى (بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) .

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾

أى إنما أنا رسول من استعذت به ﴿لأهب لك﴾ لأكون سبباً فى هبة الغلام بالنفخ فى الدرع [١]. وفى بعض المصاحف : إنما أنا رسول ربك أمرنى أن أهب لك . أو هى حكاية لقول الله تعالى .

قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾

جعل المس عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه ، كقوله تعالى (من قبل أن تمسوهن) (أو لمستم النساء) والزنا ليس كذلك ، إنما يقال فيه : فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك ، وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب . والبغىّ : الفاجرة التى تبغى الرجال ، وهى فعول عند المبرد «بغوى» فأدغمت الواو فى الياء . وقال ابن جنى فى كتاب التمام : هى فعيل ، ولو كانت فعولا لقيل «بغو» كما قيل : فلان نهوّ عن المنكر ﴿ولنجعله آية﴾ تعليل معلله محذوف أى : ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك . أو هو معطوف على تعليل مضمر ، أى لنبين به قدرتنا ولنجعله آية . ونحوه : (وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت) وقوله (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه) . ﴿مقضيا﴾ مقدّراً مسطوراً فى اللوح لا بدّ لك من جريه عليك . أو كان أمراً حقيقاً بأن يكون ويقضى لكونه آية ورحمة . والمراد بالآية : العبرة والبرهان على قدرة الله ، وبالرحمة : الشرائع والألطاف ، وما كان سبباً فى قوّة الاعتقاد والتوصل إلى الطاعة والعمل الصالح . فهو جدير بالتكوين .

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾

عن ابن عباس : فاطمأنت إلى قوله فدنا منها فنفخ فى جيب درعها ، فوصلت النفخة إلى بطنها فحملت . وقيل : كانت مدّة الحمل ستة أشهر . وعن عطاء وأبى العالية والضحاك : سبعة أشهر . وقيل : ثمانية ، ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى . وقيل : ثلاث ساعات . وقيل : حملته فى ساعة ، وصوّر فى ساعة ، ووضعته فى ساعة ، حين زالت الشمس من يومها . وعن ابن عباس : كانت مدة الحمل ساعة واحدة ، كما حملته نبذته . وقيل : حملته وهى بنت ثلاث عشرة سنة . وقيل : بنت عشر ، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل . وقالوا : ما من

(١) قوله «فى الدرع» فى الصحاح «درع المرأة» قميصها . (ع)

مولود إلا يستهلّ غيره (١) ﴿فانتبذت به﴾ أى اعتزلت وهو فى بطنها ، كقوله :

* تَدُوسُ بِنَا الْجَمَاجِمَ وَالتَّرِيبَا (٢)

أى تدوس الجماجم ونحن على ظهورها ، ونحوه قوله تعالى (تنبت بالدهن) أى تنبت ودهنها فيها : الجار والمجرور فى موضع الحال ﴿قصيا﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل . وقيل : أقصى الدار . وقيل : كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف ، فلما قيل : حملت من الزنا ، خاف عليها قتل الملك ، فهرب بها فلما كان ببعض الطريق حدّثته نفسه بأن يقتلها ، فأتاه جبريل فقال : إنه من روح القدس فلا تقتلها ، فتركها .

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣)

﴿فأجاءها﴾ أجاء : منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء . ألا تراك تقول : جئت المكان وأجاءنيه زيد ، كما تقول : بلغته وأبلغنيه . ونظيره «آتى» حيث لم يستعمل إلا فى الإعطاء ، ولم تقل : أتيت المكان وآتانيه فلان . قرأ ابن كثير فى رواية ﴿المخاض﴾ بالكسر . يقال : مخضت الحامل مخاضا ومخاضا ، وهو تمخض الولد فى بطنها .

طلبت الجذع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة ، وكان جذع نخلة يابسة فى الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة ، وكان الوقت شتاء ، والتعريف لا يخلو : إمّا أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق ، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس ، فإذا قيل : جذع النخلة فهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخل . وإمّا أن يكون تعريف الجنس ، أى : جذع هذه الشجرة خاصة ، كأن الله تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذى هو حرسة النفساء الموافقة لها . ولأن النخلة أقل شىء صبراً على البرد ، وثمارها إنما هى من جمارها ، فلموافقتها لها مع جمع الآيات فيها اختارها لها وألجأها إليها . قرئ ﴿مت﴾ بالضم والكسر . يقال : مات يموت ومات يمات . النسىّ : ما من حقه أن يطرح وينسى ، كخرقة الطامث ونحوها ، كالذبح : اسم ما من شأنه أن يذبح فى قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) وعن

(١) قوله «ما من مولود إلا يستهل غيره» فى الصحاح «استهل الصبى» أى صاح عند الولادة . (ع)

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بصفحة ١٣٨ من الجزء الأول فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٣) قوله «وهو تمخض الولد فى بطنها» فى الصحاح «تمخض اللبن واستمخض» أى تحرك فى الممخضة ، وكذلك الولد إذا تحرك فى بطن الحامل . (ع)

يونس : العرب إذا ارتحلوا عن الدار قالوا : انظروا أنساءكم ، أى : الشيء اليسير نحو العصا والقدح والشظاظ[١]. تمنت لو كانت شيئاً تافها لا يؤبه له ، من شأنه وحقه أن ينسى فى العادة وقد نسى وطرح فوجد فيه النسيان الذى هو حقه ، وذلك لما لحقها من فرط الحياء والتشور[٢] من الناس على حكم العادة البشرية ، لا كراهة لحكم الله ، أو لشدة التكليف عليها إذا بهتوها[٣] وهى عارفة ببراءة الساحة وبضد ماقرفت به ، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام لأنه مقام دحض قلما تثبت عليه الأقدام : أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ، ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيباً يعاب به ويعنف بسببه ، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله بسببها . وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة وحفص (نسياً) بالفتح . قال الفراء : هما لغتان كالوتر والوتر ، والجسر والجسر . ويجوز أن يكون مسمى بالمصدر . كالحمل . وقرأ محمد بن كعب القرظى (نسأ) بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ، ينسؤه أهله لقلته ونزارته . وقرأ الأعمش (منسيا) بالكسر على الإتباع ، كالمغيرة والمنخر .

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾

﴿من تحتها﴾ هو جبريل عليه السلام . قيل : كان يقبل الولد كالقابلة . وقيل : هو عيسى ، وهى قراءة عاصم وأبى عمرو . وقيل (تحتها) أسفل من مكانها ، كقوله (تجرى من تحتها الأنهار) وقيل : كان أسفل منها تحت الأكمة ، فصاح بها (لا تحزنى) وقرأ نافع وحمزة والكسائى وحفص (من تحتها) وفى ناداها ضمير الملك أو عيسى . وعن قتادة : الضمير فى تحتها للنخلة . وقرأ زر وعلقمة : فخاطبها من تحتها .

سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السرى فقال : « هو الجدول[٤] » . قال لبيد :

---

(١) قوله «والشظاظ» فى الصحاح «الشظاظ» العود الذى يدخل فى عروة الجوالق . وفيه «الجوالق» وعاء . (ع)

(٢) قوله «من فرط الحيا والتشور من الناس» خوف إظهار العورة . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله «إذا بهتوها وهى عارفة ... الخ» اتهموها بما ليس فيها . وقرفت : اتهمت . (ع)

(٤) أخرجه الطبرانى فى الصغير وابن عدى من رواية أبى سنان سعيد بن سنان عن أبى إسحق عن البراء عن النبى صلى الله عليه وسلم . فى قوله تعالى (قد جعل ربك تحتك سريا) قال : السرى النهر . قال الطبرانى لم يرفعه عن أبى إسحاق إلا أبو سنان رواه عنه معاوية بن يحيى وهو ضعيف وأخرجه عبد الرزاق عن الثورى عن أبى إسحاق عن البراء موقوفا ، وكذا ذكره البخارى تعليقا عن وكيع عن إسرائيل عن أبى إسحق . ورواه ابن مردويه من طريق آدم عن إسرائيل كذلك . وأخرجه الحاكم من وجه آخر عن أبى إسحاق موقوفا . وفى الباب عن ابن عمر رضى الله عنهما قال «إن السرى الذى قال الله تعالى لمريم : نهر أخرجه الله لتشرب منه » أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية فى ترجمة عكرمة عن ابن عمر . ورواية عن أيوب بن نهيك ، ضعفه أبو حاتم وأبو زرعة .

فَتَوَسَّطَا عُرْضَ السَّرِيِّ فَصَدَّعَا ... مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلَّامُهَا [١]

وقيل : هو من السرو [٢]. والمراد : عيسى . وعن الحسن : كان والله عبداً سريا . فإن قلت . ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسرى والرطب ؟ قلت : لم تقع التسلية بهما من حيث أنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث أنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة ، وأن مثلها مما قرفوها به بمعزل ، وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا ، حتى يتبين لهم أنّ ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها .

وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦)

﴿تساقط﴾ فيه تسع قراآت : تساقط ، بإدغام التاء . وتتساقط ، بإظهار التاءين . وتساقط ، بطرح الثانية . ويساقط ، بالياء وإدغام التاء . وتساقط ، وتسقط ، ويسقط ، وتسقط ، ويسقط : التاء للنخلة ، والياء للجذع . ورطباً تمييز أو مفعول على حسب القراءة . وعن المبرد : جواز انتصابه بهزّى وليس بذاك . والباء فى (بجذع النخلة) صلة للتأكيد ، كقوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أو على معنى : افعلى الهزّ به ، كقوله :

* يَجْرَحُ فِي عَرَاقِيبِهَا نَصْلِي * [٣]

قالوا : التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت ، وكذلك التحنيك ، وقالوا : كان من العجوة . وقيل : ماللنفساء خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل ، وقيل : إذا عسر ولادها لم

(١) فمضى وقدمها وكانت عادة ... منه إذا هى عردت أقدامها
فتوسطا عرض السرى فصدعا ... مسجورة متجاوراً قلامها

للبيد من معلقته ، يصف حماراً وحشيا بأنه مضى خلف أتانه نحو الماء . وقدمها أمامه . وأقدامها : اسم كان ، وألحقه التاء لاكتساب الأقدام التأنيث من الضمير المضاف إليه . وقيل : لأنه بمعنى التقدمة التى هى مصدر قدمها المضاعف كالتقديم . وعادة خبر كان . و«إذا هى عردت» بالتضعيف أى تأخرت وجبنت ، فتوسطا : أى الحمار والأتان ، عرض السرى : أى ناحية النهر الصغير وجانبه ، فصدعا : أى شقاعينا مسجورة مملوءة ، وكان المقام للاضمار ، فأظهر ليتأتى الوصف . أوللتجربة ، أوالعين من النهر ، وليست هى هو وهذا أوجه . والقلام ـ كرمان ـ : القاقلى ، وقيل مطلق النبات ، وتجاوزه : كناية عن كثرته .

(٢) قوله «وقيل هو من السرو» فى الصحاح «السرو» سخاء فى مروءة . (ع)

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٥٧٨ فراجعه إن شئت اه مصححه .

يكن لها خير من الرطب. عن طلحة بن سليمان ﴿جنيا﴾ بكسر الجيم للإتباع، أى جمعنا لك فى السرى والرطب فائدتين، إحداهما: الأكل والشرب، والثانية سلوة الصدر؛ لكونهما معجزتين. وهو معنى قوله (فكلى واشربى وقرى عينا) أى وطيبى نفسا ولا تغتمى وارفضى عنك ماأحزنك وأهمك. وقرئ: ﴿وقرى﴾ بالكسر لغة نجد ﴿فإما ترئن﴾ بالهمز: ابن الرومى. عن أبى عمرو: وهذا من لغة من يقول: لبأت بالحج، وحلأت السويق (١)، وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين فى الإبدال ﴿صوما﴾ صمتاً. وفى مصحف عبد الله: صمتاً. وعن أنس بن مالك مثله. وقيل: صياما، إلا أنهم كانوا لا يتكلمون فى صيامهم، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم الصمت (٢)، لأنه نسخ فى أمته، أمرها الله بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع البشر المتهمين لها فى الكلام لمعنيين، أحدهما: أن عيسى صلوات الله عليه يكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها. والثانى: كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم. وفيه أن السكوت عن السفيه واجب. ومن أذل الناس: سفيه لم يجد مسافها. قيل: أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة. وقيل: سوغ لها ذلك بالنطق ﴿إنسيا﴾ أى أكلم الملائكة دون الإنس

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾

الفرى: البديع، وهو من فرى الجلد ﴿ياأخت هرون﴾ كان أخاها من أبيها من أمثل بنى إسرائيل. وقيل: هو أخو موسى صلوات الله عليهما. وعن النبى صلى الله عليه وسلم: «إنما عنوا هرون النبى (٣)» وكانت من أعقابه فى طبقة الإخوة، بينها وبينه ألف سنة وأكثر. وعن السدى: كانت من أولاده، وإنما قيل: ياأخت هرون، كما يقال ياأخا همدان، أى: ياواحداً منهم. وقيل: رجل صالح أو طالح فى زمانها، شبهوها به، أى: كنت عندنا مثله فى الصلاح، أو شتموها به، ولم ترد إخوة النسب، ذكر أن هرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمى

---

(١) قوله «يقول لبأت بالحج وحلأت السويق» والكثير: لبيت بالحج، وحليت السويق، أى: جعلته حلوا. (ع)

(٢) لم أره هكذا وأخرج عبد الرزاق من حديث جابر بلفظ «لا صمت يوم إلى الليل» وفيه حزام بن عثمان وهو ضعيف ولأبى داود من حديث على مثله. وقد تقدم فى تفسير النساء.

(٣) لم أجده هكذا إلا عند الثعلبى بغير سند ورواه الطبرى عن السدى. قوله وليس بصحيح. فان عند مسلم والنسائى والترمذى عن المغيرة بن شعبة. قال «بعثنى النبى صلى الله عليه وسلم إلى نجران فقالوا لى: أرأيتم شيئا يقرأونه (ياأخت هارون) وبين موسى وعيسى ماشاء الله من السنين فلم أدر ماأجيبهم فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم هلا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين من قبلهم» وروى الطبرى من طريق ابن سيرين «نبئت أن كعبا قال إن قوله تعالى (ياأخت هارون) ليس بهارون أخى موسى فقالت له عائشة «كذبت. فقال لها يا أم المؤمنين إن كان النبى صلى الله عليه وسلم قال فهو أعلم وإلا فأنا أجد بينهما ستمائة سنة».

هرون تبركا به وباسمه، فقالوا: كنا نشبهك بهرون هذا. وقرأ عمر بن لجاء التيمي ﴿ما كان أباك امرؤ سوء﴾ وقيل احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار، فلبثوا فيه أربعين يوما حتى تعلت من نفاسها [١]، ثم جاءت تحمله فكلمها عيسى في الطريق فقال: يا أماه، أبشرى فإنى عبد الله ومسيحه، فلما دخلت به على قومها وهم أهل بيت صالحون تباكوا وقالوا ذلك. وقيل: هموا برجمها حتى تكلم عيسى عليه السلام. فتركوها.

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾

﴿فأشارت إليه﴾ أى هو الذى يجيبكم إذا ناطقتموه. وقيل: كان المستنطق لعيسى زكريا عليه السلام. وعن السدى: لما أشارت إليه غضبوا وقالوا: لسخريتها بنا أشد علينا من زناها. وروى أنه كان يرضع، فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه، واتكأ على يساره وأشار بسبابته. وقيل: كلمهم بذلك، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان ﴿كان﴾ لإيقاع مضمون الجملة فى زمان ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده، وهو ههنا لقريبه خاصة، والدال عليه مبنى الكلام، وأنه مسوق للتعجب. ووجه آخر: أن يكون (نكلم) حكاية حال ماضية، أى: كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبياً فى المهد فيما سلف من الزمان حتى نكلم هذا.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

أنطقه الله أولا بأنه عبد الله رداً لقول النصارى ﴿والكتاب﴾ هو الإنجيل. واختلفوا فى نبوته، فقيل: أعطيها فى طفوليته: أكمل الله عقله، واستنبأه طفلا نظراً فى ظاهر الآية. وقيل: معناه إنّ ذلك سبق فى قضائه. أو جعل الآتى لامحالة كأنه قد وجد ﴿مباركا أينما كنت﴾ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «نفاعا حيث كنت [٢]»، وقيل: معلما للخير.

(١) قوله «حتى تعلت من نفاسها» فى الصحاح «تعلى» أى علا فى مهلة. وتعلت المرأة من نفاسها: أى سلمت، وتعلى الرجل من علته. (ع)

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة يونس بن عبيد عن الحسن عن أبى هريرة بهذا وأتم منه. وقال تفرد به هشيم عن يونس وعنه شعيب بن محمد الكوفى ورواه ابن مردويه من هذا الوجه.

وقرئ ﴿وبرا﴾ عن أبي نهيك، جعل ذاته برا لفرط بره. أو نصبه بفعل فى معنى أوصانى وهو كلفنى؛ لأن أوصانى بالصلاة وكلفنيها واحد ﴿والسلام علىّ﴾ قيل: أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله، كقولك: جاءنا رجل، فكان من فعل الرجل كذا. والمعنى: ذلك السلام الموجه إلى يحيى فى المواطن الثلاثة موجه إلىّ. والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضاً باللعنة على متهمى مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود. وتحقيقه أن اللام للجنس، فإذا قال: وجنس السلام علىّ خاصة فقد عرض بأن ضده عليكم. ونظيره قوله تعالى (والسلام على من اتبع الهدى) يعنى أنّ العذاب على من كذب وتولى، وكان المقام مقام مناكرة وعناد، فهو مئنة لنحو هذا من التعريض.

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾

قرأ عاصم وابن عامر ﴿قول الحق﴾ بالنصب. وعن ابن مسعود: قال الحق، وقال الله. وعن الحسن: قول الحق، بضم القاف، وكذلك فى الأنعام (قوله الحق) والقول والقال والقول بمعنى واحد، كالرهب والرهب والرهب. وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر، أو بدل، أو خبر مبتدأ محذوف. وأما انتصابه فعلى المدح إن فسر بكلمة الله، وعلى أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة إن أريد قول الثبات والصدق، كقولك: هو عبد الله حقاً. والحق لا الباطل، وإنما قيل لعيسى «كلمة الله» و «قول الحق» لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها، وهى قوله (كن) من غير واسطة أب، تسمية للمسبب باسم السبب، كما سمى العشب بالسماء، والشحم بالندا. ويحتمل إذا أريد بقول الحق عيسى، أن يكون الحق اسم الله عزّ وجل، وأن يكون بمعنى الثبات والصدق، ويعضده قوله (الذى فيه يمترون) أى أمره حق يقين وهم فيه شاكون ﴿يمترون﴾ يشكون. والمرية: الشك. أو يتمارون: يتلاحون[1]، قالت اليهود: ساحر كذاب، وقالت النصارى: ابن الله وثالث ثلاثة. وقرأ على بن أبى طالب رضى الله عنه: تمترون، على الخطاب. وعن أبىّ بن كعب: قول الحق الذى كان الناس فيه يمترون.

مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾

كذب النصارى وبكتهم بالدلالة على انتفاء الولد عنه، وأنه مما لا يتأتى ولا يتصور فى العقول وليس بمقدور عليه، إذ من المحال غير المستقيم أن تكون ذاته كذات من ينشأ منه

(١) قوله «يتلاحون» التلاحى بمعنى التنازع كما فى الصحاح. وعبارة النسفى: أو يختلفون، من المراء، فقالت اليهود ... الخ. (ع)

الولد ، ثم بين إحالة ذلك بأن من إذا أراد شيئا من الأجناس كلها أوجده بكن ، كان منزها من شبه الحيوان الوالد . والقول ههنا مجاز ، ومعناه : أنّ إرادته للشيء يتبعها كونه لا محالة من غير توقف ، فشبه ذلك بأمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور الممتثل .

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾

قرأ المدنيون وأبو عمرو بفتح أن . ومعناه : ولأنه ربي وربكم فاعبدوه ، كقوله (وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) والأستار وأبو عبيد بالكسر على الابتداء . وفى حرف أبيّ : إن الله ، بالكسر بغير واو ، وبأن الله ، أى : بسبب ذلك [1] فاعبدوه .

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾

﴿الأحزاب﴾ اليهود والنصارى عن الكلبي . وقيل النصارى لتحزبهم ثلاث فرق: نسطورية ويعقوبية وملكانية . وعن الحسن : الذين تحزبوا على الأنبياء لما قص عليهم قصة عيسى اختلفوا فيه من بين الناس ﴿من مشهد يوم عظيم﴾ أى من شهودهم هول الحساب والجزاء فى يوم القيامة أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف . أو من وقت الشهود ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال . أو من مكان الشهادة أو وقتها . وقيل : هو ما قالوه وشهدوا به فى عيسى وأمه .

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

لا يوصف الله تعالى بالتعجب وإنما المراد أن أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صما وعميا فى الدنيا . وقيل : معناه التهديد بما سيسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم . أوقع الظاهر أعنى الظالمين موقع الضمير : إشعارا بأن لا ظلم أشد من ظلمهم ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين يجدى عليهم ويسعدهم . والمراد بالضلال المبين : إغفال النظر والاستماع ﴿قضى الأمر﴾ فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار . وعن النبي صلى

(١) قوله «وبأن الله أى بسبب ذلك» لعله : أى بأن الله . ويمكن أنه عطف على أن الله ، ويكون فى حرف أبي القراءتان . (ع)

الله عليه وسلم أنه سئل عنه أي عن قضاء الأمر فقال: «حين يذبح الكبش والفريقان ينظران»[1] وإذ بدل من يوم الحسرة. أو منصوب بالحسرة ﴿وهم في غفلة﴾ متعلق بقوله في ضلال مبين عن الحسن. وأنذرهم: اعتراض. أو هو متعلق بأنذرهم، أي: وأنذرهم على هذه الحال غافلين غير مؤمنين. يحتمل أنه يميتهم ويخرب ديارهم، وأنه يفنى أجسادهم ويفنى الأرض ويذهب بها.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)

الصديق: من أبنية المبالغة. ونظيره الضحيك والنطيق. والمراد، فرط صدقه وكثرة ما صدّق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله، وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسل أي: كان مصدقا بجميع الأنبياء وكتبهم، وكان نبيا في نفسه، كقوله تعالى (بل جاء بالحق وصدّق المرسلين) أو كان بليغا في الصدق، لأن ملاك أمر النبوة الصدق. ومصدق الله بآياته ومعجزاته حرىّ أن يكون كذلك، وهذه الجملة وقعت اعتراضا بين المبدل منه وبدله، أعنى إبراهيم. و﴿إذ قال﴾ نحو قولك: رأيت زيداً، ونعم الرجل أخاك. ويجوز أن يتعلق إذ بكان أو بصديقا نبيا، أي: كان جامعا لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه تلك المخاطبات. والمراد بذكر الرسول إياه وقصته في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس ويبلغه إياهم، كقوله (واتل عليهم نبأ إبراهيم) وإلا فالله عز وجل هو ذاكره ومورده في تنزيله. التاء في ﴿يا أبت﴾ عوض من ياء الإضافة، ولا يقال يا أبتي، لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه. وقيل: يا أبتا، لكون الألف بدلا من الياء، وشبه ذلك سيبويه بأينق، وتعويض الياء فيه عن الواو الساقطة. انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع

(١) لم أجده هكذا. وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري مرفوعا «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح ـ الحديث، وفيه وكلهم قد رآه فيذبح. ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر) الآية وأخرجاه عن ابن عمر نحوه دون قراءة الآية. وفي الباب عن أبي هريرة عند ابن حبان والحاكم والنسائي. وأخرجه البخاري دون ذكر الذبح. وأخرجه أبو يعلى والبزار من حديث أنس. وفي آخره «فيأمن هؤلاء. وينقطع رجاء هؤلاء».

الذى عصا فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التميز، ومن الغباوة التى ليس بعدها غباوة: كيف رتب الكلام معه فى أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق [١]، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن، منتصحاً فى ذلك بنصيحة ربه عز وعلا، حدث أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: إنك خليلى، حسن خلقك ولو مع الكفار، تدخل مداخل الأبرار [٢]، فإن كلمتى سبقت لمن حسن خلقه: أظله تحت عرشى، وأسكنه حظيرة القدس، وأدنيه من جوارى. وذلك أنه طلب منه أولا العلة فى خطئه طلب منبه على تماديه، موقظ لإفراطه وتناهيه، لأن المعبود لو كان حياً مميزاً، سميعاً بصيراً، مقتدراً على الثواب والعقاب، نافعاً ضاراً، إلا أنه بعض الخلق: لاستخف عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية، ولسجل عليه بالغى المبين والظلم العظيم وإن كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة كالملائكة والنبيين. قال الله تعالى (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) وذلك أن العبادة هى غاية التعظيم، فلا تحق إلا لمن له غاية الإنعام: وهو الخالق الرازق، المحيى المميت، المثيب المعاقب، الذى منه أصول النعم وفروعها. فإذا وجهت إلى غيره ـ وتعالى علواً كبيراً أن تكون هذه الصفة لغيره ـ لم يكن إلا ظلماً وعتواً وغياً وكفراً وجحوداً، وخروجاً عن الصحيح النير إلى الفاسد المظلم، فما ظنك بمن وجه عبادته إلى جماد ليس به حس ولا شعور؟ فلا يسمع ـ ياعابده ـ ذكرك له وثناءك عليه، ولا يرى هيآت خضوعك وخشوعك له، فضلا أن يغنى عنك بأن تستدفعه بلاء فيدفعه، أو تسنح لك حاجة فيكفيكها. ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معى طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوى فلا تستنكف، وهب أنى وإياك فى مسير وعندى معرفة بالهداية دونك، فاتبعنى أنجك من أن تضل وتتيه. ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه: بأن الشيطان ـ الذى استعصى على ربك الرحمن الذى جميع ماعندك من النعم من عنده، وهو عدوك الذى لا يريد بك إلا كل هلاك وخزى ونكال وعدو أبيك آدم وأبناء جنسك كلهم ـ هو الذى ورطك فى هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك، فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان، إلا أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه فى الإخلاص ولارتقاء همته فى الربانية لم يذكر من جنايتى الشيطان

---

(١) قوله «فى أحسن اتساق وساقه أرشق» فى الصحاح «الاتساق» الانتظام. وفيه أيضاً «رجل رشيق» أى حسن القد لطيفه. (ع)

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط وابن عدى، والحكيم الترمذى فى النوادر من حديث أبى هريرة وفيه مؤمل ابن عبدالرحمن الثقفى عن أبى أمية بن يعلى الثقفى وهما ضعيفان

إلا التي تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذريته كأن النظر في عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره وأطبق على ذهنه. ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة وبما يجره [1] ما هو فيه من التبعة والوبال، ولم يخل ذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له وأن العذاب لاصق به، ولكنه قال: أخاف أن يمسك عذاب، فذكر الخوف والمس ونكر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب، وذلك أن رضوان الله أكبر من الثواب نفسه، وسماه الله تعالى المشهود له [2] بالفوز العظيم حيث قال (ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم) فكذلك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان الله، أكبر من العذاب نفسه وأعظم، وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله ﴿يا أبت﴾ توسلا إليه واستعطافا. فـ﴿ما﴾ في ﴿ما لا يسمع﴾ و﴿مالم يأتك﴾ يجوز أن تكون موصولة وموصوفة، والمفعول في (لا يسمع ولا يبصر) منسي غير منوى، كقولك: ليس به استماع ولا إبصار ﴿شيئاً﴾ يحتمل وجهين، أحدهما: أن يكون في موضع المصدر، أي: شيئاً من الغناء، ويجوز أن يقدر نحوه مع الفعلين السابقين. والثاني: أن يكون مفعولا به من قولهم: أغن عني وجهك ﴿إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾ فيه تجدد العلم عنده.

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾

لما أطلعه على سماجة صورة أمره، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات، أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد. فناداه باسمه، ولم يقابل (يا أبت) بيا بنىّ، وقدم الخبر على المبتدإ في قوله ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾ لأنه كان أهمّ عنده وهو عنده أعنى، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته، ما ينبغي أن يرغب عنها أحد. وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه ﴿لأرجمنك﴾ لأرمينك بلساني، يريد الشتم والذم، ومنه (الرجيم) المرمىّ باللعن. أو لأقتلنك، من رجم الزاني. أو لأطردنك رمياً بالحجارة. وأصل الرجم: الرمى بالرجام [3] ﴿مليا﴾ زمانا طويلا من الملاوة: أو ملياً بالذهاب عني

(١) قوله «وبما يجره» لعله وما يجره، فيكون عطفاً على سوء العاقبة. (ع)
(٢) قوله «وسماه الله تعالى المشهود له» لعله «مشهود له بأن رضوانه أكبر من الثواب» فليحرر. (ع)
(٣) قوله «وأصل الرجم الرمى بالرجام» أى الحجارة الضخام، كذا في الصحاح. (ع)

والهجران قبل أن أثخنك بالضرب ، حتى لا تقدر أن تبرح . يقال : فلان ملىّ بكذا ، إذا كان مطيقاً له مضطلعاً به . فإن قلت : علام عطف (واهجرنى) ؟ قلت : على معطوف عليه محذوف يدل عليه (لأرجمنك) أى فاحذرنى واهجرنى ، لأن (لأرجمنك) تهديد وتقريع .

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾

﴿قال سلام عليك﴾ سلام توديع ومتاركة ، كقوله تعالى (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) وقوله (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح والحال هذه . ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له . ألا ترى أنه وعده الاستغفار . فإن قلت : كيف جاز له أن يستغفر للكافر وأن يعده [1] ذلك ؟ قلت : قالوا أراد اشتراط التوبة عن الكفر ، كما ترد الأوامر والنواهى الشرعية على الكفار والمراد اشتراط الإيمان ، وكما يؤمر المحدث والفقير بالصلاة والزكاة ويراد اشتراط الوضوء والنصاب . وقالوا : إنما استغفر له بقوله (واغفر لأبى إنه كان من الضالين) لأنه وعده أن يؤمن . واستشهدوا عليه بقوله تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) ولقائل أن يقول : إنّ الذى منع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع ، فأمّا القضية العقلية فلا تأباه ، فيجوز أن يكون الوعد بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع ، بناء على قضية العقل ، والذى يدل على صحته قوله تعالى (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك) فلو كان شارطاً للإيمان لم يكن مستنكراً ومستثنى عما وجبت فيه الأسوة . وأمّا (عن موعدة وعدها إياه) فالواعد هو إبراهيم لا آزر ، أى : ما قال (واغفر لأبى) إلا عن قوله (لأستغفرنّ لك) وتشهد له قراءة حماد الراوية : وعدها أباه . والله أعلم ﴿حفيا﴾ الحفىّ : البليغ فى البر والإلطاف ، حفى به وتحفى به ﴿وأعتزلكم﴾ أراد بالاعتزال المهاجرة إلى الشام . المراد بالدعاء العبادة ، لأنه منها ومن وسائطها . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « الدعاء هو العبادة [2] » ويدل

(١) قال محمود : «إن قلت لم استغفر لأبيه وهو كافر ... الخ» قال أحمد : وهذه لمظ من الاعتزال ، مستطيرة من شرر شر قاعدة التحسين والتقبيح . والحق أن العقل لامدخل له فى أن يحكم بحكم الله تعالى قبل ورود الشرع به ، ثم لم يوف الزمخشرى بها ، فانه جعل العقل يسوغ الاستغفار ، وجعل الشرع مانعا منه ، ولا يتصور هذا على قاعدتهم المهدمة ، كما لا يتصور ورود الشرع بما يخالف العقل فى الالهيات ، نعم قد يحكم الشرع بما لا يظهر العقل عندهم خلافه . وأما ما يظهر العقل خلافه . فلا .

(٢) أخرجه أبو داود وبقية أصحاب السنن وابن حبان والحاكم من حديث النعمان بن بشير . وأخرجه أحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار والطبرانى وابن أبى حاتم والطبرى من حديثه وأخرجه ابن مردويه من حديث البراء بن عازب رضى الله عنهما .

عليه قوله تعالى (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) ويجوز أن يراد الدعاء الذى حكاه الله فى سورة الشعراء. عرّض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم فى قوله ﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقياً﴾ مع التواضع لله بكلمة (عسى) وما فيه من هضم النفس.

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

ما خسر على الله أحد ترك الكفار الفسقة لوجهه، فعوّضه أولادا مؤمنين أنبياء ﴿من رحمتنا﴾ هى النبوّة عن الحسن. وعن الكلبي: المال والولد، وتكون عامّة فى كل خير دينى ودنيوى أوتوه. لسان الصدق: الثناء الحسن. وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهى العطية. قال:

* إِنِّى أَتَتْنِى لِسَانٌ لَا أُسَرُّ بِهَا *(١)

يريد الرسالة. ولسان العرب: لغتهم وكلامهم. استجاب الله دعوته (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) فصيره قدوة حتى ادّعاه أهل الأديان كلهم. وقال عز وجل (ملة أبيكم إبراهيم) و(ملة إبراهيم حنيفا)، (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) وأعطى ذلك ذرّيته فأعلى ذكرهم وأثنى عليهم، كما أعلى ذكره وأثنى عليه.

وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا ﴿٥١﴾

المخلص ـ بالكسر ـ: الذى أخلص العبادة عن الشرك والرياء. أو أخلص نفسه وأسلم وجهه لله. وبالفتح: الذى أخلصه الله. الرسول: الذى معه كتاب من الأنبياء: والنبىّ: الذى ينبىء عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب، كيوشع.

وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾

(١) إنى أتتنى لسان لا أسر به ... من علو لا كذب فيه ولا سخر
جاشت النفس لما جاء فلهم ... وراكب جاء من تثليث معتمر

للأعشى الباهلى، لما جاء الناعى بقتل المنتشر أخيه. عبر باللسان عن الكلام مجازاً، لأنه آلته. وأنث الفعل لتأويل الفاعل بالكلمة أو الرسالة، وذكر فيما بعد نظراً للظاهر، من علو بالبناء على الفتح، أى: من أعلى نجد. والسخر: مصدر سخر كتعب. وجاشت القدر: غلت وارتفع ما فيها. والتجوز بالجيشان عن حرارة القلب مشهور والفل: الفئة. وتثليث: اسم موضع ممنوع من الصرف. وراكب: عطف على «فلهم»، و«معتمر» نعته، وجاء الثانى بدل.

الأيمن من اليمين : أى من ناحيته اليمنى . أو من اليمن صفة للطور ، أو للجانب . شبهه بمن قربه بعض العظماء المناجاة ، حيث كلمه بغير واسطة ملك . وعن أبى العالية قربه حتى سمع صريف القلم الذى كتبت به التوراة .

وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

﴿من رحمتنا﴾ من أجل رحمتنا له وترأفنا عليه : وهبنا له هرون . أو بعض رحمتنا ، كما فى قوله (ووهبنا لهم من رحمتنا) . و ﴿أخاه﴾ على هذا الوجه بدل . و﴿هرون﴾ عطف بيان ، كقولك : رأيت رجلا أخاك زيداً . وكان هرون أكبر من موسى ، فوقعت الهبة على معاضدته وموازرته كذا عن ابن عباس رضى الله عنه .

وَاذْكُرْ فِى الْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

ذكر إسمعيل عليه السلام بصدق الوعد وإن كان ذلك موجوداً فى غيره من الأنبياء ، تشريفاً له وإكراما ، كالتلقيب بنحو : الحليم ، والأوّاه ، والصدّيق ؛ ولأنه المشهور المتواصف من خصاله . عن ابن عباس رضى الله عنه : أنه وعد صاحباً له أن ينتظره فى مكان ، فانتظره سنة . وناهيك أنه وعد فى نفسه الصبر على الذبح فوفى ، حيث قال (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) كان يبدأ بأهله فى الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم ، ولأنهم أولى من سائر الناس (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، (وأمر أهلك بالصلاة) ، (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) ألا ترى أنهم أحق بالتصدّق عليهم ؛ فالإحسان الدينى أولى . وقيل ﴿أهله﴾ أمته كلهم من القرابة وغيرهم ؛ لأنّ أمم النبيين فى عداد أهاليهم . وفيه أنّ من حق الصالح أن لا يألو نصحاً للأجانب فضلا عن الأقارب والمتصلين به ، وأن يحظيهم بالفوائد الدينية ولا يفرط فى شىء من ذلك .

وَاذْكُرْ فِى الْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

قيل : سمى إدريس لكثرة دراسته كتاب الله عزّ وجل ، وكان اسمه أخنوخ ، وهو غير صحيح ؛ لأنه لو كان أفعيلا من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية ، فكان منصرفا ؛ فامتناعه من الصرف دليل العجمة . وكذلك إبليس أعجمي ، وليس من الإبلاس كما يزعمون ،

ولا يعقوب من العقب ، ولا إسرائيل بإسرال كما زعم ابن السكيت ، ومن لم يحقق ولم يتدرب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات . ويجوز أن يكون معنى ﴿إدريس﴾ فى تلك اللغة قريباً من ذلك ، فحسبه الراوى مشتقا من الدرس . المكان العلى : شرف النبوة والزلفى عند الله وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ، وهو أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب ، وأول من خاط الثياب ولبسها ، وكانوا يلبسون الجلود . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه يرفعه إنه رفع إلى السماء الرابعة (١) . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إلى السماء السادسة (٢) . وعن الحسن رضى الله عنه . إلى الجنة لاشىء أعلى من الجنة . وعن النابغة الجعدى : أنه لما أنشد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعر الذى آخره :

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاؤُنَا ... وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوقَ ذَٰلِكَ مَظْهَرَا (٣)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلى أين يا أبا ليلى » قال : إلى الجنة . (٤)

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ

---

(١) أخرجه الترمذى من رواية شيبان عن قتادة عن أنس بهذا . وقال هو عندى مختصر من حديث الاسراء الذى رواه سعيد وهمام عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة .

(٢) أخرجه الطبرى وابن مردويه من رواية عطية عنه .

(٣)
ولاخير فى حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولاخير فى جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ماأورد الأمر أصدرا
بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

للنابغة الجعدى ، أنشده أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إلى أين ياأبا ليلى ؟ قال : إلى الجنة بك يارسول الله ، فقال : لايفضض الله فاك . فعمر فوق مائتى عام ، وكان إذا سقطت له سن نبت بدلها . والحلم : الأناة والعقل .. والبادرة : الكلمة تصدر حال الغضب . وشبه الحلم بالماء على طريق المكنية . والصفاء والتكدير : تخييل . والمراد بالجهل : عجلة الاقدام على عظائم الأمور . والايراد جعل الشىء وارداً . والاصدار : جعله صادراً . والمراد تسبب فى وجوده وإعظامه وفى تحقيره وإعدامه . ويحتمل أنه شبه الأمر المعضل بحيوان يورده صاحبه إلى الماء تارة ويرجعه أخرى ، على طريق المكنية ، والايراد والاصدار تخييل . ويجوز أن فاعل أورد ضمير الجهل ، وفاعل أصدر ضمير الحليم ، أى : إذا تسبب الجهل والشجاعة فى أمر خطأ أرجعه الحليم وأبطله ، فلا بد من اجتماع الحلم والجراءة معاً حتى يكمل الرجل . ومجدنا وسناؤنا بالرفع بدلا من فاعل بلغنا . وقيل : هما مفعولان فهما بالنصب . وانظر ماوجهه ، ولعله أنهما ظرفان اعتباريان ، أى : بلغنا السماء فى المجد والسناء . أو بدلان من السماء ، بأن شبههما بها ، ثم أطلقها عليهما وأبدلها منها ، وهو أوجه من الظرفية . ولو قيل على النصب : أنهما تمييزان ، كان وجيها ، لكنه على رأى الكوفيين القائلين بجوازه معرفة ، ولما ادعى بلوغ السماء بنى عليه مايبنى على المحسوس فقال : وإنا لنرجو مظهرا فوق ذلك .

(٤) أخرجه البزار وأبو نعيم والبيهقى فى الدلائل لها من طريق يعلى بن الأشرف عنه وله طريق أخرى عند البيهقى وذكر القصيدة .

نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَاءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين فى السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام. و «من» فى ﴿من النبيين﴾ للبيان مثلها فى قوله تعالى فى آخر سورة الفتح (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة) لأن جميع الأنبياء منعم عليهم. ومن الثانية للتبعيض، وكان إدريس من ذرية آدم لقربه منه لأنه جد أبى نوح. وإبراهيم عليه السلام من ذرية من حمل مع نوح: لأنه من ذرية سام بن نوح، وإسمعيل من ذرية إبراهيم. وموسى وهرون وزكريا ويحيى من ذرية إسرائيل. وكذلك عيسى: لأن مريم من ذريته ﴿وممن هدينا﴾ يحتمل العطف على من الأولى والثانية. إن جعلت الذين خبرا لأولئك كان ﴿إذا تتلى﴾ كلاما مستأنفاً. وإن جعلته صفة له كان خبراً. قرأ شبل بن عباد المكى: يتلى، بالتذكير؛ لأن التأنيث غير حقيق مع وجود الفاصل. البكى: جمع باك، كالسجود والقعود فى جمع ساجد وقاعد. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»[1]، وعن صالح المرى رضى الله عنه: قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى: «هذه القراءة يا صالح، فأين البكاء»؟ وعن ابن عباس رضى الله عنهما: إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا. فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن القرآن أنزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا»[2]» وقالوا: يدعو فى سجدة التلاوة بما يليق بآيتها، فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال: اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك. وإن قرأ سجدة سبحان قال: اللهم اجعلنى من الباكين إليك الخاشعين لك. وإن قرأ هذه قال: اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم المهتدين، الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾

---

(١) أخرجه إسحاق والبزار من طريق عبدالرحمن بن أبى مليكة عن ابن أبى مليكة عن عبدالرحمن بن السائب عن سعيد بلفظ «إن هذا القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فابكوا فان لم تبكوا فتباكوا ـ الحديث» ومن هذا الوجه أخرجه أبو يعلى والحارث. والبيهقى فى الشعب. وإسماعيل أيضا لين.

(٢) أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس بلفظ «فاقرؤه بحزن» وإسناده ضعيف. ورواه أبو يعلى والعقيلى. وأبو نعيم فى ترجمة رباح بن عمرو العبسى من حديث أبى بريدة عن أبيه بلفظ «اقرءوا القرآن بحزن فانه نزل بحزن».

خلفه : إذا عقبه ، ثم قيل فى عقب الخير « خلف » بالفتح ، وفى عقب السوء : خلف ، بالسكون ، كما قالوا « وعد » فى ضمان الخير ، و « وعيد » فى ضمان الشر . عن ابن عباس رضى الله عنه : هم اليهود ، تركوا الصلاة المفروضة ، وشربوا الخمر ، واستحلوا نكاح الأخت من الأب . وعن إبراهيم ومجاهد رضى الله عنهما : أضاعوها بالتأخير . وينصر الأول قوله (إلا من تاب وآمن) يعنى الكفار . وعن على رضى الله عنه فى قوله (واتبعوا الشهوات) من بنى الشديد ، وركب المنظور ، ولبس المشهور . وعن قتادة رضى الله عنه : هو فى هذه الأمة . وقرأ ابن مسعود والحسن والضحاك رضى الله عنهم : الصلوات ، بالجمع .

كل شر عند العرب : غىّ ، وكل خير : رشاد . قال المرقش :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَ لَا يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لَائِمَا (١)

وعن الزجاج : جزاء غىّ ، كقوله تعالى (يلق أثاما) أى مجازاة أثام . أو غياً عن طريق الجنة . وقيل « غىّ » واد فى جهنم تستعيذ منه أوديتها . وقرأ الأخفش (يلقون) .

إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾

قرئ : يدخلون ، ويدخلون : أى لاينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم ولا يمنعونه ، بل يضاعف لهم ، بياناً لأن تقدّم الكفر لايضرهم إذا تابوا من ذلك ، من قولك : ماظلمك أن تفعل كذا ، بمعنى : مامنعك . أو لايظلمون البتة ، أى شيئاً من الظلم .

جَنَّٰتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾

لما كانت الجنة مشتملة على جنات عدن أبدلت منها ، كقولك : أبصرت دارك القاعة والعلالى . و « عدن » معرفة علم ، بمعنى العدن وهو الإقامة ، كما جعلوا . فينة ، وسحر ، وأمس

(١) أمن حلم أصبحت تنكت واجما وقد تعترى الأحلام من كان نائما
فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لايعدم على الغى لائما

للمرقش الأصغر صاحب فاطمة بنت المنذر ، والأكبر عم الأصغر وعم طرفة ، وهو صاحب أسماء . والاستفهام للتوبيخ ، والحلم ـ بضمتين ـ : مايراه النائم . والنكت : التخطيط والنقر فى الأرض بأصبع ، أوعود ، كما يفعل المهموم المتفكر . والواجم : الحزين ، والواو للحال ، أى : والحال أن أضغاث الأحلام قد تعترى النائم ، فكان مجردة عن المعنى ، فمن يلق : أى يصادف خيراً فى أفعاله ، يحمد الناس فعله ، أوشأنه . وإيقاع الحمد عليه لأنه سببه ، ومن يفعل غيا لايعدم لائما يلومه على غيه . وقيل : أرادبالخير الغنى ، وبالغي : الفقر ، ويبعده مقام اللوم وعدم مناسبته لما قبله . وغوى يغوي : من باب ضرب : انهمك في الجهل ، وعدم يعدم ـ من باب علم ـ : فقده .

ـ فيمن لم يصرفه ـ أعلاما لمعانى : الفينة،[١] والسحر، والأمس، فجرى مجرى العدن لذلك . أو هو علم لأرض الجنة ؛ لكونها- مكان إقامة ، ولو لا ذلك لما ساغ الإبدال ؛ لأن النكرة لاتبدل من المعرفة إلا موصوفة ، ولما ساغ وصفها بالتى . وقرئ : جنات عدن . وجنة عدن بالرفع على الابتداء . أى : وعدها وهى غائبة عنهم غير حاضرة . أو هم غائبون عنها لايشاهدونها . أو بتصديق الغيب والإيمان به . قيل فى ﴿ مأتيا ﴾ مفعول بمعنى فاعل . والوجه أنّ الوعد هو الجنة وهم يأتونها . أو هو من قولك : أتى إليه إحساناً ، أى : كان وعده مفعولا منجزاً .

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾

اللغو : فضول الكلام ومالا طائل تحته . وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه ، حيث نزه الله عنه الدار التى لا تكليف فيها . وما أحسن قوله سبحانه (وإذا مروا باللغو مروا كراما) (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا . أى : إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغوا ، فلا يسمعون لغوا إلا ذلك ، فهو من وادى قوله :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ[٢]

أو لا يسمعون فيها إلا قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة ، على الاستثناء المنقطع[٣] . أو لأن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة[٤] . ودار السلام : هى دار السلامة ، وأهلها عن الدعاء بالسلامة أغنياء ، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث ، لو لا ما فيه من فائدة الإكرام .

---

(١) قوله « لمعانى الفينة » فى الصحاح « لقيته الفينة بعد الفينة » أى الحين بعد الحين . وإن شئت حذفت الألف واللام فقلت : لقيته فينة ، كما قالو لقيته الندرى : وفى ندرى . (ع)

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بصفحة ١٤٢ من الجزء الثانى فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٣) قال محمود : « يجوز أن يكون من قوله :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وأن يكون استثناء منقطعا » قال أحمد : والفرق بين الوجهين أنه جعل الفلول عيبا على سبيل التجوز ، بتاً لنفى العيب بالكلية ، كأنه يقول : إن كان فلول السيوف من القراع عيبا فانهم ذوو عيب ، معناه : وإن لم يكن عيبا فليس فيهم عيب البتة ؛ لأنه لاشىء سوى هذا ، فهو بعد هذا التجوز والفرض استثناء متصل .

(٤) عاد كلامه . قال : «ويجوز أن يكون متصلا على أن يكون السلام هو الدعاء بالسلامة ... الخ» قال أحمد : وهذا يجعله من المتصل على أصل الحقيقة ، لا كالأول الناشئ عن المجاز . وفى هذا الباب بعد ؛ لأنه يقتضى البت بأن الجنة يسمع فيها لغو وفضول ، وحاش لله ، فلا غول فيها ولا لغو .

من الناس من يأكل الوجبة (١) . ومنهم من يأكل متى وجد - وهى عادة المنهومين . ومنهم من يتغدى ويتعشى - وهى العادة الوسطى المحمودة ، ولا يكون ثم ليل ولا نهار ، ولكن على التقدير ؛ ولأن المتنعم عند العرب من وجد غداء وعشاء . وقيل : أراد دوام الرزق ودروره ، كما تقول : أنا عند فلان صباحا ومساء وبكرة وعشيا ، يريد : الديمومة ، ولا تقصد الوقتين المعلومين .

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣)

﴿نورث﴾ وقرئ : نورّث ، استعارة ، أى : نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث مال المورّث ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية وهى الجنة ، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورّث الوارث المال من المتوفى . وقيل : أورثوا من الجنة المساكن التى كانت لأهل النار لو أطاعوا .

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)

﴿وما نتنزل﴾ حكاية قول جبريل صلوات الله عليه حين استبطأه رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى أنه احتبس أربعين يوما . وقيل : خمسة عشر يوما ، وذلك حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ، فلم يدر كيف يجيب ورجا أن يوحى إليه فيه ، فشق ذلك عليه مشقة شديدة وقال المشركون : ودّعه ربه وقلاه فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبى صلى الله عليه وسلم : أبطأت حتى ساء ظنى واشتقت إليك . قال : إنى كنت أشوق ولكنى عبد مأمور ، إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست . وأنزل الله سبحانه هذه الآية وسورة الضحى (٢) . والتنزل على معنيين : معنى النزول على مهل ، ومعنى النزول على الإطلاق ، كقوله :

---

(١) قوله «من الناس من يأكل الوجبة» أى يأكل كل يوم وليلة مرة ، وقد وجب نفسه توجيبا إذا عودها ذلك ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) ذكره الثعلبى عن عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبى . فقالوا . احتبس ، فذكره سواء ، وكأنه ملفق عندهم ، فقد ذكره ابن إسحاق فى السيرة . قال حدثنى شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس «أن قريشا جاؤا فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول - فذكر القصة - وفيها ، فمكث نبيا يذكرون خمسة عشرة ليلة لا يحدث الله إليه فى ذلك وصار لا يأتيه جبريل . فذكره بتغير وزيادة ونقص . ورواه أبو نعيم فى الدلائل من طريقه ومن طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس نحوه . وقال أبطأ عنه خمسة عشر يوما لترك الاستثناء .

فَلَسْتَ لِإِنْسِيٍّ وَلَـٰكِنْ لِمَلْأَكٍ تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ (١)

لأنه مطاوع نزل، ونزل يكون بمعنى أنزل، وبمعنى التدريج، واللائق بهذا الموضع هو النزول على مهل والمراد أن نزولنا فى الأحايين وقتا غب وقت ليس إلا بأمر الله، وعلى ما يراه صوابا وحكمة. وله ماقدامنا ﴿وما خلفنا﴾ من الجهات والاماكن ﴿وما بين ذلك﴾ وما نحن فيها فلا نتمالك أن ننتقل من جهة إلى جهة ومكان إلى مكان إلا بأمر المليك ومشيئته، وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون، وما يحدث ويتجدد من الأحوال. لايجوز عليه الغفلة والنسيان. فأنى لنا أن نتقلب فى ملكوته إلا إذا رأى ذلك مصلحة وحكمة، وأطلق لنا الإذن فيه. وقيل: ماسلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة، وما بين ذلك: ما بين النفختين وهو أربعون سنة. وقيل: مامضى من أعمارنا وما غبر منها، والحال التى نحن فيها. وقيل: ماقبل وجودنا وما بعد فنائنا. وقيل: الأرض التى بين أيدينا إذا نزلنا، والسماء التى وراءنا، وما بين السماء والأرض. والمعنى: أنه المحيط بكل شىء لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة، فكيف نقدم على فعل نحدثه إلا صادراً عما توجبه حكمته ويأمرنا به ويأذن لنا فيه. وقيل معنى ﴿وما كان ربك نسيا﴾ وما كان تاركا لك، كقوله تعالى (ماودّعك ربك وما قلى) أى: ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به. وأما احتباس الوحى فلم يكن عن ترك الله لك وتوديعه إياك، ولكن لتوقفه على المصلحة. وقيل: هى حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة، أى: وما نتنزل الجنة إلا بأن من الله علينا بثواب أعمالنا وأمرنا بدخولها، وهو المالك لرقاب الأمور كلها السالفة

---

(١) تعاليت أن تعزى إلى الانس جلة ... وللانس من يعزوك فهو كذوب
فلست بإنسى ولكن ملأكا ... تنزل من جو السماء يصوب

لرجل من عبدالقيس، يمدح النعمان بن المنذر. وقيل لأبى وجرة يمدح عبدالله بن الزبير. وتعزى: أى تنسب، والجلة - بالضم -: وعاء التمر، وبالكسر: الجماعة العظيمة، جمع جليل، وبالفتح: البعرة، وهو تمييز محول من نائب عن الفاعل، أى: تعاليت عن أن ينسب وعاءك أى: أصلك إلى الانس. وقوله: وللانس من يعزوك، فيه تقديم معمول الصلة على الموصول. والمشهور منعه: لأنهم يتوسعون فى الظروف، وزيدت الفاء فى خبر الموصول لأنه يشبه الشرط، ولو جعل شرطا لكان فيه إثبات حرف العلة بعد الجازم للضرورة. والملأك مفعل، بتقديم العين من الألوكة بالفتح وهى الرسالة، وقال أبو عبيدة: هو مفعل على اسم المكان، من لأك إذ أرسل، ولعله جاء على مفعل لتصوير أن الرسول مكان الرسالة. وقال ابن كيسان: هو فعأل من الملك، فالهمزة زائدة، وعلى كل يخفف بالنقل فيقال فيه تلك. والصوب: القصد أو الميل عند النزول، ونصب ملأكا لأنه اسم لكن، وما بعده صفته، أى: ولكن ملأكا نازلا من السماء أنت. وفيه: أن المحدث عنه الممدوح لا الملك، ويمكن أنه قلب للمبالغة كما قالوه فى التشبيه المقلوب. ويحتمل أن تقديره: ولكنك كنت ملأكا، وفيه بعد. والأوجه رواية الصحاح:

• فلست لانسى ولكن لملأك • أى: فلست منسوبا لانسى ولكن للملك، وبالغ فى ذلك حتى جعله نازلا من جهة السماء، يصوب: أى يقصد إلى جهة.

والمترقبة والحاضرة، اللاطف فى أعمال الخير والموفق لها والمجازى عليها، ثم قال الله تعالى ـ تقريراً لقولهم ـ : وما كان ربك نسياً لأعمال العاملين غافلا عما يجب أن يثابوا به، وكيف يجوز النسيان والغفلة على ذى ملكوت السماء والأرض وما بينهما؟ ثم قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: فحين عرفته على هذه الصفة، فأقبل على العمل واعبده: يثبك كما أثاب غيرك من المتقين. وقرأ الأعرج رضى الله عنه: وما يتنزل، بالياء على الحكاية عن جبريل عليه السلام والضمير للوحى. وعن ابن مسعود رضى الله عنه: إلا بقول ربك. يجب أن يكون الخلاف فى النسى مثله فى البغى.

رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

﴿رب السموات والأرض﴾ بدل من ربك، ويجوز أن يكون خبر مبتدإ محذوف، أى هو رب السموات والأرض ﴿فاعبده﴾ كقوله:

* وَقَائِلَةٍ خَوْلَانُ فَانْكِحْ فَتَاتَهُمْ * (١)

وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون (وما كان ربك نسيا) من كلام المتقين. وما بعده من كلام رب العزة. فإن قلت: هلا عدى ﴿اصطبر﴾ بعلى التى هى صلته، كقوله تعالى (واصطبر عليها)؟ قلت: لأن العبادة جعلت بمنزلة القرن فى قولك للمحارب: اصطبر لقرنك، أى اثبت له فيما يورد عليك من شدانه أريد أن العبادة تورد عليك شدائد ومشاق، فاثبت لها ولا تهن، ولا يضق صدرك عن إلقاء عداتك من أهل الكتاب إليك الأغاليط، وعن احتباس الوحى عليك مدة وشماتة المشركين بك. أى: لم يسم شىء بالله قط، وكانوا يقولون لأصنامهم: آلهة، والعزى إله وأما الذى عوض فيه الألف واللام من الهمزة، فمخصوص به المعبود الحق غير مشارك فيه.

---

(١) وقائلة خولان فانكح فتاتهم ... وأكرومة الحيين خلو كما هيا

شاعره مجهول. أى: ورب قائلة. وخولان بالفتح اسم قبيلة باليمن، وهو مبتدأ خبره مابعده، والفاء زائدة فيه على رأى الأخفش والفراء، ومنع سيبويه زيادتها هنا؛ لأن المبتدأ لم يشبه الشرط، فخبره محذوف، أى: خولان كرام فانكح أى تزوج فتاتهم، أوهو خبر لمحذوف، أى: هؤلاء خولان المعروفون بالكرم، فتزوج بفتاتهم. وبنى دأ كرومة، من الكرم للدلالة على كثرة الكرم، كما أن أعجوبة من التعجب للدلالة على كثرته، والجملة حالية، فيحتمل أنها مانعة من نكاح الفتاة، أى قالت لى ذلك، والحال أن أكرومة الحيين أى كريمة حى أبى وحى أى خلو بالضم: خالية من الأزواج كما كانت، فهى أولى من الفتاة بالزواج لقرابتها منى. ويحتمل أنها داعية إليه، فالمعنى: قالت لى ذلك والحال أن الفتاة التى هى أكرومة الحيين، أى حى أبيها وحى أمها من خولان، على ماهى عليه من البكارة، أومن الخلو من الأزواج لم تتزوج أحدا قبلى، فهى حقيقة بأن أتزوجها لكرم طرفيها، فعلم أن الكاف بمعنى على. ويجوز أن يشبه حالها الآن بحالها فيما مضى. فالكاف على أصلها. ويحتمل أن الواو للعطف، أى: قالت ذلك، وقالت: إنها خالية لم يطمثها أحد قبلك، فهى حقيقة بالزواج لذلك، لكنه بعيد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : لا يسمى أحد الرحمن غيره . ووجه آخر : هل تعلم من سمى باسمه على الحق دون الباطل ، لأن التسمية على الباطل فى كونها غير معتد بها كلا تسمية . وقيل : مثلا وشبيها ، أى : إذا صح أن لا معبود يوجه إليه العباد العبادة إلا هو وحده ، لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها وتكاليفها .

وَيَقُولُ الْإِنْسَٰنُ أَءِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧)

يحتمل أن يراد بالإنسان الجنس بأسره ، وأن يراد بعض الجنس وهم الكفرة . فإن قلت : لم جازت إرادة الأناسى كلهم ، وكلهم غير قائلين ذلك ؟ قلت : لما كانت هذه المقالة موجودة فيمن هو من جنسهم ، صح إسناده إلى جميعهم ، كما يقولون : بنو فلان قتلوا فلانا ، وإنما القاتل رجل منهم . قال الفرزدق :

فَسَيْفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ نَبَا بِيَدَيْ وَرْقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ [1]

فقد أسند الضرب إلى بنى عبس مع قوله « نبا بيدى ورقاء » ، وهو ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسى. فإن قلت : بم انتصب ﴿ إذا ﴾ وانتصابه بأخرج ممتنع لأجل اللام ، لا تقول : اليوم لزيد قائم؟ قلت: بفعل مضمر يدل عليه المذكور . فإن قلت : لام الابتداء الداخلة على المضارع تعطى معنى الحال، فكيف جامعت حرف الاستقبال ؟ [2] قلت : لم تجامعها إلا مخلصة للتوكيد كما أخلصت الهمزة فى يا ألله للتعويض واضمحل عنها معنى التعريف . و « ما » فى ﴿ إذا ما ﴾ للتوكيد أيضا ، فكأنهم قالوا : أحقاً أنا سنخرج أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك ؟ على وجه الاستنكار والاستبعاد . والمراد الخروج من الأرض ، أو من حال الفناء . أو هو من قولهم : خرج فلان عالما ، وخرج

---

(١) للفرزدق وهذا لقبه ، واسمه همام أوهميم ، يريد : ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسى ، أمره سليمان بن عبد الملك بضرب أعناق بعض أسرى الروم ، وأعطاه سيفا لا يقطع فقال : بل أضربهم بسيف أبى رغوان مجاشع ، يعنى نفسه ، فضرب عنق خالد فانحرف السيف وارتفع عن المضرب ، فضحكوا منه . ونسب السيف والضرب إلى بنى عبس مع أنهما لواحد منهم ، تعظيما لها وتفخيما . وجعله فى اليدين إشارة إلى أنه كان بجمعا أمره وحازما عزمه غير متهاون . . والمعنى : أن الحذر لا ينفع من القدر كما وقع لورقاء ، مع أنه فى غاية الحرص ، لا سيما أمام الملك . ويجوز أنه يريد ذم بنى عبس .

(٢) قال محمود : «إن قلت كيف اجتمعت اللام وهى للحال مع حرف الاستقبال ... الخ» قال أحمد : ولاعتقاد تناقض الحرفين : منع الكوفيين اجتماعهما ، وإنما جردت اللام من معناها لتلائم «سوف» دون أن تجرد سوف لتلائم اللام ، لأنه لو عكس هذا للغت سوف ، إذ لا معنى لها سوى الاستقبال . وأما اللام إذا جردت من الحال بقى لها التوكيد ، فلم تلغ ، فتعين ، والله أعلم .

شجاعا : إذا كان نادراً فى ذلك ، يريد : سأخرج حياً نادراً على سبيل الهزؤ . وقرأ الحسن وأبو حيوة : لسوف أخرج . وعن طلحة بن مصرف رضى الله عنه : لسأخرج ، كقراءة ابن مسعود رضى الله عنه : ولسيعطيك ، وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة ، ومنه جاء إنكارهم ، فهو كقولك للمسىء إلى المحسن : أحين تمت عليك نعمة فلان أسأت إليه : الواو عطفت ﴿لا يذكر﴾ على (يقول) ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف . يعنى : أيقول ذاك ولا يتذكر حال النشأة الاولى حتى لا ينكر الأخرى[1] فإن تلك أعجب وأغرب وأدل على قدرة الخالق ، حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود ، ثم أوقع التأليف مشحونا بضروب الحكم التى تحار الفطن فيها ، من غير حذو على مثال واقتداء بمؤلف . ولكن اختراعا وإبداعا من عند قادر جلت قدرته ودقت حكمته . وأما الثانية فقد تقدمت نظيرتها وعادت لها كالمثال المحتذى عليه . وليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة الباقية وتركيبها ، وردها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفكيك والتفريق . وقوله تعالى ﴿ولم يك شيئا﴾ دليل على هذا المعنى ، وكذلك قوله تعالى (وهو أهون عليه) على أن رب العزة سواء عليه النشأتان ، لا يتفاوت فى قدرته الصعب والسهل . ولا يحتاج إلى احتذاء على مثال ؛ ولا استعانة بحكيم ، ولا نظر فى مقياس ، ولكن يواجه جاحد البعث بذلك دفعا فى بحر معاندته ، وكشفاً عن صفحة جهله . القراء كلهم على (لا يذكر) بالتشديد إلا نافعاً وابن عامر

(١) قال محمود : «ذكر الله الانسان النشأة الأولى ليعترف بالأخرى ... الخ» قال أحمد : مذهب أهل السنة أن إعادة المعدوم جائزة عقلا ، ثم واقعة نقلا . والمعتزلة وإن وافقت على ذلك ، إلا أنها تزعم أن المعدوم له ذات ثابتة فى العدم ، يقضى عليها بأنها شىء فليس عندهم عدم صرف ونفى محض قبل الوجود ولا بعده ، فكأنهم لولا ذلك لقالوا بقول الفلاسفة الذين هم مختصرهم ، ولأنكروا إعادة المعدوم كما أنكره القدماء . وعقيدة أهل السنة هى المطابقة للآية ؛ لأن النشأة الأولى لم يتقدمها وجود ، ولأن المنشأ ابتداء لم يكن شيئاً قبل ذلك . وأما النشأة الثانية فقد تقدمها وجود ، وكان المنشأ قبلها شيئاً فى زمان وجوده ، ثم عدم وبطلت شيئيته ، فظهر فرق ما بين النشأتين كما نطق به القرآن . وأما المعتزلة فان قالوا : إن الأجسام يعدمها الله ثم يوجدها ، فقد قالوا الحق ، لكن لا يتم على أصلهم فرق بين النشأتين ؛ لأن المعدوم فيهما كان شيئاً قبل النشأة ، فان قالوا لا تنعدم الأجسام ، وإنما تتفرق ثم تجمع كما صرح به الزمخشرى ؛ لأنه تفطن لأن القول بأن الأجسام تنعدم ثم يوجدها الله تعالى مع القول بأن المعدوم شىء — يبطل الفرق بين النشأتين ولم يطق ذلك ، وقد نطق به القرآن فالتزم أن الأجسام لا تنعدم ليتم له الفرق بين النشأة الثانية — وإنما هى على هذا التقرير جمع وتأليف لموجود — وبين النشأة الأولى التى هى إيجاد معدوم ، فتنبه لبعد غوره ، ولكن هرب من القطر فوقع تحت الميزاب ، فهو والحالة هذه كالمستغيث من الرمضاء بالنار ، والله ولى التوفيق . ومعنى تفريق الله تعالى بين النشأتين : أن الجاحد متهافت لأنه اعترف بالأولى وهى أصعب بالنسبة إلى قياس العقل ، وأنكر الثانية وهى أسهل وأهون ؛ لأن ذلك راجع إلى قدرته تعالى . فان الكل لدى قدرة الله تعالى هين على سواء .

وعاصما رضى الله عنهم ، فقد خففوا . وفى حرف أبىّ : يتذكر ﴿من قبل﴾ من قبل الحالة التى هو فيها وهى حالة بقائه .

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

فى إقسام الله تعالى باسمه تقدست أسماؤه مضافا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : تفخيم لشأن رسول الله ورفع منه ، كما رفع من شأن السماء والأرض فى قوله تعالى (فورب السماء والأرض إنه لحق) والواو فى ﴿والشياطين﴾ يجوز أن تكون للعطف ، وبمعنى مع ، وهى بمعنى مع أوقع . والمعنى : أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم ، يقرن كل كافر مع شيطان فى سلسلة . فإن قلت : هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة ، فإن أريد الأناسى على العموم [1] فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين؟ قلت : إذا حشر جميع الناس حشراً واحداً وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة . فإن قلت : هلا عزل السعداء عن الأشقياء فى الحشر كما عزلوا عنهم فى الجزاء ؟ قلت : لم يفرق بينهم وبينهم فى المحشر ، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم ، وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التى نجاهم الله منها وخلصهم ، فيزدادوا لذلك غبطة إلى غبطة وسروراً إلى سرور ، ويشمتوا بأعداء الله وأعدائهم ، فتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم . فإن قلت : مامعنى إحضارهم جثيا ؟ قلت : أما إذا فسر الإنسان بالخصوص ، فالمعنى أنهم يقبلون من المحشر إلى شاطئ جهنم عتلا [2] على حالهم التى كانوا عليها فى الموقف ، جثاة على ركبهم ، غير مشاة على أقدامهم ، وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو . قال الله تعالى (وترى كل أمة جاثية) على العادة المعهودة فى مواقف المقاولات والمناقلات ، من تجاثى أهلها على الركب ، لما فى ذلك من الاستيفاز والقلق وإطلاق الحبا وخلاف الطمأنينة . أو لما يدهمهم من شدة الأمر التى

---

(١) عاد كلامه . قال : «والإنسان يحتمل أن يراد به العموم ... الخ» قال أحمد : التبست عليه إرادة العموم بتناول العموم وبينهما بون ، ومن ثم خلت عبارته هذه عن التحرز والصون ، فصرح بأن الله تعالى أراد بالانسان العموم ، ومعنى إرادة العموم : أن يريد الله تعالى نسبة كلمة الشك والكفر إلى كل فرد من أفراد الانسان ، ومعاذ الله . وقد صرح الزمخشرى بأن الناطق بكلمة الشك بعض الجنس ، ففى العبارة خلل كما ترى . والعبارة الصحيحة أن يقال : يحتمل أن يكون التعريف جنسيا ، فيكون عهديا ، فيكون اللفظ من أول وهلة خاصا ، والله أعلم .

(٢) قوله «عتلا» العتل : الجذب العنيف . أفاده الصحاح . (ع)

لايطيقون معها القيام على أرجلهم ، فيحبون على ركبهم حبواً . وإن فسر بالعموم ، فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم ، على أن جثيا حال مقدرة كما كانوا فى الموقف متجاثين ؛ لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التوصل إلى الثواب والعقاب . والمراد بالشيعة ـ وهى « فعلة » كفرقة وفتية ـ الطائفة التى شاعت [1] ، أى تبعت غاويا من الغواة . قال الله تعالى (إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً) يريد : نمتاز من كل طائفة من طوائف الغىّ والفساد أعصاهم فأعصاهم ، وأعتاهم فأعتاهم . فإذا اجتمعوا طرحناهم فى النار على الترتيب . نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم . أو أراد بالذين هم أولى به صليا : المنتزعين كما هم ، كأنه قال : ثم لنحن أعلم بتصلية هؤلاء ، وهم أولى بالصلى من بين سائر الصالين ، ودركاتهم أسفل ، وعذابهم أشدّ . ويجوز أن يريد بأشدهم عتياً : رؤساء الشيع وأئمتهم ، لتضاعف جرمهم بكونهم ضلالا ومضلين . قال الله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) ، (وليحملنّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) واختلف فى إعراب ﴿أيهم أشد﴾ فعن الخليل أنه مرتفع على الحكاية . تقديره : لننزعنّ الذين يقال فيهم أيهم أشد ، وسيبويه على أنه مبنى على الضم لسقوط صدر الجملة التى هى صلته ، حتى لو جيء به لأعرب . وقيل : أيهم هو أشد . ويجوز أن يكون النزع واقعاً على (من كل شيعة) ، كقوله سبحانه (ووهبنا لهم من رحمتنا) أى لننزعن بعض كل شيعة ، فكأنّ قائلا قال : من هم ؟ فقيل : أيهم أشد عتياً . وأيهم أشد : بالنصب عن طلحة ابن مصرف وعن معاذ بن مسلم الهراء أستاذ الفراء . فإن قلت : بم يتعلق على والباء ، فإنّ تعلقهما بالمصدرين لاسبيل إليه ؟ قلت : هما للبيان لا الصلة . أو يتعلقان بأفعل ، أى : عتوهم أشد على الرحمن ، وصليهم أولى بالنار ، كقولهم : هو أشد على خصمه ، وهو أولى بكذا .

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

﴿وإن منكم﴾ التفات إلى الإنسان ، يعضده قراءة ابن عباس وعكرمة رضى الله عنهما : وإن منهم . أو خطاب للناس [2] من غير التفات إلى المذكور ، فإن أريد الجنس كله فمعنى الورود دخولهم فيها وهى جامدة ، فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم . عن ابن عباس رضى الله

---

(١) قوله « شاعت » فى الصحاح : شاعه شياعا : تبعه . (ع)

(٢) قال محمود : « يحتمل أن يكون استئنافا خطابا للناس ، ويحتمل أن يكون التفاتا » قال أحمد : احتمال الالتفات مفرع على إرادة العموم من الأول ، فيكون المخاطبون أولا هم المخاطبين ثانيا ؛ إلا أن الخطاب الأول بلفظ الغيبة ، والثانى بلفظ الحضور . وأما إذا بنينا على أن الأول إنما أريد منه خصوص على التقديرين جميعاً ، فالثاني ليس التفاتا ، وإنما هو عدول إلى خطاب العامة عن خطاب خاص لقوم معينين ، والله أعلم .

عنه : يردونها كأنها إهالة . وروى دواية[١] . وعن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؟ فقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض : أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار ، فيقال لهم : قد وردتموها وهى جامدة[٢] . وعنه رضى الله عنه أنه سئل عن هذه الآية ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الورود الدخول ، لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين برداً وسلاما كما كانت على إبراهيم ، حتى إنّ للنار ضجيجا من بردها»[٣] وأما قوله تعالى (أولئك عنها مبعدون) فالمراد عن عذابها . وعن ابن مسعود والحسن وقتادة : هو الجواز على الصراط ؛ لأنّ الصراط ممدود عليها . وعن ابن عباس : قد يرد الشيء الشيء ولا يدخله ، كقوله تعالى (ولما ورد ماء مدين) ووردت القافلة البلد ، وإن لم تدخله ولكن قربت منه . وعن مجاهد : ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده فى الدنيا ، لقوله عليه السلام «الحمى من فيح جهنم»[٤] وفى الحديث «الحمى حظ كل مؤمن من النار»[٥] ويجوز أن يراد بالورود : جثوهم حولها . وإن أريد الكفار خاصة ، فالمعنى بين .

الحتم : مصدر حتم الأمر إذا أوجبه ، فسمى به الموجب ، كقولهم : خلق الله ، وضرب الأمير ، أى : كان ورودهم واجبا على الله ، أوجبه على نفسه وقضى به ، وعزم على أن لا يكون غيره . قرئ ﴿ ننجى ﴾ وننجى ، وينجى وينجى . على ما لم يسم فاعله . إن أريد الجنس بأسره فهو

---

(١) قوله «كأنها إهالة وروى دواية» فى الصحاح «الاهالة» الودك . وفيه أيضا «الدواية» الجليدة التى يوضع فيها اللبن والمرق . (ع)

(٢) روى عن جابر هكذا . قلت المحفوظ عن جابر ماسيأتى بعد . وروى ابن إسحاق وأبو عبيد فى الغريب وابن المبارك فى الزهد من طريق ومعه خالد بن معدان . قال «إذا جاز المؤمنون الصراط نادى بعضهم بعضا : ألم يعدنا ربنا، فذكره ، ولم يذكره الواحدى والبغوى إلا من هذا الوجه .

(٣) رواه أحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد . قالوا حدثنا سليمان بن حرب وأخرجه أبو يعلى والنسائى فى الكنى والبيهقى فى الشعب فى باب النار ، والحكيم فى النوادر . السادس عشر ، كلهم من طريق سليمان . قال حدثنا أبو صالح غالب بن سليمان عن كثير بن زياد عن أبى سمية قال «اختلفنا فى الورود ، فسألنا جابرا فذكر الحديث أتم منه» وخالفهم كلهم الحاكم فرواه من طريق سليمان بهذا الاسناد فقال : عن سمية الأزدية عن عبدالرحمن بن شيبة بدل أبى سمية ـ عن جابر .

(٤) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٥) أخرجه البزار عن عائشة بهذا . وقال : تفرد برفعه عثمان بن مخلد عن هشيم بن مغيرة عن إبراهيم عن الأسود عنها . وقال الدارقطنى : عثمان لا بأس به ، لكن خولف فى رفع هذا الحديث فرواه بـدل عن هشيم موقوفا . قلت : وقد روى مرفوعا من وجه آخر . أخرجه القضاعى من مسند الشهاب من طريق أحمد بن رشد الهلالى عن حميد بن عبدالرحمن الروالى عن الحسن بن صالح عن الحسن بن عمرو عن إبراهيم به . وزاد «وحمى ليلة تكفر خطايا سنة» فى الباب عن أبى هريرة عن ابن ماجه والحاكم ، وعن أبى ريحانة عند الطبرانى ، وعن أبى أمامة عند أحمد . وعن عثمان عند العقيلى وعن سعد بن معاذ عند ابن سعد فى الطبقات وعن أنس عند الطبرانى بالأوسط . وكلها ضعيفة وهى بمعناه لا بلفظه .

ظاهر، وإن أريد الكفرة وحدهم فمعنى (ثم ننجى) ﴿الذين اتقوا﴾ أنّ المتقين يساقون إلى الجنة عقيب ورود الكفار، لأنهم يواردونهم ثم يتخلصون. وفى قراءة ابن مسعود وابن عباس والجحدرى وابن أبى ليلى: ثم ننجى، بفتح الثاء، أى هناك. وقوله ﴿ونذر الظالمين فيها جثيا﴾ دليل على أنّ المراد بالورود الجثو حواليها، وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة بعد تجاثيهم، وتبقى الكفرة فى مكانهم جاثين.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾

﴿بينات﴾ مرتلات الألفاظ، ملخصات المعانى، مبينات المقاصد: إما محكمات أو متشابهات، قد تبعها البيان بالمحكمات. أو بتبيين الرسول قولا أو فعلا. أو ظاهرات الإعجاز تحدّى بها فلم يقدر على معارضتها. أو حججاً وبراهين. والوجه أن تكون حالا مؤكدة كقوله تعالى (وهو الحق مصدقا) لأن آيات الله لا تكون إلا واضحة وحججا ﴿للذين آمنوا﴾ يحتمل أنهم يناطقون المؤمنون بذلك ويواجهونهم به، وأنهم يفوهون به لأجلهم وفى معناهم، كقوله تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه). قرأ ابن كثير ﴿مقاما﴾ بالضم وهو موضع الإقامة والمنزل، والباقون بالفتح وهو موضع القيام، والمراد المكان والموضع. والندىّ: المجلس ومجتمع القوم، وحيث ينتدون[1]. والمعنى: أنهم إذا سمعوا الآيات وهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم، قالوا: أىّ الفريقين من المؤمنين بالآيات والجاحدين لها أوفر حظاً من الدنيا حتى يجعل ذلك عيارا على الفضل والنقص، والرفعة والضعة. ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة، ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله منهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾

﴿كم﴾ مفعول ﴿أهلكنا﴾ و﴿من﴾ تبيين لإبهامها، أى: كثيرا من القرون أهلكنا. وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم. و﴿هم أحسن﴾ فى محل النصب صفة لكم. ألا ترى أنك لو تركت (هم) لم يكن لك بدّ من نصب (أحسن) على الوصفية.

الأثاث: متاع البيت. وقيل: هو ما جد من الفرش. والخرثى: ما ليس منها. وأنشد الحسن بن على الطوسى:

---

(١) قوله «حيث ينتدون» فى الصحاح «ندوت» أى حضرت الندى. وانتديت: مثله. (ع)

تَقَادَمَ الْعَهْدُ مِنْ أُمِّ الْوَلِيدِ بِنَا   دَهْرًا وَصَارَ أَثَاثُ الْبَيْتِ خُرْثِيَّا (١)

قرئ على خمسة أوجه ﴿رئيا﴾ وهو المنظر والهيئة فعل بمعنى مفعول ، من رأيت . وريئا ، على القلب كقولهم راء فى رأى . وريا . على قلب الهمزة ياء والإدغام ، أو من الرى الذى هو النعمة والترفه ، من قولهم : ريان من النعيم . وريا ، على حذف الهمزة رأسا ، ووجهه أن يخفف المقلوب وهو « ريئا » بحذف همزته وإلقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها . وزيا ، واشتقاقه من الزى وهو الجمع : لأن الزى محاسن مجموعة ، والمعنى : أحسن من هؤلاء .

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾

أى مدّ له الرحمن ، يعنى : أمهله وأملى له فى العمر ، فأخرج على لفظ الأمر إيذانا بوجوب ذلك ، وأنه مفعول لامحالة ، كالمأمور به الممتثل ، لتقطع معاذير الضال ، ويقال له يوم القيامة (أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر) أو كقوله تعالى (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) أو (من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) فى معنى الدعاء بأن يمهله الله وينفس فى مدة حياته . فى هذه الآية وجهان . أحدهما : أن تكون متصلة بالآية التى هى رابعتها ، والآيتان اعتراض بينهما ، أى قالوا : أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴿حتى إذا رأوا مايوعدون﴾ أى لايبرحون يقولون هذا القول ويتولعون به لايتكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعود رأى عين ﴿إما العذاب﴾ فى الدنيا وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبهم إياهم قتلا وأسرا وإظهار الله دينه على الدين كله على أيديهم . وإما يوم القيامة وما ينالهم من الخزى والنكال ، فحينئذ يعلمون عند المعاينة أن الأمر على عكس ماقدروه ، وأنهم شر مكاناً وأضعف جندا ، لاخير مقاما وأحسن نديا ، وأن المؤمنين على خلاف صفتهم . والثانى : أن تتصل بما يليها . والمعنى : أن الذين فى الضلالة ممدود لهم فى ضلالتهم . والخذلان لاصق بهم لعلم الله بهم ، وبأن الألطاف لاتنفع فيهم وليسوا من أهلها . والمراد بالضلالة : مادعاهم من جهلهم وغلوهم فى كفرهم إلى القول الذى قالوه . ولا ينفكون عن ضلالتهم إلى أن يعاينوا نصرة الله المؤمنين أو يشاهدوا الساعة ومقدّماتها . فإن قلت : حتى هذه ماهى ؟ قلت : هى التى تحكى بعدها الجمل . ألا ترى الجملة

(١) أثاث البيت : أمتعته ولوازمه : والخرثى كالكرسى : العتيق من ذلك ، يقول : تقادم وتطاول بنا اللقاء من أم الوليد ، أى : تباعد زمنه . فدهرا : تميز . ويجوز أنه ظرف ، أى : تباعد عهد اللقاء من محبوبتى زمنا طويلا وصار متاع البيت عتيقا قديما . وفيه تحسر على عدم اللقاء .

الشرطية واقعة بعدها وهي قوله (إذا رأوا مايوعدون) ﴿فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جندا﴾ فى مقابلة (خير مقاما وأحسن نديا) لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم . والندىّ : المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم وأنصارهم . والجند : هم الأنصار والأعوان .

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾

﴿ويزيد﴾ معطوف على موضع فليمدد ؛ لأنه واقع موقع الخبر ، تقديره : من كان فى الضلالة مدّ أو يمدّ له الرحمن . ويزيد : أي يزيد فى ضلال الضال بخذلانه ، ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه ﴿والباقيات الصالحات﴾ أعمال الآخرة كلها . وقيل : الصلوات . وقيل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، أي هي ﴿خير ثواباً﴾ من مفاخرات الكفار ﴿وخير مردا﴾ أي مرجعا وعاقبة ، أو منفعة ، من قولهم : ليس لهذا الأمر مردّ :

* وَهَلْ يَرُدُّ بُكَاىَ زَنْدَا * (١)

فإن قلت : كيف قيل خير ثوابا كأنّ لمفاخراتهم ثواباً ، حتى يجعل ثواب الصالحات خيرا منه ؟ قلت : كأنه قيل : ثوابهم النار . على طريقة قوله : * فَأَعْتَبُوا بِالصَّيْلَمِ * (٢)

وقوله : شَجْعَاءَ جِرَّتُهَا الذَّمِيلُ تَلُوكُهُ أُصُلًا إِذَا رَاحَ الْمُطِيُّ غِرَاثَا (٣)

وقوله : * تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ * (٤)

ثم نى عليه خير ثوابا . وفيه ضرب من التهكم الذى هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له : عقابك النار . فإن قلت : فما وجه التفضيل فى الخير كأنّ لمفاخرهم شركا فيه ؟ قلت : هذا من وجيز كلامهم ، يقولون : الصيف أحرّ من الشتاء ، أى : أبلغ من الشتاء فى برده .

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٥٢٥ فراجعه إن شئت اﻫ مصححه

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٠٥ فراجعه إن شئت اﻫ مصححه

(٣) الشجع : سرعة نقل القوائم . والشجعاء : السريعة السير . والجرة ـ بالكسر ـ : مايجتره البعير من كرشه بمضغه . والذميل : نوع من السير . واللوك : المضغ . والأصل : جمع أصيل ، وهو من العصر للغروب . والرواح : من الظهر إليه . والغراث : الجياع . يصف ناقته بسرعة السير ، وشبه السير عندها بجرتها ، بجامع سرعة الحركة وانطباع الناقة واستلذاذها لكل . وجعلها تبرزه شيئاً فشيئا كالجرة للمبالغة . وفيه دلالة على خلو بطنها من العلف إذا راح ، أى : إذا كان غيرها لا يجد قوة على السير ، فالغرث : استعارة . ويجوز أن المعنى أنها سريعة فى السير ولو كانت جائعة كغيرها من المطايا ، فالغرث حقيقته .

(٤) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٦٠ فراجعه إن شئت اﻫ مصححه

أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

لما كانت مشاهدة الأشياء ورؤيتها طريقاً إلى الإحاطة بها علما وصحة الخبر عنها، استعملوا «أرأيت» فى معنى «أخبر»، والفاء جاءت لإفادة معناها الذى هو التعقيب، كأنه قال: أخبر أيضاً بقصة هذا الكافر، واذكر حديثه عقيب حديث أولئك ﴿أطلع الغيب﴾ من قولهم: أطلع الجبل: إذا ارتقى إلى أعلاه وطلع [1] الثنية. قال جرير:

* لَاقَيْتُ مُطَّلَعَ الْجِبَالِ وُعُورَا * [2]

ويقولون: مرّ مطلعاً لذلك الأمر، أى عالياً له مالكا له، ولاختيار هذه الكلمة شأن، يقول: أو قد بلغ من عظمة شأنه أن ارتقى إلى علم الغيب الذى توحد به الواحد القهار. والمعنى: أن ما ادعى أن يؤتاه وتألى عليه لا يتوصل إليه إلا بأحد هذين الطريقين: إما علم الغيب، وإما عهد من عالم الغيب، فبأيهما توصل إلى ذلك؟ قرأ حمزة والكسائى: ولدا، وهو جمع ولد، كأسد فى أسد. أو بمعنى الولد كالعرب فى العرب. وعن يحيى بن يعمر: ولدا، بالكسر. وقيل فى العهد: كلمة الشهادة. وعن قتادة: هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول؟ وعن الكلبى: هل عهد الله إليه أنه يؤتيه ذلك؟ عن الحسن رحمه الله: نزلت فى الوليد بن المغيرة، والمشهور أنها فى العاصى بن وائل. قال خباب بن الأرت: كان لى عليه دين فاقتضيته، فقال: لا والله حتى تكفر بمحمد. قلت: لا والله لا أكفر بمحمد حياً ولا ميتاً ولا حين تبعث. قال: فإنى إذا مت بعثت؟ قلت: نعم. قال: إذا بعثت جئتنى وسيكون لى ثم مال وولد فأعطيك [3]. وقيل:

---

(١) قوله «وطلع الثنية» فى الصحاح «طلعت الجبل» بالكسر: علوته. (ع)

(٢) إنى إذا مضر علىّ تحدثت لاقيت مطلع الجبال وعورا

لجرير. ومضر: اسم قبيلة صرف للضرورة. ومطلع ـ بتشديد الطاء ـ: اسم مكان على صورة المفعول، من اطلع المشدد، وأصله: اطتلع، بتاء الافتعال، قلبت طاء وأدغمت فيها ما قبلها، وهو نصب على الظرفية. والوعور: جمع وعر، أى: صعب مفعول لاقيت، أو المفعول هو مطلع. ووعوراً: حال، لاسيما على رواية فتح واوه على أنه صيغة مبالغة، يقول: إذا تقولت على مضر ما لا أرتضيه، أو تكلمت فى قتلى، وجدت فى مطالع الجبال أشياء صعابا فأعجز عن الهرب. أو المعنى: أنه يقتحم الصعاب ولا يبالى بها ويهرب منهم. وعلى الحالية: لاقيت مطلع الجبال حال كونه أماكن صعبة، والمطلع متعدد لاضافته لمتعدد، وعلى فتح الواو فظاهر.

(٣) متفق عليه من طريق مسروق عن خباب أتم منه.

صاغ له خباب حلياً فاقتضاه الأجر ، فقال : إنكم تزعمون أنكم تبعثون ، وأن فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا ، فأنا أقضيك ثم ، فإنى أوتى مالا وولداً حينئذ ﴿ كلا ﴾ ردع وتنبيه على الخطأ أى : هو مخطئ فيما يصوره لنفسه ويتمناه فليرتدع عنه . فإن قلت : كيف قيل ﴿ سنكتب ﴾ بسين التسويف ، وهو كما قاله كتب من غير تأخير ، قال الله تعالى (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله ، على طريقة قوله :

* إِذَا مَا ٱنْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِى لَئِيمَةٌ * (١)

أى تبين وعلم بالانتساب أنى لست بابن لئيمة . والثانى : أن المتوعد يقول للجانى : سوف أنتقم منك ، يعنى أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به الزمان واستأخر ، فجرد ههنا لمعنى الوعيد ﴿ ونمد له من العذاب مدا ﴾ أى نطول له من العذاب ما يستأهله ونعذبه بالنوع الذى يعذب به الكفار المستهزؤن . أو نزيده من العذاب ونضاعف له من المدد . يقال : مده وأمده بمعنى ، وتدل عليه قراءة علىّ بن أبى طالب : ونمد له بالضم . وأكد ذلك بالمصدر ، وذلك من فرط غضب الله ، نعوذ به من التعرض لما نستوجب به غضبه ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ أى نزوى عنه مازعم أنه يناله فى الآخرة ونعطيه من يستحقه . والمعنى مسمى ما يقول . ومعنى (ما يقول) وهو المال والولد . يقول الرجل : أنا أملك كذا ، فتقول له : ولى فوق ما تقول ، ويحتمل أنه قد تمنى وطمع أن يؤتيه الله فى الدنيا مالا وولدا ، وبلغت به أشعبيته (٢) أن تألى على ذلك فى قوله (لأوتين) لأنه جواب قسم مضمر ، ومن يتأل على الله يكذبه ، فيقول الله عز وجل هب أنا أعطيناه ما اشتهاه ، إما نرثه منه فى العاقبة ويأتينا فردا غداً بلا مال ولا ولد ، كقوله عز وجل (ولقد جئتمونا فرادى ... الآية) فما يجدى عليه تمنيه وتأليه . ويحتمل أن هذا القول

---

(١) رمتنى عن قوس العدو وباعدت عبيدة زاد الله ما بيننا بعدا
اذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة ولم تجدى من أن تقرى بها بدا

لزائد بن صعصعة الفقعسى ، كانت له امرأة اسمها عبيدة فطمحت عليه وكانت أمها سرية ، فعرض لها بذلك ، يقول : رمتنى بأمر قبيح كأنه نبلة صادرة عن قوس العدو ، أو أبعدتنى عنها بعد النبلة عن القوس : أى تسببت فى ذلك وبالغت فى بعد الرمى ، و «زاد الله» جملة دعائية ، ثم قال : إذا أظهرنا نسبنا يتبين أنى لم تلدنى لئيمة بخلافك ، ولم تجدى مفرا ولا غنى من إقرارك بتلك القضية . ويجوز أن المعنى : أنه لابد من إقرارك بأمك اللئيمة ، وعلم مرجع الضمير من ذكر المقابلة وهو أمه ، وهذا أدق فى التبكيت . ويروى : به ، أى : بذلك النسب . وفى الالتفات من الغيبة إلى الخطاب نوع من التشنيع والتوبيخ ، كأنه عجب الناس أولا من حالها ، ثم التفت يبكتها بلؤم أمها وأنها رقيقة .

(٢) قوله «أشعبيته» فى الصحاح «أشعب» اسم رجل كان طماعا . وفى المثل : أطمع من أشعب اه . ومنه : أخذت الأشعبية ، بمعنى : خصلة أشعب ، وهى الطمع . (ع)

إنما يقوله مادام حيا ، فإذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله ، ويأتينا رافضاً له منفردا عنه غير قائل له ، أولا ننسى قوله هذا ولا نلغيه . بل نثبته فى صحيفته لنضرب به وجهه فى الموقف ونعيره به ﴿ويأتينا﴾ على فقره ومسكنته ﴿فردا﴾ من المال والولد ، لم نوله سؤله ولم نؤته متمناه ، فيجتمع عليه الخطبان : تبعة قوله ووباله ، وفقد المطموع فيه . فردا على الوجه الأول : حال مقدرة نحو (فادخلوها خالدين) لأنه وغيره سواء فى إتيانه فردا حين يأتى ، ثم يتفاوتون بعد ذلك .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

أى ليتعززوا بآلهتهم حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصارا ينقذونهم من العذاب ﴿كلا﴾ ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة . وقرأ ابن نهيك (كلا) ﴿سيكفرون بعبادتهم﴾ أى سيجحدون كلا سيكفرون بعبادتهم ، كقولك : زيدا مررت بغلامه . وفى محتسب ابن جنى : كلا بفتح الكاف والتنوين ، وزعم أن معناه كل هذا الرأى والاعتقاد كلا . ولقائل أن يقول : إن صحت هذه الرواية فهى كلا التى هى للردع ، قلب الواقف عليها ألفها نونا كما فى قواريرا . والضمير فى (سيكفرون) للآلهة ، أى : سيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون : والله ماعبدتمونا وأنتم كاذبون . قال الله تعالى (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) أو للمشركين : أى ينكرون لسوء العاقبة أن يكونوا قد عبدوها . قال الله تعالى : (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) ﴿عليهم ضدا﴾ فى مقابلة (لهم عزا) والمراد ضدّ العز وهو الذل والهوان ، أى : يكونون عليهم ضدا لما قصدوه وأرادوه ، كأنه قيل : ويكونون عليهم ذلا ، لالهم عزا أو يكونون عليهم عونا ، والضدّ : العون . يقال من أضدادكم : أى أعوانكم وكأن العون سمى ضداً لأنه يضاد عدوك وينافيه بإعانته لك عليه . فإن قلت : لم وحد ؟ قلت : وحد توحيده قوله عليه السلام : « وهم يد على من سواهم[1] » لاتفاق كلمتهم وأنهم كشىء واحد لفرط تضامهم وتوافقهم ومعنى كون الآلهة عونا عليهم : أنهم وقود النار وحصب جهنم ، ولأنهم عذبوا بسبب عبادتها

(١) هذا طرف من حديث لعلى رضى الله عنه ، أخرجه أبو داود والنسائى وأحمد وإسحاق والحاكم من طريق قيس بن عباد عن على رضى الله عنه وأنه أخرج من قراب سيفه كتابا عهد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا فيه - وذكره . وفيه هذا» وروى ابن ماجه من حديث ابن عباس رفعه قال «المسلمون تتكافأ دماؤهم . وهم يد على من سواهم - الحديث» وفى الباب عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، أخرجه أبو داود وابن ماجه وأحمد والبزار والطبرانى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده نحوه ، وعن عبدالله بن عمر ، أخرجه ابن حبان . وعن معقل ابن يسار أخرجه ابن ماجه .

وإن رجعت الواو فى سيكفرون ويكونون إلى المشركين ، فإن المعنى : ويكونون عليهم ـ أى أعداءهم ـ ضدا ، أى : كفرة بهم ، بعد أن كانوا يعبدونها .

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣)

الأز ، والهز ، والاستفزاز : أخوات ، ومعناها التهييج وشدة الإزعاج ، أى : تغريهم على المعاصى وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات . والمعنى : خلينا بينهم وبينهم (١) ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم قسرا . والمراد تعجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الآيات التى ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار ، وأقاويلهم ، وملاحتهم ، ومعاندتهم للرسل ، واستهزاؤهم بالدين : من تماديهم فى الغىّ وإفراطهم فى العناد ، وتصميمهم على الكفر ، واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشكّ عنه ، وإنهما كهم لذلك فى اتباع الشياطين وما تسوّل لهم ،

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)

عجلت عليه بكذا : إذا استعجلته منه ، أى : لا تعجل عليهم بأن يهلكوا ويبيدوا ، حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم ، وتطهر الأرض بقطع دابرهم ، فليس بينك وبين ماتطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة ، كأنها فى سرعة تقضيها الساعة التى تعد فيها لو عدت . ونحوه قوله تعالى (ولا تستعجل لهم) ، (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) وعن ابن عباس رضى الله عنه : أنه كان إذا قرأها بكى وقال : آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخول قبرك . وعن ابن السماك أنه كان عند المأمون فقرأها ، فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفد .

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥)

نصب ﴿يوم﴾ بمضمر ، أى يوم ﴿نحشر﴾ ونسوق : نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف . أو اذكر يوم نحشر . ويجوز أن ينتصب بلا يملكون . ذكر المتقون بلفظ التبجيل ، وهو أنهم يجمعون إلى ربهم الذى غمرهم برحمته وخصهم برضوانه وكرامته . كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين للكرامة عندهم . وعن علىّ رضى الله عنه : ما يحشرون والله على أرجلهم ، ولكنهم على نوق رحالها ذهب ، وعلى نجائب سروجها ياقوت (٢) .

---

(١) قوله «والمعنى خلينا بينهم وبينهم» هذا هو الموافق لمذهب المعتزلة . من أنه تعالى لايفعل الشر . أما على مذهب أهل السنة من أنه تعالى يفعل الشر كالخير ، فالمناسب : سلطناهم عليهم . (ع)

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة وعبدالله بن أحمد فى زيادات المسند ، والطبرى وابن أبى حاتم من رواية عبدالرحمن =

وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾

وذكر الكافرون بأنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء . والورود : العطاش لأنّ من يرد الماء لايرده إلا لعطش وحقيقة الورد : المسير إلى الماء ، قال :

رِدِي رِدِي وِرْدَ قَطَاةٍ صَمَّا كُدْرِيَّةٍ أَعْجَبَهَا بَرْدُ الْمَا[1]

فسمي به الواردون . وقرأ الحسن : يحشر المتقون ، ويساق المجرمون .

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

الواو في ﴿لايملكون﴾ إن جعل ضميرا[2] فهو للعباد ، ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين لأنهم على هذه القسمة . ويجوز أن تكون علامة للجمع ، كالتي في « أكلوني البراغيث » والفاعل (من اتخذ) لأنه في معنى الجمع ، ومحل (من اتخذ) رفع على البدل ، أو على الفاعلية . ويجوز أن ينتصب على تقدير حذف المضاف ، أي : إلا شفاعة من اتخذ . والمراد : لا يملكون أن يشفع لهم ، واتخاذ العهد : الاستظهار بالإيمان والعمل . وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ذات يوم : « أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا » قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : « يقول كل صباح ومساء : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً

--- ابن إسحاق بن النعمان بن سعد بن علي نحوه ، وأخرجه ابن أبي داود في كتاب البعث من هذا الوجه مرفوعا . ورواه ابن عدي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا أيضا .

(١) يخاطب ناقته . وردي : أمر من الورود ، وتكريره للتوكيد . والورد : اسم مصدر منه أيضا ، أو اسم للماء المورود ، أي : ردي الماء كورود قطاة صماء لا تسمع صوت القانص فلا تنفر عن الماء : والكدر - بالضم - نوع من القطا رمادي اللون . والكدرية : نسبة إليه ، من نسبة الجزئي إلى كليه ، وهذه الياء هي الفارقة بين اسم الجنس وواحده ، كروم وروي . وفيه تشبيه ناقته ضمنا بالقطاة في الخفة والسرعة . وصما والما : بالقصر ، فان رويا بالمد والسكون على أن الشعر من مشطور المنسرح الموقوف ، فمحله حرف الألف .

(٢) قال محمود : « يحتمل أن تكون الواو في لايملكون ضميرا ... الخ » قال أحمد : وفي هذا الوجه تعسف من حيث أنه إذا جعله علامة لمن فقد كشف معناها وأفصح بأنها متناولة جمعا ، ثم أعاد على لفظها بالافراد ضمير اتخذ ، ففيه الاعادة على لفظها بعد الاعادة على معناها بما يخالف ذلك ، وهو مستنكر عندهم لأنه إجمال بعد إيضاح ، وذلك تعكيس في طريق البلاغة ، وإنما محجتها الواضحة الايضاح بعد الاجمال . والواو على إعرابه ، وإن لم تكن عائدة على من إلا أنها كاشفة لمعناها كشف الضمير العائد له ، فتنبه لهذا العقد ، فانه أروج من النقد :

« وفي عنق الحسناء يستحسن العقد »

عبدك ورسولك ، وأنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير ، وأني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد . فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذين لهم عند الرحمن عهد ، فيدخلون الجنة »[1] وقيل : كلمة الشهادة . أو يكون من « عهد الأمير إلى فلان بكذا » إذا أمره به ، أى لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها . وتعضده مواضع في التنزيل (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) ، (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) ، (ويومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾

قرئ ﴿ إدًّا ﴾ بالكسر والفتح . قال ابن خالويه : الإدّ والأدّ : العجب . وقيل : العظيم المنكر . والإدّة : الشدة . وأدني الأمر وآدني : أثقلني وعظم عليّ إدّا ﴿ يكاد ﴾ قراءة الكسائي ونافع بالياء . وقرئ ﴿ ينفطرن ﴾[2] الانفطار من فطره إذا شقه . والتفطر ، من فطره إذا شققه وكرر الفعل فيه . وقرأ ابن مسعود : ينصدعن : أى تهد هدّا . أو مهدودة ، أو مفعول له ، أى : لأنها تهد . فإن قلت : مامعنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال ؟ ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن الله سبحانه يقول : كدت أفعل هذا بالسموات والأرض[3] والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من

---

(١) أخرجه الثعلبي قال : روى أبووائل عن عبدالله بن مسعود ـ فذكره بتمامه ، وروى ابن مردويه في تفسير الأحزاب من طريق عوف بن عبدالله عن رجل من بني سليم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « العهد أن تقول : اللهم فاطر السموات والأرض ـ الحديث أصغر مما ذكر، ورواه الحاكم من وجه آخر عن عون عن ابن فاجة عن الأسود عن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية (إلا من اتخذ عند الله عهدا) قال الله تعالى يقول يوم القيامة : من كان له عندي عهد فليقم ، قال فقلنا : فعلمنا ياأبا عبدالرحمن قال : فاقرؤا : اللهم فاطر السموات والأرض ـ فذكره مختصرا ، وفي الباب عن أبي بكر رضي الله عنه ، أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر في السادس والسبعين بعد المائة .

(٢) قوله « وقرئ ينفطرن » يفيد أن القراءة المشهورة « يتفطرن » بالتاء . (ع)

(٣) قال محمود : « معناه : كدت أهد السموات وأفطر الأرض ... الخ » قال أحمد : ويظهر لي وراءها معنى آخر والله أعلم ، وذلك أن الله تعالى قد استعار لدلالتها على وجوده عز وجل موصوفا بصفات الكمال الواجبة له ، أن جعلها تسبح بحمده . قال تعالى (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده) ومما دلت عليه السموات والأرض والجبال بل وكل ذرة من ذراتها ؛ أن الله تعالى مقدس عن نسبة الولد إليه : =

تفوه بها، لولا حلمى ووقارى، وأنى لا أعجل بالعقوبة كما قال (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا). والثانى: أن يكون استعظاما للكلمة، وتهويلا من فظاعتها، وتصويرا لأثرها فى الدين وهدمها لأركانه وقواعده، وأن مثال ذلك الأثر فى المحسوسات: أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التى هى قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخر. وفى قوله (لقد جئتم) وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة، وهو الذى يسمى الالتفات فى علم البلاغة زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله، والتعرض لسخطه، وتنبيه على عظم ماقالوا. فى ﴿أن دعوا﴾ ثلاثة أوجه: أن يكون مجرورا بدلا من الهاء فى منه، كقوله:

عَلَى حَالَةٍ لَوْ أَنَّ فِي الْقَوْمِ حَاتِمًا ... عَلَى جُودِهِ لَضَنَّ بِالْمَاءِ حَاتِمُ (1)

ومنصوبا بتقدير سقوط اللام وإفضاء الفعل، أى: هذا لأن دعوا. علل الخرور بالهدّ. والهدّ بدعاء الولد للرحمن. ومرفوعا بأنه فاعل هدّا، أى هدها دعاء الولد للرحمن. وفى اختصاص الرحمن وتكريره مرات من الفائدة أنه هو الرحمن وحده، لا يستحق هذا الاسم غيره، من قبل أنّ أصول النعم وفروعها منه: خلق العالمين، وخلق لهم جميع ما معهم، كما قال بعضهم: فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فأنت وجميع ما عندك عطاؤه. فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن. هو من دعا بمعنى سمى المتعدى إلى مفعولين، فاقتصر على أحدهما الذى هو الثانى، طلباً للعموم والإحاطة بكل ما دعى له ولداً. أو من دعا بمعنى نسب، الذى مطاوعه ما فى قوله عليه السلام «من ادعى إلى غير مواليه (2)»، وقول الشاعر:

* إنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لَانَدَّعِي لِأَبٍ * (3) ... أى لا ننتسب إليه.

= وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

فالمعتقد نسبة الولد إلى الله تعالى قد عطل دلالة هذه الموجودات على تنزيه الله وتقديسه، فاستعير لابطال مافيها من روح الدلالة التى خلقت لأجلها، إبطال صورها بالهد والانفطار والانشقاق، فسبحان من قسم عباده، فجعل العباد، تستلذ فتسبح بتسبيح داود، يكاد ينهد لمقاله من هو عن باب التوفيق مطرود مردود.

(1) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤٣٨ فراجعه إن شئت اه مصححه.

(2) لم أره بلفظ «من ادعي» وإنما هو عند مسلم بلفظ «انتمى» أخرجه من حديث على بن أبى طالب رفعه «من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه - الحديث»

(3) إنا بنى نهشل لا ندعى لأب ... عنه ولا هو بالأبناء يشرينا
يكفيه إن نحن متنا أن يسر بنا ... وهو إذا ذكر الآباء يكفينا

لبشامة بن حزن النهشلى، ويقال: ادعى فلان فى بنى هاشم ولهم وإليهم، أى: انتسب إليهم وادعى عنهم إذا انتسب لغيرهم. وعدل عنهم يقول: إنا لا ننتسب لأب غير نهشل، وبنى نهشل: نصب على الاختصاص يفيد المدح ولاهو يشرينا، أى يبيعنا ويستبدلنا بأبناء غيرنا، ثم قال: يكفيه منا سروره بنا إن متنا ولحقناه، حيث أوجبنا له =

وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾

انبغى : مطاوع « بغى » إذا طلب ، أى : ما يتأتى له اتخاذ الولد وما ينطلب لو طلب مثلا ، لأنه محال غير داخل تحت الصحة . أما الولادة المعروفة فلا مقال فى استحالتها . وأما التبنى فلا يكون إلا فيما هو من جنس المتبنى ، وليس للقديم سبحانه جنس ، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

﴿ من ﴾ موصوفة لأنها وقعت بعد كل نكرة ، وقوعها بعد رب فى قوله :

* رُبَّ مَنْ أَنْضَجْتُ غَيْظًا صَدْرَهُ * (١)

وقرأ ابن مسعود وأبو حيوة ﴿ آتٍ الرحمنَ ﴾ على أصله قبل الإضافة . الإحصاء الحصر والضبط يعنى : حصرهم بعلمه وأحاط بهم ﴿ وعدّهم عدّاً ﴾ الذين اعتقدوا فى الملائكة وعيسى وعزير

—— ولنا الثناء الجميل من شجاعتنا وحسن خصالنا . و « إن » بمعنى « إذا » لأن الموت لاشك فيه . ويروى « أن يسب » بياء ، ولعل معناه : لامسبة له غير موتنا فى القتال ، يعنى : إن كان ذلك مسبة وليس كذلك ، ويمكن أن تعبيره بالكفاية ليفيد أنه مستغن عن المدح من جهة أبنائه عند التفاخر . وعند عد مآثر الآباء لا يحتاج لغيره ، فتنتسب له لنشرف بشرفه .

(١)
رب من أنضجت غيظا قلبه قد تمنى لى موتا لم يطع
ويرانى كالشجا فى حلقه عسرا مخرجه ماينتزع
لم يضرنى غير أن يحسدنى فهو يزقو مثل ما يزقو الضوع
ويحيينى إذا لاقيته وإذا يخلو له لحمى رتع

لسويد بن أبى كاهل اليشكرى ، ويتعين أن « من » نكرة موصوفة ، لأن رب لاتجر إلا النكرة ، ونضج اللحم والعنب ونحوهما نضجا فهو نضيج وناضج : أدرك وبلغ أوانه واستوى ، أى : رب شخص طبخت قلبه من حر غيظه منى ولم يطع ، أى لايستطاع تحمل سببه . والشجا : مانشب فى الحلق من عظم ونحوه . وعسراً الخ : حال منه . ومخرجه أى خروجه مرفوع بالوصف ، لم يضرنى شيئا من الضرر غير الحسد ، من ضاره يضيره ضيراً إذا ضره ، فهو يزقو أى يصيح مثل صياح الضوع : وهو ذكر البوم ، وكثر تشبيه العرض المطعون فيه باللحم المأكول على طريق التصريحية ، ثم شبهه الشاعر بالمرعى المخصب ترتع فيه البهائم . أو شبه المغتاب ببهيمة فى المرعى على طريق المكنية والرتع تخييل . ويحتمل استعارته للأكل الملائم للحم ، ثم للطعن الملائم للعرض على طريق التصريح ، أى : إذا يخلو له عرضى اغتاب كما يريد .

أنهم أولاد الله ، كانوا بين كفرين ، أحدهما : القول بأن الرحمن يصح أن يكون والداً . والثاني: إشراك الذين زعموهم لله أولاداً فى عبادته ، كما يخدم الناس أبناء الملوك خدمتهم لآبائهم ، فهدم الله الكفر الأول فيما تقدم من الآيات ؛ ثم عقبه بهدم الكفر الآخر . والمعنى : ما من معبود لهم فى السموات والأرض من الملائكة ومن الناس إلا وهو يأتى الرحمن ، أى : يأوى إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعا خاشيا راجياً ، كما يفعل العبيد وكما يجب عليهم ، لايدعى لنفسه ما يدعيه له هؤلاء الضلال . ونحوه قوله تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) وكلهم متقلبون فى ملكوته مقهورون بقهره وهو مهيمن عليهم محيط بهم وبجمل أمورهم وتفاصيلها وكيفيتهم وكميتهم ؛ لا يفوته شىء من أحوالهم ، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم برآء منهم .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

قرأ جناح بن حبيش ﴿وِداً﴾ بالكسر : والمعنى : سيحدث لهم فى القلوب مودّة ويزرعها لهم فيها من غير تودّد منهم ولا تعرّض للأسباب التى توجب الود ويكتسب بها الناس مودات القلوب ، من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك ، وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصا منه لأوليائه بكرامة خاصة ، كما قذف فى قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاما لهم وإجلالا لمكانهم . والسين إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون حينئذ ممقوتين بين الكفرة فوعدهم الله تعالى ذلك إذا دجا الإسلام . وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم . وروى أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى رضى الله عنه : «يا علىّ قل اللهم اجعل لى عندك عهداً ، واجعل لى فى صدور المؤمنين مودّة [1]» فأنزل الله هذه الآية . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى يحبهم الله ويحببهم إلى خلقه . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل يا جبريل قد أحببت فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إنّ الله قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يضع له المحبة فى أهل الأرض [2]» وعن قتادة : ما أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه .

(١) أخرجه الثعلبى والطبرانى فى مسند حمزة الزيات ، وابن مردويه من حديث البراء بن عازب رضى الله عنهما وفيه إسحاق بن بشر عن خالد بن زيد ، وهما متروكان .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة بمعناه .

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧)
وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)

هذه خاتمة السورة ومقطعها، فكأنه قال: بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر، فإنما أنزلناه ﴿بلسانك﴾ أى بلغتك وهو اللسان العربى المبين، وسهلناه وفصلناه ﴿لتبشر به﴾ وتنذر. واللد: الشداد الخصومة بالباطل، الآخذون فى كل لديد: أى فى كل شق من المراء والجدال لفرط لجاجهم، يريد أهل مكة.

وقوله ﴿وكم أهلكنا﴾ تخويف لهم وإنذار. وقرئ ﴿تحس﴾ من حسه إذا شعر به. ومنه الحواس والمحسوسات. وقرأ حنظلة ﴿تسمع﴾ مضارع أسمعت. والركز: الصوت الخفى. ومنه: ركز الرمح إذا غيب طرفه فى الأرض. والركاز: المال المدفون.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به، ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وهرون وإسمعيل وإدريس، وعشر حسنات بعدد من دعا الله فى الدنيا وبعدد من لم يدع الله». (١)

---

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي.

سـورة طه

مكية [إلا آيتى ١٣٠ و ١٣١ فمدنيتان] وهى ١٣٥ آية [نزلت بعد مريم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾

﴿طه﴾ أبو عمرو فخم الطاء لاستعلائها. وأمال الهاء وفخمها ابن كثير وابن عامر على الأصل، والباقون أمالوهما. وعن الحسن رضى الله عنه: طه. وفسر بأنه أمر بالوطء، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه (١) معاً. وأن الأصل طأ، فقلبت همزته هاء. أو قلبت ألفا فى يطأ فيمن قال: * لَا هَنَاكَ الْمَرْتَعُ * ثم بنى عليه الأمر. والهاء للسكت. ويجوز أن يكتفى بشطرى الاسمين وهما الدالان بلفظهما

(١) أخرجه عبد بن حميد فى تفسيره قال: حدثنا هاشم بن القاسم بن أبى جعفر عن الربيع بن أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله طه يعنى طأ الأرض» وروى ابن مردويه من طريق قيس بن الربيع عن قطر بن خليفة عن منذر الثورى عن محمد بن الحنفية عن على «لما نزل يا أيها المزمل قام الليل كله حتى ورمت قدماه فجعل يرفع رجلا ويضع الأخرى فهبط عليه جبريل، فقال «طه طأ الأرض بقدميك يا محمد» وأخرجه البزاز من وجه آخر عن على «كان النبي صلى الله عليه وسلم يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» ومن طريق نهشل عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى (طه) قال «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما قرأ القرآن إذا صلى، فقام على رجل واحدة، فأنزل الله طأها برجليك» وأخرجه البيهقى فى الشعب الرابع عشر من وجه آخر عن ميمون بن مهران عن ابن عباس «أن النبي صلى الله عليه وسلم أول ما أنزل عليه الوحى كان يقوم على صدور قدميه إذا صلى. فأنزل الله (طه).

(١) نزع ابن بشر وابن عمرو قبله ... وأخو هراة لمثلها يتوقع
راحت بمسلمة البغال عشية ... فارعى فزارة لاهناك المرتع

للفرزدق، يهجو عمرو بن زهرة الفزارى، وقد ولى العراق بعد عبد الملك بن بشر بن مروان، وكان على البصرة ومحمد ابن عمرو بن الوليد بن عقبة، وكان على الكوفة. يقول: ذهب ابن بشر وابن عمرو، وأخو هراة أى صاحبها وواليها. وهراة من بلاد العراق أيضا. يتوقع: أى يترقب وينتظر مثل حاله من قبله. راحت، وروى: مضت، أى ذهبت البغال بمسلمة بن عبد الملك كما يفيد شرح المراح، وكان يمنع بنى فزارة من الرعى فى أرض العراق، ففر إلى الشام وترك الملك، فارعى يا فزارة ما شئت يخاطب القبيلة بذلك، وإشارة إلى أنه كان محرما عليهم، فأبيح بعد مسلمة. وارعى: بفتح العين وسكون الياء؛ لأن مضارعه مفتوح العين. ولا هناك المرتع: دعا عليهم. يقال: هناك الطعام ومراك، بتخفيف الهمز: انهضم فى بطنك وأراحك ونفعك، فاذا انفرد الثانى قلت: أمراك الطعام، وتخفيف الهمزة بقلبها ألفا: صرفه كما هنا شاذ. وقياس تخفيفها فى مثل هذا جعلها بين بين لعدم سكون ما قبلها.

على المسمين ، والله أعلم بصحة ما يقال : إن « طاها » فى لغة عك[1] فى معنى يا رجل ، ولعل عكا تصرفوا فى « يا هذا » كأنهم فى لغتهم قالبون الياء طاء ، فقالوا فى « يا » : « طا » ، واختصروا هذا فاقتصروا على ها ، وأثر الصنعة ظاهر لا يخفى فى البيت المستشهد به :

إِنَّ السَّفَاهَةَ طَاهَا فِى خَلَائِقِكُمْ ... لَاقَدَّسَ اللهُ أَخْلَاقَ الْمَلَاعِينِ[2]

والأقوال الثلاثة فى الفواتح : أعنى التى قدمتها فى أول الكاشف عن حقائق التنزيل ، هى التى يعول عليها الألباء المتقنون ﴿ما أنزلنا﴾ إن جعلت (طه) تعديداً لأسماء الحروف على الوجه السابق ذكره فهو ابتداء كلام . وإن جعلتها اسما للسورة احتملت أن تكون خبراً عنها وهى فى موضع المبتدأ ، و ﴿القرآن﴾ ظاهر أوقع موقع الضمير لأنها قرآن ، وأن يكون جوابا لها وهى قسم . وقرئ : ما نزل عليك القرآن ﴿لتشقى﴾ لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا كقوله تعالى (لعلك باخع نفسك) والشقاء يجيء فى معنى التعب . ومنه المثل : أشقى من رائض مهر ، أى ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة ، بعد أن لم تفرط فى أداء الرسالة والموعظة الحسنة . وقيل : إن أبا جهل والنضر بن الحرث قالا له : إنك شقى لأنك تركت دين آبائك ، فأريد رد ذلك بأن دين الاسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز ، والسبب فى درك كل سعادة ، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها . وروى أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى اسمغدت[3] قدماه ، فقال له جبريل عليه السلام : أبق على نفسك فإن لها عليك حقا[4] . أى : ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة ، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة ، وكل واحد من (لتشقى) و (تذكرة) علة للفعل ، إلا أن الأول وجب مجيئه مع اللام لأنه ليس لفاعل الفعل المعلل ففاتته شريطة الانتصاب على المفعولية ، والثانى جاز قطع اللام عنه ونصبه لاستجماعه الشرائط . فإن قلت : أما يجوز أن تقول : ما أنزلنا عليك القرآن أن تشقى ، كقوله تعالى (أن تحبط أعمالكم) ؟ قلت : بلى ولكنها نصبة طارئة ،

(١) قوله «فى لغة عك» فى الصحاح عك بن عدنان أخو معد وهو اليوم فى اليمن . (ع)

(٢) السفاهة : الجهل والحمق والخفة . و«طه» فى لغة عك ، معناه ياهذا ، فكأنهم قلبوا الياء طاء وحذفوا ذا . قال الزمخشرى : ولا يخفى التصنع فى البيت . والخلائق : الطبائع ، ودعا عليهم بأن الله لا يطهر أرواحهم ، ووضع المظهر موضع المضمر لزيادة الذم والتشنيع . وقيل : للدلالة على سبب الدعاء ، أى : فانهم ملعونون ، ولعل معناه : فانهم مستحقين للعن وفاعلون سببه .

(٣) قوله «حتى اسمغدت» بالغين المعجمة ، أى : تورمت . أفاده الصحاح . (ع)

(٤) لم أره هكذا . وفى الدعوات الكبير للبيهقى عن عائشة قالت «لما كانت ليلة النصف من شعبان - فذكر حديثاً طويلا - وفيه : فما زال يصلى قائما وقاعداً حتى أصبح وحتى اسمغدت قدماه . فقمت أغمزها - الحديث - وليس فيه كلام جبريل .

كالنصبة فى (واختار موسى قومه) وأما النصبة فى تذكرة فهى كالتى فى ضربت زيداً ، لأنه أحد المفاعيل الخمسة التى هى أصول وقوانين لغيرها . فإن قلت : هل يجوز أن يكون (تذكرة) بدلا من محل (لتشقى) ؟ قلت : لا ، لاختلاف الجنسين . ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذى « إلا » فيه بمعنى « لكن » ويحتمل أن يكون المعنى : إنا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل [1] متاعب التبليغ ومقاولة العتاة من أعداء الاسلام ومقاتلتهم وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوّة ، وما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة . وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون تذكرة حالا ومفعولا له ﴿لمن يخشى﴾ لمن يؤول أمره إلى الخشية . ولمن يعلم الله منه أنه يبدل بالكفر إيمانا وبالقسوة خشية . فى نصب (تنزيلا) وجوه : أن يكون بدلا من تذكرة إذا جعل حالا ، لا إذا كان مفعولا له : لأن الشىء لا يعلل بنفسه . وأن ينصب بنزل مضمرا ، وأن ينصب بأنزلنا ، لأن معنى : ماأنزلناه إلا تذكرة : أنزلناه تذكرة ، وأن ينصب على المدح والاختصاص وأن ينصب بيخشى مفعولا به ، أى : أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله ، وهو معنى حسن وإعراب بين . وقرئ : تنزيل، بالرفع على خبر مبتدأ محذوف . مابعد (تنزيلا) إلى قوله (له الأسماء الحسنى) تعظيم وتفخيم لشأن المنزل ، لنسبته إلى من هذه أفعاله وصفاته . ولا يخلو من أن يكون متعلقه إما (تنزيلا) نفسه فيقع صلة له ، وإما محذوفا فيقع صفة له . فإن قلت : مافائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب ؟ قلت : غير واحدة منها عادة الافتنان فى الكلام ومايعطيه من الحسن والروعة . ومنها أنّ هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة . ومنها أنه قال أولا (أنزلنا) ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع . ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين : ويجوز أن يكون (أنزلنا) حكاية لكلام جبريل والملائكة النازلين معه. وصف السموات بالعلى : دلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها فى علوها وبعد مرتقاها .

الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾

قرئ ﴿الرحمن﴾ مجرورا صفة لمن خلق والرفع أحسن ، لأنه إما أن يكون رفعا على المدح على تقدير : هو الرحمن . وإما أن يكون مبتدأ مشارا بلامه إلى من خلق . فإن قلت : الجملة التى هى

(١) قال محمود : « ويحتمل أن يكون المعنى إنا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل ... الخ » قال أحمد : وفى هذا الوجه الثانى بعد ، فان فيه إثبات كون الشقاء سببا فى نزوله عكس الأول وإن لم تكن اللام سببية فكانت للصيرورة مثلا ولم يكن فيه ماجرت عادة الله تعالى به مع نبيه صلى الله عليه وسلم من نهيه عن الشقاء والحزن عليهم وضيق الصدر بهم ، وكان مضمون هذه الآية متباينا عن قوله تعالى (فلا يكن فى صدرك حرج) ، (فلعلك باخع نفسك على آثارهم) و (لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) وأمثاله كثيرة فالظاهر والله أعلم هو التأويل الأول

﴿على العرش استوى﴾ ماحلها - إذا جررت الرحمن أورفعته على المدح ؟ قلت : إذا جررت فهي خبر مبتدأ محذوف لاغير وإن رفعت جاز أن تكون كذلك وأن تكون مع الرحمن خبرين للمبتدأ . لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك ، جعلوه كناية عن الملك فقالوا : استوى فلان على العرش يريدون ملك وإن لم يقعد على السرير البتة ، وقالوه أيضا لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر . ونحوه قولك : يد فلان مبسوطة ، ويد فلان مغلولة ، بمعنى أنه جواد أو بخيل . لافرق بين العبارتين إلا فيما قلت ، حتى أن من لم يبسط يده قط بالنوال أولم تكن له يد رأسا قيل فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم : هو جواد . ومنه قول الله عز وجل (وقالت اليهود يد الله مغلولة) أى هو بخيل ، (بل يداه مبسوطتان) أى هو جواد ، من غير تصور يد ولا غل ولا بسط ، والتفسير بالنعمة والتمحل للتثنية من ضيق العطن والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام ﴿وما تحت الثرى﴾ ماتحت سبع الأرضين : عن محمد بن كعب وعن السدى : هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة .

وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨)

أى يعلم ماأسررته إلى غيرك وأخفى من ذلك ، وهو ما أخطرته ببالك ، أو ما أسررته في نفسك ﴿وأخفى﴾ منه وهو ماستسره فيها . وعن بعضهم : أن أخفى فعل [1] يعنى أنه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم مايعلمه ، هو كقوله تعالى (يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يحيطون به علما) وليس بذاك . فإن قلت كيف طابق الجزاء الشرط ؟ قلت : معناه وإن تجهر بذكر الله من دعاء أو غيره فاعلم أنه غني عن جهرك ، فإما أن يكون نهيا عن الجهر كقوله تعالى (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول) وإما تعليما للعباد أن الجهر ليس لإسماع الله وإنما هو لغرض آخر ﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن ، وصفت بها الأسماء لأن حكمها حكم المؤنث

(١) قال محمود : « هو أفعل التفضيل ، ومنهم من قال إن أخفى فعل ماض ... الخ » قال أحمد : لايخفى أن جعله فعلا قاصر لفظا ومعنى : أما لفظا فانه يلزم منه عطف الجملة الفعلية على الاسمية إن كان المعطوف عليه الجملة الكبرى ، أوعطف الماضي على المضارع إن كان المعطوف عليه الصغرى ، وكلاهما دون الأحسن . وأما معنى ، فان المقصود الحض على ترك الجهر باسقاط فائدته من حيث أن الله تعالى يعلم السر وما هو أخفى منه ، فكيف يبقى للجهر فائدة وكلاهما على هذا التأويل مناسب لترك الجهر . وأما إذا جعل فعلا فيخرج عن مقصود السياق وإن اشتمل على فائدة أخرى ، وليس هذا كقوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم وماخلفهم ولا يحيطون به علما) لأن بين السياقين اختلافا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

كقولك : الجماعة الحسنى ، ومثلها (مآرب أخرى) ، و (من آياتنا الكبرى) . والذى فضلت به أسماؤه فى الحسن سائر الأسماء : دلالتها على معانى التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية ، والأفعال التى هى النهاية فى الحسن .

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى (١٠)

قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به فى تحمل أعباء النبوّة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد ، حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود . يجوز أن ينتصب ﴿إذ﴾ ظرفا للحديث ، لأنه حدث . أو لمضمر ، أى: حين ﴿رأى نارا﴾ كان كيت وكيت . أو مفعولا لاذكر استأذن موسى شعيبا عليهما السلام فى الخروج إلى أمه وخرج بأهله ، فولد له فى الطريق ابن فى ليلة شاتية مظلمة مثلجة ، وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده ، وقدح فصلد زنده[1] فرأى النار عند ذلك . قيل : كانت ليلة جمعة . ﴿امكثوا﴾ أقيموا فى مكانكم . الإيناس : الإبصار البين الذى لا شبهة فيه ، ومنه إنسان العين لأنه يتبين به الشىء ، والإنس : لظهورهم ، كما قيل الجن لاستتارهم وقيل هو إبصار ما يؤنس به . لما وجد منه الإيناس فكان مقطوعا متيقناً ، حققه لهم بكلمة «إنّ» ليوطن أنفسهم . ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين ، بنى الأمر فيهما على الرجاء والطمع وقال ﴿لعلى﴾ ولم يقطع فيقول : إنى ﴿آتيكم﴾ لئلا يعد ما ليس بمستيقن الوفاء به . القبس : النار المقتبسة فى رأس عود أو فتيلة أو غيرهما . ومنه قيل : المقبسة ، لما يقتبس فيه من سعفة أو نحوها ﴿هدى﴾ أى قوما يهدوننى الطريق أو ينفعوننى بهداهم فى أبواب الدين . عن مجاهد وقتادة ، وذلك لأنّ أفكار الأبرار مغمورة بالهمة الدينية فى جميع أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل . والمعنى : ذوى هدى . أو إذا وجد الهداة فقد وجد الهدى . ومعنى الاستعلاء فى (على النار) أنّ أهل النار يستعلون المكان القريب منها ، كما قال سيبويه فى مررت بزيد : أنه لصوق بمكان يقرب من زيد . أو لأنّ المصطلين بها والمستمتعين بها إذا تكنفوها قياماً وقعوداً كانوا مشرفين عليها . ومنه قول الأعشى :

* وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّـدَى وَالْمُحَلَّقُ * [2]

(١) قوله «فصلد زنده» فى الصحاح «صلد الزند» إذا صوت ولم يخرج نارا . (ع)

(٢)
لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار فى يفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق
رضيعى لبان ثدى أم تقاسما ... بأسحم داج عوض لا نتفرق

للأعشى يمدح المحلق ـ بكسر اللام ـ سمى بذلك لأن بعيره عضه فى وجهه فبقى أثر العضة مثل الحلقة ، وهو من بنى ==

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾

قرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿أنى﴾ بالفتح ، أى : نودى بأنى ﴿أنا ربك﴾ وكسر الباقون ، أى : نودى فقيل ياموسى . أو لأنّ النداء ضرب من القول فعومل معاملته . تكرير الضمير فى (إنى أنا ربك) لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة . روى أنه لما نودى (يا موسى) قال: من المتكلم ؟ فقال له الله عز وجل : (إنى أنا ربك) ، وأن إبليس وسوس إليه فقال: لعلك تسمع كلام شيطان . فقال : أنا عرفت أنه كلام الله بأنى أسمعه من جميع جهاتى الست ، وأسمعه بجميع أعضائى . وروى أنه حين انتهى رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء تتقد [1] ، وسمع تسبيح الملائكة ، ورأى نوراً عظيما فخاف وبهت ، فألقيت عليه السكينة ثم نودى . وكانت الشجرة عوسجة . وروى : كلما دنا أو بعد لم يختلف ما كان يسمع من الصوت . وعن ابن إسحق : لما دنا استأخرت عنه ، فلما رأى ذلك رجع وأوجس فى نفسه خيفة ، فلما أراد الرجعة دنت منه ، ثم كلم . قيل : أمر بخلع النعلين لأنهما كانتا من جلد حمار ميت غير

ــــ عكاظ ، كان فقيراً وله عشر بنات لا يرغب فيهن أحد لفقرهن ، فانعزل بهن إلى بعض المهامه فنزل به الأعشى فنحر له ناقته ولم يكن عنده غيرها وأحسن قراه ، فعظم عند الأعشى ، فلما أصبح واستوى على راحلته قال له : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، أن تسير بذكرى فى بنى عكاظ ، لعل أحدا يرغب فى بناتى فقد مسهن العنس . فمدحه فى عكاظ فلم يلبث حتى خطبت بناته . ولاحت : لمحت وتشوفت . واليفاع : المشرف من الأرض . يخرق : أى يخترق ذلك الضوء وينتشر فى الأرض . ويروى : تحرق ، بالحاء المهملة . والضمير للنار . وتشب . مبنى للمجهول ، يقال : شببت النار أشبها شبا وشبوبا : أوقدتها . والمقروران : اللذان أصابهما القرأى البرد . وأراد بهما الندى والمحلق ، يعنى أنه هو وكرمه ملازمان لنار القرى ملازمة المقرور لنار التدفؤ . وبين ذلك بقوله : وبات على النار الندى والمحلق . ويجوز أن الأعشى أراد نفسه والمحلق ، لكن الأول أوقع فى المدح . ومعنى كونهما عليها : أنهما على جانبيها ولأن المتدفئ يكون أعلى منها بحيث يمد يده فوقها . وعطف المحلق على الندى دلالة على أنهما متلازمان متقارنان ، وبين ذلك بقوله : رضيعى لبان ، وهو حال منهما ، شبههما بالتوأمين دلالة على غاية التلازم حتى فى الرحم بل وقبله . واللبان : لبن المرأة خاصة ، وهو مضاف إلى ثدى أم . وتنوينها للافراد وإضافته له ؛ لأنه منه . ويجوز تنوينه ، فثدى : بدل منه . والأسحم : الأسود الداجى المظلم . أى تحالفا كما هو رواية أيضا فى ليل مظلم . أو فى الرحم المظلم . وعوض : ظرف مستقبل ، نصب بما بعده . لا نتفرق : جواب التحالف ، وكنى بذلك كله عن شدة التلازم بينه وبين الكرم .

(١) قوله « كأنها نار بيضاء تتقد ... الخ » عبارة الخازن « أطافت بها نار ... الخ » وعبارة النسفى بدل قوله « رأى شجرة ... الخ » : « وجد ناراً بيضاء تتوقد فى شجرة خضراء من أعلاها إلى أسفلها وكانت شجرة العناب أو العوسج » . (ع)

مدبوغ [١] عن السدى وقتادة. وقيل: ليباشر الوادى بقدميه متبركا به. وقيل: لأن الحفوة تواضع لله، ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين، ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه، وكان إذا ندر منه الدخول منتعلا تصدق، والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها وتشريف لقدسها. وروى أنه خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادى ﴿طوى﴾ بالضم والكسر منصرف وغير منصرف بتأويل المكان والبقعة. وقيل: مرتين، نحو ثنى [٢]، أى نودى نداءين أو قدس الوادى كرة بعد كرة ﴿وأنا اخترتك﴾ اصطفيتك للنبوة. وقرأ حمزة: وإنا اخترناك. ﴿لما يوحى﴾ للذى يوحى. أو للوحى. تعلق اللام باستمع، أو باخترتك ﴿لذكرى﴾ لتذكرنى فإن ذكرى أن أعبد ويصلى لى. أو لتذكرنى فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار عن مجاهد. أو: لأنى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها. أو لأن أذكرك بالمدح والثناء وأجعل لك لسان صدق. أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى أو لإخلاص ذكرى وطلب وجهى لا ترائى بها ولا تقصد بها غرضاً آخر. أو لتكون لى ذاكراً غير ناس فعل المخلصين فى جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيل هممهم وأفكارهم به، كما قال (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله). أو لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة، كقوله تعالى (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) واللام مثلها فى قولك: جئتك لوقت كذا، وكان ذلك لست ليال خلون. وقوله تعالى (يا ليتنى قدمت لحياتى) وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها من قوله عليه السلام «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها [٣]» وكان حق العبارة أن يقال: لذكرها، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا ذكرها» ومن يتمحل له يقول: إذا ذكر الصلاة فقد ذكر الله. أو بتقدير حذف المضاف، أى: لذكر صلاتى. أو لأن الذكر والنسيان من الله عز وجل فى الحقيقة. وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: للذكرى.

إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾

---

(١) لم أره هكذا وفى الترمذى والحاكم عن عبدالله بن مسعود رفعه «يوم كلم الله موسى كان عليه جبة صوف ونعلان من جلد حمار ميت غير ذكى».

(٢) قوله «وقيل مرتين نحو ثنى» فى الصحاح: وقال يعنى بعضهم فى قوله تعالى (بالوادى المقدس طوى) طوى مرتين، أى قدس. وفيه أيضاً «الثنى» مقصور: الأمر يعاد مرتين اه، فلعل أصل عبارته أيضاً: وقيل طوى مرتين يعنى قدس وطهر مرتين. وظاهر العبارة أن طوى مثل ثنى بمعنى مرتين، أى: نودى موسى مرتين، أو قدس الوادى مرتين فهو منصوب بنودى أو بالمقدس. (ع)

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة فى قصة النوم عن الصلاة. وفى آخره: من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها فان الله تعالى قال (أقم الصلاة لذكرى) وفى رواية (للذكرى) وهو أيضاً متفق عليه من حديث أنس مرفوعا بلفظ «من نسى صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها» زاد البخارى فى رواية «أقم الصلاة لذكرى».

أى أكاد أخفيها فلا أقول هى آتية (١) لفرط إرادتى إخفاءها ؛ ولولا مافى الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به . وقيل : معناه أكاد أخفيها من نفسى ، ولا دليل فى الكلام على هذا المحذوف ، ومحذوف لا دليل عليه مطرح . والذى غرهم منه أن فى مصحف أبى : أكاد أخفيها من نفسى . وفى بعض المصاحف : أكاد أخفيها من نفسى فكيف أظهركم عليها وعن أبى الدرداء وسعيد بن جبير : أخفيها بالفتح ، من خفاه إذا أظهره ، أى : قرب إظهارها كقوله تعالى (اقتربت الساعة) وقد جاء فى بعض اللغات : أخفاه بمعنى خفاه . وبه فسر بيت امرىء القيس :

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لَا نُخْفِهِ وَإِنْ تَبعَثُوا الْحَرْبَ لَا نَقْعُدِ (٢)

فأكاد أخفيها محتمل للمعنيين ﴿لتجزى﴾ متعلق بآية ﴿بما تسعى﴾ بسعيها .

فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦)

أى : لا يصدنك عن تصديقها والضمير للقيامة . ويجوز أن يكون للصلاة . فإن قلت :العبارة لنهى من لا يؤمن عن صد موسى ، والمقصود نهى موسى عن التكذيب بالبعث أو أمره بالتصديق فكيف صلحت هذه العبارة لأداء هذا المقصود ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب . فذكر السبب ليدل على المسبب . والثانى أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل فى الدين ولين شكيمته ، فذكر المسبب ليدل على السبب ، كقولهم : لا أرينك ههنا ، المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته ، وذلك سبب رؤيته إياه . فكان ذكر المسبب دليلا على السبب ، كأنه قيل : فكن شديد الشكيمة صليب المعجم (٣) ، حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع فى صدك عما أنت عليه ، يعنى : أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير

(١) قال محمود : «معناه قاربت أن لا أقول هى آتية ...الخ» قال أحمد : ولا يقنع فى رد هذا التأويل بالهوينا ، فانه بين الفساد ، وذلك أن خفاءها عن الله تعالى محال عقلا ، فكيف يوصف المحال العقلى بقرب الوقوع . وأحسن ما فى محامل الآية ماذكره الأستاذ أبوعلى حيث قال : المراد أكاد أزيل خفاءها ، أى : أظهرها ، إذ الخفاء الغطاء ، وهو أيضا ماتجعله المرأة فوق ثيابها يسترها ، ثم تقول العرب : أخفيته . إذا أزلت خفاءه ، كما تقول أشكيته وأعتبته ، إذا أزلت شكايته وعتبه ، وحينئذ يلتئم القراءتان : أعنى فتح الهمزة وضمها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(٢) يقال : خفاه ، إذا كتمه . وخفاه أيضاً : أظهره ، وماهنا منه . والمعنى : إن تكتموا الضغائن التى بيننا نكتمها نحن أيضاً ولا نظهرها . شبه الضغينة والعداوة بالداء بجامع نشأة الضرر عن كل على طريق التصريحية . وشبه الحرب بحيوان على طريق المكنية ، والبعث تخييل . أو استعمل البعث فى التسبب مجازاً مرسلا أو استعارة تصريحية . والمعنى : وإن تظهروا البغضاء وتوقدوا الهيجاء نغلبكم كما تعلمون منا .

(٣) قوله «صليب المعجم» فى الصحاح عجمت العود : إذا عضضته لتعلم صلابته من خوره . ورجل صلب المعجم : إذا كان عزيز النفس . (ع)

إذ لا شيء أطم على الكفرة ولا هم أشد له نكيراً من البعث ، فلا يهولنك وفور دهمائهم ولا عظم سوادهم ، ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك ، واعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى واتباعه ، لا البرهان وتدبره . وفى هذا حث عظيم على العمل بالدليل ، وزجر بليغ عن التقليد ، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله .

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨)

﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ كقوله تعالى (وهذا بعلى شيخا) فى انتصاب الحال بمعنى الإشارة : ويجوز أن تكون (تلك) اسما موصولا صلته (بيمينك) إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عز وعلا فى الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة [1] وليقرر فى نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه ، وينبهه على قدرته الباهرة . ونظيره أن يريك الزراد زبرة من حديد ويقول لك : ما هى ؟ فتقول : زبرة حديد ، ثم يريك بعد أيام لبوساً مسرداً فيقول لك : هى تلك الزبرة صيرتها إلى ماترى من عجيب الصنعة وأنيق السرد . قرأ ابن أبى إسحق : عصىّ ، على لغة هذيل . ومثله (يابشرىّ) أرادوا كسر ماقبل ياء المتكلم فلم يقدروا عليه ، فقلبوا الألف إلى أخت الكسرة وقرأ الحسن ﴿عصاىِ﴾ بكسر الياء لالتقاء الساكنين ، وهو مثل قراءة حمزة (بمصرخىِّ) وعن ابن أبى إسحق : سكون الياء ﴿أتوكأ عليها﴾ أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة [2] . هش الورق : خبطه ، أى : أخبطه على رؤس غنمى تأكله . وعن لقمان ابن عاد : أكلت حقا وابن لبون وجذع ، وهشة نخب وسيلا دفع ، والحمد لله من غير شبع ، سمعته من غير واحد من العرب . ونخب : واد قريب من الطائف كثير السدر . وفى قراءة النخعى : أهش ، وكلاهما من هش الخبز يهش : إذا كان ينكسر لهشاشته . وعن عكرمة : أهس بالسين ، أى : أنحى عليها زاجراً لها . والهس : زجر الغنم . ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا ، كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال : ماهى إلا عصا لاتنفع إلا منافع بنات جنسها وكما تنفع العيدان ، ليكون جوابه مطابقا للغرض الذى فهمه من فحوى كلام ربه . ويجوز أن يريد عزّ وجلّ أن يعدّد المرافق الكثيرة التى علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ، ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة ، كأنه يقول له : أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة كنت تعتدّ بها وتحتفل

(١) قوله «حية نضناضة» أى تحرك لسانها فى فمها . أفاده الصحاح . (ع)
(٢) قوله «الطفرة» أى الوثبة . (ع)

بشأنها ، وقالوا : إنما سأله ليبسط منه ويقلل هيبته . وقالوا : إنمـا أجمل موسى ليسأله عن تلك المـآرب فيزيد فى إكرامه ، وقالوا : انقطع لسانه بالهيبة فأجمل ، وقالوا : اسم العصا نبعة . وقيل فى المـآرب : كانت ذات شعبتين ومحجن ، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن ، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين ، وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها ، وإذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين[1] على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل ، وإذا قصر رشاؤه وصله بها ، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه . وقيل : كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً ، وتكونان شمعتين بالليل ، وإذا ظهر عدوّ حاربت عنه ، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت ، وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه ، ويركزها فينبع المـاء ، فإذا رفعها نضب ، وكانت تقيه الهوام .

قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾

السعى : المشى بسرعة وخفة حركة . فإن قلت : كيف ذكرت بألفاظ مختلفة : بالحية ، والجان ، والثعبان ؟ قلت : أمّا الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير . وأمّا الثعبان والجان فبينهما تناف ؛ لأنّ الثعبان العظيم من الحيات ، والجان الدقيق . وفى ذلك وجهان : أحدهما أنها كانت وقت انقلابها حيه تنقلب حية صفراء دقيقة ، ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا ، فأريد بالجان أوّل حالها ، وبالثعبان مآلها . الثانى : أنها كانت فى شخص الثعبان وسرعة حركة الجان . والدليل عليه قوله تعالى : فلما رآها تهتزّ كأنها جانّ . وقيل كان لها عرف كعرف الفرس . وقيل كان بين لحييها أربعون ذراعا .

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾

لمـا رأى ذلك الأمر العجيب الهائل ملكه من الفزع والنفاز ما يملك البشر عند الأهوال والمخاوف . وعن ابن عباس : انقلبت ثعبانا ذكراً يبتلع الصخر والشجر . فلما رآه يبتلع كل شيء خاف ونفر . وعن بعضهم : إنما خافها لأنه عرف مالقى آدم منها . وقيل : لمـا قال له ربه ﴿لاتخف﴾ بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده فى فمها وأخذ بلحيها . السيرة من السير : كالركبة من الركوب . يقال : سار فلان سيرة حسنة ، ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة . وقيل : سير الاوّلين ، فيجوز أن ينتصب على الظرف ، أى : سنعيدها فى طريقتها الأولى ، أى : فى حال ما كانت عصا ، وأن يكون «أعاد» منقولا من «عاده» بمعنى عاد

(١) قوله «عرض الزندين» فى الصحاح «الزند» العود الذى يقدح به النار وهو الأعلى والزند السفلى فيها ثقب وهي الأنثى فاذا اجتمعا قيل زندان ولم يقل زندتان ، والجمع زناد وأزند وأزناد . (ع)

إليه . ومنه بيت زهير :

* وَعَادَكَ أَنْ تُلَاقِيهَا عِدَاءٌ * [١]

فيتعدى إلى مفعولين . ووجه ثالث حسن : وهو أن يكون ﴿سنعيدها﴾ مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها ، بمعنى أنها أنشئت أوّل ما أنشئت عصا ، ثم ذهبت وبطلت بالقلب حية ، فسنعيدها بعد ذهابها كما أنشأناها أوّلا . ونصب سيرتها بفعل مضمر ، أى : تسير سيرتها الأولى : يعنى سنعيدها سائرة سيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التى عرفتها .

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

قيل لكل ناحيتين : جناحان ، كجناحى العسكر لمجنبتيه ، وجناحا الإنسان : جنباه ، والأصل المستعار منه جناحا الطائر . سميا جناحين لأنه يجنحهما عند الطيران . والمراد إلى جنبك تحت العضد ، دل على ذلك قوله ﴿تخرج﴾ . السوء : الرداءة والقبح فى كل شيء ، فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة ، وكان جذيمة صاحب الزباء[٢] أبرص فكنوا عنه بالأبرش[٣] والبرص أبغض شيء إلى العرب ، وبهم عنه نفرة عظيمة ، وأسماعهم لاسمه مجاجة ، فكان جديراً بأن يكنى عنه ، ولا نرى أحسن ولا ألطف ولا أحز للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه . يروى أنه كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يعشى البصر . ﴿بيضاء﴾ و ﴿آية﴾ حالان معاً . و ﴿من غير سوء﴾ من صلة لبيضاء ، كما تقول ابيضت من غير سوء . وفى نصب (آية) وجه آخر . وهو أن يكون بإضمار نحو : خذ ، ودونك ، وما أشبه

(١) فصرم حبلها إذ صرمته وعادك أن تلاقيها عداء

لزهير . أى : اقطع مودتها حيث قطعت مودتك ، شبه المودة بالحبل على طريق الاستعارة التصريحية ، والتصريم ترشيح وتقوية للتشبيه . وعادك : يحتمل أنه من عاد إذا رجع ، فالمعنى : رجعك وردك ، يحتمل أنه مقلوب من عداه إذا صرفه ، كما فى «ناء» مقلوب «نأى» فالمعنى صرفك . قال أبو عمير : وعادك بمعنى شغلك . وقال الأصمعى : بمعنى : عاد إليك ، وبمعنى صرفك . ومن المعلوم أن الفعل إذا كان لازما تعدى بالهمزة إلى المفعول قياسا ، وإذا تعدى بنفسه إلى مفعول واحد تعدى بدخول الهمزة عليه إلى مفعولين . واختلف هل هو قياس أو سماعى ؟ وأعاد منه ، فيجرى فيه ماذكر . وأما تعديته إلى أن تلاقيها أيضا فهو باسقاط الخافض توسعا . والعداء : الشغل أو البعد : ويطلق على الجور . من عدا عليه . قال الجوهرى : العداء ـ بالفتح ـ الظلم ، ويجوز كسره بمعنى المانع ، لأن العداء هو ما يعدى به أى يصرف به . كالواذ لما يلاذ به . والرباط لما يربط به . والمعنى : اقطع مودتها حيث قطعت مودتك ، وصرفك عن ملاقاتها صارف عظيم ، ونسبة الصرف إليه مجاز عقلى من قبيل الاسناد إلى السبب أو الآلة . ويحتمل أن أصله «عداء» بالكسر والقصر جمع عدو . فمد للضرورة ، أى : منعك الأعداء عن لقائها فالاسناد حقيقى

(٢) قوله «وكان جذيمة صاحب الزباء» جذيمة ملك الحيرة والزباء ملكة الجزيرة كذا فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله «فكنوا عنه بالأبرش» فى الصحاح البرش فى الفرس نقط صغار تخالف سائر لونه والفرس أبرش . (ع)

ذلك، حذف لدلالة الكلام، وقد تعلق بهذا المحذوف ﴿لنريك﴾ أى خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حية لنريك بهاتين الايتين بعض آياتنا الكبرى. أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا. أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾

لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغى لعنه الله عرف أنه كلف أمراً عظيما وخطباً جسيما يحتاج معه إلى احتمال مالا يحتمله إلا ذو جأش [1] رابط وصدر فسيح، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه، ويجعله حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التى يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات. وأن يسهل عليه فى الجملة أمره الذى هو خلافة الله فى أرضه وما يصحبها من مزاولة معاظم الشؤن ومقاساة جلائل الخطوب. فإن قلت: (لى) فى قوله ﴿اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى﴾ ما جدواه [2] والكلام بدونه مستتب [3]؟ قلت: قد أبهم الكلام أولا فقيل: اشرح لى ويسر لى، فعلم أن ثم مشروحا وميسراً، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما، فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره، من أن يقول: اشرح صدرى ويسر أمرى على الإيضاح الساذج، لأنه تكرير المعنى الواحد من طريق الإجمال

(١) قوله «ذو جأش» فى الصحاح يقال فلان رابط الجأش أى يربط نفسه عن الفرار لشجاعته. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت مافائدة لى والكلام مستتب بدونها .. الخ» قال أحمد: ويحتمل عندى والله أعلم أن تكون فائدتها الاعتراف بأن منفعة شرح الصدر راجعة إليه وعائدة عليه، فان الله عز وجل لاينتفع بارساله ولايستعين بشرح صدره، تعالى وتقدس، على خلاف رسول الملك إذا طلب منه أن يزيح عليه فانما يطلب منه مايعود نفعه على مرسله، ويحصل له غرضه من رسالته، والله أعلم.

(٣) قوله «مستتب» فى الصحاح: استتب الأمر تهيأ واستقام. (ع)

والتفصيل. عن ابن عباس: كان فى لسانه رتة [1] لما روى من حديث الجمرة. [2] ويروى أن يده احترقت، وأن فرعون اجتهد فى علاجها فلم تبرأ. ولما دعاه قال: إلى أى رب تدعونى؟ قال: إلى الذى أبرأ يدى وقد عجزت عنها. وعن بعضهم: إنما لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون فى قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المواكلة. واختلف فى زوال العقدة بكمالها فقيل: ذهب بعضها وبقى بعضها، لقوله تعالى (وأخى هرون هو أفصح منى لسانا) وقوله تعالى (ولا يكاد يبين) وكان فى لسان الحسين بن على رضى الله عنهما رتة [3] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ورثها من عمه موسى. وقيل: زالت بكمالها لقوله تعالى (قد أوتيت سؤلك ياموسى) وفى تنكير العقدة ـ وإن لم يقل عقدة لسانى ـ: أنه طلب حل بعضها إرادة أن يفهم عنه فهما جيدا، ولم يطلب الفصاحة الكاملة. و ﴿من لسانى﴾ صفة للعقدة كأنه قيل: عقدة من عقد لسانى.

الوزير من الوزر، لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه. أو من الوزر [4]، لأن الملك يعتصم برأيه ويلجىء إليه أموره. أو من المؤازرة وهى المعاونة. عن الأصمعى قال: وكان القياس أزيرا، فقلبت الهمزة إلى الواو، ووجه قلبها أنّ فعيلا جاء فى معنى مفاعل مجيئاً صالحاً، كقولهم: عشير وجليس وقعيد وخليل وصديق ونديم، فلما قلبت فى أخيه قلبت فيه. وحمل الشىء على نظيره ليس بعزيز، ونظراً إلى يوازر وأخواته، وإلى الموازرة. ﴿وزيرا﴾ و ﴿هرون﴾ مفعولا قوله ﴿اجعل﴾ قدم ثانيهما على أولها عناية بأمر الوزارة. أو (لى وزيراً) مفعولاه، وهرون عطف بيان للوزير. و ﴿أخى﴾ فى الوجهين بدل من هرون، وإن جعل عطف بيان آخر جاز وحسن. قرؤا جميعاً ﴿اشدد﴾ ﴿وأشركه﴾ على الدعاء. وابن عامر وحده: أشدُد. وأُشركه، على الجواب.

---

(١) قوله «كان فى لسانه رتة» فى الصحاح «الرتة» بالضم: العجمة فى الكلام. وحديث الجمرة: أن موسى كان يلعب بين يدى فرعون وبيده قضيب، فضرب به رأسه، فغضب وهمّ بقتله، فقالت له امرأته: إنه صبى لا يعقل وجربه إن شئت، فجاءت بطشتين فى أحدهما جمر وفى الآخر جوهر، فمد موسى يده إلى الجوهر، فحولها جبريل إلى الجمر فوضع جمرة فى فيه فاحترق لسانه. (ع)

(٢) لم أره هكذا، وإنما وقع فى حديث الفتون الطويل الذى أخرجه النسائى وغيره من طريق القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير «سألت ابن عباس رضى الله عنهما عن قوله تعالى (وفتناك فتونا) ـ فذكره بطوله فى أربع ورقات ـ فذكر فيه قصة آسية وفرعون. وقولها: قرب إليه جمرتين ولؤلؤتين وأنه أخذ الجمرتين فانتزعتهما منه مخافة أن يحرقا يده. وهذا يدل على أنه لم يرفعهما إلى فيه. وهو أصح ماورد فى ذلك. وروى الحاكم من طريق وهب بن منبه فذكر قصة وفيها قالت: جربه. إن شئت اجعل فى هذا جمرة وذهبا فانظر أيهما يقبض. قال: فأخذ الجمرة وألقاها فى فيه ثم قذفها حين وجد حرارتها» ويقال: إن العقدة التى كانت فى لسان موسى من أثر تلك الجمرة التى التقمها.

(٣) لم أجده.

(٤) قوله «الوزير من الوزر» أى الثقل. وقوله «أو من الوزر» أى الملجأ. أفاده الصحاح. (ع)

وفى مصحف ابن مسعود : أخى واشدد . وعن أبى بن كعب : أشركه فى أمرى ، واشدد به أزرى . ويجوز فيمن قرأ على لفظ الأمر : أن يجعل (أخى) مرفوعا على الابتداء : و(اشدد به) خبره ، ويوقف على (هارون) . الأزر : القوة . وأزره : قواه ، أى : اجعله شريكى فى الرسالة حتى نتعاون على عبادتك وذكرك ، فإن التعاون ـ لأنه مهيج الرغبات ـ يتزايد به الخير ويتكاثر ﴿إنك كنت بنا بصيراً﴾ أى عالما بأحوالنا وبأن التعاضد مما يصلحنا ، وأن هرون نعم المعين والشادّ لعضدى ، بأنه أكبر منى سنا وأفصح لسانا .

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

السؤل : الطلبة ، فعل بمعنى مفعول ، كقولك : خبز ، بمعنى مخبوز . وأكل ، بمعنى مأكول .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾
أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى
وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾

الوحى إلى أم موسى : إما أن يكون على لسان نبىّ فى وقتها ، كقوله تعالى (وإذ أوحيت إلى الحواريين) أو يبعث إليها ملكا لا على وجه النبوة ، كما بعث إلى مريم . أو يريها ذلك فى المنام فتتنبه عليه . أو يلهمها كقوله تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) أى أوحينا إليها أمراً لاسبيل إلى التوصل إليه ولا إلى العلم به إلا بالوحى ، وفيه مصلحة دينية فوجب أن يوحى ولا يخل به ، أى : هو مما يوحى لامحالة وهو أمر عظيم ، مثله يحق بأن يوحى (أن) هى المفسرة لأن الوحى بمعنى القول . القذف مستعمل فى معنى الإلقاء والوضع . ومنه قوله تعالى (وقذف فى قلوبهم الرعب) وكذلك الرمى قال :

* غُلَامٌ رَمَاهُ اللهُ بِالْحُسْنِ يَافِعًا * (١)

(١) رآنى على مابى عميلة فاشتكى — إلى ماله حالى فواسى وماجبر
ولما رأى المجد استعيرت ثيابه — تردى رداء سابغ الذيل واتزر
غلام رماه الله بالحسن يافعا — له سيمياء لاتشق على البصر
كأن الثريا علقت فوق نحره — وفى أنفه الشعرا وفى خده القمر

لأسيد بن عنقاء الفزارى ، كان من أكبر أهل زمانه وأعلمهم بالأدب ، فطال به عمره ونكبه دهره ، فلقيه عميلة الفزارى فسلم عليه وقال : ماأصارك ياعم إلى ماأرى ؟ فقال : بخل مثلك بماله ، وصون وجهى عن مسألة الناس . فقال : لئن بقيت إلى غد لأغيرن مابك . فلما كان وقت السحر سمع رغاء الابل وصهيل الخيل تحت الأموال . فقال : ==

أى حصل فيه الحسن ووضعه فيه ، والضمائر كلها راجعة إلى موسى . ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت : فيه هجنة ، لما يؤدى إليه من تنافر النظم . فإن قلت : المقذوف فى البحر هو التابوت ، وكذلك الملقى إلى الساحل . قلت : ما ضرك لو قلت : المقذوف والملقى هو موسى فى جوف التابوت ، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذى هو أم إعجاز القرآن . والقانون الذى وقع عليه التحدى ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر . لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته أن لا تخطئ جرية ماء اليم الوصول به إلى الساحل وألقاه إليه ، سلك فى ذلك سبيل المجاز ، وجعل اليم كأنه ذو تمييز ، أمر بذلك ليطيع الأمر ويمتثل رسمه ، فقيل ﴿فليلقه اليمّ بالساحل﴾ روى أنها جعلت فى التابوت قطناً محلوجا ، فوضعته فيه وجصصته وقيرته ، ثم ألقته فى اليم وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير ، فبينا هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت ، فأمر به فأخرج ففتح ، فإذا صبي أصبح الناس وجها ، فأحبه عدوّ الله حباً شديداً لا يتمالك أن يصبر عنه . وظاهر اللفظ أنّ البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه ؛ لأنّ الماء يسحله أى يقشره وقذف به ثمة فالتقط من الساحل ، إلا أن يكون قد ألقاه اليم بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون ، ثم أداه النهر إلى حيث البركة ﴿منى﴾ لا يخلو إما أن يتعلق بألقيت ، فيكون المعنى على : أنى أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب . وإما أن يتعلق بمحذوف هو صفة لمحبة ، أى : محبة حاصلة أو واقعة منى ، قد ركزتها أنا فى القلوب وزرعتها فيها ، فلذلك أحبك فرعون وكل من أبصرك . روى أنه كانت على وجهه مسحة جمال ، وفى عينيه ملاحة ، لا يكاد يصبر عنه من رآه ﴿على عينى﴾ لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك وراقبك ، كما يراعى الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به ، وتقول للصانع : اصنع هذا على عينى أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادى وبغيتى . ولتصنع : معطوف على علة مضمرة ، مثل : ليتعطف عليك وترأم [1] ونحوه . أو حذف معلله ، أى :

ـــ ماهذا ؟ قالوا عيلة شطر ماله بينك وبينه ، فأنشأ يقول ذلك . وشبه ماله بعاقر على طريق المكنية . والشكوى إليه تخييل . وضمير : واسى ، بمعنى أعطى لعميلة . ويجوز أنه المال . بناء على التشبيه السابق . وثياب المجد مجاز عن المكارم والاحسان على طريق التصريح ، واستعارتها ترشيح . ومعناه أخذها من أربابها وذهابها من أصحابها ، وذلك كله كناية عن بخل ذوى الأموال . وسابغ الذيل : طويله . واتزر : لبس الازار . ويقرأ بتشديد التاء . ويجوز فتحها مع همزة ساكنة قبلها على الأصل والمجاز كما تقدم . وذلك كناية عن كثرة جوده . ويجوز أن المعنى لما رأى الناس تفتخر بمفاخر غيرهم فقط صنع هو المكارم بنفسه لنفسه ، ورماه الله بالحسن : وضعه فيه بكثرة ، كأنه قذفه فيه بغير حساب . واليافع : الشاب وهو حال . والسيمياء : العلامة لا تشق على البصر كناية عن ظهورها فلا تحتاج إلى تأمل ، كظهور الكواكب . والنحر : أعلى الصدر وأسفل العنق . والشعرا : نجم كثير الضوء . والبيت الثانى بيان للأول . وروى «حباه الله» وروى «علقت فى جبينه» وروى : «وفى جيده القمر» وحباه : أعطاه . والجيد : العنق ، وهذه الرواية أقعد .

(١) قوله «وترأم» أى تحب وتؤلف . أفاده الصحاح . (ع)

ولتصنع فعلت ذلك. وقرئ: ولتصنع ولتصنع، بكسر اللام وسكونها. والجزم على أنه أمر. وقرئ: ولتصنع، بفتح التاء والنصب، أى: وليكون عملك وتصرفك على عين منى.

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)

العامل فى ﴿إذ تمشى﴾ [1] (ألقيت) أو (تصنع) ويجوز أن يكون بدلا من (إذ أوحينا). فإن قلت: كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعدان؟ قلت: كما يصح ـ وإن اتسع الوقت وتباعد طرفاه ـ أن يقول لك الرجل: لقيت فلانا سنة كذا، فتقول: وأنا لقيته إذ ذاك. وربما لقيه هو فى أولها وأنت فى آخرها. يروى أن أخته واسمها مريم جاءت متعرفة خبره، فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها، وذلك أنه كان لا يقبل ثدى امرأة فقالت: هل أدلكم فجاءت بالأم فقبل ثديها. ويروى أن آسية استوهبته من فرعون وتبنته، وهى التى أشفقت عليه وطلبت له المراضع.

هى نفس القبطى الذى استغاثه عليه الإسرائيلى، قتله وهو ابن اثنتى عشرة سنة: اغتم بسبب القتل خوفا من عقاب الله ومن اقتصاص فرعون، فغفر الله له باستغفاره حين قال (رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى) ونجاه من فرعون أن ينشب فيه أظفاره حين هاجر به إلى مدين ﴿فتونا﴾ يجوز أن يكون مصدراً على فعول فى المتعدى، كالثبور والشكور والكفور. وجمع فتن أو فتنة، على ترك الاعتداد بتاء التأنيث، كحجوز وبدور، فى حجزة وبدرة: أى فتناك ضروباً من الفتن. سأل سعيد بن جبير ابن عباس رضى الله عنه، فقال: خلصناك من محنة بعد محنة: ولد فى عام كان يقتل فيه الولدان، فهذه فتنة يا ابن جبير. وألقته أمه فى البحر. وهمّ فرعون بقتله. وقتل قبطياً. وأجر نفسه عشر سنين. وضلّ الطريق وتفرّقت غنمه فى ليلة مظلمة، وكان يقول عند كل واحدة: فهذه فتنة يا ابن جبير. والفتنة: المحنة، وكل ما يشق على الإنسان. وكل ما يبتلى الله به عباده: فتنة. قال (ونبلوكم بالشر والخير فتنة). ﴿مدين﴾ على

---

(١) قال محمود: «العامل فى (إذ تمشى) ألقيت أو تصنع ... الخ» قال أحمد: والمعنى يوجب عمل (ولتصنع) فيه لأن معنى صنيعه على عين الله عز وجل: تربيته مكلوءا بكلاءته مصونا بحفظه، وزمان تربيته على هذه الحالة: هو زمان رده إلى أمه المشفقة الحنانة. وأما إلقاء المحبة عليه، فقيل: ذلك أول ما أخذه فرعون وأحبه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثمانى مراحل من مصر . وعن وهب : أنه لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة ، منها مهر ابنته ، وقضى أوفى الأجلين . أى سبق فى قضائى وقدرى أن أكلمك وأستنبئك ، وفى وقت بعينه قد وقته لذلك ، فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر . وقيل : على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء ، وهو رأس أربعين سنة . هذا تمثيل لما خوله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم . مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه وخصائص ، أهلا لئلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه ، ولا ألطف محلا ، فيصطنعه بالكرامة والأثرة ، ويستخلصه لنفسه . ولا يبصر ولا يسمع إلا بعينه وأذنه ، ولا يأتمن على مكنون سره إلا سواء ضميره [1] .

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)

الونى . الفتور والتقصير . وقرئ : تنيا ، بكسر حرف المضارعة للإتباع ، أى : لا تنسيانى ولا أزال منكما على ذكر حيثما تقلبتما ، واتخذا ذكرى جناحا تصيران به مستمدين بذلك العون والتأييد منى ، معتقدين أن أمراً من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكرى . ويجوز أن يريد بالذكر تبليغ الرسالة ، فإن الذكر يقع على سائر العبادات ، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها ، فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر . روى أن الله تعالى أوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى . وقيل : سمع بمقبله . وقيل : ألهم ذلك . قرئ ﴿ لينا ﴾ بالتخفيف والقول اللين . نحو قوله تعالى (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى) لأنّ ظاهره الاستفهام والمشورة ، وعرض ما فيه من الفوز العظيم . وقيل : عداه شباباً لا يهرم بعده ، وملكا لا ينزع منه إلا بالموت ، وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته . وقيل : لا تجبهاه بما يكره ، وألطفا له فى القول [2] . لما له من حق تربية موسى ، ولما ثبت له من مثل حق الأبوة . وقيل : كنياه وهو من ذوى الكنى الثلاث : أبو العباس ، وأبو الوليد ، وأبو مرة . والترجى لهما ، أى : اذهبا على رجائكما وطمعكما ، وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه ، فهو يجتهد بطوقه ، ويحتشد [3] بأقصى وسعه . وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت

(١) قوله «سواء ضميره» فى الصحاح «سواء الشىء» : وسطه . (ع)
(٢) قوله «وقيل : لا تجبهاه بما يكره» فى الصحاح «جبهته بالمكروه» إذا استقبلته به ، وفيه «اللطف فى العمل» الرفق به . (ع)
(٣) قوله «ويحتشد بأقصى وسعه» أى يستعد ويتأهب . أفاده الصحاح . (ع)

إلينا رسولا فنتبع آياتك) أى: يتذكر ويتأمّل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق ﴿أو يخشى﴾ أن يكون الأمر كما تصفان، فيجرّه إنكاره إلى الهلكة.

قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (٤٥)

فرط: سبق وتقدّم. ومنه الفارط: الذى يتقدّم الواردة. وفرس فرط: يسبق الخيل، أى: نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها. وقرئ ﴿يفرط﴾ من أفرطه غيره إذا حمله على العجلة. خافا أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقاب (١) من شيطان، أو من جبروته واستكباره وادّعائه الربوبية. أو من حبه الرياسة، أو من قومه القبط المتمرّدين الذين حكى عنهم ربّ العزّة (قال الملأ من قومه) (وقال الملأ من قومه) وقرئ: يفرط، من الإفراط فى الأذية، أى: نخاف أن يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة بالمعاجلة. أو يجاوز الحدّ فى معاقبتنا إن لم يعاجل، بناء على ماعرفا وجرّبا من شرارته وعتوه ﴿أو أن يطغى﴾ بالتخطى إلى أن يقول فيك ما لا ينبغى، لجرأته عليك وقسوة قلبه. وفى المجىء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز: باب من حسن الأدب وتحاش عن التفوه بالعظيمة.

قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨)

﴿معكما﴾ أى حافظكما وناصركما ﴿أسمع وأرى﴾ مايجرى بينكما وبينه من قول وفعل، فأفعل مايوجبه حفظى ونصرتى لكما، فجائز أن يقدّر أقوالكم وأفعالكم. وجائز أن لا يقدّر شىء، وكأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر. وإذا كان الحافظ والناصر كذلك، تمّ الحفظ وصحت النصرة، وذهبت المبالاة بالعدو. كانت بنو إسرائيل فى ملكة فرعون والقبط، يعذبونهم بتكليف الأعمال الصعبة: من الحفر والبناء ونقل الحجارة، والسخرة فى كل شىء، مع قتل الولدان، واستخدام النساء ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ جملة جارية من الجملة الأولى

(١) قال محمود: «معنى يفرط علينا يعجل بعقوبتنا ..، الخ» قال أحمد: وإذا روعى فى الأدب إطلاق هذه اللفظة عن مجرورها، فلا يبعد أن يراعى فى الأدب بالاعتراف بتقلد منة الله عز وجلّ زيادة المجرور فى قوله (اشرح لى صدرى) كما قدمته آنفا، والله أعلم.

وهى (إنا رسولا ربك) مجرى البيان والتفسير؛ لأنّ دعوى الرسالة لاتثبت إلا ببينتها التى هى المجيء بالآية . إنما وحد قوله (بآية) ولم يثن ومعه آيتان ؛ لأنّ المراد فى هذا الموضع تثبيت الدعوى ببرهانها . فكأنه قال : قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ماادعيناه من الرسالة ، وكذلك (قدجئتكم ببينةمن ربكم) ، (فأت بآيةإن كنت من الصادقين) ، (أو لو جئتك بشيء مبين) يريد : وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين ، وتوبيخ خزنة النار والعذاب على المكذبين .

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾

خاطب الاثنين ، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى ؛ لأنه الأصل فى النبوة ، وهرون وزيره وتابعه . ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته [1] على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه ، لما عرف من فصاحة هرون والرتة فى لسان موسى . ويدل عليه قوله (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) . ﴿خلقه﴾ أول مفعولى أعطى . أى : أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به . أو ثانيهما ، أى : أعطى كل شيء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ، كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الإبصار ، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع ، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان : كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة ، غير ناب عنه . أو أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة ، حيث جعل الحصان والحجر [2] زوجين ، والبعير والناقة ، والرجل والمرأة ، فلم يزاوج منها شيئاً غير جنسه وما هو على خلاف خلقه . وقرئ : خلقه ، صفة للمضاف أو للمضاف إليه ، أى : كل شيء خلقه الله لم يخله من عطائه وإنعامه ﴿ثم هدى﴾ أى عرف كيف يرتفق بما أعطى ، وكيف يتوصل إليه . ولله درّ هذا الجواب ماأخصره وما أجمعه ، وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالباً للحق .

قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِأُولِى النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾

---

(١) قوله «يحمله خبثه ودعارته» أى فساده وفسقه . (ع)

(٢) قوله «والحجر» بكسر الحاء وسكون الجيم : الأنثى من الخيل : اه مصححه .

سأله عن حال من تقدم وخلا من القرون ، وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد ، فأجابه بأنّ هذا سؤال عن الغيب ، وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو ، وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرنى به علام الغيوب ، وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله فى اللوح المحفوظ ، لا يجوز على الله أن يخطئ شيئاً أو ينساه . يقال : ضللت الشيء إذا أخطأته فى مكانه فلم تهتد له ، كقولك : ضللت الطريق والمنزل . وقرئ : يضل ، من أضله إذا ضيعه . وعن ابن عباس : لا يترك من كفر به حتى ينتقم منه ، ولا يترك من وحده حتى يجازيه . ويجوز أن يكون فرعون قد نازعه فى إحاطة الله بكل شيء وتبينه لكل معلوم ، فتعنت وقال : ما تقول فى سوالف القرون ، وتمادى كثرتهم ، وتباعد أطراف عددهم ، كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم ؟ فأجاب بأنّ كل كائن محيط به علمه ، وهو مثبت عنده فى كتاب ، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان ، كما يجوزان عليك أيها العبد الذليل والبشر الضئيل ، أى : لا يضل كما تضل أنت ، ولا ينسى كما تنسى يامدعى الربوبية بالجهل والوقاحة ﴿ الذى جعل ﴾ مرفوع صفة لربى . أو خبر مبتدإ محذوف أو منصوب على المدح ، وهذا من مظانه ومجازه ﴿ مهدا ﴾ قراءة أهل الكوفة ، أى : مهدها مهداً . أو يتمهدونها فهى لهم كالمهد وهو ما يمهد للصبي ﴿ وسلك ﴾ من قوله تعالى (ما سلككم فى سقر) ، (سلكناه) ، (نسلكه فى قلوب المجرمين) أى حصل لكم فيها سبلا ووسطها بين الجبال والأودية والبرارى ﴿ فأخرجنا ﴾ انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع ، لما ذكرت من الافتنان[1] والايذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره ، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته ، لا يمتنع شيء على إرادته . ومثله قوله تعالى (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء) ، (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) ، (أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة) وفيه تخصيص أيضاً بأنا نحن نقدر على مثل هذا ،

---

(١) قال محمود «وهذا من باب الالتفات ... الخ» قال أحمد : الالتفات إنما يكون فى كلام المتكلم الواحد ، يصرف كلامه على وجوه شتى ، وما نحن فيه ليس من ذلك ؛ فإن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون (علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) ثم قوله (الذى جعل لكم الأرض مهدا) إلى قوله (فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) إما أن يجعل من قول موسى فيكون من باب قول خواص الملك : أمرنا وعمرنا ، وإنما يريدون الملك ، وليس هذا بالتفات . وإما أن يكون كلام موسى قد انتهي عند قوله (ولا ينسى) ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه ، فليس التفاتا أيضاً ، وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب ، وعلى هذا التأويل ينبغى للقارئ أن يقف وقيفة عند قوله (ولا ينسى) ليستقر بانتهاء الحكاية . ويحتمل وجها آخر : وهو أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة فقال (الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا) (وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى) فلما حكاه الله تعالى عنه أسند الضمير إلى ذاته ، لأن الحاكى هو المحكى فى كلام موسى ، فرجع الضميرين واحد ، وهذا الوجه وجه حسن دقيق الحاشية ، وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات ، لكن الزمخشرى لم يعنه ، والله أعلم .

ولا يدخل تحت قدرة أحد ﴿أزواجا﴾ أصنافا ، سميت بذلك لأنها مزدوجة ومقترنة بعضها مع بعض ﴿شتى﴾ صفة للأزواج ، جمع شتيت ، كمريض ومرضى. ويجوز أن يكون صفة للنبات ، والنبات مصدر سمى به النابت كما سمى بالنبت ، فاستوى فيه الواحد والجمع ، يعنى أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل ، بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم . قالوا : من نعمته عز وعلا أن أرزاق العباد إنما تحصل بعمل الأنعام ، وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتهم ولا يقدرون على أكله ، أى قائلين ﴿كلوا وارعوا﴾ حال من الضمير فى (فأخرجنا) المعنى : أخرجنا أصناف النبات آذنين فى الانتفاع بها ، مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها .

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

أراد بخلقهم من الأرض خلق أصلهم هو آدم عليه السلام منها . وقيل إن الملك لينطلق فيأخذ من تربة المكان الذى يدفن فيه فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة معاً . وأراد بإخراجهم منها أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب ، ويردهم كما كانوا أحياء ، ويخرجهم إلى المحشر (يوم يخرجون من الأجداث سراعا) عدد الله عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم ، حيث جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها ، وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاؤا ، وأنبت فيها أصناف النبات التى منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم ، وهى أصلهم الذى منه تفرعوا ، وأمهم التى منها ولدوا ، ثم هى كفاتهم إذا ماتوا[1] . ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة»[2] .

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾

﴿أريناه﴾ بصرناه أو عرفناه صحتها ويقناه بها . وإنما كذب لظلمه ، كقوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً) وقوله تعالى (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) وفى قوله تعالى ﴿آياتنا كلها﴾ وجهان ، أحدهما : أن يحذى بهذا التعريف الإضافى حذو التعريف باللام لو قيل الآيات كلها ، أعنى أنها كانت لا تعطى إلا تعريف العهد ، والإشارة إلى الآيات المعلومة التى هى تسع الآيات المختصة بموسى عليه السلام : العصا ، واليد ، وفلق البحر ، والحجر ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، ونتق الجبل . والثانى : أن يكون موسى قد أراه آياته وعدد عليه ما أوتيه غيره من الأنبياء من آياتهم ومعجزاتهم ، وهو نبى صادق لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به ، فكذبها جميعا ﴿وأبى﴾ أن يقبل شيئاً منها . وقيل :

---

(١) قوله «ثم هى كفاتهم إذا ماتوا» أى موضعهم الذى يضمون فيه . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة عن علية عن عوف عن ابن عثمان به مرسلا . وأخرجه الطبرانى فى الصغير من رواية الفريانى عن الثورى عن عوف . وصله بذكر سلمان قال ابن طاهر : المرسل أولى بالصواب .

فكذب الآيات وأبى قبول الحق .

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ (٥٧)

يلوح من جيب قوله ﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك﴾ أن فرائصه كانت ترعد خوفا مما جاء به موسى عليه السلام ، لعلمه وإيقانه أنه على الحق ، وأن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت وأن مثله لايخذل ولا يقل ناصره ، وأنه غالبه على ملكه لامحالة . وقوله (بسحرك) تعلل وتحير وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحرا لايقدر أن يخرج ملكا مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر .

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠)

لايخلو الموعد فى قوله ﴿فاجعل بيننا وبينك موعدا﴾ من أن يجعل زمانا أو مكانا أو مصدراً . فإن جعلته زمانا نظراً فى أن قوله تعالى (موعدكم يوم الزينة) مطابق له ، لزمك شيئان أن تجعل الزمان مخلفا ، وأن يعضل عليك ناصب مكانا : وإن جعلته مكانا لقوله تعالى (مكانا سوى) لزمك[1] . أيضاً أن توقع الإخلاف على المكان ، وأن لايطابق قوله (موعدكم يوم

(١) قال محمود : « إن جعلت موعداً الأول اسم مكان ليطابق قوله مكانا سوى لزمك ... الخ ، قال أحمد : وفى إعماله وقد وصف بقوله (لانخلفه) بعد ، إلاأن تجعل الجملةمعترضة ، فهو مع ذلك لايخلو من بعد ، من حيث أن وقوع الجملة عقيب النكرة بحيزها ، الشأن أن تكون صفة ، والله أعلم . ويحتمل عندى وجه آخر أخصر وأسلم ، وهو أن يجعل موعداً اسم مكان فيطابق مكانا ، ويكون بدلا منه ، ويطابق الجواب بالزمان بالتقرير الذى ذكره ، ويبقى عود الضمير ، فنقول : هو والحالة هذه عائد على المصدر المفهوم من اسم المكان ؛ لأن حروفه فيه . والموعد إذا كان اسم مكان فحاصله مكان وعد ، كما إذا كان اسم زمان فحاصله زمان وعد . وإذا جاز رجوع الضمير إلى مادلت قوة الكلام عليه وإن لم يكن منطوقا به بوجه ، فرجوعه إلى ماهو كالمنطوق به أولى . ومما يحقق ذلك أنهم قالوا : من صدق كان خيرا له . يعنون : كان الصدق خيراً له ، فأعادوا الضمير على المصدر وقدروه منطوقا به للنطق بالفعل الذى هو مشتق منه . وإذا أوضح ذلك فاسم المكان مشتق من المصدر اشتقاق الفعل منه ، فالنطق به كاف فى إعادة الضمير على مصدره والله أعلم . وعلى هذين التأويلين يكون جواب موسى عليه السلام من جوامع كلم الأنبياء ؛ لأنه سئل أن يواعدهم مكانا فعلم أنهم لابد أن يسألوه مواعدة على زمان أيضا ، فأسلف الجواب عنه وضمنها جوابا مفرداً ، ولقائل أن يقول : إن كان المسئول منه المواعدة على المكان فلم أجاب بالزمان الذى لم يسئل عنه صريحاً ، وجعل جواب ماسئل عنه مضمنا . وجوابه ـ والله أعلم ـ أن يقال اكتفى بقرينة السؤال عن صريح الجواب . وأما مالم يسئل عنه فلو ضمنه لم يفهم قصده إليه ؛ إذ لاقرينة تدل عليه والله أعلم .

الزينة) وقراءة الحسن غير مطابقة لهمكانا وزمانا جميعاً ، لأنه قرأ (يوم الزينة) بالنصب ، فبقى أن يجعل مصدرا بمعنى الوعد ، ويقدر مضاف محذوف ، أى : مكان موعد ، ويجعل الضمير فى (نخلفه) للموعد و (مكانا) بدل من المكان المحذوف . فإن قلت . فكيف طابقه قوله (موعدكم يوم الزينة) ولا بد من أن تجعله زمانا . والسؤال واقع عن المكان لا عن الزمان ؟ قلت : هو مطابق معنى وإن لم يطابق لفظاً ، لأنهم لا بدّ لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة فى مكان بعينه ، مشتهر باجتماعهم فيه فى ذلك اليوم ، فبذكر الزمان علم المكان . وأما قراءة الحسن فالموعد فيها مصدر لا غير . والمعنى : إنجاز وعدكم يوم الزينة . وطباق هذا أيضا من طريق المعنى . ويجوز أن لا يقدر مضاف محذوف . ويكون المعنى : اجعل بيننا وبينك وعدا لا نخلفه . فإن قلت : فبم ينتصب مكانا ؟ قلت : بالمصدر . أو بفعل يدل عليه المصدر . فإن قلت : فكيف يطابقه الجواب؟ قلت : أما على قراءة الحسن فظاهر . وأما على قراءة العامة فعلى تقدير : وعدكم وعد يوم الزينة . ويجوز على قراءة الحسن أن يكون (موعدكم) مبتدأ ، بمعنى الوقت . و(ضحى) خبره ، على نية التعريف فيه لأنه ضحى ذلك اليوم بعينه . وقيل فى يوم الزينة : يوم عاشوراء ، ويوم النيروز[1] ، ويوم عيد كان لهم فى كل عام ، ويوم كانوا يتخذون فيه سوقا ويتزينون ذلك اليوم . قرئ ﴿نخلفه﴾ بالرفع على الوصف للموعد . وبالجزم على جواب الأمر . وقرئ ﴿سوى﴾ وسوى ، بالكسر والضم ، ومنونا وغير منون . ومعناه : منصفاً بيننا[2] وبينك عن مجاهد ، وهو من الاستواء ؛ لأنّ المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية لا تفاوت فيها . ومن لم ينون فوجهه أن يجرى الوصل مجرى الوقف . قرئ ﴿وأن تحشر الناس﴾ بالتاء والياء . يريد : وأن تحشر يا فرعون . وأن يحشر اليوم . ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة إما على العادة التى يخاطب بها الملوك ، أو خاطب القوم بقوله (موعدكم) وجعل (يحشر) لفرعون . ومحل (أن يحشر) الرفع أو الجر . عطفاً على اليوم أو الزينة : وإنما واعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور دينه وكبت الكافر[3] وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد وفى المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب فى اتباع الحق ، ويكل حدّ المبطلين وأشياعهم . ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم فى كل بدو وحضر ، ويشيع فى جميع أهل الوبر والمدر .

قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾

---

(١) قوله «ويوم النيروذ» لعله النيروز بالزاى كعبارة غيره . (ع)

(٢) قوله «منصفاً بيننا» أى وسطاً ، كما فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله «وكبت الكافر» أى إذلاله . أفاده الصحاح . (ع)

﴿لا تفتروا على الله كذبا﴾ أى لا تدعوا آياته ومعجزاته سحرا . قرئ ﴿فيسحتكم﴾ والسحت لغة أهل الحجاز . والإسحات : لغة أهل نجد وبنى تميم . ومنه قول الفرزدق :

* ... ... إلاَّ مُسْحتًا أوْ مُجَلَّفُ *

فى بيت لاتزال الركب تصطك فى تسوية إعرابه[1] :

فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

عن ابن عباس : إن نجواهم : إن غلبنا موسى اتبعناه . وعن قتادة : إن كان ساحراً فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر . وعن وهب لما قال (ويلكم ... الآية) قالوا : ما هذا بقول ساحر. والظاهر أنهم تشاوروا فى السر وتجاذبوا أهداب القول . ثم قالوا : إن هذان لساحران ، فكانت نجواهم فى تلفيق هذا الكلام وتزويره ، خوفا من غلبتهما ، وتثبيطاً للناس عن اتباعهما . قرأ أبو عمرو ﴿إن هذين لساحران﴾ على الجهة الظاهرة المكشوفة . وابن كثير وحفص : إن هذان لساحران ، على قولك : إن زيد لمنطلق . واللام هى الفارقة بين إن النافية والمخففة من الثقيلة . وقرأ أبىّ : إن ذان إلا ساحران . وقرأ ابن مسعود : أن هذان ساحران : بفتح أن وبغير لام، بدل من النجوى . وقيل فى القراءة المشهورة (إن هذان لساحران) هى لغة بلحرث بن كعب ، جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التى آخرها ألف ، كعصا وسعدى . فلم يقلبوها ياء فى الجر والنصب . وقال بعضهم : (أن) بمعنى نعم . و (ساحران) خبر مبتدأ محذوف . واللام داخلة على الجملة تقديره : لهما ساحران . وقد أعجب به أبو إسحق . سموا مذهبهم الطريقة ﴿المثلى﴾ والسنة الفضلى ، وكل حزب بما لديهم فرحون . وقيل : أرادوا أهل طريقتهم المثلى ، وهم بنو إسرائيل ، لقول موسى (فأرسل معنا بنى إسرائيل) وقيل « الطريقة » اسم لوجوه الناس وأشرافهم الذين هم قدوة لغيرهم . يقال : هم طريقة قومهم . ويقال للواحد أيضا : هو طريقة قومه ﴿فأجمعوا كيدكم﴾ يعضده قوله (فجمع كيده) وقرئ (فأجمعوا كيدكم) أى أزمعوه واجعلوه مجمعاً عليه ، حتى لا تختلفوا ولا يخلف عنه واحد منكم ، كالمسألة المجمع عليها . أمروا بأن يأتوا

(١) قوله «فى بيت لاتزال الركب تصطك فى تسوية إعرابه» هو قوله :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

والمسحت : المهلك . والمجلف : الذى أخذ من جوانبه ، كما فى الصحاح . (ع)

صفاً لأنه أهيب فى صدور الرائين. وروى أنهم كانوا سبعين ألفا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقد أقبلوا إقبالة واحدة. وعن أبى عبيدة أنه فسر الصف بالمصلى، لأن الناس يجتمعون فيه لعيدهم وصلاتهم مصطفين. ووجه صحته أن يقع علما لمصلى بعينه، فأمروا بأن يأتوه. أو يراد. ائتوا مصلى من المصليات ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ اعتراض. يعنى: وقد فاز من غلب.

قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾
قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾

﴿أن﴾ مع ما بعده إما منصوب بفعل مضمر. أو مرفوع بأنه خبر مبتدإ محذوف. معناه: اختر أحد الأمرين، أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا. وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه، وتواضع له وخفض جناح، وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم[1]، وكأن الله عز وعلا ألهمهم ذلك، وعلم موسى صلوات الله عليه اختيار إلقائهم أولا، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر. ويستنفدوا أقصى طوقهم ومجهودهم، فإذا فعلوا: أظهر الله سلطانه وقذف بالحق على الباطل فدمغه، وسلط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين، وعبرة بينة للمعتبرين. يقال فى (إذا) هذه: إذا المفاجأة. والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت، الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها، خصت فى بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلا مخصوصاً وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير. فتقدير قوله تعالى ﴿فإذا حبالهم وعصيهم﴾ ففاجأ موسى وقت تخييل سعى حبالهم وعصيهم. وهذا تمثيل. والمعنى: على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعى. وقرئ ﴿عصيهم﴾ بالضم وهو الأصل. والكسر إتباع. ونحوه: دُلى ودِلى. وقُسى وقِسى. وقرئ ﴿تخيل﴾ على إسناده إلى ضمير الحبال والعصى وإبدال قوله ﴿أنها تسعى﴾ من الضمير بدل الاشتمال، كقولك: أعجبنى زيد كرمه. وتخيل على كون الحبال والعصى مخيلة سعيها. وتخيل. بمعنى تتخيل. وطريقه طريق تخيل. ونخيل: على أن الله تعالى هو المخيل للمحنة والابتلاء. يروى أنهم لطخوها بالزئبق، فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت. فخيلت ذلك.

---

(١) قال محمود: «لقد ألهمهم الله حسن الأدب مع موسى عليه السلام فى تخييره وإعطاء النصفة من أنفسهم» قال أحمد: وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم (فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه) ففوضوا ضرب الموعد إليه، وكما ألهم الله عز وجل موسى ههنا أن يجعلهم مبتدئين بما معهم ليكون إلقاؤه العصا بعد قذفا بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق، كذلك ألهمه من الأول أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم، ليكون الحق أبلج على رؤس الأشهاد، فيكون أفضح لكيدهم وأهتك لستر حرمهم، والله أعلم

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩)

إيجاس الخوف : إضمار شيء منه . وكذلك توجس الصوت : تسمع نبأة يسيرة [١] منه ، وكان ذلك لطبع الجبلة البشرية ، وأنه لا يكاد يمكن الخلو من مثله . وقيل : خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه ﴿إنك أنت الأعلى﴾ فيه تقرير لغلبته وقهره ، وتوكيد بالاستئناف وبكلمة التشديد وبتكرير الضمير وبلام التعريف وبلفظ العلوّ وهو الغلبة الظاهرة وبالتفضيل . وقوله ﴿ما في يمينك﴾ ولم يقل عصاك [٢] : جائز أن يكون تصغيراً لها ، أى : لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم ، وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذى فى يمينك ، فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها . وجائز أن يكون تعظيما لها [٣] أى : لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة ، فإن فى يمينك شيئاً أعظم منها كلها ، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده ، فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها . وقرئ ﴿تلقف﴾ بالرفع على الاستئناف . أو على الحال ، أى : ألقها متلقفة . وقرئ : تلقف ، بالتخفيف [٤] . ﴿صنعوا﴾ ههنا بمعنى زوّروا وافتعلوا ، كقوله

---

(١) قوله «نبأة يسيرة» فى الصحاح «النبأة» : الصوت الخفى . (ع)

(٢) قال محمود : «وقال ما فى يمينك ولم يقل عصاك ... الخ» قال أحمد : وإنما المقصود بتحقيرها فى جنب القدرة تحقير كيد السحرة بطريق الأولى ؛ لأنها إذا كانت أعظم منه وهى حقيرة فى جانب قدرة الله تعالى ، فالظن بكيدهم وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة ؟ ولأصحاب البلاغة طريق فى علو المدح بتعظيم جيش عدو الممدوح ، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح وقد قهره واستولى عليه . فصغر الله أمر العصا ليلزم منه تصغير كيد السحرة الداحض بها فى طرفة عين .

(٣) عاد كلامه . قال محمود : «ويجوز أن يكون تعظيما لأمرها إذ فيه تثبيت لقلب موسى على النصر» قال أحمد : وههنا لطيفة : وهو أنه تلقى من هذا النظم أولا قصد التحقير ، وثانياً قصد التعظيم ، فلا بد من نكتة تناسب الأمرين وتلك ـ والله أعلم ـ هى إرادة المذكور مبهماً ، لأن ما فى يمينك أبهم من عصاك . وللعرب مذهب فى التنكير والابهام والاجمال ، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أبهمته وأنه عند الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه ، ومرة لتعظيم شأنه وليؤذن أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان يغنى فيه الرمز والاشارة . فهذا هو الوجه فى إسعاده بهما جميعاً . وعندى فى الآية وجه سوى قصد التعظيم والتحقير والله أعلم ، وهو أن موسى عليه السلام أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى عند ماسأله عنها بقوله تعالى (وما تلك بيمينك ياموسى) ثم أظهر له تعالى آيتها . فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها قال تعالى (وألق ما فى يمينك) ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذى قال الله تعالى له (وما تلك بيمينك) وقد أظهر له آيتها ، فيكون ذلك تنبيهاً له وتأنيساً حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها ، وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت . ألا ترى إلى قوله تعالى (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(٤) قوله «وقرئ تلقف بالتخفيف» عبارة النسفى : تلقف بسكون اللام والفاء وتخفيف القاف : حفص . وتلقف : ابن ذكوان . الباقون تلقف ، فليحرر . (ع)

تعالى (تلقف ما يأفكون) قرئ ﴿كيد ساحر﴾ بالرفع والنصب . فمن رفع فعلى أنّ (ما) موصولة . ومن نصب فعلى أنها كافة . وقرئ : كيد سحر ، بمعنى :ذى سحر : أو ذوى سحر . أو هم لتوغلهم فى سحرهم كأنهم السحر بعينه وبذاته . أو بين الكيد [١] ، لأنه يكون سحراً وغير سحر ، كما تبين المائة بدرهم . ونحوه : علم فقه ، وعلم نحو . فإن قلت : لم وحد ساحر ولم يجمع ؟ قلت :لأنّ القصد فى هذا الكلام إلى معنى الجنسية ، لا إلى معنى العدد ، فلو جمع ، لخيل أنّ المقصود هو العدد . ألا ترى إلى قوله ﴿ولا يفلح الساحر﴾ أى هذا الجنس. فإن قلت: فلم نكر أوّلا وعرف ثانيا ؟ قلت : إنما نكر من أجل تنكير المضاف ، لا من أجل تنكيره فى نفسه ، كقول العجاج :

* فِى سَعْيِ دُنْيَا طَالَمَا قَدْ مُدَّتْ * [٢]

وفى حديث عمر رضى الله عنه « لا فى أمر دنيا ولا فى أمر آخرة » [٣] المراد تنكير الأمر ، كأنه قيل : إن ما صنعوا كيد سحرى . وفى سعى دنيوى . وأمر دنيوى وآخرى ﴿حيث أتى﴾ كقولهم : حيث سير ، وأية سلك ، وأينما كان .

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)

سبحان الله ما أعجب أمرهم . قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ! [٤] وروى أنهم لم يرفعوا رؤسهم

---

(١) قوله «أو بين الكيد» لعله بعده سقطاً تقديره « بالسحر » . (ع)

(٢)
الحمد لله الذى استقلت ... باذنه السماء واطمأنت
باذنه الأرض وماتعنت ... أوحى لها القرار فاستقرت
وشدها بالراسيات الثبت ... والجاعل الغيث غياث الأمت
والجامع الناس ليوم البعث ... بعد الممات وهو محيي الموت
يوم ترى النفوس ما أعدت ... من نزل إذا الأمور غبت
فى سعى دنيا طالما تعنت

استقلت : ارتفعت . واطمأنت : انخفضت . وفى الشعر التضمين . والتعنت: الاتعاب أو التأخر والتثاقل ، من العنا وهو التعب . وأوحى لها : ألهمها . والثبت : جمع ثابت . والوقف على هاء التأنيث . كالأمت بالتاء قليل . والموت : جمع مائت . والنزل : ما يعد للضيف ، استعارة لما يقدمه الانسان من الأعمال . وغبت : بلغت غبها رغايتها . وفى سعى : متعلق به . أو بتعنت بعده ، أى : تعبت أو أتعبت . وضمن على المعنى الأول للنفوس ، وعلى الثانى للدنيا . ونكرها لتنكير السعى دلالة على التقليل ، أى : فى سعى دنيوى قليل .

(٣) ذكره صاحب النهاية بغير إسناد . وفى الباب عن ابن مسعود . وسيأتى فى (ألم نشرح) أتم من هذا .

(٤) قال محمود : « سبحان من فرق بين الالقاءين إلقائهم حبالهم وعصيهم ... الخ» قال أحمد : وفى تكرير لفظ الالقاء والعدول عن مثل : فسجد السحرة ، إيقاظ السامع لألطاف الله تعالى فى نقله عباده من غاية الكفر والعناد إلى نهاية الايمان والسداد ، وهذا الايقاظ لا يحصل على الوجه إلى هذا القصد إلا بتكرير لفظ واحد على معنيين متناقضين ، وهو يناسب ما قدمته آنفا فى إيجاز الخطاب فى قوله (وألق ما فى يمينك) ، (وما تلك بيمينك) فتأمله فان الحق حسن متناسب ، والله الموفق .

حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها . وعن عكرمة : لما خروا سجداً أراهم الله فى سجودهم منازلهم التى يصيرون إليها فى الجنة .

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

﴿لكبيركم﴾ لعظيمكم ، يريد : أنه أسحرهم وأعلاهم درجة فى صناعتهم . أو لمعلمكم ، من قول أهل مكة للمعلم : أمرنى كبيرى ، وقال لى كبيرى : كذا يريدون معلمهم وأستاذهم فى القرآن وفى كل شىء . قرئ ﴿فلأقطعن﴾ ولأصلبن . بالتخفيف . والقطع من خلاف : أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ؛ لأنّ كل واحد من العضوين خالف الآخر ، بأن هذا يد وذاك رجل ، وهذا يمين وذاك شمال . و « من » لابتداء الغاية : لأن القطع مبتدأ وناشئ من مخالفة العضو العضو ، لا من وفاقه إياه . ومحل الجار والمجرور النصب على الحال ، أى : لأقطعنها مختلفات ؛ لأنها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتصفت بالاختلاف . شبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن الشىء الموعى فى وعائه ، فلذلك قيل (فى جذوع النخل) . ﴿أينا﴾ يريد نفسه لعنه الله وموسى صلوات الله عليه بدليل قوله (آمنتم له) واللام مع الإيمان فى كتاب الله لغير الله تعالى ، كقوله تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) وفيه نفاجة [١] باقتداره وقهره ، وما ألفه وضرى به : من تعذيب الناس بأنواع العذاب . وتوضيع لموسى عليه السلام ، واستضعاف له مع الهزء به ؛ لأن موسى لم يكن قط من التعذيب فى شىء .

قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّٰلِحَٰتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

(١) قوله « وفيه نفاجة » فى الصحاح « رجل نفاج » إذا كان صاحب فخر وكبر . (ع)

﴿والذى فطرنا﴾ عطف على ماجاءنا أو قسم. قرئ ﴿تقضى هذه الحياة الدنيا﴾ ووجهها أن الحياة فى القراءة المشهورة منتصبة على الظرف، فاتسع فى الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، كقولك فى «صمت يوم الجمعة»: «صيم يوم الجمعة» وروى أن السحرة - يعنى رؤسهم - كانوا اثنين وسبعين: الاثنان من القبط، والسائر من بنى إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر. وروى أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائما ففعل، فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر؛ لأن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه ﴿تزكى﴾ تطهر من أدناس الذنوب. وعن ابن عباس: قال لا إله إلا الله. قيل فى هذه الآيات الثلاث: هى حكاية قولهم. وقيل: خبر من الله، لا على وجه الحكاية.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

﴿فاضرب لهم طريقاً﴾ فاجعل لهم، من قولهم: ضرب له فى ماله سهما. وضرب اللبن: عمله. اليبس: مصدر وصف به. يقال: يبس يبسا ويبسا[1]. ونحوهما: العدم والعدم. ومن ثم وصف به المؤنث فقيل: شاتنا يبس، وناقتنا يبس: إذا جف لبنها. وقرئ: يبسا، ويابسا. ولا يخلو اليبس من أن يكون مخففا عن اليبس. أو صفة على فعل. أو جمع يابس، كصاحب وصحب، ووصف به الواحد تأكيداً، كقوله: «...... وَمِعًى جِيَاعًا»[2]

(١) قال محمود: «قرئ بسكون الباء وبفتحها ... الخ» قال أحمد: ووجه آخر وهو أن قدر كل جزء من أجزاء الطريق طريقا، وقد كانت بهذه المثابة لأنها كانت اثنى عشر طريقا لكل سبط طريق، والله أعلم.

(٢) كأن قتود رحلى حين ضمت ... حوالب غرزا ومعى جياعا
على وحشية خذلت خلوج ... وكان لها طلا طفل فضاعا
فكرت تبتغيه فصادفته ... على دمه ومصرعه السباعا

للقطامى فى مدح زفر بن الحرث الكلابى. والقتود: عيدان الرحل: جمع أقتاد: جمع قتد. والحالبان: عرقان يكتنفان السرة. والغرز: جمع غارز - بتقديم الراء - قليلات اللبن، ضد الغزر بتقديم الزاى. والمعي: مجرى الطعام فى البطن من الحوايا. وصفه بصورة الجمع - وهو جياعا - مبالغة. والمعنى: جائعا. وهذا كناية عن هزال الناقة من شدة السير. وفيه إيماء لفقره وفاقته. و«على وحشية» خبر كان. والوحشية: الظبية. وخذلت: صفتها، أى: تركها سرب الظباء. وخلوج: صفة أخرى. وخلج واختلج: اضطرب وذهب. وخلجه واختلجه: انتزعه واجتذبه. والخلوج: التى اختلج ولدها من الظباء أو الابل. أو التى اختلج قلبها لعدم رؤيته. والطلا: ولد الظبية ونحوها من ذوات الظلف، طفل: أى صغير، فكرت: رجعت بسرعة تطلبه. والسباع: بدل إضرابى انتقالى من ضمير صادفته. أو نصب بمضمر دل عليه صادفته، أى: صادفت السباع واقفة على دمه ومصرعه، أى: محل طرحه على الأرض. شبه الناقة بها فى تلك الحال لسرعتها ويقظتها.

جعله لفرط جوعه كجماعة جياع ﴿لاتخاف﴾ حال من الضمير فى (فاضرب) وقرئ : لاتخف ، على الجواب . وقرأ أبو حيوة ﴿دركا﴾ بالسكون . والدرك والدرك : اسمان من الإدراك ، أى : لايدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك . فى ﴿ولا تخشى﴾ إذا قرئ : لا تخف ، ثلاثة أوجه : أن يستأنف ، كأنه قيل وأنت لاتخشى ، أى : ومن شأنك أنك آمن لاتخشى ، وأن لاتكون الألف المنقلبة عن الياء التى هى لام الفعل ولكن زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة ، كقوله (فأضلونا السبيلا) ، (وتظنون بالله الظنونا) وأن يكون مثله قوله :

* كَأَنْ لَمْ تَرَى قَبْلِي أَسِيرًا يَمَانِيَا * (١)

﴿ما غشيهم﴾ من باب الاختصار ، ومن جوامع الكلم التى تستقل مع قلتها بالمعانى الكثيرة ، أى : غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله . وقرئ : فغشاهم من اليم ما غشاهم . والتغشية : التغطية . وفاعل غشاهم : إما الله سبحانه . أو ما غشاهم . أو فرعون ؛ لأنه الذى ورط جنوده وتسبب لهلاكهم . وقوله ﴿وما هدى﴾ تهكم به (٢) فى قوله (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) .

يَـٰبَنِي إِسْرَاءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ

---

(١) وتضحك منى شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلى أسيرا يمانيا
وظل نساء الحى حولى ركدا يراودن منى ما تريد نسائيا

لعبد يغوث بن وقاص الحارثى ، أسر يوم الكلاب فى بنى تميم ، فقال قصيدة يذكر فيها حاله منها ذلك . والشيخة : العجوز . والعبشمية : المنسوبة لعبدشمس . وهو باب من النحت . وأثبت الألف فى «ترى» مع أنه مجزوم لضرورة الوزن ، أو للاتساع . وقيل إنها عين الفعل . وأصله ترأى حذفت لامه للجزم . ونقلت حركة الهمزة للراء ، وأبدلت الفاء . وحكى إعمال «لم» للنصب . وحكى أيضا إهمالها . وقياس النسبة إلى «يمن» : «يمنى» لكنهم حذفوا إحدى ياءى النسب ، وعوضوا عنها الألف ، وكان الذى يقوده صبيا ، فسألته : من أنت ؟ فقال : سيد القوم ، فضحكت منه . والركد ـ كركع ـ : جمع راكدة ، أى مقيمة لاتذهب من عنده . والمراودة : مفاعلة من راد يرود إذا تعرف حال المكان متطلبا للخصب ، وهو قريب من معنى أراد يريد ، أى : يتطلبن منى بلطف واختبار : هل أرضى أولا ؟ الشىء الذى تريده نسائى منى ، وهو الجماع .

(٢) قال محمود : «إنما قيل وما هدى تهكما به» قال أحمد : فان قلت : التهكم أن يأتى بعبارة والمقصود عكس مقتضاها ، كقولهم : إنك لأنت الحليم الرشيد ، وغرضهم وصفه بضد هذين الوصفين . وأما قوله تعالى (وماهدى) فضمونه هو الواقع ، فهو حينئذ مجرد إخبار عن عدم هدايته لقومه . قلت : هو كذلك ، ولكن العرف مثل ماهدى زيد عمراً ثبوت كون زيد عالما بطريق الهداية ، مهتديا فى نفسه ، ولكنه لم يهد عمرا . وفرعون أضل الضالين فى نفسه ، فكيف يتوهم أنه يهدى غيره . وتحقيق ذلك : أن قوله تعالى (وأضل فرعون قومه) كاف فى الاخبار بعدم هدايته لهم مع مزيد إضلاله إياهم ، فان من لايهدى قد لايضل ، فيكون كفافا . وإذا تحقق غناء الأول فى الاخبار ، تعين كون الثانى لمعنى سواه ، وهو التهكم . والله أعلم .

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَٰتِ مَارَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)

﴿يا بنى إسرائيل﴾ خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك آل فرعون . وقيل : هو للذين كانوا منهم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منّ الله عليهم بما فعل بآبائهم . والوجه هو الأول ، أى : قلنا يابنى إسرائيل ، وحذف القول كثير فى القرآن . وقرئ ﴿أنجيتكم﴾ إلى (رزقتكم) ، وعلى لفظ الوعد والمواعدة . وقرئ ﴿الأيمن﴾ بالجر على الجوار ، نحو « جحر ضب خرب » . ذكرهم النعمة فى نجاتهم وهلاك عدوهم ، وفيما واعد موسى صلوات الله عليه من المناجاة بجانب الطور ، وكتب التوراة فى الألواح . وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لابستهم واتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ونقبائهم ، وإليهم رجعت منافعها التى قام بها دينهم وشرعهم ، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه . طغيانهم فى النعمة : أن يتعدّوا حدود الله فيها بأن يكفروها ويشغلهم اللهو والتنعم عن القيام بشكرها ، وأن ينفقوها فى المعاصى : وأن يزووا حقوق الفقراء فيها ، وأن يسرفوا فى إنفاقها . وأن يبطروا فيها ويأشروا ويتكبروا . قرئ ﴿فيحل﴾ وعن عبد الله : لا يحلن [1] ﴿ومن يحلل﴾ المكسور فى معنى الوجوب ، من حل الدين يحل إذا وجب أداؤه . ومنه قوله تعالى (حتى يبلغ الهدى محله) والمضموم فى معنى النزول . وغضب الله عقوباته [2] ولذلك وصف بالنزول ﴿هوى﴾ هلك . وأصله أن يسقط من جبل فيهلك .

قالت : هَوَى مِنْ رَأْسِ مَرْقَبَةٍ فَفُتِّتَ تَحْتَهَا كَبِدُهْ [3]

(١) قوله «قرئ فيحل وعن عبدالله ... الخ» يفيد أن القراءة المشهورة : فيحل • ومن يحلل ـ بالكسر . ولتحرر قراءة (لايحلن) هل هى بالكسر أو بالضم . (ع)

(٢) قال محمود : «والغضب عقوبة الله تعالى لهم ... الخ» قال أحمد : لايسعه أن يحمل الغضب إلا على العقوبة لأنه ينفى صفة الارادة فى جملة ماينفونه من صفات الكمال . وأما على قاعدة السنة فيجوز أن يكون المراد من الغضب إرادة العقوبة ، فيكون من أوصاف الذات . ويحتمل أن يراد به معاملتهم بما يعامل به من غضب عليه شاهدا ، فيكون من صفات الأفعال . وأما وصفه بالحلول فلا يتأتى حمله على الارادة ، ويكون بمنزلة قوله عليه الصلاة والسلام (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا) على التأويل المعروف . أوعبر عن حلول أثر الارادة بحلولها تعبيرا عن الأثر بالمؤثر ، كما يقول الناظر إلى عجيب من مخلوقات الله تعالى : انظر إلى قدرة الله يعنى أثر القدرة لانفسها ، والله أعلم .

(٣)
هوى ابنى من على شرف يهول عقابه صعده
هوى من رأس مرقبة ففتت تحتها كبده
ألام على تبكيه وألمسه فلا أجده
وكيف يلام محزون كبير فاته ولده

ويقولون : هوت أمّه . أو سقط سقوطاً لا نهوض بعده .

وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

الاهتداء : هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو التوبة والايمان والعمل الصالح ، ونحوه قوله تعالى (إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) وكلمة التراخى دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين فى « جاءنى زيد ثم عمرو » أعنى أنّ منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه ؛ لأنها أعلى منها وأفضل .

وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾

﴿ وما أعجلك ﴾ أى شىء عجل بك عنهم على سبيل الإنكار ، وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب . ثم تقدمهم شوقا إلى كلام ربه وتنجز ما وعد به ، بناء على اجتهاده وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى ، وزل عنه أنه عز وجل ما وقت أفعاله إلا نظرا إلى دواعى الحكمة ، وعلما بالمصالح المتعلقة بكل وقت . فالمراد بالقوم : النقباء . وليس لقول من جوز أن يراد جميع قومه وأن يكون قد فارقهم قبل الميعاد وجه صحيح ، يأباه قوله ﴿ هم أولاء على أثرى ﴾ وعن أبى عمرو ويعقوب : إثرى ، بالكسر وعن عيسى بن عمر : أثرى بالضم . وعنه أيضاً : أولى بالقصر . والإثر أفصح من الأثر . وأما الأثر فمسموع فى فرند السيف [1] مدوّن فى الأصول . يقال : إثر السيف وأثره ، وهو بمعنى الأثر غريب . فإن قلت : (ما أعجلك)

ـــ لأعرابى ، يقول : سقط ابنى من فوق جبل عال . فعلى بمعنى فوق ، ولوقرئ : على ، بالضم ـ جمع علية ـ لجاز ، أى : سقط من ذرى جبل عال ، فالشرف : مصدر مستعمل فى الوصف مجاز . يحول : أى يخيف ، عقابه : ارتفاعه . وصعد ـ بالكسر ـ صعدا ـ بفتحتين وضمتين ـ صعوداً : ارتفع ، والضمير للعقاب أو للشرف ، فهو من إضافة المصدر لفاعله . ويجوز أنه من اضافته لمفعوله ، أى : صعوده عليه . وخص العقاب ، لأنه أشد الطير صعوداً ، لاسيما عقاب ذلك الجبل العارف به . وكرر « هوى » لاظهار التحزن ، أى : سقط من رأس ثنية عالية يرقب فيها الرقيب ، فزقت كبده تحتها ، أى : بجانبها ، فكيف ببقية جسمه . ويروى : ففزت . بتشديد الزاى بمعنى فزعت . وروى « ففرت » بتشديد الراء ، وأصله : فريت . وهذه لغة طيئ . يقولون : المرأة دعت فى دعيت . والدار بنت فى بنيت ، ثم قال : يلومنى الناس على البكاء مع أنى ألمسه ، من بابى قتل وضرب ، أى : أريد لمسه فلا أجده ، وكيف يلام حزين هرم يئس من رجوع ولده إليه ، أو من أوان التوالد . وقيل : إن القائل أم القتيل ، لكن يروى بعد البيت الأول :

فلا أم فتبكيه ولا أخت فتفتقده هوى عن صخرة صلد ففرت تحتها كبده إلى آخره .

(١) قوله « فرند السيف » أى ربده ووشيه ، كذا فى الصحاح . (ع)

سؤال عن سبب العجلة [١] فكان الذى ينطبق عليه من الجواب أن يقال : طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك . وقوله (هم أولاء على أثرى) كما ترى غير منطبق عليه . قلت : قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين ، أحدهما : إنكار العجلة فى نفسها . والثانى : السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه ، فكان أهمّ الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة فى نفس ما أنكر عليه ، فاعتل بأنه لم يوجد منى إلا تقدّم يسير ، مثله لا يعتدّ به فى العادة ولا يحتفل به . وليس بينى وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدّم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم ، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ ولقائل أن يقول : حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب الله ، فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام .

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾

أراد بالقوم المفتونين : الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة ألف مانجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفا . فإن قلت : فى القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة ، وحسبوها أربعين مع أيامها ، وقالوا : قد أكملنا العدة ، ثم كان أمر العجل بعد ذلك ، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمه (إنا قد فتنا قومك) ؟ قلت : قد أخبر الله تعالى عن الفتنة المترقبة ، بلفظ الموجودة الكائنة على عادته . أو افترص السامرى غيبته فعزم على إضلالهم غب انطلاقه ، وأخذ فى تدبير ذلك ، فكان بدء الفتنة موجوداً . قرئ ﴿وأضلهم السامرى﴾ أى وهو أشدّهم ضلالا : لأنه ضال مضل ، وهو منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل يقال لها السامرة . وقيل : السامرة قوم من اليهود يخالفونهم فى بعض دينهم : وقيل : كان من أهل باجرما . وقيل : كان علجا من كرمان . واسمه موسى بن ظفر ، وكان منافقا قد أظهر الإسلام ، وكان من قوم يعبدون البقر .

فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا

(١) قال محمود : «إن قلت : سئل عن سبب العجلة ... الخ» قال أحمد : وإنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة وهو أعلم : أن يعلم موسى أدب السفر ، وهو أنه ينبغى تأخير رئيس القوم عنهم فى المسير ليكون نظره محيطا بطائفته ونافذا فيهم ومهيمنا عليهم . وهذا المعنى لايحصل فى تقدمه عليهم ، ألا ترى الله عز وجل كيف علم هذا الأدب لوطا فقال : (واتبع أدبارهم) فأمره أن يكون أخيرهم . على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلى رضا الله عز وجل ، ومسارعة إلى الميعاد ، وذلك شأن الموعود بما يسره ، يود لو ركب إليه أجنحة الطير ، ولا أمر من مواعدة الله تعالى له صلى الله عليه وسلم .

حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾

الأسف: الشديد الغضب. ومنه قوله عليه السلام فى موت الفجأة «رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر [١]» وقيل: الحزين. فإن قلت. متى رجع إلى قومه؟ قلت: بعد ما استوفى الأربعين: ذا القعدة وعشر ذى الحجة. وعدهم الله سبحانه أن يعطيهم التوراة التى فيها هدى ونور، ولا وعد أحسن من ذاك وأجمل، حكى لنا أنها كانت ألف سورة كل سورة ألف آية، يحمل أسفارها سبعون جملا ﴿العهد﴾ الزمان، يريد: مدة مفارقته لهم. يقال: طال عهدى بك، أى: طال زمانى بسبب مفارقتك. وعدوه أن يقيموا على أمره وماتركهم عليه من الإيمان، فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل ﴿بملكنا﴾ قرئ بالحركات الثلاث، أى: ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا، أى: لو ملكنا أمرنا وخلينا وراءنا لما أخلفناه، ولكنا غلبنا من جهة السامرى وكيده. أى: حملنا أحمالا من حلىّ القبط التى استعرناها منهم. أو أرادوا بالأوزار: أنها آثام وتبعات، لأنهم كانوا معهم فى حكم المستأمنين فى دار الحرب. وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربى، على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذ ﴿فقذفناها﴾ فى نار السامرى، التى أوقدها فى الحفرة وأمرنا أن نطرح فيها الحلىّ. وقرئ حملنا ﴿فكذلك ألقى السامرى﴾ أراهم أنه يلقى حليا فى يده مثل ما ألقوا. وإنما ألقى التربة التى أخذها من موطئ حيزوم فرس جبريل. أوحى إليه وليه الشيطان أنها إذا خالطت مواتا صار حيوانا ﴿فأخرج لهم﴾ السامرى من الحفرة عجلا خلقه الله من الحلىّ التى سبكتها النار يخور كما تخور المعاجيل. فإن قلت: كيف أثرت تلك التربة فى إحياء الموات؟ قلت: أما يصحّ أن يؤثر الله سبحانه روح القدس بهذه الكرامة الخاصة كما آثره بغيرها من الكرامات، وهى أن يباشر فرسه بحافره تربة إذا لاقت تلك التربة جماداً أنشأه الله إن شاء عند مباشرته حيوانا. ألا ترى كيف أنشأ المسيح

(١) أخرجه أحمد من طريق عبد الله بن عبيد بن عمير عن عائشة «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موت الفجأة» فذكره وله طريق أخرى عند عبد الرازق مرفوعة. وفيها يحيى بن العلاء الرازى وهو ضعيف. ورواه هو وابن أبى شيبة والطبرانى من حديثهما موقوفا. وعن ابن مسعود أيضاً موقوفا، وفى الباب عن أنس فى الجنائز لابن شاهين وعن عبيد بن خالد عند أبى داود بلفظ «موت الفجأة أخذة أسف».

من غير أب عند نفخه فى الدرع . فإن قلت : فلم خلق الله العجل من الحلىّ حتى صار فتنة لبنى إسرائيل [1] وضلالا ؟ قلت : ليس بأوّل محنة محن الله بها عباده ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين . ومن عجب من خلق العجل ، فليكن من خلق إبليس أعجب . والمراد بقوله (إنا قد فتنا قومك) هو خلق العجل للامتحان ، أى : امتحناهم بخلق العجل وحملهم السامرى على الضلال ، وأوقعهم فيه حين قال لهم ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسى﴾ أى : فنسى موسى أن يطلبه ههنا ، وذهب يطلبه عند الطور . أو فنسى السامرى : أى ترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر .

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩)
وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ
فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ
إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١)

﴿يرجع﴾ من رفعه فعلى أنّ أن مخففة من الثقيلة . ومن نصب فعلى أنها الناصبة للأفعال ﴿من قبل﴾ من قبل أن يقول لهم السامرى ما قال ، كأنهم أوّل ما وقعت عليه أبصارهم حين طلع من الحفرة افتتنوا به واستحسنوه ، فقبل أن ينطق السامرى بادرهم هرون عليه السلام بقوله ﴿إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن﴾ .

قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)

لا مزيدة . والمعنى ما منعك أن تتبعنى فى الغضب لله وشدة الزجر عن الكفر والمعاصى ؟ وهلا قاتلت من كفر بمن آمن ؟ ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً ؟ أو مالك لم تلحقنى .

قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ
بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)

---

(١) قال محمود : «وإن قلت لم خلق الله العجل فتنة لهم» قال أحمد : هذا السؤال وجوابه تقدما له فى أول سورة الأعراف . وقد أوضحنا أن الله تعالى إنما تعبدنا بالبحث عن علل أحكامه لاعلل أفعاله . وجواب هذا السؤال فى قوله تعالى (لايسئل عما يفعل وهم يسئلون) فهذا الامر جائز . وقد أخبر الله تعالى بوقوعه فلا نبتغى وراء ذلك سبيلا ، لكن الزمخشرى تقتضى قاعدته فى وجوب رعاية المصالح على الله تعالى وتحتم هداية الخلق عليه : أن يؤول ذلك ويحرفه . فذرهم وما يفترون .

قرئ ﴿ بلحيتى ﴾ بفتح اللام [١] وهى لغة أهل الحجاز ، كان موسى صلوات الله عليه رجلا حديداً مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شيء ، شديد الغضب لله ولدينه ، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله بعد ما رأوا من الآيات العظام ، أن ألقى ألواح التوراة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة ، غضبا لله واستنكافا وحمية ، وعنف بأخيه وخليفته على قومه ، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف قابضاً على شعر رأسه ـ وكان أفرع [٢] ـ وعلى شعر وجهه يجره إليه . أى : لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا ، فاستأنيتك أن تكون أنت المتدارك بنفسك ، المتلافى برأيك : وخشيت عتابك على إطراح ما وصيتنى به من ضم النشر وحفظ الدهماء [٣] ، ولم يكن لى بد من رقبة وصيتك والعمل على موجبها .

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾

الخطب : مصدر خطب الأمر إذا طلبه ، فإذا قيل لمن يفعل شيئاً : ما خطبك ؟ فمعناه : ما طلبك له ؟ قرئ ﴿ بصرت بما لم يبصروا به ﴾ بالكسر [٤] ، والمعنى : علمت ما لم تعلموه ، وفطنت ما لم تفطنوا له . قرأ الحسن ﴿ قبضة ﴾ بضم القاف وهى اسم المقبوض ، كالغرفة والمضغة . وأما القبضة فالمرة من القبض ، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر ، كضرب الأمير . وقرأ أيضا : فقبصت قبصة ، بالصاد المهملة . الضاد : بجميع الكف . والصاد : بأطراف الأصابع . ونحوهما : الخضم ، والقضم : الخاء بجميع الفم ؛ والقاف بمقدمه : قرأ ابن مسعود : من أثر فرس الرسول . فإن قلت : لم سماه الرسول دون جبريل وروح القدس ؟ قلت : حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل الله إلى موسى جبريل راكب حيزوم فرس الحياة ليذهب به ، فأبصره السامرى فقال : إنّ لهذا شأنا ، فقبض قبضة من تربة موطئه ، فلما سأله موسى عن قصته قال : قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد ، ولعله لم يعرف أنه جبريل .

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوٰةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ

(١) قوله «قرئ بلحيتى بفتح اللام» والقراءة المشهورة : بالكسر . (ع)

(٢) قوله «وكان أفرع» أى تام الشعر . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله «وحفظ الدهماء» أى الجماعة ، أفاده الصحاح . (ع)

(٤) قوله «وقرئ بصرت بما لم يبصروا به بالكسر» والقراءة المشهورة بالضم . وقرئ : تبصروا به . بالتاء : وعبارة النسفى : وبالتاء حمزة وعلى ، ولعلها سقطت هنا سهوا من الناسخ ، فليحرر . (ع)

تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَـٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْـهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧)

عوقب فى الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعا كليا، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضا، وإذا اتفق أن يماس أحدا رجلا أو امرأة، حم الماس والممسوس، فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح: لا مساس، وعاد فى الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرم، ومن الوحشى النافر فى البرية. ويقال: إن قومه باق فيهم ذلك إلى اليوم. وقرئ ﴿لامساس﴾ بوزن فجار. ونحوه قولهم فى الظباء. إذا وردت الماء فلا عباب، وإن فقدته فلا أباب: وهى أعلام للمسة والعبة والأبة، وهى المرة من الأب وهو الطلب ﴿لن تخلفه﴾ أى لن يخلفك الله موعده الذى وعدك على الشرك والفساد فى الأرض، ينجزه لك فى الآخرة بعد ما عاقبك بذلك فى الدنيا، فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين. وقرئ لن تخلفه. وهذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفا. قال الأعشى:

أَثْوَى وَأَقْصَرَ لَيْلَهُ لِيُزَوَّدَا ... فَمَضَى وَأَخْلَفَ مِنْ قَتِيلَةَ مَوْعِدَا [1]

وعن ابن مسعود: نخلفه، بالنون، أى: لن يخلفه الله، كأنه حكى قوله عز وجل كما مر فى ﴿لأهب لك﴾. ﴿ظلت﴾ وظلت، وظللت والأصل ظللت، فحذفوا اللام الأولى ونقلوا حركتها إلى الظاء، ومنهم من لم ينقل ﴿لنحرقنه﴾ ولنحرقنه ولنحرقنه. وفى حرف ابن مسعود: لنذبحنه، ولنحرقنه، ولنحرقنه: القراءتان من الإحراق. وذكر أبو على الفارسى فى لنحرقنه انه يجوز أن يكون حرق مبالغة فى حرق إذا برد بالمبرد. وعليه القراءة الثالثة، وهى قراءة على بن أبى طالب رضى الله عنه ﴿لننسفنه﴾ بكسر السين وضمها، وهذه عقوبة ثالثة وهى إبطال ما افتتن

---

(١) أثوى وأقصر ليله ليزودا ... فمضت وأخلف من قتيلة موعداً
ومضى لحاجته وأصبح حبله ... خلقا وكان بحالة لن ينكدا

للأعشى. وأقصر عن الشيء: أقلع عنه وامتنع منه. وأقصره: وجده قصيراً. وروى «قصر» بالتشديد. وروى «ليله» بالاضافة إلى الضمير، لكن الذى فى ديوان الأعشى «ليلة» بالتاء. وثوى بالمكان: أقام به، وأثوى به: لغة فيه، ويستعمل متعديا أيضاً. يقول: إنه قطع السفر، وأقام بربع قتيلة، ووجد ليله قصيراً لتزوده بالوصال، أو امتنع من السفر لذلك، فمضى الليل على الأول، أو مضت الليلة على الثانى. وجزالة المعنى تشهد له. وأخلف الموعد من قتيلة، أى: وجده خلفا، فسافر كما كان إلى حاجته، واستعار الحبل للوداد أو للطمع فيه على طريق التصريحية والخلق ترشيح، أى: يئس من مودته، وكان الحبل أو العاشق بحالة حسنة، هى أنه لن ينكدا، أى لن يتنغص، ولن يتكدر، ولن يتعسر شأنه، وزوال النعمة بعد نوالها يشق على النفس، وخلق - بالضم - فهو خلق، كحسن، وهو فى الأصل مصدر. وينكد كيتعب.

به وقتن ، وإهدار سعيه ، وهدم مكره (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) .

إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

قرأ طلحة : الله الذى لاإله إلا هو الرحمن رب العرش ﴿وسع كل شىء علما﴾ وعن مجاهد وقتادة : وسع ، ووجهه أن وسع متعد إلى مفعول واحد ، وهو كل شىء . وأمّا (علما) فانتصابه على التمييز ، وهو فى المعنى فاعل ، فلما ثقل نقل إلى التعدية إلى مفعولين ، فنصبهما معا على المفعولية لأنّ المميز فاعل فى المعنى ، كما تقول فى «خاف زيد عمراً» خوفت زيداً عمرا ، فترد بالنقل ما كان فاعلا مفعولا .

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

الكاف فى ﴿كذلك﴾ منصوب المحل ، وهذا موعد من الله عزّ وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم ، أى : مثل ذلك الاقتصاص ونحو ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون ، نقصّ عليك من سائر أخبار الأمم وقصصهم وأحوالهم ، تكثيرا لبيناتك ، وزيادة فى معجزاتك ، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر فى دينه بصيرة ، وتتأكد الحجة على من عاند وكابر ، وأن هذا الذكر الذى آتيناك يعنى القرآن مشتملا على هذه الأقاصيص والأخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار ، لذكر عظيم وقرآن كريم ، فيه النجاة والسعادة لمن أقبل عليه ، ومن أعرض عنه فقدهلك وشقى . يريد بالوزر : العقوبة الثقيلة الباهظة ، سماها وزرا تشبيها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفدح[1] الحامل ، وينقض ظهره ، ويلقى عليه بهره[2] : أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم . وقرئ : يحمل . جمع ﴿خالدين﴾ على المعنى ، لأنّ من معلق متناول لغير معرض واحد . وتوحيد الضمير فى أعرض ومابعده للحمل على اللفظ . ونحوه قوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإنّ له نار جهنم خالدين فيها) . ﴿فيه﴾ أى فى ذلك الوزر . أو فى احتماله ﴿ساء﴾ فى حكم بئس . والضمير الذى فيه يجب أن يكون مبهما يفسره ﴿حملا﴾ والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه ، تقديره : ساء حملا وزرهم ، كما حذف فى قوله تعالى

(١) قوله «يفدح الحامل» أى يثقله . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله «بهره» أى غلبته . أفاده الصحاح . (ع)

(نعم العبد إنه أواب) أيوب هو المخصوص بالمدح . ومنه قوله تعالى (وساءت مصيرا) أى وساءت مصيرا جهنم . فإن قلت : اللام فى (لهم) ماهى ؟ وبم تتعلق؟ قلت : هى للبيان ، كافى (هيت لك). فإن قلت . ماأنكرت[1] أن يكون فى ساء ضمير الوزر؟ قلت: لايصح أن يكون فى ساء وحكمه حكم بئس ضمير شىء بعينه غير مبهم فإن قلت : فلا يكن ساء الذى حكمه حكم بئس ، وليكن ساء الذى منه قوله تعالى (سيئت وجوه الذين كفروا) بمعنى أهم وأحزن ؟ قلت: كفاك صاداً عنه أن يؤول كلام الله إلى قولك : وأحزن الوزر لهم يوم القيامة حملا ، وذلك بعد أن تخرج عن عهدة هذا اللام وعهدة هذا المنصوب .

يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

أسند النفخ إلى الآمر به فيمن قرأ : ننفخ ، بالنون . أو لأن الملائكة المقربين وإسرافيل منهم بالمنزلة التى هم بها من رب العزة ، فصح لكرامتهم عليه وقربهم منه أن يسند مايتولونه إلى ذاته تعالى . وقرئ : ينفخ ، بلفظ مالم يسم فاعله . وينفخ . ويحشر ، بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير لله عز وجل أو لإسرافيل عليه السلام . وأما يحشر المجرمون فلم يقرأ به إلا الحسن . وقرئ (فى الصور) بفتح الواو جمع صورة ، وفى الصور : قولان ، أحدهما : أنه بمعنى الصور وهذه القراءة تدل عليه . والثانى : أنه القرن . قيل فى الزرق قولان ، أحدهما : أن الزرقة أبغض شىء من ألوان العيون إلى العرب لأنّ الروم أعداؤهم وهم زرق العيون ولذلك قالوا فى صفة العدوّ : أسود الكبد ، أصهب السبال ، أزرق العين . والثانى : أنّ المراد العمى ؛ لأنّ حدقة من يذهب نور بصره تزراق . تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول . يستقصرون مدّة لبثهم فى الدنيا : إما لما يعاينون من الشدائد التى تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر لأنّ أيام السرور قصار . وإما لأنها ذهبت عنهم وتقضت ، والذاهب وإن طالت مدّته قصير بالانتهاء . ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت «أطال الله بقاءك» : «كفى بالانتهاء قصرا» وإما لاستطالتهم الآخرة وأنها أبد سرمد يستقصر إليها عمر الدنيا ، ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم فى الآخرة . وقد استرجح الله قول من يكون أشدّ تقاولا منهم فى قوله تعالى ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما﴾ ونحوه قوله تعالى (قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسئل العادّين) وقيل : المراد لبثهم فى القبور . ويعضده

(١) قوله «ماأنكرت» لعله «لم أنكرت» . (غ)

قوله عز وجل (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون)، (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث).

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَاتَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا (١٠٧)

﴿ينسفها﴾ يجعلها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها كما يذرى الطعام ﴿فيذرها﴾ [١] أى فيذر مقارّها ومراكزها. أو يجعل الضمير للأرض وإن لم يجر لها ذكر، كقوله تعالى (ما ترك على ظهرها من دابة). فإن قلت: قد فرّقوا بين العوج والعوج، فقالوا: العوج بالكسر فى المعانى. والعوج بالفتح فى الأعيان. والأرض عين، فكيف صح فيها المكسور العين؟ قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع فى وصف الأرض بالاستواء والملاسة، ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ مايكون. وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسوّيتها وبالغت فى التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأى المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية، لعثر فيها على عوج فى غير موضع، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسى، فنفى الله عزّ وعلا ذلك العوج الذى دقّ ولطف عن الإدراك، اللهمّ إلا بالقياس الذى يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعانى، فقيل فيه: عوج بالكسر. الأمت: النتو اليسير، يقال: مدّ حبله حتى مافيه أمت.

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لَاعِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَاتَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩)

أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال فى قوله ﴿يومئذ﴾ أى يوم إذ نسفت. ويجوز أن يكون بدلا بعد بدل من يوم القيامة. والمراد: الداعى إلى المحشر. قالوا: هو إسرافيل قائما على صخرة بيت المقدس يدعو الناس، فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعدلون ﴿لاعوج له﴾ أى لايعوجّ له مدعوّ، بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته. أى: خفضت

(١) قوله تعالى (فيذرها قاعا صفصفا) فى الصحاح: أن كلا من القاع والصفصف بمعنى المستوى من الأرض، فكأن الصفصف تأكيد. (ع)

الأصوات من شدة الفزع وخفتت [1] ﴿فلا تسمع إلا همساً﴾ وهو الركز الخفي . ومنه الحروف المهموسة . وقيل : هو من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت ، أي : لاتسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر ﴿من﴾ يصلح أن يكون مرفوعا ومنصوباً ، فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف ، أي : لاتنفع الشفاعة إلا شفاعة من ﴿أذن له الرحمن﴾ والنصب على المفعولية . ومعنى أذن له ﴿ورضى له﴾ لأجله . أي : أذن للشافع ورضى قوله لأجله . ونحو هذه اللام اللام في قوله تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ماسبقونا إليه) .

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾

أي يعلم ما تقدمهم من الأحوال وما يستقبلونه ، ولايحيطون بمعلوماته علما .

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾

المراد بالوجوه وجوه العصاة ، وأنهم إذا عاينوا ـ يوم القيامة ـ الخيبة والشقوة وسوء الحساب ، صارت وجوههم عانية ، أي ذليلة خاشعة ، مثل وجوه العناة وهم الأساري . ونحوه قوله تعالى (فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا) ، (ووجوه يومئذ باسرة) . وقوله تعالى ﴿وقد خاب﴾ وما بعده اعتراض ، كقولك : خابوا وخسروا . وكل من ظلم فهو خائب خاسر .

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

الظلم : أن يأخذ من صاحبه فوق حقه . والهضم : أن يكسر من حق أخيه فلا يوفيه له ، كصفة المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ويسترجحون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . أي : فلا يخاف جزاء ظلم ولا هضم ، لأنه لم يظلم ولم يهضم . وقرئ : فلا يخف ، على النهي .

وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

﴿وكذلك﴾ عطف على (كذلك نقص) أي : ومثل ذلك الإنزال ، وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات المضمنة للوعيد [2] أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة ، مكررين فيه آيات الوعيد ،

(١) قوله «وخفتت» في الصحاح «خفت الصوت» سكن . (ع)
(٢) قال محمود : «معناه وكما أنزلنا عليك هذه الآيات المضمنة للوعيد ... الخ» قال أحمد : الصواب في تفسيرها ;

ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصى أو فعل الخير والطاعة . والذكر ـ كما ذكرنا ـ يطلق على الطاعة والعبادة . وقرئ : نحدث وتحدث ، بالنون والتاء ، أي : تحدث أنت . وسكن بعضهم الثاء للتخفيف ، كما فى :

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْمًا مِنَ اللهِ وَلاَ وَاغِلِ (١)

****

فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (١١٤)

﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ استعظام له ولما يصرف عليه عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده والإدارة بين ثوابه وعقابه على حسب أعمالهم ، وغير ذلك مما يجرى عليه أمر ملكوته ولما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد : وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن ، فتأنّ عليك ريثما يسمعك ويفهمك ، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك ، ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته . ونحوه قوله تعالى (لا تحرّك به لسانك لتعجل به) وقيل معناه : لا تبلغ ما كان منه مجملا حتى يأتيك البيان . وقرئ : حتى تقضى إليك وحيه . وقوله تعالى ﴿رب زدنى علما﴾ متضمن للتواضع لله تعالى والشكر له عندما علم من ترتيب التعلم ، أى علمتنى يارب لطيفة فى باب التعلم وأدباً جميلا ما كان عندى ، فزدنى علماً إلى علم ، فإنّ لك فى كل شيء حكمة وعلماً . وقيل : ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة فى شيء إلا فى العلم .

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)

يقال فى أوامر الملوك ووصاياهم : تقدم الملك إلى فلان وأوعز إليه ، وعزم عليه ، وعهد

= ليكونوا على رجاء التقوى والتذكر ، وإلا فلو أراد الله من جميعهم التقوى لوقعت . وقد تقدمت أمثالها . والعجب أنه نقل عن سيبويه فى تفسير لعل أول هذه السورة عند قوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) أن معناه : كونا على رجائكما ، ثم رجع عن ذلك ههنا : لأن المعتقد الفاسد يحذوه إلى هذا التأويل الباطل ، والله الموفق .

(١) حلت لى الخمر وكنت امرءا عن شربها فى شغل شاغل
فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

لامرئ القيس ، كان حلف لا يشرب الخمر حتى يقتل بنى أسد الذين قتلوا أباه حجرا ، فلما قتل جماعة منهم قال : حلت لى الخمر بعد أن كانت حراما على وكنت فى شغل شاغل لى عن شربها ، فاليوم حين أخذت الثأر أشرب ، وكان حقه الرفع لعدم الجازم ، فسكن تخفيفا للوزن . والمستحقب للشيء : الحامل له على ظهره . ومنه الحقيبة ، فشبه الاثم بالشيء المحمول لمشقته على النفس ، والاستحقاب تخييل . والواغل : الداخل على الشاربين من غير أن يدعوه ، أى : فاليوم أشرب ماشئت حال كونى غير متحمل ذنبا من الله . حيث بررت فى قسمى ، ولا متطفل على الشاربين .

إليه. عطف الله سبحانه قصة آدم على قوله (وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون) والمعنى: وأقسم قسما لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة، وتوعدناه بالدخول فى جملة الظالمين إن قربها، وذلك من قبل وجودهم ومن قبل أن نتوعدهم، فخالف إلى ما نهى عنه، وتوعد فى ارتكابه مخالفتهم. ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون، كأنه يقول: إنّ أساس أمر بنى آدم على ذلك، وعرقهم راسخ فيه. فإن قلت: ما المراد بالنسيان؟ قلت يجوز أن يراد النسيان الذى هو نقيض الذكر، وأنه لم يعن بالوصية العناية الصادقة، ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس، حتى تولد من ذلك النسيان. وأن يراد الترك وأنه ترك ما وصى به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها. وقرئ: فنسى، أى: نساه الشيطان. العزم: التصميم والمضىّ على ترك الأكل، وأن يتصلب فى ذلك تصلبا يؤيس الشيطان من التسويل له. والوجود: يجوز أن يكون بمعنى العلم، ومفعولاه (له عزما) وأن يكون نقيض العدم كأنه قال: وعدمنا له عزما.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾

﴿إذ﴾ منصوب بمضمر، أى: واذكر وقت ماجرى عليه من معاداة إبليس ووسوسته إليه وتزيينه له الأكل من الشجرة، وطاعته له بعد ماتقدمت معه النصيحة والموعظة البليغة والتحذير من كيده، حتى يتبين لك أنه لم يكن من أولى العزم والثبات. فإن قلت: إبليس كان جنيا بدليل قوله تعالى (كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه) فمن أين تناوله الأمر وهو للملائكة خاصة؟ قلت كان فى صحبتهم، وكان يعبد الله تعالى عبادتهم، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له، كان الجنى الذى معهم أجدر بأن يتواضع، كما لو قام لمقبل على المجلس علية أهله وسراتهم، كان القيام على واحد بينهم هو دونهم فى المنزلة أوجب، حتى إن لم يقم عنف. وقيل له: قد قام فلان وفلان، فمن أنت حتى تترفع عن القيام؟ فإن قلت: فكيف صحّ استثناؤه وهو جنى عن الملائكة؟ قلت: عمل على حكم التغليب فى إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه، فأخرج الاستثناء على ذلك، كقولك: خرجوا إلا فلانة، لامرأة بين الرجال ﴿أبى﴾ جملة مستأنفة، كأنه جواب قائل قال: لم لم يسجد. والوجه أن لا يقدّر له مفعول، وهو السجود المدلول عليه بقوله (فسجدوا) وأن يكون معناه أظهر الإباء وتوقف وتثبط

فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾

﴿فلا يخرجنكما﴾ فلا يكونن سببا لإخراجكما. وإنما أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون

حوّاء بعد إشراكهما فى الخروج ؛ لأنّ فى ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم ، كما أنّ فى ضمن سعادته سعادتهم ، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها . مع المحافظة على الفاصلة . أو أريد بالشقاء التعب فى طلب القوت ، وذلك معصرب برأس الرجل وهو راجع إليه . وروى أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه . قرئ : ﴿وإنك﴾ بالكسر والفتح . ووجه الفتح العطف على (أن لا تجوع) . فإن قلت : إنّ لا تدخل على أن ، فلا يقال : إنّ أن زيدا منطلق ، والواو نائبة عن إنّ وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها ؟ قلت : الواو لم توضع لتكون أبداً نائبة عن إنّ ، إنما هى نائبة عن كل عامل ، فلما لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق خاصة ـ كإن ـ لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع إنّ وأن .

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٧﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٨﴾

الشبع والرىّ والكسوة والكنّ : هى الأقطاب التى يدور عليها كفاف الإنسان ،[1] فذكره استجماعها له فى الجنة ، وأنه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا ، وذكرها بلفظ النفى لنقائضها التى هى الجوع والعرى والظمأ والضحو[2] ، ليطرق سمعه بأسامى أصناف الشقوة التى حذره منها ، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها .

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾

---

(١) قال محمود : «ذكر تعالى الأصناف التى بها قوام الانسان ... الخ» قال أحمد : تنبيه حسن ، وفى الآية سر بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير ، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع والضحو عن الكسوة ، مع ما بينهما من التناسب . والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة ، وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديما وحديثا فقال الكندى الأول :

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أرشف الزق الروى ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال

فقطع ركوب الجواد عن قوله «لخيلى كرى كرة» وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكأس مع التناسب ، وغرضه أن يعدد ملاذه ومفاخره ويكثرها ، وتبعه الكندى الآخر فقال :

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

فاعترضه سيف الدولة بأنه ليس فيه قطع الشىء عن نظيره ، ولكنه على فطنته قصر فهمه عما طالت إليه يد أبى الطيب من هذا المعنى الطائل البديع ، على أن فى هذه الآية سراً لذلك زائداً على ما ذكر ، وهو أن قصد تناسب الفواصل ، ولو قرن الظمأ بالجوع فقيل : إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ ، لانتثر سلك رؤس الآى ، وأحسن به منتظما ، والله أعلم .

(٢) قوله «والضحو» الذى فى الصحاح : ضحيت للشمس ضحاً ـ ممدود ـ إذا برزت الشمس لها ، وضحيت ـ بالفتح ـ مثله . (ع)

فإن قلت : كيف عدى وسوس تارة باللام فى قوله (فوسوس لهما الشيطان) وأخرى بإلى ؟ قلت : وسوسة الشيطان كولولة الثكلى [(١)] ووعوعة الذئب ووقوقة الدجاجة ، فى أنها حكايات للأصوات وحكمها حكم صوت وأجرس . ومنه : وسوس المبرسم ، وهو موسوس بالكسر . والفتح لحن . وأنشد ابن الأعرابى :

* وَسْوَسَ يَدْعُو مُخْلِصاً رَبَّ الْفَلَقْ * [(٢)]

فإذا قلت : وسوس له ، فمعناه لأجله ، كقوله :

* أَجْرِسْ لَهَا يَاابْنَ أَبِي كِبَاشِ * [(٣)]

ومعنى «وسوس إليه» أنهى إليه الوسوسة ، كقولك : حدّث إليه . وأسرّ إليه . أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود ، لأن من أكل منها خلد بزعمه ، كما قيل لحيزوم : فرس الحياة ، لأنّ من باشر أثره حيي ﴿وملك لا يبلى﴾ دليل على قراءة الحسن بن على وابن عباس رضى الله عنهم : (إلا أن تكونا ملكين) بالكسر .

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)

---

(١) قوله «كولولة الثكلى» أى الحزينة . (ع)

(٢) وسوس يدعو مخلصا رب الفلق ... سرا وقد أونّ تأوين العقق

في الزرب لو يمضغ شربا ما بصق

لرؤبة ، يصف قانصا . وسوس : تكلم فى نفسه ، يدعو الله مخلصا أنه يظفره بالصيد ، وقوله «سرا» ساقه مساق الظرف للتوكيد ، أى تعلق بوسوس ، وللتأسيس إن تعلق بيدعو ، وتكون الجملة حالية مبينة للوسوسة . وقد أونّ أى : الحمير الوحشية ، والجملة أيضا حالية ، والتأوين : امتلاء الجنبين من الأون ، وهو جانب الخرج الممتلىء . والأونان الجانبان الممتلئان . والعقق : الحوامل ، واحده عقوق كعروس ، وقيل : هو العقوق ، أى امتلأت بطونهن ماء لكثرة شربهن كامتلاء بطون الحوامل فى الزرب ، حال من ضمير القانص . والزرب والزربة : قترته التى يكمن فيها وانزرب القانص : دخل الزرب . وقوله «لو يمضغ» فى معنى الحال أيضا ، أى : ما كنا بحيث لو يمضغ شربا ، أى : لو يلوك بفمه مقدارا من مائه وهو الريق ، لم يبصق لئلا يسمع الصيد صوته . وأصل الشرب : النصيب من الماء ، استعاره لما يجتمع بفمه من الريق ، وبين الزرب والشرب الجناس المضارع .

(٣) أجرس لها يا ابن أبى كباش ... فما لها الليلة من انفاش

غير السرى وسائق نجاش

«أجرس» بقطع الهمزة وبالسين المهملة ، أى : صوت واحد للابل فى السير ، فمالها فى هذه الليلة انفاش ، أى : أطلاق فى المرعى . والسرى : سير الليل . ونجشت الابل : جمعتها بعد تفرق . ونجاش : صيغة مبالغة ، أى : ليس لها رعى ، بل سير شديد . وروى «اجرش» بوصل الهمزة والشين المعجمة ، وهو بمعناه هنا . والجرس ـ بالمهملة ـ : الصوت الخفى ، وبالمعجمة : صوت المشط فى الشعر . وما شابه ذلك .

، طفق يفعل كذا ، مثل : جعل يفعل ، وأخذ ، وأنشأ . وحكمها حكم كاد فى وقوع الخبر فعلا مضارعا ، وبينها وبينه مسافة قصيرة هى للشروع فى أوّل الأمر . وكاد لمشارفته والدنو منه . قرئ ﴿يخصفان﴾ للتكثير والتكرير ، من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخصاف ، أى : يلزقان الورق بسوآتهما للتستر وهو ورق التين . وقيل كان مدورا فصار على هذا الشكل من تحت أصابعهما . وقيل كان لباسهما الظفر ، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وتركت هذه البقايا فى أطراف الأصابع . عن ابن عباس : لاشبهة فى أنّ آدم لم يمتثل مارسم الله له ، وتخطى فيه ساحة الطاعة ، وذلك هو العصيان . ولما عصى خرج فعله من أن يكون رشدا وخيراً ، فكان غيا لامحالة ؛ لأنّ الغى خلاف الرشد ، ولكن قوله ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ بهذا الإطلاق وبهذا التصريح ، وحيث لم يقل : وزل آدم وأخطأ وما أشبه ذلك ، مما يعبر به عن الزلات والفرطات : فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافة ، وكأنه قيل لهم : انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم حبيب الله الذى لايجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلطة وبهذا اللفظ الشنيع ، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيآت والصغائر ، فضلا أن تجسروا على التورط فى الكبائر . وعن بعضهم (فغوى) فبشم[1] من كثرة الأكل ، وهذا ـ وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسور ماقبلها ألفا فيقول فى «فنى ، وبقى» : «فنا ، وبقا» وهم بنوطىّ ـ تفسير خبيث .

ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

فإن قلت : مامعنى ﴿ثم اجتباه ربه﴾ ؟ قلت : ثم قبله بعد التوبة وقرّبه إليه ، من جبى إلىّ كذا فاجتبيته . ونظيره : جليت علىّ العروس فاجتليتها . ومنه قوله عز وجل ﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها﴾ أى هلا جبيت إليك فاجتبيتها . وأصل الكلمة الجمع . ويقولون : اجتبت الفرس نفسها إذا اجتمعت نفسها راجعة بعد النفار . و﴿هدى﴾ أى وفقه لحفظ التوبة وغيره من أسباب العصمة والتقوى .

قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلى البشر ، والسببين اللذين منهما نشؤا وتفرعوا : جعلا كأنهما البشر فى أنفسهما ، فخوطبا مخاطبتهم ، فقيل ﴿فإما يأتينكم﴾ على لفظ الجماعة .

(١) قوله «فبشم من كثرة الأكل» فى الصحاح «البشم» التخمة . (ع)

ونظيره إسنادهم الفعل إلى السبب ، وهو فى الحقيقة للمسبب ﴿هدى﴾ كتاب وشريعة . وعن ابن عباس : ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ، ثم تلا قوله ﴿فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى﴾ والمعنى أنّ الشقاء فى الآخرة هو عقاب من ضلّ فى الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه .

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾

الضنك : مصدر يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث . وقرئ ﴿ضنكى﴾ على فعلى . ومعنى ذلك : أن مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله وعلى قسمته ، فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح وسهولة ، فيعيش عيشا رافغا : كما قال عز وجل (فلنحيينه حياة طيبة) والمعرض عن الدين ، مستول عليه الحرص الذى لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا ، مسلط عليه الشح الذى يقبض يده عن الإنفاق ، فعيشه ضنك وحاله مظلمة ، كما قال بعض المتصوفة : لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوّش عليه رزقه . ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره : قال الله تعالى (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) وقال (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقال (ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وقال (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً) وقال (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) وعن الحسن : هو الضريع والزقوم فى النار . وعن أبى سعيد الخدرى : عذاب القبر . وقرئ ﴿ونحشره﴾ بالجزم عطفا على محل (فإنّ له معيشة ضنكا) لأنه جواب الشرط . وقرئ : ونحشره ، بسكون الهاء على لفظ الوقف ، وهذا مثل قوله (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما) وكما فسر الزرق بالعمى ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك فعلت أنت ، ثم فسر بأن آياتنا أتتك واضحة مستنيرة ، فلم تنظر إليها بعين المعتبر ولم تتبصر ، وتركتها وعميت عنها ، فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك .

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾

لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين : المعيشة الضنك فى الدنيا ، وحشره أعمى فى الآخرة ـ ختم آيات الوعيد بقوله ﴿ ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى ﴾ كأنه قال : وللحشر على العمى الذى لا يزول أبدا أشدّ من ضيق العيش المنقضى . أو أراد : ولتركنا إياه فى العمى أشدّ وأبقى من تركه لآياتنا .

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِأُولِى النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾

فاعل ﴿لم يهد﴾ الجملة بعده يريد : ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه . ونظيره قوله تعالى (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين) أى تركنا عليه هذا الكلام . ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول ، ويدل عليه القراءة بالنون . وقرىء ﴿ يمشون ﴾ يريد أنّ قريشا يتقلبون فى بلاد عاد وثمود ويمشون ﴿ فى مساكنهم ﴾ ويعاينون آثار هلاكهم .

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴿١٢٩﴾

الكلمة السابقة : هى العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة . يقول : لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثموداً لازما لهؤلاء الكفرة . واللزام : إما مصدر لازم وصف به ، وإما فعال بمعنى مفعل ، أى ملزم ، كأنه آلة اللزوم لفرط لزومه ، كما قالوا : لزاز خصم ﴿ وأجل مسمى ﴾ لا يخلو من أن يكون معطوفا على (كلمة) أو على الضمير فى (كان) أى لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود ، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَاىِٕ الَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

﴿ بحمد ربك ﴾ فى موضع الحال ، أى : وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه . والمراد بالتسبيح الصلاة . أو على ظاهره قدم الفعل على الأوقات أوّلا ، والأوقات على الفعل آخراً . فكأنه قال : صل لله قبل طلوع الشمس يعنى الفجر ، وقبل غروبها يعنى الظهر والعصر ، لأنهما واقعتان فى النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها ، وتعمد آناء الليل وأطراف النهار مختصاً لها بصلاتك ، وذلك أن أفضل الذكر ما كان بالليل ، لاجتماع القلب وهدو الرجل والخلو بالرب . وقال الله عز وجل (إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا) وقال (أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً) ولأنّ الليل وقت السكون والراحة ، فإذا

صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق ؛ وللبدن أتعب وأنصب ، فكانت أدخل فى معنى التكليف وأفضل عند الله . وقد تناول التسبيح فى آناء الليل صلاة العتمة ، وفى أطراف النهار صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار ، إرادة الاختصاص ، كما اختصت فى قوله (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) عند بعض المفسرين . فإن قلت : ما وجه قوله (وأطراف النهار) على الجمع ، وإنما هما طرفان كما قال (أقم الصلاة طرفى النهار) ؟ قلت: الوجه أمن الإلباس ، وفى التثنية زيادة بيان . ونظير مجىء الأمرين فى الآيتين : مجيئهما فى قوله :

* ظَهْرَاهُمَا مِثْلَ ظُهُورِ التُّرْسَيْنْ * [1]

وقرئ : وأطراف النهار ، عطفاً على آناء الليل . ولعل للمخاطب ، أى : اذكر الله فى هذه الأوقات ، طمعا ورجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك . وقرئ : ترضى ، أى يرضيك ربك .

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾

﴿ولا تمدن عينيك﴾ أى نظر عينيك : ومد النظر : تطويله ، وأن لا يكاد يرده ، استحسانا للمنظور إليه وإعجابا به ، وتمنيا أن يكون له ، كما فعل نظارة قارون حين قالوا (يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) حتى واجههم أولو العلم والإيمان : (ويلكم ثواب الله خير لمن

(١) ومهمهين قذفين مرتين ظهراهما مثل ظهور الترسين
جبتهما بالنعت لا بالنعتين

لخطام المجاشعى. وقيل : لهميان بن قحافة . والمهمه : المفازة . والقذف ـ بالتحريك ـ : الذى يقذف سالكه فلا يمكث فيه أحد . وقيل : البعيد . والمرت ـ بالسكون ـ : القفر لا ماء فيه ولا نبات . والترس : حيوان ناتئ الظهر . وثنى ظهراهما على الأصل ، وجمع فيما بعد لأمن اللبس ، ولأنه ربما كره اجتماع تثنيتين ، لا سيما عند تتابع التثنية كما هنا . وقال النحاة : كل مثنى فى المعنى مضاف إلى متضمنه ، يختار فى لفظه الجمع لتعدد معناه وكراهة اجتماع تثنيتين فى اللفظ . ويجوز مجيئه على الأصل كما هنا . ويجوز إفراده كقوله :

* حمامة بطن الواديين ترنمي *

والجواب : القطع . والنعت : الوصف . ويروى : «بالسمت لا بالسمتين» والسمت : الهيئة والقصد والجهة والطريق والمراد أنهما وصفا ، أو ذكرت هيأتهما له مرة واحدة . يقول : رب موضعين قفرين لا أنيس فيهما ، لهما ظهران مرتفعان ، كظهرى الترسين ، قطعتهما بالسير بنعت واحد ، لا بوصفهما لى مرتين أو ثلاثة كغيرى . ويجوز أن المعنى بذكر نعت واحد من نعوتها ، لا بذكر نعتين ، فالنعت بمعنى الصفة القائمة بالشىء . وفى الكلام دلالة على شجاعته وحذقه .

آمن وعمل صالحا) وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه ، وذلك مثل نظر من باده الشيء بالنظر ثم غض الطرف ، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز فى الطباع ، وأنّ من أبصر منها شيئا أحب أن يمدّ إليه نظره ويملأ منه عينيه : قيل (ولا تمدّنّ عينيك) أى لا تفعل ما أنت معتاد له وضار به ، ولقد شدّد العلماء من أهل التقوى فى وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة فى اللباس والمراكب وغير ذلك ، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ؛ فالناظر إليها محصل لغرضهم ، وكالمغرى لهم على اتخاذها ﴿أزواجا منهم﴾ أصنافا من الكفرة . ويجوز أن ينتصب حالا من هاء الضمير ، والفعل واقع على (منهم) كأنه قال : إلى الذى متعنا به وهو أصناف بعضهم وناسا منهم . فإن قلت : علام انتصب ﴿زهرة﴾ ؟ قلت : على أحد أربعة أوجه : على الذم وهو النصب على الاختصاص . وعلى تضمين (متعنا) معنى أعطينا وخوّلنا ، وكونه مفعولا ثانيا له . وعلى إبداله من محل الجار والمجرور . وعلى إبداله من أزواجا ، على تقدير ذوى زهرة. فإن قلت : ما معنى الزهرة فيمن حرّك (١) ؟ قلت : معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة ، كما جاء فى الجهرة الجهرة . وقرئ : أرنا الله جهرة . وأن تكون جمع زاهر ، وصفاً لهم بأنهم زاهرو هذه الدنيا ، لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتنعمون : وتهلل وجوههم (٢) وبهاء زيهم وشارتهم (٣) ، بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء : من شحوب الألوان والتقشف فى الثياب ﴿لنفتنهم﴾ لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب ، لوجود الكفران منهم . أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه ﴿ورزق ربك﴾ هو ما ادّخر له من ثواب الآخرة الذى هو خير منه فى نفسه وأدوم . أو ما رزقه من نعمة الإسلام والنبوّة . أو لأن أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة (٤) من بعض الوجوه ، والحلال ﴿خير وأبقى﴾ لأن الله لا ينسب إلى نفسه إلا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث ، والحرام لا يسمى رزقا أصلا (٥) . وعن عبد الله بن قسيط عن رافع قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه

---

(١) قوله «حرك» أى حرك الهاء بالفتح . (ع)

(٢) قوله «وتهلل وجوههم» الذى فى الصحاح : تهلل وجه الرجل من فرحه ، وهلهل النساج الثوب . أرق نسجه وخففه . (ع)

(٣) قوله «وبهاء زيهم وشارتهم» فى الصحاح : الزى والشارة : اللباس والهيئة . (ع)

(٤) قال محمود : «معناه أن رزق هؤلاء المتمتعين فى الدنيا أكثره مكتسب من الحرام ... الخ» قال أحمد : لولا أن غرض القدرية من هذا إثبات رازق غير الله تعالى كما أثبتوا خالقا سوى الله تعالى لكان البحث لفظيا . فالحق والسنة أن كل ما تقوم به البنية رزق من الله تعالى ، سواء كان حلالا أو غيره ، لا يلزم من كون الله تعالى رزقه أن يكون حلالا ، فكما يخلق الله تعالى على يدى العبد ما نهاه عنه ، كذلك يرزقه ما أباح له تناوله وما لا (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) والله الموفق الصواب .

(٥) قوله «والحرام لا يسمي رزقا أصلا» هذا عند المعتزلة ، ويسمى رزقا عند أهل السنة . (ع)

وسلم إلى يهودى وقال: «قل له يقول لك رسول الله أقرضنى إلى رجب» فقال: والله لا أقرضته إلا برهن، فقال رسول الله «إنى لأمين فى السماء وإنى لأمين فى الأرض، احمل إليه درعى[1] الحديد» فنزلت: ولا تمدنّ عينيك.

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ أى وأقبل أنت مع أهلك على عبادة الله والصلاة؛ واستعينوا بها على خصاصتكم: ولا تهتم بأمر الرزق والمعيشة، فإنّ رزقك مكفىّ من عندنا، ونحن رازقوك ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ففرّغ بالك لأمر الآخرة. وفى معناه قول الناس: من دان فى عمل الله كان الله فى[2] عمله. وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين قرأ (ولا تمدنّ عينيك ... الآية) ثم ينادى الصلاة الصلاة رحمكم الله. وعن بكر بن عبد الله المزنى كان إذا أصابت أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، بهذا أمر الله رسوله، ثم يتلو هذه الآية.

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾

اقترحوا على عادتهم فى التعنت آية على النبوة، فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هى أم الآيات وأعظمها فى باب الإعجاز يعنى القرآن، من قبل أنّ القرآن برهان مافى سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لأنه معجزة، وتلك ليست بمعجزات، فهى مفتقرة إلى شهادته على صحة مافيها، افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة. وقرئ: الصحف، بالتخفيف. ذكر الضمير الراجع إلى البينة لأنها فى معنى البرهان والدليل.

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾

---

(١) قلت وقع فيه تحريف فى الراويين. وإنما هو عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبى رافع. ولعل ذلك من النساخ. والحديث أخرجه إسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزاز والطبرى والطبرانى من هذا الوجه مطولا. وفيه موسى بن عبيدة الزبيرى وهو متروك. واستدل على بطلان مارواه أنه وقع فيه وأن قوله تعالى (ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجا منهم الآية) نزلت فى هذه القصة وسورة طه مكية ـ وهذه القصة إنما كانت فى المدينة كما فى الصحيح. وهذا يمكن الجواب عنه إذ لامانع أن تكون الآية وحدها مدنية. وبقية السورة مكى. وأما حمله على تعدد القصة فلم يصب.

(٢) قوله «من دان فى عمل الله كان الله فى عمله» دان: ذل. ودانه: أذله، كذا فى الصحاح. (ع)

قرئ ﴿نذلّ ونخزى﴾ على لفظ مالم يسم فاعله .

قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

﴿كل﴾ أى كل واحد منا ومنكم ﴿متربص﴾ للعاقبة ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم . وقرئ : السواء ، بمعنى الوسط والجيد . أو المستوى والسوء والسوأى والسوى تصغير السوء . وقرئ : فتمتعوا فسوف تعلمون . قال أبو رافع : حفظته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار [١] » وقال : « لايقرأ أهل الجنة من القرآن إلا طه ويس [٢] »

ســـورة الأنبياء

مكية وآياتها ١١٢ [نزلت بعد سورة إبراهيم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾

هذه اللام : لاتخلو من أن تكون صلة لاقترب ، أو تأكيداً لإضافة الحساب إليهم ، كقولك : « أزف للحىّ رحيلهم » الأصل : أزف رحيل الحىّ . ثم أزف للحىّ الرحيل ، ثم أزف للحىّ رحيلهم . ونحوه ماأورده سيبويه فى « باب مايثنى فيه المستقر توكيداً » عليك زيد حريص عليك . وفيك زيد راغب فيك . ومنه قولهم : لاأبالك : لأنّ اللام مؤكدة لمعنى الإضافة . وهذا الوجه أغرب من الأوّل . والمراد اقتراب الساعة . وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب مايكون فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك . ونحوه (واقترب الوعد

---

(١) أخرجه الثعلبي من رواية زياد عن الحسن مرسلا .

(٢) أخرجه ابن مردويه من حديث أبي بن كعب .

الحق) . فإن قلت : كيف وصف بالاقتراب وقد عدت دون هذا القول أكثر من خمسمائة عام ؟ قلت : هو مقترب عند الله والدليل عليه قوله عزّ وجلّ (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإنّ يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) ولأنّ كلّ آت ـ وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ـ قريب ، إنما البعيد هو الذى وجد وانقرض ، ولأنّ ما بقى فى الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها ، بدليل انبعاث خاتم النبيين الموعود مبعثه فى آخر الزمان . وقال عليه السلام [1] « بعثت فى نسم الساعة [2] » وفى خطبة بعض المتقدّمين : ولت الدنيا حذاء ، ولم تبق إلا صبابة كصبابة الإناء . وإذا كانت بقية الشىء وإن كثرت فى نفسها قليلة بالإضافة إلى معظمه ، كانت خليقة بأن توصف بالقلة وقصر الذرع . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنّ المراد بالناس : المشركون . وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم ، وهو ما يتلوه من صفات المشركين . وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، على معنى : أنهم غافلون عن حسابهم ساهون ، لا يتفكرون فى عاقبتهم ، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم ، مع اقتضاء عقولهم أنه لابدّ من جزاء للمحسن والمسىء . وإذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر ، أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا .

مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣)

قرر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ : بأنّ الله يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً ، ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ، ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون ، فما يزيدهم استماع الآى والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر ـ التى هى أحق الحق وأجدّ الجد ـ إلا لعباً وتلهياً واستسخارا . والذكر : هو الطائفة النازلة من القرآن . وقرأ ابن أبى عبلة ﴿ محدث ﴾ بالرفع صفة على المحل . قوله ﴿ وهم يلعبون لاهية قلوبهم ﴾

(١) أخرجه البزار باسناد حسن ، من حديث أبى جبير بن الضحاك الأنصارى وأخرجه الحسن بن سفيان . ومن طريقه أبونعيم فى الحلية . وفى الباب عن المستورد بن شداد رفعه « بعثت فى نفس الساعة ـ الحديث » أخرجه الترمذى . وقوله : وفى خطب بعض المتقدمين « ولت الدنيا حذاء لم يبق إلا صبابة كصبابة الاناء » هو عبدالله بن غزوان . أخرجه مسلم من حديثه مطولا .

(٢) قوله « بعثت فى نسم الساعة » فى الصحاح « نسم الريح » أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد . ومنه الحديث « بعثت فى نسم الساعة » أى حين ابتدأت وأقبلت أوائلها . والنسيم أيضاً : جمع نسمة وهى النفس . (ع)

حالان مترادفتان أو متداخلتان. ومن قرأ (لاهية) بالرفع فالحال واحدة، لأن (لاهية قلوبهم) خبر بعد خبر، لقوله (وهم) واللاهية: من لها عنه إذا ذهل وغفل، يعنى أنهم وإن فطنوا فهم فى قلة جدوى فطنتهم كأنهم لم يفطنوا أصلا، وثبتوا على رأس غفلتهم وذهولهم عن التأمل والتبصر بقلوبهم. فإن قلت: النجوى وهى اسم من التناجى لا تكون إلا خفية، فما معنى قوله (وأسرّوا)؟ قلت: معناه: وبالغوا فى إخفائها. أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم متناجون، أبدل ﴿الذين ظلموا﴾ من واو وأسرّوا، إشعاراً بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسرّوا به. أو جاء على لغة من قال «أكلونى البراغيث» أو هو منصوب المحل على الذم. أو هو مبتدأ خبره (وأسرّوا النجوى) قدّم عليه: والمعنى: وهؤلاء أسروا النجوى. فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بأنه ظلم ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ هذا الكلام كله فى محل النصب بدلا من النجوى، أى: وأسروا هذا الحديث. ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمراً: اعتقدوا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا ملكا، وأن كل من ادّعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ومعجزته سحر، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر. فإن قلت: لم أسروا هذا الحديث وبالغوا فى إخفائه؟ قلت: كان ذلك شبه التشاور فيما بينهم، والتحاور فى طلب الطريق إلى هدم أمره، وعمل المنصوبة فى التثبيط عنه [1]. وعادة المتشاورين فى خطب أن لا يشركوا أعداءهم فى شوراهم، ويتجاهدوا فى طىّ سرّهم عنهم ما أمكن واستطيع. ومنه قول الناس «استعينوا على حوائجكم بالكتمان» ويرفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [2]. ويجوز أن يسرّوا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين: إن كان ما تدعونه حقا فأخبرونا بما أسررنا.

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾

(١) قوله «وعمل المنصوبة فى التثبيط عنه» كأن فيه سقطا. وفى الصحاح: نصبت لفلان نصبا: إذا عاديته. (ع)

(٢) روى موقوفا. قال: ويرفع إلى النبى صلى الله عليه وسلم أخرجه الطبرانى والبيهقى فى الشعب الثالث والأربعين وابن عدى من رواية سعيد بن سلام العطار عن ثور بن زيد عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل. وسعيد. قال البخارى: يذكر بالوضع، وتابعه حسين بن علوان عن ثور. وكان أيضا يضع الحديث. قاله ابن عدى وابن حبان وقال ههنا عن أحمد وابن معين: هو حديث موضوع. وقال ابن أبى حاتم عن أبيه: منكر لا يعرف له أصل. وفى الباب عن أبى هريرة أخرجه حمزة السهمى فى تاريخ جرجان. وفيه شميل بن عبد الرحمن الجرجانى رواه محمد بن مطرف وعند الهيثم بن أيوب الطالقانى، وعن ابن عباس أخرجه ابن حبان فى الضعفاء. وفيه طاهر بن الفضل الحلبى. وهو متهم بالوضع. وله طريق أخرى من رواية الخلفاء للحسن بن على صاحب المسلمة عن إبراهيم بن على ابن مالونة البلخى عن الطالى عن إبراهيم بن معقل بسنده. وليس فيه غير الطالى.

فإن قلت : هلا قيل : يعلم السر لقوله (وأسرّوا النجوى)[1] ؟ قلت : القول عام يشمل السرّ والجهر ؛ فكان فى العلم به العلم بالسرّ وزيادة ، فكان آكد فى بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول : يعلم السرّ ، كما أنّ قوله : يعلم السرّ ، آكد من أن يقول : يعلم سرهم . ثم بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته فكيف تخفى عليه خافية . فإن قلت : فلم ترك هذا الآكد فى سورة الفرقان فى قوله (قل أنزله الذى يعلم السرّ فى السموات والأرض) ؟ قلت : ليس بواجب أن يجىء بالآكد فى كل موضع . ولكن يجىء بالوكيد تارة وبالآكد أخرى ، كما يجىء بالحسن فى موضع وبالأحسن فى غيره ليفتنّ الكلام افتنانا ، وتجمع الغاية وما دونها ، على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه ، من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى ، فكأنه أراد أن يقول : إن ربى يعلم ما أسروه ، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة ، وثم قصد وصف ذاته بأن أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض . فهو كقوله علام الغيوب (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة) . وقرئ ﴿قال ربى﴾ حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم .

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥)

أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده ، ثم إلى أنه قول شاعر . وهكذا الباطل لجلج[2] . والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد . ويجوز أن يكون تنزيلا من الله تعالى لأقوالهم فى درج الفساد : وأن قولهم الثانى أفسد من الأول ، والثالث أفسد من الثانى ، وكذلك الرابع من الثالث . صحة التشبيه فى قوله ﴿كما أرسل الأولون﴾

(٣) قال محمود : «إن قلت لم عدل عن قوله يعلم السر مع أن المتقدم وأسروا النجوى ... الخ» قال أحمد : وهذا من إتباع القرآن للرأى ، نعوذ بالله من ذلك لاسيما رأى ينفى صفات الكمال عن الله تعالى وما الذى دل عليه (السميع العليم) من نفى صفتى السمع والعلم فى تفسيرهما بذلك ، مع أنه لا يفهم فى اللغة سميع إلا بسمع ، ولا عليم إلا بعلم ، فانها صفات مشتقات من مصادر لابد من فهمها وثبوتها أولا ، ثم ثبوت ما اشتقت منه . ومن أنكر السمع والعلم فقد سارع إلى إنكار السميع العليم وهو لا يشعر . وليس غرضنا فى هذا المصنف سوى الايقاظ لما انطوى عليه الكشاف من غوائل البدع ليتجنبها الناظر . وأما الأدلة الكلامية فن فنها تتلق . وحاله فيما يورده من أمثال هذه النزغات مختلف : فمرة يوردها عند كلام يتخيل فى ظاهره إشماراً بغرضه ، فوظيفتنا معه حينئذ أن ننازع فى الظهور ، ثم قد نترقى إلى بيان ظهوره فى عكس مراده أو نصوصيته ، حتى لا يحتمل مايدعيه بوجه ما ، وقد يلجئنا الانصاف إلى تسليم الظهور له ؛ فنذكر وجه التأويل الذى يرشد إليه دليل العقل . ومرة يورد نبذاً من هذا الرأى عند كلام لا يحتمله ولا يشعر به بوجه ، وغرضه التعسف حتى لا يخلى شيئا من كلامه من تعصب وإصرار على باطل ، فننبه على ذلك أيضا . وماذكره عند هذه الآية من قبيل مايدل النص على عكس مراده فيه ، وقد أوضحناه .

(١) قوله «والباطل لجلج» فى الصحاح : الحق أبلج والباطل لجلج ، أى : يردد من غير أن ينفذ . (ع)

من حيث أنه فى معنى : كما أتى الأولون بالآيات ، لأنّ إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات ألا ترى أنه لا فرق بين أن تقول : أرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، وبين قولك: أتى محمد بالمعجزة.

مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)

﴿أفهم يؤمنون﴾ فيه أنهم أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها ، فلما جاءتهم نكثوا أو خالفوا ، فأهلكهم الله . فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أنكث وأنكث .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧)

أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر وهم أهل الكتاب ، حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشراً ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا ، وإنما أحالهم على أولئك لأنهم كانوا يشايعون المشركين فى معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى (ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) فلا يكاذبونهم فيما هم فيه رده لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨)

﴿لا يأكلون الطعام﴾ صفة لجسداً ، والمعنى : وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله ذوى جسد غير طاعمين . ووحد الجسد لإرادة الجنس ، كأنه قال : ذوى ضرب من الأجساد . وهذا ردّ لقولهم (ما لهذا الرسول يأكل الطعام) . فإن قلت : نعم قد ردّ إنكارهم أن يكون الرسول بشراً يأكل ويشرب بما ذكرت ، فماذا ردّ من قولهم بقوله ﴿وما كانوا خالدين﴾ ؟قلت : يحتمل أن يقولوا إنه بشر مثلنا يعيش كما نعيش ويموت كما نموت . أو يقولوا : هلا كان ملكا لا يطعم ويخلد : إما معتقدين أن الملائكة لا يموتون . أو مسمين حياتهم المتطاولة وبقاءهم الممتد خلوداً .

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩)

﴿صدقناهم الوعد﴾ مثل واختار موسى قومه . والأصل فى الوعد : ومن قومه . ومنه : صدقوهم القتال . وصدقنى سنّ بكره ﴿ومن نشاء﴾ هم المؤمنون ومن فى بقائه مصلحة .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)

﴿ذكركم﴾ شرفكم وصيتكم، كما قال (وإنه لذكر لك ولقومك) أو موعظتكم. أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء أو حسن الذكر (١)، كحسن الجوار، والوفاء بالعهد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، والسخاء، وما أشبه ذلك.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾

﴿وكم قصمنا من قرية﴾ واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم: لأنّ القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم. وأراد بالقرية: أهلها، ولذلك وصفها بالظلم. وقال ﴿قوما آخرين﴾ لأن المعنى: أهلكنا قوما وأنشأنا قوما آخرين. وعن ابن عباس: أنها «حضور» وهي و«سحول» قريتان باليمن، تنسب إليهما الثياب. وفي الحديث «كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سحوليين[2]» وروى «حضوريين[3]» بعث الله إليهم نبيا فقتلوه، فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم. وروى: أنهم لما أخذتهم السيوف ونادى مناد من السماء يالثارات الأنبياء، ندموا واعترفوا بالخطأ. وذلك حين لم ينفعهم الندم. وظاهر الآية على الكثرة. ولعل ابن عباس ذكر «حضور» بأنها إحدى القرى التي أرادها الله بهذه الآية. فلما علموا شدّة عذابنا وبطشتنا علم حسّ ومشاهدة، لم يشكوا فيها، ركضوا من ديارهم. والركض: ضرب الدابة بالرجل. ومنه قوله تعالى (اركض برجلك) فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب. ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم، فقيل لهم. ﴿لا تركضوا﴾ والقول محذوف. فإن قلت: من القائل؟ قلت يحتمل أن يكون بعض الملائكة

(١) قوله «تطلبون بها الثناء أوحسن الذكر» لعله «وحسن الذكر» بالواو فقط. (ع)

(٢) متفق عليه عن عائشة بلفظ «كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أثواب سحولية».

(٣) أخرجه الدارقطني في العلل من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، بلفظ «ثلاثة أثواب: ثوبين حضوريين وثوب حبرة» وقال: تفرد به محمد بن إسحاق الصاغاني عن ابن الجواب عن الثوري عن عاصم بن عبدالله عن سالم عن أبيه بهذا.

﴿فائدة﴾ «حضور» بفتح المهملة وضم المعجمة: قرية بصنعاء قريبة من قرية عبدالرزاق.

أو من ثم من المؤمنين أو يجعلوا خلفاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل . أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم في دينهم . أو يلهمهم ذلك فيحدثوا به نفوسهم ﴿ وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ﴾ من العيش الرافه والحال الناعمة . والإتراف : إبطار النعمة وهي الترفة ﴿ لعلكم تسئلون ﴾ تهكم بهم وتوبيخ ، أي : ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم ، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة . أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم . وترتبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم : بم تأمرون ؟ وبماذا ترسمون ؟ وكيف نأتي ونذر كعادة المنعمين المخدّمين ؟ أو يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب ، ويستشيرونكم في المهمات والعوارض ويستشفون بتدابيركم ، ويستضيئون بآرائكم . أو يسألكم الوافدون عليكم والطماع ويستمطرون سحائب أكفكم ، ويمترون أخلاف [1] معروفكم وأياديكم : إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء ، أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكماً إلى تهكم ، وتوبيخاً إلى توبيخ ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى ياويلنا ، لأنها دعوى ، كأنه قيل : فمازالت تلك الدعوى ﴿ دعواهم ﴾ والدعوى بمعنى الدعوة . قال تعالى (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) . فإن قلت : لم سميت دعوى ؟ قلت : لأن المولول كأنه يدعو الويل ، فيقول تعالى : ياويل فهذا وقتك . و (تلك) مرفوع أو منصوب . اسماً أو خبراً وكذلك دعواهم . الحصيد : الزرع المحصود ، أي : جعلناهم مثل الحصيد ، شبههم به في استئصالهم واصطلامهم [2] كما تقول : جعلناهم رمادا ، أي مثل الرماد . والضمير المنصوب هو الذي كان مبتدأ والمنصوبان بعده كانا خبرين له . فلما دخل عليها جعل نصبها جميعا على المفعولية . فإن قلت كيف ينصب «جعل» ثلاثة مفاعيل ؟ قلت : حكم الاثنين الآخرين حكم الواحد ؛ لأن معنى قولك «جعلته حلوا حامضا» جعلته جامعا للطعمين . وكذلك معنى ذلك : جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾

أي : وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب ، كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم ،

(١) قوله «ويمترون أخلاف معروفكم» في الصحاح : الريح تمرى السحاب وتمتريه ، أي تستدره . وفيه أيضا : الخلف ـ بالكسر ـ حلمة ضرع الناقة . (ع)

(٢) قوله «واصطلامهم» في الصحاح «الاصطلام» الاستئصال . (ع)

للهو واللعب ، وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية ، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا ، مع مايتعلق لهم بها من المنافع التي لاتعد والمرافق التي لاتحصى . ثم بين أن السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي : هو أن الحكمة صارفة عنه ، وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلا لأني على كل شيء قدير . وقوله ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ كقوله (رزقا من لدنا) أي من جهة قدرتنا . وقيل : اللهو الولد بلغة اليمن . وقيل المرأة . وقيل من لدنا ، أي من الملائكة لامن الإنس ، ردًّا لولادة المسيح وعزير .

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

﴿بل﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب ، وتنزيه منه لذاته ، كأنه قال : سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب [1] ، بل من عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد ، وندحض الباطل بالحق . واستعار لذلك القذف [2] والدمغ ، تصويرًا لإبطاله وإهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا ، قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه [3] ، ثم قال ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ به به مما لايجوز عليه وعلى حكمته . وقرئ : فيدمغه بالنصب ، وهو في ضعف قوله :

(١) قال محمود : «ومعناه سبحاننا أن نتخذ لهوا ولعبا ... الخ» قال أحمد : وله تحت قوله واستغنائنا عن القبيح دفين من البدعة والضلالة ، ولكنه من الكنوز التي يحمى عليها في نار جهنم ، وذلك أن القدرية يوجبون على الله تعالى رعاية المصالح وفعل ما يتوهمونه حسنا بعقولهم ، ويظنون أن الحكمة تقتضي ذلك ، فلا يستغني الحكيم على زعمهم عن خلق الحسن على وفق الحكمة بخلاف القبيح ، فان الحكمة تقتضي الاستغناء عنه ، فالى ذلك يلوح الزمخشري وما هي إلا نزغة سبق إليها ضلال الفلاسفة . ومن ثم يقولون : ليس في الامكان أكمل من هذا العالم ؛ لأنه لو كان في القدرة أكمل منه وأحسن ، ثم لم يخلقه الله تعالى : لكان بخلا ينافي الجود ، أو عجزا ينافي القدرة ، حتى اتبعهم في ذلك من لانسميه من أهل الملة ـ عفا الله عنه ـ إن كان هذا مما يدخل تحت ذيل العفو . فالحق أن الله تعالى مستغن عن جميع الأفعال حسنة كانت أو غيرها ، مصلحة كانت أو مفسدة . وأن له أن لا يخلق ما يتوهمه القدرية حسنا ، وله أن يفعل ما يتوهمونه في الشاهد قبيحا ، وأن كل موجود من فاعل وفعل على الاطلاق فبقدرته وجد ، فليس في الوجود إلا الله وصفاته وأفعاله ، وهو مستغن عن العالم بأسره ، وحسنه وقبحه ، فلو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم على أتقى قلب رجل منكم لم يزد ذلك في ملكه شيئا . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم على أفجر قلب رجل منكم لم ينقص ذلك من ملكه شيئا . اللهم ألهمنا الحق واستعملنا به .

(٢) عاد كلامه . قال : «وفي قوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل استعارة حسنة: استعار القذف ... الخ» قال أحمد : ومثل هذا التنبيه من حسناته ، ولولا أن السيئة التي قبلها تتعلق بالعقيدة لتلوت : إن الحسنات يذهبن السيئات ، والله أعلم .

(٣) قوله «فدمغه» في الصحاح : أي شجه حتى بلغت الشجة الدماغ . (ع)

سَأَتْرُكُ مَنْزِلِى لِبَنِى تَمِيمٍ وَأَلْحَقُ بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا [١]

وقرئ فيدمغه .

وَلَهُ مَنْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ ومن عنده ﴾ هم الملائكة . والمراد أنهم مكرمون ، منزلون ـ لكرامتهم عليه ـ منزلة المقربين عند الملوك على طريق التمثيل والبيان لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه [٢]. فإن قلت : الاستحسار مبالغة فى الحسور [٣] ، فكان الأبلغ فى وصفهم أن ينفى عنهم أدنى الحسور . قلت فى الاستحسار بيان أنّ ماهم فيه يوجب غاية الحسور [٤] وأقصاه ، وأنهم أحقاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون . أى . تسبيحهم متصل دائم فى جميع أوقاتهم ، لا يتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر .

أَمِ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾

هذه أم المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة ، قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها ، والمنكر : هو اتخاذهم ﴿ آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾ الموتى [٥] ، ولعمرى أن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات . فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر [٦] وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم ؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى وذلك أنهم كانوا ـ مع إقرارهم لله عزّ وجل بأنه خالق السموات والأرض (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله) وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى ـ منكرين البعث ويقولون : من يحي العظام وهى رميم ، وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كثانى القديم ، فكيف يدعونه للجماد الذى لا يوصف بالقدرة رأساً ؟ قلت : الأمر

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٥٥٧ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله «لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل . (ع)

(٣) قال محمود : «إن قلت لم استعمل الاستحسار ههنا فى النفى ... الخ» قال أحمد : وبمثله أجيب عن قوله تعالى (وماربك بظلام للعبيد) فانظره .

(٤) قوله «يوجب غاية الحسور» أى الكلال . أفاده الصحاح . (ع)

(٥) قوله «هم ينشرون الموتى» الانشار : الاحياء بعد الموت . أفاده الصحاح . (ع)

(٦) قال محمود : «إن قلت كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة ... الخ» قال أحمد : فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها وهو أبلغ فى الانكار ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

كما ذكرت ، ولكنهم بادعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار ، لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور ، والإنشار من جملة المقدورات . وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل ، وإشعار بأنّ ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده ؛ لأنّ الإلهية لما صحت صحّ معها الاقتدار على الإبداء والإعادة . ونحو قوله ﴿من الأرض﴾ قولك : فلان من مكة أو من المدينة ، تريد : مكي أو مدني . ومعنى نسبتها إلى الأرض : الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد فى الأرض : لأنّ الآلهة على ضربين : أرضية وسماوية . ومن ذلك حديث الأمة التي قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أين ربك » ؟ فأشارت إلى السماء . فقال إنها مؤمنة[1] لأنه فهم منها أنّ مرادها نفى الآلهة الأرضية التي هي الأصنام ، لا إثبات السماء مكانا لله عزّ وجلّ . ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض ؛ لأنها إمّا أن تنحت من بعض الحجارة ، أو تعمل من بعض جواهر الأرض . فإن قلت : لابدّ من نكتة فى قوله ﴿هم﴾[2] قلت : النكتة فيه إفادة معنى الخصوصية ، كأنه قيل : أم اتخذوا آلهة لا يقدر على الإنشار إلا هم وحدهم . وقرأ الحسن ﴿ينشرون﴾ وهما لغتان : أنشر الله الموتى ، ونشرها . ووصفت آلهة بإلا كما توصف بغير . لو قيل آلهة غير الله .

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما من حديث معاوية بن الحكم السلمي .

(٢) عاد كلامه . قال محمود : «إن قلت لابد لقوله (هم) من فائدة . وإلا فالكلام مستقل بدونها ... الخ» قال أحمد : وفى هذه النكتة نظر ؛ لأن آلات الحصر مفقودة ، وليس ذلك من قبيل : صديق زيد ، فان المبتدأ فى الآية أخص شيء لأنه ضمير . وأيضاً فلا ينبني على ذلك إلزامهم حصر الألوهية فيهم ، وتخصيص الانشار بهم ، ونفيه عن الله تعالى ، إذ هذا لا يناسب السياق ، فانه قال عقبها : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . ومعناه : لو كان فيهما إله غير الله شريكا لله لفسدتا ، وكان مقتضى ما قال الزمخشري أن يقال : لو لم يكن فيهما آلهة إلا الأصنام لفسدتا . وأما والمتلوّ على خلاف ذلك ، فلا وجه لما قال الزمخشري . وعندى أنه يحتمل والله أعلم أن تكون فائدة قوله (هم) الايذان بأنهم لم يدعوا لها الانشار ، وأن قوله (هم ينشرون) استئناف إلزام لهم . وكأنه قال : اتخذوا آلهة مع الله عزوجل فهم إذن يحيون الموتى ضرورة كونهم آلهة ، ثم لما انتظم من دعواهم الألوهية للأصنام وإلزامهم على ذلك أن يصفوهم بالقدرة الكاملة على إحياء الموتى ، نظم فى إبطال هذه الدعوى وما ألزمهم عليها دليل قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وأزيد هذا التقرير وضوحا فأقول : إن دليل التمانع المغترف من بحر هذه الآية ، المقتبس من نورها ، يورده المتكلمون على صورة التقسيم ، فيقولون : لو وجد مع الله إله آخر ، وربما قالوا : لو فرضنا وجود إلهين ، فاما أن يكونا جميعا موصوفين بصفات الكمال اللائى يندرج فيها القدرة على إحياء الموتى وإنشارهم وغير ذلك من الممكنات ، أولا يتصف بها واحد منهما أو أحدهما دون الآخر ، ثم يحيلون جميع الأقسام وهو المسمى برهان الخلف . وأدق الأقسام إبطالا قسم اتصافهما جميعاً بصفات الكمال ، وما عداه فبادىء الرأى يبطل . فانظر كيف اختار له تعالى إبطال هذا القسم الخفى البطلان ، فأوضح فساده فى أخصر أسلوب وأوجزه ، وأبلغ بديع الكلام ومعجزه . وإنما ينتظم هذا على أن يكون المقصد من قوله (هم ينشرون) إلزامهم ادعاء صفات الألوهية لآلهتهم ، حتى يتحرى أنهم اختاروا القسم الذى أبطله الله تعالى ، ووكل إبطال ما عداه من الأقسام إلى ماركبه فى عباده من العقول ، وكل خطب بعد بطلان هذا القسم جلل ، والله الموفق . فتأمل هذا الفصل بعين الانصاف . تجده أنفس الانصاف . والله المستعان .

لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)

فإن قلت : ما منعك من الرفع على البدل ؟ قلت : لأنّ «لو» بمنزلة «إن» فى أنّ الكلام معه موجب ، والبدل لا يسوغ إلا فى الكلام غير الموجب ، كقوله تعالى (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك) وذلك لأنّ أعمّ العامّ يصح نفيه ولا يصح إيجابه . والمعنى : لو كان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذى هو فاطرهما لفسدتا . وفيه دلالة على أمرين ، أحدهما : وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحداً . والثانى : أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده ، لقوله (إلا الله) . فإن قلت : لم وجب الأمران ؟ قلت : لعلمنا أنّ الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف . وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو ابن سعيد الأشدق : كان والله أعزّ علىّ من دم ناظرى ، ولكن لا يجتمع فحلان فى شول[1] وهذا ظاهر . وأما طريقة التمانع فللمتكلمين فيها تجاول وطراد . ولأنّ هذه الأفعال محتاجة إلى تلك الذات المتميزة بتلك الصفات حتى تثبت وتستقر .

لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)

إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من فى مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم ، تهيباً وإجلالا ، مع جواز الخطإ والزلل وأنواع الفساد عليهم - كان ملك الملوك وربّ الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسئل عن أفعاله . مع ما علم واستقرّ فى العقول من أن ما يفعله كله مفعول بدواعى الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ[2] ولا فعل القبائح[3]

(١) قوله «لا يجتمع فحلان فى شول» فى الصحاح «الشول» النوق التى خف لبنها وارتفع ضرعها . (ع)

(٢) قال محمود : «لما بين تعالى أنه رب الأرباب وخالقهم ومالكهم ، ناسب هذا التنبيه على ما يجب له تعالى على خلقه من الاجلال والاعظام ، فان آحاد الملوك تمنع مهابته أن يسئل عن فعل فعله . فما ظنك بخالق الملوك وربهم . ثم إن آحاد الملوك يجوز عليهم الخطأ والزلل وقد استقر فى العقول أن أفعال الله تعالى كلها مفعولة بدواعى الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح» قال أحمد : سحقاً لها من لفظة ما أسوأ أدبها مع الله تعالى ، أعنى قوله : دواعى الحكمة ؛ فان الدواعى والصوارف إنما تستعمل فى حق المحدثين ، كقولك : هو مما توفر دواعى الناس إليه أو صوارفهم عنه . وقوله «لا يجوز عليه فعل القبائح» قلت : وهذا من الطراز الأول ، ولو أنه فى الذيل :

• فقد نسيت وما بالعهد من قدم • وبعد ما انقضى دليل التوحيد وإبطال الشرك من سمعك أيها الزمخشرى . وقلبك رطب بتقريره ، فلم نكصت وانتكست ؟ أتقول إن أحداً شريك لله فى ملكه يفعل ما يشاء من الأفعال التى تسميها قبائح فتنفيها عن قدرة الله تعالى وإرادته . وما الفرق بين من يشرك لله ملكا من الملائكة ، وبين من يشرك نفسه بربه حتى يقول : إنه يفعل ويخلق لنفسه شاء الله أو لم يشأ ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . والقدرية ارتضوا لأنفسهم شر شرك ؛ لأن غيرهم أشرك بالملائكة ، وهم أشركوا بنفوسهم وبالشياطين والجن وجميع الحيوانات ، نعوذ بمالك الملك من مسالك الهلك .

(٣) قوله «ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فهو الفاعل للخير والشر ، كما بين فى علم التوحيد . (ع)

﴿وهم يسئلون﴾ أي هم مملوكون مستعبدون خطاؤن، فما خلقهم بأن يقال لهم: لم فعلتم؟ في كل شيء فعلوه.

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

كرر ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ استفظاعا لشأنهم واستعظاما لكفرهم، أي: وصفتم الله تعالى بأن له شريكا، فهاتوا برهانكم على ذلك: إما من جهة العقل، وإما من جهة الوحي، فإنكم لا تجدون كتاباً من كتب الأولين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعوّ إليه، والإشراك به منهى عنه متوعد عليه. أي ﴿هذا﴾ الوحي الوارد في معنى توحيد الله ونفى الشركاء عنه، كما ورد علىّ فقد ورد على جميع الأنبياء، فهو ذكر: أي عظة للذين معي: يعنى أمته، وذكر للذين من قبلي: يريد أمم الأنبياء عليهم السلام. وقرئ ﴿ذكرٌ من معي وذكرٌ من قبلي﴾ بالتنوين. ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله (أو إطعام في يوم ذى مسغبة يتيما) وهو الأصل والإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول كقوله: (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) وقرئ (من معى) و(من قبلي) على من الإضافية في هذه القراءة. وإدخال الجار على «مع» غريب، والعذر فيه أنه اسم هو ظرف، نحو: قبل، وبعد، وعند، ولدن، وما أشبه ذلك، فدخل عليه «من» كما يدخل على أخواته. وقرئ: ذكر معي وذكر قبلي. كأنه قيل: بل عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله وهو الجهل وفقد العلم، وعدم التميز بين الحق والباطل، فمن ثم جاء هذا الإعراض، ومن هناك ورد هذا الإنكار. وقرئ ﴿الحق﴾ بالرفع على توسيط التوكيد بين السبب والمسبب. والمعنى أن إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل. ويجوز أن يكون المنصوب أيضاً على هذا المعنى، كما تقول: هذا عبد الله الحق لا الباطل.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

﴿يوحى﴾ ونوحى: مشهورتان. وهذه الآية مقررة لما سبقها من آي التوحيد.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

نزلت فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله . نزه ذاته عن ذلك ، ثم أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافى الولادة ، إلا أنهم ﴿ مكرمون ﴾ مقربون عندى مفضلون [١] على سائر العباد ،[٢] لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم ، فذلك هو الذى غرّ منهم من زعم أنهم أولادى، تعاليت عن ذلك علواً كبيراً . وقرئ مكرّمون . و﴿ لايسبقونه ﴾ بالضم ، من : سابقته فسبقته أسبقه . والمعنى : أنهم يتبعون قوله ولا يقولون شيئاً حتى يقوله ، فلا يسبق قولهم قوله. والمراد : بقولهم ، فأنيب اللام مناب الإضافة ، أى لا يتقدمون قوله بقولهم ، كما تقول : سبقت بفرسى فرسه ، وكما أنّ قولهم تابع لقوله ، فعملهم أيضا كذلك مبنى على أمره : لا يعملون عملا مالم يؤمروا به . وجميع ما يأتون ويذرون مما قدموا وأخروا بعين الله، وهو مجازيهم عليه ، فلإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم ، ويراعون أحوالهم ، ويعمرون أوقاتهم . ومن تحفظهم أنهم لايجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة فى ازدياد الثواب والتعظيم ، ثم أنهم مع هذا كله من خشية الله ﴿ مشفقون ﴾ أى متوقعون من أمارة ضعيفة ، كائنون على حذر ورقبة[٣] لا يأمنون مكر الله . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطا كالحلس [٤] من خشية [٥] الله . وبعد أن وصف كرامتهم عليه ، وقرب منزلتهم عنده ، وأثنى

---

(١) قال محمود : «معناه مكرمون مفضلون على سائر عباد الله» قال أحمد : وهذا التفسير من جعل القرآن تبعا للرأى ، فانه لما كان يعتقد تفضيل الملائكة على الرسل نزل الآية على معتقده ، وليس غرضنا إلا بيان أنه حمل الآية مالا تحتمله ، وتناول منها ما لاتعطيه : لأنه ادعى أنهم مكرمون على سائر الخلق لا على بعضهم ، فدعواه شاملة ودليله مطلق ، والله الموفق .

(٢) قوله «مفضلون على سائر العباد» هذا عند المعتزلة ، وبعض البشر أفضل منهم عند أهل السنة . (ع)

(٣) قوله «ورقبة» بالكسر ، أى : انتظار . أفاده الصحاح . (ع)

(٤) قوله «كالحلس» بكسر فسكون . أوبفتحتين : كساء رقيق يكون تحت البرذعة أوتحت الرحل . أفاده الصحاح . (ع)

(٥) أخرجه ابن خزيمة من رواية مرة عن ابن مسعود «أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر سدرة المنتهى - الحديث ، قال فوقع جبريل فصار كالحاس الملق» إسناده قوى . وغلط ابن الجوزى فى تضعيفه لمحمد بن ميمون شيخ ابن خزيمة ، فانه ثقة - وفى الطبرانى الأوسط وتفسير ابن مردويه من رواية عبد الكريم الجزرى عن عطاء عن جابر رفعه «مررت فى السماء الرابعة بجبريل ، وهو كالحلس البالى من خشية الله» إسناده قوى . وروى ابن خزيمة فى التوحيد وابن سعد وسعيد بن منصور والبزار والبيهقى فى الشعب والدلائل والطبرانى فى الأوسط ، كلهم من رواية أبى قلابة الحارث بن أبى عمران الجونى عن أنس رفعه «بينما أنا قاعد إذ جاء جبريل . فوكز بين كتفى فقمت إلى شجرة فيها كوكرى الطائر فقعد فى أحدهما وقعدت فى الآخر . فسمت بنا فارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفى . ولو شئت أن أمس لمسست . فالتفت إلى جبريل كأنه حاس لاطئ . فعرفت فضل علمه بالله علىّ . وفتح لى باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم - الحديث» قال البزار : لانعلم رواه عن أبى عمران إلا الحرث بن عبيد وقال غيره : خالفه حماد بن سلمة عن أبى عمران إلا الحرث بن عبيد وقال غيره : خالفه حماد

عليهم ، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية .

فاجأ بالوعيد الشديد ، وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم إن كان [1] ذلك على سبيل الفرض والتمثيل ، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون ، كما قال (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) قصد بذلك تفظيع أمر الشرك وتعظيم شأن التوحيد .

أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

قرئ ﴿أَلم ير﴾ بغير واو . و ﴿رتقا﴾ بفتح التاء ، وكلاهما فى معنى المفعول ، كالخلق والنقض ، أى : كانتا مرتوقتين . فإن قلت : الرتق صالح أن يقع موقع ،رتوقتين لأنه مصدر . فما بال الرتق ؟ قلت : هو على تقرير موصوف ، أى : كانتا شيئاً رتقا . ومعنى ذلك : أن السماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما . أو كانت السموات متلاصقات ، وكذلك الأرضون لا فرج بينها ففتقها الله وفرّج بينها . وقيل : ففتقناهما بالمطر والنبات بعد ما كانت مصمتة ، وإنما قيل : كانتا دون كنّ . لأنّ المراد جماعة السموات وجماعة الأرض ، ونحوه قولهم : لقاحان سوداوان . أى : جماعتان ، فعل فى المضمر نحو ما فعل فى المظهر . فإن قلت : متى رأوهما رتقا حتى جاء تقريرهم بذلك ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أنه وارد فى القرآن الذى هو معجزة فى نفسه ، فقام مقام المرئىّ المشاهد . والثانى : أن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز فى العقل ، فلا بدّ للتباين دون التلاصق من مخصص وهو القديم سبحانه ﴿وجعلنا﴾ لا يخلو أن يتعدى إلى واحد أو اثنين . فإن تعدّى إلى واحد ، فالمعنى : خلقنا من الماء كل حيوان ، كقوله (والله خلق كل دابة من ماء) أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه ، كقوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) وإن تعدى إلى اثنين فالمعنى : صيرنا كل شيء حيّ بسبب من الماء لا بدّ له منه . و « من » هذا [2] نحو « من » فى قوله عليه السلام [3] « ما أنا من

ـــ ابن سلمة عن أبى عمران . فقال : عن محمد بن عمير بن عطاء مرسلا كذلك أخرجه ابن المبارك فى الزهد عن حماد . وفى رواية « فعرفت فضل خشيته على خشيتى » وزاد فيه فأوحى الله إليه أنبياً عبداً أم نبياً ملكا . فاومأ إلى جبريل عليه السلام : بل نبياً عبداً »

(١) قوله « إن كان » لعله : إذ كان . (ع)

(٢) قوله « ومن هذا » لعله « ومن هنا » . (ع)

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد والبزار والطبرانى من رواية يحيى بن محمد بن قيس عن عمرو بن أبى عمرو عن أنس . زاد البزار قال يحيى : يقول : « لست من الباطل ولا الباطل منى » قال : لا نعلمه إلا عن أنس من هذا الوجه . واستنكره ابن عدى ليحيى بن محمد بن قيس . وقال ابن أبى حاتم : رواه الدراوردى عن عمرو عن المطلب عن معاوية نحوه مرفوعا ونقل عن أبيه وأبى زرعة أن رواية الدراوردى أشبه بالصواب .

دد ولا الدد منى»[1] وقرئ: حيا، وهو المفعول الثانى. والظرف لغو.

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)

أى كراهة ﴿أن تميد بهم﴾ وتضطرب. أو لئلا تميد بهم، فحذف «لا» واللام. وإنما جاز حذف «لا» لعدم الالتباس[2]، كما تزاد لذلك فى نحو قوله (لئلا يعلم) وهذا مذهب الكوفيين. الفج: الطريق الواسع. فإن قلت: فى الفجاج معنى الوصف، فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر كما فى قوله تعالى (لتسلكوا منها سبلا فجاجا)؟ قلت: لم تقدم وهى صفة، ولكن جعلت حالا كقوله:

* لِعَزَّةَ مُوحِشًا طَلَلٌ قَدِيمٌ *[3]

فإن قلت: ما الفرق بينهما من جهة المعنى؟ قلت: أحدهما: الإعلام بأنه جعل فيها طرقا واسعة. والثانى: بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم ثمة، محفوظا حفظه بالإمساك

(١) قوله عليه السلام: «ما أنا من دد» فى الصحاح: الدد: اللهو واللعب. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه كراهة أن تميد بهم، أو تكون لا محذوفة لأمن الالباس» قال أحمد: وأولى من هذين الوجهين أن يكون من قولهم: أعددت هذه الخشبة أن تميل الحائط فأدعمه. قال سيبويه: ومعناه أن أدعم الحائط إذا مال. وإنما قدم ذكر الميل اهتماما بشأنه. ولأنه أيضا هو السبب فى الادعام، والادعام سبب فى إعداد الخشبة، فعامل سبب السبب معاملة السبب. وعليه حمل قوله تعالى (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) كذلك ما نحن فيه يكون الأصل: وجعلنا فى الأرض رواسى لأجل أن تثبتها إذا مادت بهم، فجعل الميد هو السبب، كما جعل الميل فى المثل المذكور سببا، وصار الكلام: وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد فنثبتها، ثم حذف قوله «فنثبتها» لأمن الالباس إيجازا واختصارا، وهذا التقرير أقرب إلى الواقع مما أول الزمخشرى الآية عليه، فان مقتضى تأويله أن لا تميد الأرض بأهلها؛ لأن الله كره ذلك، ومكروه الله تعالى محال أن يقع، كما أن مراده واجب أن يقع، والمشاهد خلاف ذلك، فكم من زلزلة مادت لها الأرض وكادت تقلب عاليها سافلها. وأما على تقريرنا فالمراد أن الله تعالى يثبت الأرض بالجبال إذا مادت، وهذا لا يأبى وقوع الميد، كما أن قوله (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) لا يأبى وقوع الضلال والنسيان من إحداهما، لكنه ميد يستعقبه التثبيت، وكذلك الواقع من الزلازل إنما هو كاللمحة ثم يثبتها الله تعالى.

(٣) لعزة موحشا طلل قديم عفاه كل أسحم مستديم

لكثير. والطلل: ما شخص من آثار الدار، والصفة إذا تقدمت على موصوفها كانت حالا منه كما هنا؛ لأن مذهب الكوفيين والأخفش أن «طلل» فاعل الظرف قبله وأن يعتمد. و«موحشا» حال منه مقدمة عليه. ويجوز أنه مبتدأ. وموحشا حال من الضمير المستتر فى الظرف. وأجاز سيبويه أنه حال من المبتدإ المؤخر. وعاملها الاستقرار المحذوف، ولا يمتنع عنده اختلاف عامل الحال وعامل صاحبها، خلافا للجمهور. والموحش: الموقع فى الوحشة، ضد المؤنس: الموقع فى الأنس. ويجوز أن معناه كثير الوحوش. وعفاه: أهلكه. والاسم: صفة السحاب، أى: كل أسود دائم الامطار. ويروى هكذا: لمية موحشا طلل يلوح كأنه خلل وهى بالكسر: جمع خلة، وهى بطانة مخططة تغشى بها جفان السيوف، وسيور تلبس ظهور القسى.

بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل [١] ، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة ﴿عن آياتها﴾ أي عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس [٢] والقمر وسائر النيرات ، ومسايرها وطلوعها وغروبها ؛ على الحساب القويم والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة ، وأى جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها ؛ والاعتبار بها ، والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ، ودبرها ونصبها هذه النصبة ، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدرته ولطف علمه . وقرئ عن آيتها ، على التوحيد ، اكتفاء بالواحدة فى الدلالة على الجنس أى : هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية ، كالاستضاءة بقمريها ، والاهتداء بكواكبها ، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها ، وهم عن كونها آية بينة على الخالق ﴿معرضون﴾ .

وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

﴿كل﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه ، أى : كلهم ﴿فى فلك يسبحون﴾ والضمير للشمس والقمر ، والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة ، جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها وهو السبب فى جمعهما بالشموس والأقمار ، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد ، وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة . فإن قلت : الجملة ما محلها ؟ قلت : محلها النصب على الحال من الشمس والقمر . فإن قلت : كيف استبدّ بهما دون الليل والنهار بنصب الحال عنهما ؟ قلت : كما تقول : رأيت زيداً وهنداً متبرجة ونحو ذلك ؛ إذا جئت بصفة يختص بها بعض ما تعلق به العامل . ومنه قوله تعالى فى هذه السورة (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) أو لا محل لها لاستئنافها . فإن قلت : لكل واحد من القمرين فلك على حدة ، فكيف قيل : جميعهم يسبحون فى فلك ؟ قلت : هذا كقولهم « كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفا » أى كل واحد منهم ، أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين ، فاكتفى بما يدل على الجنس اختصاراً ، ولأنّ الغرض الدلالة على الجنس .

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)

كانوا يقدّرون أنه سيموت فيشمتون بموته ، فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا ، أى : قضى الله

(١) قوله « ويتزلزل » لعله : أو يتزلزل . (ع)
(٢) قوله «والعبر بالشمس» لعله « كالشمس ... الخ » كعبارة النسفى . (ع)

أن لايخلد فى الدنيا بشراً ، فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت . فإذا كان الأمر كذلك فإن مت أنت أيبقى هؤلاء ؟ وفى معناه قول القائل :

فَقُــلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا (١)

أى نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا ، وبما يجب فيه الشكر من النعم . وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر ، وإنما سمى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمـال العاملين قبل وجودهم ، لأنه فى صورة الاختبار . و ﴿فتنة﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه .

وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا الَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

الذكر يكون بخير وبخلافه ، فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد ، كقولك للرجل: سمعت فلانا يذكرك ، فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء ، وإن كان عدوّا فذم(٢) . ومنه قوله تعالى (سمعنا فتى يذكرهم) وقوله ﴿أهذا الذى يذكر آلهتكم﴾ والمعنى أنهم عاكفون على ذكر آلهتهم بهممهم ومايجب أن لاتذكر به ، من كونهم شفعاء وشهداء . ويسوءهم أن يذكرها ذاكر بخلاف ذلك . وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية ، فهم به كافرون لايصدقون به أصلا فهم

(١) وما أن طبنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

لذى الأصبع العدوانى . وقيل : لفروة بن مسيك المرادى . وقيل للفرزدق . والطب ـ بالكسر ـ: العادة والعاهة . وأن زائدة ، ويمكن أنها لتوكيد النفى ، أى : ليست عادتنا أوعلتنا الجبن ، ولكن تلك المصيبات،منايانا المقدرة لنا أو لكن علتنا منايانا . والدولة : النوبة من النصر ، لأنه يتداول بين الجيشين . والشامت : المتشفى من غيظه بما أصاب عدوه . وشبههم بالسكارى على سبيل المكنية لعدم تيقظهم للعواقب ، وأمرهم بالافاقة تخييل ، وبين ذلك بقوله : سيلقون من الهزيمة مثل مالقينا ، وتكون الدولة لنا عليهم فليفيقوا من سكرتهم .

(٢) قال محمود : «الذكر يكون بخير وبخلافه فاذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد بقيد القرينة ، فان كان الذاكر صديقا فهم منه الخير ، وإن كان عدواً فهم منه الذم» قال أحمد : وكذلك القول . ومنه قول موسى عليه السلام : (أتقولون للحق لما جاءكم) معناه أتعيبون الحق لما جاءكم ، ثم ابتدأ فقال (أسحر هذا) وإنما لم يجعله معمولا للقول ومحكياً به ، لأنهم قفوا القول بأنه سحر فقالوا (إن هذا لسحر مبين) ولم يتشككوا أنفسهم ، ولا استفهموا ، وقد مضى فيه غير هذا ، وإنما أطلقوا فى قولهم (أهذا الذى يذكر آلهتكم) ولم يقولوا : هذا الذى يذكر آلهتكم بكل سوء ، لأنهم استفظعوا حكاية مايقوله النبى من القدح فى آلهتهم ، رمياً بأنها لاتسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ، وحاشوها من نقل ذمها مفصلا ، فأوموا إليه بالاشارة المذكورة ، كما يتحاشى المؤمن من حكاية كلمة الكفر ، فيومىء إليها بلفظ يفهم المقصود بطريق التعريض . فسبحان من أضلهم حتى تأدبوا مع الأوثان ، وأساؤا الأدب على الرحمن .

أحق بأن يتخذوا هزؤا منك . فإنك محق وهم مبطلون . وقيل معنى (بذكر الرحمن) قولهم : مانعرف الرحمن إلا مسيلمة ، وقولهم (وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا) وقيل (بذكر الرحمن) بما أنزل عليك من القرآن . والجملة فى موضع الحال ، أى : يتخذونك هزؤا ، وهم على حال هى أصل الهزء والسخرية وهى الكفر بالله .

خُلِقَ الإِنْسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾

كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجرهم ، فقدم أولا ذم الإنسان على إفراط العجلة ، وأنه مطبوع عليها ، ثم نهاهم وزجرهم ، كأنه قال : ليس ببدع منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم . وعن ابن عباس رضى الله عنه : أنه أراد بالإنسان آدم عليه السلام ، وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم . وروى أنه لما دخل الروح فى عينه نظر إلى ثمار الجنة ، ولما دخل جوفه اشتهى الطعام . وقيل خلقه الله تعالى فى آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس ، فأسرع فى خلقه قبل مغيبها . وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه النضر بن الحرث . والظاهر أن المراد الجنس . وقيل «العجل» : الطين ، بلغة حمير . وقال شاعرهم :

* وَالنَّخْلُ يَنْبُتُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعَجَلِ *[(١)]

والله أعلم بصحته . فإن قلت : لم نهاهم عن الاستعجال مع قوله (خلق الإنسان من عجل) وقوله (وكان الإنسان عجولا) أليس هذا من تكليف مالايطاق ؟ قلت : هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها ، لأنه أعطاه القدرة التى يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة . وقرئ : خلق الإنسان .

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾

---

(١) النبع فى الصخرة الصماء منبته والنخل ينبت بين الماء والعجل

يقول : النبع وهو شجر تتخذ منه القسى ، فى الصخرة الصماء الصلبة لافى غيرها ، منبته أى نباته ، والنخل ينبت فى الأرض اللينة الريانة ، فهو بين الماء والعجل ، أى : الطين . وهذه لغة حمير كما قيل . والظاهر أن الشطر الأول تمثيل للصعب البخيل . والثانى للسهل الجواد . ويجوز أن الأول للشجاع . والثانى للجبان ، لقوة الأول ورخاوة الثانى .

جواب ﴿لو﴾ محذوف . و﴿حين﴾ مفعول به ليعلم ، أى : لو يعلمون الوقت الذى يستعلمون عنه بقولهم (متى هذا الوعد) وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام ، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم ، ولا يجدون ناصراً ينصرهم : لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم به هو الذى هونه عندهم . ويجوز أن يكون ﴿يعلم﴾ متروكا بلا تعدية ، بمعنى : لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين . وحين : منصوب بمضمر ، أى حين ﴿لا يكفون عن وجوههم النار﴾ يعلمون أنهم كانوا على الباطل وينتفى عنهم هذا الجهل العظيم ، أى : لا يكفونها ، بل تفجؤهم فتغلبهم . يقال للمغلوب فى المحاجة : مبهوت . ومنه : فبهت الذى كفر ، أى : غلب إبراهيم عليه السلام الكافر . وقرأ الأعمش : يأتيهم . فيبهتهم ، على التذكير . والضمير للوعد أو للحين . فإن قلت : فإلام يرجع الضمير المؤنث فى هذه القراءة ؟ قلت : إلى النار أو إلى الوعد ، لأنه فى معنى النار وهى التى وعدوها أو على تأويل العدة أو الموعدة . أو إلى الحين ، لأنه فى معنى الساعة . أو إلى البغتة . وقيل فى القراءة الأولى: الضمير للساعة . وقرأ الأعمش : بغتة ، بفتح الغين ﴿ولاهم ينظرون﴾ تذكير بإنظاره إياهم وإمهاله ، وتفسيح وقت التذكر عليهم ، أى : لا يمهلون بعد طول الإمهال .

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾

سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به بأن له فى الأنبياء عليهم السلام أسوة وأن مايفعلونه به يحيق بهم ، كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء عليهم السلام مافعلوا .

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾

﴿من الرحمن﴾ أى من بأسه وعذابه ﴿بل هم﴾ معرضون عن ذكره لا يخطرونه ببالهم ، فضلا أن يخافوا بأسه ، حتى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالئ وصلحوا للسؤال عنه . والمراد أنه أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بسؤالهم عن الكالئ ، ثم بين أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم

أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

ثم أضرب عن ذلك بما فى «أم» من معنى «بل» وقال ﴿أم لهم آلهة تمنعهم﴾ من العذاب تتجاوز

منعنا وحفظنا. ثم استأنف فبين أنّ ماليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد، كيف يمنع غيره وينصره؟

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤)

ثم قال: بل ماهم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا، لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا، وماكلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعا لهم بالحياة الدنيا وإمهالا، كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم ﴿حتى طال عليهم﴾ الأمد، وامتدت بهم أيام الروح والطمأنينة. فحسبوا أن لايزالوا على ذلك لايغلبون ولاينزع عنهم ثوب أمنهم واستمتاعهم، وذلك طمع فارغ وأمد كاذب ﴿أفلا يرون أنا﴾ ننقص أرض الكفر ودار الحرب، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردها دار إسلام. فإن قلت: أى فائدة فى قوله ﴿نأتى الأرض﴾؟ قلت فيه تصوير ماكان الله يجريه على أيدى المسلمين، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها، ناقصة من أطرافها.

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥)
وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦)

قرئ ﴿ولا يسمع الصم﴾ ولا تسمع الصم، بالتاء والياء، أى: لاتسمع أنت الصم، ولا يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا يسمع الصم، من أسمع. فإن قلت: الصم لايسمعون دعاء المبشر كما لايسمعون دعاء المنذر، فكيف قيل ﴿إذا ماينذرون﴾؟ قلت: اللام فى الصم إشارة إلى هؤلاء المنذرين، كائنة للعهد لاللجنس. والأصل: ولا يسمعون إذا ماينذرون، فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدّهم أسماعهم إذا أنذروا، أى: هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصامّ من آيات الأنذار ﴿ولئن مستهم﴾ من هذا الذى ينذرون به أدنى شيء، لأذعنوا وذلوا، وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا. وفى المس والنفحة ثلاث مبالغات، لأنّ النفح فى معنى القلة والنزارة. يقال: نفحته الدابة وهو رمح يسير [1]، ونفحه بعطية: رضخه. ولبناء المرة.

---

(١) قوله «وهو رمح يسير» فى الصحاح: رمحه الفرس والبغل والحمار: إذا ضربه برجله. (ع)

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ
حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

وصفت ﴿الموازين﴾ بالقسط وهو العدل ، مبالغة ، كأنها فى أنفسها قسط . أو على حذف المضاف ، أى : ذوات القسط . واللام فى ﴿ليوم القيامة﴾ مثلها فى قولك : جئته لخمس ليال خلون من الشهر . ومنه بيت النابغة :

تَرَسَّمْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا ... لِسِتَّةِ أَعْوَامٍ وَذَا الْعَامُ سَابِعُ (٢)

وقيل : لأهل يوم القيامة ، أى لأجلهم . فإن قلت : ما المراد بوضع الموازين ؟ قلت : فيه قولان ، أحدهما : إرصاد الحساب السوىّ ، والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة ، من غير أن يظلم عباده مثقال ذرّة ، فمثل ذلك بوضع الموازين لتوزن بها الموزونات . والثانى : أنه يضع الموازين الحقيقية ويزن بها الأعمال . عن الحسن : هو ميزان له كفتان ولسان . ويروى : أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان ، فلما رآه غشى عليه ، ثم أفاق فقال : ياإلهى من الذى يقدر أن يملأ كفته حسنات ، فقال : ياداود . إنى إذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة . فإن قلت : كيف توزن الأعمال وإنما هى أعراض ؟ قلت : فيه قولان ، أحدهما : توزن صحائف الأعمال . والثانى : تجعل فى كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة ، وفى كفة السيئات جواهر سود مظلمة . وقرئ ﴿مثقال حبة﴾ على «كان» التامة ، كقوله تعالى (وإن كان ذو عسرة) . وقرأ ابن عباس ومجاهد : ﴿أتينا بها﴾ وهى مفاعلة من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة . لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء . وقرأ حميد : أثبنا بها ، من الثواب . وفى حرف أبىّ : جئنا بها . وأنث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة ، كقولهم : ذهبت بعض أصابعه ، أى : آتيناهما .

---

(١) عفا قسم من فرتنا فالفوارع ... فجنبا أريك فالتلاع الدوافع
توسمت آيات لها فعرفتها ... لستة أعوام وذا العام سابع

للنابغة . وعفا : بلى وخلا . وفرتنا اسم محبوبته . وقسم ، والفوارع ، وأريك : أسماء مواضع . والتلاع : المواضع المرتفعة . والدواقع ـ بالقاف ـ : المقفرة كثيرة التراب . ودقع الرجل دقعا ، كتعب ، إذا التصق بالدقعاء وهى الأرض الكثيرة التراب من شدة فقره . وأما بالفاء فهى التى يدفع فيها السيل بكثرة . وتوسمت بالواو تتبعت سماتها وعلاماتها فعرفتها بها . ويروى بالراء ، أى : تتبعت رسومها وآثارها فعرفتها ، أى : تلك المواضع السابقة . وقوله «لستة أعوام» أى مستقبلا تمام ستة أعوام مضت من عهدها ، وهذا العام الحاضر الذى نحن فيه هو السابع . ولو قال : لسبعة أعوام ، لأفاد أن السبعة كلها مضت وليس مرادا . فقول بعضهم : إنه كان يكفيه أن يقول : لسبعة أعوام ، فعجز عن إتمامه ، وكله بما لامعنى له ، لاوجه له إلا عدم التبصر .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾

﴿الفرقان﴾ وهو التوراة ﴿و﴾ أتينا به ﴿ضياء وذكراً للمتقين﴾ والمعنى : أنه فى نفسه ضياء وذكر . أو وآتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكراً . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : الفرقان : الفتح ، كقوله (يوم الفرقان) وعن الضحاك : فلق البحر . وعن محمد ابن كعب : المخرج من الشبهات . وقرأ ابن عباس : ضياء ، بغير واو : وهو حال عن الفرقان . والذكر : الموعظة ، أو ذكر مايحتاجون إليه فى دينهم ومصالحهم ، أو الشرف .

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾

محل ﴿الذين﴾ جرّ على الوصفية . أو نصب على المدح . أو رفع عليه .

وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وهذا ذكر مبارك﴾ هو القرآن . وبركته : كثرة منافعه ، وغزارة خيره .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾

الرشد : الاهتداء لوجوه الصلاح . قال الله تعالى (فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) وقرئ : رشده . والرشد والرشد ، كالعدم والعدم . ومعنى إضافته إليه : أنه رشد مثله . وأنه رشد له شأن ﴿من قبل﴾ أى من قبل موسى وهرون عليهما السلام . ومعنى علمه به : أنه علم منه أحوالا بديعة وأسرارا عجيبة وصفات قد رضيها وأحمدها ، حتى أهله لمخالته ومخالصته ، وهذا كقولك فى خير من الناس : أنا عالم بفلان . فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف بمنزل ﴿إذ﴾ إما أن يتعلق بآتينا ، أو برشده ، أو بمحذوف ، أى : اذكر من أوقات رشده هذا الوقت . قوله ﴿ماهذه التماثيل﴾ تجاهل لهم وتغاب ، ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها ، مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها . لم ينو للعا كفين مفعولا ، وأجراه مجرى ما لا يتعدى ، كقولك : فاعلون العكوف لها . أو واقفون لها . فإن قلت : هلا قيل : عليها عاكفون ، كقوله تعالى (يعكفون على أصنام لهم) ؟ قلت : لو قصد التعدية لعداه بصلته التى هى «على» .

ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان ، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن

قلدوا آباءهم فى عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم ، وهم معتقدون أنهم على شيء ، وجادّون فى نصرة مذهبهم ، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم ، وكفى أهل التقليد سبة أنّ عبدة الأصنام منهم ﴿أنتم﴾ من التأكيد الذى لا يصح الكلام مع الإخلال به ، لأنّ العطف على ضمير هو فى حكم بعض الفعل ممتنع . ونحوه : اسكن أنت وزوجك الجنة ، أراد أن المقلدين والمقلدين جميعاً ، منخرطون فى سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة ، لاستناد الفريقين إلى غير دليل ، بل إلى هوى متبع وشيطان مطاع ، لاستبعادهم أن يكون ماهم عليه ضلالا .

قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾

بقوا متعجبين من تضليله إياهم ، وحسبوا أن ماقاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة ، لا على طريق الجد . فقالوا له : هذا الذى جئتنا به ، أهو جدّ وحق ، أم لعب وهزل ؟

قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾

الضمير فى ﴿فطرهن﴾ للسموات والأرض . أو للتماثيل ، وكونه للتماثيل أدخل فى تضليلهم ، وأثبت للاحتجاج عليهم . وشهادته على ذلك : إدلاؤه بالحجة عليه ، وتصحيحه بها كما تصحح الدعوى بالشهادة ، كأنه قال : وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه كما تبين الدعاوى بالبينات ، لأنى لست مثلكم ، فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجة . كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ، ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم .

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

قرأ معاذ بن جبل : بالله . وقرئ : تولوا . بمعنى تتولوا . ويقويها قوله (فتولوا عنه مدبرين) . فإن قلت : مالفرق بين الباء والتاء ؟ قلت : أن الباء هى الأصل ، والتاء بدل من الواو المبدلة منها ، وأن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب ، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه ، لأن ذلك كان أمرا مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره ، ولعمرى إن مثله صعب متعذر فى كل زمان ، خصوصاً فى زمن نمروذ مع عتوه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصرة دينه

ولـكن : * إذَا اللهُ سَنَّى عِقْـدَ شَيْءٍ تَيَسَّرَا * (١)

روى أن آزر خرج به فى يوم عيد لهم ، فبدؤا ببيت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها ووضعوا بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا : إلى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا ، فذهبوا وبقى إبراهيم فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنما مصطفة ، وثم صنم عظيم مستقبل الباب ، وكان من ذهب وفى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل ، فكسرها كلها بفأس فى يده ، حتى إذا لم يبق إلا الكبير علق الفأس فى عنقه . عن قتادة : قال ذلك سرا من قومه ، وروى : سمعه رجل واحد ﴿جذاذا﴾ قطاعا ، من الجذ وهو القطع . وقرئ بالكسر والفتح . وقرئ : جذذا . جمع جذيذ ، وجذذا جمع جذة . وإنما استبقى الكبير لأنه غلب فى ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه ، لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم ، فيبكتهم بما أجاب به من قوله (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم) وعن الكلبى ﴿إليه﴾ إلى كبيرهم . ومعنى هذا : لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم فى حل المشكلات ، فيقولون له : ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحا والفأس على عاتقك ؟ قال هذا بناء على ظنه بهم ، لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم فى آلهتهم وتعظيمهم لها . أو قاله مع علمه أنهم لا يرجعون إليه استهزاء بهم واستجهالا ، وأن قياس حال من يسجد له ويؤهله للعبادة أن يرجع إليه فى حل كل مشكل . فإن قلت : فإذا رجعوا إلى الصنم بمكابرتهم لعقولهم ورسوخ الإشراك فى أعراقهم ، فأى فائدة دينية فى رجوعهم إليه حتى يجعله إبراهيم صلوات الله عليه غرضا ؟ قلت : إذا رجعوا إليه تبين أنه عاجز لا ينفع ولا يضر ، وظهر أنهم فى عبادته على جهل عظيم .

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّـٰلِمِينَ (٥٩)

أى أن من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم ، معدود فى الظلمة : إما لجرأته على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير والإعظام ، وإما لأنهم رأوا إفراطا فى حطمها وتماديا فى الاستهانة بها .

قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)

(١) وأعلم علما ليس بالظن أنه إذا الله سنى عقد شيء تيسرا

ذكر المصدر توكيداً دافعا للتجوز فى الفعل ، ثم بين المراد بقوله «ليس بالظن» ويجوز أنه ذكره توطئة لوصفه بأنه غير ظن . وسنيت الشيء : فككته وسهلته . والعقد : مستعار للصعوبة تصريحاً ، أى : إذا سهل الله صعوبة شيء وأزالها ، سهل تحصيله أو دفعه إن كان محبوبا أو مكروهاً .

فإن قلت : ماحكم الفعلين بعد ﴿سمعنا فتى﴾ وأى فرق بينهما ؟ قلت : هما صفتان لفتى ، إلا أن الأوّل وهو ﴿يذكرهم﴾ لا بد منه لسمع ، لأنك لاتقول : سمعت زيداً وتسكت ، حتى تذكر شيئاً مما يسمع . وأمّا الثانى فليس كذلك . فإن قلت : ﴿إبراهيم﴾ ماهو ؟ قلت : قيل هو خبر مبتدإ محذوف ، أو منادى . والصحيح أنه فاعل يقال ، لأن المراد الاسم لا المسمى ﴿على أعين الناس﴾ فى محل الحال ، بمعنى معايناً مشاهداً ، أى : بمرأى منهم ومنظر . فإن قلت : فما معنى الاستعلاء فى على ؟ قلت : هو وارد على طريق المثل ، أى : يثبت إتيانه فى الأعين ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه ﴿لعلهم يشهدون﴾ عليه بما سمع منه . وبما فعله أو يحضرون عقوبتنا له . روى أنّ الخبر بلغ نمروذ وأشراف قومه ، فأمروا بإحضاره .

قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا يَـٰإِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾

هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعانى . والقول فيه أنّ قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط : أأنت كتبت هذا وصاحبك أمّىّ لايحسن الخطّ ولا يقدر إلا على خرمشة [1] فاسدة ، فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به ، لا نفيه عنك وإثباته للأمّىّ أو المخرمش ، لأنّ إثباته ـ والأمر دائر بينكما للعاجز منكما ـ استهزاء به وإثبات للقادر ، ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة ، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له ، فأسند الفعل إليه لأنه هو الذى تسبب لاستهانته بها وحطمه لها ، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه . ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم ، كأنه قال لهم : ما تنكرون أن يفعله كبيرهم ،، فإنّ من حق من يعبد ويدعى إلها أن يقدر على هذا وأشد منه . ويحكى أنه قال : فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها . وقرأ محمد بن السميفع : فعله كبيرهم ، يعنى : فلعله ، أى فلعلّ الفاعل كبيرهم .

فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾

(١) قوله «خرمشة فاسدة» الموجود فى الصحاح : الخرش : مثل الخدش . والخراش : سمته . والمخرشة خشبة يخط بها الخراز . ولم يوجد فيه «خرمشة» بزيادة الميم . (ع)

فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم ، رجعوا إلى أنفسهم فقالوا : أنتم الظالمون على الحقيقة ، لا من ظلمتموه حين قلتم : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين .

ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾

نكسته : قلبته فجعلت أسفله أعلاه . وانتكس : انقلب ، أى : استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاؤا بالفكرة الصالحة ، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة ، فأخذوا فى المجادلة بالباطل والمكابرة ، وأنّ هؤلاء ـ مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق ـ آلهة معبودة ، مضارة منهم . أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه ، حين نفوا عنها القدرة على النطق . أو قلبوا على رؤسهم حقيقة ، لفرط إطراقهم خجلا وانكسارا وانخزالا مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام ، فما أحاروا جوابا إلا ما هو حجة عليهم . وقرئ : نكّسوا ، بالتشديد . ونكسوا ، على لفظ ما سمى فاعله ، أى : نكسوا أنفسهم على رؤسهم . قرأ به رضوان ابن عبد المعبود .

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾
أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

﴿ أف ﴾ صوت إذا صوّت به علم أنّ صاحبه متضجر ، أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم . واللام لبيان المتأفف به . أى : لكم ولآلهتكم هذا التأفف .

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

أجمعوا رأيهم ـ لما غلبوا ـ بإهلاكه : وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح ، لم يكن أحد أبغض إليه من المحق . ولم يبق له مفزع إلا مناصبته ، كما فعلت قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم حين عجزوا عن المعارضة . والذى أشار بإحراقه نمروذ . وعن ابن عمر رضى الله عنهما : رجل من أعراب العجم يريد الأكراد . وروى أنهم حين هموا بإحراقه ، حبسوه ثم بنوا بيتاً كالحظيرة بكوثى ، وجمعوا شهراً أصناف الخشب الصلاب ، حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول : إن عافانى الله لأجمعنّ حطباً لإبراهيم عليه السلام . ثم أشعلوا ناراً عظيمة كادت الطير تحترق فى الجوّ من وهجها . ثم وضعوه فى المنجنيق مقيداً مغلولا فرموا به فيها ، فناداها جبريل

عليه السلام ﴿يانار كونى برداً وسلاما﴾ ويحكى . ما أحرقت منـه إلا وثاقه . وقال له جبريل عليه السلام حين رمى به : هل لك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا . قال : فسل ربك . قال : حسبى من سؤالى علمه بحالى . وعن ابن عباس رضى الله عنه : إنمـا نجا بقوله : حسبى الله ونعم الوكيل ، وأطل عليه نمروذ من الصرح فإذا هو فى روضـة ومعه جليس له من الملائكة ، فقال : إنى مقرب إلى إلهك ، فذبح أربعة آلاف بقرة وكفّ عن إبراهيم ، وكان إبراهيم صـلوات الله وسلامه عليـه إذ ذاك ابن ست عشرة سنة . واختاروا المعاقبـة بالنار لأنها أهول مايعاقب به وأفظعه ، ولذلك جاء : « لايعذب بالنار إلا خالقها »[1] ومن ثم قالوا ﴿إن كنتم فاعلين﴾ أى إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً ، فاختاروا له أهول المعاقبات وهى الإحراق بالنار ، وإلا فرطتم فى نصرتها . ولهذا عظموا النار وتكلفوا فى تشهير أمرها وتفخيم شأنها ، ولم يألوا جهداً فى ذلك . جعلت النار لمطاوعتها فعل الله وإرادته كمأمور أمر بشىء فامتثله . والمعنى : ذات برد وسلام ، فبولغ فى ذلك ، كأن ذاتها برد وسلام . والمراد : ابردى فيسلم منـك إبراهيم . أو ابردى برداً غير ضار . وعن ابن عباس رضى الله عنه : لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها . فإن قلت : كيف بردت النار وهى نار ؟ قلت : نزع الله عنها طبعها الذى طبعها عليه من الحرّ والإحراق ، وأبقاها على الإضاءة والاشتعال كما كانت ، والله على كل شىء قدير . ويجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم عليه السـلام أذى حرّها ويذيقه فيها عكس ذلك ، كما يفعل بخزنة جهنم ، ويدل عليه قوله ﴿على إبراهيم﴾ وأرادوا أن يكيدوه ويمكروا به ، فمـا كانوا إلا مغلوبين مقهورين غالبوه بالجدال فغلبه الله ولقنه بالمبكت ، وفزعوا إلى القوة والجبروت ، فنصره وقوّاه .

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

نجيا من العراق إلى الشام . وبركاته الواصلة إلى العالمين : أن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا فيه فانتشرت فى العالمين شرائعهم وآثارهم الدينية وهى البركات الحقيقية . وقيل : بارك الله فيه بكثرة المـاء والشجر والثمر والخصب وطيب عيش الغنىّ والفقير . وعن سفيان أنه خرج إلى الشام فقيل له : إلى أين ؟ فقال : إلى بلد يملأ فيه الجراب بدرهم . وقيل : ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس[2] . وروى أنه نزل بفلسطين ، ولوط بالمؤتفكة

(١) وفى أبى داود : «إلا رب النار» .

(٢) قلت : جاء مرفوعا عن أبى بن كعب . أخرجه الطبرى عن الحسين عن الفضيل بن موسى عن الحسين بن واقد عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله « ونجيناه ولوطا ـ الآية » قال : الشام ، وما من ماء عذب إلا يخرج من تلك الصخرة التى ببيت المقدس وأخرجه ابن أبى حاتم عن على بن الحسين بن الجنيد عن أبى عمار أخرجه أيضا من رواية محمد بن سعد بن سابق عن أبى جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية مقطوعا لم يذكر =

وبينهما مسيرة يوم وليلة .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾

النافلة : ولد الولد . وقيل : سأل إسحق فأعطيه ، وأعطى يعقوب نافلة ، أى : زيادة وفضلا من غير سؤال .

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَوٰةِ وَكَانُوا لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

﴿يهدون بأمرنا﴾ فيه أن من صلح ليكون قدوة فى دين الله فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها من جهة الله ، ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها ، وأول ذلك أن يهتدى بنفسه ؛ لأن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل ﴿فعل الخيرات﴾ أصله أن تفعل الخيرات ، ثم فعلا الخيرات ، ثم فعل الخيرات . وكذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُۥ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

﴿حكما﴾ حكمة وهو مايجب فعله . أو فصلا بين الخصوم . وقيل : هو النبوة . والقرية : سذوم ، أى : فى أهل رحمتنا . أو فى الجنة . ومنه الحديث «هذه رحمتى أرحم بها من أشاء[1]»

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ الْكَرْبِ

= أبى بن كعب ، بلفظ «هى الأرض المقدسة بارك الله فيها للعالمين» ولم يذكر الصخرة . وأخرجه عبد بن حميد عن أبى النضر عن أبى جعفر كذلك . وزاد «لأن كل ماء عذب فى الأرض منها يخرج من أصل صخرة بيت المقدس ، يهبط من السماء إلى الصخرة ثم يتفرق فى الأرض» وأخرجه أبو سعيد النقاش فى فوائده من وجه آخر عن الربيع عن أبى العالية . وأخرجه أبو سعيد عبد بن حميد عن أبى النضر نحوه بتمامه وأخرجه الخطيب أبو بكر محمد بن أحمد ابن محمد المقدسى المعروف بابن الواسطى فى كتاب فضل بيت المقدس من طريق آدم ابن أبى إياس عن أبى جعفر الرازى ، بلفظ فى قوله تعالى (إلى الأرض التى باركنا فيها) قال : من بركتها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس . وأخرج الخطيب المذكور من طريق غالب بن عبدالله عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رفعه «الأنهار كلها والسحاب والبحار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس» وغالب متروك .

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة رفعه «تحاجت النار والجنة - الحديث» وفيه فقال للجنة أنت رحمتى أرحم بها من أشاء من عبادى ، ولمسلم من حديث أبى سعيد نحوه .

الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

﴿من قبل﴾ من قبل هؤلاء المذكورين .

هو «نصر» الذى مطاوعه «انتصر» وسمعت هذليا يدعو على سارق: اللهم انصرهم منه، أى: اجعلهم منتصرين منه. والكرب: الطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه .

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾

أى: واذكرهما. وإذ: بدل منهما. والنفش: الانتشار بالليل. وجمع الضمير لأنه أرادهما والمتحاكمين إليهما. وقرئ: لحكمهما. والضمير فى ﴿ففهمناها﴾ للحكومة أو الفتوى. وقرئ: فأفهمناها. حكم داود بالغنم لصاحب الحرث. فقال سليمان عليه السلام وهو ابن إحدى عشرة سنة: غير هذا أرفق بالفريقين، فعزم عليه ليحكمن، فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها، والحرث إلى أرباب الشاء يقومون عليه حتى يعود كهيئته يوم أفسد، ثم يترادان. فقال: القضاء ماقضيت، وأمضى الحكم بذلك. فإن قلت: أحكما بوحى أم باجتهاد؟ قلت: حكما جميعاً بالوحى، إلا أن حكومة داود نسخت بحكومة سليمان. وقيل: اجتهدا جميعا، فجاء اجتهاد سليمان عليه السلام أشبه بالصواب. فإن قلت: ماوجه كل واحدة من الحكومتين؟ قلت: أمّا وجه حكومة داود عليه السلام، فلأن الضرر لما وقع بالغنم سلمت بجنايتها إلى المجنى عليه، كما قال أبو حنيفة رضى الله عنه فى العبد إذا جنى على النفس: يدفعه المولى بذلك أو يفديه. وعند الشافعى رضى الله عنه: يبيعه فى ذلك أو يفديه. ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان فى الحرث. ووجه حكومة سليمان عليه السلام أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء مافات من الانتفاع بالحرث، من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث حتى يزول الضرر والنقصان، مثاله ماقال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبداً فأبق من يده: أنه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء مافوته الغاصب من منافع

العبد، فإذا ظهر ترادا . فإن قلت: فلو وقعت هذه الواقعة فى شريعتنا ما حكمها ؟ قلت : أبو حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم لا يرون فيه ضمانا بالليل أو بالنهار ؛ إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد والشافعى رضى الله عنه يوجب الضمان بالليل . وفى قوله (ففهمناها سليمان) دليل على أنّ الأصوب كان مع سليمان عليه السلام . وفى قوله ﴿وكلا آتينا حكما وعلما﴾ دليل على أنهما جميعا كانا على الصواب ﴿يسبحن﴾ حال بمعنى مسبحات . أو استئناف ، كأن قائلا قال : كيف سخرهنّ ؟ فقال : يسبحن ﴿والطير﴾ إما معطوف على الجبال . أو مفعول معه . فإن قلت : لم قدمت الجبال على الطير؟ قلت : لأنّ تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدلّ على القدرة وأدخل فى الإعجاز، لأنها جماد والطير حيوان ، إلا أنه غير ناطق . روى أنه كان يمرّ بالجبال مسبحا وهى تجاوبه . وقيل : كانت تسير معه حيث سار . فإن قلت : كيف تنطق الجبال وتسبح ؟ قلت . بأن يخلق الله فيها الكلام كما خلقه فى الشجرة حين كلم موسى [1] . وجواب آخر : وهو أن يسبح من رآها تسير بتسيير الله ، فلما حملت على التسبيح وصفت به ﴿وكنا فاعلين﴾ أى قادرين على أن نفعل هذا وإن كان عجبا عندكم وقيل : وكنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك .

اللبوس : اللباس . قال :

* ٱلْبَسْ لِكُلِّ حَالَةٍ لَبُوسَهَا * [2]

والمراد الدرع . قال قتادة : كانت صفائح فأوّل من سردها وحلقها داود ، فجمعت الخفة والتحصين ﴿لتحصنكم﴾ قرئ بالنون والياء والتاء ، وتخفيف الصاد وتشديدها ؛ فالنون لله عز وجل ، والتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع ، والياء لداود أو للبوس .

وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا

(١) قوله «كما خلقه فى الشجرة حين كلم موسى» هذا عند المعتزلة ، بناء على أن كلام الله حادث فلا يقوم بذاته تعالى : أما عند أهل السنة فكلامه تعالى قديم قائم بذاته ، ويسمعه موسى عليه السلام بكشف الحجاب عنه . (ع)

(٢) البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها

لبيهس الملقب بنعامة : قتل له سبعة إخوة ، فجعل يلبس القميص مكان السراويل وعكسه . وإذا سئل عن ذلك قال : هذا البيت ، حتى إذا أخذت دماء السبعة . واللبوس ـ بالفتح ـ : اللباس . وقسمه فى الابدال منه إلى النعيم والبؤس لعلاقة السببية . ويجوز أنه على حذف المضاف ، أى : لبوس نعيمها أو لبوس بؤسها . ووسط إما للتنويع ، ولكن القصة تدل على أن ذات اللباس لم تتغير ، فيجوز أن اللبوس اسم مصدر وإن كان استعمال فعول بالفتح فى المصدر قليلا . ويجوز أن يروى بالضم ، فيكون بمعنى المصدر على الكثير ، أى : البس لكل حالة ما يناسبها من اللبس . إما اللبس المستقيم أو المنعكس . والمأمور باللبس ليس معنا . والبؤس بالهمز : الشدة ، قلبت همزته هنا واواً لتناسب القافية . وبين لبوس وبوس : الجناس الناقص .

وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

قرئ: الريح . والرياح ، بالرفع والنصب فيهما ؛ فالرفع على الابتداء ، والنصب على العطف على الجبال . فإن قلت : وصفت هذه الرياح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما ؟[1] قلت : كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم ، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به فى مدة يسيرة ، على ماقال (غدوها شهر ورواحها شهر) فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء فى نفسها وعاصفة فى عملها ، مع طاعتها لسليمان وهبوبها على حسب مايريد ويحتكم : آية إلى آية ومعجزة إلى معجزة . وقيل كانت فى وقت رخاء ، وفى وقت عاصفا ؛ لهبوبها على حكم إرادته ، وقد أحاط علمنا بكل شيء فنجرى الأشياء كلها على مايقتضيه علمنا وحكمتنا .

أى : يغوصون له فى البحار فيستخرجون الجواهر ، ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء المدائن والقصور واختراع الصنائع العجيبة ، كما قال (يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل) والله حافظهم أن يزيغوا عن أمره ، أو يبدلوا أو يغيروا ، أو يوجد منهم فساد فى الجملة فيما هم مسخرون فيه .

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾

أى : ناداه بأنى مسنى الضر . وقرئ : إنى ، بالكسر على إضمار القول أو لتضمن النداء معناه والضر - بالفتح - : الضرر فى كل شيء ، وبالضم : الضرر فى النفس من مرض وهزال ، فرق بين البناءين لافتراق المعنيين . ألطف فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب . ويحكى أنّ عجوزاً تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت : ياأمير المؤمنين ، مشت جرذان[2] بيتى على العصىّ ! فقال لها : ألطفت فى السؤال ، لاجرم

---

(١) قال محمود : «إن قلت قد وصفت هذه الريح بأنها رخاء وبأنها عاصف فما وجه ذلك ؟ قلت : ماهى إلا جمعتهما وكانت فى نفسها رخاء طيبة وفى سرعة حركتها كالعاصف» قال أحمد : وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جان وتارة بأنها ثعبان ، والجان الرقيق من الحيات والثعبان العظيم الجافى منها . ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين ؛ فكانت فى خفتها وفى سرعة حركتها كالجان ، وكانت فى عظم خلقها كالثعبان ، فنى كل واحد من الريح والعصا على هذا التقرير معجزتان والله سبحانه وتعالى أعلم .

(٢) قوله «جرذان بيتى» فى الصحاح «الجرذ» ضرب من الفأر . والجمع جرذان . (ع)

لأردنها تثب وثب الفهود وملأ بيتها حبا . كان أيوب عليه السلام روميا من ولد إسحاق بن يعقوب عليهم السلام ، وقد استنبأه الله وبسط عليه الدنيا وكثر أهله وماله : كان له سبعة بنين وسبع بنات ، وله أصناف البهائم ، وخمسمائة فدان[١] يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ونخيل ، فابتلاه الله بذهاب ولده ـ انهدم عليهم البيت فهلكوا ـ وبذهاب ماله ، وبالمرض في بدنه ثماني عشرة سنة . وعن قتادة : ثلاث عشرة سنة . وعن مقاتل : سبعا وسبعة أشهر وسبع ساعات . وقالت له امرأته يوما : لو دعوت الله ، فقال لها : كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة ، فقال : أنا أستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي فلما كشف الله عنه أحيا ولده ورزقه مثلهم ونوافل منهم . وروى أن امرأته ولدت بعد ستة وعشرين ابنا . أى : لرحمتنا العابدين وأنا نذكرهم بالإحسان لا ننساهم أو رحمة منا لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين ، ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة .

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

قيل في ذي الكفل : هو إلياس . وقيل : زكريا . وقيل : يوشع بن نون ، وكأنه سمى بذلك لأنه ذو الحظ من الله والمجدود[٢] على الحقيقة . وقيل : كان له ضعف عمل الأنبياء في زمانه وضعف ثوابهم . وقيل : خمسة من الأنبياء ذوو اسمين : إسرائيل ويعقوب . إلياس وذو الكفل . عيسى والمسيح . يونس وذو النون . محمد وأحمد : صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَٰتِ أَنْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿النون﴾ الحوت ، فأضيف إليه . برم[٣] بقومه لطول ما ذكرهم فلم يذكروا وأقاموا على كفرهم ، فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضبا لله وأنفة لدينه وبغضا للكفر وأهله ، وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله في المهاجرة عنهم ، فابتلى ببطن الحوت . ومعنى مغاضبته لقومه : أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها . وقرأ أبو شرف : مغضبا . قرئ : نقدر . ونقدّر ، مخففا ومثقلا . ويقدر ، بالياء بالتخفيف . ويقدر .

---

(١) قوله «وخمسمائة فدان» في الصحاح «الفدن» القصر . والفدان : آلة الثورين للحرث . (ع)

(٢) قوله «والمجدود» في الصحاح «الجد» الحظ والبخت . تقول : جددت يا فلان ، أى : صرت ذا جد ، فأنت جديد حظيظ ، ومجدود محظوظ . (ع)

(٣) قوله «برم بقومه» سئمهم وتبرم بهم . أفاده الصحاح . (ع)

ويقدّر، على البناء للمفعول مخففا ومثقلا . وفسرت بالتضييق عليه، وبتقدير الله عليه عقوبة . وعن ابن عباس : أنه دخل على معاوية فقال : لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها ، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك . قال : وما هي يامعاوية ، فقرأ هذه الآية وقال : أو يظن نبيّ الله أن لا يقدر عليه ؟ قال : هذا من القدر لا من القدرة . والمخفف يصح أن يفسر بالقدرة ، على معنى : أن لن نعمل فيه قدرتنا ، وأن يكون من باب التمثيل ، بمعنى : فكانت حاله ممثلة بحال من ظنّ أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه ، من غير انتظار لأمر الله . ويجوز أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان ، ثم يردعه ويرده بالبرهان ، كما يفعل المؤمن المحقق بنزغات الشيطان وما يوسوس إليه في كل وقت . ومنه قوله تعالى (وتظنون بالله الظنونا) والخطاب للمؤمنين ﴿ في الظلمات ﴾ أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت ، كقوله (ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات) وقوله (يخرجونهم من النور إلى الظلمات) وقيل : ظلمات بطن الحوت والبحر والليل . وقيل : ابتلع حوته حوتٌ أكبر منه ، فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمة البحر . أي بأنه ﴿ لا إله إلا أنت ﴾ أو بمعنى « أي » . عن النبي صلى الله عليه وسلم «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له[1]» وعن الحسن : ما نجاه والله إلا إقراره على نفسه بالظلم .

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

﴿ ننجي ﴾ وننجي . ونجي . والنون لا تدغم في الجيم ، ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال نجي النجاء المؤمنين ، فأرسل الياء وأسنده إلى مصدره ونصب المؤمنين بالنجاء ـ فمتعسف بارد التعسف

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾

(١) أخرجه الترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب في السبعين من رواية إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن جده سعد بن أبي وقاص رفعه «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له» قال الترمذي : رواه بعضهم عن إبراهيم عن جده ، لم يقل عن أبيه اهـ وله متابع أخرجه الحاكم من رواية كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب عن مصعب بن سعد عن أبيه ، بلفظ «ألا أخبركم بشيء إذا نزل بأحدكم كرب أو بلاء فدعا به إلا فرج عنه . قالوا : بلى يارسول الله . قال دعوة ذي النون (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) وأخرجه الحاكم أيضا من رواية معمر بن سليمان عن معمر عن الزهري عن أبي أمامة بن سهيل بن حنيف عن سعد .

سأل ربه أن يرزقه ولداً يرثه ولا يدعه وحيداً بلا وارث، ثم ردّ أمره إلى الله مستسلماً فقال ﴿وأنت خير الوارثين﴾ أى إن لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى، فإنك خير وارث. إصلاح زوجه: أن جعلها صالحة للولادة بعد عقرها. وقيل: تحسين خلقها وكانت سيئة الخلق. الضمير للمذكورين من الأنبياء عليهم السلام يريد أنهم مااستحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمبادرتهم أبواب الخير ومسارعتهم فى تحصيلها كما يفعل الراغبون فى الأمور الجادون. وقرئ ﴿رغبا ورهبا﴾ بالإسكان، وهو كقوله تعالى (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه). ﴿خاشعين﴾ قال الحسن: ذللا لأمر الله. وعن مجاهد: الخشوع الخوف الدائم فى القلب. وقيل: متواضعين. وسئل الأعمش فقال: أما إنى سألت إبراهيم فقال: ألا تدرى؟ قلت: أفدنى. قال: بينه وبين الله إذا أرخى ستره وأغلق بابه، فلير الله منه خيراً، لعلك ترى أنه أن يأكل خشناً ويلبس خشنا ويطأطئ رأسه.

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)

﴿أحصنت فرجها﴾ إحصاناً كليا من الحلال والحرام جميعا كما قالت (ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا). فإن قلت: نفخ الروح فى الجسد عبارة عن إحيائه. قال الله تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى) أى أحييته. وإذا ثبت ذلك كان قوله ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ ظاهر الإشكال؛ لأنه يدل على إحياء مريم. قلت: معناه نفخنا الروح فى عيسى فيها، أى: أحييناه فى جوفها [1]. ونحو ذلك أن يقول الزمار: نفخت فى بيت فلان، أى: نفخت فى المزمار فى بيته. ويجوز أن يراد: وفعلنا النفخ فى مريم من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام؛ لأنه نفخ فى جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها. فإن قلت: هلا قيل آيتين كما قال (وجعلنا الليل والنهار آيتين)؟ قلت: لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة، وهى ولادتها إياه من غير فحل.

إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢)

---

(١) قال محمود: «إن قلت نفخ الروح فى الجسد عبارة عن إحيائه وحينئذ يكون معناه فأحيينا مريم ويشكل إذ ذاك. قلت: معناه فنفخنا الروح فى عيسى فى مريم أى أحييناه فى جوفها انتهى كلامه» قال أحمد: وقد اختار الزمخشرى فى قوله عز وجل (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل) أن تكون الضمائر كلها راجعة إلى موسى. أما الأول فلا إشكال فيه، وأما التابوت إذا قذف فى اليم وموسى فيه، فقد قذف موسى فى اليم. وكذلك الثالث. واختار غيره عود الضميرين الأخيرين إلى التابوت؛ لأنه فهم من قوله (فاقذفيه فى اليم) أن المراد التابوت. وأما موسى فلم يقذف فى اليم. والزمخشرى نزل قذف التابوت فى اليم وموسى فيه منزلة قذفه فى اليم. وفى هذه الآية مصداق لما اختاره، فان الله تعالى نزل نفخ الروح فى عيسى لكونه فى جوف مريم منزلة نفخ الروح فى مريم، فعبر بما يفهم ظاهر هذا.

الأمّة : الملة ، و ﴿هذه﴾ إشارة إلى ملة الإسلام ، أى : إن ملة الإسلام هى ملتكم التى يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها ، يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة ﴿وأنا﴾ إلهكم إله واحد ﴿فاعبدون﴾ ونصب الحسن أمّتكم على البدل من هذه ، ورفع أمة خبراً . وعنه رفعهما جميعاً خبرين لهذه . أو نوى للثانى مبتدأ ، والخطاب للناس كافة .

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾

والأصل : وتقطعتم ، إلا أن الكلام حرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات ، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله . والمعنى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا ، كما يتوزع الجماعة الشىء ويتقسمونه ، فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب ، تمثيلا لاختلافهم فيه ، وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى . ثم توعدهم بأنّ هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ، فهو محاسبهم ومجازيهم .

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾

الكفران : مثل فى حرمان الثواب ، كما أن الشكر مثل فى إعطائه إذا قيل لله : شكور . وقد نفى نفى الجنس ليكون أبلغ من أن يقول : فلا نكفر سعيه ﴿وإنا له كاتبون﴾ أى نحن كاتبو ذلك السعى ومثبتوه فى صحيفة عمله ، وما نحن مثبتوه فهو غير ضائع ومثاب عليه صاحبه .

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾

استعير الحرام للممتنع وجوده . ومنه قوله عز وجلّ (إن الله حرّمهما على الكافرين) أى منعهما منهم ، وأبى أن يكونا لهم . وقرئ : حرم وحرم ، بالفتح والكسر . وحرّم وحرّم . ومعنى ﴿أهلكناها﴾ عزمنا على إهلاكها . أو قدرنا إهلاكها . ومعنى الرجوع : الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة . ومجاز الآية : أن قوما عزم الله على إهلاكهم غير متصوّر أن يرجعوا وينيبوا ، إلى أن تقوم القيامة فحينئذ يرجعون ويقولون : (ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين) يعنى : أنهم مطبوع على قلوبهم فلا يزالون على كفرهم ويموتون عليه حتى يروا العذاب . وقرئ : إنهم ، بالكسر . وحق هذا أن يتمّ الكلام قبله ، فلا بدّ من تقدير محذوف ، كأنه قيل : وحرام على قرية أهلكناها ذاك . وهو المذكور فى الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعى المشكور غير المكفور ، ثم علل فقيل : إنهم لا يرجعون عن الكفر ، فكيف لا يمتنع ذلك . والقراءة بالفتح يصح حملها على هذا ؟ أى : لأنهم لا يرجعون ولا صلة على

الوجه الأوّل. فإن قلت: بم تعلقت ﴿حتى﴾ واقعة غاية له، وأية الثلاث هي؟ قلت: هي متعلقة بحرام، وهي غاية له لأنّ امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة، وهي (حتى) التي يحكى بعدها الكلام، والكلام المحكىّ: الجملة من الشرط والجزاء، أعنى: «إذا» وما في حيزها. حذف المضاف إلى ﴿يأجوج ومأجوج﴾ وهو سدهما، كما حذف المضاف إلى القرية وهو أهلها. وقيل: فتحت كما قيل (أهلكناها) وقرئ: آجوج. وهما قبيلتان من جنس الإنس، يقال: الناس عشرة أجزاء، تسعة منها يأجوج ومأجوج ﴿وهم﴾ راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر وقيل: هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السدّ. الحدب: النشز[1] من الأرض. وقرأ ابن عباس رضى الله عنه: من كل جدث، وهو القبر، الثاء: حجازية، والفاء: تميمية. وقرئ ﴿ينسلون﴾ بضم السين. ونسل وعسل: أسرع.

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

و﴿إذا﴾ هي إذا المفاجأة، وهي تقع في المجازاة سادّة مسدّ الفاء، كقوله تعالى (إذا هم يقنطون) فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد. ولو قيل: إذا هي شاخصة. أو فهي شاخصة، كان سديداً ﴿هي﴾ ضمير مبهم[2] توضحه الأبصار وتفسره، كما فسر الذين ظلموا وأسروا ﴿ياويلنا﴾ متعلق بمحذوف تقديره: يقولون يا ويلنا. ويقولون: في موضع الحال من الذين كفروا.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿ما تعبدون من دون الله﴾ يحتمل الأصنام وإبليس وأعوانه، لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم. ويصدّقه ما روى: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم. وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما، فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه. ثم تلا عليهم (إنكم

(١) قوله «النشز من الأرض» في الصحاح «النشز» المكان المرتفع. (ع)
(٢) قوله «هي ضمير مبهم ... الخ» لعله ضمير (وأسروا) أو لعله واو (وأسرّوا). (ع)

وماتعبدون من دون الله ... الآية) ، فأقبل عبد الله بن الزبعرى فرآهم يتهامسون ، فقال : فيم خوضكم ؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عبد الله : أما والله لو وجدته لخصمته ، فدعوه . فقال ابن الزبعرى : أأنت قلت ذلك ؟ قال: نعم. قال : قد خصمتك ورب الكعبة . أليس اليهود عبدوا عزيراً ، والنصارى عبدوا المسيح، وبنو مليح عبدوا الملائكة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك [1] . فأنزل الله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ... الآية) يعنى عزيراً والمسيح والملائكة عليهم السلام . فإن قلت : لم قرنوا بآلهتهم ؟ قلت : لأنهم لايزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة ، حيث أصابهم ماأصابهم بسببهم . والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب ، ولأنهم قدروا ، أنهم يستشفعون بهم فى الآخرة ويستنفعون بشفاعتهم ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شىء أبغض إليهم منهم . فإن قلت : إذا عنيت بما تعبدون الأصنام ، فما معنى ﴿لهم فيها زفير﴾ ؟ قلت : إذا كانوا هم وأصنامهم فى قرن [2] واحد ، جاز أن يقال : لهم زفير ، وإن لم يكن الزافرين إلا هم دون الأصنام للتغليب ولعدم الإلباس . والحصب : المحصوب بها ، أى : يحصب بهم فى النار . والحصب: الرمى. وقرىء بسكون الصاد ، وصفاً بالمصدر . وقرىء حطب ، وحضب ، بالضاد متحركا وساكنا . وعن ابن مسعود : يجعلون فى توابيت من نار فلا يسمعون . ويجوز أن يصمهم الله كما يعميهم .

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَـٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ

---

(١) هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوى بغير إسناد . لم أجده هكذا إلا ملفقا فأما صدره ففى الطبرانى الصغير فى أواخره من حديث ابن عباس قال «دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنما قد شدت أقدامها برصاص ـ الحديث » وأما قوله « وكانت صناديد قريش فقصة أخرى ذكرها ابن إسحاق فى المغازى والطبرى من طريقه قال «جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فى المسجد مع رجال من قريش فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ـ فذكر نحو المذكور هنا إلى آخره وفيه «إن كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده إنهم إنما يعبدون الشياطين» وروى ابن مردويه والواحدى من طريق أبى رزين عن أبى يحيى عن ابن عباس قال «لما نزلت (إنكم وما تعبدون من دون الله ... الآية) شق ذلك على قريش وقالوا : يشتم آلهتنا . فجاء ابن الزبعرى . وقال : يامحمد هذا شتم لآلهتنا خاصة ، أم لكل من عبد من دون الله ؟ قال : لكل من عبد من دون الله . قال . خصمتك ورب الكعبة ـ فذكر نحوه .

﴿تنبيهان﴾ أحدهما : اشتهر فى ألسنة كثير من علماء العجم وفى كتبهم : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى هذه القصة لابن الزبعرى «ما أجهلك بلغة قومك . فانى قلت : وما تعبدون . وهى لما لا يعقل . ولم أقل : ومن تعبدون» اه . وهو شىء لا أصل له . ولا يوجد لا مسندا ولا غير مسند . الثانى قال السهيلى اعتراض ابن الزبعرى غير لازم . لأن الخطاب مخصوص بقريش ومايعبدون من الأصنام . ولذلك أتى بما الواقعة على مالا يعقل اه . وحديث ابن عباس الذى تقدم ينقض عليه هذا التأويل . فانه صرح بأن المراد كل ما يعبد من دون الله

(٢) قوله «فى قرن» هو حبل يقرن به البعيران . أفاده الصحاح . (ع)

حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿الحسنى﴾ الخصلة المفضلة فى الحسن تأنيث الأحسن: إمّا السعادة، وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق للطاعة. يروى أنّ عليا رضى الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال: أنا منهم، وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف، ثم أقيمت الصلاة فقام يجرّ رداءه وهو يقول ﴿لا يسمعون حسيسها﴾[1] والحسيس: الصوت يحس، والشهوة: طلب النفس اللذة. وقرئ ﴿لا يحزنهم﴾ من أحزن. و﴿الفزع الأكبر﴾ قيل: النفخة الأخيرة، لقوله تعالى (يوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض) وعن الحسن: الانصراف إلى النار. وعن الضحاك: حين يطبق على النار. وقيل: حين يذبح الموت على صورة كبش أملح، أى تستقبلهم ﴿الملائكة﴾ مهنئين على أبواب الجنة. ويقولون: هذا وقت ثوابكم الذى وعدكم ربكم قد حلّ.

يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

العامل فى ﴿يوم نطوى﴾ لا يحزنهم. أو الفزع. أو تتلقاهم. وقرئ: تطوى السماء، على البناء للمفعول ﴿والسجلّ﴾ بوزن العتلّ[2] والسجل بلفظ الدلو. وروى فيه الكسر: وهو الصحيفة، أى: كما يطوى الطومار للكتابة، أى: ليكتب فيه، أو: لما يكتب فيه؛ لأن الكتاب أصله المصدر كالبناء؛ ثم يوقع على المكتوب، ومن جمع فمعناه: للمكتوبات، أى: لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة. وقيل (السجل) ملك يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه. وقيل: كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم. والكتاب ـ على هذا ـ اسم الصحيفة المكتوب فيها ﴿أوّل خلق﴾ مفعول نعيد الذى يفسره ﴿نعيده﴾ والكاف مكفوفة بما. والمعنى: نعيد أوّل الخلق كما بدأناه، تشبيها للإعادة بالإبداء فى تناول القدرة لهما على السواء؛ فإن قلت: وما أوّل الخلق حتى يعيده كما بدأه؟ قلت: أوّله إيجاده عن العدم، فكما أوجده أولا عن عدم، يعيده ثانياً عن عدم[3]. فإن قلت: ما بال (خلق)

(١) أخرجه ابن أبى حاتم وابن عدى وابن مردويه والثعلبى من رواية ليث بن أبى سليم عن ابن عم النعمان بن بشير. وكان من سمار على قال: تلا على هذه الآية ـ فذكره

(٢) قوله «بوزن العتل» العتل: الغليظ الجافى. وقال تعالى (عتل بعد ذلك زنيم) والعتل أيضا: الرمح الغليظ. ورجل عتل ـ بالكسر ـ: بين العتل، كذا فى الصحاح. (ع)

(٣) قال محمود: «إن قلت ما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه؟ قلت: أول الخلق إيجاده عن العدم، فكما أوجده أولا عن عدم يعيده ثانيا عن عدم» قلت: هذا الذى ذكره ههنا فى المعاد قد عاد به إلى الحق ورجع عما قاله فى

منكراً ؟ قلت : هو كقولك : هو أوّل رجل جاءنى ، تريد أوّل الرجال ، ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلا رجلا ، فكذلك معنى (أوّل خلق) : أوّل الخلق ، بمعنى : أوّل الخلائق ، لأن الخلق مصدر لا يجمع . ووجه آخر ، وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره (نعيده) وما موصولة ، أى : نعيد مثل الذى بدأناه نعيده . وأول خلق : ظرف لبدأناه ، أى : أوّل ما خلق ، أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ ، الثابت فى المعنى ﴿وعداً﴾ مصدر مؤكد ، لأنّ قوله (نعيده) عدة للإعادة ﴿إنا كنا فاعلين﴾ أى قادرين على أن نفعل ذلك .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾

عن الشعبى رحمة الله عليه : زبور داود عليه السلام ، والذكر : التوراة . وقيل اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب . والذكر : أم الكتاب ، يعنى اللوح ، أى : يرثها المؤمنون بعد إجلاء الكفار ، كقوله تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها) ، (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) وعن ابن عباس رضى الله عنه : هى أرض الجنة . وقيل : الأرض المقدسة ، ترثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾

الإشارة إلى المذكور فى هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة . والبلاغ : الكفاية وما تبلغ به البغية .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾

أرسل صلى الله عليه وسلم ﴿رحمة للعالمين﴾ لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه . ومن خالف ولم يتبع . فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها . ومثاله : أن يفجر الله عينا غديقة ، فيسقى ناس زروعهم ومواشيهم بمائها فيفلحوا ، ويبقى ناس مفرطون عن السقى فيضيعوا . فالعين

= سورة مريم ، حيث فسر الاعادة بجمع المتفرق خاصة ، إلا أنه كدر صفو اعترافه بالحق بتفسيره قوله (إنا كنا فاعلين) بالقدرة على الفعل ، ولا يلزم على هذا من القدرة على الفعل حصوله ، تحويما على أن الموعود به ليس إعادة الأجسام عن عدم وإن كانت القدرة صالحة لذلك ، ولكن إعادة الأجزاء على صورها مجتمعة مؤتلفة على ما تقدم له فى سورة مريم ؛ إلا أن يكون الباعث له على تفسير الفعل بالقدرة : أن الله ذكر ماضيا والاعادة وقوعها مستقبل ، فتعين عنده من ثم حمل الفعل على القدرة فقد قارب ، ومع ذلك فالحق بقاء الفعل على ظاهره : لأن الأفعال المستقبلة التى علم الله وقوعها ، كالماضية فى التحقق ، فمن ثم عبر عن المستقبل بالماضى فى مواضع كثيرة من الكتاب العزيز . والغرض الايذان بتحقيق وقوعه ، والله أعلم .

المفجرة فى نفسها، نعمة من الله ورحمة للفريقين، ولكن الكسلان محنة على نفسه: حيث حرمها ماينفعها. وقيل: كونه رحمة للفجار، من حيث أنّ عقوبتهم أخرت بسببه وأمنوا به عذاب الاستئصال.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١٠٨)

إنما لقصر الحكم على شيء، أولقصر الشيء على حكم، كقولك: إنما زيد قائم، وإنما يقوم زيد. وقد اجتمع المثالان فى هذه الآية، لأن ﴿إنما يوحى إلىّ﴾ مع فاعله، بمنزلة: إنما يقوم زيد. و﴿أنما إلهكم إله واحد﴾ بمنزلة: إنما زيد قائم. وفائدة اجتماعهما: الدلالة على أن الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله بالوحدانية: وفى قوله ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أن الوحى الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله، وأن تخلعوا الأنداد. وفيه أن صفة الوحدانية يصح أن تكون طريقها السمع. ويجوز أن يكون المعنى: أن الذى يوحى إلى، فتكون «ما» موصولة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ (١٠٩) ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ (١١٠) ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١١١)

آذن: منقول من أذن إذا علم، ولكنه كثر استعماله فى الجرى مجرى الإنذار. ومنه قوله تعالى (فأذنوا بحرب من الله ورسوله)، وقول ابن حلزة:

* آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ * (١)

والمعنى: أنى بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ماعرض عليكم من وجوب توحيد الله وتنزيهه عن الأنداد والشركاء، كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدرة، فنبذ اليهم العهد، وشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعاً بذلك ﴿على سواء﴾ أى مستوين فى الإعلام به، لم يطوه عن

(١) آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

للحارث بن حلزة مطلع معلقته. وأذن الشيء: علمه بحاسة الأذن، وتوسع فيه حتى صار بمعنى مطلق العلم. وآذنه -بالمد-: أعلمه. والبين: مصدر بمعنى البعد والفراق. وتقدم أن «أسماء» من الوسامة أى الحسن. والثاوى: المقيم. والملل: السآمة. والثواء: الاقامة. يقول: أعلمتنا لفراقها. ورب مقيم يسأم الناس من إقامته، وهى ليست كذلك. وحذف هذا للعلم به من المقام.

أحد منهم وكاشف كلهم ، وقشر العصا عن لحائها [١]. و﴿ماتوعدون﴾ به من غلبة المسلمين عليكم كائن لامحالة ، ولا بد من أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار ، وإن كنت لا أدرى متى يكون ذلك لأن الله لم يعلمنى علمه ولم يطلعنى عليه ، والله عالم لايخفى عليه ماتجاهرون به من كلام الطعانين فى الإسلام ، و﴿ماتكتمون﴾ به فى صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين ، وهو يجازيكم عليه . وما أدرى لعل تأخير هذا الموعد امتحان لكم لينظر كيف تعملون . أو تمتيع لكم ﴿إلى حين﴾ ليكون ذلك حجة عليكم ؛ وليقع الموعد فى وقت هو فيه حكمة .

قَالَ رَبِّ ٱحْكُمْ بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

قرئ ﴿قل﴾ وقال ، على حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . و﴿رب احكم﴾ على الاكتفاء بالكسرة . ورب احكم ، على الضم . وربى أحكم ، على أفعل التفضيل . وربى أحكم : من الإحكام ، أمر باستعجال العذاب لقومه فعذبوا ببدر . ومعنى ﴿بالحق﴾ لاتحابهم وشدد عليهم كما هو حقهم ، كما قال « اشدد وطأتك على مضر » [٢] قرئ ﴿تصفون﴾ بالتاء والياء . كانوا يصفون الحال على خلاف ماجرت عليه ، وكانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة ، فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ، ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وخذلهم .

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ اقترب للناس حسابهم حاسبه الله حسابا يسيرا ، وصافحه وسلم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن » [٣].

---

(١) قوله « لحائها » فى الصحاح : اللحاء ـ ممدود ـ قشر الشجر . (ع)
(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة فى قصة القنوت فى صلاة الصبح .
(٣) أخرجه الثعلبى وابن مردويه من حديث أبى بن كعب

سورة الحج

مكية، غير ست آيات، وهى : هذان خصمان ... إلى قوله ... إلى صراط الحميد
وهى ثمان وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾

الزلزلة : شدّة التحريك والإزعاج، وأن يضاعف زليل الأشياء[1] عن مقارّها ومراكزها ولا تخلو ﴿الساعة﴾ من أن تكون على تقدير الفاعلة لها، كأنها هى التى تزلزل الأشياء على المجاز الحكمى، فتكون الزلزلة مصدرا مضافا إلى فاعله. أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع فى الظرف وإجرائه مجرى المفعول به، كقوله تعالى (بل مكر الليل والنهار) وهى الزلزلة المذكورة فى قوله (إذا زلزلت الأرض زلزالها) واختلف فى وقتها، فعن الحسن أنها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبي : عند طلوع الشمس من مغربها. أمر بنى آدم بالتقوى، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة، لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوروها بعقولهم، حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم، بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى، الذى لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يتردوا به. وروى أنّ هاتين الآيتين نزلتا ليلا فى غزوة بنى المصطلق، فقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب، ولم يضربوا الخيام وقت النزول، ولم يطبخوا قدرا، وكانوا من بين حزين وباك ومفكر[2]

---

(١) قوله «وأن يضاعف زليل الأشياء» أى يكرر انحراف الأشياء وتزحزحها عن مواضعها. وفى الصحاح : تقول زللت يافلان ـ بالفتح ـ تزل زليلا : إذا زل فى طين أو منطق. (ع)

(٢) هكذا ذكره الثعلبي والبغوى. قالا : روى عن عمران بن حصين وأبى سعيد الخدرى وغيرهما أن هاتين الآيتين نزلتا ليلا فى غزوة بنى المصطلق إلى آخره، قلت : وهو ملفق من حديثيه المذكورين. وثالثهما ابن عباس فيما رواه ابن إسحاق عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسيره فى غزوة بنى المصطلق إذ نزل عليه (يا أيها الناس اتقوا ربكم ـ إلى ـ شديد) فوقف على ناقته، ورفع صوته ـ الحديث» ورواه الترمذي والنسائي والحاكم من طريق الحسن عن عمران بن حصين «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو =

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

﴿يوم ترونها﴾ منصوب بتذهل. والضمير للزلزلة. وقرئ: تذهل كل مرضعة، على البناء للمفعول: وتذهل كل مرضعة أى: تذهلها الزلزلة. والذهول: الذهاب عن الأمر مع دهشة. فإن قلت: لم قيل ﴿مرضعة﴾ دون مرضع؟ قلت: المرضعة التى هى فى حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى. والمرضع: التى شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع فى حال وصفها به[١] فقيل: مرضعة؛ ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة ﴿عما أرضعت﴾ عن إرضاعها، أو عن الذى أرضعته وهو الطفل وعن الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما فى بطنها لغير تمام. قرئ ﴿وترى﴾ بالضم من أريتك قائماً. أو رؤيتك قائماً[٢]. و﴿الناس﴾ منصوب ومرفوع، والنصب ظاهر. ومن رفع جعل الناس اسم ترى، وأنثه على تأويل الجماعة. وقرئ: سكرى. وبسكرى، وهو نظير: جوعى وعطشى، فى جوعان وعطشان. وسكارى وبسكارى، نحو كسالى وعجالى. وعن الأعمش: سكرى، وبسكرى، بالضم، وهو غريب. والمعنى: وتراهم سكارى على التشبيه، وما هم بسكارى على التحقيق[٣] ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذى أذهب

ـــ فى بعض أسفاره وقد تقارب من أصحابه السير ورفع بهاتين صوته (يا أيها الناس اتقوا ربكم ـ إلى قوله: ولكن عذاب الله شديد) فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطى وعرفوا أنه عنده قول يقوله. فلما التفوا حوله قال: أتدرون أى يوم ذلك؟ يوم ينادى آدم ـ الحديث. وفيه: فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة. فلما رأى ذلك قال: اعلموا وأبشروا ـ الحديث، وأما آخره فلم أره.

(١) قال محمود: «ويقال مرضع على النسب ومرضعة على أصل اسم الفاعل» قال أحمد: والفرق بينهما أن وروده على النسب لا يلاحظ فيه حدوث الصفة المشتق منها، ولكن مقتضاه أنه موصوف بها، وعلى غير النسب يلاحظ حدوث الفعل وخروج الصفة عليه، وكذلك هو فى الآية لقوله (عما أرضعت) فأخرج الصفة على الفعل، وألحقه التاء.

(٢) قوله «أو رؤيتك قائماً» لعله: أو رؤيت قائماً. (ع)

(٣) قال محمود: «وقوله وترى الناس سكارى وما هم بسكارى: أثبت لهم أولا السكر المجازى، ثم نفى عنهم السكر الحقيقى» قال أحمد: والعلماء يقولون: إن من أدلة المجاز صدق نقيضه، كقولك: زيد حمار، إذا وصفته بالبلادة، ثم يصدق أن تقول: وما هو بحمار، فتنفى عنه الحقيقة، فكذلك الآية بعد أن أثبت السكر المجازى نفى الحقيقة أبلغ نفى مؤكد بالباء. والسر فى تأكيده: التنبيه على أن هذا السكر الذى هو بهم فى تلك الحالة ليس من المعهود فى شىء، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله، والاستدراك بقوله (ولكن عذاب الله شديد) راجع إلى قوله (وما هم بسكارى) وكأنه تعليل لاثبات السكر المجازى، كأنه قيل: إذا لم يكونوا سكارى من الخمر وهو السكر المعهود، فما هذا السكر الغريب وما سببه؟ فقال: سببه شدة عذاب الله تعالى، ونقل عن جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه أنه قال: هو الوقت الذى يقول كل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيه «نفسى نفسى».

عقولهم وطير تمييزهم وردّهم فى نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه . وقيل وتراهم سكارى من الخوف ، وماهم بسكارى من الشراب . فإن قلت : لم قيل أولا : ترون ، ثم قيل : ترى ، على الإفراد ؟ قلت : لأنّ الرؤية أوّلا علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائين لها ، وهى معلقة أخيراً بكون الناس على حال السكر ، فلا بدأن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)

قيل : نزلت فى النضر بن الحرث ، وكان جدلا يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، والله غير قادر على إحياء من بلى وصار ترابا . وهى عامة فى كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله ومالا يجوز من الصفات والأفعال ، ولا يرجع إلى علم ولا يعضّ فيه بضرس قاطع ، وليس فيه اتباع للبرهان ولانزول على النصفة ، فهو يخبط خبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل ﴿ويتبع﴾ فى ذلك خطوات ﴿كل شيطان﴾ عات ، علم من حاله وظهر وتبين أنه من جعله ولياً له لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار . وما أرى رؤساء أهل الأهواء [1] والبدع والحشوية المتلقبين بالإمامة فى دين الله إلا داخلين تحت كل هذا دخولا أوليا . بل هم أشدّ الشياطين إضلالا وأقطعهم لطريق الحق ، حيث دوّنوا الضلال تدوينا ولقنوه أشياعهم تلقينا ، وكأنهم ساطوه بلحومهم [2] ودمائهم . وإياهم عنى من قال :

وَيَارُبَّ مَقْفُوِّ الْخُطَا بَيْنَ قَوْمِهِ طَرِيقُ نَجَاةٍ عِنْدَهُمْ مُسْتَوٍ نَهْجُ
وَلَوْ قَرَؤُا فِي اللَّوْحِ مَاخُطَّ فِيهِ مِنْ بَيَانِ اعْوِجَاجٍ فِي طَرِيقَتِهِ عَجُّوا [3]

اللهم ثبتنا على المعتقد الصحيح الذى رضيته لملائكتك فى سمواتك ، وأنبيائك فى أرضك ، وأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين . والكتبة عليه مثل ، أى : كأنما كتب إضلال من يتولاه عليه ورقم به لظهور ذلك فى حاله . وقرئ : أنه ، فأنه بالفتح والكسر ، فمن فتح فلأن الأول فاعل كتب ، والثانى

(١) قوله « رؤساء أهل الأهواء » إن كان مراده أهل السنة كما هو عادته فى الكتابة من التشنيع عليهم ، فينبغى مطالبته بالفرق بينهم وبين المعتزلة ، حتى استحقوا التشنيع دونهم . (ع)

(٢) قوله «وكأنهم ساطوه بلحومهم» أى خلطوه . (ع)

(٣) يا : للتنبيه أو للنداء . والمنادى محذوف . والمقفو : المتبوع . والخطا : جمع خطوة ، مستعارة للأفعال بجامع التبعية فى كل ، وكذلك الطريق مستعار للقفو من حيث اتباعه فيها ودوامه عليها . مستو : مستقيم . والنهج والمنهج والمنهاج : الطريق الواضح . والاعوجاج مستعار للبس والكذب . وعجوا : ضجوا وصاحوا .

عطف عليه . ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو ، كأنما [1] كتب عليه هذا الكلام ، كما تقول : كتبت : إنّ الله هو الغنى الحميد . أو على تقدير : قيل . أو على أن كتب فيه معنى القول .

يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَانَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)

قرأ الحسن ﴿من البعث﴾ بالتحريك . ونظيره : الجلب والطرد ، فى الجلب والطرد ، كأنه قيل : إن ارتبتم فى البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا فى بدء خلقكم . والعلقة : قطعة الدم الجامدة. والمضغة : اللحمة الصغيرة قدر مايمضغ . والمخلقة : المسواة الملساء من النقصان والعيب . يقال : خلق السواك والعود ، إذاسواه وملسه ، من قولهم : صخرة خلقاء ، وإذا كانت ملساة ، كأنّ الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة : منها ماهو كامل الخلقة أملس من العيوب ، ومنها ماهو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم ، وتمامهم ونقصانهم . وإنما نقلنا كم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة ﴿لنبين لكم﴾ بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا ، ثم من نطفة ثانيا ولا تناسب بين الماء والتراب وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاما : قدر على إعادة ما أبداه ، بل هذا أدخل فى القدرة من تلك ، وأهون فى القياس . وورود الفعل غير معدى إلى المبين : إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه مالا يكتنهه الذكر ولا يحيط به الوصف وقرأ ابن أبى عبلة : ليبين لكم . ويقر ، بالياء . وقرئ : ونقر . ونخرجكم ، بالنون والنصب . ويقر ، ويخرجكم ، ويقر ، ويخرجكم : بالنصب والرفع . وعن يعقوب : نقر ، بالنون وضم القاف ، من قر الماء إذا صبه ؛ فالقراءة بالرفع إخبار بأنه يقر ﴿فى الأرحام ما يشاء﴾ أن يقره من ذلك ﴿إلى أجل مسمى﴾ وهو وقت الوضع آخر ستة أشهر ، أو تسعة ، أو سنتين ، أو أربع ، أو كما شاء وقدر . ومالم يشأ إقراره مجته الأرحام أو أسقطته . والقراءة بالنصب : تعليل معطوف على تعليل .

(١) قوله «وهو كأنما» لعله : أى كأنما . (ع)

ومعناه : خلقناكم مدرجين هذا التدريج لغرضين ، أحدهما : أن نبين قدرتنا . والثانى : أن نقر فى الأرحام من نقر ، حتى يولدوا وينشؤا ويبلغوا حد التكليف فأكلفهم . ويعضد هذه القراءة قوله ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ وحده لأن الغرض الدلالة على الجنس . ويحتمل : نخرج كل واحد منكم طفلا . الأشد : كمال القوة والعقل والتميز ، وهو من ألفاظ الجموع التى لم يستعمل لها واحد كالأسدّة [1] والقتود والأباطيل وغير ذلك ، وكأنها شدّة فى غير شىء واحد ، فبنيت لذلك على لفظ الجمع . وقرئ : ومنكم من يتوفى ، أى يتوفاه الله ﴿أرذل العمر﴾ الهرم والخرف ، حتى يعود كهيئته الأولى فى أوان طفولته : ضعيف البنية ، سخيف العقل ، قليل الفهم . بين أنه كما قدر على أن يرقيه فى درجات الزيادة حتى يبلغه حد التمام ، فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهى به إلى الحالة السفلى ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئا﴾ أى : ليصير نساء بحيث إذا كسب علماً فى شىء لم ينشب أن ينساه ويزل عنه علمه حتى يسأل عنه من ساعته ، يقول لك : من هذا ؟ فتقول : فلان ، فما يلبث لحظة إلا سألك عنه . وقرأ أبو عمرو : العمر ، بسكون الميم . الهامدة : الميتة اليابسة . وهذه دلالة ثانية على البعث ، ولظهورها وكونها مشاهدة معاينة ، كررها الله فى كتابه ﴿اهتزت وربت﴾ تحركت بالنبات وانتفخت ، وقرئ : ربأت ، أى ارتفعت . البهيج : الحسن السار للناظر إليه .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧)

أى : ذلك الذى ذكرنا من خلق بنى آدم وإحياء الأرض ، مع ما فى تضاعيف ذلك من أصناف الحكم واللطائف ، حاصل بهذا وهو السبب فى حصوله ، ولولاه لم يتصور كونه ، وهو ﴿أن الله هو الحق﴾ أى الثابت الموجود ، وأنه قادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور ، وأنه حكيم لا يخلف ميعاده ، وقد وعد الساعة والبعث ، فلا بدّ أن يفى بما وعد .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) قوله « من ألفاظ الجموع التى لم يستعمل لها واحد كالأسدة والقتود والأباطيل » الذى فى الصحاح « السد » بالفتح : واحد الأسدة وهي العيوب اه وهى مثل العمى والصمم والبكم على غير قياس ، وكان قياسه : سدود . والقتد : خشب الرحل ، وجمعه : قتود وأقتاد . والباطل : ضد الحق ، والجمع أباطيل على غير قياس كأنهم جمعوا إبطيلا . وفيه أيضا قوله تعالى (حتى يبلغ أشده) أى قوته وهو واحد جاء على بناء الجمع ، مثل « آنك » وهو الأسرب ، ولا نظير لها ، ويقال له : جمع لا واحد له من لفظه ، مثل : أبابيل ، وعباديد ، ومذاكير . (ع)

عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

عن ابن عباس أنه أبو جهل بن هشام . وقيل : كرر كما كررت سائر الأقاصيص . وقيل : الأول في المقلدين ، وهذا فى المقلدين . والمراد بالعلم : العلم الضرورى . وبالهدى : الاستدلال والنظر ؛ لأنه يهدى إلى المعرفة . وبالكتاب المنير : الوحى ، أى يجادل بظن وتخمين ، لا بأحد هذه الثلاثة . وثنى العطف : عبارة عن الكبر والخيلاء ، كتصعير الخد ولىّ الجيد . وقيل : عن الإعراض عن الذكر . وعن الحسن : ثانى عطفه ، بفتح العين ، أى : مانع تعطفه ﴿ليضل﴾ تعليل للمجادلة . قرئ بضم الياء وفتحها . فإن قلت : ما كان غرضه من جداله الضلال ﴿عن سبيل الله﴾ فكيف علل به ؟ وما كان أيضاً مهتدياً حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال ؟ قلت : لما أدّى جداله إلى الضلال ، جعل كأنه غرضه ، ولما كان الهدى معرضاً له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال بالباطل ، جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال . وخزيه : ما أصابه يوم بدر من الصغار والقتل ، والسبب فيما منى به من خزى الدنيا وعذاب الآخرة : هو ما قدمت يداه ، وعدل الله فى معاقبته الفجار وإثابته الصالحين .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

﴿على حرف﴾ على طرف من الدين لا فى وسطه وقلبه . وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم ، لا على سكون وطمأنينة ، كالذى يكون على طرف من العسكر ، فإن أحسّ بظفر وغنيمه قرّ واطمأن ، وإلا فرّ وطار على وجهه . قالوا : نزلت فى أعاريب قدموا المدينة ، وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهراً سريا ، وولدت امرأته غلاما سويا ، وكثر ماله وماشيته قال : ما أصبت منذ دخلت فى دينى هذا إلا خيراً ، واطمأن . وإن كان الأمر بخلافه قال : ما أصبت إلا شراً ، وانقلب . وعن أبى سعيد الخدرى أن رجلا من اليهود أسلم فأصابته مصائب ، فتشاءم بالإسلام ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أقلنى ، فقال « إنّ الإسلام لا يقال »[1] فنزلت . المصاب بالمحنة بترك التسليم لقضاء الله والخروج إلى ما يسخط الله :

(١) هكذا ذكره الواحدى فى الأسباب ، لكن بغير إسناد . فقال : روى عطية عن أبى سعيد ، فذكره سواه =

جامع على نفسه محنتين ، إحداهما : ذهاب ما أصيب به . والثانية : ذهاب ثواب الصابرين ، فهو خسران الدارين . وقرئ : خاسر الدنيا والآخرة بالنصب والرفع ، فالنصب على الحال ، والرفع على الفاعلية . ووضع الظاهر موضع الضمير ، وهو وجه حسن . أو على أنه خبر مبتدإ محذوف . استعير ﴿الضلال البعيد﴾ من ضلال من أبعد فى التيه ضالا ، فطالت وبعدت مسافة ضلالته . فإن قلت : الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها فى الآيتين ، وهذا تناقض . قلت : إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم ، وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضراً ولا نفعاً ، وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستنفع به حين يستشفع به ، ثم قال : يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ ، حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها ، ولا يرى أثر الشفاعة التى ادعاها لها ﴿لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير﴾ أو كرّر يدعو ، كأنه قال : يدعو يدعو من دون الله مالا يضره وما لا ينفعه ، ثم قال : لمن ضره بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شفيعاً لبئس المولى . وفى حرف عبد الله : من ضره ، بغير لام . المولى : الناصر . والعشير : الصاحب ، كقوله (فبئسَ القرين) .

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَٰرُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

هذا كلام قد دخله اختصار . والمعنى . إن الله ناصر رسوله فى الدنيا والاخرة ؛ فمن كان يظنّ من حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه ، ويغيظه أنه يظفر بمطلوبه ، فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده فى إزالة ما يغيظه ، بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدّ حبلا إلى سماء بيته فاختنق ، فلينظر وليصوّر فى نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذى يغيظه ؟ وسمى الاختناق قطعاً : لأنّ المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه . ومنه قيل للبهر : القطع [1] . وسمى فعله كيداً لأنه وضعه موضع الكيد ، حيث لم يقدر على

= وأخرجه ابن مردويه من رواية عطية عن أبى سعيد قال «أسلم رجل من اليهود فذهب ماله وولده ، وتشاءم بالاسلام ـ الحديث نحوه» وإسناده ضعيف وأخرج العقيلى من رواية عنبسة بن سعيد عن أبى الزبير عن جابر قال : «أتى النبي صلى الله عليه وسلم يهودى فأسلم على يديه ، ثم رجع إلى منزله فأصيب فى عينه وفى ولده فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : أقلنى ـ الحديث» ولم يذكر فيه نزول الآية . وعنبسة ضعيف جدا .

(١) قوله «ومنه قيل للبهر القطع» أى تتابع النفس . أفاده الصحاح . (ع)

غيره . أو على سبيل الاستهزاء ؛ لأنه لم يكد به محسوده إنما كاد به نفسه . والمراد : ليس فى يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه . وقيل : فليمدد بحبل إلى السماء المظلة . وليصعد عليه فليقطع الوحى أو ينزل عليه . وقيل : كان قوم من المسلمين لشدّة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر ، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يثبت أمره . فنزلت . وقد فسر النصر : بالرزق ، وقيل : معناه أن الأرزاق بيد الله لا تنال إلا بمشيئته ولا بد للعبد من الرضا بقسمته ، فمن ظنّ أن الله غير رازقه وليس به صبر واستسلام ، فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق ، فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقا .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

أى : ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله ﴿آيات بينات ، و﴾ ﴿أنّ الله يهدى﴾ به الذين يعلم أنهم يؤمنون . أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى ، أنزله كذلك مبينا

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِئِينَ وَالنَّصَٰرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

الفصل مطلق يحتمل الفصل بينهم فى الأحوال والأماكن جميعاً ، فلا يجازيهم جزاء واحداً بغير تفاوت ، ولا يجمعهم فى موطن واحد . وقيل : الأديان خمسة : أربعة للشيطان وواحد للرحمن . جعل الصابئون مع النصارى لأنهم نوع منهم . وقيل ﴿يفصل بينهم﴾ يقضى بينهم ، أى بين المؤمنين والكافرين . وأدخلت ﴿أنّ﴾ على كل واحد من جزأى الجملة لزيادة التوكيد . ونحوه قول جرير :

إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنَّ اللَّهَ سَرْبَلَهُ ... سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ (١)

***

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾

---

(١) لجرير . وقوله «إن الله سربله» خبر إن الأولى ، وكررها لتوكيد التوكيد . وسربله : كساه بالملك الشبيه بالسربال . ويروى : سربال ملك به ، أى : بذلك اللباس أو الملك ، تزجى : أى تساق الخواتيم : جمع خاتم ـ بالفتح والكسر ـ والأصل : خواتم ، فزيدت الياء . والمراد بها : عواقب الأمور الحميدة . وقال أبو حيان : يحتمل أن خبر إن قوله (به تزجى) وجملة «إن الله سربله» اعتراضية . ويروى : «به ترجى» بالراء ، وليحرر .

سميت مطاوعتها له فيما يحدث فيها من أفعاله ويجريها عليه من تدبيره وتسخيره لها : سجوداً له ، تشبيهاً لمطاوعتها بإدخال أفعال المكلف فى باب الطاعة والانقياد ، وهو السجود الذى كل خضوع دونه ، فإن قلت : فما تصنع بقوله ﴿ وكثير من الناس ﴾ وبما فيه من الاعتراضين ، أحدهما : أنّ السجود على المعنى الذى فسرته به ، لا يسجده بعض الناس دون بعض. والثانى : أنّ السجود قد أسند على سبيل العموم إلى من فى الأرض من الإنس والجن أولا ، فإسناده إلى كثير منهم آخراً مناقضة ؟ قلت : لا أنظم كثيراً فى المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل ، وإنما أرفعه بفعل مضمر يدل عليه قوله ﴿ يسجد ﴾ أى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة. ولم أقل : أفسر يسجد الذى هو ظاهر بمعنى الطاعة والعبادة فى حق هؤلاء ؛ لأنّ اللفظ الواحد لا يصح استعماله فى حالة واحدة على معنيين مختلفين ، أو أرفعه على الابتداء والخبر محذوف وهو مثاب ، لأنّ خبر مقابله يدل عليه ، وهو قوله ﴿ حق عليه العذاب ﴾ ويجوز أن يجعل (من الناس) خبراً له ، أى : من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون . ويجوز أن يبالغ فى تكثير المحقوقين بالعذاب ، فيعطف كثير على كثير ، ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب ، كأنه قيل : وكثير وكثير من الناس حق عليهم العذاب ، وقرئ : حق ، بالضم . وقرئ : حقاً ، أى حقّ عليهم العذاب حقاً . ومن أهانه الله ـ بأن كتب عليه الشقاوة لما سبق فى علمه من كفره أو فسقه ـ فقد بقى مهانا [1] ، لن تجد له مكرماً . وقرئ : مكرم ، بفتح الراء بمعنى الإكرام. إنه ﴿ يفعل ما يشاء ﴾ من الإكرام والإهانة ، ولا يشاء من ذلك إلا ما يقتضيه عمل العاملين واعتقاد المعتقدين .

هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

الخصم : صفة وصف بها الفوج أو الفريق ، فكأنه قيل : هذان فوجان أو فريقان مختصمان وقوله (هذان) للفظ . و (اختصموا) للمعنى ، كقوله (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا)

(١) قوله «من كفره أو فسقه فقد بقى مهانا» مبنى على أن الفاسق واسطة بين المؤمن والكافر ، وأنه يخلد فى النار كالكافر ، وهو مذهب المعتزلة . والحق عند أهل السنة أنه مؤمن ، وإن دخل النار يخرج منها بالشفاعة أو بمجرد فضله تعالى . (ع)

ولو قيل: هؤلاء خصمان. أو اختصما: جاز. يراد المؤمنون والكافرون. قال ابن عباس: رجع إلى أهل الأديان الستة ﴿في ربهم﴾ أي في دينه وصفاته. وروى أن أهل الكتاب قالوا للمؤمنين: نحن أحق بالله، وأقدم منكم كتابا، ونبينا قبل نبيكم. وقال المؤمنون: نحن أحق بالله، آمنا بمحمد، وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً، فهذه خصومتهم في ربهم ﴿فالذين كفروا﴾ هو فصل الخصومة المعنىّ بقوله تعالى (إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة) وفي رواية عن الكسائي: خصمان، بالكسر، وقرئ: قطعت بالتخفيف، كأنّ الله تعالى يقدّر لهم نيرانا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة. ويجوز أن تظاهر على كل واحد منهم تلك النيران كالثياب المظاهرة على اللابس بعضها فوق بعض. ونحوه (سرابيلهم من قطران). ﴿الحميم﴾ الماء الحار. عن ابن عباس رضى الله عنه: لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها ﴿يصهر﴾ يذاب. وعن الحسن بتشديد الهاء للمبالغة، أي: إذا صبّ الحميم على رؤسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر، فيذيب أحشاءهم وأمعاءهم كما يذيب جلودهم، وهو أبلغ من قوله (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) والمقامع: السياط. في الحديث: «لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها [1]»، وقرأ الأعمش: ردوا فيها. والإعادة والرد لا يكون إلا بعد الخروج. فالمعنى: كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها. ومعنى الخروج: ما يروى عن الحسن أنّ النار تضربهم بلهبها فترفعهم، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً ﴿و﴾ قيل لهم ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ والحريق: الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَٰطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَٰكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

﴿يحلون﴾ عن ابن عباس: من حليت المرأة فهي حال [2] ﴿ولؤلؤاً﴾ بالنصب على:

(١) وهو عند أحمد وأبي يعلى من رواية ابن لهيعة عن دراج. لفظه في قوله (ولهم مقامع من حديد): لو وضع مقمع منها في الأرض ... الحديث.

(٢) قوله «من حليت المرأة فهي حال» الذي في الصحاح: حليت المرأة، أي: صارت ذات حلي، فهي حلية وحالية. (ع)

ويؤتون لؤلؤاً ، كقوله : وحوراً عينا . ولؤلواً بقلب الهمزة الثانية واواً . ولوليا ؛ بقلبهما واوين ، ثم بقلب الثانية ياء كأدل . ولول كأدل فيمن جرّ . ولولؤ . ولِيليا ، بقلبهما ياءين ، عن ابن عباس : وهداهم الله وألهمهم أن يقولوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وهداهم إلى طريق الجنة . يقال : فلان يحسن إلى الفقراء وينعش المضطهدين ، لايراد حال ولا استقبال ، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه والنعشة فى جميع أزمنته وأوقاته . ومنه قوله تعالى ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ أى الصدود منهم مستمر دائم ﴿ للناس ﴾ أى الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد وتانىء [١] وطارئ ومكى وآفاق . وقد استشهد به أصحاب أبى حنيفة قائلين : إنّ المراد بالمسجدالحرام : مكة ، على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها . وعند الشافعى : لا يمتنع ذلك . وقد حاور إسحق بن راهويه فاحتجّ بقوله (الذين أخرجوا من ديارهم) وقال أنسب الديار إلى مالكيها ، أو غير مالكيها ؟ واشترى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه دار السجن من مالكيه أوغير مالكيه ؟ ﴿ سواء ﴾ بالنصب : قراءة حفص . والباقون على الرفع . ووجه النصب أنه ثانى مفعولى جعلناه ، أى: جعلناه مستوياً ﴿ العاكف فيه والباد ﴾ وفى القراءة بالرفع . الجملة مفعول ثان . الإلحاد : العدول عن القصد ، وأصله إلحاد الحافر . وقوله ﴿ بإلحاد بظلم ﴾ حالان مترادفتان . ومفعول (يرد) متروك ليتناول كل متناول ، كأنه قال : ومن يرد فيه مراداً ما عادلا عن القصد ظالما ﴿ نذقه من عذاب أليم ﴾ يعنى أنّ الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل فى جميع ما يهمّ به ويقصده . وقيل : الإلحاد فى الحرم: منع الناس عن عمارته وعن سعيد بن جبير : الاحتكار . وعن عطاء : قول الرجل فى المبايعة « لا والله ، وبلى والله » وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان ، أحدهما : فى الحل ، والآخر فى الحرم ، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم فى الحل ، [٢] فقيل له ، فقال ، كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل : لا والله ، وبلى والله . وقرئ : يرد ، بفتح الياء من الورود . ومعناه : من أتى فيه بإلحاد ظالما . وعن الحسن : ومن يرد إلحاده بظلم ، أراد : إلحاداً فيه ، فأضافه على الاتساع فى الظرف ، كمكر الليل . ومعناه : من يرد أن يلحد فيه ظالما . وخبر إن محذوف لدلالة جواب الشرط عليه ، تقديره : إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم ؛ وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك . عن ابن مسعود : الهمة فى الحرم تكتب ذنبا .

---

(١) قوله « وتانىء » فى الصحاح : تنأت بالبلد تنوءاً : قطنته . والتانىء من ذلك . (ع)

(٢) أخرجه الطبرى والأزرقى فى تاريخ مكة من رواية شعبة عن منصور عن مجاهد قال « كان لعبدالله بن عمرو ابن العاص ... فذكره » .

﴿ تنبيه ﴾ مافى نسخ الكشاف « ابن عمر » تصحيف ، وإنما هو « ابن عمرو » .

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾

واذكر حين جعلنا ﴿لإبراهيم مكان البيت﴾ مباءة، أى: مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة. رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها يقال لها الخجوج: كنست ما حوله، فبناه على أسه القديم. وأن هى المفسرة. فإن قلت: كيف يكون النهى عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيراً للتبوئة؟ قلت: كانت التبوئة مقصودة من أجل العبادة، فكأنه قيل: تعبدنا إبراهيم قلنا له: ﴿لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى﴾ من الأصنام والأوثان[1] والأقذار أن تطرح حوله. وقرئ: يشرك، بالياء على الغيبة.

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

﴿وأذن فى الناس﴾ ناد فيهم. وقرأ ابن محيصن: وآذن. والنداء بالحج: أن يقول: حجوا، أو عليكم بالحج. وروى أنه صعد أبا قبيس فقال: ياأيها الناس حجوا بيت[2] ربكم. وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أمر أن يفعل ذلك فى حجة الوداع[3] ﴿رجالا﴾ مشاة جمع راجل، كقائم وقيام. وقرئ: رجالا، بضم الراء مخفف الجيم ومثقله، ورجالى كعجالى عن ابن عباس ﴿وعلى كل ضامر﴾ حال معطوفة على حال، كأنه قال: رجالا وركبانا ﴿يأتين﴾ صفة لكل ضامر، لأنه فى معنى الجمع. وقرئ: يأتون، صفة للرجال والركبان. والعميق: البعيد، وقرأ ابن مسعود: معيق. يقال: بئر بعيدة العمق والمعق[4].

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾

نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد فى غيرها من العبادات. وعن أبى حنيفة رحمه الله: أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج، فلما حج فضل

---

(١) قوله «والأوثان» فى الصحاح «الوثن»: الصنم. (ع)

(٢) أخرجه الثعلبى عن الحسن فذكره. وسنده إليه فى أول الكتاب.

(٣) أخرجه الطبرى عن ابن عباس، بلفظ «قام عند الحجر» وفى رواية «عند مقامه. وقال: ياأيها الناس حجوا بيت ربكم فأجابوه لبيك اللهم لبيك».

(٤) قوله «بعيدة العمق والمعق» فى الصحاح «المعق»: قلب العمق، والامعاق: مثل الاعماق، وهو ما بعد من أطراف المفاوز. (ع)

الحج على العبادات كلها ، لما شاهد من تلك الخصائص . وكنى عن النحر والذبح بذكر اسم الله ، لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا . وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلى فيما يتقرّب به إلى الله أن يذكر اسمه ، وقد حسن الكلام تحسينا بينا : أن جمع بين قوله (ليذكروا اسم الله) ، وقوله : (على ما رزقهم) ولو قيل : لينحروا فى أيام معلومات بهيمة الأنعام ، لم تر شيئا من ذلك الحسن والروعة . الأيام المعلومات : أيام العشر عند أبى حنيفة ، وهو قول الحسن وقتادة . وعند صاحبيه : أيام النحر . البهيمة : مبهمة فى كل ذات أربع فى البر والبحر ، فبينت بالأنعام : وهى الإبل والبقر والضأن والمعز . الأمر بالأكل منها أمر إباحة ، لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من نسائكهم ، ويجوز أن يكون ندبا لما فيه من مساواة الفقراء ومواساتهم ومن استعمال التواضع . ومن ثمة استحب الفقهاء أن يأكل الموسع من أضحيته مقدار الثلث . وعن ابن مسعود أنه بعث بهدى وقال فيه : إذا نحرته فكل وتصدق وابعث منه إلى عتبة ، يعنى ابنه [1] . وفى الحديث [2] : « كلوا وادخروا وائتجروا » [3]

﴿البائس﴾ الذى أصابه بؤس أى شدة : و﴿الفقير﴾ الذى أضعفه الإعسار .

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

قضاء التفث : قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد ، والتفث : الوسخ ، فالمراد قضاء إزالة التفث . وقرئ : وليوفوا ، بتشديد الفاء ﴿نذورهم﴾ مواجب حجهم ، أو ماعسى ينذرونه من أعمال البر فى حجهم ﴿وليطوفوا﴾ طواف الإفاضة ، وهو طواف الزيارة الذى هو من أركان الحج ، ويقع به تمام التحلل . وقيل : طواف الصدر ، وهو طواف الوداع ﴿العتيق﴾ القديم ، لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن . وعن قتادة : أعتق من الجبابرة ، كم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله . وعن مجاهد : لم يملك قط . وعنه : أعتق من الغرق . وقيل :

---

(١) أخرجه الطبرى من رواية حبيب بن أبى ثابت عن إبراهيم عن علقمة ـ أن عبدالله بعث معه بهدى . فقال : كل أنت وأصحابك ثلثا وتصدق بثلث وابعث إلى أخى عتبة بثلث ﴿تنبيه﴾ وقع فى نسخ الكشاف يعنى ابنه وهو تحريف وإنما هو أخوه .

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه وأحمد وإسحاق من رواية خالد الحذاء عن أبى المليح عن عتبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنا كنا نهيناكم عن لحوم الأضاحى ألا تأكلوها فوق ثلاث لكى يسعكم . وقد جاء الله بالسعة فكلوا وادخروا وائتجروا : لفظ أبى داود . وليس عند مسلم والنسائى وابن ماجه « وائتجروا » والنسائى فى رواية « وتصدقوا » وله شاهد عن أبى سعيد الخدرى عن أحمد ﴿فائدة﴾ قال فى النهاية : ائتجروا أى تصدقوا طالبين للأجر . وليس هو اتجر بالادغام من التجارة وأجاز الهروى الادغام واستدل عليه بقوله « من يتجر مع هذا فيصلى معه » ولا دلالة فيه لأنه يحتمل أن يكون من التجارة .

(٣) قوله « وائتجروا » الظاهر أن المراد : اطلبوا الأجر بالصدقة . (ع)

بيت كريم ، من قولهم : عتاق الخيل والطير . فإن قلت : قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع . قلت : ماقصد التسلط على البيت ، وإنما تحصن به ابن الزبير ، فاحتال لإخراجه ثم بناه . ولما قصد التسلط عليه أبرهة ، فعل به مافعل .

ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)

﴿ذلك﴾ خبر مبتدإ محذوف ، أى : الأمر والشأن ذلك ، كما يقدّم الكاتب جملة من كتابه فى بعض المعانى ، ثم إذا أراد الخوض فى معنى آخر قال : هذا وقد كان كذا . والحرمة : مالا يحل هتكه . وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها ، فيحتمل أن يكون عاما فى جميع تكاليفه ، ويحتمل أن يكون خاصاً فيما يتعلق بالحج . وعن زيد بن أسلم : الحرمات خمس الكعبة الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والشهر الحرام ، والمحرم حتى يحل ﴿فهو خير له﴾ أى فالتعظيم خير له . ومعنى التعظيم : العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها . المتلو لا يستثنى من الأنعام ، ولكن المعنى ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ آية تحريمه ، وذلك قوله فى سورة المائدة (حرمت عليكم الميتة والدم) والمعنى : أنّ الله قد أحل لكم الأنعام كلها إلا ما استثناه فى كتابه ، فحافظوا على حدوده ، وإياكم أن تحرموا مما أحل شيئا ، كتحريم عبدة الأوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك ، وأن تحلوا مما حرم الله ، كاحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك .

لما حث على تعظيم حرماته وأحمد من يعظمها[1] أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور ؛ لأن توحيد الله ونفى الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمات وأسبقها خطوا . وجمع الشرك وقول الزور فى قران واحد ، وذلك أنّ الشرك من باب الزور لأنّ المشرك زاعم أنّ الوثن تحق له العبادة ، فكأنه قال : فاجتنبوا عبادة الأوثان التى هى رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا شيئا منه لتماديه فى القبح والسماجة . وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان . وسمى الأوثان رجسا وكذلك الخمر والميسر والأزلام ، على طريق التشبيه . يعنى : أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه ، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة . ونبه على هذا المعنى بقوله (رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) جعل العلة فى اجتنابه أنه رجس ، والرجس مجتنب ﴿من

(١) قوله «وأحمد من يعظمها» فى الصحاح «أحمدته» : وجدته محمودا موافقا مرضيا . (ع)

الأوثان﴾ بيان للرجس وتمييز له ، كقولك : عندى عشرون من الدراهم ؛ لأنّ الرجس مبهم يتناول غير شيء ، كأنه قيل : فاجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان . والزور من الزور والازورار وهو الانحراف ، كما أنّ الإفك من أفكه إذا صرفه . وقيل (قول الزور) قولهم : هذا حلال وهذا حرام ، وماأشبه ذلك من افترائهم . وقيل: شهادةالزور . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى الصبح فلما سلم قام قائما واستقبل الناس بوجهه وقال «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ، عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ، عدلت شهادة الزور الإشراك بالله »[1] وتلا هذه الاية . وقيل : الكذب والبهتان . وقيل : قول أهل الجاهلية فى تلبيتهم : لبيك لاشريك لك إلاشريك هو لك تملكه وماملك . يجوز فى هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء فاختطفته الطير ، فتفرق مزعا[2] فى حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح[3] البعيدة . وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء ، والذى ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء ، والأهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذى يطوّح به فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة[4] .

---

(١) أخرجه أبو داود وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة من رواية سفيان بن زياد العصفرى عن أبيه عن حبيب ابن النعمان عن حريم بن فاتك . وأخرجه الترمذى من رواية العصفرى عن فاتك بن فضالة عن أنس بن حريم كذا قال .

(٢) قوله «مزعا» مفرده «مزعة» بالضم . أى : قطعة لحم كما فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله «والمطاوح» أى المقاذف . وطاح يطوح ويطيح : هلك وسقط . وطوحته الطوائح : قذفته القواذف ، كذا فى الصحاح أيضا . (ع)

(٤) قال محمود : «ويجوز فى هذا التشبيه أن يكون مركبا ومفرقا ، فان كان مركبا فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة من خر من السماء فاختطفته الطير فصيرته مزعا فى حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح البعيدة ، وإن كان مفرقا فقد شبه الايمان فى علوه بالسماء ، والذى ترك الايمان وأشرك بالله بالساقط من السماء ، وشبه الأهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذى يطوح به فى وادى الضلالة بالريح تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة» قال أحمد : أما على تقدير أن يكون مفرقا ، فيحتاج تأويل تشبيه المشرك بالهاوى من السماء إلى التنبيه على أحد أمرين : إما أن يكون الاشراك المراد ردته ، فانه حينئذ كمن علا إلى السماء بإيمانه ثم هبط بارتداده . وإما أن يكون الاشراك أصليا ، فيكون قد عد تمكن المشرك من الايمان ومن العلو به ثم عدوله عنه اختيارا ، بمنزلة من علا إلى السماء ثم هبط كما قال تعالى (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) فعدهم مخرجين من النور وماداخلوه قط ، ولكن كانوا متمكنين منه . وقد مضى تقرير هذا المعنى بأبسط من هذا . وفى تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر بالطير المختطفة ، وفى تشبيه تطويح الشيطان بالهوى مع الريح فى مكان سحيق : نظر ؛ لأن الأمرين ذكرا فى سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين ، فاذا جعل الأول مثلا لاختلاف الأهواء والأفكار . والثانى مثلا لنزغ الشيطان : فقد جعلهما شيئا واحدا ، لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء ، مضاف إلى نزغ الشيطان ، فلا يتحقق =

وقرئ: فتخطفه. بكسر الخاء والطاء. وبكسر التاء مع كسرهما، وهى قراءة الحسن. وأصلها: تختطفه. وقرئ: الرياح.

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)

تعظيم الشعائر ـ وهى الهدايا، لأنها من معالم الحج ـ: أن يختارها عظام الأجرام حسانا سمانا غالية الأثمان، ويترك المكاس فى شرائها، فقد كانوا يغالون فى ثلاث ـ ويكرهون المكاس فيهن ـ: الهدى، والأضحية، والرقبة. وروى ابن عمر عن أبيه رضى الله عنهما أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا، فنهاه عن ذلك وقال: «بل أهدها»[1]. وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة، فيها جمل لأبى جهل فى أنفه برة من ذهب[2]. وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطى[3] فيتصدق بلحومها وبجلالها[4]، ويعتقد أن طاعة الله فى التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بدّ أن يقام به ويسارع فيه ﴿فإنها من تقوى القلوب﴾ أى فإن تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها، لأنه لابد من راجع من الجزاء

ـــــ التقسيم المقصود. والذى يظهر فى تقرير التشبيهين غير ذلك، فنقول: لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لامزيد عليهما، الأول منهما: المتذبذب والمتمادى على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة، فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفته الطير وتوزعته فلا يستولى طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر، وذلك حال المذبذب لا يلوح له خيال إلا اتبعه ونزل عما كان عليه. والثانى: مشرك مصمم على معتقد باطل، لو نشر بالمناشير لم يكع ولم يرجع لاسبيل إلى تشكيكه ولامطمع فى نقله عما هو عليه، فهو فرح مبتهج لضلالته، فهذا مشبه فى إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل فاستقر فيه. ونظير تشبيهه بالاستقرار فى الوادى السحيق الذى هو أبعد الأحياء عن السماء: وصف ضلاله بالبعد فى قوله تعالى (أولئك فى ضلال بعيد) (وضلوا ضلالا بعيدا) أى صمموا على ضلالهم فبعد رجوعهم إلى الحق، فهذا تحقيق القسمين، والله أعلم.

(١) تقدم الكلام عليه فى أثناء سورة البقرة.

(٢) أخرجه إسحاق والبزار من حديث على. وفى الباب عن جابر قال كان جميع ماجاء به بمائة بدنة فيها جمل فى أنفه برة من فضة أخرجه الحاكم والطبرانى من رواية زيد بن الحباب عن الثورى عن جعفر بن محمد عن أبيه عنه قال البخارى هذا خطأ من زيد. وإنما هو عن الثورى عن أبى إسحاق عن مجاهد مرسلا. وقد جاء عن مجاهد عن ابن عباس قال وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هداياه جملا كان لأبى جهل فى رأسه برة من ذهب ليغيظ به المشركين، أخرجه أبوداود والحاكم وأبويعلى والطبرانى.

(٣) قوله «مجللة بالقباطى» فى الصحاح: القبط أهل مصر. والقبطية: ثياب بيض رقاق من كتان تتخذ بمصر والجمع قباطى. (ع)

(٤) أخرجه مالك فى الموطأ عن نافع عنه بهذا وأتم منه. ورواه ابن أبى شيبة من طريق فليح عن نافع نحوه.

إلى (من) ليرتبط به، وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التى إذا ثبتت فيها وتمكنت، ظهر أثرها فى سائر الأعضاء. ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها. و﴿ثم﴾ للتراخى فى الوقت، فاستعيرت للتراخى فى الأحوال. والمعنى: أن لكم فى الهدايا منافع كثيرة فى دنياكم ودينكم، وإنما يعتدّ الله بالمنافع الدينية، قال سبحانه (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطاً فى النفع: ﴿محلها إلى البيت﴾ أى وجوب نحرها. أو وقت وجوب نحرها فى الحرم منتهية إلى البيت، كقوله (هديا بالغ الكعبة) والمراد نحرها فى الحرم الذى هو فى حكم البيت؛ لأن الحرم هو حريم البيت. ومثل هذا فى الاتساع قولك: بلغنا البلد، وإنما شارفتموه واتصل مسيركم بحدوده. وقيل: المراد بالشعائر: المناسك كلها، و(محلها إلى البيت العتيق) يأباه.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾

شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له: أى يذبحوا لوجهه على وجه التقرب، وجعل العلة فى ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسماؤه على النسائك: وقرئ ﴿منسكا﴾ بفتح السين وكسرها، وهو مصدر بمعنى النسك، والمكسور يكون بمعنى الموضع ﴿فله أسلموا﴾ أى أخلصوا له الذكر خاصة، واجعلوه لوجهه سالما، أى: خالصاً لا تشوبوه بإشراك.

المخبتون: المتواضعون الخاشعون، من الخبت وهو المطمئن من الأرض. وقيل: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقرأ الحسن ﴿والمقيمى الصلاة﴾ بالنصب على تقدير النون. وقرأ ابن مسعود: والمقيمين الصلاة، على الأصل.

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

﴿البدن﴾ جمع بدنة، سميت لعظم بدنها وهى الإبل خاصة، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

ألحق البقر بالإبل حين قال : « البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة »[1] ؛ فجعل البقر فى حكم الإبل ، صارت البدنة فى الشريعة متناولة للجنسين عند أبى حنيفة وأصحابه ، وإلا فالبدن هى الإبل وعليه تدل الآية ، وقرأ الحسن : والبدن ، بضمتين ، كثمر فى جمع ثمرة . وابن أبى إسحق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف . وقرئ بالنصب والرفع كقوله (والقمر قدرناه) . ﴿من شعائر الله﴾ أى من أعلام الشريعة التى شرعها الله . وإضافتها إلى اسمه : تعظيم لها ﴿لكم فيها خير﴾ كقوله (لكم فيها منافع) ومن شأن الحاج أن يحرص على شىء فيه خير ومنافع بشهادة الله . عن بعض السلف أنه لم يملك إلا تسعة دنانير ، فاشترى بها بدنة ، فقيل له فى ذلك ، فقال : سمعت ربى يقول (لكم فيها خير) وعن ابن عباس : دنيا وآخرة . وعن إبراهيم : من احتاج إلى ظهرها ركب ، ومن احتاج إلى لبنها شرب . وذكر اسم الله : أن يقول عند النحر : الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ، اللهم منك وإليك ﴿صواف﴾ قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن . وقرئ : صوافن ، من صفون الفرس ، وهو أن يقوم على ثلاث وينصب الرابعة على طرف سنبكه ؛ لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث . وقرئ : صوافى ، أى : خوالص لوجه الله . وعن عمرو بن عبيد : صوافنا ، بالتنوين عوضاً من حرف الإطلاق عند الوقف . وعن بعضهم : صواف[2] نحو مثل العرب . أعط القوس باريها . بسكون الياء .

وجوب الجنوب : وقوعها على الأرض ، من وجب الحائط وجبة إذا سقط . ووجبت الشمس جبة : غربت . والمعنى : فإذا وجبت جنوبها وسكنت نسائسها[3] حل لكم الأكل منها والإطعام ﴿القانع﴾ السائل ، من قنعت إليه وكنعت : إذا خضعت له وسألته قنوعا ﴿والمعتر﴾ المعترض بغير سؤال ، أو القانع الراضى بما عنده وبما يعطى من غير سؤال ، من قنعت قنعاً وقناعة . والمعتر : المعترض بسؤال . وقرأ الحسن : والمعترى . وعره وعراه واعتراه واعتره : بمعنى . وقرأ أبو رجاء : القنع ، وهو الراضى لا غير . يقال : قنع فهو قنع وقانع .

منّ الله على عباده واستحمد إليهم بأن سخر لهم البدن مثل التسخير الذى رأوا وعلموا ، يأخذونها منقادة للآخذ طيعة فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها ، ثم يطعنون فى لباتها . ولولا تسخير الله لم

---

(١) لم أره مرفوعا من لفظه . نعم أخرجه أبو داود بلفظ « الجزور عن سبعة » وأخرجه مسلم وأصحاب السنن من رواية مالك عن أبى الزبير عن جابر قال « نحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة » وفى الباب عن ابن مسعود عند الطبرانى .

(٢) قوله « صواف » لعله : صوافى ، بالسكون . (ع)

(٣) قوله « وسكنت نسائسها » فى الصحاح « النسيسة ، والنسيس » الايكال بين الناس . والنسائس : النمائم . والنسيس : بقية الروح . وفيه أيضاً « الايكال بين الناس » السعى بينهم . (ع)

تطق ، ولم نكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرما وأقل قوة ، وكفى بما يتأبد من الإبل شاهداً وعبرة .

لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)

أى : لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر ، والمراد أصحاب اللحوم والدماء ، والمعنى : لن يرضى المضحون والمقربون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص والاحتفاظ بشروط التقوى فى حل ما قرب به ، وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع . فإذا لم يراعوا ذلك ، لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثر ذلك منهم . وقرئ : لن تنال الله . ولكن تناله : بالتاء والياء . وقيل : كان أهل الجاهلية إذا نحروا البدن نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم ، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك ، فنزلت .

كرر تذكير النعمة بالتسخير ثم قال : لتشكروا الله على هدايته إياكم لأعلام دينه ومناسك حجه ، بأن تكبروا وتهللوا ، فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر ، وعدى تعديته .

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)

خص المؤمنين بدفعه عنهم ونصرته لهم ، كما قال (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا) وقال (إنهم لهم المنصورون) وقال (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) وجعل العلة فى ذلك أنه لا يحب أضدادهم : وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغمطونها [1] . ومن قرأ (يدافع) فمعناه يبالغ فى الدفع عنهم ، كما يبالغ من يغالب فيه ؛ لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ .

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ

(١) قوله «ويغمطونها» أى : يحقرونها . (ع)

مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾

﴿أذن﴾ و ﴿يقاتلون﴾ قرئا على لفظ المبنى للفاعل والمفعول جميعاً: والمعنى: أذن لهم فى القتال، فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه ﴿بأنهم ظلموا﴾ أى بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً، وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم: اصبروا فإنى لم أومر بالقتال، حتى هاجر فأنزلت هذه الآية، وهى أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين[1] آية. وقيل: نزلت فى قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم فى مقاتلتهم. والأخبار بكونه قادراً على نصرهم عدة منه بالنصر واردة على سنن كلام الجبابرة، وما مرّ من دفعه عن الذين آمنوا مؤذن بمثل هذه العدة أيضاً ﴿أن يقولوا﴾ فى محل الجر على الإبدال من (حق) أى بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجب الإقرار والتمكين لا موجب الإخراج والتسيير. ومثله: (هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله).

دفع الله بعض الناس ببعض: إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة، ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمنتهم، وعلى متعبداتهم فهدموها، ولم يتركوا للنصارى بيعاً، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود صلوات، ولا للمسلمين مساجد. أو لغلب المشركون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين فى ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين. وقرئ: دفاع. ولهدمت: بالتخفيف. وسميت الكنيسة صلاة، لأنه يصلى فيها. وقيل: هى كلمة معربة، أصلها بالعبرانية: صلوثا ﴿من ينصره﴾ أى ينصر دينه وأولياءه: هو إخبار من الله عز وجل بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين رضى الله عنهم إن مكنهم فى الأرض وبسط لهم فى الدنيا، وكيف يقومون بأمر الدين. وعن عثمان رضى الله عنه: هذا والله ثناء قبل بلاء. يريد: أنّ الله قد أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا. وقالوا: فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين؛ لأنّ الله لم يعط التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة

---

(١) لم أجده هكذا. وعزاه الواحدى فى الوسيط للمفسرين. قلت: هو منتزع من أحاديث: أقربها ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان قوله (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) وذلك أن مشركى أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة، فاستأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم فى قتالهم بمكة. فنهاهم النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فلما خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أنزل الله عليه (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) وذكر الطبرى أن الصحابة رضى الله عنهم استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتال الكفار إذا رأوهم وسطوا عليهم بمكة قبل الهجرة غيلة وسرا: فأنزل الله (إن الله لا يحب كل خوان كفور) فلما هاجروهم أحلوهم مالهم وقتالهم فقال (أذن للذين يقاتلون - الآية).

العادلة غيرهم من المهاجرين ، لاحظ فى ذلك للأنصار والطلقاء . وعن الحسن : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل ﴿ الذين ﴾ منصوب بدل من قوله من ينصره . والظاهر أنه مجرور ، تابع للذين أخرجوا ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ أى مرجعها إلى حكمه وتقديره . وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)

يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم تسلية له : لست بأوحدى فى التكذيب ، فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم ، وكفاك بهم أسوة . فإن قلت : لم قيل ﴿ وكذب موسى ﴾ ولم يقل : وقوم موسى ؟ قلت : لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط . وفيه شىء آخر ، كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم : وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته [1] وعظم معجزاته ، فما ظنك بغيره .

النكير : بمعنى الإنكار والتغيير ، حيث أبدلهم بالنعمة محنة ، وبالحياة هلاكا ، وبالعمارة خرابا .

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥)

كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة أو كرم فهو «عرش» والخاوى : الساقط ، من خوى النجم إذا سقط . أو الخالى ، من خوى المنزل إذا خلا من أهله . وخوى بطن الحامل وقوله ﴿ على عروشها ﴾ لا يخلو من أن يتعلق بخاوية ، فيكون المعنى أنها ساقطة على سقوفها ، أى خرّت سقوفها على الأرض ، ثم تهدّمت حيطانها فسقطت فوق السقوف . أو أنها ساقطة أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها . وإما أن يكون خبراً بعد خبر ، كأنه قيل : هى خالية ، وهى على عروشها

---

(١) قال محمود : «فان قلت : لم قيل وكذب موسى ولم يقل وقوم موسى بدون تكرير التكذيب ؟ قلت : لأن قوم موسى هم بنو إسرائيل ولم يكذبوه ، وإنما كذبه القبط . أو لأن آيات موسى كانت باهرة ظاهرة فكأنه قال : وكذب موسى أيضا على ظهور آياته» قال أحمد : ويحتمل عندى - والله أعلم - أنه لما صدر الكلام بحكاية تكذيبهم ثم عدد أصناف المكذبين وطوائفهم ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام ، حسن تكريره ليلى قوله (فأمليت للكافرين) فيتصل المسبب بالسبب ، كما قال فى آية قٓ بعد تعديدهم (كل كذب الرسل فحق وعيد) فربط العقاب والوعيد ووصلهما بالتكذيب ، بعد أن جدد ذكره ، والله أعلم .

أى قائمة مطلة على عروشها ، على معنى أنّ السقوف سقطت إلى الأرض فصارت فى قرار الحيطان وبقيت الحيطان مائلة فهى مشرفة على السقوف الساقطة . فإن قلت : ما محل الجملتين من الإعراب أعنى (وهى ظالمة ، فهى خاوية) ؟ قلت : الأولى فى محل النصب على الحال ، والثانية لا محلّ لها لأنها معطوفة على أهلكناها ، وهذا الفعل ليس له محل . قرأ الحسن : معطلة ، من أعطله بمعنى عطله . ومعنى المعطلة : أنها عامرة فيها الماء ، ومعها آلات الاستقاء ؛ إلا أنها عطلت ، أى : تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها . والمشيد : المجصص أو المرفوع البنيان . والمعنى : كم قرية أهلكنا ؟ وكم بئر عطلنا عن سقاتها ؟ وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه ؟ فترك ذلك لدلالة معطلة عليه . وفى هذا دليل على أنّ (على عروشها) بمعنى «مع» أوجه . روى أنّ هذه بئر نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به . ونجاهم الله من العذاب ، وهى بحضرموت . وإنما سميت بذلك لأنّ صالحاً حين حضرها مات ، وثمة بلدة عند البئر اسمها «حاضوراء» بناها قوم صالح ، وأمّروا عليهم جلهس بن جلاس ، وأقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما ، وأرسل الله إليهم حنظلة ابن صفوان نبياً فقتلوه ، فأهلكهم الله وعطل بئرهم وخرّب قصورهم .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

يحتمل أنهم لم يسافروا فحثوا على السفر ؛ ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا . وأن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا ، فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا . وقرئ ﴿فيكون لهم قلوب﴾ بالياء ، أى : يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ، ويسمعون ما يجب سماعه من الوحى ﴿فإنها﴾ الضمير ضمير الشأن والقصة ، يجىء مذكراً ومؤنثاً وفى قراءة ابن مسعود : فإنه . ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسره ﴿الأبصار﴾ وفى تعمى ضمير راجع إليه . والمعنى : أنّ أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها . وإنما العمى بقلوبهم . أولا يعتدّ بعمى الأبصار ، فكأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب . فإن قلت : أى فائدة فى ذكر الصدور ؟ قلت : الذى قد تعورف واعتقد أنّ العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها . واستعماله فى القلب استعارة ومثل . فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار ، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ، ليتقرر أنّ مكان العمى هو القلوب لا الأبصار ، كما تقول : ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذى بين فكيك ، فقولك «الذى بين فكيك» تقرير لما ادعيته للسانه وتثبيت لأنّ محلّ المضاء هو هو لا غير ، وكأنك قلت : ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة

ولا سهواً منى ، ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)

أنكر استعجالهم بالمتوعد به من العذاب العاجل أو الآجل ، كأنه قال : ولم يستعجلون به ؟ كأنهم يجوزون الفوت ، وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف ، والله عز وعلا لايخلف الميعاد وما وعده ليصيبنهم ولو بعد حين ، وهو سبحانه حليم لايعجل ، ومن حلمه ووقاره واستقصاره المدد الطوال أنّ يوما واحداً عنده كألف سنة[1] عندكم . وقيل : معناه كيف يستعجلون بعذاب مَن يومٌ واحد من أيام عذابه فى طول ألف سنة من سنيكم ؛ لأنّ أيام الشدائد مستطالة . أو كأن ذلك اليوم الواحد لشدّة عذابه كألف سنة من سنى العذاب . وقيل : ولن يخلف الله وعده فى النظرة والإمهال . وقرئ : تعدون ، بالتاء والياء ، ثم قال : وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ثم أخذتهم بالعذاب والمرجع إلىّ وإلى حكمى . فإن قلت : لم كانت الأولى معطوفة بالفاء ، وهذه بالواو ؟ قلت : الأولى وقعت بدلا عن قوله (فكيف كان نكير) وأمّا هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو ، أعنى قوله (ولن يخلف الله وعده وإنّ يوما عند ربك كألف سنة) .

قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)

يقال : سعيت فى أمر فلان ، إذا أصلحه أو أفسده بسعيه . وعاجزه : سابقه ؛ لأنّ كل واحد منهما فى طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به ، فإذا سبقه قيل : أعجزه وعجزه . والمعنى : سعوا فى معناها بالفساد من الطعن فيها ، حيث سموها : سحراً وشعراً وأساطير ، ومن تثبيط الناس

(١) قال محمود : «فيه إيذان بحلم الله تعالى ووقاره واستقصاره الأمد الطويل حتى إن يوما واحداً عنده كألف سنة» قال أحمد : الوقار المقرون بالحلم يفهم لغة : السكون وطمأنينة الأعضاء عند المزعجات والأناة والتؤدة ، ونحو ذلك مما لايطلق على الله تعالى إلا بتوقيف . وأما الوقار فى قوله تعالى (مالكم لاترجون لله وقارا) فقد فسر بالعظمة فليس من هذا ، وعلى الجملة فهو موقوف على ثبت فى النقل .

عنها سابقين أومسابقين فى زعمهم ، وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم . فإن قلت : كأن القياس أن يقال : إنمـا أنا لكم بشير ونذير ، لذكر الفريقين بعده . قلت : الحديث مسوق إلى المشركين . ويأأيها الناس : نداء لهم ، وهم الذين قيل فيهم (أفلم يسيروا فى الأرض) ووصفوا بالاستعجال . وإنمـا أقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾

﴿من رسول ولا نبى﴾ دليل بين على تغاير الرسول والنبى . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الأنبياء فقال «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قيل فكم الرسل منهم ؟ قال : «ثلثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً»[1] . والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء : من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه . والنبىّ غير الرسول : من لم ينزل عليه كتاب وإنمـا أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله . والسبب فى نزول هذه الآية أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا أعرض عنه قومه وشاقوه وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ماجاء به : تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ماينفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم ، فاستمر به ماتمناه حتى نزلت عليه سورة (والنجم) وهو فى نادى قومه ، وذلك التمنى فى نفسه ، فأخذ يقرؤها فلما بلغ قوله (ومناة الثالثة الأخرى) : ﴿ألقى الشيطان فى أمنيته﴾ التى تمناها ، أى : وسوس إليه بمـا شيعها به ، فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال : تلك الغرانيق[2] العلى ، وإن شفاعتهنّ لترتجى . وروى : الغرانقة ، ولم يفطن له حتى أدركته

---

(١) أخرجه أحمد وإسحاق من رواية معاذ بن رفاعة عن على بن زيد عن القاسم عن أبى أمامة «أن أبا ذر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم الأنبياء ؟ فقال : مثله . وعلى ضعيف . ورواه ابن حبان من طريق إبراهيم بن هشام الغسانى حدثنا أبى عن حذيفة . يعنى يحيى الغسانى عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر ـ فذكره فى حديث طويل جدا . وأفرط ابن الجوزى فذكره فى الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام المذكور . ولم يصب فى ذلك : فانها طريقا أخرجها الحاكم وغيره من رواية يحيى بن سعيد السعيدى عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن أبى ذر بطوله . ويحيى السعيدى ضعيف . ولكن لايأتى الحكم بالوضع مع هذه المتابعة .

(٢) أخرجه البزار والطبرى والطبرانى وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة عن أبى بشر عن سعيد ابن جبير قال : لاأعلمه إلا عن ابن عباس «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان بمكة فقرأ سورة النجم ، حتى انتهى إلى قوله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) فجرى على لسانه : تلك الغرانيق العلا ، الشفاعة منها ترتجى ، قال : فسمع بذلك مشركو مكة ، فسروا بذلك . فاشتبه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى =

العصمة فتنبه عليه . وقيل : نبهه جبريل عليه السلام . أو تكلم الشيطان بذلك فأسمعه الناس ، فلما سجد فى آخرها سجد معه جميع من فى النادى وطابت نفوسهم ، وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وابتلاء ، زاد المنافقون به شكا وظلمة ، والمؤمنون نوراً وإيقانا . والمعنى : أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجيراهم كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنيت ، مكن الله الشيطان ليلقى فى أمانيهم مثل ما ألقى فى أمنيتك ، إرادة امتحان من حولهم ، والله سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن ، ليضاعف ثواب الثابتين ويزيد فى عقاب المذبذبين . وقيل (تمنى) : قرأ . وأنشد :

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ   تَمَنِّيَ دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رِسْلِ [1]

وأمنيته : قراءته . وقيل : تلك الغرانيق : إشارة إلى الملائكة ، أى : هم الشفعاء لا الأصنام ﴿فينسخ الله ما يلقى الشيطان﴾ أى يذهب به ويبطله ﴿ثم يحكم الله آياته﴾ أى يثبتها .

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ

ـــــــ «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ـ الآية» زاد فى رواية ابن مردويه : فلما بلغ آخرها سجد وسجد معه المسلمون والمشركون» ورواه الطبرى من طريق سعيد بن جبير مرسلا . وأخرجه ابن مردويه من طريق أبى عاصم النبيل عن عثمان بن الأسود عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه . ولم يشك فى وصله ، وهذا أصح طرف هذا الحديث . قال البزار : تفرد بوصله أمية بن خالد عن شعبة ، وغيره يرويه عنه مرسلا . وأخرجه الطبرى وابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس . وهو من طريق العوفى عن جده عطية عنه ، وأخرجه الطبرى من طريق محمد بن كعب القرظى ، ومن طريق قتادة ، ومن طريق أبى العالية . فهذه مراسيل يقوى بعضها بعضا . وأصل القصة فى الصحيح بلفظ «أن النبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ـ فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس» قال البزار : المعروف فى هذا رواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس . وأخرجها ابن مردويه من طريقه . وأخرجه الواقدى من طريق أخرى . قلت : وفى مجموع ذلك رد على عياض حيث قال : إن من ذكر من المفسرين وغيرهم لم يسندها أحد منهم ، ولا رفعها إلى صاحب إلا رواية البزار . وقد بين البزار أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى ما ذكره وفيه ما فيه مع وقوع الشك . قلت : أما ضعفه فلا ضعف فيه أصلا . فان الجميع ثقات وأما الشك فيه فقد يجىء تأثيره ولو فرداً غريباً لكن غايته أنه يصير مرسلا ، إنما هو حجة عند عياض وغيره ممن يقبل مرسل الثقة ، أما هو حجة إذا اعتضد عند من يرد المرسل إنما يعتضد بكثرة المتابعات . تبع ثقة رجالها . وأما طعنه فيه باختلاف الألفاظ فلا تأثير للروايات الضعيفة الواهية فى الرواية القوية . فيعتمد من القصة على الرواية الصحيحة أى يعتمد على الرواية المتابعة وليس فيها ولا فيما تابعها اضطراب والاضطراب فى غيرها . فيكفى لأنه ضعيف برواية الكلبى ، ويكفى ما عداها ، وأما طعنه فيه من جهة المعنى فله أسوة كثيرة من الأحاديث الصحاح التى لا يؤخذ بظاهرها ، بل يرد بالتأويل المعتمد إلى ما يليق بقواعد الدين .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٥٧ فراجعه إن شئت اهـ مصححه .

مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤)

والذين (فى قلوبهم مرض) المنافقون والشاكون (والقاسية قلوبهم) المشركون المكذبون (وإن الظالمين) يريد: وإن هؤلاء المنافقين والمشركين. وأصله: وإنهم، فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم (أنه الحق من ربك) أى ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء: هو الحق من ربك والحكمة (وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى) أن يتأولوا ما يتشابه فى الدين بالتأويلات الصحيحة، ويطلبوا لما أشكل منه المحمل الذى تقتضيه الأصول المحكمة والقوانين الممهدة، حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة ولا تزل أقدامهم. وقرئ: لهادٍ الذين آمنوا، بالتنوين.

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)

الضمير فى (مرية منه) للقرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم. اليوم العقيم: يوم بدر، وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لأنّ أولاد النساء يقتلون فيه، فيصرن كأنهن عقم لم يلدن، أو لأن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب، فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز. وقيل: هو الذى لا خير فيه. يقال: ريح عقيم إذا لم تنشئ مطراً ولم تلقح شجراً. وقيل: لا مثل له فى عظم أمره لقتال الملائكة عليهم السلام فيه. وعن الضحاك أنه يوم القيامة. وأن المراد بالساعة مقدماته. ويجوز أن يراد بالساعة وبيوم عقيم: يوم القيامة، وكأنه قيل: حتى تأتيهم الساعة أو يأتيهم عذابها، فوضع (يوم عقيم) موضع الضمير.

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧)

فإن قلت: التنوين فى (يومئذ) عن أى جملة ينوب؟ قلت: تقديره: الملك يوم يؤمنون. أو يوم تزول مريتهم، لقوله (ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة).

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)

لما جمعتهم المهاجرة في سبيل الله سوّى بينهم في الموعد، وأن يعطي من مات منهم مثل ما يعطي من قتل تفضلا منه وإحسانا. والله عليم بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿حليم﴾ عن تفريط المفرط منهم بفضله وكرمه. روى أن طوائف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم قالوا: يا نبي الله، هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن متنا معك؟ فأنزل الله هاتين الآيتين.

ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)

تسمية الابتداء بالجزاء لملابسته له من حيث أنه سبب وذاك مسبب عنه كما يحملون النظير على النظير والنقيض على النقيض للملابسة. فإن قلت: كيف طابق ذكر العفوّ الغفور هذا الموضع؟ قلت: المعاقب مبعوث من جهة الله عزّ وجلّ على الإخلال بالعقاب، والعفو عن الجاني ـ على طريق التنزيه لا التحريم ـ ومندوب إليه، ومستوجب عند الله المدح إن آثر ما ندب إليه وسلك سبيل التنزيه، فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب، ولم ينظر في قوله تعالى (فمن عفا وأصلح فأجره على الله)، (وأن تعفوا أقرب للتقوى)، (ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور): فإنّ الله لعفو غفور، أى: لا يلومه على ترك ما بعثه عليه، وهو ضامن لنصره في كرته الثانية من إخلاله بالعفو وانتقامه من الباغي عليه. ويجوز أن يضمن له النصر على الباغي، ويعرّض مع ذلك بما كان أولى به من العفو، ويلوّح به بذكر هاتين الصفتين. أو دلّ بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة. لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضدّه.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١)

﴿ذلك﴾ أى ذلك النصر بسبب أنه قادر. ومن آيات قدرته البالغة أنه ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه ما يجرى فيهما على أيدى عباده من الخير والشر والبغي والإنصاف، وأنه ﴿سميع﴾ لما يقولون ﴿بصير﴾ بما يفعلون. فإن قلت: ما معنى إيلاج أحد الملوين في الآخر؟ قلت: تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذاك بغيبوبة الشمس. وضياء ذاك في مكان ظلمة هذا بطلوعها، كما يضيء السرب [1]

(١) قوله «كما يضيء السرب» السرب ـ بالفتح ـ: الطريق. والسرب ـ بالتحريك ـ: بيت في الأرض. أفاده الصحاح. (ع)

بالسراج ويظلم بفقده. وقيل: هو زيادته فى أحدهما ماينقص من الآخر من الساعات.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

وقرئ ﴿تدعون﴾ بالتاء والياء. وقرأ اليمانى. وأن مايدعون، بلفظ المبنى للمفعول، والواو راجعة إلى «ما»، لأنه فى معنى الآلهة، أى: ذلك الوصف بخلق الليل والنهار والإحاطة بما يجرى فيهما وإدراك كل قول وفعل، بسبب أنه الله الحق الثابت إلهيته، وأن كل ما يدعى إلها دونه باطل الدعوة، وأنه لا شيء أعلى منه شأنا وأكبر سلطانا.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

قرئ ﴿مخضرة﴾ أى ذات خضر، على مفعلة، كمقبلة ومسبعة. فإن قلت: هلا قيل: فأصبحت؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع؟ قلت: لنكتة فيه، وهى إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان، كما تقول: أنعم علىّ فلان عام كذا، فأروح وأغدو شاكراً له. ولو قلت: فرحت وغدوت؛ لم يقع ذلك الموقع. فإن قلت: فما له رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام؟ قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض، لأنّ معناه إثبات الاخضرار، فينقلب بالنصب إلى نفى الاخضرار، مثاله أن تقول لصاحبك: ألم تر أنى أنعمت عليك فتشكر: إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك تفريطه فيه، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر. وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم فى علم الإعراب وتوقير أهله ﴿لطيف﴾ واصل علمه أو فضله إلى كل شيء ﴿خبير﴾ بمصالح الخلق ومنافعهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

﴿ما فى الأرض﴾ من البهائم مذللة للركوب فى البر، ومن المراكب جارية فى البحر، وغير

ذلك من سائر المسخرات . وقرئ ﴿والفلك﴾ بالرفع على الابتداء ﴿أن تقع﴾ كراهة أن تقع ﴿إلا﴾ بمشيئته ﴿أحياكم﴾ بعد أن كنتم جماداً ترابا ، ونطفة ،وعلقة، ومضغة ﴿لكفور﴾ لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم .

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

هو نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى : لا تلتفت إلى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك . أو هو زجر لهم عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنازعة فى الدين وهم جهال لا علم عندهم وهم كفار خزاعة . روى أن بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما قالوا للمسلمين : مالكم تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتله الله ! يعنون الميتة . وقال الزجاج : هو نهى له صلى الله عليه وسلم عن منازعتهم ، كما تقول : لا يضاربنك فلان ، أى : لا تضاربه . وهذا جائز فى الفعل الذى لا يكون إلا بين اثنين ﴿فى الأمر﴾ فى أمر الدين. وقيل: فى أمر النسائك ، وقرئ : فلا ينزعنك ، أى اثبت فى دينك ثباتا لا يطمعون أن يجذبوك ليزيلوك عنه . والمراد : زيادة التثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم بما يهيج حميته ويلهب غضبه لله ولدينه . ومنه قوله (ولا يصدنك عن آيات الله) ، (ولا تكونن من المشركين) ، (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) . وهيهات أن ترتع همة رسول الله صلى الله عليه وسلم حول ذلك الحمى ، ولكنه وارد على ما قلت لك من إرادة التهييج والإلهاب . وقال الزجاج : هو من نازعته فنزعته أنزعه، أى : غلبته ، أى : لا يغلبنك فى المنازعة . فإن قلت : لم جاءت نظيرة هذه الآية[1] معطوفة بالواو وقد نزعت عن هذه؟ قلت : لأن تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآى الواردة فى أمر النسائك ، فعطفت على أخواتها . وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفا.

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾

أى : وإن أبوا للجاجهم إلا المجادلة بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع ، فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به . وهذا وعيد وإنذار ، ولكن برفق ولين .

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ

---

(١) قوله «نظيرة هذه الآية» هى قوله تعالى (ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله) الخ . (ع)

أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٧٠)

﴿الله يحكم بينكم﴾ خطاب من الله للمؤمنين والكافرين ، أى: يفصل بينكم بالثواب والعقاب ومسلاة للنبي صلى الله عليه وسلم مما كان يلقى منهم ، وكيف يخفى عليه ما يعملون ، ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلم كل ما يحدث فى السموات والأرض ، وقد كتبه فى اللوح قبل حدوثه . والإحاطة بذلك وإثباته وحفظه عليه ﴿يسير﴾ لأن العالم الذات لا يتعذر عليه ولا يمتنع تعلق بمعلوم [١] .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١)

﴿ويعبدون﴾ ما لم يتمسكوا فى صحة عبادته ببرهان سماوى من جهة الوحى والسمع ، ولا ألجأهم إليها علم ضرورى ، ولا حملهم عليها دليل عقلى ﴿وما﴾ للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوّب مذهبهم .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)

﴿المنكر﴾ الفظيع من التجهم والبسور [٢] . أو الإنكار ، كالمكرم بمعنى الإكرام . وقرئ يعرف . والمنكر . والسطو : الوثب والبطش . قرئ ﴿النار﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدإ محذوف ، كأنّ قائلا قال : ما هو ؟ فقيل : النار ، أى : هو النار . وبالنصب على الاختصاص . وبالجرّ على البدل من (شرّ من ذلكم) من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم . أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلى عليكم ﴿وعدها الله﴾ استئناف كلام . ويحتمل أن تكون (النار) مبتدأ و (وعدها) خبراً ، وأن يكون حالا عنها إذا نصبتها أو جررتها بإضمار « قد » .

---

(١) قال محمود : « معناه أن الله عالم بالذات لا يتعذر عليه تعلق بمعلوم » قال أحمد : وقد تقدم مثله وأنكرنا عليه تحميله القرآن ما لا يحتمله ، فان الأعلم فى اللغة : ذو العلم الزائد المفضل على علم غيره ، فكيف يفسر بما ينفى صفة العلم البتة ؟ هب أن الأدلة العقلية لا وجود لها ، والله الموفق للصواب .

(٢) قوله « التجهم والبسور » كل منهما : كلوح الوجه . أفاده الصحاح . (ع)

يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَـلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)

فإن قلت : الذى جاء به ليس بمثل ، فكيف سماه مثلا ؟ قلت : قد سميت الصفة أو القصة الرائعة الملتقاة بالاستحسان والاستغراب : مثلا ، تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة ، لكونها مستحسنة مستغربة عندهم . قرئ ﴿تدعون﴾ بالتاء والياء ، ويدعون : مبنياً للمفعول ﴿لن﴾ أخت « لا » فى نفى المستقبل ، إلا أن « لن » تنفيه نفياً مؤكداً ، وتأكيده ههنا الدلالة [1] على أن خلق الذباب منهم مستحيل مناف لأحوالهم ، كأنه قال : محال أن يخلقوا . فإن قلت : ما محل ﴿ولو اجتمعوا له﴾ ؟ قلت : النصب على الحال ، كأنه قال : مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطاً عليهم اجتماعهم جميعاً لخلقه وتعاونهم عليه ، وهذا من أبلغ ما أنزله الله فى تجهيل قريش واستركاك عقولهم ، والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه [2] حيث وصفوا بالإلهية ـ التى تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها ، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها ـ صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره ، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا . وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم : أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا . وقوله ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ كالتسوية بينهم وبين الذباب فى الضعف . ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف ، لأن الذباب حيوان ، وهو جماد ، وهو غالب وذاك مغلوب . وعن ابن عباس : أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤسها بالعسل ويغلقون عليها الأبواب ، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله .

مَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٧٤)

﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ أى ما عرفوه حق معرفته ، حتى لا يسموا باسمه من هو منسلخ عن صفاته بأسرها ، ولا يؤهلوه للعبادة ، ولا يتخذوه شريكا له : إن الله قادر غالب ، فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به ؟

اللهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥)

(١) قوله « والدلالة » لعله « وللدلالة » كعبارة النسفى . (ع)

(٢) قوله « إن الشيطان قد خزمهم بخزائمه » فى الصحاح ، خزمت البعير بالخزامة ، وهي حلقة من شعر تجعل فى وترة أنفه ، يشد فيها الزمام . (ع)

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦)

هذا ردّ لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر ، وبيان أن رسل الله على ضربين : ملائكة وبشر ، ثم ذكر أنه تعالى درّاك للمدركات ، عالم بأحوال المكلفين ما مضى منها وما غبر، لا تخفى عليه منهم خافية . وإليه مرجع الأمور كلها ، والذى هو بهذه الصفات ، لا يسأل عما يفعل ، وليس لأحد أن يعترض عليه فى حكمه وتدابيره واختيار رسله .

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)

للذكر شأن ليس لغيره من الطاعات . وفى هذه السورة دلالات على ذلك ، فمن ثمة دعا المؤمنين أولا إلى الصلاة التى هى ذكر خالص ، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو ، ثم عمّ بالحث على سائر الخيرات . وقيل : كان الناس أوّل ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود ، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود . وقيل : معنى ﴿واعبدوا ربكم﴾ اقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله . وعن ابن عباس فى قوله ﴿وافعلوا الخير﴾ صلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿لعلكم تفلحون﴾ أى افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح طامعون فيه ، غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم ، وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله فى سورة الحج سجدتان ؟ قال : «نعم ، إن لم تسجدهما فلا تقرأهما»[١] ، وعن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما فضلت سورة الحج بسجدتين . وبذلك احتج الشافعى رضى الله عنه ، فرأى سجدتين فى سورة الحج . وأبو حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم لا يرون فيها إلا سجدة واحدة ، لأنهم يقولون : قرن السجود بالركوع ، فدل ذلك على أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة .

وَجَـٰهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

---

(١) لم أره بصيغة المواجهة . وإنما أخرجه أبو داود والترمذى وأحمد والدارقطنى والطبرانى والحاكم . كلهم من رواية ابن لهيعة عن فرج بن ماهان عن عقبة بلفظ «ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما» قال الترمذى : إسناده ليس بالقوى .

﴿وجاهدوا﴾ أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر. عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رجع من بعض غزواته فقال «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر[1]» ﴿فى الله﴾ أى فى ذات الله ومن أجله. يقال: هو حق عالم، وجد عالم، أى: عالم حقا وجدا. ومنه ﴿حق جهاده﴾. فإن قلت: ما وجه هذه الإضافة، وكان القياس: حق الجهاد فيه. أو حق جهادكم فيه، كما قال (وجاهدوا فى الله)؟ قلت: الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص، فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله، صحت إضافته إليه. ويجوز أن يتسع فى الظرف كقوله:

* وَيَوْمًا شَهِدْنَاهُ سُلَيْمًا وَعَامِرًا *[2]

﴿اجتباكم﴾ اختاركم لدينه ولنصرته ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾ فتح باب التوبة للمجرمين، وفسح بأنواع الرخص والكفارات والديات والأروش. ونحوه قوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وأمة محمد صلى الله عليه وسلم هى الأمة المرحومة الموسومة بذلك فى الكتب المتقدمة.

نصب الملة بمضمون ما تقدمها، كأنه قيل: وسع دينكم توسعة ملة أبيكم، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. أو على الاختصاص، أى: أعنى بالدين ملة أبيكم كقولك: الحمد لله الحميد. فإن قلت: لم يكن ﴿إبراهيم﴾ أبا للأمة كلها. قلت: هو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان أبا لأمته، لأنّ أمة الرسول فى حكم أولاده ﴿هو﴾ يرجع إلى الله تعالى: وقيل: إلى إبراهيم. ويشهد للقول الأوّل قراءة أبىّ بن كعب: الله سماكم ﴿من قبل وفى هذا﴾ أى من قبل القرآن فى سائر الكتب وفى القرآن. أى: فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾ أنه قد بلغكم ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾ بأنّ الرسل قد بلغتهم. وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة، فاعبدوه وثقوا به ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه، فهو خير مولى وناصر.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى[3]».

(١) هكذا ذكره الثعلبي بغير سند، وأخرجه البيهقى فى الزهد من حديث جابر، قال «قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم غزاة. فقال: قدمتم بخير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه» قال: فيه ضعف، قلت: هو من رواية عيسى بن إبراهيم عن يحيى بن يعلى عن ليث ابن أبى سليم، والثلاثة ضعفاء، وأورده النسائى فى الكنى من قول إبراهيم بن أبى عبلة، أحد التابعين من أهل الشام.

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٤٠٨ فراجعه إن شئت اهـ مصححه.

(٣) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى بن كعب بالاسناد المذكور فى سورة آل عمران.

سورة المؤمنون

مكية ، وهى مائة وتسع عشرة آية . وثمانى عشرة عند الكوفيين

[نزلت بعد سورة الأنبياء]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)

﴿قد﴾ نقيضة «لما» هى تثبت المتوقع و«لما» تنفيه ، ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهى الإخبار بثبات الفلاح لهم ، فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه . والفلاح : الظفر بالمراد . وقيل : البقاء فى الخير . و﴿أفلح﴾ دخل فى الفلاح ، كأبشر : دخل فى البشارة . ويقال : أفلحه : أصاره إلى الفلاح . وعليه قراءة طلحة بن مصرف : أفلح ، على البناء للمفعول. وعنه : أفلحوا ، على : أكلونى البراغيث . أو على الإبهام والتفسير . وعنه : أفلح ، بضمة بغير واو ، اجتزاء بها عنها ، كقوله :

* فَلَوْ أَنَّ الاطِبَّا كَانَ حَوْلِي * (١)

فإن قلت : ما المؤمن ؟ قلت : هو فى اللغة المصدق . وأما فى الشريعة فقد اختلف فيه على قولين ، أحدهما : أنّ كل من نطق بالشهادتين مواطئا قلبه لسانه فهو مؤمن . والآخر أنه صفة مدح لا يستحقها إلا البرّ التقىّ دون الفاسق الشقىّ (٢)

(١) فلو أن الأطباء كان حولى وكان مع الأطباء الأساة

الأصل : كانوا حولى ، فقصره وقصر «الأطباء» لضرورة الوزن وهم علماء الطب . والأساة : جمع آس ، كالسعاة : جمع ساع ، وهم المباشرون للعلاج من الأطباء ، من الأسى كالفتى ، بمعنى المداواة . والاساء ـ بالكسر ـ : الدواء ، ولعله أصل الرواية ، كما روى الشفاء ، لحقه حرف الألف .

(٢) قال محمود : «واختلف فى الايمان على قولين ، أحدهما : أن كل من نطق بالشهادتين مواطئا قلبه لسانه فقد اتصف بالايمان . والآخر : أنه صفة مدح لايستحقها إلا البر التقى دون الفاسق الشقى» قال أحمد : والأول مذهب الأشعرية ، والثانى مذهب المعتزلة . والموحد الفاسق عندهم لامؤمن ولا كافر . ولو لم يبن المعتزلة على هذا المعتقد تحريم الجنة على الموحد الفاسق بناء على أنه لايندرج فى وعد المؤمنين ، لكان البحث معهم لفظيا ؛ ولكن رتبوا =

الخشوع في الصلاة : خشية القلب وإلباد البصر ـ عن قتادة : وهو إلزامه موضع السجود . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء ، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره نحو مسجده [(١)] ، وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشدّ بصره إلى شيء ، أو يحدّث نفسه بشأن من شأن الدنيا . وقيل : هو جمع الهمة لها ، والإعراض عما سواها . ومن الخشوع : أن يستعمل الآداب ، فيتوقى كفّ الثوب ، والعبث بجسده وثيابه ، والالتفات ، والتمطي ، والتثاؤب ، والتغميض ، وتغطية الفم ، والسدل ، والفرقعة ، والتشبيك ، والاختصار ، وتقليب الحصا . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أبصر رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال « لو خشع قلبه خشعت جوارحه [(٢)] » ، ونظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصا وهو يقول : اللهمّ زوجني الحور العين ، فقال : بئس الخاطب أنت ! تخطب وأنت تعبث . فإن قلت : لم أضيفت الصلاة إليهم ؟ قلت : لأنّ الصلاة دائرة بين المصلي والمصلى له ، فالمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عدّته وذخيرته فهي صلاته : وأمّا المصلى له ، فغنيّ متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها .

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)

اللغو : ما لا يعنيك من قول أو فعل ، كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغاءه وإطراحه ، يعني أنّ بهم من الجدّ ما يشغلهم عن الهزل .

لما وصفهم بالخشوع في الصلاة ، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف .

--- على ذلك أمرا عظيما من أصول الدين وقواعده . وقد نقل القاضي عنهم في رسالة الايمان خبطا طويلا ، فنقل عن قدمائهم كعمرو بن عبيد وطبقته أن الايمان هو التصديق بالقلب وجميع فرائض الدين فعلا وتركا . ونقل عن أبي الهذيل العلاف أن الايمان هو جميع فرائض الدين ونوافله . ومختصر دليل القاضي لأهل السنة أن الايمان لغة هو مجرد التصديق اتفاقا ، فوجب أن يكون كذلك شرعا ، عملا بقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) مع سلامته عن معارضة النقل ، فانه لو كان لنبيه عليه الصلاة والسلام ولو بينه لنقل لأنه مما يبتنى عليه قاعدة الوعد والوعيد ، ولم ينقل ؛ لأن النقل إما آحاد أو تواتر إلى آخر مادته .

(١) أخرجه الحاكم من رواية ابن سيرين عن أبي هريرة ، لكن قال « فطأطأ رأسه وقال صحيح ، إلا أنه روى مرسلا اه والمرسل أخرجه أبو داود والطبري عن ابن سيرين عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال : فيه نظر هكذا ، وأخرجه الواحدي في الأسباب من طريق ابن علية ، عن أيوب . عن ابن سيرين موصولا .

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر في السادس والأربعين بعد المائة من حديث أبي هريرة وفيه سليمان ابن عمرو وهو أبو داود والنخعي أحد من اتهم بوضع الحديث وفي شرح البخاري لزين الدين ابن المنير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعائشة « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » .

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾

الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى ، فالعين : القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب إلى الفقير والمعنى : فعل المزكى الذى هو التزكية ، وهو الذى أراده الله ، فجعل المزكين فاعلين له ولا يسوغ فيه غيره ، لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل ، تقول للضارب : فاعل الضرب ، وللقاتل : فاعل القتل ، وللمزكى : فاعل التزكية . وعلى هذا الكلام كله والتحقيق فيه أنك تقول فى جميع الحوادث : من فاعل هذا ؟ فيقال لك : فاعله الله أو بعض الخلق[1]. ولم يمتنع الزكاة الدالة على العين أن يتعلق بها فاعلون ، لخروجها من صحة أن يتناولها الفاعل ، ولكن لأنّ الخلق ليسوا بفاعليها . وقد أنشد لأمية ابن أبى الصلت :

الْمُطْعِمُونَ الطَّعَامَ فِى السَّـــنَةِ الْأَزْمَةِ والفَاعِلُونَ لِلزَّكَوَاتِ[2]

ويجوز أن يراد بالزكاة : العين ، ويقدّر مضاف محذوف وهو الأداء ، وحمل البيت على هذا أصحّ ، لأنها فيه مجموعة .

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾

﴿على أزواجهم﴾ فى موضع الحال ، أى الا والين على أزواجهم . أو قوّامين عليهنّ ، من قولك : كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان . ونظيره : كان زياد على البصرة ، أى : والياً عليها . ومنه قولهم : فلانة تحت فلان . ومن ثمة سميت المرأة فراشاً . والمعنى : أنهم لفروجهم

(١) قال محمود : «الزكاة تطلق ويراد بها العين المخرجة ، وتطلق ويراد بها فعل المزكى الذى هو التزكية ويتعين ههنا أن يكون المراد التزكية لقوله (فاعلون) إذ العين المخرجة لم يفعلها المزكى ، ثم ضبط المصدر على الاطلاق بأنه الذى يصدق عليه أنه فعل الفاعل ؛ فعلى هذا تكون العين المخرجة مصدراً بالنسبة إلى الله تعالى ، وكذلك السموات والأرض وكل مخلوق من جوهر وعرض ، قال : لجميع الحوادث إذا قيل من فاعلها ؟ فيقال : الله أو بعض الخلق» قال أحمد : ويقول السنى : فاعل جميعها هو الله وحده لاشريك له ، ولكن إذا سئل بصيغة مشتقة من الفعل على طريقة اسم الفاعل ، مثل أن يقال له : من القائم ؟ من القاعد ؟ أجاب بمن خلق الله الفعل على يديه ، وجعله محلاله ، كزيد وعمرو .

(٢) لأمية بن أبى الصلت . والأزم : الجدب . والأزمة : الشديدة المجدبة . والزكوات : جمع زكاة ، تطلق على القدر المخرج من المال وعلى الاخراج ، فالمعنى على الأول : المؤدون للزكوات . وعلى الثانى : الفاعلون لذلك الاخراج ، والأول أوجه ؛ لأن المصدر لايجمع إلا بتأويل الأنواع أو المرات .

حافظون فى كافة الأحوال ، إلا فى حال تزوجهم أو تسريهم ، أو تعلق (على) بمحذوف يدل عليه (غير ملومين) كأنه قيل : يلامون إلا على أزواجهم ، أى : يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم ، فإنهم غير ملومين عليه . أو تجعله صلة لحافظين ، من قولك : احفظ علىّ عنان فرسى ، على تضمينه معنى النفى ، كما ضمن قولهم : نشدتك بالله إلا فعلت معنى ماطلبت منك إلا فعلك . فإن قلت هلا قيل : من ملكت ؟ قلت : لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجرى مجرى غير العقلاء وهم الإناث جعل المستثنى حداً أوجب الوقوف عنده ، ثم قال : فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحد مع فسحته واتساعه ، وهو إباحة أربع من الحرائر . ومن الإماء ماشئت ﴿فأولئك هم﴾ الكاملون فى العدوان المتناهون فيه . فإن قلت : هل فيه دليل على تحريم المتعة ؟ قلت : لا ؛ لأنّ المنكوحة نكاح المتعة من جملة الأزواج إذا صحّ النكاح .

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾

وقرئ : لأمانتهم . سمى الشىء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً . ومنه قوله تعالى (إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها) وقال (وتخونوا أماناتكم) وإنما تؤدّى العيون لا المعانى ، ويخان المؤتمن عليه ، لا الأمانة فى نفسها . والراعى : القائم على الشىء بحفظ وإصلاح كراعى الغنم وراعى الرعية . ويقال : من راعى هذا الشىء ؟ أى متوليه وصاحبه : ويحتمل العموم فى كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق ، والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم .

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾

وقرئ ﴿على صلاتهم﴾ . فإن قلت : كيف كرّر ذكر الصلاة أوّلا وآخراً ؟ قلت : هما ذكران مختلفان فليس بتكرير . وصفوا أوّلا بالخشوع فى صلاتهم ، وآخراً بالمحافظة عليها . وذلك أن لا يسهوا عنها ، ويؤدّوها فى أوقاتها ، ويقيموا أركانها ، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغى أن تتمّ به أوصافها . وأيضاً فقد وحدت أوّلا ليفاد الخشوع فى جنس الصلاة أىّ صلاة كانت ، وجمعت آخراً لتفاد المحافظة على أعدادها : وهى الصلوات الخمس ، والوتر ، والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة ، والعيدين والجنازة ، والاستسقاء ، والكسوف والخسوف ، وصلاة الضحى ، والتهجد وصلاة التسبيح ، وصلاة الحاجة ، وغيرها من النوافل .

أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾

أى ﴿أولئك﴾ الجامعون لهذه الأوصاف ﴿هم الوارثون﴾ الأحقاء بأن يسموا ورّاثا

دون من عداهم ، ثم ترجم الوارثين بقوله ﴿الذين يرثون الفردوس﴾ لجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لاتخفى على الناظر . ومعنى الإرث : مامرّ فى سورة مريم . أنث الفردوس على تأويل الجنة ، وهو : البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر . روى أنّ الله عزوجلّ بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وجعل خلالها المسك الأذفر . وفى رواية : ولبنة من مسك مذرّى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَنَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَـٰلِقِينَ (١٤)

السلالة : الخلاصة ؛ لأنها تسلّ من بين الكدر ، و «فعالة» بناء للقلة كالقلامة والقمامة . وعن الحسن : ماء بين ظهرانى الطين . فإن قلت : ماالفرق بين من ومن ؟ قلت : الأوّل للابتداء ، والثانى للبيان ، كقوله (من الأوثان) . فإن قلت : مامعنى : ﴿جعلنا﴾ الإنسان نطفة ؟ قلت : معناه أنه خلق جوهر الإنسان أوّلا طينا ، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة . القرار : المستقرّ ، والمراد الرحم . وصفت بالمكانة التى هى صفة المستقرّ فيها ، كقولك . طريق سائر . أو بمكانتها فى نفسها ؛ لأنها مكنت بحيث هى وأحرزت . قرئ : عظما فكسونا العظم . وعظاما فكسونا العظام وعظما فكسونا العظام . وعظاما فكسونا العظم : وضع الواحد مكان الجمع لزوال اللبس ؛ لأنّ الإنسان ذو عظام كثيرة ﴿خلقا آخر﴾ أى خلقاً مباينا للخلق الأوّل مباينة ماأبعدها ، حيث جعله حيوانا وكان جماداً ، وناطقاوكان أبكم ، وسميعاً وكان أصم ، وبصيراً وكان أكمه ، وأودع باطنه وظاهره ـ بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه ـ عجائب فطرة وغرائب حكمة لاتدرك بوصف الواصف ولاتبلغ بشرح الشارح : وقد احتجّ به أبوحنيفة فيمن غصب بيضة فأفرخت عنده قال : يضمن البيضة ولا يرد الفرخ ؛ لأنه خلق آخرسوى البيضة ﴿فتبارك الله﴾ فتعالى أمره فى قدرته وعلمه ﴿أحسن الخالقين﴾ أى : أحسن المقدرين تقديراً ، فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه . ونحوه : طرح المأذون فيه فى قوله (أذن للذين يقاتلون) لدلالة الصلة . وروى عن عمر رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ قوله خلقا آخر ، قال : فتبارك الله أحسن الخالقين[1] . وروى أنّ عبد الله بن سعدبن أبى سرح كان يكتب للنبى صلى الله

(١) وفى الباب عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربى فى أربع فذكر الحديث ـ وفيه : فنزلت (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، إلى قوله خلقا آخر . فقلت تبارك الله أحسن الخالقين . فنزلت»

عليه وسلم ، فنطق بذلك قبل إملائه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «اكتب هكذا نزلت» فقال عبد الله : إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبيّ يوحى إلىّ ، فلحق بمكة كافراً ، ثم أسلم يوم الفتح (١) .

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

قرأ ابن أبي عبلة وابن محيصن : لمائتون . والفرق بين الميت والمائت : أنّ الميت كالحي صفة ثابتة . وأمّا المائت ، فيدل على الحدوث . تقول : زيد مائت الآن ، ومائت غداً ، كقولك يموت . ونحوهما : ضيق وضائق ، في قوله تعالى (وضائق به صدرك) جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة ، والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه : دليلين أيضا على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع . فإن قلت : فإذاً لا حياة إلا حياة الإنشاء وحياة البعث . قلت . ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة وهي حياة القبر . كما لو ذكرت ثلثي ما عندك وطويت ذكر ثلثه لم يكن دليلا على أن الثلث ليس عندك . وأيضا فالغرض ذكر هذه الأجناس الثلاثة : الإنشاء والإماتة والإعادة ، والمطوى ذكرها من جنس الإعادة .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾

الطرائق : السموات ، لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل ، وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة : أو لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم : وقيل : الأفلاك ، لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها : أراد بالخلق السموات ، كأنه قال : خلقناها فوقهم ﴿ وما كنا ﴾ عنها ﴿ غافلين ﴾ وعن حفظها وإمساكها أن تقع فوقهم بقدرتنا : أو أراد به الناس وأنه إنما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها ، وينفعهم بأنواع منافعها ، وما كان غافلا عنهم وما يصلحهم .

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾

﴿ بقدر ﴾ بتقدير يسلمون معه من المضرة ، ويصلون إلى المنفعة . أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم . ﴿فأسكناه في الأرض﴾ كقوله (فسلكه ينابيع في الأرض) وقيل : جعلناه ثابتاً في الأرض . وقيل : إنها خمسة أنهار : سيحون نهر الهند . وجيحون : نهر بلخ . ودجلة والفرات : نهرا العراق . والنيل : نهر مصر ، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة ،

(١) كذا ذكره الثعلبي عن ابن عباس رضى الله عنهما وعزاه الواحدى إلى الكلبي . عن ابن عباس رضى الله عنهما .

فاستودعها الجبال ، وأجراها فى الأرض ، وجعل فيها منافع للناس فى أصناف معايشهم . وكما قدر على إنزاله فهو قادر على رفعه وإزالته . وقوله ﴿على ذهاب به﴾ من أوقع النكرات وأحزها للمفصل . والمعنى : على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه . وفيه إيذان باقتدار المذهب ، وأنه لا يتعايى عليه شيء إذا أراده ، وهو أبلغ فى الإيعاد ، من قوله : (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين) فعلى العباد أن يستعظموا النعمة فى الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ، ويخافوا نفارها إذا لم تشكر .

فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠)

خصّ هذه الأنواع الثلاثة ، لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع . ووصف النخل والعنب بأنّ ثمرهما جامع بين أمرين : بأنه فاكهة يتفكه بها ، وطعام يؤكل رطباً ويابساً ، رطباً وعنباً ، وتمراً وزبيباً . والزيتون بأنّ دهنه صالح للاستصباح والاصطباغ جميعاً . ويجوز أن يكون قوله (ومنها تأكلون) من قولهم : يأكل فلان من حرفة يحترفها ، ومن ضيعة يغتلها ، ومن تجارة يتربح بها : يعنون أنها طعمته وجهته التى منها يحصل رزقه ، كأنه قال : وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم ، منها ترتزقون وتتعيشون ﴿وشجرة﴾ عطف على جنات . وقرئت مرفوعة على الابتداء ، أى : ومما أنشئ لكم شجرة ﴿طور سيناء﴾ وطور سينين ، لا يخلو إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون ، وإمّا أن يكون اسماً للجبل مركباً من مضاف ومضاف إليه ، كامرئ القيس ، وكبعلبك ، فيمن أضاف . فمن كسر سين سيناء فقد منع الصرف للتعريف والعجمة أو التأنيث ؛ لأنها بقعة ، وفعلاء لا يكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء . ومن فتح فلم يصرف ؛ لأنّ الألف للتأنيث كصحراء . وقيل : هو جبل فلسطين . وقيل : بين مصر وأيلة . ومنه نودى موسى عليه السلام . وقرأ الأعمش : سينا على القصر ﴿بالدهن﴾ فى موضع الحال ، أى : تنبت وفيها الدهن . وقرئ : تنبت . وفيه وجهان ، أحدهما : أن أنبت بمعنى نبت . وأنشد لزهير :

رَأَيْتُ ذَوِى الْحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ ... قَطِينًا لَهُمْ حَتَّى إِذَا أَنْبَتَ الْبَقْلُ [1]

(١) إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ... ونال كرام الناس فى الجحرة الأكل
رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم ... قطينا بها حتى إذا أنبت البقل

والثانى : أنّ مفعوله محذوف ، أى : تنبت زيتونها وفيه الزيت . وقرئ : تنبت ، بضم التاء وفتح الباء ، وحكمه حكم تنبت . وقرأ ابن مسعود : تخرج الدهن وصبغ الآكلين . وغيره : تخرج بالدهن : وفى حرف أبىّ : تثمر بالدهن . وعن بعضهم : تنبت بالدهان . وقرأ الأعمش : وصبغا وقرئ وصباغ . ونحوهما : دبغ ودباغ . والصبغ : الغمس للائتدام . وقيل : هى أوّل شجرة نبتت بعد الطوفان ، ووصفها الله تعالى بالبركة فى قوله (توقد من شجرة مباركة) .

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

قرئ : تسقيكم ، بتاء مفتوحة ، أى : تسقيكم الأنعام (ومنها تأكلون) أى تتعلق بها منافع من الركوب والحمل وغير ذلك ، كما تتعلق بما لا يؤكل لحمه من الخيل والبغال والحمير . وفيها منفعة زائدة ، وهى الأكل الذى هو انتفاع بذواتها ، والقصد بالأنعام إلى الإبل لأنها هى المحمول عليها فى العادة ، وقرنها بالفلك ـ التى هى السفائن ـ لأنها سفائن البرّ . قال ذو الرمة :

= هنالك إن يستخولوا المال يخولوا ... وإن سئلوا يعطوا وإن يسروا يغلوا
وفيهم مقامات حسان وجوههم ... وأندية ينتابها القول والفعل

لزهير بن أبى سلمى يمدح سنان بن أبى حارثة ، والشهباء : الفرس يخالط سوادها بياض ، شبه بها السنة المجدبة لكثرة بياض أرضها وخلوها عن سواد النبات والأمطار . أو لاختلاط نور الغنى فيها بظلمة الفقر . أجحفت بالناس : أى ذهبت بهم ومحقت عنهم آثار الغنى ، والاسناد مجاز عقلى . والجحرة ـ بتقديم الجيم المفتوحة ـ : السنة المجدبة وروى : فى الجحرة . وأصلها بالتحريك ، فسكونها لغة أوضرورة وهى شدة الشقاء . ويجوز أن تقرأ بالضم بمعنى البيت ، أى : ونال الأكل كرام الناس . ووصلهم داخل بيوتهم لبخلهم تلك السنة . ويروى : كرام المال . والمعنى أن كرائم الأموال نالها التأكل والتنقص فى تلك السنة لجدبها . ورأيت : جواب إذا . وذوى الحاجات : كناية عن الفقراء . حول بيوتهم : أى سنان وقومه . قطينا : أى مقيمين ، فهو يطلق على الواحد والمتعدد . وقيل أنه جمع . ويروى قطينا لهم : أى مساكنين لهم عند البيوت ، وذلك كناية عن كرمهم ، حتى إذا أنبت البقل : أى نبت النبات الرطب وظهر الخصب ، فهنالك : أى فى ذلك الزمان إن يسألهم أحد أن يخولوه مالا كثيرا يخولوه : أى يولوه عليه . وإن سئلوا مالا قليلا يعطوا السائل . ويروى : إن يستخبلوا المال يخبلوا . بالموحدة ، يستعر : أى منهم أحد إبلهم للانتفاع بألبانها وأوبارها زمن الجدب ثم يردها : أعاروه ، وإن سألهم الاعطاء من غير رد أعطوه فلا يردون سائلا . وإن يسروا : أى لعبوا الميسر ، يغلوا : أى يجعلوا الخطر غاليا كثيرا لعدم خوفهم على الفقراء لأن المال كثير بخلاف زمن الجدب . ويجوز أن يقرأ : وإن يسروا أى أعطوا بلا سؤال ، يفلوا بالفاء . أى يتفقدوا الفقراء ويعطوهم ، يقال : يسر كوعد : لعب الميسر ، ويسر كترب وتعب : لان ورق ورفق . وروى : يسألوا وييسروا بالمضارع . والمقامات : المجامع من الناس . وروى : وجوهها . وعلى كل فالضمير للمقامات . والأندية ـ جمع الندى ـ بمعنى الكرم ، على غير قياس ، ينتابها : أى يجرى عليها نوبة بعد نوبة قولهم وفعلهم . أو يتداولها قول الناس وفعلهم . ويحتمل أنها جمع ناد بمعنى متحدث القوم . أو ندى على فعيل كذلك . ينتابها : أى يجيئها نوبة بعد نوبة القول والفعل ، أى : الصالحات .

* سَفِينَةُ بَرٍّ تَحْتَ خَدِّى زِمَامُهَا * (١)

يريد صيدحه (٢)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥)

﴿غيره﴾ بالرفع على المحل، وبالجر على اللفظ. والجملة استئناف تجرى مجرى التعليل للأمر بالعبادة ﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذى هو ربكم وخالقكم ورازقكم، وشكر نعمته التى لا تحصونها واجب عليكم، ثم تذهبوا فتعبدوا غيره مما ليس من استحقاق

---

(١)
ألا خيلت مى وقد نام صحبتى ... فما نفر التهويم إلا سلامها
طروقا وجلب الرحل مشدودة به ... سفينة بر تحت خدى زمامها
أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة ... قليلا بها الأصوات إلا بغامها

لذى الرمة، يقول: خيلت مى، أى: بعثت خيالها وأرتنى إياه، وسلمت على فى منامى. والحال أنه قد نام أصحابى، والصحبة كالعصبة والرفقة، ونسب النوم إليهم دونه؛ لأن نومه تهويم أى فتور وغفلة أول النوم فقط. والتهويم أيضا: تمايل الرأس من النعاس، أو لأنه يتذكرها فكأنه لم يم. ويروى: ذو الكرى بدل صحبتى، فما نفر التهويم وطرده عنى إلا سلامها على. ويروى:

ألا طرقتنا مية بنت منذر ... فما أرّق النيام إلا سلامها

وأرق: أسهر. والنيام: جمع نائم، وقياسه نوام، فقلب ياء شذوذاً. والطروق: الاتيان ليلا، وهو نصب على المصدر من خيلت، لتلاقيهما معنى. وقيل: الطروق ـ بالفتح ـ: الناقة التى بلغت أن يطرقها الفحل، وهو مفعول خيلت. والأوجه أنه حال من فاعله هذا، ولعله على التشبيه. وجلب الرحل ـ بالضم، وبالكسر ـ: عيدانه، أى: والحال أن عيدان الرحل مشدودة بها ناقة عظيمة كالسفينة. فاستعارها لها على طريق التصريح، وإضافتها للبر قرينة للاستعارة. وفيه أنها فى البر تقوم مقام السفينة فى البحر، وأنها تقابلها. والزمام تجريد، أى: زمامها تحت خدى وأنا نائم. والبلدة من الناقة: مالاق الأرض عند الاناخة، وتطلق على الصدر. والبلدة الأرض الصلبة. والبغام: صوت الظبى، أى: أنختها فألقت عظاما صلبة كالأرض، فاستعارها لها على طريق التصريح، فوق أرض صلبة حال كون تلك الأرض قليلا فيها الأصوات إلا بغام الناقة، أى: صوتها الشبيه بصوت الظبى، لأنه كان حنينا. ومجىء الحال من النكرة بلا تأخير ولا نفى ولا تخصيص شاذ. ويروى. قليل ـ بالجر ـ على الصفة. وعلى كل فالأصوات فاعل له، ورفع المستثنى على الاتباع: لأن قليلا فى معنى النفى، أى: ليس فيها صوت إلا البغام. وقيل «إلا» هنا بمعنى غير، فهى صفة للأصوات لأنه يشبه النكرة، ولما تعذر ظهور الاعراب عليها ظهر على ما بعدها.

(٢) قوله «يريد صيدحه» أى: ناقته المسماة بصيدح. (ع)

العبادة فى شيء ﴿أن يتفضل عليكم﴾ أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم، كقوله تعالى (وتكون لكما الكبرياء فى الأرض). ﴿بهذا﴾ إشارة إلى نوح عليه السلام، أو إلى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله، أى: ما سمعنا بمثل هذا الكلام، أو بمثل هذا الذى يدعي وهو بشر أنه رسول الله، وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر: وقولهم ﴿ماسمعنا بهذا﴾ يدل على أنهم وآباؤهم كانوا فى فترة متطاولة. أو تكذبوا فى ذلك لانهما كهم فى الغى، وتشمرهم لأن يدفعوا الحق بما أمكنهم وبما عنّ لهم، من غير تمييز منهم بين صدق وكذب. ألا تراهم: كيف جننوه وقد علموا أنه أرجح الناس عقلا وأوزنهم قولا. والجنة: الجنون أو الجنّ، أى: به جنّ يخبلونه ﴿حتى حين﴾ أى احتملوه واصبروا عليه إلى زمان، حتى ينجلى أمره عن عاقبة، فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه.

قَالَ رَبِّ ٱنْصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)

فى نصرته إهلاكهم، فكأنه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياى، أو انصرنى بدل ما كذبونى، كما تقول: هذا بذاك، أى بدل ذاك ومكانه. والمعنى: أبدلنى من غمّ تكذيبهم، سلوة النصرة عليهم. أو انصرنى بإنجاز ما وعدتهم من العذاب، وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم). ﴿بأعيننا﴾ بحفظنا وكلاءتنا، كأن معه من الله حفاظا يكلؤونه بعيونهم، لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه مفسد عمله. ومنه قولهم عليه من الله عين كالئة ﴿ووحينا﴾ أى نأمرك كيف تصنع ونعلمك. روى أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر. روى أنه قيل لنوح عليه السلام: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب. وقيل: كان تنور آدم عليه السلام. وكان من حجارة، فصار إلى نوح. واختلف فى مكانه، فعن الشعبي: فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلى باب كندة، وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد. وقيل:

بالشام بموضع يقال له عين وردة . وقيل بالهند . وعن ابن عباس رضى الله عنه : التنور وجه الأرض . وعن قتادة : أشرف موضع فى الأرض ، أى أعلاه . وعن على رضى الله عنه : فار التنور : طلع الفجر . وقيل : معناه أن فوران التنور كان عند تنوير الفجر . وقيل : هو مثل ، كقولهم : حمى الوطيس . والقول هو الأوّل . يقال : سلك فيه : دخله . وسلك غيره ، وأسلكه . قال :

* حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِى قَتَائِدِهِ *[(١)]

﴿من كل زوجين﴾ من كل أمّتى زوجين ، وهما أمّة الذكر وأمّة الأنثى ، كالجمال والنوق ، والحصن والرماك ﴿اثنين﴾ واحدين مزدوجين ، كالجمل والناقة ، والحصان والرمكة : روى أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض . وقرئ : من كل ، بالتنوين ، أى : من كل أمّة زوجين . واثنين : تأكيد وزيادة بيان .

جيء بعلى مع سبق الضارّ ، كما جيء باللام مع سبق النافع . قال الله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) ، (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) ونحوه قوله تعالى (لها ما كسبت عليها ما اكتسبت) وقول عمر رضى الله عنه : ليتها كانت كفافا ، لا علىّ ولا لى . فإن قلت : لم نهاه عن الدعاء لهم بالنجاة ؟ قلت : لما تضمنته الآية من كونهم ظالمين ، وإيجاب الحكمة أن يغرقوا لا محالة ، لما عرف من المصلحة فى إغراقهم ، والمفسدة فى استبقائهم ، وبعد أن أملى لهم الدهر المتطاول فلم يزيدوا إلا ضلالا ، ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق إلا أن يجعلوه عبرة للمعتبرين . ولقد بالغ فى ذلك حيث أتبع النهى عنه ، الأمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم ، كقوله (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) ، ثم أمره أن يدعوه بدعاء هو أهم وأنفع له ، وهو طلب أن ينزله فى السفينة أو فى الأرض عند خروجه منها ، منزلا يبارك له فيه ويعطيه الزيادة فى خير الدارين ، وأن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسئلته ، وهو قوله ﴿وأنت خير المنزلين﴾ . فإن قلت : هلا قيل : فقولوا ؛ لقوله (فإذا

---

(١) حتى إذا أسلكوهم فى قتائده شلا كما تطرد الجمالة الشرد

لعبد مناف بن ربع الهذلى ، يصف قوما أغير عليهم فدفعوا العدو حتى أدخلوه فى قتائده ، وهى ثنية بعينها ، أو عقبه بعينها ، أى : فى طرائقها . وسلكه فى كذا وأسلكه أيضاً كما هنا : أدخله فيه . وروى : سلكوهم أيضاً . وشلا : أى طرداً نصب بسلوكهم ، لأن فيه معنى طردوهم : وإذا : حرف زائد لاجواب له ، لأن البيت آخر القصيد كما فى الصحاح . وقيل «شلا» هو جوابه ، فهو نصب بمحذوف ، أى : حبسوا بها حبساً ، لكن لايلائم التشبيه فى قوله «كما تطرد» إلاأن يرجع لسلوكهم . والجمالة : جمع جمال وهو صاحب الجمل . والشرد ـ بفتحتين ـ : الابل المنتشرة ، أو بضمتين : جمع شرود كعروس .

استويت أنت ومن معك) لأنه فى معنى : فإذا استويتم ؟ قلت : لأنه نبيهم وإمامهم ، فكان قوله قولهم ، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة وإظهار كبرياء الربوبية ، وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبىّ . وقرئ : منزلا ، بمعنى إنزالا ، أو موضع إنزال ، كقوله : ليدخلنهم مدخلا يرضونه . ﴿إن﴾ هى المخففة من الثقيلة ، واللام هى الفارقة بين النافية وبينها فى المعنى ، وإن الشأن والقصة ﴿كنا لمبتلين﴾ أى مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد . أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذكر ، كقوله تعالى : (ولقد تركناها آية فهل من مدّكر .

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾

﴿قرنا آخرين﴾ هم عاد قوم هود : عن ابن عباس رضى الله عنهما . وتشهد له حكاية الله تعالى قول هود : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) ومجىء قصة هود على أثر قصة نوح فى سورة الأعراف وسورة هود والشعراء . فإن قلت : حق أرسل أن يعدى بإلى ، كأخواته التى هى : وجه ، وأنفذ ، وبعث . فما باله عدى فى القرآن بإلى تارة ، وبفى أخرى ، كقوله : (كذلك أرسلناك فى أمة) ، (وما أرسلنا فى قرية من نذير) . ﴿فأرسلنا فيهم رسولا﴾ أى فى عاد . وفى موضع آخر (وإلى عاد أخاهم هوداً) ؟ قلت : لم يعدّ بفى كما عدّى بإلى ، ولم يجعل صلة مثله ، ولكن الأمة أو القرية جعلت موضعاً للإرسال ، كما قال رؤبة :

* أَرْسَلْتُ فِيهَا مُصْعَبًا ذَا إِقْحَامْ * (١)

وقد جاء بعث ، على ذلك فى قوله (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً) . ﴿أن﴾ مفسرة لأرسلنا ، أى : قلنا لهم على لسان الرسول ﴿اعبدوا الله﴾ .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ

(١) أرسلت فيها مصعبا ذا إقحام طبا فقيها بذوات الابلام

لعطاء السندى . ويقال : أصعب الجمل فهو مصعب ، إذا صار صعبا لا يركب . والاقحام : الدخول فى الشىء بلا تمهل ولا روية . ويروى : أرسلت فيها مقرما ذا تشمام . وأقرمته : شوقته إلى الضراب . ونحوه : ذا تشمام ، أى : يتشمم رائحة الناقة التائقة للضراب فيعرفها . والطب ـ مثلث ـ : الطبيب الحاذق . وأبلمت الناقة إبلاما : إذا ورم فرجها من شدة الشهوة إلى الضراب . والبلم ـ كسبب ـ : اسم منه . ويجوز أن ماهنا أبلام كأسباب ، فالمعنى : أنه أرسل فى الابل فحلا كريما يقدم عليها من غير تلبث . أو يتشممها ويتعرفها حاذقا عارفا بالنوق التائقة إليه . ويجوز أن المعنى : أرسلت فى تلك القضية رجلا كالجمل الشديد ، ذا إقدام على الأمر بجراءة ، فقيها عارفا بمعالجة الأشياء الصعبة ذوات الأعضال ، ويحل مشكلاتها ، فهو فى غاية المعرفة والتجربة .

فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مَاهَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾

فإن قلت : ذكر مقال قوم هود فى جوابه فى سورة الأعراف وسورة هود بغير واو : (قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة) ، (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) وههنا مع الواو ، فأى فرق بينهما ؟ قلت : الذى بغير واو على تقدير سؤال سائل قال : فما قال قومه ؟ فقيل له : قالوا كيت وكيت . وأما الذى مع الواو ، فعطف لما قالوه على ما قاله . ومعناه : أنه اجتمع فى الحصول هذا الحق وهذا الباطل ، وشتان ما هما ﴿ بلقاء الآخرة ﴾ بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب ، كقولك : يا حبذا جوار مكة : أى جوار الله فى مكة .

حذف الضمير ، والمعنى : من مشروبكم ، أو حذف منه لدلالة ما قبله عليه ﴿ إذاً ﴾ واقع فى جزاء الشرط ، وجواب للذين قاولوهم من قومهم ، أى : تخسرون عقولكم وتغبنون فى آرائكم .

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾

ثنى ﴿ أنكم ﴾ للتوكيد ، وحسن ذلك لفصل ما بين الأول والثانى بالظرف . ومخرجون : خبر عن الأول . أو جعل (إنكم مخرجون) مبتدأ ، و (إذا متم) خبراً ، على معنى : إخراجكم إذا متم ، ثم أخبر بالجملة عن إنكم ، أو رفع (إنكم مخرجون) بفعل هو جزاء للشرط ، كأنه قيل : إذا متم وقع إخراجكم ، ثم أوقعت الجملة الشرطية خبراً عن إنكم . وفى قراءة ابن مسعود : أيعدكم إذا متم .

قرئ ﴿ هيهات ﴾ بالفتح والكسر والضم ، كلها بتنوين وبلا تنوين ، وبالسكون على لفظ الوقف فإن قلت : ما توعدون هو المستبعد ، ومن حقه أن يرتفع بهيهات ، كما ارتفع فى قوله :

* فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الْعَقِيقُ وَأَهْلُهُ * (١)

---

(١) فهيهات هيهات العقيق ومن به وهيهات خل بالعقيق نواصله

لجرير ، يتحسر على بعد خليله . وهيهات : اسم فعل بمعنى «بعد» وفتح تائه : لغة الحجاز . وكسرها : لغة تميم . وضمها : لغة بعضهم . وكرره للتوكيد وزيادة التحزن . والعقيق : الوادى الذى شقه السيل ، وهو هنا واد بظاهر =

فما هذه اللام : قلت قال الزجاج فى تفسيره : البعدُ لما توعدون ، أو بعدٌ لما توعدون فيمن نون ، فنزله منزلة المصدر . وفيه وجه آخر : وهو أن يكون اللام لبيان المستبعد ماهو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد ، كما جاءت اللام فى (هيت لك) لبيان المهيت به .

هذا ضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما يتلوه من بيانه . وأصله إن الحياة ﴿إلا حياتنا الدنيا﴾ ثم وضع (هى) موضع الحياة ، لأنّ الخبر يدل عليها ويبينها . ومنه : هى النفس تتحمل ما حملت ، وهى العرب تقول ما شاءت . والمعنى : لا حياة إلا هذه الحياة ؛ لأن « إن » النافية دخلت على « هى » التى فى معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها ، فوازنت « لا » التى نفت ما بعدها نفى الجنس ﴿نموت ونحيي﴾ أى يموت بعض ويولد بعض ، ينقرض قرن ويأتى قرن آخر ، ثم قالوا : ما هود إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه له ، وفيما يعدنا من البعث ، وما نحن بمصدّقين .

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

﴿قليل﴾ صفة للزمان ، كقديم وحديث ، فى قولك : ما رأيته قديما ولا حديثاً . وفى معناه : عن قريب . و (ما) توكيد قلة المدّة وقصرها ﴿الصيحة﴾ صيحة جبريل عليه السلام : صاح عليهم فدمّرهم ﴿بالحق﴾ بالوجوب ؛ لأنهم قد استوجبوا الهلاك . أو بالعدل من الله ، من قولك : فلان يقضى بالحق إذا كان عادلا فى قضاياه : شبههم فى دمارهم بالغثاء : وهو حميل السيل مما بلى واسودّ من العيدان والورق . ومنه قوله تعالى (فجعله غثاء أحوى) وقد جاء مشدّداً فى قول امرئ القيس :

* مِنَ السَّيْلِ وَالْغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ * (١)

المدينة المشرفة . مرفوع على الفاعلية بالأول ، والثانى لافاعل له . وأجاز أبو على الفارسى أنه من باب التنازع ، فهو مرفوع بأحدهما ، وضميره مستتر فى الآخر ، فهو توكيد مفرد على الأول ، وجملة على الثانى . وأجاز ابن مالك أنه فاعل لهما لاتحادهما لفظا ومعنى . وانظر كيف ذكر أولا مكان الأحبة ، ثم ذكر من فيه على العموم ، ثم ذكر خله على الخصوص ، وتدرج فى ذلك حتى توصل إلى ذكر الوصال ، وهو مقصوده الذاتى ، فلله در العرب ما ألطفها صنيعا ، وأدقها عبارة ، والخل ـ بالكسر ـ : الخليل ، كالحب بمعنى الحبيب . ويروى : العقيق وأهله

(١) كأن ذرى رأس المخيم غدوة من السيل والغثاء فلكة مغزل

لامرئ القيس من معلقته . وذرى الجبل : أعاليه . والمخيم : أكمة بعينها . ويروى : المجيمر . والغثاء ـ بالضم مشددا ومخففا ـ : حميل السيل مما بلى واسود من العيدان والورق . والفلكة : بالفتح . والمغزل : مثلث . يقول : كأن أعالى تلك الأكمة من إحاطة السيل بها واجتماع الغثاء حولها : فلكة مغزل فى الاستدارة والارتفاع .

بعداً، وسحقاً، ودفراً [١]، ونحوها؛ مصادر موضوعة مواضع أفعالها، وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه: نصبت بأفعال لا يستعمل إظهارها. ومعنى (بعداً): بعدوا، أى: هلكوا يقال: بعد بعداً وبعداً، نحو رشد رشداً ورشداً. و ﴿للقوم الظالمين﴾ بيان لمن دعى عليه بالبعد، نحو: (هيت لك). و (لما توعدون).

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿قرونا﴾ قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: بنى إسرائيل ﴿أجلها﴾ الوقت الذى حدّ لهلاكها وكتب.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

﴿تترى﴾ فعلى: الألف للتأنيث؛ لأنّ الرسل جماعة. وقرئ: تترًى، بالتنوين، والتاء بدل من الواو، كما فى: تولج، وتيقور [٢]، أى: متواترين واحدا بعد واحد، من الوتر وهو الفرد: أضاف الرسل إليه تعالى وإلى أممهم (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات) (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) لأنّ الإضافة تكون بالملابسة، والرسول ملابس المرسل والمرسل إليه جميعاً ﴿فأتبعنا﴾ الأمم أو القرون ﴿بعضهم بعضا﴾ فى الإهلاك ﴿وجعلناهم﴾ أخباراً يسمر بها ويتعجب منها. الأحاديث: تكون اسم جمع للحديث. ومنه: أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتكون جمعاً للأحدوثة: التى هى مثل الأضحوكة والألعوبة والأعجوبة. وهى: مما يتحدّث به الناس تلهياً وتعجباً، وهو المراد ههنا.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾

فإن قلت: ما المراد بالسلطان المبين؟ قلت: يجوز أن تراد العصا، لأنها كانت أمّ آيات

---

(١) قوله «دفرا» فى الصحاح «دفراً له» أى: نتنا. (ع)

(٢) قوله «كما فى تولج وتيقور» التولج: كناس الوحش الذى يلج فيه. قال سيبويه: التاء مبدلة من الواو، وهو فوعل، كذا فى الصحاح. وفيه أيضا: التيقور، والوقار. وأصله: ويقور، قلبت الواو تاءاً اهـ، فوزنه «فيعول». (ع)

موسى وأُولاها ، وقد تعلقت بها معجزات شتى : من انقلابها حية ، وتلقفها ماأفكته السحرة ، وانفلاق البحر ، وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها ، وكونها حارساً ، وشمعة ، وشجرة خضراء مثمرة ، ودلوا ورشاء . جعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت به من الفضل ، فلذلك عطفت عليها كقوله تعالى (وجبريل وميكال) ويجوز أن تراد الآيات أنفسها ، أى : هى آيات وحجة بينة ﴿عالين﴾ متكبرين (إنّ فرعون علا فى الأرض) ، (لايريدون علوا فى الأرض) أو متطاولين على الناس قاهرين بالبغى والظلم .

فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨)

البشر يكون واحداً وجمعاً : (بشراً سويا) ، (لبشرين) ، (فإمّا ترينّ من البشر) و « مثل » و « غير » يوصف بهما : الاثنان ، والجمع ، والمذكر ، والمؤنث : (إنكم إذاً مثلهم) ، (ومن الأرض مثلهنّ) ويقال أيضاً : هما مثلاه ، وهم أمثاله : (إنّ الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) . ﴿وقومهما﴾ يعنى بنى إسرائيل ، كأنهم يعبدوننا خضوعا وتذللا . أو لأنه كان يدعى الإلهية فادعى للناس العبادة ، وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)

﴿موسى الكتاب﴾ أى قوم موسى التوراة ﴿لعلهم﴾ يعملون بشرائعها ومواعظها ، كما قال : (على خوف من فرعون وملئهم) يريد آل فرعون ، وكما يقولون : هاشم ، وثقيف ، وتميم ، ويراد قومهم . ولا يجوز أن يرجع الضمير فى (لعلهم) إلى فرعون وملئه ، لأنّ التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) .

وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)

فإن قلت : لو قيل آيتين هل كان يكون له وجه ؟ قلت : نعم ، لأنّ مريم ولدت من غير مسيس ، وعيسى روح من الله ألقى إليها ، وقد تكلم فى المهد وكان يحيى الموتى مع معجزات أخر ، فكان آية من غير وجه . واللفظ محتمل للتثنية على تقدير ﴿وجعلنا ابن مريم﴾ آية ﴿وأمه﴾ آية ثم حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها . الربوة والرباوة فى رائهما الحركات . وقرئ : ربوة ورباوة ، بالضم . ورباوة بالكسر وهى الأرض المرتفعة . قيل : هى إيليا أرض بيت المقدس ، وأنها

كبد الأرض وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا : عن كعب . وقيل : دمشق وغوطتها . وعن الحسن : فلسطين والرملة . وعن أبي هريرة : الزموا هذه الرملة رملة فلسطين ، فإنها الربوة التي ذكرها الله . وقيل : مصر . والقرار : المستقر من أرض مستوية منبسطة . وعن قتادة : ذات ثمار وماء . يعني أنه لأجل الثمار : يستقر فيها ساكنوها . والمعين : الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض . وقد اختلف في زيادة ميمه وأصالته ، فوجه من جعله مفعولا أنه مدرك بالعين لظهوره ، من عانه : إذا أدركه بعينه ، نحو : ركبه ، إذا ضربه بركبته . ووجه من جعله فعيلا : أنه نفاع بظهوره وجريه ، من الماعون : وهو المنفعة ،

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما ، وكيف والرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة . وإنما المعنى : الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودى لذلك [1] ووصى به ، ليعتقد السامع أن أمرا نودى له جميع الرسل ووصوا به ، حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه . والمراد بالطيبات : ما حل وطاب . وقيل : طيبات الرزق حلال وصاف وقوام . فالحلال : الذى لا يعصى الله فيه ، والصافى : الذى لا ينسى الله فيه ، والقوام : ما يمسك النفس ويحفظ العقل . أو أريد ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه . ويشهد له مجيئه على عقب قوله (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) ويجوز أن يقع هذا الإعلام عند إيواء عيسى ومريم إلى الربوة ، فذكر على سبيل الحكاية ، أى : آويناهما وقلنا لهما هذا ، أى : أعلمناهما أن الرسل كلهم خوطبوا بهذا ، فكلا مما رزقناكما واعملا صالحا اقتداء بالرسل .

وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

قرئ : وإن ، بالكسر على الاستئناف . وأن بمعنى ولأن ، وأن مخففة من الثقيلة ، و﴿أمتكم﴾ مرفوعة معها .

---

(١) قال محمود : «هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما وكيف والرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة وإنما المعنى الاعلام بأن كل رسول في زمانه نودى بذلك» قال أحمد : هذه نفحة اعتزالية ، فان مذهب أهل السنة أن الله تعالى متكلم آمر ناه أزلا ، ولا يشترط في تحقق الأمر وجود المخاطب ، فعلى هذا قوله (كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) على ظاهره وحقيقته عند أهل الحق ، وهو ثابت أزلا على تقدير وجود المخاطبين فيما لا يزال ، متفرقين كما في هذا الخطاب ، أو مجتمعين كما في زعمه ، والمعتزلة لما أبت اعتقاد قدم الكلام زلت بهم القدم ، حتى حملوا هذه الآية وأمثالها على المجاز وخلاف الظاهر . وما بال الزمخشرى خص هذه الآية بأنها على خلاف الظاهر ، ومعتقده يوجب حمل مثل قوله تعالى (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وجميع الأوامر العامة في الأمة على خلاف الظاهر .

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

وقرئ ﴿زبرا﴾ جمع زبور، أى: كتباً مختلفة، يعنى: جعلوا دينهم أديانا، وزبراً قطعاً: استعيرت من زبر الفضة والحديد، وزبراً: مخففة الباء، كرسل فى رسل، أى: كلّ فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم، فرح بباطله، مطمئنّ النفس، معتقد أنه على الحق.

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٥٤﴾

الغمرة. الماء الذى يغمر القامة فضربت مثلا لما هم مغمورون فيه من جهلهم وعمايتهم. أو شبهوا باللاعبين فى غمرة الماء لما هم عليه من الباطل. قال:

* كَأَنَّنِي ضَارِبٌ فِي غَمْرَةٍ لَعِبُ * (١)

وعن على رضى الله عنه: فى غمراتهم ﴿حتى حين﴾ إلى أن يقتلوا أو يموتوا.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، ونهى عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره. وقرئ: يمدّهم. ويسارع، ويسرع، بالياء، والفاعل الله سبحانه وتعالى. ويجوز فى: يسارع، ويسرع: أن يتضمن ضمير الممدّ به. ويسارع، مبنياً للمفعول. والمعنى: أنّ هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصى، واستجراراً إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات، وفيما لهم فيه نفع وإكرام، ومعاجلة بالثواب قبل وقته. ويجوز أن يراد فى جزاء الخيرات كما يفعل بأهل الخير من المسلمين. و﴿بل﴾ استدراك لقوله (أيحسبون) يعنى: بل هم أشباه البهائم لا فطنة بهم ولا شعور، حتى يتأملوا ويتفكروا فى ذلك: أهو استدراج، أم مسارعة فى الخير؟ فإن قلت: أين الراجع من خبر أنّ إلى اسمها إذا لم يستكنّ فيه ضميره؟ قلت: هو محذوف تقديره: نسارع به، ويسارع به، ويسارع الله به، كقوله (إن ذلك لمن عزم الامور) أى إن ذلك منه، وذلك لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس.

---

(١) ليالى اللهو يطبينى فأتبعه كأنى ضارب فى غمرة لعب

لذى الرمة. وليالى: منصوب على الظرفية، واللهو: مبتدأ. وطباه يطبوه ويطبيه: إذا دعاه وجذبه. وطبى الناقة ثديها لجذبه عند الحلب. أى اللهو يدعونى فى ليال كثيرة فأتبعه، كأنى سابح فى لجة من الماء تغمر القامة، لعب فيها فهو خبر ثان. ويروى: لغب. بالمعجمة من اللغوب وهو المشقة. وقيل «ليالى» مضاف للجملة بعده، فهو ظرف لما قبله. وروى: اللهو بالجر. وتطبينى بالتاء، فالفاعل ضمير الليالى.

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)

﴿يؤتون ما آتوا﴾ يعطون ما أعطوا، وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائشة: يأتون ما أتوا، أي يفعلون ما فعلوا. وعنها أنها قالت: قلت يا رسول الله، هو الذى يزنى ويسرق ويشرب الخمر وهو على ذلك يخاف الله؟ قال: لا يا ابنة الصدّيق، ولكن هو الذى يصلى ويصوم ويتصدّق، وهو على ذلك يخاف الله أن لا يقبل منه [1] ﴿يسارعون فى الخيرات﴾ يحتمل معنيين، أحدهما: أن يراد يرغبون فى الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها. والثانى: أنهم يتعجلون فى الدنيا المنافع ووجوه الإكرام، كما قال (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة)، (وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) لأنهم إذا سورع بها لهم، فقد سارعوا فى نيلها وتعجلوها، وهذا الوجه أحسن طباقا للآية المتقدمة، لأن فيه إثبات ما نفى عن الكفار للمؤمنين. وقرئ: يسرعون فى الخيرات ﴿لها سابقون﴾ أى فاعلون السبق لأجلها أو سابقون الناس لأجلها. أو إياها سابقون، أي: ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم فى الدنيا. ويجوز أن يكون (لها سابقون) خبراً بعد خبر. ومعنى (وهم لها) كمعنى قوله:

* أَنْتَ لَهَا أَحْمَدُ مِنْ بَيْنِ الْبَشَرِ * [2]

---

(١) أخرجه الترمذى، وابن ماجه، وأحمد، وإسحق، وابن أبى شيبة والحاكم والبيهقى فى الشعب. من رواية عبدالرحمن بن سعيد بن وهب الهمدانى عن عائشة قالت: سألت فذكره. قال الترمذى وقد روى عن عبدالرحمن ابن سعيد عن أبى حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه. اه وهذه الطريق أخرجها الطبرى بهذا الاسناد. أن عائشة قالت: فذكره وله عنده طريق أخرى. عن عائشة فيها ليث بن أبى سليم. وهو ضعيف. وقوله وهو فى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة (يأتون ما أتوا): كأنه يشير إلى هذا الحديث. وأخرج منه ما أخرجه الحاكم. من طريق عبدالله بن عمير عن أبيه أنه سأل عائشة عن قوله تعالى (الذين يؤتون ما آتوا) كيف كان صلى الله عليه وسلم يقرؤها يؤتون: يأتون أو يؤتون؟ قالت أيهما أحب إليك؟ قال: الذين يأتون ما أتوا. قالت. أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها. وكذلك أنزلت» وفى إسناده يحيى بن راشد وهو ضعيف. وله طريق أخرى، عند أحمد من طريق أبى خلف الجمحى: أن عبيد بن عمير سأل عائشة نحوه وفيه إسماعيل بن مسلم المكى. وهو ضعيف.

(٢) قصيدة رائقة صوغتها أنت لها أحمد من بين البشر

رائقة: عالية من الحشو والتعقيد. وصوغتها ـ بالتشديد ـ للمبالغة. وأنت لها: أى أهل وكفؤ لها. وأحمد: منادى.

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾
بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾

يعنى أن هذا الذى وصف به الصالحين غير خارج من حدّ الوسع والطاقة ، وكذلك كل ما كلفه عباده وما عملوه من الأعمال فغير ضائع عنده ، بل هو مثبت لديه فى كتاب ، يريد اللوح ، أو صحيفة الأعمال ناطق بالحق لا يقرءون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق وعدل ، لا زيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم أحد . أو أراد : إن الله لا يكلف إلا الوسع ، فإن لم يبلغ المكلف أن يكون على صفة هؤلاء السابقين بعد أن يستفرغ وسعه ويبذل طاقته فلا عليه ، ولدينا كتاب فيه عمل السابق والمقتصد ، ولا نظلم أحداً من حقه ولا نحطه دون درجته . بل قلوب الكفرة فى غفلة غامرة لها ﴿من هذا﴾ أى مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين ﴿ولهم أعمال﴾ متجاوزة متخطية لذلك ، أى : لما وصف به المؤمنون ﴿هم لها﴾ معتادون وبها ضارون ، لا يفطمون عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب .

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ
إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ
أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

وحتى هذه هى التى يبتدأ بعدها الكلام ، والكلام : الجملة الشرطية ، والعذاب : قتلهم يوم بدر . أو الجوع حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف [1] » فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الجيف والكلاب والعظام المحترقة والقدّ [2] والأولاد . الجؤار : الصراخ باستغاثة قال :

ـــ ومن بين البشر : متعلق بمحذوف حال ، أى : منتخبا من بينهم . ويجوز أن أحمد أفعل تفضيل ، كذا قيل . وروى : أنت لها منذر من بين البشر داهية الدهر وصماء الغبر للأعشى الحرمازى ، وضمير لها مبهم يفسره قوله «داهية الدهر» أى الشديدة المبهمة من شدائده . والصماء الصلبة ، والغبر ـ كسبب ـ بمعنى البقية ، من غبر إذا بقى ، أو من الغبار ، أو من الظلمة . وأصل «صماء الغبر» : الحية تسكن فى منقع قرب مويهة فلا تقرب . ويضرب بها المثل . والمعنى : أنها تغشى فلا يهتدى إلى التخلص منها . ومنذر : منادى . وروى بدله : أحمد . وقيل : ضمير لها للنبوة .

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود وسيأتى تاما فى تفسير الدخان .

(٢) قوله «والقد» فى الصحاح «القد» بالكسر : سير يقد من جلد غير مدبوغ . (ع)

* جَثَّارُ سَاعَاتِ النِّيَامِ لِرَبِّهِ *

أى يقال لهم حينئذ ﴿لاتجأروا﴾ فإن الجؤار غير نافع لكم ﴿منا لا تنصرون﴾ لاتغاثون ولاتمنعون منا أو من جهتنا ، لايلحقكم نصر ومغوثة . قالوا : الضمير فى ﴿به﴾ للبيت العتيق أو للحرم ، كانوا يقولون : لايظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم . والذى سوّغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت ، وأنه لم تكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته والقائمون به . ويجوز أن يرجع إلى آياتى ، إلا أنه ذكر لأنها فى معنى كتابى . ومعنى استكبارهم بالقرآن : تكذيبهم به استكباراً . ضمن مستكبرين معنى مكذبين ، فعدّى تعديته . أو يحدث لكم استماعه استكباراً وعتوّاً ، فأنتم مستكبرون بسببه . أو تتعلق الباء بسامراً ، أى : تستمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه ، وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون ، وكانت عامّة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحراً وشعراً وسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . أو يتهجرون . والسامر : نحو الحاضر فى الإطلاق على الجمع . وقرئ : سمراً وسماراً . وتهجرون وتهجرون ، من أهجر فى منطقه إذا أفحش . والهجر - بالضم - : الفحش ، ومن هجر الذى هو مبالغة فى هجر إذا هذى . والهجر - : بالفتح الهذيان .

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَالَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠)

﴿القول﴾ القرآن ، يقول : أفلم يتدبروه ليعلموا أنه الحق المبين فيصدّقوا به وبمن جاء به ؛ بل أ ﴿جاءهم مالم يأت آباءهم﴾ فلذلك أنكروه واستبدعوه ، كقوله : (لتنذر قوما ماأنذر آباؤهم فهم غافلون) أو ليخافوا عند تدبر آياته وأقاصيصه مثل مانزل بمن قبلهم من المكذبين ، أم جاءهم من الأمن مالم يأت آباءهم حين خافوا الله فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه ؟ وآباؤهم : إسمعيل وأعقابه من عدنان وقحطان . وعن النبى صلى الله عليه وسلم « لاتسبوا مضر ولا ربيعة فإنهما كانا مسلمين ، ولاتسبوا قسا فإنه كان مسلما ، ولاتسبوا الحارث بن كعب ولا أسد بن خزيمة ولاتميم ابن مرّ . فإنهم كانوا على الإسلام ، وما شككتم فيه من شىء فلاتشكوا فى أن تبعاً كان مسلما[1] »

(١) قلت اقتصر المخرج فى عزو الجملة الأولى إلى السهيلى عن الزبير ، وتتضمن الباقى . وقد أخرجه ابن سعد والبلاذرى من طريق سعد ابن أبى أيوب عن عبدالله بن خالد أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لاتسبوا مضر فانه كان مسلما . وأما تبع فروى الفاكهى من طريق عمر بن جابر عن سهل بن سعد رفعه ، لاتسبوا =

وروى فى أنّ ضبة كان مسلما ، وكان على شرطة سليمان بن داود ﴿أم لم يعرفوا﴾ محمداً وصحة نسبه ، وحلوله فى سطة هاشم ، وأمانته ، وصدقه ، وشهامته ، وعقله ، واتسامه بأنه خير فتيان قريش ، والخطبة التى خطبها أبو طالب فى نكاح خديجة بنت خويلد ، كفى برغائها مناديا .

الجنة : الجنون وكانوا يعلمون أنه برىء منها وأنه أرجحهم عقلا وأثقبهم ذهنا ، ولكنه جاءهم بما خالف شهواتهم وأهواءهم ، ولم يوافق ما نشأوا عليه ، وسيط بلحومهم [1] ودمائهم من اتباع الباطل ، ولم يجدوا له مردّا ولا مدفعا لأنه الحق الأبلج والصراط المستقيم ، فأخلدوا إلى البهت وعوّلوا على الكذب من النسبة إلى الجنون والسحر والشعر . فإن قلت : قوله ﴿وأكثرهم﴾ فيه أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق . قلت : كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافا من توبيخ قومه وأن يقولوا صبأ وترك دين آبائه ، لا كراهة للحق ، كما يحكى عن أبى طالب [2]. فإن قلت : يزعم بعض الناس أنّ أبا طالب صحّ إسلامه . قلت : يا سبحان الله ، كأن أبا طالب كان أخمل أعمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى يشتهر إسلام حمزة والعباس رضى الله عنهما ، ويخفى إسلام أبى طالب .

= تبعا فانه قد أسلم . وأخرجه الحاكم من طريق ابن جريج عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : «كان تبع رجلا صالحا . الحديث» موقوف . وقوله : والخطبة التى خطبها أبو طالب فى نكاح خديجة بنت خويلد رضى الله عنها كفى برغائها مناديا : قلت نص له أيضا .

(١) قوله «وسيط بلحومهم» أى : وخلط . (ع)

(٢) قال محمود : «فان قلت أكثرهم يعطى أن أقلهم لا يكره الحق ، وكيف ذلك والكل كفرة ؟ قلت : فيهم من أبى الاسلام حذرا من مخالفة آبائه ومن أن يقال صبأ كأبى طالب ، لا كراهة للحق» قال أحمد : وأحسن من هذا أن يكون الضمير فى قوله : (وأكثرهم) على الجنس للناس كافة ، ولما ذكر هذه الطائفة من الجنس بنى الكلام فى قوله (وأكثرهم) على الجنس بجملته ، كقوله (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) وكقوله (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) ويدل على ذلك قوله تعالى (بل جاءهم بالحق) والنبى صلى الله عليه وسلم جاء الناس كلهم وبعث إلى الكافة . ويحتمل أن يحمل الأكثر على الكل كما حمل القليل على النفى والله أعلم . وأما قول الزمخشرى - : إن من تمادى على الكفر وآثر البقاء عليه تقليدا لآبائه ، ليس كارها للحق - فردود ، فان من أحب شيئا كره ضده ، فاذا أحبوا البقاء على الكفر فقد كرهوا الانتقال عنه إلى الايمان ضرورة ، والله أعلم ، ثم انجر الكلام إلى استبعاد إيمان أبى طالب . وتحقيق القول فيه أنه مات على الكفر ، ووجه ذلك بأنه أشهر عمومة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلو كان قد أسلم لاشتهر إسلامه ، كما اشتهر إسلام العباس وحمزة وأجدر لأنه أشهر ، وللقائل باسلامه أن يعتذر عن عدم شهرته بأنه إنما أسلم قبيل الاحتضار ، فلم يظهر له مواقف فى الاسلام يشتهر بها كما ظهر لغيره من عمومته عليه الصلاة والسلام . هذا والظاهر أنه لم يسلم . وحسبك دليلا على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : سألت الله تعالى فيه ، وأنه بعد ذلك لفى ضحضاح من نار يغلى رأسه من قدميه . فان قيل : لا يلزم من ذلك موته على الكفر ؛ لأن كثيرا من عصاة الموحدين يعذب بأكثر من ذلك . قلنا : من أثبت إسلامه ادعى أن ذلك كان قبيل الاحتضار ، فالاسلام جب ما قبله ، وتلك الدقيقة التى صار فيها من المسلمين لا تحتمل من المعاصى ما يوجب ذلك ، والله أعلم .

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١)

دل بهذا على عظم شأن الحق ، وأنّ السموات والأرض ماقامت ولامن فيهن إلا به ، فلو اتبع أهواءهم لانقلب باطلا ، ولذهب مايقوم به العالم فلا يبقى له بعده قوام . أو أراد أنّ الحق الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وهو الإسلام ، لو اتبع أهواءهم وانقلب شركا ، لجاء الله بالقيامة ولأهلك العالم ولم يؤخر . وعن قتادة : أنّ الحق هو الله . ومعناه : ولوكان الله إلها يتبع أهواءهم ويأمر بالشرك والمعاصى ، لما كان إلها ولكان شيطانا ، ولما قدر أن يمسك السموات والأرض ﴿بذكرهم﴾ أى بالكتاب الذى هو ذكرهم ، أى : وعظهم أو وصيتهم وفخرهم : أو بالذكر الذى كانوا يتمنونه ويقولون : لو أنّ عندنا ذكرا من الأوّلين لكنا عباد الله المخلصين . وقرئ : بذكراهم .

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢)

قرئ : خراجا فخراج . وخرجا فخرج . وخرجا فخراج : وهو ماتخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك ، وإلى كل عامل من أجرته وجعله . وقيل : الخرج : ماتبرعت به . والخراج : مالزمك أداؤه . والوجه أنّ الخرج أخص من الخراج ، كقولك : خراج القرية ، وخرج الكردة ، زيادة اللفظ لزيادة المعنى ؛ ولذلك حسنت قراءة من قرأ : خرجا فخراج ربك ، يعنى : أم تسألهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق ، فالكثير من عطاء الخالق خير .

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤)

قد ألزمهم الحجة فى هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله ، مخبور سرّه وعلنه ، خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم ، وأنه لم يعرض له[١] حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ، ولم يجعل ذلك سلما إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم ، مع إبراز المكنون من أدوائهم وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل ، واستهتارهم[٢] بدين الآباء الضلال من

(١) قوله «لم يعرض» لعله : لم يعرض له جنون . (ع)

(٢) قوله «واستهتارهم بدين الآباء الضلال» فى الصحاح : فلان مستهتر بالشراب ، أى : مولع به لايبالى ماقيل فيه . (ع)

غير برهان ، وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة ، وكراهتهم للحق ، وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر ، يحتمل أنّ هؤلاء وصفتهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة ﴿لناكبون﴾ أى عادلون عن هذا الصراط المذكور ، وهو قوله (إلى صراط مستقيم) وأن كل من لا يؤمن بالآخرة فهو عن القصد ناكب . لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة ومنع الميرة من أهل مكة وأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز[١]، جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين فقال : بلى . فقال قتلت الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع .

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)

والمعنى : لو كشف الله عنهم هذا الضرّ وهو الهزال والقحط الذى أصابهم برحمته عليهم ووجدوا الخصب ، لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وإفراطهم فيها ، ولذهب عنهم هذا الإبلاس وهذا التملق بين يديه ويسترحمونه ، واستشهد على ذلك بأنا أخذناهم أوّلا بالسيوف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم ، فما وجدت منهم بعد ذلك استكانة ولا تضرع ، حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذى هو أشدّ من الأسر والقتل وهو أطم العذاب ، فأبلسوا الساعة وخضعت رقابهم ، وجاء أعتاهم وأشدهم شكيمة فى العناد يستعطفك . أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رؤى فيهم لين مقادة وهم كذلك ، حتى إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون ، كقوله (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) ، (لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) . والإبلاس : اليأس من كل خير . وقيل : السكوت مع التحير . فإن قلت : ما وزن استكان ؟ قلت : استفعل من الكون[٢] ، أى : انتقل من كون

(١) قوله «حتى أكلوا العلهز» فى الصحاح «العلهز» بالكسر : طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير فى سنى المجاعة . (ع)

(٢) قال محمود : «واستكان استفعل من الكون ، أى : انتقل من كون إلى كون ، كما يقال : استحال ، إذا انتقل من حال إلى حال» قال أحمد : هذا التأويل أسلم وأحق من تأويل من اشتقه من السكون وجعله افتعل ، ثم أشبعت الفتحة فتولدت الألف كتولدها فى قوله * ينباع من ذفرى غضوب جسرة * فان هذا الاشباع ليس بفصيح ، وهو من ضرورات الشعر ، فينبغى أن ترفع منزلة القرآن عن ورود مثله فيه ، لكن تنظير الزمخشرى له باستحال : وهم ، فان استكان على تأويله أحد أقسام استفعل ، الذى معناه التحول ، كقولهم : استحجر الطين ، =

إلى كون ، كما قيل : استحال ، إذا انتقل من حال إلى حال . ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه ، كما جاء : بمنتزاح [1] . فإن قلت : هلا قيل : وما تضرعوا . أو : فما يستكينون ؟ قلت : لأنّ المعنى : محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة . وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد . وقرئ : فتحنا .

وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠)

إنما خصّ السمع والأبصار والأفئدة ، لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها . ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم فى آيات الله وأفعاله ، ثم ينظروا

= واستنوق الجمل . وأما استحال فثلاثيه حال يحول ، إذا انتقل من حال إلى حال ، وإذا كان الثلاثى يفيد معنى التحول لم يبق لصيغة استفعل فيها أثر ، فليس استحال من استفعل للتحول . ولكنه من استفعل بمعنى فعل ، وهو أحد أقسامه ، إذ لم يزد السداسى فيه على الثلاثى معنى ، والله أعلم . ثم نعود إلى تأويله فنقول : المعنى عليه : فما انتقلوا من كون التكبر والتجبر والاعتياص إلى كون الخضوع والضراعة إلى الله تعالى . ولقائل أن يقول : استكان يفيد على التأويل المذكور الانتقال من كون إلى كون ، فليس حمله على أنه انتقال عن التكبر إلى الخضوع بأولى من العكس . وترى هذه الصيغة لا تفهم إلا أحد الانتقالين ، فلو كانت مشتقة من مطلق الكون لكانت مجملة محتملة للانتقالين جميعا . والجواب أن أصلها كذلك على الاطلاق ، ولكن غلب العرف على استعمالها فى الانتقال الخاص كما غلب فى غيرها ، والله أعلم . وكان جدى أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير رحمه الله يذكر لى أنه لما دخل بغداد زمن الامام الناصر رضى الله عنه ، أظهر من جملة كراماته له : أن جمع له الوزير جميع علماء بغداد وعقد بهم محفلا للمناظرة ، وكان يذكر لى أن مما انجر الكلام إليه حينئذ هذه الآية ، وأن أحدهم وكان يعرف بالأجل اللغوى خصه الوزير بالسؤال عنها فقال : وهو مشتق من قول العرب : كنت لك إذا خضعت ، وهى لغة هذلية فاستحسن منه ذلك . قال أحمد : وقد وقفت عليها بعد ذلك فى غريب أبى عبيد المروى وهو أحسن محامل الآية وأسلها ، والله أعلم . وعلى هذا يكون من استفعل بمعنى فعل ، كقولهم : استقر واستعلى ، وحال واستحال على ما مر . وقد قال لى بعضهم يوما : لم لا تجعله على هذا التأويل من استفعل المبنى للمبالغة . مثل استحسر واستعصم من حسر وعصم ، فقلت : لا يسعنى ذلك : لأن المعنى يأباه ، وذلك أنها جاءت فى النفى والمقصود منها ذم هؤلاء بالجفوة والقسوة وعدم الخضوع ، مع ما يوجب نهاية الضراعة من أخذهم بالعذاب . فلو ذهبت إلى جعلها للمبالغة أفادت نقص المبالغة ، لأن نفى الأبلغ أدنى من نفى الأدنى . وكأنهم على ذلك ذموا بنفى الخضوع الكثير ، وأنهم ما بلغوا فى الضراعة نهايتها ، وليس الواقع ؛ فإنهم ما اتسموا بالضراعة ولا بلمظة منها ، فكيف تنفى عنهم النهاية الموهمة لحصول البداية ، والله أعلم .

(١) قوله «كما جاء بمنتزاح» أى فى قوله :

وأنت من الغوائل حين ترمى ... وعن ذم الرجال بمنتزاح ... اه عليان

قلت : وقد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٤٦٤ فراجعه إن شئت اه مصححه .

ويستدلوا بقلوبهم . ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها ، كما قال الله تعالى (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها ، وأن لا يجعل له ند ولا شريك ، أي : تشكرون شكرا قليلا ، و ﴿ما﴾ مزيدة للتأكيد بمعنى حقاً ﴿ذرأكم﴾ خلقكم وبثكم بالتناسل ﴿وإليه﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ أي هو مختص به وهو متوليه ، ولا يقدر على تصريفهما غيره . وقرئ : يعقلون ، بالياء عن أبي عمرو .

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَاقَالَ الأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَـٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣)

أي : قال أهل مكة كما قال الكفار قبلهم . الأساطير : جمع أسطار : جمع سطر . قال رؤبة :

* إِنِّي وَأَسْطَارٍ سُطِرْنَ سَطْرَا * (١)

وهي ما كتبه الأولون مما لا حقيقة له . وجمع أسطورة أوفق .

قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩)

---

(١) إني وأسطار سطرن سطرا لقائل يانصر نصر نصرا

لرؤبة بن العجاج . والمراد بالأسطار : الكتابة ، وهي جمع سطر بالتحريك ، وأصله مصدر كالساكن الوسط . وسطرن : مبني للمجهول . وسطراً : مصدر . ولقائل : خبر «إني» ومابينهما جملة قسمية اعتراضية . ونصر : مبني على الضم ، وهو ابن سيار ملك خراسان . ونصر الثاني توكيد لفظي ، مرفوع على اللفظ . والثالث كذلك نصب على المحل لأنه كان مفردا معرفة لأنه تابع . أوهو مصدر نائب عن فعله . أي انصرني نصرا . وقيل «نضر» الثاني بالضاد المعجمة على أنه علم لصاحب نصر الأول ، فهو على حذف العاطف . عن أبي عبيدة : والمنقول أن الذي بالضاد المعجمة هو الثالث ، كان حاجبا لنصر ، واشتكاه له الشاعر فنصبه على الاغراء . والمعنى على الأول : وحق الكتاب المسطور إني لمستغيث به لابغيره

أى أجيبونى عما استعلمتكم منه [1] إن كان عندكم فيه علم ، وفيه استهانة بهم وتجويز لفرط جهالتهم بالديانات : أن يجهلوا مثل هذا الظاهر البين . وقرئ : تذكرون ، بحذف التاء الثانية [2] ومعناه : أفلا تتذكرون فتعلموا أنّ من فطر الأرض ومن فيها اختراعا ، كان قادراً على إعادة الخلق ، وكان حقيقاً بأن لا يشرك به بعض خلقه فى الربوبية . قرئ : الأوّل ، باللام لاغير . والأخيران باللام ، وهو هكذا فى مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام ، وبغير اللام وهو هكذا فى مصاحف أهل البصرة ، فباللام على المعنى ؛ لأن قولك من ربه ، ولمن هو فى معنى واحد ، وبغير اللام على اللفظ . ويجوز قراءة الأوّل بغير لام ، ولكنها لم تثبت فى الرواية ﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تخافونه فلا تشركوا به وتعصوا رسله . أجرت فلانا على فلان : إذا أغثته منه ومنعته ، يعنى : وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ، ولا يغيث أحد منه أحدا ﴿تسحرون﴾ تخدعون عن توحيده وطاعته . والخادع : هو الشيطان والهوى .

بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

وقرئ : أتيتهم وأُتيتهم ، بالفتح والضم ﴿بالحق﴾ بأن نسبة الولد إليه محال والشرك باطل ﴿وإنهم لكاذبون﴾ حيث يدعون له ولدا ومعه شريكا ﴿لذهب كل إله بما خلق﴾ لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذى خلقه واستبدّ به ، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزا من ملك الآخرين ، ولغلب بعضهم بعضاً كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة وهم متغالبون ، وحين لم تروا أثرا لتمايز الممالك وللتغالب ، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء . فإن قلت : إذا لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب ، فكيف وقع قوله لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل ؟ قلت : الشرط محذوف تقديره : ولو كان معه آلهة . وإنما حذف لدلالة قوله : (وما كان معه من إله) عليه . وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين ﴿عما يصفون﴾ من الأنداد والأولاد ﴿عالم الغيب﴾ بالجرّ صفة لله . وبالرفع : خبر مبتدإ محذوف .

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾

(١) قوله «عما استعلمتكم منه» لعله «عنه» . (ع)

(٢) قوله « وقرئ (تذكرون) بحذف التاء الثانية » يفيد أن القراءة المشهورة (تذكرون) بالتشديد . (ع)

ما والنون : مؤكدتان ، أى : إن كان لا بد من أن ترينى ما تعدهم من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة ﴿فلا تجعلنى﴾ قرينا لهم ولا تعذبنى بعذابهم . عن الحسن : أخبره الله أن له فى أمته نقمة ولم يخبره أفى حياته أم بعد موته ، فأمره أن يدعو بهذا الدعاء . فإن قلت : كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين ، حتى يطلب أن لا يجعله معهم ؟ قلت : يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله ، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله ، إظهاراً للعبودية وتواضعاً لربه ، وإخباتا له . واستغفاره صلى الله عليه وسلم إذا قام من مجلسه سبعين مرة أو مائة مرة لذلك ، وما أحسن قول الحسن فى قول أبى بكر الصديق رضى الله عنهما : وليتكم ولست بخيركم : كان يعلم أنه خيرهم ، ولكن المؤمن يهضم نفسه . وقرئ : إما ترئنهم ، بالهمز [1] مكان ترينى ؛ كما قرئ : فإما ترئن ، ولترؤن الجحيم . وهى ضعيفة . وقوله (رب) مرتين قبل الشرط وقبل الجزاء ، حث على فضل تضرع وجؤار . كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه واستعجالهم له لذلك ، فقيل لهم : إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملتم ، فما وجه هذا الإنكار ؟

ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾

هو أبلغ من أن يقال : بالحسنة السيئة ، لما فيه من التفضيل ، كأنه قال : ادفع بالحسنى السيئة . والمعنى : الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان ، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه : كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة . وهذه قضية قوله (بالتى هى أحسن) [2] وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هى شهادة أن لا إله إلا الله . والسيئة : الشرك .

---

(١) قوله «وقرئ إماترئنهم بالهمزة» فى نسخة أخرى : إما ترئنى بالهمز ، كما قرئ ... الخ ، (ع)

(٢) قال محمود : «هذا أبلغ من أن يقال : ادفع بالحسنة السيئة ، لما فيه من التفضيل كأنه قال : ادفع بالحسنى السيئة ، والمعنى : الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الاحسان ، حتى إذا اجتمع الصفح والاحسان وبذل الاستطاعة فيه ، كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة ، وهذه قضية قوله : بالتى هى أحسن» قال أحمد : ماذكره تقريرا للمفاضلة عبارة عن الاشتراك فى أمر والتميز بغيره ، ولا اشتراك بين الحسنة والسيئة ؛ فانهما ضدان متقابلان ، فكيف تتحقق المفاضلة ؟ قلت : المراد أن الحسنة من باب الحسنات ، أزيد من السيئة من باب السيئات ، فتجىء المفاضلة عما هو أعم من كون هذه حسنة وهذه سيئة . وذلك شأن كل مفاضلة بين ضدين ، كقولهم : العسل أحلى من الخل ، يعنون أنه فى الأصناف الحلوة أميز من الخل فى الأصناف الحامضة . وليس لأن بينهما اشتراكا خاصا . ومن هذا القبيل مايحكى عن أشعب الماجن أنه قال . نشأت أنا والأعمش فى حجر فلان ، فما زال يعلو وأسفل حتى استوينا ، بمعنى أنهما استويا فى بلوغ كل منهما الغاية : أشعب بلغ الغاية على السفلة . والأعمش : بلغ الغاية على العلية ، هذا تفسير كلامه عن نفسه ، ونعود إلى الآية فنقول : هى تحتمل وجها آخر من التفضيل أقرب متناولا : وهو أن تكون المفاضلة بين الحسنات التى تدفع بها السيئة ، فانها قد تدفع بالصفح والاغضاء ، ويقتنع فى دفعها بذلك ، وقد يزاد على الصفح الاكرام وقد تبلغ غايته ببذل الاستطاعة ، فهذه الأنواع من الدفع كلها دفع بحسنة ، ولكن أحسن هذه الحسنات فى الدفع هى الأخيرة ، لاشتمالها على عدد من الحسنات ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم =

وعن مجاهد : السلام : يسلم عليه إذا لقيه . وعن الحسن : الإغضاء والصفح . وقيل : هى منسوخة بآية السيف . وقيل : محكمة ؛ لأنّ المداراة محثوث عليها ما لم تؤدّ إلى ثلم دين وإزراء بمروءة ﴿بما يصفون﴾ بما يذكرونه من أحوالك بخلاف صفتها . أو بوصفهم لك وسوء ذكرهم ، والله أعلم بذلك منك وأقدر على جزائهم .

وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨)

الهمز : النخس . والهمزات : جمع المرّة منه . ومنه : مهماز الرائض . والمعنى أنّ الشياطين يحثون الناس على المعاصى ويغرونهم عليها ، كما تهمز الراضة الدواب حثاً لها على المشى . ونحو الهمز الأزّ فى قوله تعالى (تؤزهم أزّاً) أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه ، المكرر لندائه ، وبالتعوذ من أن يحضروه أصلا ويحوموا حوله . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : عند تلاوة القرآن . وعن عكرمة : عند النزع .

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)

﴿حتى﴾ يتعلق بيصفون ، أى : لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقف . والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم ، مستعيناً بالله على الشيطان أن يستزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم . أو على قوله : وإنهم لكاذبون [1] . خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم ، كقوله :

* فَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ * [2]

وقوله : * أَلَا فَارْحَمُونِي يَا إِلَـٰهَ مُحَمَّدٍ * [3]

═ بأحسن الحسنات فى دفع السيئة . فعلى هذا تجرى المفاضلة على حقيقتها من غير حاجة إلى تأويل ، والله أعلم . فتأمله فإنه حسن جدا .

(١) قوله « أو على قوله : وإنهم لكاذبون » لعله عطف على المعنى ، فكأنه قال فيما مر : حتى رد على قوله (يصفون) . فقال هنا : أوعلى قوله (وإنهم لكاذبون) . (ع)

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٣٨٣ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٣) ألا فارحمونى يا إله محمد فان لم أكن أهلا فأنت له أهل

«ألا» استفتاحية دالة على الاهتمام بما يعقبها من الكلام ، وخاطب الاله الواحد الأحد بخطاب الجمع جريا على ═

إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر ، أدركته الحسرة على ما فرّط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه ، فسأل ربه الرجعة وقال ﴿لعلى أعمل صالحاً﴾ فى الإيمان الذى تركته ، والمعنى : لعلى آتى بما تركته من الإيمان ، وأعمل فيه صالحاً ، كما تقول : لعلى أبنى على أس ، تريد : أأسس أسا وأبنى عليه : وقيل : فيما تركت من المال . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : «إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك إلى الدنيا ، فيقول : إلى دار الهموم والأحزان ! بل قدوما إلى الله . وأمّا الكافر فيقول : رب ارجعون» ﴿كلا﴾ ردع عن طلب الرجعة ، وإنكار واستبعاد . والمراد بالكلمة : الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض ، وهى قوله : (لعلى أعمل صالحاً فيما تركت) . ﴿هو قائلها﴾ لا محالة ، لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه وتسلط الندم . أو هو قائلها وحده لا يجاب إليها ولا تسمع منه ﴿ومن ورائهم برزخ﴾ والضمير للجماعة ، أى : أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث ، وليس المعنى : أنهم يرجعون يوم البعث ، وإنما هو إقناط كلى لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة .

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)

الصور ـ بفتح الواو ـ عن الحسن . والصور ـ بالكسر والفتح ـ عن أبى رزين . وهذا دليل لمن فسر الصور بجمع الصورة . ونفى الأنساب : يحتمل أنّ التقاطع يقع بينهم حيث يتفرقون معاقبين ومثابين ، ولا يكون التواصل بينهم والتألف إلا بالأعمال ، فتلغوا الأنساب وتبطل ، وأنه لا يعتدّ بالأنساب لزوال التعاطف والتراحم بين الأقارب ، إذ يفرّ المرء من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه . وعن ابن مسعود : ولا يساءلون ، بإدغام التاء فى السين . فإن قلت : قد ناقض هذا ونحو قوله (ولا يسئل حميم حميما) قوله : (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) [(١)] وقوله (يتعارفون بينهم) فكيف التوفيق بينهما ؟ قلت : فيه جوابان ، أحدهما : أنّ يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة ، ففيه أزمنة وأحوال مختلفة يتساءلون ويتعارفون فى بعضها ، وفى

ـــ عادة العرب من خطاب السادة والملوك بذلك تعظيما . وقيل : هو إشارة إلى تكرار الفعل للتوكيد ، كأنه قيل : ارحمنى ارحمنى ، وإضافته إلى محمد صلى الله عليه وسلم للتوسل به إلى الله عز وجل ، فان لم أكن أهلا لهذا الطلب أوالمطلوب من الرحمة والرفق ، فأنت ياألله أهل له .

(١) قال محمود : «وإن قلت قد ناقض هذا قوله : فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون» قال أحمد : يجب أن لايسلك هذا المسلك فى إيراد الأسئلة عن فوائد الكتاب العزيز الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . وسؤال الأدب أن يقال : قصر فهمي عن الجمع بين هاتين الآيتين ، فما وجهه ؟ ولو سأل سائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن شيء من كتاب الله تعالى بهذه الصيغة لأوجع ظهره بالدرة .

بعضها لا يفطنون لذلك لشدة الهول والفزع[١] . والثانى : أنّ التناكر يكون عند النفخة الأولى ، فإذا كانت الثانية قاموا فتعارفوا وتساءلوا .

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)

عن ابن عباس : الموازين : جمع موزون ؟ وهى الموزونات من الأعمال : أى الصالحات ، التى لها وزن وقدر عند الله ، من قوله تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) . ﴿ فى جهنم خالدون ﴾ بدل من خسروا أنفسهم ، ولا محل للبدل والمبدل منه ؛ لأن الصلة لا محل لها . أو خبر بعد خبر لأولئك . أو خبر مبتدإ محذوف ﴿ تلفح ﴾ تسفع . وقال الزجاج : اللفح والنفح واحد ، إلا أن اللفح أشدّ تأثيراً . والكلوح : أن تتقلص الشفتان وتتشمرا عن الأسنان ، كما ترى الرءوس المشوية . وعن مالك بن دينار : كان سبب توبة عتبة الغلام أنه مرّ فى السوق برأس أخرج من التنور فغشى عليه ثلاثة أيام ولياليهن . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخى شفته السفلى حتى تبلغ سرته »[٢] وقرئ : كلحون .

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)

﴿ غلبت علينا ﴾ ملكتنا ، من قولك : غلبنى فلان على كذا ، إذا أخذه منك وامتلكه . والشقاوة سوء العاقبة التى علم الله أنهم يستحقونها بسوء أعمالهم . قرئ ﴿ شقوتنا ﴾ وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها فيهما ﴿ اخسئوا فيها ﴾ ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت . يقال : خسأ الكلب وخسأ بنفسه[٣] . ﴿ ولا تكلمون ﴾ فى رفع العذاب ، فإنه لا يرفع ولا يخفف . قيل : هو

(١) عاد كلامه إلى جواب السؤال . قال : « وجه الجمع بينهما أن يحمل ذلك على اختلاف موقف القيامة » قال أحمد : وكثيراً ماينتهز الزمخشرى الفرصة فى إنكار الشفاعة ويشمر ذيله للرد على القائلين بها إذا انتهى إلى مثل قوله (ولا تنفعها شفاعة) ، (لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) . ويتغافل حينئذ عن طريق الجمع بين ماظاهره نفى الشفاعة وبين ماظاهره ثبوتها ، بحمل الأمر على اختلاف الأحوال فى القيامة ، والله الموفق .

(٢) أخرجه الترمذى وأحمد والبيهقى فى الشعب من رواية أبى السمح عن الهيثم بن أبى سعيد .

(٣) قوله « يقال خسأ الكلب ... الخ » فى الصحاح : خسأت الكلب وخسأ بنفسه : يتعدى ولا يتعدى . (ع)

آخر كلام يتكلمون به ، ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون . وعن ابن عباس : إنّ لهم ست دعوات : إذا دخلوا النار قالوا ألف سنة : (ربنا أبصرنا وسمعنا) فيجابون : (حق القول مني) ، فينادون ألفاً (ربنا أمتنا اثنتين) ، فيجابون : (ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم) ، فينادون ألفاً : (يامالك ليقض علينا ربك) ، فيجابون :(إنكم ماكثون) : فينادون ألفا : (ربنا أخرنا) ، فيجابون : (أو لم تكونوا) ، فينادون ألفاً : (ربنا أخرجنا نعمل صالحا) ، فيجابون : (أولم نعمركم) ، فينادون ألفاً : (رب ارجعون) ، فيجابون : (اخسؤا فيها) .

إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾

في حرف أبيّ : أنه كان فريق ، بالفتح ، بمعنى : لأنه .

السخريّ ـ بالضم والكسر ـ : مصدر سخر كالسخر ، إلا أن في ياء النسب زيادة قوة في الفعل ، كما قيل الخصوصية في الخصوص . وعن الكسائي والفراء : أنّ المكسور من الهزء ، والمضموم من السخرة والعبودية ، أي : تسخروهم واستعبدوهم ، والأول مذهب الخليل وسيبويه . قيل : هم الصحابة وقيل أهل الصفة خاصة . ومعناه : اتخذتموهم هزؤا وتشاغلتم بهم ساخرين ﴿حتى أنسوكم﴾ بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ﴿ذكري﴾ فتركتموه ، أي : تركتم أن تذكروني فتخافوني في أوليائي . وقرئ ﴿أنهم﴾ بالفتح ، فالكسر استئناف ، أي : قد فازوا حيث صبروا ، فجزوا بصبرهم أحسن الجزاء . وبالفتح على أنه مفعول جزيتهم ، كقولك : جزيتهم فوزهم .

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾

﴿قال﴾ في مصاحف أهل الكوفة . وقل : في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام ؛ ففي (قال) ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة ، وفي (قل) ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار .

استقصروا مدّة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها ، لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ويستقصر مامرّ عليه من أيام الدعة إليها . أو لأنهم كانوا في سرور ، وأيام السرور قصار ، أو لأنّ المنقضي في حكم مالم يكن ، وصدقهم الله في تقالهم لسني لبثهم في الدنيا ووبخهم

على غفلتهم التى كانوا عليها . وقرئ ﴿فسل العادين﴾ والمعنى : لانعرف من عدد تلك السنين إلا أنا نستقله ونحسبه يوما أو بعض يوم ؛ لما نحن فيه من العذاب ، ومافينا أن نعدّها ، فسل من فيه أن يعدّ ، ومن يقدر أن يلقى إليه فكره . وقيل : فسل الملائكة الذين يعدّون أعمار العباد ويحصون أعمالهم . وقرئ : العادين ، بالتخفيف ، أى : الظلمة ، فإنهم يقولون كما نقول . وقرئ : العاديين ، أى : القدماء المعمرين ، فإنهم يستقصرونها ، فكيف بمن دونهم ؟ وعن ابن عباس : أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين .

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

﴿عبثا﴾ حال ، أى : عابثين ، كقوله (لاعبين) أو مفعول له ، أى : ما خلقناكم للعبث ، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك ، وهى : أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصى ، ثم نرجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء ، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء ﴿وأنكم إلينا لاترجعون﴾ معطوف على (أنما خلقناكم) ويجوز أن يكون معطوفا على (عبثاً) أى : للعبث ، ولترككم غير مرجوعين . وقرئ (ترجعون) بفتح التاء[1] ﴿الحق﴾ الذى يحق له الملك ؛ لأن كل شيء منه وإليه . أو الثابت الذى لايزول ولايزول ملكه . وصف العرش بالكرم لأن الرحمة تنزل منه والخير والبركة . أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين ، كما يقال : بيت كريم ، إذا كان ساكنوه كراما . وقرئ . الكريم ، بالرفع . ونحوه : (ذو العرش المجيد) . ﴿لا برهان له به﴾ كقوله (مالم ينزل به سلطاناً) وهى صفة لازمة ، نحو قوله (يطير بجناحيه) جيء بها للتوكيد لا أن يكون فى الآلهة مايجوز أن يقوم عليه برهان[2] . ويجوز أن يكون اعتراضا بين الشرط

(١) قوله «وقرئ ترجعون بفتح التاء» عبارة النسفى : بفتح التاء وكسر الجيم . (ع)

(٢) قال محمود : «لا برهان له به : إماصفة لازمة ، أو كلام معترض لأن فى الصفة إنهاما لأن إلها سوى الله يمكن أن يكون به برهان» قال أحمد : إن كان صفة فالمقصود بها التهكم بمدعى إله مع الله ، كقوله (بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا) فنفى إنزال السلطان به وإن لم يكن فى نفس الأمر سلطان لامنزل ولا غير منزل ، ومن جنس مجيء الجملة بعد النكرة وصرفها عن أن تكون صفة لها : ماقدمه عند قوله تعالى (فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه نحن ولا أنت) حيث أعرب الزمخشرى موعداً مصدراً ناصبا لمكاناً سوى ، واعترضه بأن المصدر الموصوف لايعمل إلا على كره ، واعتذرت عنه بصرف الجملة عن أن تكون صفة وجعلها معترضة مؤكدة لمعنى الكلام ، والله أعلم .

والجزاء، كقولك : من أحسن إلى زيد لا أحق بالإحسان منه ، فالله مثيبه . وقرئ : أنه لا يفلح بفتح الهمزة . ومعناه : حسابه عدم الفلاح ، والأصل : حسابه أنه لا يفلح هو ، فوضع الكافرون موضع الضمير ؛ لأنّ (من يدع) في معنى الجمع ، وكذلك (حسابه ... أنه لا يفلح) في معنى «حسابهم أنهم لا يفلحون» .

جعل فاتحة السورة (قد أفلح المؤمنون) وأورد في خاتمتها (إنه لا يفلح الكافرون) فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة المؤمنون بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقرّ به عينه عند نزول ملك الموت»[1] .

وروى : أنّ أوّل سورة قد أفلح وآخرها من كنوز العرش ، من عمل بثلاث آيات من أوّلها ، واتعظ بأربع آيات من آخرها : فقد نجا وأفلح[2]

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى يسمع عنده دوىّ كدوىّ النحل ، فمكثنا ساعة ، فاستقبل القبلة ورفع يده وقال : «اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا» ثم قال «لقد أنزلت علىّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة» ثم قرأ : (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر[3] .

---

(١) تقدمت أسانيده .

(٢) لم أجده .

(٣) أخرجه الترمذي والنسائي ، وعبدالرزاق ، والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة ، وعبد . كلهم من رواية يونس بن سليم الصنعاني عن يونس عن الزهري عن عروة عن عبدالرحمن بن عبد عن عمر . قال النسائي : هذا حديث منكر . تفرد به يونس بن سليم ولا أعرفه . وقال ابن أبي حاتم عن أبيه لا أعرفه ولا أعرف هذا الحديث عن الزهري وقال الترمذي (*) : وقال العقيلي لا يتابع عليه يونس بن سليم ولا يعرف إلا به ، وبنحوه قال ابن عدي . وسئل عبدالرزاق عن شيخه يونس بن سليم هذا فقال : أظنه لا شيء .

(*) كذا بياض بالأصل

ســـورة النور

مدنية ، وهي اثنتان وستون آية . وقيل : أربع وستون [نزلت بعد الحشر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)

﴿سورة﴾ خبر مبتدإ محذوف . و ﴿أنزلناها﴾ صفة . أوهي مبتدأ موصوف والخبر محذوف ، أى : فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها . وقرئ بالنصب على : زيدا ضربته ، ولا محل لأنزلناها ، لأنها مفسرة للمضمر فكانت في حكمه . أو على : دونك سورة أو اتل سورة . وأنزلناها : صفة . ومعنى ﴿فرضناها﴾ فرضنا أحكامها التي فيها . وأصل الفرض : القطع ، أى : جعلناها واجبة مقطوعا بها ، والتشديد للمبالغة في الإيجاب وتوكيده . أو لأن فيها فرائض شتى ، وأنك تقول : فرضت الفريضة ، وفرضت الفرائض . أو لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم ﴿تذكرون﴾ بتشديد الذال وتخفيفها ، رفعهما على الابتداء ، والخبر محذوف عند الخليل وسيبويه ، على معنى : فيما فرض عليكم .

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)

﴿الزانية والزاني﴾ أى جلدهما . ويجوز أن يكون الخبر : (فاجلدوا) ، وإنما دخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى الذى وتضمينه معنى الشرط [١] ، تقديره : التي زنت ، والذى زنى

---

(١) قال محمود : « في الرفع وجهين ، أحدهما : الابتداء والخبر محذوف ، وهو إعراب الخليل وسيبويه . والتقدير : وفيما فرض عليكم الزانية والزاني ، أى : جلدهما . الثاني : أن يكون الخبر فاجلدوا ، ودخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى الذى وقد ضمن معنى الشرط » قال أحمد : وإنما عدل سيبويه إلى هذا الذى نقله عنه لوجهين : لفظي ومعنوي . أما اللفظي فلأن الكلام أمر وهو يخيل اختيار النصب ، ومع ذلك قراءة العامة ، فلو جعل فعل الأمر خبرا وبنى المبتدأ عليه لكان خلاف المختار عند الفصحاء ، فالتجأ إلى تقدير الخبر حتى لا يكون المبتدأ مبنيا على الأمر ، فخلص من مخالفة الاختيار ، وقد مثلهما سيبويه في كتابه بقوله تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون =

فاجلدوهما ، كما تقول : من زنى فاجلدوه ، وكقوله (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم) وقرئ بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر ، وهو أحسن من سورة أنزلناها لأجل الأمر . وقرئ : والزان ، بلا ياء . والجلد : ضرب الجلد ، يقال : جلده ، كقولك : ظهره وبطنه ورأسه . فإن قلت : أهذا حكم جميع الزناة والزواني ، أم حكم بعضهم ؟ قلت : بل هو حكم من ليس بمحصن منهم ، فإنّ المحصن حكمه الرجم . وشرائط الإحصان عند أبي حنيفة ست : الإسلام ، والحرية ، والعقل ، والبلوغ ، والتزوج بنكاح صحيح ، والدخول . إذا فقدت واحدة منها فلا إحصان . وعند الشافعي : الإسلام ليس بشرط ، لما روى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم رجم يهوديين زنيا [1] . وحجة أبي حنيفة قوله صلى الله عليه وسلم « من أشرك بالله فليس بمحصن [2] » فإن قلت : اللفظ يقتضى تعليق الحكم بجميع الزناة والزواني ، لأن قوله (الزانية والزاني) عام في الجميع ، يتناول المحصن وغير المحصن . قلت : الزانية والزاني يدلان على الجنسين المنافيين لجنسي العفيف والعفيفة دلالة مطلقة والجنسية قائمة في الكل والبعض جميعا ، فأيهما قصد المتكلم فلا عليه ، كما يفعل بالاسم المشترك . وقرئ : ولا يأخذكم ، بالياء . ورأفة ، بفتح الهمزة . ورآفة على فعالة . والمعنى : أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله ويستعملوا الجدّ والمتانة فيه ، ولا يأخذهم اللين والهوادة في استيفاء حدوده . وكفى برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة في ذلك حيث قال « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها [3] » وقوله (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) من باب التهييج وإلهاب الغضب لله ولدينه وقيل لا تترحموا عليهما حتى لا تعطلوا الحدود أو حتى لا توجعوهما ضربا . وفي الحديث « يؤتى بوال

ـــ فيها أنهار ... الآية) ووجه التمثيل أنه صدر الكلام بقوله (مثل الجنة) ولا يستقيم جزما أن يكون قوله (فيها أنهار) خبره ، فتعين تقدير خبره محذوفا . وأصله : فيما نقص عليكم مثل الجنة ، ثم لما كان هذا إجمالا لذكر المثل فصل بقوله (فيها أنهار) إلى آخرها . فكذلك مهنا ، كأنه قال : وفيما فرض عليكم شأن الزانية والزاني ، ثم فصل هذا المجمل بما ذكر من أحكام الجلد ، ويناسب هذا ترجمة الفقهاء في كتبهم حيث يقولون مثلا : الصلاة ، الزكاة ، السرقة . ثم يذكرون في كل باب أحكامه ، يريدون مما يصنف فيه ويبوب عليه : الصلاة ، وكذلك غيرها ؛ فهذا بيان المقتضى عند سيبويه ، لاختيار حذف الخبر من حيث الصناعة اللفظية . وأما من حيث المعنى فهو أن المعنى أتم وأكمل على حذف الخبر ؛ لأن يكون قد ذكر حكم الزانية والزاني مجملا حيث قال : الزانية والزاني وأراد : وفيما فرض عليكم حكم الزانية والزاني ، فلما تشوف السامع إلى تفصيل هذا المجمل ذكر حكمهما مفصلا ، فهو أوقع في النفس من ذكره أول وهلة ، والله أعلم .

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما

(٢) أخرجه إسحاق والدارقطني تفرد برفعه إسحاق . قلت : قال إسحاق في مسنده أن شيخه حدثه به مرة أخرى موقوفا .

(٣) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها .

نقص من الحد سوطاً ، فيقول : رحمة لعبادك ، فيقال له : أأنت أرحم بهم منى ، فيؤمر به إلى النار . ويؤتى بمن زاد سوطاً فيقول لينتهوا عن معاصيك فيؤمر به إلى النار [(١)] ، وعن أبى هريرة : إقامة حدّ بأرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة [(٢)] . وعلى الإمام أن ينصب للحدود رجلا عالماً بصيراً يعقل كيف يضرب . والرجل يجلد قائما على مجرده [(٣)] ليس عليه إلا إزاره ، ضرباً وسطاً لا مبرحا ولا هيناً ، مفرّقا على الأعضاء كلها لا يستثنى منها إلا ثلاثة : الوجه ، والرأس ، والفرج . وفى لفظ الجلد : إشارة إلى أنه لا ينبغى أن يتجاوز الألم إلى اللحم . والمرأة تجلد قاعدة ، ولا ينزع من ثيابها إلا الحشو والفرو ، وبهذه الآية استشهد أبو حنيفة على أن الجلد حدّ غير المحصن بلا تغريب . وما احتج به الشافعى على وجوب التغريب من قوله صلى الله عليه وسلم « البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام [(٤)] » وما يروى عن الصحابة : أنهم جلدوا ونفوا [(٥)] : منسوخ عنده وعند أصحابه بالآية . أو محمول على وجه التعزير والتأديب من غير وجوب . وقول الشافعى فى تغريب الحرّ واحد . وله فى العبد ثلاثة أقاويل : يغرب سنة كالحرّ ، ويغرب نصف سنة كما يجلد خمسين جلدة ، ولا يغرب كما قال أبو حنيفة . وبهذه الآية نسخ الحبس الأذى فى قوله تعالى : (فأمسكوهن فى البيوت) ، وقوله تعالى (فآذوهما) . قيل : تسميته عذابا دليل على أنه عقوبة . ويجوز أن يسمى عذابا ، لأنه يمنع من المعاودة كما سمى نكالا .

الطائفة : الفرقة التى يمكن أن تكون حلقة ، وأقلها ثلاثة أو أربعة ؛ وهى صفة غالبة كأنها الجماعة الحافة حول الشيء . وعن ابن عباس فى تفسيرها : أربعة إلى أربعين رجلا من المصدقين بالله . وعن الحسن : عشرة . وعن قتادة : ثلاثة فصاعدا . وعن عكرمة : رجلان فصاعدا . وعن مجاهد : الواحد فما فوقه . وفضل قول ابن عباس ، لأن الأربعة هى الجماعة التى يثبت بها هذا الحد والصحيح أن هذه الكبيرة من أمّهات الكبائر ، ولهذا قرنها الله بالشرك وقتل النفس فى قوله

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ وعند أبى يعلى من رواية عمرو بن ضرار عن حذيفة مرفوعا «يؤتى بالذى ضرب فوق الحد فيقول له الله تعالى : عبدى ، لم ضربته فوق الحد ؟ فيقول غضباً لك . فيقول : أكان غضبك أشد من غضبى . ويؤتى بالذى قصر فيقول عبدى لم قصرت ؟ فيقول : رحمته . فيقول أكانت رحمتك أشد من رحمتى . ثم يؤمر بهما جميعاً إلى النار»

(٢) أخرجه النسائى من طريق أبى زرعة عنه موقوفا وأخرجه النسائى أيضاً وابن حبان وأحمد وابن ماجه والطبرانى من هذا الوجه مرفوعا . وقال «أربعين صباحا» ولأحمد «ثلاثين أوأربعين صباحا» وفى الباب عن ابن عمر ، أخرجه ابن ماجه بلفظ «إقامة حد من حدود الله تعالى خير من مطر أربعين ليلة»

(٣) قوله «على مجرده» فى الصحاح : فلان حسن المجرد ، أى : المعرى اه ، أى : المكشوف عن الثياب . (ع)

(٤) أخرجه مسلم وأصحاب السنن من حديث عبادة بن الصامت فى أثناء حديث

(٥) أخرجه الترمذى والحاكم من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم ضرب وغرب ، وأن أبا بكر ضرب وغرب ، وأن عمر ضرب وغرب .

(ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما) ، وقال : (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وعن النبي صلى الله عليه وسلم « يا معشر الناس اتقوا الزنى فإن فيه ست خصال : ثلاث فى الدنيا ، وثلاث فى الآخرة . فأما اللاتى فى الدنيا : فيذهب البهاء ، ويورث الفقر ، وينقص العمر . وأما اللاتى فى الآخرة : فيوجب السخطة ، وسوء الحساب ، والخلود فى النار »[1] ولذلك وفى الله فيه عقد المائة بكماله ، بخلاف حد القذف وشرب الخمر . وشرع فيه القتلة الهولة وهى الرجم ، ونهى المؤمنين عن الرأفة على المجلود فيه ، وأمر بشهادة الطائفة للتشهير ، فوجب أن تكون طائفة يحصل بها التشهير . والواحد والاثنان ليسوا بتلك المثابة ، واختصاصه المؤمنين لأن ذلك أفضح . والفاسق بين صلحاء قومه أخجل . ويشهد له قول ابن عباس رضى الله عنهما : إلى أربعين رجلا من المصدقين بالله .

الزَّانِى لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

الفاسق الخبيث الذى من شأنه الزنى والتقحب ، لا يرغب فى نكاح الصوالح من النساء واللاتى على خلاف صفته ، وإنما يرغب فى فاسقة خبيثة من شكله ، أو فى مشركة . والفاسقة الخبيثة المسافحة ، كذلك لا يرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها ، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين . ونكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك فى سلك الفسقة المتسمين بالزنى : محرّم عليه محظور : لما فيه من التشبه بالفساق ، وحضور موقع التهمة ، والتسبب لسوء القالة فيه والغيبة وأنواع المفاسد . ومجالسة الخطائين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام . فكيف بمزاوجة الزوانى والقحاب ؛ وقد نبه على ذلك بقوله (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم) وقيل : كان بالمدينة موسرات من بغايا المشركين ، فرغب فقراء المهاجرين فى نكاحهن ، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت . وعن عائشة رضى الله عنها أن الرجل إذا زنى بامرأة ، ليس له أن يتزوجها

---

(١) أخرجه البيهقى فى الشعب فى السابع والثلاثين وابن مردويه وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية فى ترجمة أبى وائل عن حذيفة ، بلفظ « يامعشر الناس » وفى آخره : ثم تلا (أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون) قال أبو نعيم : تفرد به مسلمة بن على الحسنى عن أبى عبدالرحمن الكوفى عن الأعمش وهو ضعيف ، وقال البيهقى : مسلمة متروك . وعبدالرحمن مجهول ، وأخرجه الثعلبى من رواية معاوية بن يحيى عن الأعمش فيحتمل أن يكون هو أبو عبدالرحمن المذكور . وفى الباب عن أنس أخرجه الخطيب وابن الجوزى من طريقه وفى إسناده كعب بن عمرو بن جعفر وهو غير ثقة . ورواه الواحدى فى الوسيط غالباً من طريق أبى الدنيا الأشج عن على مرفوعا والأشج ادعى أنه سمع من على بعد الثلاثمائة فسمع منه أبو بكر المفيد وغيره وأخباره معروفة .

لهذه الآية ، وإذا باشرها كان زانياً . وقد أجازه ابن عباس رضى الله عنهما وشبهه بمن سرق ثمر شجرة ثم اشتراه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذلك ؟ فقال : أوله سفاح وآخره نكاح . والحرام لا يحرم الحلال . وقيل : المراد بالنكاح الوطء ، وليس بقول لأمرين ، أحدهما : أن هذه الكلمة أينما وردت فى القرآن لم ترد إلا فى معنى العقد . والثانى : فساد المعنى وأداؤه إلى قولك : الزانى لا يزنى إلا بزانية والزانية لا يزنى بها إلا زان . وقيل : كان نكاح الزانية محرما فى أول الإسلام ثم نسخ ، والناسخ قوله : (وأنكحوا الأيامى منكم) . وقيل الإجماع ، وروى ذلك عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه . فإن قلت : أى فرق بين معنى الجملة الأولى ومعنى الثانية ؟ قلت : معنى الأولى صفة الزانى بكونه غير راغب فى العفائف ولكن فى الفواجر . ومعنى الثانية : صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء ولكن للزناة ، وهما معنيان مختلفان [١] . فإن قلت : كيف قدمت الزانية على الزانى أولا ، ثم قدم عليها ثانياً ؟ قلت : سيقت تلك الآية لعقوبتهما على ما جنيا ، والمرأة هى المادة التى منها نشأت الجناية ؛ لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن . فلما كانت أصلا وأولا فى ذلك بدئ بذكرها . وأمّا الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه ، لأنه هو الراغب والخاطب .

(١) قال محمود : «إن قلت أى فرق بين الجملتين فى المعنى ؟ قلت : معنى الأولى صفة الزانى بكونه غير راغب فى العفائف ، ولكن فى الفواجر ومعنى الثانية صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء ولكن للزناة وهما معنيان مختلفان» قال أحمد : وليس فيما ذكره إيضاح إطباق الجملتين . ونحن نوضحه فنقول : الأقسام أربعة : الزانى لا رغب إلا فى زانية . الزانية لا ترغب إلا فى زان . العفيف لا رغب إلا فى عفيفة . العفيفة لا ترغب إلا فى عفيف . وهذه الأقسام الأربعة مختلفة المعانى ، وحاصرة للقسمة فنقول : اختصرت الآية من هذه الأربعة قسمين ، واقتصرت على قسمين أخرى من المسكوت عنهما ، فجاءت مختصرة جامعة ، فالقسم الأول صريح فى القسم الأول ويفهم الثالث ، والقسم الثانى صريح فى القسم الثانى ويفهم الرابع ، والقسم الثالث والرابع متلازمان ، من حيث أن المقتضى لانحصار رغبة العفيف فى العفيفة هو اجتماعهما فى العفة ، وذلك بعينه مقتض لانحصار رغبتها فيه ، ثم يقصر التعبير عن وصف الزناة والأعفاء بما لا يقل عن ذكر الزناة وجودا وسلبا ، فإن معنى الأول الزانية لا ينكحها عفيف ، ومعنى الثانى : العفيفة لا ينكحها زان . والسر فى ذلك أن الكلام فى أحكامهم ، فذكر الأعفاء بسلب نقائصهم ، حتى لا يخرج بالكلام عما هو المقصود منه ، ثم بينه فى إسناد النكاح فى هذين القسمين الذكور دون الاناث ، بخلاف قوله (الزانية والزانى) فانه جعل لكل واحد منهما ثم استقلالا ، وقدم الزانية على الزانى . والسبب فيه أن الكلام الأول فى حكم الزنا ، والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والاطماع ، والكلام الثانى فى نكاح الزناة إذا وقع ذلك على الصحة ، والأصل فى النكاح الذكور وهم المبتدؤن بالخطبة ، فلم يسند إلا لهم لهذا ـ وإن كان الغرض من الآية تنفير الأعفاء من الذكور والاناث من مناكحة الزناة ذكورا وإناثا ، زجراً لهم عن الفاحشة ـ ولذلك قرن الزنا والشرك . ومن ثم كره مالك رحمه الله مناكحة المشهورين بالفاحشة ، وقد نقل بعض أصحابه الاجماع فى المذهب على أن للمرأة أولمن قام من أوليائها فسخ نكاح الفاسق . ومالك أبعد الناس من اعتبار الكفاءة إلا فى الدين . وأما فى النسب ، فقد بلغه أنهم فرقوا بين عربية ومولى فاستعظمه وتلا (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

ومنه يبدأ الطلب . وعن عمرو بن عبيد رضى الله عنه : لا ينكح ، بالجزم على النهى . والمرفوع فيه أيضاً معنى النهى ، ولكن أبلغ وآكد ، كما أن « رحمك الله ، ويرحمك ، أبلغ من « ليرحمك » ويجوز أن يكون خبراً محضاً على معنى : أن عادتهم جارية على ذلك ، وعلى المؤمن أن لا يدخل نفسه تحت هذه العادة ويتصوّن عنها . وقرئ : وحرم ، بفتح الحاء[1] .

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

القذف يكون بالزنى وبغيره ، والذى دل على أن المراد قذفهن بالزنى شيئان . أحدهما : ذكر المحصنات عقيب الزوانى . والثانى : اشتراط أربعة شهداء ؛ لأنّ القذف بغير الزنى يكفى فيه شاهدان ، والقذف بالزنى أن يقول الحرّ العاقل البالغ لمحصنة : يازانية ، أو لمحصن : يازانى ، يا ابن الزانى ، يا ابن الزانية ، يا ولد الزنا ، لست لأبيك ، لست لرشدة . والقذف بغير الزنا أن يقول : يا آكل الربا ، يا شارب الخمر ، يا يهودى ، يا مجوسى ، يا فاسق ، يا خبيث ، يا ماص بظر أمّه : فعليه التعزير ، ولا يبلغ به أدنى حد العبيد وهو أربعون ، بل ينقص منه . وقال أبو يوسف : يجوز أن يبلغ به تسعة وسبعون . وقال : للإمام أن يعزر إلى المائة . وشروط إحصان القذف خمسة : الحرية ، والبلوغ ، والعقل ، والإسلام ، والعفة . وقرئ : بأربعة شهداء ، بالتنوين . وشهداء : صفة . فإن قلت : كيف يشهدون مجتمعين أو متفرقين ؟ قلت : الواجب عند أبى حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم أن يحضروا فى مجلس واحد ، وإن جاءوا متفرقين كانوا قذفة . وعند الشافعى رضى الله عنه : يجوز أن يحضروا متفرقين . فإن قلت : هل يجوز أن يكون زوج المقذوفة واحداً منهم ؟ قلت : يجوز عند أبى حنيفة خلافا للشافعى . فإن قلت : كيف يجلد القاذف ؟ قلت : كما جلد الزانى . إلا أنه لا ينزع عنه من ثيابه إلا ماينزع عن المرأة من الحشو والفرو . والقاذفة أيضاً كالزانية ، وأشدّ الضرب ضرب التعزير ، ثم ضرب الزنا ، ثم ضرب شرب الخمر ، ثم ضرب القاذف . قالوا : لأنّ سبب عقوبته محتمل للصدق والكذب ، إلا أنه عوقب صيانة للأعراض وردعا عن هتكها . فإن قلت : فإذا لم يكن المقذوف محصنا ؟ قلت : يعزر القاذف ولا يحدّ ، إلا أن يكون المقذوف معروفا بما قذف به فلا حدّ ولا تعزير . ردّ شهادة القاذف معلق عند أبى حنيفة رضى الله عنه باستيفاء الحد ، فإذا شهد قبل الحد أو قبل

(١) قوله « بفتح الحاء » لعله : بفتح الحاء والراء . (ع)

تمام استيفائه قبلت شهادته ، فإذا استوفى لم تقبل شهادته أبداً وإن تاب وكان من الأبرار الأتقياء . وعند الشافعي رضي الله عنه : يتعلق ردّ شهادته بنفس القذف ، فإذا تاب عن القذف بأن رجع عنه ، عاد مقبول الشهادة . وكلاهما متمسك بالآية ، فأبو حنيفة رضي الله عنه جعل جزاء الشرط الذي هو الرمي : الجلد ، وردّ الشهادة عقيب الجلد على التأبيد ، فكانوا مردودي الشهادة عنده في أبدهم وهو مدة حياتهم ، وجعل قوله ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾ كلاما مستأنفاً غير داخل في حيز جزاء الشرط ، كأنه حكاية حال الرامين عند الله بعد انقضاء الجملة الشرطية . و ﴿إلا الذين تابوا﴾ استثناء من الفاسقين . ويدل عليه قوله ﴿فإنّ الله غفور رحيم﴾ والشافعي رضي الله عنه جعل جزاء الشرط الجملتين أيضاً . غير أنه صرف الأبد إلى مدة كونه قاذفا ، وهي تنتهي بالتوبة والرجوع عن القذف وجعل الاستثناء متعلقاً بالجملة الثانية . وحق المستثنى عنده أن يكون مجروراً بدلا من « هم » في (لهم) وحقه عند أبي حنيفة رضي الله عنه أن يكون منصوباً لأنه عن موجب ، والذي يقتضيه ظاهر الآية ونظمها أن تكون الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط ، كأنه قيل : ومن قذف المحصنات فاجلدوهم وردّوا شهادتهم وفسقوهم أي : فاجمعوا لهم الجلد والردّ والتفسيق ، إلا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا فإنّ الله يغفر لهم فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين . فإن قلت . الكافر يقذف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالإجماع ، والقاذف من المسلمين يتوب عن القذف فلا تقبل شهادته عند أبي حنيفة رضي الله عنه . كأن القذف مع الكفر أهون من القذف مع الإسلام ؟ قلت : المسلمون لا يعبئون بسب الكفار ؛ لأنهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل . فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشنار ما يلحقه بقذف مسلم مثله ، فشدّد على القاذف من المسلمين ردعا وكفا عن إلحاق الشنار [1] . فإن قلت : هل للمقذوف أو للإمام أن يعفو عن حدّ القاذف ؟ قلت : لهما ذلك قبل أن يشهد الشهود ويثبت الحدّ ، والمقذوف مندوب إلى أن لا يرافع القاذف ولا يطالبه بالحدّ . ويحسن من الإمام أن يحمل المقذوف على كظم الغيظ ويقول له : أعرض عن هذا ودعه لوجه الله قبل ثبات الحدّ : فإذا ثبت لم يكن لواحد منهما أن يعفو لأنه خالص حق الله ، ولهذا لم يصح أن يصالح عنه بمال . فإن قلت : هل يورث الحدّ ؟ قلت : عند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يورث ، لقوله صلى الله عليه وسلم « الحدّ لا يورث » وعند الشافعي رضي الله عنه يورث ، وإذا تاب القاذف قبل أن يثبت الحدّ سقط . وقيل : نزلت هذه الآية في حسان بن ثابت رضي الله عنه حين تاب مما قال في عائشة رضي الله عنها .

(١) قوله « الشنار » في الصحاح « الشنار » العيب والعار . (ع)

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)

قاذف امرأته إذا كان مسلماً حراً بالغا عاقلا، غير محدود فى القذف، والمرأة بهذه الصفة مع العفة: صح اللعان بينهما، إذا قذفها بصريح الزنى. وهو أن يقول لها: يازانية، أو: زنيت، أو رأيتك تزنين. وإذا كان الزوج عبدا، أو محدوداً فى قذف، والمرأة محصنة: حد كما فى قذف الأجنبيات، وما لم ترافعه إلى الإمام لم يجب اللعان. واللعان: أن يبدأ الرجل فيشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنى، ويقول فى الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنى. وتقول المرأة أربع مرات: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنى، ثم تقول فى الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فيما رمانى به من الزنى. وعند الشافعى رضى الله عنه: يقام الرجل قائماً حتى يشهد والمرأة قاعدة، وتقام المرأة والرجل قاعد حتى تشهد، ويأمر الإمام من يضع يده على فيه ويقول له: إنى أخاف إن لم تكن صادقا أن تبوء بلعنة الله، وقال: اللعان بمكة بين المقام والبيت، وبالمدينة على المنبر، وبيت المقدس فى مسجده، ولعان المشرك فى الكنيسة وحيث يعظم، وإذا لم يكن له دين ففى مساجدنا إلا فى المسجد الحرام، لقوله تعالى (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام) ثم يفرق القاضى بينهما، ولا تقع الفرقة بينهما إلا بتفريقه عند أبى حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم، إلا عند زفر؛ فإن الفرقة تقع باللعان. وعن عثمان البتى: لافرقة أصلا. وعند الشافعى رضى الله عنه تقع بلعان الزوج، وتكون هذه الفرقة فى حكم التطليقة البائنة عند أبى حنيفة ومحمد رضى الله عنهما ولا يتأبد حكمها، فإذا أكذب الرجل نفسه بعد ذلك فحد جاز أن يتزوجها. وعند أبى يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعى رضى الله عنهم: هى فرقة بغير طلاق توجب تحريماً مؤبداً، ليس لهما أن يجتمعا بعد ذلك بوجه. وروى أن آية القذف لما نزلت [1] قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فقام

(١) وفى الخازن: سبب نزول هذه الآية ماروى عن سهل بن سعد الساعدى أن عويمر العجلانى جاء إلى عاصم =

عاصم بن عدى الأنصارى رضى الله عنه فقال : جعلنى الله فداك ، إن وجد رجل مع امرأته رجلا فأخبر جلد ثمانين وردّت شهادته أبداً وفسق ، وإن ضربه بالسيف قتل ، وإن سكت سكت على غيظ ، وإلى أن يجيء بأربعة شهداء فقد قضى الرجل حاجته ومضى : اللهم افتح . وخرج فاستقبله هلال بن أمية أو عويمر فقال : ماوراءك ؟ قال شر : وجدت على بطن امرأتى خولة ـ وهى بنت عاصم ـ شريكَ بن سحماء ، فقال : هذا والله سؤالى ، ماأسرع ماابتليت به ! فرجعا ، فأخبر عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلم خولة فقالت : لاأدرى ، ألغيرة أدركته ؟ أم بخلا على الطعام ـ وكان شريك نزيلهم ـ وقال هلال : لقد رأيته على بطنها . فنزلت ، ولاعن بينهما . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند قوله وقولها : أنّ لعنة الله عليه ، إن غضب الله عليها : آمين ، وقال القوم : آمين ، وقال لها : إن كنت ألممت بذنب فاعترفى به ، فالرجم أهون عليك من غضب الله ، إن غضبه هو النار . وقال : تحينوا بها الولادة فإن جاءت به أصيهب أثيبج [١] يضرب إلى السواد فهو لشريك ، وإن جاءت به أورق جعداً جماليا خدلج الساقين فهو لغير الذى رميت به ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : فجاءت بأشبه خلق الله لشريك . فقال صلى الله عليه وسلم : «لولا الأيمان لكان لى ولها شأن» . وقرئ : ولم تكن ، بالتاء ؛ لأنّ الشهداء جماعة . أو لأنهم فى معنى الأنفس التى هى بدل . ووجه من قرأ أربع أن ينتصب ؛ لأنه فى حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذى هو (فشهادة أحدهم) وهى مبتدأ محذوف الخبر ، تقديره : فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات بالله . وقرئ أن لعنة الله ، وأن غضب الله : على تخفيف أن ورفع مابعدها . وقرئ : أن غضب الله ، على فعل الغضب . وقرئ : بنصب الخامستين [٢] ، على معنى : وتشهد الخامسة . فإن قلت : لم خصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله ؟ قلت : تغليظاً عليها ؛ لأنها هى أصل الفجور ومنبعه بخلابتها [٣] وإطماعها ،

ـــ ابن عدى فقال لعاصم أرأيت لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل سل لى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه أيضا عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى صلى الله عليه وسلم بشريك ابن سحماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : البينة أو حدّ فى ظهرك ، فقال يارسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول : البينة أوحد فى ظهرك فنزل جبريل بقوله تعالى (والذين يرمون أزواجهم) ـ الآية .

(١) قوله «فإن جاءت به أصيهب أثيبج» فى الصحاح «الصهبة» الشقرة فى شعر الرأس والرجل أصهب . وفيه : ثبج كل شيء وسطه . والأثبج : العريض الثبج ويقال الناتيء الثبج اه وما فى الحديث تصغيرهما . وفيه أيضاً «الخدلجة» بتشديد اللام المرأة الممتلئة الذراعين والساقين . (ع)

(٢) قوله «وقرئ بنصب الخامستين» فى النسفى : أنه لاخلاف فى رفع الخامسة الأولى على المشهور . (ع)

(٣) قوله «بخلابتها» فى الصحاح «الخلابة» الخديعة باللسان . (ع)

ولذلك كانت مقدّمة فى آية الجلد . ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم لخولة « فالرجم أهون عليك من غضب الله » .

وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

الفضل : التفضل ، وجواب « لولا » متروك ، وتركه دال على أمر عظيم لا يكتنه ، ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به .

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

الإفك : أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء . وقيل : هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك . وأصله : الأفك ، وهو القلب ؛ لأنه قول مأفوك عن وجهه . والمراد : ما أفك به على عائشة رضى الله عنها . والعصبة : الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، وكذلك العصابة . واعصوصبوا : اجتمعوا ، وهم عبد الله بن أبىّ رأس النفاق ، وزيد بن رفاعة ، وحسان بن ثابت ، ومسطح ابن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ، ومن ساعدهم . وقرئ : كبره بالضم والكسر ، وهو عظمه [1] . والذى تولاه عبد الله ، لإمعانه فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهازه الفرص ، وطلبه سبيلا إلى الغميزة .

أى يصيب كل خائض فى حديث الإفك من تلك العصبة نصيبه من الإثم على مقدار خوضه . والعذاب العظيم لعبد الله ، لأنّ معظم الشرّ كان منه . يحكى أن صفوان رضى الله عنه مرّ بهودجها عليه وهو فى ملأ من قومه فقال : من هذه ؟ فقالوا : عائشة رضى الله عنها ، فقال : والله مانجت منه ولانجا منها ، وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها . والخطاب فى قوله ﴿هو خير لكم﴾ لمن ساءه ذلك من المؤمنين ، وخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأبى بكر ، وعائشة ، وصفوان بن المعطل رضى الله عنهم . ومعنى كونه خيراً لهم : أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم ؛ لأنه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة ، وأنه نزلت فيه ثمانى عشرة آية كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسلية له ، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها ، وتطهير لأهل البيت ، وتهويل لمن تكلم فى ذلك أو

(١) قوله « وهو عظمه » فى الصحاح : عظم الشىء : أكثره ومعظمه . (ع)

سمع به فلم تمجه أذناه ، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة ، وفوائد دينية ، وأحكام وآداب لاتخفى على متأمليها .

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

﴿ بأنفسهم ﴾ أى بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات ، كقوله (ولا تلمزوا أنفسكم) [١] وذلك نحو مايروى أن أبا أيوب الأنصارى قال لأم أيوب : ألا ترين مايقال ؟ فقالت : لوكنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوءا ؟ قال : لا . قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة رضى الله عنها ماخنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعائشة خير منى ، وصفوان خير منك [٢] . فإن قلت : هلا قيل : لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم ؟ ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة ، وعن الضمير إلى الظاهر ؟ قلت : ليبالغ فى التوبيخ بطريقة الالتفات ، وليصرح بلفظ الإيمان ، دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول غائب ولا طاعن . وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة فى أخيه ، أن يبنى الأمر فيها على الظنّ لا على الشك . وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير : ﴿ هذا إفك مبين ﴾ هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته . كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال . وهذا من الأدب الحسن الذى قل القائم به والحافظ له ، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ماسمعه بأخوات .

لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾

---

(١) قال محمود : «معناه ظنوا بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات ، كقوله تعالى : ولا تلمزوا أنفسكم» قال أحمد : والسر فى هذا التعبير : تعطيف المؤمن على أخيه وتوبيخه على أن يذكره بسوء ، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة ، ولاشىء أشنع من ذلك ، والله أعلم .

(٢) عاد كلامه . قال : ونقل أن أبا أيوب الأنصارى قال لامرأته : ألا ترين مقالة الناس ؟ قالت له : لو كنت بدل صفوان أكنت تخون فى حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوءا ؟ قال : لا . قالت : ولوكنت أنا بدل عائشة ماخنته ، وصفوان خير منك وعائشة خير منى» قال أحمد : ولقد ألهمت بنور الايمان إلى هذا السر الذى انطوى عليه التعبير عن الغير من المؤمنين بالنفس ، فانها نزلت زوجها منزلة صفوان ، ونفسها منزلة عائشة ، ثم أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة والأمانة ، حتى أثبتتها لصفوان وعائشة بطريق الأولى رضى الله عنها . ويحتمل والله أعلم خلاف ماقاله الزمخشرى : وهو أن يكون التعبير بالأنفس حقيقة ، والمقصود الزام سيئ الظن بنفسه ، لأنه لم يعتد بوازع الايمان فى حق غيره ، وألغاه واعتبره فى حق نفسه ، وادعى لها البراءة قبل معرفته بحكم الهوى لا بحكم الهدى ، والله أعلم .

جعل الله التفصلة بين الرمى الصادق والكاذب : ثبوت شهادة الشهود الأربعة وانتفاءها ، والذين رموا عائشة رضى الله عنها لم تكن لهم بينة على قولهم ، فقامت عليهم الحجة وكانوا ﴿ عند الله ﴾ أى فى حكمه وشريعته كاذبين . وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك فلم يجدوا فى دفعه وإنكاره ، واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف فى الشرع : من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة ، والتنكيل به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين ، فكيف بأم المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبيبة حبيب الله ؟

وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

لولا الأولى للتحضيض ، وهذه لامتناع الشيء لوجود غيره . والمعنى : ولولا أنى قضيت أن أتفضل عليكم فى الدنيا بضروب النعم التى من جملتها الإمهال للتوبة ، وأن أترحم عليكم فى الآخرة بالعفو والمغفرة ، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك . يقال : أفاض فى الحديث ، واندفع ، وهضب ، وخاض ﴿ إذ ﴾ ظرف لمسكم ، أو لأفضتم ﴿ تلقونه ﴾ يأخذه بعضكم من بعض . يقال : تلقى القول وتلقنه وتلقفه . ومنه قوله تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات) وقرئ على الأصل : تتلقونه . وإذ تلقونه ، بإدغام الذال فى التاء [١] . وتلقونه ، من لقيه بمعنى لقفه . وتلقونه ، من إلقائه بعضهم على بعض . وتلقونه وتألقونه ، من الولق والألق : وهو الكذب . وتلقونه : محكية عن عائشة رضى الله عنها ، وعن سفيان : سمعت أمى تقرأ : إذ تثقفونه [٢] ، وكان أبوها يقرأ بحرف عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ بأفواهكم ﴾ والقول لا يكون إلا بالفم ؟ قلت : معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه فى القلب ، فيترجم عنه اللسان [٣] . وهذا الإفك ليس إلا قولا يجرى على ألسنتكم ويدور فى أفواهكم من غير ترجمة عن علم به فى القلب ، كقوله تعالى (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم) ،

(١) قوله « وإذ تلقونه » لعل رسمه هكذا « واتلقونه » إلاأن يعتبر ماقبل الادغام . (ع)

(٢) قوله « سمعت أمى تقرأ إذ تثقفونه » وفى نسخة تقفونه ، بمعنى تتبعونه ، وكلا النسختين قراءة . (ع)

(٣) قال محمود : « إن قلت القول لايكون إلا بالافواه ، فما فائدة ذكرها ؟ قلت : المراد أن هذا القول لم يكن عبارة عن علم قام بالقلب ، وإنما هو مجرد قول اللسان » قال أحمد : ويحتمل أن يكون المراد المبالغة ، أوتعريضا بأنه ربما يتمشدق ويقضى تمشدق جازم عالم ، وهذا أشد وأقطع ، وهو السر الذى أنبأ عنه قوله تعالى (قد بدت البغضاء من أفواههم) والله أعلم .

أى : تحسبونه صغيرة وهو عند الله كبيرة موجبة [١] . وعن بعضهم أنه جزع عند الموت ، فقيل له ، فقال : أخاف ذنبا لم يكن منى على بال وهو عند الله عظيم . وفى كلام بعضهم : لا تقولنّ لشيء من سيئاتك حقير ، فلعله عند الله نخلة وهو عندك نقير . وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها . أحدها : تلقى الإفك بألسنتهم ، وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل فيقول له : ما وراءك ؟ فيحدثه بحديث الإفك حتى شاع وانتشر : فلم يبق بيت ولا ناد إلا طارَ فيه . والثانى : التكلم مما لا علم لهم به . والثالث : استصغارهم لذلك وهو عظيمة من العظائم .

وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾

فإن قلت : كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم ؟ قلت : للظروف شأن وهو تنزلها من الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها وأنها لا تنفك عنها ، فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع فى غيرها . فإن قلت : فأىّ فائدة فى تقديم الظرف حتى أوقع فاصلا ؟ قلت : الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به ، فلما كان ذكر الوقت أهمّ وجب التقديم . فإن قلت : فما معنى يكون ، والكلام بدونه متلئب [٢] لو قيل مالنا أن نتكلم بهذا ؟ قلت : معناه معنى : ينبغى ، ويصح أى : ما ينبغى لنا أن نتكلم بهذا . وما يصح لنا . ونحوه : ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . و﴿سبحانك﴾ للتعجب من عظم الأمر [٣] . فإن قلت : ما معنى التعجب فى كلمة التسبيح ؟ قلت : الأصل فى ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه ، ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه أو لتنزيه الله تعالى من أن تكون حرمة نبيه عليه السلام فاجرة . فإن قلت : كيف جاز أن تكون امرأة النبى كافرة كامرأة نوح ولوط ، ولم يجز أن تكون فاجرة ؟ قلت : لأنّ الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم ويستعطفوهم ،

---

(١) قوله «وهو عند الله كبيرة موجبة» لعله موجبة للعقاب . (ع)

(٢) قوله «والكلام بدونه متلئب» لعله : محرف ، وأصله مستتب . وفى الصحاح : استتب الأمر : تهيأ واستقام . (ع)

(٣) قال محمود : «معناه التعجب من عظم الأمر ، وأصله أن الانسان إذا رأى عجيبا من صنائع الله تعالى سبحه ، ثم كثر حتى استعمل عند كل متعجب منه ، ثم أوردها هنا سؤالا على توبيخهم على ترك التعجب فقال : إن قلت : لم جاز أن تكون زوجة النبى كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة ، ولم يكن كفرها متعجبا منه وفجورها متعجب منه ؟ قلت : لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم ويتزلفوا إليهم ، وكفر الزوجة غير مانع ولا منفر بخلاف الكشخنة» قال أحمد : وما أورد عليه أبرد من هذا السؤال ، كأن أحداً يشكل عليه أن ينسب الفاحشة إلى مثل عائشة ، مما ينكره كل عاقل ويتعجب منه كل لبيب ، والله الموفق .

فيجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم عنهم ، ولم يكن الكفر عندهم مما ينفر . وأما الكشخنة [1] فمن أعظم المنفرات .

يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

أى كراهة ﴿أن تعودوا﴾ أو فى أن تعودوا ، من قولك : وعظت فلانا فى كذا فتركه . وأبدهم ما داموا أحياء مكلفين . و ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فيه تهييج لهم ليتعظوا ، وتذكير بما يوجب ترك العود ، وهو اتصافهم بالإيمان الصاد عن كل مقبح ، ويبين الله لكم الدلالات على علمه وحكمته بما ينزل عليكم من الشرائع ، ويعلمكم من الآداب الجميلة ، ويعظكم به من المواعظ الشافية ، والله عالم بكل شيء ، فاعل لما يفعله بدواعى الحكمة .

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

المعنى : يشيعون الفاحشة عن قصد إلى الإشاعة ، وإرادة ومحبة لها ، وعذاب الدنيا الحد ، ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبىّ وحسانا ومسطحا . وقعد صفوان لحسان فضربه ضربة بالسيف ، وكفّ بصره . وقيل : هو المراد بقوله **(والذى تولى كبره منهم)** ﴿والله يعلم﴾ ما فى القلوب من الأسرار والضمائر ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ يعنى أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة ، وهو معاقبه عليها .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

وكرر المنة بترك المعاجلة بالعقاب ، حاذفا جواب لولا كما حذفه ثمة . وفى هذا التكرير مع حذف الجواب مبالغة عظيمة ، وكذلك فى التواب والرءوف والرحيم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

الفحشاء والفاحشة : ما أفرط قبحه . قال أبو ذؤيب :

---

(١) قوله « الكشخنة » كأنها الديائة . (ع)

* ضَرَائِرُ حِرْمِيٍّ تَفَاحَشَ غَارُهَا * (١)

أى : أفرطت غيرتها . والمنكر : ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه . وقرئ : خطوات ، بفتح الطاء وسكونها . وزكى بالتشديد ، والضمير لله تعالى ، ولولا أنّ الله تفضل عليكم بالتوبة الممحصة ، لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الإفك ، ولكن الله يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها ، وهو ﴿سميع﴾ لقولهم ﴿عليم﴾ بضمائرهم وإخلاصهم .

وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)

وهو من ائتلى إذا حلف : افتعال من الألية . وقيل : من قولهم : ما ألوت جهداً ، إذا لم تدخر منه شيئاً . ويشهد للأول قراءة الحسن : ولا يتألّ . والمعنى : لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان . أو لا يقصروا فى أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها ، فليعودوا عليهم بالعفو والصفح ، وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم ، مع كثرة خطاياهم وذنوبهم ، نزلت فى شأن مسطح وكان ابن خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وكان فقيراً من فقراء المهاجرين ، وكان أبو بكر ينفق عليه ، فلما فرط منه ما فرط : آلى أن لا ينفق عليه ، وكفى به داعياً إلى المجاملة وترك الاشتغال بالمكافأة المسىء . ويروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها على أبى بكر ، فقال : بلى أحب أن يغفر الله لى ، ورجع إلى مسطح نفقته وقال : والله لا أنزعها أبداً . وقرأ أبو حيوة وابن قطيب : أن تؤتوا ، بالتاء على الالتفات . ويعضده قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) .

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)

﴿الغافلات﴾ السليمات الصدور ، النقيات القلوب ، اللاتى ليس فيهن دهاء ولا مكر ،

(١) لهن نشيج بالنشيل كأنها ضرائر حرمى تفاحش غارها

الضمير للقدور . والنشيج : الصوت ، كالنئيج . يقال : نشجت القدر ونشج الباكى ، وطعنة ناشجة : تبك دما . والباء الملابسة . والنشيل : اللحم المطبوخ : ينشل من القدر . والضرائر : نسوة الرجل ، لأن كلا منهن تريد ضر الأخرى والحرمى : نسبة إلى الحرم ، كالجسم لغة فى حرم مكة . والتفاحش : الافراط فى القبح . والغار : الغيرة ، أو الوجيب والصياح ، وهو أنسب بالتشبيه .

لأنهنّ لم يجربن الأمور ولم يرزن الأحوال ، فلا يفطنّ لما تفطن له المجربات العرافات . قال :

وَلَقَدْ لَهَوْتُ بِطَفْلَةٍ مَيَّالَةٍ بَلْهَاءَ تُطْلِعُنِي عَلَى أَسْرَارِهَا (١)

وكذلك البله من الرجال فى قوله عليه الصلاة والسلام « أكثر أهل الجنة البله » .

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)

يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)

وقرئ : يشهد ، بالياء . والحق : بالنصب صفة للدين وهو الجزاء ، وبالرفع صفة لله ، ولو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به من العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ فى شيء تغليظه فى إفك عائشة رضوان الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع ، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف ، واستعظام ما ركب من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه ، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة . كل واحد منها كاف فى بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها ، حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعاً ، وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة ، وبأنّ ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا ، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذى هم أهله ، حتى يعلموا عند ذلك ﴿أنّ الله هو الحق المبين﴾ فأوجز فى ذلك وأشبع ، وفصل وأجمل ، وأكد وكرّر ، وجاء بما لم يقع فى وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه فى الفظاعة ، وما ذاك إلا لأمر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه كان بالبصرة يوم عرفة ، وكان يسأل عن تفسير القرآن ، حتى سئل عن هذه الآيات فقال : من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض فى أمر عائشة ، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك . ولقد برّأ الله تعالى أربعة بأربعة : برأ يوسف بلسان الشاهد (وشهد شاهد من أهلها) . وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه . وبرّأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها : إنى عبدالله . وبرّأ عائشة بهذه الآيات العظام فى كتابه المعجز المتلوّ على وجه الدهر ، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات . فانظر ، كم بينها وبين تبرئة أولئك ؟ وما ذاك إلا لإظهار علوّ منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم ، وخيرة الأوّلين والآخرين ، وحجة الله على العالمين . ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه صلى الله عليه وسلم وتقدّم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق ، فليتلق ذلك من آيات الإفك ، وليتأمل كيف

(١) لهوت : تلاهيت ولعبت ، بطفلة ـ بالفتح ـ أى : امرأة ناعمة لينة ، يقال : امرأة طفلة الأنامل ، أى : رخصتها لينتها ، ميالة : مختالة ، بلهاء : غافلة لامكر عندها ولا دهاء ، فلذلك تطلعنى على ضمائرها .

غضب الله فى حرمته ، وكيف بالغ فى نفى التهمة عن حجابه . فإن قلت : إن كانت عائشة هى المرادة فكيف قيل المحصنات [١] ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد بالمحصنات أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يخصصن بأن من قذفهنّ فهذا الوعيد لاحق به ، وإذا أردن وعائشة كبراهنّ منزلة وقربة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانت المرادة أوّلا . والثانى : أنها أمّ المؤمنين فجمعت إرادة لها ولبناتها من نساء الأمّة الموصوفات بالإحصان والغفلة والإيمان ، كما قال :

* قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الْخُبَيْبَيْنِ قَدِى * [٢]

أراد عبد الله بن الزبير وأشياعه ، وكان أعداؤه يكنونه بخبيب ابنه ، وكان مضعوفا [٣] ، وكنيته المشهورة أبو بكر ، إلا أن هذا فى الاسم وذاك فى الصفة . فإن قلت : ما معنى قوله (هو الحق المبين) ؟ قلت : معناه ذو الحق البين ، أى : العادل الظاهر العدل ، الذى لا ظلم فى حكمه ، والمحق الذى لا يوصف بباطل . ومن هذه صفته لم تسقط عنده إساءة مسىء ولا إحسان محسن ، فحق مثله أن يتقى ويجتنب محارمه .

---

(١) قال محمود : «إن كانت عائشة هي المرادة ، فلم جمع ؟ قلت : المراد إما أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكون هذا الوعيد لاحقا بقاذفهن ، وإما عائشة وجمعت إرادة لها ولبناتها ، كما قال : * قدنى من نصر الخبيبين قدى * يعنى عبد الله بن الزبير وأشياعه وكان يكنى أبا خبيب» قال أحمد : والأظهر أن المراد عموم المحصنات والمقصود بذكرهن على العموم وعيد من وقع فى عائشة على أبلغ الوجوه ، لأنه إذا كان هذا وعيد قاذف آحاد المؤمنات ، فما الظن بوعيد من قذف سيدتهن وزوج سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، على أن تعميم الوعيد أبلغ وأقطع من تخصيصه وهذا معنى قول زليخا (ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم) فعممت وأرادت يوسف ، تهويلا عليه وإرجافا ، والمعصوم من عصمه الله تعالى .

(٢) قدنى من نصر الخبيبين قد ليس الامام بالشحيح الملحد
ولا بوتن بالحجاز مفرد إن ير يوما بالقضاء يصطد
أو ينجحر فالجحر شر محكد

لحميد الأرقط . وقيل : لأبى بحدلة يخاطب عبدالملك بن مروان . وقدنى : بمعنى حسبى . وكرر للتوكيد . والخبيبين يروى بصيغة التثنية ، يعنى عبد الله بن الزبير وابنه خبيب ، وكانوا إذا ذموه كنوه بأبى خبيب بالتصغير . ويروى بصيغة الجمع ، يعنى : عبد الله وشيعته ، كان ادعى الخلافة فقال الشاعر : لايكون الامام شحيحاً أى بخيلا ، ولاملحداً أى محتكراً أو محاربا فى الحرم . والالحاد : الميل . والوتن بالسكون ، والواتن بالمثناة ، وبالمثلثة : الثابت الدائم ، يوصف به الماء ونحوه . ويروى : بوبر ، والوبر حيوان صغير ذليل لاذنب له يحبس ويعلف ، ومفرد : يروى بالفاء وبالقاف . وقرد الرجل : سكت من عى . وأقرد : سكن وتماوت . وأقردت الشىء : جمعته وصممته وهو منه . ويصطد : مبنى للمجهول ، وهو يناسب رواية وبر . والانجحار : دخول الجحر . والمحكد . الملجأ والمهرب . وحاشا لابن الزبير أن يكون ملحداً .

(٣) قوله «وكان مضعوفا» فى الصحاح : أضعفت الشىء فهو مضعوف ، على غير قياس . (ع)

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

أى ﴿الخبيثات﴾ من القول تقال أو تعد ﴿للخبيثين﴾ من الرجال والنساء ﴿والخبيثون﴾ منهم يتعرضون ﴿للخبيثات﴾ من القول، وكذلك الطيبات والطيبون. و ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الطيبين، وأنهم مبرءون مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلم [1]، وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة ومارميت به من قول لا يطابق حالها فى النزاهة والطيب. ويجوز أن يكون (أولئك) إشارة إلى أهل البيت، وأنهم مبرءون مما يقول أهل الإفك. وأن يراد بالخبيثات والطيبات: النساء، أى: الخبائث يتزوجن الخباث، والخباث الخبائث. وكذلك أهل الطيب. وذكر الرزق الكريم هاهنا مثله فى قوله (وأعتدنا لها رزقا كريما) وعن عائشة: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة: [2] لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتى فى راحته حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجنى. ولقد تزوجنى بكراً وما تزوج بكرا غيرى، ولقد توفى وإن رأسه لفى حجرى، ولقد قبر فى بيتى، ولقد حفته الملائكة فى بيتى. وإن الوحى لينزل عليه فى أهله فيتفرقون عنه وإن كان لينزل عليه وأنا معه فى لحافه. وإنى لابنة خليفته وصديقه، ولقد نزل عذرى من السماء، ولقد خلقت طيبة عند طيب، ولقد وعدت مغفرة ورزقا كريما.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

﴿تستأنسوا﴾ فيه وجهان. أحدهما: أنه من الاستئناس الظاهر الذى هو خلاف الاستيحاش

---

(١) قال محمود: تحتمل الآية أمرين، أحدهما: أن يكون المراد الكلمات الخبيثة للخبيثين، والمراد: الافك ومن أفاض فيه. وعكسه فى الطيبات والطيبين. الثانى: أن يكون المراد بالخبيثات النساء. وبالخبيثين الرجال» قال أحمد: إن كان الأمر على التأويل الثانى. فهذه الآية تفصيل لما أجمله قوله تعالى (الزانية لا ينكحها إلا زان) وقد بينا أنها مشتملة على هذه الأقسام الأربعة تصريحا وتضمينا. فجاءت هذه الآية مصرحة بالجميع. وقد اشتملت على فائدة أخرى وهى الاستشهاد على براءة أم المؤمنين بأنها زوجة أطيب الطيبين، فلا بد وأن تكون طاهرة طيبة مبرأة عما أفكت به. وهذا التأويل الثانى هو الظاهر. فان بعد الآية (لهم مغفرة ورزق كريم) وبهذا وعد أزواجه عليه السلام فى قوله تعالى (نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما) والله أعلم.

(٢) عاد كلامه. قال: ونقل عن عائشة أنها قالت: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة. فذكرت منهن أنها خلقت طيبة عند طيب» قال أحمد: وهذا أيضا يحقق ماذكرته من أن المراد بالطيبات والطيبين: النساء والرجال، وأن المراد بذلك: إظهار براءة عائشة بأنها زوج أطيب الطيبين، فيلزم أن تكون طيبة، وفاء بقوله (والطيبون للطيبات) والله أعلم.

لأن الذي يطرق باب غيره لايدرى أيؤذن له أم لا ؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له استأنس ، فالمعنى : حتى يؤذن لكم كقوله : (لاتدخلوا بيوت النبيّ إلا أن يؤذن لكم) وهذا من باب الكناية والإرداف ؛ [1] لأنّ هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن . فوضع موضع الإذن . والثاني أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف : استفعال من أنس الشيء إذا أبصره ظاهرا مكشوفا . والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال . هل يراد دخولكم أم لا . ومنه قولهم : استأنس هل ترى أحدا . واستأنست فلم أر أحدا ، أى : تعرفت واستعلمت . ومنه بيت النابغة :

* عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحِدِ * [2]

ويجوز أن يكون من الإنس ، وهو أن يتعرف هل ثمة إنسان ؟ وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه : قلنا يارسول الله ، ما الاستئناس؟ قال : يتكلم الرجل بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة ويتنحنح : يؤذن أهل البيت . والتسليم أن يقول : السلام عليكم، أأدخل؟ ثلاث مرات ؛ فإن أذن له وإلا رجع . وعن أبى موسى الأشعرى أنه أتى باب عمر رضى الله عنهما فقال : السلام عليكم أأدخل ؟ قالها ثلاثا ثم رجع وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الاستئذان ثلاثا واستأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أألج ؟ فقال صلى الله عليه وسلم لامرأة يقال لها روضة : قومى إلى هذا فعلميه ، فإنه لايحسن أن يستأذن . قولى له يقول : السلام عليكم أأدخل

---

(١) قال محمود : « فيه وجهان ، أحدهما : أنه من الاستئناس الذى هو ضد الاستيحاش ، أى : حتى يؤذن لكم فتستأنسوا ، عبر بالشيء عما هو رادف له . الثاني : أن يكون من الاستعلام من آنس إذا أبصر . والمعنى : حتى تستكشفوا الحال ، هل يراد دخولكم أم لا ؟ وذكر أيضا وجها بعيدا ، وهو أن المراد حتى تعلموا هل فيها إنسان أم لا ؟ » قال أحمد : فيكون على هذا الأخير بنى من الانس استفعل ، والوجه الأول هو البين . وسر التجوز فيه والعدول إليه عن الحقيقة : ترغيب المخاطبين فى الاتيان بالاستئذان بواسطة ذكر ما له فائدة وثمرة تميل النفوس اليها وتنفر من ضدها وهو الاستيحاش الحاصل بتقدير عدم الاستئذان . ففيه تهييض للدواعى على سلوك هذا الأدب ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(٢) كأن رحلى وقد زال النهار بنا بذى الجليل على مستأنس وحد

للنابغة ، يصف جمله بأنه كحمار الوحش المسرع خوفا مما رآه . وقال الأصمعى : زال النهار : انتصف ، ولعله لزوال الشمس فيه عن وسط السماء . ويجوز أن المعنى : مضى ولم يبق منه إلا قليل ، كما هو متبادر إسناد الزوال إلى النهار . وبنا : أى علينا . ويجوز أن الباء للملابسة . والجليل . شجر له خوص كخوص النخل . وذو الجليل : موضعه . والمستأنس : الذى يرفع رأسه ، هل يرى شخصا ؟ وقيل : الذى يخاف الأنيس . واستأنست بالشيء : سكن إليه قلبي . واستأنست : استعلمت واستبصرت وخفت من الأنيس . والوحد . المنفرد : ووحد كظرف ، فهو وحيد . ووحد كسبب ، ووحد كحذر : انفرد ، أى كان الرجل فوق ذلك الحمار لافوق الجمل . لسرعة سيره كالحمار .

فسمعها الرجل فقالها ، فقال : ادخل [1] . وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم إذا دخل بيتا غير بيته : حييتم صباحا ، وحييتم مساء ، ، ثم يدخل ، فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف واحد ، فصدّ الله عن ذلك ، وعلم الأحسن والأجمل . وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به . وباب الاستئذان من ذلك : بينا أنت فى بيتك ، إذا رعف عليك الباب [2] . بواحد ، من غير استئذان ولا تحية من تحايى إسلام ولا جاهلية ، وهو ممن سمع ما أنزل الله فيه ، وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أين الأذن الواعية ؟ وفى قراءة عبد الله : حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا . وعن ابن عباس وسعيد بن جبير : إنما هو حتى تستأذنوا ، فأخطأ الكاتب . ولا يعول على هذه الرواية . وفى قراءة أبىّ : حتى تستأذنوا ﴿ذلكم﴾ الاستئذان والتسليم ﴿خير لكم﴾ من تحية الجاهلية والدمور — وهو الدخول بغير إذن — واشتقاقه من الدمار وهو الهلاك ، كأن صاحبه دامر لعظم ما ارتكب . وفى الحديث «من سبقت عينه استئذانه فقد دمر» [3] وروى أنّ رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أأستأذن على أمى ؟ قال : نعم ، قال : إنها ليس لها خادم غيرى ، أأستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة قال الرجل : لا . قال : فاستأذن [4] ﴿لعلكم تذكرون﴾ أى أنزل عليكم ، أو قيل لكم هذا إرادة أن تذكروا وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به فى باب الاستئذان .

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾

يحتمل ﴿فإن لم تجدوا فيها أحدا﴾ من الآذنين ﴿فلا تدخلوها﴾ واصبروا حتى تجدوا من

(١) أخرجه ابن أبى شيبة من رواية سفيان السمان : سمعت سعيد بن جبير ولم يسم روضة ، قال فيه : «وقال لخادمه» .

(٢) قوله «إذا رعف عليك الباب» فى الصحاح : رعف الرجل ، إذا خرج الدم من أنفه . ورعف الفرس ، إذا سبق وتقدم ، فكأن ماهنا مجاز على وجه التشبيه . (ع)

(٣) أخرجه الطبرانى من طريق أبى السفر عن يزيد بن شريح عن أبى أمامة بلفظ «من أدخل عينه فى بيت من غير إذن أهله فقد دمره» ولإبراهيم الحربى فى الغريب من حديث ثور بن يزيد عن يزيد بن شريح عن أبى حى المؤذن عن أبى هريرة بلفظ «لا يحل لمسلم أن ينظر فى بيت حتى يستأذن فان فعل فقد دمر» قال أبو عبيدة فى غريب الحديث : حدثنا هشيم عن منصور بن الحسن بلفظه مرسلا قال قال الكسائى «دمر» بالتخفيف أى دخل بغير إذن .

(٤) أخرجه أبو داود فى المراسيل من حديث عطاء بن يسار «أن رجلا سأل» فذكره مرسلا ، وهو فى الموطأ عن صفوان بن سليم عن عطاء . وأورده الطبرى من طريق زياد بن سعد عن عطاء مرسلا أيضا وقال ابن أبى شيبة فى النكاح : حدثنا ابن عيينة عن زيد بن أسلم فذكره مرسلا

يأذن لكم . ويحتمل : فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها ، وذلك أنّ الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الدامر على عورة ، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط ، وإنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم ويتحفظون من اطلاع أحد عليها ، ولأنه تصرف في ملك غيرك فلا بدّ من أن يكون برضاه ، وإلا أشبه الغصب والتغلب ﴿فارجعوا﴾ أي لا تلحوا في إطلاق الإذن ، ولا تلجوا في تسهيل الحجاب ، ولا تقفوا على الأبواب منتظرين ؛ لأن هذا مما يجلب الكراهة ويقدح في قلوب الناس خصوصا إذا كانوا ذوي مروأة ومرتاضين بالآداب الحسنة وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها : من قرع الباب بعنف ، والتصييح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهذب من أكثر الناس . وعن أبي عبيد : ما قرعت بابا على عالم قط . وكفى بقصة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) . فإن قلت : هل يصح أن يكون المعنى : وإن لم يؤذن لكم وأمرتم بالرجوع فامتثلوا ، ولا تدخلوا مع كراهتهم ؟ قلت : بعد أن جزم النهي عن الدخول مع فقد الإذن وحده من أهل الدار حاضرين وغائبين ، لم تبق شبهة في كونه منهيا عنه مع انضمام الأمر بالرجوع إلى فقد الإذن . فإن قلت : فإذا عرض أمر في دار : من حريق ، أو هجوم سارق ، أو ظهور منكر يجب إنكاره ؟ قلت : ذلك مستثنى بالدليل ، أي : الرجوع أطيب لكم وأطهر ، لما فيه من سلامة الصدور والبعد من الريبة . أو أنفع وأنمى خيرا . ثم أوعد المخاطبين بذلك بأنه عالم بما يأتون وما يذرون مما خوطبوا به فموف جزاءه عليه .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

استثنى من البيوت التي يجب الاستئذان على داخلها : ما ليس بمسكون منها ، وذلك نحو الفنادق وهي الخانات والربط وحوانيت البياعين . والمتاع : المنفعة ، كالاستكنان من الحر والبرد ، وإيواء الرحال والسلع والشراء والبيع . ويروى أن أبا بكر رضي الله عنه قال : يارسول الله ، إنّ الله تعالى قد أنزل عليك آية في الاستئذان ، وإنا نختلف في تجاراتنا فننزل هذه الخانات أفلا ندخلها إلا بإذن [1] ؟ فنزلت . وقيل . الخربات يتبرز فيها . والمتاع : التبرز ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة .

---

(١) لم أجده

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)

من للتبعيض ، والمراد غضّ البصر عما يحرم ، والاقتصار به على ما يحلّ . وجوّز الأخفش أن تكون مزيدة ، وأباه سيبويه . فإن قلت : كيف دخلت فى غضّ البصر دون حفظ الفروج؟ قلت : دلالة على أن أمر النظر أوسع . ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهنّ وصدورهنّ وثديهنّ وأعضادهنّ وأسوقهنّ وأقدامهنّ وكذلك الجوارى المستعرضات ، والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها وقدميها فى إحدى الروايتين . وأما أمر الفرج فضيق ، وكفاك فرقا أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه ، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه . ويجوز أن يراد ـ مع حفظها عن الإفضاء إلى ما لا يحل ـ حفظها عن الإبداء . وعن ابن زيد : كل ما فى القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا ، إلا هذا فإنه أراد به الاستتار . ثم أخبر أنه ﴿خبير﴾ بأفعالهم وأحوالهم ، وكيف يجيلون أبصارهم ؟ وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم ؟ فعليهم ـ إذ عرفوا ذلك ـ أن يكونوا منه على تقوى وحذر فى كل حركة وسكون .

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

النساء مأمورات أيضاً بغض الأبصار ، ولا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبى إلى ما تحت سرته إلى ركبته ، وإن اشتهت غضت بصرها رأساً ، ولا تنظر من المرأة إلا إلى مثل ذلك . وغضها بصرها من الأجانب أصلا أولى بها وأحسن . ومنه حديث ابن أم مكتوم عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة ، فأقبل ابن أم مكتوم ـ وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب ـ فدخل علينا فقال : احتجبا ، فقلنا : يارسول الله ،

أليس أعمى لا يبصر؟ قال: أفعمياوان أنتما؟ [1] ألستما تبصرانه؟ فإن قلت: لم قدّم غض الأبصار على حفظ الفروج؟ قلت: لأنّ النظر بريد الزنى ورائد الفجور، والبلوى فيه أشدّ وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه. الزينة: ما تزينت به المرأة من حلىّ أو كحل أو خضاب، فما كان ظاهراً منها كالخاتم والفتخة [2] والكحل والخضاب، فلا بأس بإبدائه للأجانب، وما خفى منها كالسوار والخلخال والدملج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط، فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين. وذكر الزينة دون مواقعها: للمبالغة فى الأمر بالتصوّن والتستر، لأنّ هذه الزين واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء، وهى الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن، فنهى عن إبداء الزين نفسها، ليعلم أنّ النظر إذا لم يحل إليها لملابستها تلك المواقع ـ بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها لا مقال فى حله ـ كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكنا فى الحظر، ثابت القدم فى الحرمة، شاهداً على أن النساء حقهن أن يحتطن فى سترها ويتقين الله فى الكشف عنها [3] فإن قلت: ما تقول فى القراميل [4]، هل يحل نظر هؤلاء إليها؟ قلت: نعم. فإن قلت: أليس موقعها الظهر ولا يحل لهم النظر إلى ظهرها وبطنها، وربما ورد الشعر فوقعت القراميل على ما يحاذى ما تحت السرة؟ قلت: الأمر كما قلت، ولكن أمر القراميل خلاف أمر سائر الحلى، لأنه لا يقع إلا فوق اللباس، ويجوز النظر إلى الثوب الواقع على الظهر والبطن للأجانب فضلا عن هؤلاء. إلا إذا كان يصف لرقته فلا يحل النظر إليه، فلا يحل النظر إلى القراميل واقعة عليه. فإن قلت: ما المراد بموقع الزينة؟ ذلك العضو كله، أم المقدار الذى تلابسه الزينة منه؟ قلت: الصحيح أنه العضو كله كما فسرت مواقع الزينة الخفية، وكذلك مواقع الزينة الظاهرة: الوجه موقع الكحل فى عينيه، والخضاب

(١) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبرانى كلهم من رواية نبهان كاتب أم سلمة عنها. قال النسائى: لانعلم رواه عن نبهان إلا الزهرى وقال إسحق فى مسنده: أخبرنا يحيى بن آدم حدثنا مندل عن يونس عن الزهرى عن نبهان عن أم سلمة قالت «استأذن ابن أم مكتوم وأنا وزينب عنده ـ الحديث. ومندل ضعيف خالف فى ذكر زينب بدل ميمونة.

(٢) قوله «والفتخة... الخ» فى الصحاح: الفتخة ـ بالتحريك ـ حلقة من فضة لافص فيها، فاذا كان فيها فص فهو الخاتم، وربما جعلتها المرأة فى أصابع رجليها. وفيه «الاكليل» شبه عصابة تزين بالجوهر. ويسمى التاج: إكليلا. (ع)

(٣) قال محمود: «المراد النهى عن إبداء مواضع الزينة» فليس النهى عن إظهار الزينة مقصوداً لعينه. ولكن جعل نفسها كناية عن إبداء مواقعها بطريق الأولى. قال أحمد: وقوله تعالى عقيب ذلك (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن) محقق أن إبداء الزينة بعينه مقصوداً بالنهى، لأنه قد نهى عما هو ذريعة إليه خاصة، إذ الضرب بالأرجل لم يعلل النهى عنه إلا بعلم أن المرأة ذات زينة وإن لم تظهر، فضلا عن مواضعها، والله أعلم.

(٤) قوله «والقراميل» فى الصحاح: القراميل، ماتشده المرأة فى شعرها. (ع)

بالوسمة (١) فى حاجبيه وشاربيه، والغمرة فى خديه، والكف والقدم موقعا الخاتم والفتخة والخضاب بالحناء. فإن قلت: لم سومح مطلقا فى الزينة الظاهرة؟ قلت: لأن سترها فيه حرج، فإن المرأة لا تجد بدّا من مزاولة الأشياء بيديها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها، خصوصاً فى الشهادة والمحاكمة والنكاح، وتضطر إلى المشي فى الطرقات وظهور قدميها، وخاصة الفقيرات منهن، وهذا معنى قوله ﴿إلا ما ظهر منها﴾ يعنى إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره والأصل فيه الظهور، وإنما سومح فى الزينة الخفية. أولئك المذكورون لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخالطتهم، ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم، ولما فى الطباع من النفرة عن مماسة القرائب، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم فى الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك. كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها، وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة. فأمرن بأن يسدلنها من قدامهن حتى يغطينها، ويجوز أن يراد بالجيوب: الصدور تسمية بما يليها ويلابسها. ومنه قولهم: ناصح الجيب. وقولك: ضربت بخمارها على جيبها، كقولك: ضربت بيدى على الحائط، إذا وضعتها عليه. وعن عائشة رضى الله عنها: ما رأيت نساء خيراً من نساء الأنصار، لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهن إلى مرطها (٢) المرحل فصدعت منه صدعة، فاختمرن، فأصبحن كأن على رءوسهن الغربان (٣). وقرئ: جيوبهن، بكسر الجيم لأجل الياء. وكذلك (بيوتا غير بيوتكم) قيل فى نسائهن: هن المؤمنات، لأنه ليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدى مشركة أو كتابية. عن ابن عباس رضى الله عنهما. والظاهر أنه عنى بنسائهن وما ملكت أيمانهن: من فى صحبتهن وخدمتهن من الحرائر والإماء والنساء، كلهن سواء فى حل نظر بعضهن إلى بعض. وقيل: ما ملكت أيمانهن هم الذكور والإناث جميعاً. وعن عائشة رضى الله عنها أنها أباحت النظر إليها لعبدها، وقالت لذكوان: إنك إذا وضعتنى فى القبر وخرجت

(١) قوله «والخضاب بالوسمة» فى الصحاح: الوسمة - بكسر السين - العظلم يختضب به، وتسكينها لغة. وفيه «العظلم» نبت يصبغ به. وفيه أيضاً «الغمرة» طلاء يتخذ من الورس. (ع)

(٢) قوله «قامت كل واحدة منهن إلى مرطها» فى الصحاح «المرط» كساء من صوف أو خز كان يؤتزر به. وفيه أيضاً «مرط مرحل» إزار خز فيه علم. (ع)

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم من طريق مسلم بن خالد عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن صفية عنها وأتم منه. وأخرجه ابن مردويه من طريق داود بن عبد الرحمن ومن طريق روح بن القاسم. كلاهما عن ابن خثيم. وأخرجه أبو داود مختصراً من وجه آخر عن قرة عن الزهري عن عروة عن عائشة. ولفظه البخاري قال قال أحمد بن شبيب: حدثنا أبى عن يونس عن الزهرى به: قلت ووصله ابن مردويه من طريق أحمد بن شبيب.

فأنت حر [١] . وعن سعيد بن المسيب مثله [٢] ، ثم رجع وقال : لا تغرنكم آية النور ، فإن المراد بها الإماء [٣] . وهذا هو الصحيح ، لأن عبد المرأة بمنزلة الأجنبي منها ، خصياً كان أو فحلا . وعن ميسون بنت بحدل الكلابية : أن معاوية دخل عليها ومعه خصيّ ، فتقنعت منه ، فقال : هو خصيّ فقالت : يا معاوية ، أترى أن المثلة به تحلل ما حرّم الله [٤] ؟ وعند أبي حنيفة : لا يحل استخدام الخصيان وإمساكهم وبيعهم وشراؤهم ، ولم ينقل عن أحد من السلف إمساكهم . فإن قلت : روى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم خصيّ فقبله . قلت : لا يقبل فيما تعم به البلوى إلا حديث مكشوف ، فإن صح فلعله قبله ليعتقه [٥] ، أو لسبب من الأسباب . ﴿الإربة﴾ الحاجة ، قيل : هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ، ولا حاجة لهم إلى النساء ، لأنهم بله لا يعرفون شيئا من أمرهن . أو شيوخ صلحاء إذا كانوا معهن غضوا أبصارهم ؛ أو بهم عنانة . وقرئ (غير) بالنصب على الاستثناء أو الحال ، والجر على الوصفية . وضع الواحد موضع الجمع لأنه يفيد الجنس . ويبين ما بعده أن المراد به الجمع . ونحوه (نخرجكم طفلا) . ﴿لم يظهروا﴾ إما من ظهر على الشيء إذا اطلع عليه ، أي : لا يعرفون ما العورة ولا يميزون بينها وبين غيرها . وإما من ظهر على فلان إذا قوى عليه ، وظهر على القرآن : أخذه وأطاقه ، أي : لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء . وقرئ : عورات ، وهي لغة هذيل . فإن قلت : لم لم يذكر الله الأعمام والأخوال؟ قلت : سئل الشعبي عن ذلك ؟ فقال : لئلا يصفها العم عند ابنه ، والخال كذلك . ومعناه : أن

(١) هذا ملفق من أثرين ، الأول : أخرجه البيهقي من طريق عمرو بن ميمون عن سليمان بن يسار قال استأذنت على عائشة فقالت : سليمان ؟ ادخل . فانك عبد مابقي عليك درهم وعلقه البخاري عن سليمان والثاني أخرجه ابن سعد من رواية محمد بن علي بن الحسين «أن عائشة رضي الله عنها قالت : إذا كفنت ودفنت وحنطت ودلاني ذكوان في حفرتي فهو حر» وأخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج . أخبرني ابن أبي مليكة أن عائشة رضي الله عنها قالت «إذا غيبني أبو عمرو ودلاني في حفرتي فهو حر» .

(٢) لم أره

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة من رواية طارق عن سعيد بن المسيب «لاتغرنكم الآية : (إلا ماملكت أيمانكم) إنما عنى الاماء دون العبيد»

(٤) لم أجده قلت : ذكره المسعودي في مروج الذهب بغير إسناد .

تنبيه : وقع في الكشاف الكلابية . والصواب الكلبية بسكون اللام . والقصة ذكرها غيره بينت قرظة .

(٥) أخرجه ابن سعد أخبرنا محمد بن عمر . حدثنا يعقوب بن أبي صعصعة عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة قال «أهدى المقوقس صاحب الاسكندرية إلى النبي صلى الله عليه وسلم سنة سبع من الهجرة . مارية وأختها سيرين ، وألف مثقال ذهب وعشرين ثوباً وبغلة . وحماره عفيراً وخصياً يقال له مابور . فعرض حاطب على مارية الاسلام فأسلمت هي وأختها ثم أسلم الخصي بعد» وقع ذكر الخصي هذا في عدة أحاديث منها حديث علي رضي الله عنه . وقوله «وهذا ضعيف ، ولا يقبل فيما تعم به البلوى ، إلا حديث مكشوف إن صح . ولعله قبله ليعتقه » اه . وليس هذا فيما تعم به البلوى في شيء .

سائر القرابات يشترك الأب والابن فى المحرمية [1] إلا العم والخال وأبناءهما. فإذا رآها الأب فربما وصفها لابنه وليس بمحرم، فيدانى تصوره لها بالوصف نظره إليها، وهذا أيضا من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن فى التستر. كانت المرأة تضرب الأرض برجلها ليتقعقع خلخالها، فيعلم أنها ذات خلخال. وقيل: كانت تضرب بإحدى رجليها الأخرى، ليعلم أنها ذات خلخالين. وإذا نهين عن إظهار صوت الحلى بعد ما نهين عن إظهار الحلى، علم بذلك أن النهى عن إظهار مواضع الحلى أبلغ وأبلغ. أوامر الله ونواهيه فى كل باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها. وإن ضبط نفسه واجتهد، ولا يخلو من تقصير يقع منه، فلذلك وصى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار، وبتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: توبوا مما كنتم تفعلونه فى الجاهلية؛ لعلكم تسعدون فى الدنيا والآخرة فإن قلت: قد صحت التوبة بالإسلام. والإسلام يجب ما قبله، فما معنى هذه التوبة؟ قلت: أراد بها ما يقوله العلماء: إن من أذنب ذنباً ثم تاب عنه، يلزمه كلما تذكره أن يجدد عنه التوبة؛ لأنه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه إلى أن يلقى ربه. وقرئ: أيه المؤمنون، بضم الهاء، ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت الألف لالتقاء الساكنين أتبعت حركتها حركة ما قبلها.

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢)

﴿الأيامى﴾ واليتامى: أصلهما أيائم ويتائم، فقلبا. والأيم: للرجل والمرأة. وقد آم وآمت وتأيما: إذا لم يتزوجا بكرين كانا أو ثيبين. قال:

فَإِنْ تَنْكِحِي أَنْكِحْ وَإِنْ تَتَأَيَّمِي   وَإِنْ كُنْتُ أَفْتَى مِنْكُمُ أَتَأَيَّمُ [2]

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم [3]. «اللهم إنا نعوذ بك من العيمة والغيمة والأيمة والكزم والقرم [4]». والمراد: أنكحوا من تأيم منكم من الأحرار والحرائر. ومن كان فيه صلاح من

---

(١) قوله «يشترك الأب والابن فى المحرمية» الرابط محذوف. أى: يشترك بها الأب ... الخ. (ع)

(٢) آم الرجل - بالمد - والمرأة. وتأيما: إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين، يقول لمحبوبته: إن تتزوجى أتزوج وإن لم تتزوجى لم أتزوج. وجملة «وإن كنت أفتى منكم» اعتراضية. والأفتى الأكثر فتية وشبابا. وعبر بضمير جمع الذكور للتعظيم، ورفع المضارع فى جواب الشرط كما هنا قليل، ولعله ارتكبه لأجل القافية.

(٣) لم أجده

(٤) قوله «من العيمة والغيمة والأيمة والكزم والقرم» فى الصحاح «العيمة» شهوة اللبن. وفيه: «الغيم»=

غلمانكم وجواريكم . وقرئ : من عبيدكم . وهذا الأمر للندب لما علم من أن النكاح أمر مندوب إليه[1] ، وقد يكون للوجوب في حق الأولياء عند طلب المرأة ذلك ، وعند أصحاب الظواهر : النكاح واجب . ومما يدل على كونه مندوبا إليه قوله صلى الله عليه وسلم : «من أحب فطرتى فليستن بسنتى وهى النكاح»[2] وعنه عليه الصلاة والسلام «من كان له ما يتزوج به فلم يتزوج فليس منا»[3] . وعنه عليه الصلاة والسلام «إذا تزوج أحدكم عج[4] شيطانه : ياويله ، عصم ابن آدم منى ثلثى[5] دينه» وعنه عليه الصلاة والسلام : «ياعياض لا تزوجن عجوزاً ولا عاقراً ، فإنى مكاثر[6]» والأحاديث فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم والآثار كثيرة ، وربما كان واجب الترك إذا أدى إلى معصية أو مفسدة . وعن النبي صلى الله عليه وسلم «إذا

العطش وحر الجوف اهـ وهو يفيد أن «الغيمة» المرة من ذلك . وفيه «والأيامى» الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء . وآمت المرأة من زوجها تئيم أيمة . وفيه : كزم الشيء بمقدم فيه ، أى : كسره واستخرج ما فيه . وفيه : قرم الصبي والبهم قرما ، وهو أكل ضعيف في أول ما يأكل . والقرم - بالتحريك - : شدة شهوة اللحم اهـ . ويروى في الحديث «والقذم» بالذال بدل الراء . وفي الصحاح : القذم على وزن الهجف : الشديد . وفيه أيضاً : الهجف من النعام ومن الناس ، الجافى الثقيل . قال الكميت :

هو الأضبط الهواس فينا شجاعة وفيمن يعاديه الهجف المثقل

ولا يستقيم الوزن إلا بتشديد الفاء . وفيه «الهواس» : الأسد (ع)

(١) قال محمود : «وهذا أمر والمراد به الندب ، ثم ذكر أحاديث تدل على ذلك ، وأدرج فيها قوله عليه الصلاة والسلام : من وجد نكاحا فلم ينكح فليس منا» قال أحمد : وهذا بأن يدل على الوجوب أولى ، ولكن قد ورد مثله في ترك السنن كثيراً ، وكأن المراد : من لم يستن بسنتنا . على أنه قد ورد في الواجب كقوله «من غشنا فليس منا» ومجانبة الغش واجبة «ومن شهر السلاح في فتنة فليس منا» ومثله كثير

(٢) أخرجه عبد الرزاق من رواية عبيد بن سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكره مرسلا وأخرجه أبو يعلى من هذا الوجه فكأنه ظن أن عبيد بن سعيد له صحبة . ولابن عدى من رواية أبى حرة واصل ابن عبد الرحمن عن الحسن عن أبى هريرة بلفظ «من أحب فطرتى فليتبعن سنتى وإن من سنتى النكاح»

(٣) أخرجه أبو داود في المراسيل وأحمد وإسحاق والدارمى والطبراني وعبد الرزاق وابن أبى شيبة كلهم من رواية أبى المغلس عن أبى نجيح رفعه «من كان موسراً لأن ينكح فلم ينكح فليس منا» وأخرجه الثعلبى من هذا الوجه ، بلفظ المصنف ، قال ابن راهويه : رواه بعضهم عن ابن جريج عن أبى المغلس عن أبى نجيح عمرو بن عبسة قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو غلط . وليس أبو نجيح هذا عمرو بن عبسة . وقد رواه الحارث بن أبى أسامه في مسنده عن الحكم بن موسى عن الوليد بن مسلم عن ابن جريج حدثنى أبو المغلس سمعت أبا نجيح السلمى يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ... فذكر نحوه

(٤) قوله «عج شيطانه» أى : صاح . (ع)

(٥) أخرجه أبو يعلى والطبراني في الأوسط ، والثعلبى من رواية صالح مولى التوأمة عن جابر . وعن بعضهم عن أبى هريرة بدل جابر وفى إسناده خالد بن إسماعيل المخزومى وهو متروك

(٦) أخرجه الحاكم والثعلبى من رواية معاوية بن يحيى عن يحيى بن جابر عن جبير بن معمر عن عياض بن غنم الأشعرى ومعاوية ضعيف ، وقوله «والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم والآثار كثيرة اهـ» فمنها حديث أنس

أتى على أمتى مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزوبة والعزلة والترهب على رؤس الجبال[(١)] » وفى الحديث « يأتى على الناس زمان لاتنال المعيشة فيه إلا بالمعصية ، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة[(٢)] » فإن قلت : لم خص الصالحين ؟ قلت : ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم ، ولأن الصالحين من الأرقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم وينزلونهم منزلة الأولاد فى الأثرة والمودّة ، فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتقبل الوصية فيهم . وأما المفسدون منهم فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك . أو أريد بالصلاح : القيام بحقوق النكاح . ينبغى أن تكون شريطة الله غير منسية فى هذا الموعد ونظائره وهى مشيئته[(٣)] ، ولا يشاء الحكيم

= رضى الله عنه فى الصحيحين « أن أناساً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم سألوا أزواجه عن عمله فى السر فقال بعضهم لا آكل اللحم وقال بعضهم لا أتزوج النساء ... الحديث » وفيه « لكنى أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » ومنها حديث ابن مسعود رضى الله عنه « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج » متفق عليه وقد تقدم فى المائدة . وحديث أنس رضى الله عنه : « كان يأمر بالباءة وينهى عن التبتل » وأخرجه ابن حبان وحديث « تزوجوا توالدوا وتناسلوا فانى مباه بكم الأمم » له طرق فى السنن وغيرها . وحديث عطية بن بشر فى قصة عكاف بن وداعة الهلالى فى الحض على التزويج . وفيه « إن شراركم عزابكم » رواه إسحاق فى مسنده أخبرنا نضية عن معاوية بن يحيى الصدفى أنه حدثه عن سليمان بن موسى عن مكحول عن غضيف بن الحارث عن عطية بن بشر بطوله . رواه الطبرانى فى مسند الشاميين من رواية ابن عتبة عن برد بن سنان عن مكحول عن عطية بن بشر لم يذكر غضيف وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق عن محمد بن راشد عن مكحول عن أبى ذر فذكر نحوه ومنها حديث أنس رضى الله عنه « من تزوج فقد استكمل نصف الايمان فليتق الله فى النصف الثانى » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وإسناده ضعيف جداً وسيأتى باقيها بعد .

(١) أخرجه البيهقى والثعلبى من حديث ابن مسعود . وفى إسناده سليمان بن عيسى الخراسانى وهو كذاب . ومن طريقه رواه ابن الجوزى فى الموضوعات . لكن له طريق أخرى . أخرجه على بن معبد فى كتاب الطاعة والمعصية عن الحسن بن واقد الحنفى . قال : أظنه من حديث بهز بن حكيم فذكره وهو متصل .

(٢) أخرجه على بن معبد فى الطاعة والمعصية حدثنا عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه من شاهق إلى شاهق ، ومن حجر إلى حجر ، فاذا كان ذلك حلت العزوبة . قيل كيف تحل العزوبة ـ فذكر حديثاً طويلا » وصله الخطابى فى العزلة من طريق السعرى بن يحيى عن الحسن عن أبى الأحوص عن عبد الله . وفى إسناده محمد بن يونس الكديمى وهو ضعيف

(٣) عاد كلامه . قال : « ينبغى أن تكون شريطة الحكمة والمصلحة غير منسية » واستشهد على ذلك بقوله (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) قال أحمد : جنوحه للمعتقد الفاسد يمنع عليه الصواب . فان معتقده وجوب رعاية المصالح على الله تعالى . فمن ثم شرط الحكمة والمصلحة محجراً واسعاً من فضل الله تعالى ، ثم استشهد على ذلك بما يشهد عليه لا له . فان قوله تعالى فى الآية الأخرى (إن شاء) يقتضى أن وقوع الغنى مشروط بالمشيئة خاصة ، وهذا معتقد أهل الحق ، فطاح اشتراط الحكمة عن محل الاستدلال . تعالى عن الإيجاب رب الأرباب . لكن ينبغى التنبه لنكتة تدعو الحاجة إلى التنبيه عليها ، ليعم نفعها ويعظم وقعها إن شاء الله ، وذلك أنا إذا بنينا على أن ثم شرطا محذوفا ، لابد من تقديره ضرورة صدق الخبر ، إذ لو اعتقدنا أن الله تعالى يغنى كل متزوج على الاطلاق مع أنا نشاهد كثيراً ممن استمر به الفقر بعد النكاح بل زاد ، للزم خلف الوعد ـ تقدس الله =

إلا ماالقتضته الحكمة وما كان مصلحة [١] ، ونحوه : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب) وقد جاءت الشريطة منصوصة فى قوله تعالى : (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إنّ الله عليم حكيم) ومن لم ينس هـذه الشريطة لم ينتصب معترضاً بعزب كان غنياً فأفقره النكاح ، وبفاسق تاب واتق الله وكان له شيء ففنى وأصبح مسكيناً . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « التمسوا الرزق بالنكاح [٢] » .

ـــ وتعالى عن ذلك ـ فقد ثبت الاضطرار إلى تقدير شرط للجمع بين الوعد والواقع . فالقدرية يقولون : المراد إن اقتضت الحكمة ذلك ، فكل من لم يغنه الله بأثر التزوج فهو ممن لم تقتض الحكمة إغناءه . وقد أبطلنا أن يكون هذا الشرط هو المقدر ، وحتمنا أن المقدر شرط المشيئة كما ظهر فى الآية الأخرى ، وحينئذ فكل من يستغن بالنكاح فذلك لأن الله تعالى لم يشأ غناه . فلقائل أن يقول : إذا كانت المشيئة هي المعتبرة فى غنى المتزوج ، فهي أيضا المعتبرة فى غنى الأعزب ، فما وجه ربط وعد الغنى بالنكاح ، مع أن حال الناكح منقسم فى الغنى على حسب المشيئة ، فمن مستغن به ، ومن فقير كما أن حال غير الناكح كذلك منقسم ، وليس هذا كاقرار شرط المشيئة فى الغفران للموحد العاصى ، فان الوعد ثم له ارتباط بالتوحيد . وإن ارتبط بالمشيئة أيضا ، من حيث أن غير الموحد لايغفر الله له حتما ، ولاتستطيع أن تقول : وغير الناكح لايغنيه الله حتما ، لأن الواقع يأباه . فالجواب - وبالله التوفيق - : أن فائدة ربطه الغنى بالنكاح : أنه قد ركز فى الطباع السكون إلى الأسباب والاعتماد عليها ، والغفلة عن المسبب جل وعلا ، حتى غلب الوهم على العقل ، فخيل أن كثرة العيال سبب يوجب الفقر حتما ، وعدمها سبب يوجب توفير المال جزما ، وإن كان واحد من هذين السببين غير مؤثر فيما ربطه الوهم به . فأريد قلع هذا الخيال المتمكن من الطبع بالايذان بأن الله تعالى قد يوفر المال وينميه ، مع كثرة العيال التى هى سبب فى الأوهام لنفاذ المال ، وقد يقدر الاملاق مع عدمه الذى هو سبب فى الاكثار عند الأوهام والواقع يشهد بذلك فلا مراء . فدل ذلك قطعا على أن الأسباب التى يتوهمها البشر مرتبطات بمسبباتها ارتباطا لاينفك ليست على مايزعمونه ، وإنما يقدر الغنى والفقر مسبب الأسباب ، غير موقوف ، تقدير ذاك إلا على مشيئة خاصة ، وحينئذ لاينفر العاقل المتيقظ من النكاح ، لأنه استقر عنده أن لا أثر له فى الاقتار ، وأن الله تعالى لا يمنعه ذلك من إغنائه ، ولايؤثر أيضاً الخلو عن النكاح لأجل التوفير ، لأنه قد استقر أن لا أثر له فيه ، وأن الله تعالى لا يمنعه مانع أن يقتر عليه ، وأن العبد إن تعاطى سبباً فلا يكن ناظراً إليه ولكن إلى مشيئة الله تعالى وتقدس ، فمعنى قوله حينئذ (إن يكونوا فقراء . . . الآية) أن النكاح لا يمنعهم الغنى من فضل الله ، فعبر عن نفى كونه مانعا من الغنى بوجوده معه ، ولا تبطل المانعية إلا وجود ما يتوهم ممنوعا مع ما يتوهم مانعاً ولو فى صورة من الصور على أثر ذلك ، فمن هذا الوادى أمثال قوله تعالى (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض) فان ظاهر الأمر طلب الانتشار عند انقضاء الصلاة ، وليس ذلك بمراد حقيقة ، ولكن الغرض تحقيق زوال المانع وهو الصلاة ، وبيان أن الصلاة متى قضيت فلا مانع ، فعبر عن نفى المانع بالانتشار بما يفهم تقاضى الانتشار ، مبالغة فى تحقيق المعنى عند السامع والله أعلم ، فتأمل هذا الفصل واتخذه عضداً حيث الحاجة إليه .

(١) قوله « إلا ماالقتضته الحكمة وما كان مصلحة » كأنه مبنى على أنه تعالى يجب عليه فعل الصلاح ، وهو مذهب المعتزلة . وعند أهل السنة : لايجب على الله شيء . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية مسلم بن خالد وابن مردويه من رواية أبى السائب سلام بن جنادة عن أبى أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة مرفوعا « تزوجوا النساء فانهن يأتين بالمال » قال الحاكم تفرد به سلام وهو ثقة : وقال البزار والدارقطنى وغير سلام يرويه مرسلا اه . وهو كما قال . وقد أخرجه أبو بكر بن أبى شيبة عن أبى أسامة ـــ

وشكا إليه رجل الحاجة فقال [١] : «عليك بالباءة [٢]» ، وعن عمر رضى الله عنه : عجبت لمن لا يطلب الغنى بالباءة [٣] . ولقد كان عندنا رجل رازح الحال ، ثم رأيته بعد سنين وقد انتعشت حاله وحسنت ، فسألته ؟ فقال : كنت فى أول أمرى على ما علمت ، وذلك قبل أن أرزق ولداً ، فلما رزقت بكر ولدى تراخيت عن الفقر ، فلما ولد لى الثانى زدت خيراً ، فلما تتاموا ثلاثة صبّ الله علىّ الخير صبا ، فأصبحت إلى ما ترى ﴿ والله واسع ﴾ أى غنىّ ذو سعة لا يرزؤه [٤] إغناء الخلائق ، ولكنه ﴿ عليم ﴾ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .

وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣)

﴿ وليستعفف ﴾ وليجتهد فى العفة وظلف النفس [٥] ، كأنّ المستعفف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه ﴿ لا يجدون نكاحا ﴾ أى استطاعة تزوج . ويجوز أن يراد بالنكاح :

—— فلم يذكر عائشة . وكذلك أخرجه أبو داود فى المراسيل عن ابن التوأمة عن أبى أسامة وأخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف فى تاريخ جرجان من رواية الحسين بن علوان عن هشام موصولا . والحسين متهم بالكذب ﴿ تنبيـــه ﴾ ظن المخرج أن هذا يرد على كلام البزار والدارقطنى . وليس كما ظن لأنه قال قد تابعه عبد المؤمن العطار وقال أيضا تابعه عبد الله بن ناجية فأما الأول فالمتابع إنما هو الحسين شيخ عبد المؤمن وقد قلنا إنه لا يسوى شيئا . وأما الثانى فإنما رواه ابن ناجية عن أبى السائب نفسه فظهر تفرد أبى السائب بوصله من بين الثقات . وأما الحسين بن علوان فلا تفيد متابعته شيئا لوهنه .

(١) أخرجه الثعلبى من رواية الدارقطنى عن أبى عجلان «أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فشكى إليه الحاجة . الحديث» .

(٢) قوله «فقال عليك بالباءة» فى الصحاح سمى النكاح باء وباءة ؛ لأن الرجل يتبوأ من أهله ، أى : يستمكن منها كما يتبوأ من داره ، وفيه أيضا «الرازح من الابل» الهالك هزالا اه ، فان كان مختصا بالابل فقد يتوسع فيه إلى غيرها . (ع)

(٣) رواه هشام بن حسان عن الحسن عن عمر نحوه .

(٤) قوله «لا يرزؤه» أى : لا ينقصه . (ع)

(٥) قوله «وظلف النفس» فى الصحاح : ظلف نفسه عن الشيء ، أى : منعها . وظلفت نفسى عن كذا - بالكسر - : أى كفت . (ع)

ما ينكح به من المال ﴿حتى يغنيهم الله﴾ ترجية للمستعفين وتقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى، ليكون انتظار ذلك وتأميله لطفالهم في استعفافهم، وربطا على قلوبهم، وليظهر بذلك أن فضله أولى بالإعفاء وأدنى من الصلحاء. وما أحسن مارتب هذه الأوامر: حيث أمر أولا بما يعصم من الفتنة ويبعد من مواقعة المعصية وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذى يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء وعزفها [1] عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه ﴿والذين يبتغون﴾ مرفوع على الابتداء. أو منصوب بفعل مضمر يفسره (فكاتبوهم) كقولك: زيدا فاضربه، ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط. والكتاب والمكاتبة، كالعتاب والمعاتبة: وهو أن يقول الرجل لمملوكه: كاتبتك على ألف درهم، فإن أداها عتق. ومعناه: كتبت لك على نفسى أن تعتق منى إذا وفيت بالمال، وكتبت لى على نفسك أن تفى بذلك. أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت على العتق. ويجوز عند أبى حنيفة رضى الله عنه حالا ومؤجلا. ومنجما وغير منجم: لأن الله تعالى لم يذكر التنجيم، وقياسا على سائر العقود. وعند الشافعى رضى الله عنه: لا يجوز إلا مؤجلا منجما. ولا يجوز عنده بنجم واحد، لأن العبد لا يملك شيئا، فعقده حالا منع من حصول الغرض، لأنه لا يقدر على أداء البدل عاجلا. ويجوز عقده على مال قليل وكثير، وعلى خدمة فى مدة معلومة، وعلى عمل معلوم مؤقت. مثل حفر بئر فى مكان بعينه معلومة الطول والعرض وبناء دار قد أراه آجرها وجصها وما يبنى به. وإن كاتبه على قيمته لم يجز. فإن أداها عتق. وإن كاتبه على وصيف [2]، جاز، لقلة الجهالة ووجب الوسط، وليس له أن يطأ المكاتبة، وإذا أدى عتق، وكان ولاؤه لمولاه؛ لأنه جاد عليه بالكسب الذى هو فى الأصل له، وهذا الأمر للندب عند عامة العلماء. وعن الحسن رضى الله عنه: ليس ذلك بعزم، إن شاء كاتب وإن شاء لم يكاتب. وعن عمر رضى الله عنه: هى عزمة من عزمات الله. وعن ابن سيرين مثله وهو مذهب داود ﴿خيرا﴾ قدرة على أداء مايفارقون عليه. وقيل: أمانة وتكسبا. وعن سلمان رضى الله عنه أن مملوكا له ابتغى أن يكاتبه فقال: أعندك مال؟ قال: لا، قال: أفتأمرنى أن آكل غسالة أيدى الناس ﴿وآتوهم﴾ أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم الذى جعل الله لهم من بيت المال، كقوله تعالى (وفى الرقاب) عند أبى حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم. فإن قلت: هل يحل لمولاه إذا كان غنيا أن يأخذ ما تصدق

(١) قوله «وعزفها عن الطموح إلى الشهوة» فى الصحاح: عزفت نفسى عن الشىء: زهدت فيه وانصرفت عنه. (ع)

(٢) قوله «على وصيف» الوصيف: الخادم، غلاما كان أوجارية، كذا فى الصحاح. (ع)

به عليه ؟ قلت . نعم . وكذلك إذا لم تف الصدقة بجميع البدل وعجز عن أداء الباقي طاب للمولى ما أخذه ؛ لأنه لم يأخذه بسبب الصدقة ، ولكن بسبب عقد المكاتبة كمن اشترى الصدقة من الفقير أو ورثها أو وهبت له . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في حديث بريرة « هو لها صدقة ولنا هدية »[1] وعند الشافعي رضي الله عنه : هو إيجاب على الموالي أن يحطوا لهم من مال الكتابة . وإن لم يفعلوا أجبروا . وعن علي رضي الله عنه : يحط له الربع . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : يرضخ له من كتابته شيئا . وعن عمر رضي الله عنه أنه كاتب عبداً له يكنى أبا أمية ، وهو أوّل عبد كوتب في الإسلام ، فأتاه بأوّل نجم فدفعه إليه عمر رضي الله عنه وقال : استعن به على مكاتبتك فقال : لو أخرته إلى آخر نجم ؟ قال : أخاف أن لا أدرك ذلك .[2] وهذا عند أبي حنيفة رضي الله عنه على وجه الندب وقال : إنه عقد معاوضة فلا يجبر على الحطيطة كالبيع . وقيل : معنى (وآتوهم) : أسلفوهم . وقيل : أنفقوا عليهم بعد أن يؤدوا ويعتقوا . وهذا كله مستحب . وروى أنه كان لحويطب بن عبد العزى مملوك يقال له الصبيح : سأل مولاه أن يكاتبه فأبى ، فنزلت . كانت إماء أهل الجاهلية يساعين على مواليهن ، وكان لعبد الله بن أبي رأس النفاق ست جوار : معاذة ، ومسيكة ، وأميمة ، وعمرة ، وأروى . وقتيلة : يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] . فنزلت . ويكنى بالفتى والفتاة : عن العبد والأمة . وفي الحديث : « ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ، ولا يقل عبدي وأمتي »[4] والبغاء : مصدر البغي . فإن قلت : لم أقحم قوله (إن أردن تحصنا) قلت : لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن ، وآمر الطيعة المواتية للبغاء لا يسمى مكرها ولا أمره إكراها .[5]

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها في أثناء حديث في قصة بريرة وعتقها .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة من طريق عكرمة عن ابن عباس إلا قوله « وهو أول عبد كوتب في الإسلام » ذكره في آخره من قول عكرمة . وزاد ثم قرأ (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) ورواه ابن أبي حاتم من طريق وكيع شيخ ابن أبي شيبة كذلك .

(٣) أخرجه الثعلبي من طريق مقاتل بهذا وسنده إلى مقاتل في أول الكتاب وهو عند مسلم والبزار مختصر من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر . قال « كان لعبد الله بن أبي جارية يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة وكان يريدهما على الزنى ... الحديث »

(٤) تقدم في الكهف .

(٥) قال محمود : « إن قلت : لم أقحم قوله (إن أردن تحصنا) ؟ قلت : لأن الإكراه لا يكون إلا إذا أردن تحصنا ولا يتصور إلا كذلك . إذ لولا ذلك لكن مطاوعات » ولم يجب بما يشفي العليل . وعند العبد الفقير إلى الله تعالى أن فائدة ذلك ـ والله أعلم : أن يبشع عند المخاطب الوقوع فيه ، لكي يتيقظ أنه كان ينبغي له أن يأنف من هذه الرذيلة وإن لم يكن زاجر شرعي ، ووجه التبشيع عليها : أن مضمون الآية النداء عليه بأن أمته خير منه ، لأنها آثرت التحصن عن الفاحشة ، وهو يأبى إلا إكراهها عليها . ولو أبرز مكنون هذا المعنى لم يقع الزاجر من النفس موقعه ، وعسى هذه الآية تأخذ بالنفوس الدنية ، فكيف بالنفوس العربية . والله الموفق .

وكلمة (إن) وإيثارها على «إذا» إيذان بأن المساعيات كنّ يفعلن ذلك برغبة وطواعية منهن، وأن ماوجد من معاذة ومسيكة من حيز الشاذ النادر ﴿غفور رحيم﴾ لهم أو لهن. أولهم ولهن إن تابوا وأصلحوا. وفى قراءة ابن عباس: لهن غفور رحيم. فإن قلت: لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهن، لأن المكرهة على الزنى بخلاف المكره عليه فى أنها غير آثمة. قلت: لعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة من إكراه بقتل. أو بما يخاف منه التلف أو ذهاب العضو، من ضرب عنيف أو غيره حتى تسلم من الإثم، وربما قصرت عن الحد الذى تعذر فيه فتكون آثمة

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

﴿مبينات﴾ هى الآيات التى بينت فى هذه السورة وأوضحت فى معانى الأحكام والحدود. ويجوز أن يكون الأصل مبينا فيها فاتسع فى الظرف. وقرئ بالكسر، أى: بينت هى الأحكام والحدود، جعل الفعل لها على المجاز. أو من «بين» بمعنى تبين. ومنه المثل قد بين الصبح لذى عينين. ﴿ومثلا من﴾ أمثال من ﴿قبلكم﴾ أى قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم، يعنى قصة عائشة رضى الله عنها ﴿وموعظة﴾ ماوعظ به فى الآيات والمثل، من نحو قوله (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله)، (لولا إذ سمعتموه)، (ولولا إذ سمعتموه): (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا)

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

نظير قوله ﴿الله نور السموات والأرض﴾ مع قوله (مثل نوره)، و (يهدى الله لنوره): قولك: زيد كرم وجود، ثم تقول: ينعش الناس بكرمه وجوده. والمعنى: ذو نور السموات. وصاحب نور السموات، ونور السموات والأرض الحق، شبهه بالنور فى ظهوره وبيانه، كقوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور): أى من الباطل إلى الحق.

وأضاف النور إلى السموات والأرض لأحد معنيين: إما للدلالة على سعة إشراقه وفشو إضاءته حتى تضيء له السموات والأرض. وإما أن يراد أهل السموات والأرض وأنهم يستضيئون به ﴿مثل نوره﴾ أي صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة ﴿كمشكاة﴾ كصفة مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة ﴿فيها مصباح﴾ سراج ضخم ثاقب ﴿في زجاجة﴾ أراد قنديلا من زجاج شامي [1] أزهر. شبهه في زهرته بأحد الدراري من الكواكب وهي المشاهير، كالمشترى والزهرة والمريخ وسهيل ونحوها ﴿توقد﴾ هذا المصباح ﴿من شجرة﴾ أي ابتدأ ثقوبه من شجرة الزيتون. يعني: زويت ذبالته [2] بزيتها ﴿مباركة﴾ كثيرة المنافع. أو: لأنها تنبت في الأرض التي بارك فيها للعالمين. وقيل: بارك فيها سبعون نبيا، منهم إبراهيم عليه السلام. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «عليكم بهذه الشجرة زيت الزيتون فتداووا به. فإنه مصحة من الباسور [3]»، ﴿لاشرقية ولا غربية﴾ أي منبتها الشام. وأجود الزيتون: زيتون الشام. وقيل: لا في مضحى ولا مقنأة. [4] ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها. وذلك أجود لحملها وأصفى لدهنها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لاخير في شجرة في مقنأة، ولا نبات في مقنأة، ولا خير فيهما في مضحى» [5] وقيل: ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها أو غروبها فقط. بل تصيبها بالغداة والعشي جميعاً. فهي شرقية وغربية، ثم وصف الزيت بالصفاء والوبيص، [6] وأنه لتلألئه ﴿يكاد﴾ يضيء من غير نار ﴿نور على نور﴾ أي هذا الذي شبهت به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت. حتى لم تبق مما يقوى النور ويزيده إشراقا ويمده بإضاءة: بقية. وذلك أن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره، بخلاف المكان الواسع فإن الضوأ ينبث فيه وينتشر، والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، وكذلك الزيت وصفاؤه ﴿يهدى الله﴾ لهذا النور الثاقب ﴿من يشاء﴾ من عباده، أي: يوفق لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله

---

(١) قوله «شامي» نعت لزجاج، ويوضحه قوله «أزهر» وعبارة النسفي: شامي بكسر الزاي، أي قرأ الشامي: زجاجة، بكسر الزاي. (ع)

(٢) قوله «يعني زويت ذبالته بزيتها» في الصحاح: زويت الشيء: جمعته وقبضته. وانزوت الجلدة في النار، أي: اجتمعت وتقبضت. وفيه «الذبالة» الفتيلة، ولعله «رويت» بالراء، كما في عبارة النسفي.

(٣) أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم في العلل وأبو نعيم في الطب والثعلبي كلهم من طريق عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب عن أبي الخير عن عتبة بن عامر بهذا

(٤) قوله «ولا مقنأة» في الصحاح «المقنأة» المكان الذي لاتطلع عليه الشمس.

(٥) لم أجده

(٦) قوله «والوبيص» البريق واللمعان. أفاده الصحاح. (ع)

والإنصاف من نفسه ، ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يمينا وشمالا . ومن لم يتدبر فهو كالأعمى الذى سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس . وعن علىّ رضى الله عنه : «الله نور السموات والأرض» أى نشر فيها الحق وبثه فأضاءت بنوره . أو نور قلوب أهلها به ، وعن أبىّ بن كعب رضى الله عنه : مثل نور من آمن به . وقرئ : زجاجة الزجاجة ، بالفتح والكسر : ودرّىّ : منسوب إلى الدر أى ، أبيض متلألىء . ودرّىء : بوزن سكيت : يدرأ الظلام بضوئه . ودرىء كمريق . ودرى كالسكينة ، عن أبى زيد . وتوقد : بمعنى تتوقد . والفعل للزجاجة . ويوقد ، وتوقد ، بالتخفيف . ويوقد ، بالتشديد . ويوقد بحذف التاء وفتح الياء ، لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب . ويمسه بالياء ، لأن التأنيث ليس بحقيق ، والضمير فاصل .

فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

﴿فى بيوت﴾ يتعلق بما قبله ، أى ، كمشكاة فى بعض بيوت الله وهى المساجد ، كأنه قيل : مثل نوره كما يرى فى المسجد نور المشكاة التى من صفتها كيت وكيت . أو بما بعده ، وهو يسبح . أى : يسبح له رجال فى بيوت . وفيها تكرير . كقولك : زيد فى الدار جالس فيها . أو بمحذوف ، كقوله (فى تسع آيات) أى سبحوا فى بيوت . والمراد بالإذن : الأمر . ورفعها : بناؤها . كقوله (بناها . رفع سمكها فسوّاها) ، (وإذ يرفع إبراهيم القواعد) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هى المساجد ، أمر الله أن تبنى . أو تعظيمها والرفع من قدرها . وعن الحسن رضى الله عنه : ما أمر الله أن ترفع بالبناء ، ولكن بالتعظيم ﴿ويذكر فيها اسمه﴾ أوفق له ، وهو عام فى كل ذكر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : وأن يتلى فيها كتابه . وقرئ : يسبح ، على البناء للمفعول ، ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة ، أعنى : (له فيها بالغدو) ، و (رجال) مرفوع بما دلّ عليه (يسبح) وهو يسبح له . وتسبح ، بالتاء وكسر الباء . وعن أبى جعفر رضى الله عنه بالتاء وفتح الباء . ووجهها أن يسند إلى أوقات الغدوّ والآصال على زيادة الباء ، وتجعل الأوقات مسبحة . والمراد ربها ، كصيد عليه يومان . والمراد وحشهما . والآصال : جمع أصل وهو العشى . والمعنى : بأوقات الغدو ، أى : بالغدوات . وقرئ : والإيصال ، وهو الدخول فى الأصيل . يقال : آصل ، كأظهر وأعتم . التجارة : صناعة التاجر . وهو الذى يبيع ويشترى للربح ، فإما

أن يريد : لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة . ثم خص البيع لأنه فى الإلهاء أدخل. من قبل أن التاجر إذا اتجهت له بيعة رابحة وهى طلبته الكلية من صناعته : ألهته ما لا يلهيه شراء شىء يتوقع فيه الربح فى الوقت الثانى ، لأن هذا يقين وذاك مظنون . وإما أن يسمى الشراء تجارة ، إطلاقا لاسم الجنس على النوع ، كما تقول : رزق فلان تجارة رابحة . إذا اتجه له بيع صالح أو شراء . وقيل : التجارة لأهل الجلب ، اتجر فلان فى كذا : إذا جلبه . التاء فى إقامة ، عوض من العين الساقطة للإعلال . والأصل : إقوام ، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض ، فأسقطت . ونحوه :

* وَأَخْلَفُوكَ عِدَ الأَمْرِ الَّذِى وَعَدُوا * (١)

وتقلب القلوب والأبصار : إما أن تتقلب وتتغير فى أنفسها : وهو أن تضطرب من الهول والفزع وتشخص ، كقوله (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) . وإما أن تتقلب أحوالها وتتغير فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها لا تفقه ، وتبصر الأبصار بعد أن كانت عميا لا تبصر ﴿أحسن ما عملوا﴾ أى أحسن جزاء أعمالهم ، كقوله (للذين أحسنوا الحسنى) والمعنى يسبحون ويخافون ، ليجزيهم ثوابهم مضاعفا ويزيدهم على الثواب تفضلا . وكذلك معنى قوله (الحسنى وزيادة) المثوبة الحسنى وزيادة عليها من التفضل . وعطاء الله تعالى : إما تفضل ، وإما ثواب ، وإما عوض ﴿والله يرزق﴾ ما يتفضل به ﴿بغير حساب﴾ فأما الثواب فله حساب لكونه على حسب الاستحقاق .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

السراب : ما يرى فى الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة ، يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى . والقيعة : بمعنى القاع أو جمع قاع ، وهو المنبسط المستوى من الأرض ، كجيرة فى جار . وقرئ : بقيعات : بتاء ممطوطة ، كديمات وقيمات ، فى ديمة وقيمة . وقد جعل بعضهم بقيعاة بتاء مدورة ، كرجل عزهاة . شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التي يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم تخيب فى العاقبة أمله ويلقى خلاف ماقدر ، بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء ، فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق ، وهم الذين قال الله فيهم (عاملة ناصبة) ، (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) ، (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٢٣ فراجعه إن شئت اه مصححه

فجعلناه هباء منثوراً) وقيل: نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية؛ قد كان تعبد ولبس المسوح والتمس الدين فى الجاهلية، ثم كفر فى الإسلام.

أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)

اللجى: العميق الكثير الماء، منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر. وفى ﴿أخرج﴾ ضمير الواقع فيه ﴿لم يكد يراها﴾ مبالغة فى لم يرها؛ أى: لم يقرب أن يراها؛ فضلا عن أن يراها. ومثله قول ذى الرمة:

إِذَا غَيَّرَ النَّأْىُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكَدْ ... رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ (١)

أى لم يقرب من البراح فما باله يبرح؟ شبه أعمالهم أولا فى فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئاً، ولم يكفه خيبة وكمداً أن لم يجد شيئاً كغيره من السراب، حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار، ولا يقتل ظمأه بالماء. وشبهها ثانياً فى ظلمتها وسوادها لكونها باطلة، وفى خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب، ثم قال: ومن لم يوله نور توفيقه وعصمته ولطفه، فهو فى ظلمة الباطل لا نور له. وهذا الكلام مجراه مجرى الكنايات؛ لأن الألطاف إنما تردف الإيمان والعمل. أو كونهما مترقبين. ألا ترى إلى قوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقوله (ويضل الله الظالمين) وقرئ: سحاب ظلمات، على الإضافة. وسحاب ظلمات، برفع (سحاب) وتنوينه وجر (ظلمات) بدلا من (ظلمات) الأولى.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ

(١) إذا غير النأى المحبين لم يكد ... رسيس الهوى من حب مية يبرح
فلا القرب يدنو من هواها ملالة ... ولا حبها أن تنزح الدار ينزح

لذى الرمة. والنأى: البعد. ويقال: رس وأرس، إذا لزم. والرسيس: بقية المرض اللازمة داخل البدن. ويبرح: يذهب، أى: لم يقرب من البراح. وروى أنه لما قدم ذو الرمة الكوفة اعترض عليه ابن شبرمة فى ذلك بأنه يدل على زوال رسيس الهوى، فغيره ذو الرمة بقوله: لم أجد. وقال ابن عتبة: حدثت أبى بذلك فقال: أخطأ ابن شبرمة، وأخطأ ذو الرمة فى تغييره، وإنما هو كقوله تعالى (لم يكد يراها) والملالة: السآمة. وتنزح: تبعد. وينزح: يزول.

قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

﴿صافات﴾ يصففن أجنحتهن فى الهواء. والضمير فى ﴿علم﴾ لكل أو لله. وكذلك فى ﴿صلاته وتسبيحه﴾ والصلاة: الدعاء. ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التى لا يكاد العقلاء يهتدون إليها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾

﴿يزجى﴾ يسوق. ومنه: البضاعة المزجاة: التى يزجيها كل أحد لا يرضاها. والسحاب يكون واحداً كالعماء، وجمعاً كالرباب [١]. ومعنى تأليف الواحد: أنه يكون قزعا [٢] فيضم بعضه إلى بعض. وجاز بينه وهو واحد، لأنّ المعنى بين أجزائه، كما قيل فى قوله:

* ... بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ * [٣]

والركام: المتراكم بعضه فوق بعض. والودق: المطر ﴿من خلاله﴾ من فتوقه ومخارجه: جمع خلل، كجبال فى جبل. وقرئ: من خلله ﴿وينزل﴾ بالتشديد. ويكاد سنا: على الإدغام [٤].

---

(١) قوله «كالرباب» فى الصحاح: الرباب ـ بالفتح ـ سحاب أبيض. (ع)

(٢) قوله «أن يكون قزعا» القزع: قطع من السحاب رقيقة، الواحدة: قزعة. (ع)

(٣) قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لامرئ القيس مطلع معلقته، وروى أنه راهق ولم يقل شعرا، فقال أبوه: إنه ليس ابنى. وأمر اثنين من خاصته أن يخرجا به إلى مكان بعيد فيذبحاه هناك، فلما أرادا ذبحه بكى وأنشأ البيت إلى آخر القصيدة، فرجعا به وقالا: هذا أشعر من على وجه الأرض: لقد وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر واستذكر وهى الحبيب والدار فى نصف بيت. والسقط ـ مثلث ـ: طرف اللوى، أى: المكان الملتوى المعوج. وهو هنا اسم مكان بعينه. وبين لا يضاف إلا لمتعدد المعنى، أو معطوف عليه بالواو خاصة. فالمعنى: بين أجزاء الدخول فحومل. أى فأجزاء حومل كلاهما اسم موضع، ولعل «سقط اللوى» ممتد بينهما. ويجوز أن الفاء بمعنى الواو. فيكون «سقط اللوى» بين هذين الموضعين، وتكون استعارة الفاء هنا للدلالة على قرب ما بين الدخول وحومل.

(٤) قوله «ويكاد سنا على الادغام» لعل رسمه هكذا «يكاسنا» إلا أن يعتبر ما قبل الادغام. (ع)

وبرقه : جمع برقة ، وهي المقدار من البرق ، كالغرفة واللقمة . وبرقه : بضمتين للإتباع . كما قيل في جمع فعلة : فعلات كظلمات . وسناء برقه : على المد المقصور ، بمعنى الضوء . والممدود : بمعنى العلو والارتفاع ، من قولك : سنيّ المرتفع . و ﴿ يذهب بالأبصار ﴾ على زيادة الباء ، كقوله (ولا تلقوا بأيديكم) عن أبي جعفر المدني . وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته وظهور أمره ، حيث ذكر تسبيح من في السموات والأرض وكل ما يطير بين السماء والأرض ودعاءهم له وابتهالهم إليه ، وأنه سخر السحاب التسخير الذي وصفه وما يحدث فيه من أفعاله حتى ينزل المطر منه ، وأنه يقسم رحمته بين خلقه ويقبضها ويبسطها على ما تقتضيه حكمته . ويريهم البرق في السحاب الذي يكاد يخطف أبصارهم ، ليعتبروا ويحذروا . ويعاقب بين الليل والنهار ، ويخالف بينهما بالطول والقصر . وما هذه إلا براهين في غاية الوضوح على وجوده وثباته . ودلائل منادية على صفاته ، لمن نظر وفكر وتبصر وتدبر . فإن قلت : متى رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسبيح من في السموات ودعاءهم ، وتسبيح الطير ودعاءه ، وتنزيل المطر من جبال برد في السماء ، حتى قيل له : ألم تر ؟ قلت : علمه من جهة إخبار الله إياه بذلك على طريق الوحي . فإن قلت : ما الفرق بين من الأولى والثانية والثالثة في قوله (من السماء من جبال) ، (من برد) ؟ قلت : الأولى لابتداء الغاية . والثانية للتبعيض . والثالثة للبيان . أو الأوليان للابتداء : والآخرة للتبعيض . ومعناه : أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها ، وعلى الأول مفعول «ينزل» : «من جبال» . فإن قلت : ما معنى (من جبال فيها من برد) ؟ قلت : فيه معنيان . أحدهما : أن يخلق الله في السماء جبال برد كما خلق في الأرض جبال حجر . والثاني : أن يريد الكثرة بذكر الجبال ، كما يقال : فلان يملك جبالا من ذهب .

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)

وقرئ : خالق كل دابة . ولما كان اسم الدابة موقعاً على المميز وغير المميز ، غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه ، كأن الدواب كلهم مميزون . فمن ثمة قيل : فمنهم . وقيل : من يمشي في الماشي على بطن والماشي على أربع قوائم . فإن قلت : لم نكر الماء في قوله ﴿ من ماء ﴾ ؟ قلت : لأن المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء مختص بتلك الدابة . أو خلقها من ماء مخصوص وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة ، فمنها هوام ومنها بهائم ومنها ناس .

ونحوه قوله تعالى (يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) . فإن قلت : فما باله معرّفا فى قوله (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ؟ قلت : قصد ثمة معنى آخر : وهو أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس (١) الذى هو جنس الماء ، وذلك أنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط . قالوا : خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء ، والجنّ من نار خلقها منه . وآدم من تراب خلقه منه . فإن قلت : لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب ؟ قلت : قدم ماهو أعرق فى القدرة وهو الماشى بغير آلة مشى من أرجل أو قوائم ، ثم الماشى على رجلين ، ثم الماشى على أربع . فإن قلت : لم سمى الزحف على البطن مشياً ؟ قلت : على سبيل الاستعارة ، كما قالوا فى الأمر المستمر : قد مشى هذا الأمر . ويقال : فلان لايتمشى له أمر . ونحوه استعارة الشفة مكان الجحفلة (٢) ، والمشفر مكان الشفة . ونحو ذلك . أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشيين .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَٰتٍ مُبَيِّنَٰتٍ وَاللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧)

﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ إشارة إلى القائلين آمنا وأطعنا . أو إلى الفريق المتولى ، فمعناه على الأول : إعلام من الله بأنّ جميعهم منتف عنهم الإيمان لاالفريق المتولى وحده . وعلى الثانى : إعلام بأنّ الفريق المتولى لم يكن ماسبق لهم من الإيمان إيمانا ، إنما كان ادّعاء باللسان من غير مواطأة القلب ؛ لأنه لوكان صادراً عن صحة معتقد وطمأنينة نفس لم يتعقبه التولى والإعراض . والتعريف فى قوله (بالمؤمنين) دلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفت : وهم الثابتون المستقيمون على الإيمان . الموصوفون فى قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) .

---

(١) قال محمود : « إن قلت لم نكر ماء ههنا وعرفه فى قوله (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ؟ قلت : الغرض فيما نحن فيه أنه تعالى خلق كل دابة من نوع من الماء مخصوص وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات بحسب اختلاف نطفها ، فنها كذا ومنها كذا . ونحوه قوله (يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) وأما آية (اقترب) فالغرض فيها أن أجناس الحيوانات كلها مخلوقة من هذا الجنس » قال أحمد : وتحرير الفرق أن المقصد فى الأولى إظهار الآية بأن شيئا واحداً تكونت منه بالقدرة أشياء مختلفة ، ذكر تفصيلها فى آية النور والرعد ، والمقصد فى آية اقترب : أنه خلق الأشياء المتفقة فى جنس الحياة من جنس الماء المختلف الأنواع ، فذكر معرفا ليشمل أنواعه المختلفة . فالآية فى الأول لاخراج المختلف من المتفق ، والله أعلم .

(٢) قوله « مكان الجحفلة » فى الصحاح : الجحفلة للحافر ، كالشفة للانسان . اه أى لذى الحافر . (ع)

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩)

معنى ﴿إلى الله ورسوله﴾ إلى رسول الله كقولك: أعجبنى زيد وكرمه، تريد: كرم زيد. ومنه قوله:

* غَلَّسْتُهُ قَبْلَ الْقَطَا وَفُرَّطِهْ *[1]

أراد: قبل فرط القطا. روى: أنها نزلت فى بشر المنافق وخصمه اليهودى حين اختصما فى أرض، فجعل اليهودىّ يجرّه إلى رسول الله، والمنافق يجرّه إلى كعب بن الأشرف ويقول: إن محمداً يحيف علينا. وروى أنّ المغيرة بن وائل كان بينه وبين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه خصومة فى ماء وأرض، فقال المغيرة: أمّا محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه فإنه يبغضنى وأنا أخاف أن يحيف علىّ ﴿إليه﴾ صلة يأتوا، لأنّ «أتى» و «جاء» قد جاءا معدّيين بإلى، أو يتصل بمذعنين لأنه فى معنى مسرعين فى الطاعة. وهذا أحسن لتقدّم صلته ودلالته على الاختصاص. والمعنى: أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المرّ والعدل البحت. يزورّون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق، لئلا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك ولم يرضوا إلا بحكومتك، لتأخذ لهم ما ذاب لهم فى ذمّة الخصم[2].

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)

---

(١) ومنهل من الفيافى أوسطه غلسته قبل القطا وفرطه
فى ظل أجاج المقيظ مغبطه

المنهل: الوادى ومسيل الماء. والفيافى: الصحارى، جمع فيفاء. والظاهر أن أوسطه صفة منهل المجرور برب المحذوفة، وهاؤه للسكت، ولو جعلته بدل بعض والهاء ضمير المنهل: لزم جر المعرفة برب، مع إمكان التخلص عنه إلا عند من جعل ضمير النكرة نكرة فلا محذور. ويروى: من الفلا فى أوسطه. والفلا واحده فلاة، أى: مفازة. والرواية: غلسته بالتشديد، أى سرته فى وقت الغلس وهو ظلمة الفجر، أو وردته فيه. والفرط من القطا: المتقدمات السابقات لغيرها، جمع فارط، كركع وراكع. وخصها لأنها أسرع الطير خروجا من أوكارها. وأجاج المقيظ: شعاع الشمس يرى فى شدة القيظ أى الحر كأنه يسير. وأجت النار: اشتعلت، والحر: اشتد، والظليم: أسرع وله حفيف، والأمر: اختلط. وأجاج: صفة مبالغة منه. وأغبط الشىء فهو مغبط: دام واستمر فغبطه الدائم الكثير منه. والمعنى: أنه يبتدئ السير قبل السابقات من القطا، ويستمر عليه مع اشتداد الحر فى ظل شعاع الشمس، لا يظله إلا هو إن كان له ظل، وهذا من المبالغة فى النفى. ويجوز أنه اعتاده فصار عنده كالظل. ويجوز أن المعنى: تحت كنفه وسترته وجاهه الشبيه بالظل.

(٢) قوله «ما ذاب لهم فى ذمة الخصم» فى الصحاح: ذاب لى عليه من الحق كذا: إذا وجب وثبت. (ع)

ثم قسم الأمر فى صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بين أن يكونوا مرضى القلوب منافقين ، أو مرتابين فى أمر نبوّته ، أو خائفين الحيف فى قضائه . ثم أبطل خوفهم حيفه بقوله ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ أى لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله ، وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتمّ لهم جحوده ، وذلك شيء لا يستطيعونه فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن ثمة يأبون المحاكمة إليه .

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾

وعن الحسن : قول المؤمنين ، بالرفع والنصب أقوى ، لأنّ أولى الاسمين بكونه اسما لكان أوغلهما فى التعريف ، وأن يقولوا : أوغل ، لأنه لا سبيل عليه للتنكير ، بخلاف قول المؤمنين ، وكان هذا من قبيل كان فى قوله (ما كان لله أن يتخذ من ولد) ، (ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) وقرئ ، ليحكم ، على البناء للمفعول . فإن قلت : إلام أسند يحكم ؟ ولا بدّ له من فاعل . قلت : هو مسند إلى مصدره ، لأن معناه : ليفعل الحكم بينهم . ومثله : جمع بينهما ، وألف بينهما . ومثله (لقد تقطع بينكم) فيمن قرأ (بينكم) منصوبا : أى وقع التقطع بينكم . وهذه القراءة مجاوبة لقوله (دعوا) .

وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

قرئ : ويتقه ، بكسر القاف والهاء مع الوصل وبغير وصل . وبسكون الهاء . وبسكون القاف وكسر الهاء : شبه تقه بكتف فخفف ، كقوله :

* قَالَتْ سُلَيْمَى آشْتَرْ لَنَا سَوِيقَا * (١)

ولقد جمع الله فى هذه الآية أسباب الفوز . وعن ابن عباس فى تفسيرها ﴿ومن يطع الله﴾ فى

(١) قالت سليمى اشتر لنا سويقا وهات خبز البرّ أو دقيقا

للعذافر الكندى . يقال : شار العسل ونحوه ، واشتاره : إذا اجتناه وأخذه من مكانه . فقوله «اشتر» أمر من الاشتيار . ويحتمل أنه من الاشتراء . وسكنت راؤه للضرورة ، أى : اطلب لنا سويقا . وهو ما تعمله العرب من الحنطة والشعير . وهات : بكسر التاء أمر المذكر ، طلبت منه السويق للأدم ، وخيرته بين أن يأتى بخبز وبين أن يأتى بدقيق وهى تخبزه . ويروى : « وهات بر البخس أو دقيقا » والبخس : الأرض التى تنبت من غير سق ، وفى بقية الرجز أنها طلبت منه لحما وخادما وصبغا لثيابها بالعصفر ، فقال :

يا سلم لو كنت لذا مطيقا ما كان عيشى عندكم ترنيقا

أى : مدة ترنيق الطائر ، أى : صف جناحيه فى الهواء .

فرائضه ﴿ ورسوله ﴾ فى سننه ﴿ ويخش الله ﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿ ويتقه ﴾ فيما يستقبل. وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣)

جهد يمينه: مستعار من جهد نفسه: إذا بلغ أقصى وسعها، وذلك إذا بالغ فى اليمين وبلغ غاية شدّتها ووكادتها. وعن ابن عباس رضى الله عنه: من قال بالله، جهد يمينه. وأصل: أقسم جهد اليمين: أقسم يجهد اليمين جهدا، فحذف الفعل وقدّم المصدر فوضع موضعه مضافا إلى المفعول كقوله: (فضرب الرقاب) وحكم هذا المنصوب حكم الحال، كأنه قال: جاهدين أيمانهم. و ﴿ طاعة معروفة ﴾ خبر مبتدإ محذوف. أو مبتدأ محذوف الخبر، أى: أمركم والذى يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب، كطاعة الخلص من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها. أو طاعتكم طاعة معروفة، بأنها بالقول دون الفعل. أو طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة. وقرأ اليزيدى: طاعة معروفة، بالنصب على معنى: أطيعوا طاعة ﴿ إنّ الله خبير ﴾ يعلم ما فى ضمائركم ولا يخفى عليه شىء من سرائركم، وأنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)

صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ فى تبكيتهم. يريد: فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم. فإنّ الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله وكلفه من أداء الرسالة، فإذا أدّى فقد خرج عن عهدة تكليفه. وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه. وإن أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن الضلالة إلى الهدى، فالنفع والضرر عائدان إليكم، وما الرسول إلا ناصح وهاد، وما عليه إلا أن يبلغ ما له نفع فى قبولكم [1]، ولا عليه ضرر فى توليكم: والبلاغ: بمعنى التبليغ، كالأداء: بمعنى التأدية. ومعنى المبين: كونه مقرونا بالآيات والمعجزات.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ

(١) قوله «فى قبولكم» عبارة النسفي: فى قلوبكم. (ع)

كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن معه . ومنكم : للبيان ، كالتى فى آخر سورة الفتح : وعدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر ، ويورثهم الأرض ، ويجعلهم فيها خلفاء ، كما فعل ببنى إسرائيل ، حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة ، وأن يمكن الدين المرتضى وهو دين الإسلام . وتمكينه : تثبيته وتوطيده ، وأن يؤمن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذى كانوا عليه ، وذلك أنّ النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون فى السلاح ويمسون فيه ، حتى قال رجل : ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا تغبرون [1] إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة [2] ، فأنجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب ، وافتتحوا بعد بلاد المشرق والمغرب ، ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم ، واستولوا على الدنيا ، ثم خرج الذين على خلاف سيرتهم فكفروا بتلك الأنعم وفسقوا . وذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم يملك الله من يشاء فتصير ملكا ، ثم تصير بزيزى [3] : قطع سبيل ، وسفك دماء ، وأخذ أموال بغير حقها [4] » وقرئ : كما استخلف ، على البناء للمفعول وليبدلنهم : بالتشديد . فإن قلت : أين القسم الملتقى باللام والنون فى ﴿ليستخلفنهم﴾ ؟ قلت : هو محذوف تقديره : وعدهم الله ، وأقسم ليستخلفنهم . أو نزّل وعد الله فى تحققه منزلة القسم ،

(١) قوله : « لا تغبرون إلا يسيراً » أى لا تبقون . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه الطبرى من طريق أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض) قال : مكث النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين خائفا يدعو إلى الله سراً وعلانية . ثم أمر بالهجرة إلى المدينة فمكث بها هو وأصحابه - إلى آخره ، وصله الحاكم وابن مردويه دون أوله بذكر أبى بن كعب فيه . وأوله « لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار . رمتهم العرب عن قوس واحدة لا يبيتون إلا بالسلاح ... الحديث » .

(٣) قوله « تصير بزيزى » فى الصحاح : بزه يبزه بزا : سلبه . والاسم البزيزى مثل الخصيصى . (ع)

(٤) لم أجده . وأوله فى السنن وابن ماجه والحاكم وأحمد والطبرانى والبيهقى والثعلبى كلهم من حديث سفينة « الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة ثم ملك بعد ملك » وفى لفظ « ثم يملك الله من يشاء » وروى أحمد وابن أبى شيبة والطبرانى من طريق عبد الرحمن بن سابط عن أبى ثعلبة عن أبى عبيدة ومعاذ بن جبل مرفوعا . « إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ثم يصير خلافة ... الحديث » .

فتلقى بما يتلقى به القسم ، كأنه قيل : أقسم الله ليستخلفنهم .فإن قلت : ما محل ﴿ يعبدوننى ﴾ ؟ قلت : إن جعلته استئنافا لم يكن له محل ، كأن قائلا قال : ما لهم يستخلفون ويؤمنون ؟ فقال : يعبدوننى . وإن جعلته حالا عن وعدهم ، أى وعدهم الله ذلك فى حال عبادتهم وإخلاصهم، فمحله النصب ﴿ ومن كفر ﴾ يريد كفران النعمة : كقوله (فكفرت بأنعم الله) . ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ أى : هم الكاملون فى فسقهم . حيث كفروا تلك النعمة العظيمة وجسروا على غمطها [1] . فإن قلت : هل فى هذه الآية دليل على أمر الخلفاء الراشدين ؟ قلت : أوضح دليل وأبينه ؛ لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم .

وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ معطوف على (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصل وإن طال : لأنّ حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه . وكرّرت طاعة الرسول : تأكيداً لوجوبها .

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

وقرئ : لا يحسبن ، بالياء . وفيه أوجه : أن يكون ﴿ معجزين فى الأرض ﴾ هما المفعولان . والمعنى : لا يحسبن الذين كفروا أحدا يعجز الله فى الأرض حتى يطمعوا هم فى مثل ذلك . وهذا معنى قوى جيد . وأن يكون فيه ضمير الرسول لتقدم ذكره فى قوله (وأطيعوا الرسول) وأن يكون الأصل : لا يحسبنهم الذين كفروا معجزين ، ثم حذف الضمير الذى هو المفعول الأوّل ، وكان الذى سوّغ ذلك أنّ الفاعل والمفعولين لما كانت لشيء واحد ، اقتنع بذكر اثنين عن ذكر الثالث ، وعطف قوله ﴿ ومأواهم النار ﴾ على لا يحسبنّ الذين كفروا معجزين ؛ كأنه قيل : الذين كفروا لا يفوتون الله ومأواهم النار . والمراد بهم : المقسمون جهد أيمانهم .

يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَوٰةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْءَايَـٰتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

---

(١) قوله «على غمطها» أى : احتقارها . (ع)

أمر بأن يستأذن العبيد. وقيل: العبيد والإماء والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار ﴿ثلاث مرات﴾ فى اليوم والليلة: قبل صلاة الفجر؛ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة. وبالظهيرة: لأنها وقت وضع الثياب للقائلة. وبعد صلاة العشاء؛ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم. وسمى كل واحدة من هذه الأحوال عورة؛ لأن الناس يختل تسترهم وتحفظهم فيها. والعورة: الخلل. ومنها: أعور الفارس[1]، وأعور المكان، والأعور: المختل العين. ثم عذرهم فى ترك الاستئذان وراء هذه المرات، وبين وجه العذر فى قوله ﴿طوافون عليكم﴾ يعنى أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة: يطوفون عليكم للخدمة، وتطوفون عليهم للاستخدام؛ فلو جزم الأمر بالاستئذان فى كل وقت، لأدى إلى الحرج. وروى أن مدلج بن عمرو: وكان غلاما أنصاريا: أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت الظهر إلى عمر ليدعوه، فدخل عليه وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه، فقال عمر: لوددت أنّ الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية[2]: وهى إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر رضى الله تعالى عنه. وقيل: نزلت فى أسماء بنت أبى مرشد[3]، قالت: إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان فى لحاف واحد[4]. وقيل: دخل عليها غلام لها كبير فى وقت كرهت دخوله، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها. وعن أبى عمرو: (الحلم) بالسكون. وقرئ (ثلاث عورات) بالنصب بدلا عن ثلاث مرات، أى: أوقات ثلاث عورات. وعن الأعمش: عورات على لغة هذيل. فإن قلت ما محل ليس عليكم؟ قلت: إذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك فى محل الرفع على الوصف. والمعنى: هنّ ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان، وإذا نصبت: لم يكن له محل وكان كلاما مقرّراً للأمر بالاستئذان فى تلك الأحوال خاصة: فإن قلت: بم ارتفع ﴿بعضكم﴾؟ قلت: بالابتداء وخبره ﴿على بعض﴾ على معنى: طائف على بعض، وحذف لأن طوافون يدل عليه. ويجوز أن يرتفع بيطوف مضمراً لتلك الدلالة.

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

---

(١) قوله «ومنها أعور الفارس» فى الصحاح أعور الفارس، إذا بدا فيه موضع خلل للضرب. (ع)
(٢) هكذا نقله الثعلبي والواحدى والبغوى وابن عباس رضى الله عنهما بغير سند.
(٣) قوله «وقيل نزلت فى أسماء بنت أبى مرشد» لعله مرثد، كما فى عبارة النسفى. (ع)
(٤) هكذا نقله الثعلبي والواحدى عن مقاتل.

﴿الأطفال منكم﴾ أى من الأحرار دون المماليك ﴿الذين من قبلهم﴾ يريد : الذين بلغوا الحلم من قبلهم ، وهم الرجال . أو الذين ذكروا من قبلهم فى قوله (ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا) الآية . والمعنى أنّ الأطفال مأذون لهم فى الدخول بغير إذن إلا فى العورات الثلاث ، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم خرجوا عن حدّ الطفولة بأن يحتلموا أو يبلغوا السنّ التى يحكم فيها عليهم بالبلوغ ، وجب أن يفطموا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأذنوا فى جميع الأوقات كما الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن : وهذا مما الناس منه فى غفلة ، وهو عندهم كالشريعة المنسوخة . وعن ابن عباس : آية لا يؤمن بها أكثر الناس : آية الإذن ، وإنى لآمر جارتى أن تستأذن علىّ . وسأل عطاء : أأستأذن على أختى؟ قال . نعم وإن كانت فى حجرك تمونها ، وتلا هذه الاية . وعنه . ثلاث آيات جحدهنّ الناس : الإذن كله . وقوله (إنّ أكرمكم عندالله أتقاكم) فقال ناس : أعظمكم بيتا . وقوله (وإذا حضر القسمة) . وعن ابن مسعود . عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وأخواتكم . وعن الشعبى : ليست منسوخة ، فقيل له . إن الناس لا يعملون بها ، فقال . الله المستعان . وعن سعيد بن جبير يقولون هى منسوخة ، ولا والله ما هى منسوخة ، ولكن الناس تهاونوا بها : فإن قلت ماالسنّ التى يحكم فيها بالبلوغ ؟ قلت : قال أبو حنيفة ثمانى عشرة سنة فى الغلام . وسبع عشرة فى الجارية . وعامة العلماء على خمس عشرة فيهما . وعن على رضى الله عنه أنه كان يعتبر القامة ويقدره بخمسة أشبار . وبه أخذ الفرزدق فى قوله :

مَازَالَ مُذْ عَقَدَتْ يَدَاهُ إِزَارَهُ   فَسَمَا فَأَدْرَكَ خَمْسَةَ الأَشْبَارِ (١)

---

(١) مازال مذ عقدت يداه إزاره   وسما فأدرك خمسة الأشبار
يدنى خوافق من خوافق تلتقى   فى ظل معتبط الغبار مثار

للفرزدق : يرثى يزيد بن المهلب . يقول : لازال يحارب من حين عقدت يداه إزاره على نفسه كناية عن تمييزه فيتولى أمور نفسه ، فمذ : ظرف زمان لاضافتها إلى الجلة ، ولكنها تفيد معنى من الابتدائية أيضاً ، لأن المعنى : مازال يقتحم الحروب من حين بلغ أشده إلى أن مات . وإسناد العقد إلى اليد من باب الاسناد للآلة ، لأنه عاقد بها . وسما : ارتفع فبلغت قامته مقدار خمسة الأشبار . قيل : المراد بها مقدار السيف ، وذلك كناية عن بلوغه أشده . وقيل : المراد بها مقدار القبر ، وإدراكها : كناية عن موته . أى : من حين تمييزه إلى حين موته يهيج الحروب وهو أبلغ فى المعنى . وعطف «أدرك» بالفاء دلالة على قصر مدته وقرب موته . ويروى : فسما ، بالفاء . ويجوز أن يكون معناه : ارتفع قدره ، فيكون قد حكى جميع حالاته . وقوله «يدنى» خبر مازال ، أى : يقرب رايات مضطربات إلى أخرى فى الحرب . أوخيلا مضطربة إلى مثلها . والمراد أنه يقرب الكتائب بعضها إلى بعض حتى تلتقى كلها فى ظل معتبط من الغبار . والمعتبط ـ بالعين المهملة ـ : اسم مفعول ، أى : لم يقاتل فيه غيره قبله فيثيره من موضعه ، بل هو الذى أثاره منه . أوأنه هو الذى أخرجه من الأرض الصلبة فلم يكن موجوداً قبل . ويروى بالغين المعجمة ، أى : مكثر ، والمعنى : أنه كان يزاد منه ويكثره . ويجوز أنه اسم مكان . ويروى : ـــ

واعتبر غيره الإنبات. وعن عثمان رضى الله عنه: أنه سئل عن غلام، فقال: هل اخضر إزاره؟

وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

القاعد: التي قعدت عن الحيض والولد لكبرها ﴿لا يرجون نكاحا﴾ لا يطمعن فيه: والمراد بالثياب: الثياب الظاهرة كالملحفة والجلباب الذي فوق الخمار ﴿غير متبرجات بزينة﴾ غير مظهرات زينة [1]، يريد: الزينة الخفيفة التي أرادها في قوله (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن) أو غير قاصدات بالوضع التبرج، ولكن التخفف إذا احتجن إليه. والاستعفاف من الوضع خير لهن لما ذكر الجائز عقبه بالمستحب، بعثا منه عن اختيار أفضل الأعمال وأحسنها. كقوله (وأن تعفوا أقرب للتقوى)، (وأن تصدقوا خير لكم). فإن قلت: ما حقيقة التبرج؟ قلت: تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قولهم: سفينة بارج، لا غطاء عليها. والبرج: سعة العين، يرى بياضها محيطاً بسوادها كله لا يغيب منه شيء، إلا أنه اختص بأن تتكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها وإظهار محاسنها. وبدأ، وبرز، بمعنى: ظهر، من أخوات: تبرج وتبلج، كذلك.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ

= معترك العجاج، وهو موضع المعركة. والعجاج: الغبار. ومثار: صفة معتبط إن لم يتعرف بالاضافة. ويجوز أن أصله: مثاره، بالاضافة للضمير، فحذف للضرورة. وفي إثبات الظل للغبار المعتبط المثار: دلالة على أنه متراكم حاجب ضوء الشمس عن المحاربين.

(١) قال أحمد: قرر الزمخشري هذه الآية على ظاهرها، ويظهر لي والله أعلم أن قوله تعالى (غير متبرجات بزينة) من باب • على لاحب لا يهتدى بمناره • أي: لا منار فيه فيهتدى به، وكذلك، المراد هنا: والقواعد من النساء اللاتي لا زينة لهن فيتبرجن بها، لأن الكلام فيمن هي بهذه المثابة، وكأن الغرض من ذلك أن هؤلاء استعفافهم عن وضع الثياب خير لهن، فما ظنك بذوات الزينة من الثياب، وأبلغ ما في ذلك أنه جعل عدم وضع الثياب في حق القواعد من الاستعفاف إيذانا بأن وضع الثياب لا مدخل له في العفة، هذا في القواعد. فكيف بالكواعب؟ والله أعلم.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)

كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوى العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم فيطعمونهم منها، فخالج قلوب المطعمين والمطعمين ريبة فى ذلك. وخافوا أن يلحقهم فيه حرج؛ وكرهوا أن يكون أكلا بغير حق؛ لقوله تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) فقيل لهم: ليس على الضعفاء ولا على أنفسكم؛ يعنى: عليكم وعلى من فى مثل حالكم من المؤمنين حرج فى ذلك. وعن عكرمة: كانت الأنصار فى أنفسها قزازة [١]. فكانت لا تأكل من هذه البيوت إذا استغنوا. وقيل: كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومؤاكلتهم لما عسى يؤدى إلى الكراهة من قبلهم، ولأن الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكيله إليه وهو لا يشعر، والأعرج يتفسح فى مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه، والمريض لا يخلو من رائحة تؤذى أو جرح يبض أو أنف يذن [٢] ونحو ذلك. وقيل: كانوا يخرجون إلى الغزو ويخلفون الضعفاء فى بيوتهم، ويدفعون إليهم المفاتيح، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يتحرجون. حكى عن الحرث بن عمرو أنه خرج غازيا وخلف مالك بن زيد فى بيته وماله، فلما رجع رآه مجهوداً فقال: ما أصابك؟ قال: لم يكن عندى شىء، ولم يحل لى أن آكل من مالك، فقيل: ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا عنه، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت، وهذا كلام صحيح، وكذلك إذا فسر بأن هؤلاء ليس عليهم حرج فى القعود عن الغزو، ولا عليكم أن تأكلوا من البيوت المذكورة، لالتقاء الطائفتين فى أن كل واحدة منهما منفى عنها الحرج. ومثال هذا أن يستفتيك مسافر عن الإفطار فى رمضان. وحاج مفرد عن تقديم الحلق على النحر، فقلت: ليس على المسافر حرج أن يفطر، ولا عليك يا حاج أن تقدم الحلق على النحر. فإن قلت: هلا ذكر الأولاد؛ قلت: دخل ذكرهم تحت قوله ﴿من بيوتكم﴾ لأن ولد الرجل بعضه، وحكمه حكم نفسه. وفى الحديث «إن أطيب ما يأكل المرء

(١) قوله «فى أنفسها قزازة» فى الصحاح «القزازة» التنطس والتباعد عن الدنس. وفيه «التنطس» المبالغة فى التطهر. (ع)

(٢) قوله «أو جرح يبض أو أنف يذن» يبض أى يسيل قليلا قليلا. ويذن: أى يسيل مخاطه. أفاده الصحاح. (ع)

من كسبه ، وإن ولده من كسبه [١] ، ومعنى (من بيوتكم) من البيوت التى فيها أزواجكم وعيالكم ؛ ولأنّ الولد أقرب ممن عدد من القرابات ، فإذا كان سبب الرخصة هو القرابة : كان الذى هو أقرب منهم أولى . فإن قلت : ما معنى ﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾ ؟ قلت : أموال الرجل إذا كان له عليها قيم ووكيل يحفظها له : أن يأكل من ثمر بستانه ويشرب من لبن ماشيته . وملك المفاتح : كونها فى يده وحفظه . وقيل : بيوت المماليك ؛ لأن مال العبد لمولاه . وقرئ : مفتاحه : فإن قلت : فما معنى ﴿أو صديقكم﴾ ؟ قلت : معناه : أو بيوت أصدقائكم . والصديق يكون واحداً وجمعاً [٢] ، وكذلك الخليط والقطين والعدو . يحكى عن الحسن أنه دخل داره وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سلالا من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون . فتهللت أسارير وجهه سروراً وضحك وقال : هكذا وجدناهم ، هكذا وجدناهم . يريد كبراء الصحابة ومن لقيهم من البدريين رضى الله عنهم . وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ منه ما شاء . فإذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سروراً بذلك . وعن جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهما : من عظم حرمة الصديق أن جعله الله من الأنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ والابن . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : الصديق أكبر من الوالدين ، إن الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات . فقالوا : فما لنا من شافعين ولا صديق حميم . وقالوا : إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك ، قام ذلك مقام الإذن الصريح ، وربما سمج الاستئذان وثقل ، كمن قدم إليه طعام فاستأذن صاحبه فى الأكل منه ﴿جميعاً أو أشتاتاً﴾ أى مجتمعين أو متفرقين . نزلت فى بنى ليث بن عمرو من كنانة كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظرا نهاره إلى الليل ، فان لم يجد من يواكله أكل ضرورة . وقيل فى قوم من الأنصار : إذا نزل بهم ضيف

---

(١) أخرجه أصحاب السنن وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق والبزار وأبو يعلى كلهم من حديث عائشة بهذا . قال ابن القطان : يرويه عمارة بن عمير فقال إبراهيم عنه . عن عمته عن عائشة . وقال الحاكم : عن عمارة عن أمه عن عائشة وذكره الدارقطنى فى العلل والاختلاف فيه وأطال . وفى الباب عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال « أتى أعرابى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن أبى يريد أن يجتاح مالى . قال : أنت ومالك لوالدك إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أموال أولادكم من كسبكم فكلوا هنيئاً » رواه أبو داود وابن ماجه من طريق الحجاج بن أرطاة عن عمرو وحجاج مدلس وفيه ضعف .

(٢) قال محمود : « الصديق يكون واحداً وجمعاً والمراد هنا الجمع » قال أحمد : وقد قال الزمخشرى : إن سر إفراده فى قوله تعالى (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) دون الشافعين التنبيه على قلة الأصدقاء ، ولا كذلك الشافعون ، فان الانسان قد يحمى له ويشفع فى حقه من لا يعرفه فضلا عن أن يكون صديقا . ويحتمل فى الآيتين ـ والله أعلم ـ أن يكون المراد به الجمع فلا كلام . ويحتمل أن يراد الافراد ، فيكون سره ذلك ، والله أعلم .

لا يأكلون إلا مع ضيفهم وقيل : تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس فى الأكل وزيادة بعضهم على بعض ﴿فإذا دخلتم بيوتاً﴾ من هذه البيوت لتأكلوا فبدئوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة (١) ﴿تحية من عند الله﴾ أى ثابتة بأمره ، مشروعة من لدنه . أو لأن التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله . ووصفها بالبركة والطيب : لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق . وعن أنس رضى الله عنه قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ـ وروى : تسع سنين ـ فما قال لى لشىء فعلته لم فعلته ؟ ولا قال لى لشىء كسرته لم كسرته ؟ وكنت واقفاً على رأسه أصب الماء على يديه فرفع رأسه فقال : ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها ؟ قلت : بلى بأبى وأمى يا رسول الله . قال : متى لقيت من أمتى أحداً فسلم عليه يطل عمرك ، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين (٢) » . وقالوا : إن لم يكن فى البيت أحد فليقل : السلام علينا من ربنا . السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . السلام على أهل البيت ورحمة الله . وعن ابن عباس : إذا دخلت المسجد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين تحية من عند الله . وانتصب تحية بسلموا ، لأنها فى معنى تسليما ، كقولك : قعدت جلوساً .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ

(١) قال محمود : «معناه : فسلموا على الجنس الذى هو منكم دينا وقرابة» قال أحمد : وفى التعبير عنهم بالأنفس تنبيه على السر الذى اقتضى إباحة الأكل من هذه البيوت المعدودة ، وأن ذلك إنما كان لأنها بالنسبة إلى الداخل كبيت نفسه لاتحاد القرابة ، فليطب نفسا بالبساط فيها ، والله أعلم .

(٢) أخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف الجرجانى فى تاريخ جرجان . والبيهقى فى الشعب فى الحادى والستين . والثعلبى من طريق اليسع بن زيد بن سهل عن ابن عتبة عن حميد وعن أنس بهذا واليسع آخر من زعم أنه سمع من ابن عتبة . مات بعد الثمانين والمائتين وهو واهى الحديث وأصل الحديث دون القصة التى قبه ، فى الصحيح من حديث أنس رضى الله عنه . وباقيه مروى عن أنس من أوجه . منها ما رواه البزار من طريق عويد بن عمران الجونى عن أبيه قال : «أوصانى النبى صلى الله عليه وسلم بخمس خصال قال : أسبغ الوضوء يزد فى عمرك : وسلم على من لقيت من أمتى تكثر حسناتك . وإذا دخلت بيتك فسلم على أهلك يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى . فانها صلاة الأوابين ، وارحم الصغير ووقر الكبير ، تكن من رفاقى» وعويد . قال ابن حبان : يروى عن أبيه ماليس من حديثه . ورواه أبو يعلى من رواية عمرو بن أبى خليفة عن ضرار بن عمرو عن أنس وإسناده ضعيف جداً وكذا رواه الطبرانى فى الصغير من رواية عمرو بن دينار عن أنس والراوى عنه ساقط ورواه العقيلى من رواية الفضل بن العباس عن ثابت عن أنس والفضل مجهول . قال العقيلى : لم يتابعه عليه إلا من هو دونه أو قبله ورواه ابن عدى من طريق أزور بن غالب عن سليمان التيمى عن أنس . قال ابن طاهر : أزور منكر الحديث . وله طريق أخرى عن أنس أشد ضعفاً من هذه .

لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢)

أراد عز وجل أن يريهم عظم الجناية فى ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغير إذنه ﴿إذا كانوا معه على أمر جامع﴾ فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله ، وجعلهما كالتشبيب له [(١)] والبساط لذكره ، وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين ، ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً ، حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله (إنّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) وضمنه شيأ آخر ، وهو : أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين ، وعرّض بحال المنافقين وتسللهم لواذا . ومعنى قوله ﴿لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ويأذن لهم . ألا تراه كيف علق الأمر بعد وجود استئذانهم بمشيئته وإذنه لمن استصوب أن يأذن له . والأمر الجامع : الذى يجمع له الناس ، فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز . وذلك نحو مقاتلة عدوّ ، أو تشاور فى خطب مهمّ ، أو تضام لإرهاب مخالف ، أو تماسح فى حلف وغير ذلك . أو الأمر الذى يعم بضرره أو بنفعه . وقرئ : أمر جميع . وفى قوله (إذا كانوا معه على أمر جامع) أنه خطب جليل لا بد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه من ذوى رأى وقوّة ، يظاهرونه عليه ويعاونونه ويستضىء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم فى كفايته ، فمفارقة أحدهم فى مثل تلك الحال مما يشق على قلبه ويشعث عليه رأيه ، فمن ثمة غلظ عليهم وضيق عليهم الأمر فى الاستئذان ، مع العذر المبسوط ومساس الحاجة إليه ، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم ، وذلك قوله ﴿لبعض شأنهم﴾ . وذكر الاستغفار للمستأذنين : دليل على أنّ الأحسن الأفضل أن لا يحدثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه . وقيل : نزلت فى حفر الخندق وكان قوم يتسللون بغير إذن . وقالوا : كذلك ينبغى أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم فى الدين والعلم يظاهرونهم ولا يخذلونهم فى نازلة من النوازل ولا يتفرقون عنهم . والأمر فى الإذن مفوّض إلى الإمام : إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن ، على حسب ما اقتضاه رأيه .

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ

(١) قوله ‹ وجعلهما كالتشبيب له › فى الصحاح التشبيب النسيب يقال هو يشبب بفلانة أى ينسب بها (ع)

يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)

إذا احتاج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي . أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمى بعضكم بعضاً ويناديه باسمه الذى سماه به أبواه ، ولا تقولوا : يا محمد ، ولكن : يا نبى الله . ويا رسول الله ، مع التوقير التعظيم والصوت المخفوض والتواضع . ويحتمل : لا تجعلوا دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم كبيركم وفقيركم غنيكم ، يسأله حاجة فربما أجابه وربما رده ، فإن دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم مسموعة مستجابة ﴿ يتسللون ﴾ ينسلون قليلا قليلا . ونظير « تسلل » : « تدرج وتدخل » : واللواذ : الملاوذة ، وهو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا ، يعنى : ينسلون عن الجماعة فى الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض . و ﴿ لواذاً ﴾ حال ، أى : ملاوذين . وقيل : كان بعضهم يلوذ بالرجل إذا استأذن فيأذن له ، فينطلق الذى لم يؤذن له معه . وقرئ : لواذاً ، بالفتح . يقال . خالفه إلى الأمر ، إذا ذهب إليه دونه . ومنه قوله تعالى (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) وخالفه عن الأمر : إذا صدّ عنه دونه . ومعنى ﴿ الذين يخالفون عن أمره ﴾ الذين يصدّون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون ، فحذف المفعول لأنّ الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه . الضمير فى أمره لله سبحانه أو للرسول صلى الله عليه وسلم . والمعنى : عن طاعته ودينه ﴿ فتنة ﴾ محنة فى الدنيا ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ فى الآخرة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : فتنة قتل . وعن عطاء : زلازل وأهوال . وعن جعفر بن محمد : يسلط عليهم سلطان جائر .

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)

أدخل (قد) ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد ، وذلك أن (قد) إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى « ربما » فوافقت « ربما » فى خروجها إلى معنى التكثير فى نحو قوله :

فَإِنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الْفِنَاءِ فَرُبَّمَا ... أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الْوُفُودِ وُفُودُ (١)

(١) ألا إن عيناً لم تجد يوم واسط ... عليك بجارى دمعها لجمود
عشية قام النائحات وشققت ... جيوب بأيدى مأتم وخدود

ونحوه قول زهير :

أَخِى ثِقَةٍ لَاتُهْلِكُ الْخَمْرُ مَالَهُ   وَلَـكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالَ نَائِلُهْ [1]

والمعنى . أنّ جميع ما فى السموات والأرض مختصة به خلقاً وملكا وعلما ، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجتهدون فى سترها عن العيون وإخفائها . وسينبئهم يوم القيامة بما أبطنوا من سوء أعمالهم وسيجازيهم حق جزائهم . والخطاب والغيبة فى قوله ﴿قد يعلم ماأنتم عليه ويوم يرجعون إليه﴾ يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات . ويجوز أن يكون (ماأنتم عليه) عاماً ، و (يرجعون) للمنافقين ، والله أعلم .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة النور أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقى [2] » .

= فان تمس مهجور الفناء فربما   أقام به بعد الوفود وفود

لابن عطاء السندى : يرثى ابن هبيرة لما قتله المنصور . وواسط : موضع الواقعة . وأتم بالمكان : أقام به . والمأتم : مكان الاقامة : استعمل فى جماعة النساء الحزينات مجازاً مشهوراً ، وجمعه : مآتم بمد الهمزة . يقول : إن كل عين لم تبك عليك ذلك اليوم لشديدة الجمود . وعشية : بدل من يوم . وجيب القميص . مخرج الرأس منه ، أى : مزقت الجيوب والخدود بأيدى النساء ، ثم التفت إلى الخطاب ، وصبر وتصبر بقوله : فان تمس مهجور الفناء ، كناية عن الموت . فربما : أى كثيراً أقام بفناء بيتك جموع من الناس بعد جموع ، يستمنحونك ، أى : فان يهجر فناؤك الآن فلا حزن ، لأنه كثيراً ما اجتمع فيه الناس ومنحوا خيراً .

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ١٧ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) أخرجه الثعلبى وابن مردويه باسناديهما إلى أبى بن كعب رضى الله عنه .

سورة الفرقان

مكية إلا الآيات ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ فمدنية
وآياتها ٧٧ [نزلت بعد يس]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)

البركة: كثرة الخير وزيادته. ومنها (تبارك الله) وفيه معنيان: تزايد خيره، وتكاثر. أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه فى صفاته وأفعاله. والفرقان: مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما وسمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل. أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقا، مفصولا بين بعضه وبعض فى الإنزال[1]. ألا ترى إلى قوله (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) وقد جاء الفرق بمعناه[2]. قال:

* وَمُشْرِكِىٍّ كَافِرٍ بِالْفَرْقِ *

وعن ابن الزبير رضى الله عنه: على عباده، وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته، كما قال (لقد أنزلنا إليكم)، (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا). والضمير فى ﴿ليكون﴾ لعبده أو للفرقان. ويعضد رجوعه إلى الفرقان قراءة ابن الزبير ﴿للعالمين﴾ للجن والإنس ﴿نذيرا﴾ منذرا أى مخوفا أو إنذارا، كالنكير بمعنى الإنكار. ومنه قوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر)، ﴿الذى له﴾ رفع على الإبدال من الذى نزل. أو رفع على المدح. أو نصب عليه. فإن قلت:

---

(١) قال محمود: «يجوز أن يراد بوصفه بالفرقان تفريقه بين الحق والباطل، ويجوز أن يراد نزوله مفرقا شيئا فشيئا كما قال. وقرآنا فرقناه» قال أحمد: والأظهر هنا هو المعنى الثانى؛ لأن فى أثناء السورة بعد آيات (وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) قال الله تعالى (كذلك) أى أنزلناه مفرقا كذلك (لنثبت به فؤادك) فيكون وصفه بالفرقان فى أول السورة ـ والله أعلم ـ كالمقدمة والتوطئة لما يأتى بعد.

(٢) قوله «وقد جاء الفرق بمعناه» فى الصحاح: والفرق أيضا: الفرقان. ونظيره: الخسر والخسران. قال الراجز: ومشركى ... الخ. (ع)

كيف جاز الفصل بين البدل والمبدل منه ؟ قلت : ما فصل بينهما بشيء ؛ لأنّ المبدل منه صلته نزل . و (ليكون) تعليل له ، فكأنّ المبدل منه لم يتمّ إلا به . فإن قلت : فى الخلق معنى التقدير ، فما معنى قوله ﴿ وخلق كل شيء فقدّره تقديراً ﴾ كأنه قال : وقدّر كل شيء فقدّره ؟ قلت : المعنى أنه أحدث كل شيء إحداثا مراعى فيه التقدير والتسوية ، فقدّره وهيأه لما يصلح له ، مثاله : أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المستوى الذى تراه ، فقدّره للتكاليف والمصالح المنوطة به فى بابى الدين والدنيا ، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدّرة بأمثلة الحكمة والتدبير ، فقدّره لأمر ما ومصلحة مطابقا لما قدر له غير متجاف عنه . أو سمى إحداث الله خلقا لأنه لا يحدث شيئاً لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت ، فإذا قيل : خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك : أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق ، فكأنه قيل : وأوجد كل شيء فقدّره فى إيجاده لم يوجده متفاوتا . وقيل : فجعل له غاية ومنتهى . ومعناه : فقدّره للبقاء إلى أمد معلوم .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

الخلق بمعنى الافتعال ، كما فى قوله تعالى (إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا) والمعنى : أنهم آثروا على عبادة الله سبحانه عبادة آلهة لا عجز أبين من عجزهم ، لا يقدرون على شيء من أفعال الله ولا من أفعال العباد ، حيث لا يفتعلون شيئاً وهم يفتعلون ، لأن عبدتهم يصنعونهم بالنحت والتصوير ﴿ ولا يملكون ﴾ أى : لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها أو جلب نفع إليها وهم يستطيعون ، وإذا عجزوا عن الافتعال ودفع الضرر وجلب النفع التى يقدر عليها العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور التى لا يقدر عليها إلا الله أعجز .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾

﴿ قوم آخرون ﴾ قيل : هم اليهود . وقيل : عداس مولى حويطب بن عبد العزى ، ويسار مولى العلاء بن الحضرمى ، وأبو فكيهة الرومى : قال ذلك النضر بن الحرث بن عبد الدار . « جاء » و « أتى » يستعملان فى معنى فعل ، فيعديان تعديته ، وقد يكون على معنى : وردوا ظلما ، كما تقول : جئت المكان . ويجوز أن يحذف الجار ويوصل الفعل . وظلمهم : أن جعلوا العربى يتلقن

من العجمي الرومي كلاما عربيا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب . والزور : أن بهتوه بنسبة ماهو برئ منه إليه .

وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾

﴿أساطير الاولين﴾ ماسطّره المتقدمون من نحو أحاديث رستم واسفنديار . جمع : أسطار أوأسطوره كأحدوثة ﴿اكتتبها﴾ كتبها لنفسه وأخذها ، كما تقول : استكب الماء واصطبه : إذا سكبه وصبه لنفسه وأخذه . وقرئ : اكُتتبها . على البناء للمفعول . والمعنى : اكتتبها كاتب له . لأنه كان أميا لايكتب بيده ، وذلك من تمام إعجازه ، ثم حذفت اللام فأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب ، كقوله (واختار موسى قومه) ثم بنى الفعل للضمير الذى هو إياه فانقلب مرفوعا مستترا بعد أن كان بارزا منصوبا ، وبقى ضمير الأساطير على حاله ، فصار (اكتتبها) كما ترى . فإن قلت : كيف قيل : اكتتبها ﴿فهى تملى عليه﴾ وإنما يقال : أمليت عليه فهو يكتتبها ؟ قلت : فيه وجهان . أحدهما : أراد اكتتابها أو طلبه فهى تملى عليه . أو كتبت له وهو أمىّ فهى تملى عليه : أى تلقى عليه من كتابه يتحفظها : لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب . وعن الحسن : أنه قول الله سبحانه يكذبهم وإنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذى فى معنى الإنكار . ووجهه أن يكون نحو قوله :

أَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكِرَامَ وَأَنْ أُورَثَ ذَوْدًا شَصَائِصًا نَبَلَا [1]

وحق الحسن أن يقف على الأولين . ﴿بكرة وأصيلا﴾ أى دائما ، أو فى الخفية قبل أن ينتشر الناس ، وحين يأوون إلى مساكنهم .

---

(١) إن كنت أزنتنى بها كذبا جزؤ فلاقيت بعدها عجلا
أفرح أن أرزأ الكرام وأن أورث ذودا شصائصا نبلا

لحضرمى بن عامر ، يخاطب جزء بن سنان بن مؤلة حين اتهمه بسروره بأخذ دية أخيه القتيل . وقيل : لجرير . وليس بذاك . وجزؤ ـ بفتح فسكون ـ وإن هنا للشرط مجرداً عن الشك ، أو بمعنى إذ . وأزنتنى : أى تهمتنى بها : أى بتلك فعلة الرذيلة كذبا منك ياجزؤ ، فهو منادى ، فلاقيت أنت بعدها عجلا : دعاء عليه بأن ينال مثلها سريعاً ، وينظر هل يفرح أو يحزن ؟ وروى : فلاقيت مثلها عجلا . أفرح ، أى : أأفرح بأن أرزأ الكرام وأصاب فيهم ، فحذفت همزة الاستفهام الانكارى أوالتعجبي على فرض الوقوع لدلالة المقام عليها ، وليصور الكلام بصورة الاخبار والاثبات ، فيظهر للخصم قبح دعواه . وأرزأ : مبنى للمجهول ، وكذلك أورث ، أى : أعطى ذودا : أى قطيعاً من الابل بعد موتهم . والذود : مابين الثلاثة إلى العشرة ، مؤنث لاواحد له من لفظه ، عبر به عن الدية كلها استقلالا وتحقيرا لها . ولذلك وصفه بشصائصا : جمع شصوص ، وهى الناقة القليلة اللبن . وصرفه للوزن . والنبل ـ كسبب ـ : جمع نبيل . ويروى بالضم ، فهو جمع نبيل أيضاً ، ككرما وكريم . أو جمع نبلة ، كغرف وغرفة ؛ أي الصغار ، أو النجائب فهو من الأضداد ؛ لكن الأول أوفق بالمقام . ويجوز أن الدية كانت عشرة .

قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾

أى يعلم كل سرّ خفىّ فى السموات والأرض . ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله صلى الله عليه وسلم مع علمكم أنّ ما تقولونه باطل وزور ، وكذلك باطن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما تبهتونه به ، وهو يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه . فإن قلت: كيف طابق قوله ﴿إنه كان غفوراً رحيما﴾ هذا المعنى ؟ قلت : لما كان ما تقدّمه فى معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة عليه ، لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة . أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبًّا ، ولكن صرف ذلك عنهم إنه غفور رحيم : يمهل ولا يعاجل .

وَقَالُوا مَالِ هَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾

وقعت اللام فى المصحف مفصولة عن هذا خارجة عن أوضاع الخط العربى. وخط المصحف سنة لا تغير . وفى هذا استهانة وتصغير لشأنه وتسميته بالرسول سخرية منهم وطنز [1] ، كأنهم قالوا : ما لهذا الزاعم أنه رسول . ونحوه قول فرعون (إنّ رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) أى : إنّ صحّ أنه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا ﴿ يأكل الطعام﴾ كما نأكل ؛ ويتردد فى الأسواق لطلب المعاش كما نتردد . يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والتعيش . ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا إلى اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك ، حتى يتساندا فى الإنذار والتخويف . ثم نزلوا أيضا فقالوا : وإن لم يكن مرفودا بملك، فليكن مرفودا بكنز يلق إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش . ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه ويرتزق كما الدهاقين والمياسير . أو يأكلون هم من ذلك البستان فينتفعون به فى دنياهم ومعاشهم . وأراد بالظالمين . إياهم بأعيانهم : وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوا . وقرئ : فيكون ، بالرفع . أو يكون له جنة ، بالياء ، ونأكل ، بالنون . فإن قلت : ما وجها الرفع والنصب فى فيكون ؟ قلت : النصب لأنه جواب « لولا » بمعنى « هلا » ، وحكمه حكم الاستفهام . والرفع على أنه معطوف على أنزل ، ومحله الرفع . ألا تراك

(١) قوله «وطنز» فى الصحاح «الطنز» : السخرية . (ع)

تقول: لولا ينزل بالرفع، وقد عطف عليه: يلق، وتكون مرفوعين، ولا يجوز النصب فيهما لأنهما فى حكم الواقع بعد لولا، ولا يكون إلا مرفوعا. والقائلون هم كفار قريش النضر بن الحرث، وعبد الله بن أبى أمية، ونوفل بن خويلد ومن ضامهم ﴿مسحوراً﴾ سحر فغلب على عقله. أو ذا سحر، وهو الرئة: عنوا أنه بشر لا ملك.

ٱنظرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾

﴿ضربوا لك الأمثال﴾ أى: قالوا فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة، من نبوّة مشتركة بين إنسان وملك. وإلقاء كنز عليك من السماء وغير ذلك، فبقوا متحيرين ضلالا، لايجدون قولا يستقرّون عليه. أوفضلوا عن الحق فلا يجدون طريقا إليه.

تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَٰرُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

تكاثر خير ﴿الذى إن شاء﴾ وهب لك فى الدنيا ﴿خيراً﴾ مما قالوا، وهو أن يعجل لك مثل ماوعدك فى الآخرة من الجنات والقصور. وقرئ: ويجعل. بالرفع عطفا على جعل: لأن الشرط إذا وقع ماضياً، جاز فى جزائه الجزم والرفع، كقوله:

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْئَلَةٍ يَقُولُ لَاغَائِبٌ مَالِى وَلَا حَرِمُ [1]

ويجوز فى (ويجعل لك) إذا أدغمت: أن تكون اللام فى تقدير الجزم والرفع جميعاً. وقرئ بالنصب، على أنه جواب الشرط بالواو.

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَاتَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

﴿بل كذبوا﴾ عطف على ماحكى عنهم. يقول: بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٧ه فراجعه إن شئت اه مصححه.

بالساعة . ويجوز أن يتصل بما يليه ، كأنه قال : بل كذبوا بالساعة ، فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك فى الآخرة وهم لا يؤمنون بالآخرة . السعير: النار الشديدة الاستعار . وعن الحسن رضى الله عنه : أنه اسم من أسماء جهنم ﴿رأتهم﴾ من قولهم : دورهم تترا[1] ، أى : وتتناظر . ومن قوله صلى الله عليه وسلم « لا تراءى ناراهما »[2] كأن بعضها يرى بعضا على سبيل المجاز . والمعنى : إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد سمعوا صوت غليانها . وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر . ويجوز أن يراد: إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار وشهوة للانتقام منهم . الكرب مع الضيق ، كما أن الروح مع السعة ، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض . وجاء فى الأحاديث : أن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ، ولقد جمع الله على أهل النار أنواع التضييق والإرهاق ، حيث ألقاهم فى مكان ضيق يتراصون فيه تراصا ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسيره أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح . وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون فى السلاسل : قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الجوامع . وقيل : يقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة وفى أرجلهم الأصفاد . والثبور : الهلاك . ودعاؤه أن يقال : واثبوراه ، أى : تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك ﴿لا تدعوا﴾ أى يقال لهم ذلك : أو هم أحقاء بأن يقال لهم ، وإن لم يكن ثمة قول ومعنى ﴿وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً ، إنما هو ثبور كثير . إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته . أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها ، فلا غاية لهلاكهم

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾

الراجع إلى الموصولين محذوف . يعنى : وعدها المتقون وما يشاءونه . وإنما قيل: كانت ، لأن ما وعده الله وحده فهو فى تحققه كأنه قد كان . أو كان مكتوبا فى اللوح قبل أن برأهم بأزمنة

(١) قال محمود : « هو من قولهم : دور بنى فلان تترا ، أى على المجاز ، قال أحمد : لا حاجة إلى حمله على المجاز فان رؤية جهنم جائزة . وقدرة الله تعالى صالحة ، وقد تظافرت الظواهر على وقوع هذا الجائز ، وعلى أن الله تعالى يخلق لها إدراكا حسياً وعقلياً . ألا ترى إلى قوله (سمعوا لها تغيظاً) وإلى محاجتها مع الجنة ، وإلى قولها (هل من مزيد) وإلى اشتكائها إلى ربها فأذن لها فى نفسين ، إلى غير ذلك من الظواهر التى لا سبيل إلى تأويلها ، إذ لا محوج إليه . ولو فتح باب التأويل والمجاز فى أحوال المعاد ، لتطوح الذى يسلك ذلك إلى وادى الضلالة والتحيز إلى فرق الفلاسفة ، فالحق أنا متعبدون بالظاهر مالم يمنع مانع . والله أعلم .

(٢) تقدم فى المائدة .

متطاولة : أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ كانت لهم جزاء ومصيراً ﴾ ؟ قلت : هو كقوله : (نعم الثواب وحسنت مرتفقاً) فمدح الثواب ومكانه ، كما قال : (بئس الشراب وساءت مرتفقا) فذم العقاب ومكانه لأنّ النعيم لا يتم للمتنعم إلا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة . وأن لا تنغص . وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع [1] وضيقه وظلمته وجمعه لأسباب الاجتواء والكراهة ، فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء . والضمير فى ﴿ كان ﴾ لما يشاءون . والوعد : الموعود ، أى : كان ذلك موعوداً واجبا على ربك إنجازه ، حقيقا أن يسئل ويطلب ، لأنه جزاء وأجر مستحق . وقيل : قد سأله الناس والملائكة فى دعواتهم : (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) ، (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) ، (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِى لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَـٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾

يحشرهم . فيقول : كلاهما بالنون والياء ، وقرئ : يحشرهم ، بكسر الشين ﴿ وما يعبدون ﴾ يريد : المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير . وعن الكلبي : الأصنام ينطقها الله . ويجوز أن يكون عاما لهم جميعاً . فإن قلت : كيف صح استعمال (ما) فى العقلاء ؟ قلت : هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم ، بدليل قولك ـ إذا رأيت شبحاً من بعيد ـ : ماهو ؟ فإذا قيل لك : إنسان ، قلت حينئذ : من هو ؟ ويدلك قولهم « من » لما يعقل . أو أريد به الوصف ، كأنه قيل : ومعبوديهم . ألا تراك تقول إذا أردت السؤال عن صفة زيد : ما زيد ؟ تعنى : أطويل أم قصير ؟ أفقيه أم طبيب ؟ فإن قلت : ما فائدة أنتم وهم ؟ وهلا قيل أضللتم عبادى هؤلاء ، أم هم [2] ضلوا السبيل؟ قلت . ليس السؤال عن الفعل ووجوده ، لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب ، وإنما هو عن متوليه ، فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام ، حتى يعلم أنه المسئول عنه . فإن قلت : فالله سبحانه قد سبق علمه بالمسؤول عنه . فما فائدة هذا السؤال ؟ قلت : فائدته أن يجيبوا بما

(١) قوله «بغثاثة الموضع» أى فساده ورداءته . والاجتواء : كراهة المقام بالمكان . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله «أم هم ضلوا» لعله أم ضلوا ، كعبارة النسق . (ع)

أجابوا به ، حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم ، فيبهتوا [(١)] وينخذلوا وتزيد حسرتهم ،ويكون ذلك نوعا مما يلحقهم من غضب الله وعذابه ، ويغتبط المؤمنون ويفرحوا بحالهم ونجاتهم من فضيحة أولئك ، وليكون حكاية ذلك فى القرآن لطفاً للمكلفين .وفيه كسر بين لقول من يزعم [(٢)] أن الله يضل عباده على الحقيقة [(٣)] ، حيث يقول للمعبودين من دونه : أأنتم أضللتموهم ، أم هم ضلوا بأنفسهم ؟ فيتبرءون من إضلالهم ويستعيذون به أن يكونوا مضلين ، ويقولون : بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وآبائهم تفضل جواد كريم، فجعلوا النعمة التى حقها أن تكون

---

(١) قوله «فيبهتوا» يدهشوا . أو يتحيروا . أفاده الصحاح (ع)

(٢) قوله «لقول من يزعم أن الله ... الخ» يريد أهل السنة القائلين : إضلال الله لعباده خلق الضلال فى قلوبهم ، خلافا للمعتزلة القائلين : أنه تعالى لايخلق الشر ولا يريده . (ع)

(٣) قال محمود : «فى هذه الآية كسر بين لمن يزعم أن الله تعالى يضل عباده حقيقة ، حيث يقول للمعبودين من دونه : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ، أم هم ضلوا بأنفسهم ؟ فيتبرؤن منهم ويستعيذون مما نسب إليهم ، ويقولون : بل تفضلك على هؤلاء أوجب أن جعلوا عوض الشكر كفراً . فاذا برأت الملائكة والرسل أنفسهم من ذلك . فهم لله أشد تبرئة وتنزيهاً منه ، ولقد نزهوه حيث أضافوا التفضل بالنعمة إلى الله تعالى ، وأسندوا الضلال الذى نشأ عنه إلى الضالين ، فهو شرح للاسناد المجازى فى قوله (يضل من يشاء) ولو كان مضلا حقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا : بل أنت أضللتهم» قال أحمد : قد تقدم شرح عقيدة أهل الحق فى هذا المعنى . وأن الباعث لهم على اعتقاد كون الضلال من خلق الله تعالى : التزامهم للتوحيد المحض والايمان الصرف ، الذى دل على صحته بعد الأدلة العقلية قوله تعالى (الله خالق كل شيء) والضلال شيء ، فوجب كونه خالقه : هذا من حيث العموم . وأما من حيث الخصوص ، فأمثال قوله تعالى (يضل من يشاء ويهدى من يشاء) ، والأصل الحقيقة ، وقول موسى عليه السلام (إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) فلو كان الاضلال مستحيلا على الله تعالى لما جاز أن يخاطبه الكليم بما لايجوز ، فاذا أوضح ذلك فالملائكة لم يسئلوا فى هذه الاية عن المضل لعبادهم حقيقة ، فيقال لهم : من أضل هؤلاء ، وإنما قيل لهم : أأنتم أضللتموهم ، أم هم ضلوا ؟ فليس الجواب المطابق العتيد أن يقولوا : أنت أضللتهم . ولو كان معتقدهم أن الله تعالى هو المضل حقيقة ، لكان قولهم فى جواب هذا السؤال : بل أنت أضللتهم مجاوزة لحز السؤال ومحله ، وإنما كان هذا الجواب مطابقاً لو قيل لهم : من أضل عبادى هؤلاء ؟ فقد وضح أن هذا السؤال لايجاب عنه بما تخيله الزمخشرى ، بتقدير أن يكون معتقدهم أن الله تعالى هو الذى أضلهم . وأن عدولهم عنه ليس لأنهم لايعتقدونه ، ولكن لأنه لايطابق . وبقى وراء ذلك نظر فى أن جوابهم هذا يدل على معتقدهم الموافق لأهل الحق ، لأن أهل الحق يعتقدون أن الله تعالى وإن خلق لهم الضلالة إلا أن لهم اختياراً فيها وتميزا لها ، ولم يكونوا عليها مقسورين كما هم مقسورون على أفعال كثيرة يخلقها الله فيهم كالحركات الرعشية ونحوها . وقد قدمنا فى مواضع : أن كل فعل اختيارى له نسبتان : إن نظر إلى كونه مخلوقا فهو منسوب إلى الله تعالى ، وإن نظر إلى كونه اختيارياً للعبد فهو منسوب إلى العبد . وبذلك قطعت الملائكة فى قولهم : بل متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، فنسبوا نسيان الذكر إليهم ، أى : الانهماك فى الشهوات الذى نشأ عنه النسيان ؛ لأنهم اختاروه لأنفسهم ، فصدقت نسبته إليهم ، ونسبوا السبب الذى اقتضى نسيانهم وانهماكهم فى الشهوات إلى الله تعالى : وهو استدراجهم ببسط النعم عليهم ، فبها ضلوا ، فلا تنافى بين معتقد أهل الحق وبين مضمون قول الملائكة حينئذ . بل هما متواطئان على أمر واحد ، والله أعلم .

سبب الشكر ، سبب الكفر ونسيان الذكر ، وكان ذلك سبب هلاكهم، فإذا برأت الملائكة والرسل أنفسهم من نسبة الإضلال الذى هو عمل الشياطين إليهم واستعاذوا منه ، فهم لربهم الغنىّ العدل أشدّ تبرئة وتنزيهاً منه . ولقد نزهوه حين أضافوا إليه التفضل بالنعمة والتمتيع بها ، وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوار إلى الكفرة . فشرحوا الإضلال المجازى الذى أسنده الله تعالى إلى ذاته فى قوله (يضل من يشاء) ولو كان هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا : بل أنت أضللتهم . والمعنى : أأنتم أوقعتموهم فى الضلال عن طريق الحق ؟ أم هم ضلوا عنه بأنفسهم ؟ وضل : مطاوع « أضله » وكان القياس : ضل عن السبيل ، إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه فى هداه الطريق . والأصل : إلى الطريق. وللطريق . وقولهم : أضلّ البعير، فى معنى : جعله ضالا ، أى : ضائعاً ، لما كان أكثر ذلك بتفريط من صاحبه وقلة احتياط فى حفظه ، قيل : أضله ، سواء كان منه فعل أو لم يكن ﴿ سبحانك ﴾ تعجب منهم ، قد تعجبوا مما قيل لهم لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون ، فما أبعدهم عن الإضلال الذى هو مختص بإبليس وحزبه. أو نطقوا بسبحانك ليدلوا على أنهم المسبحون المتقدسون الموسومون بذلك. فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده . أو قصدوا به تنزيهه عن الأنداد ، وأن يكون له نبىّ أو ملك أو غيرهما نداً ، ثم قالوا : ما كان يصحّ لنا ولا يستقيم ونحن معصومون أن نتولى أحداً دونك . فكيف يصحّ لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك . أو ما كان ينبغى لنا أن نكون أمثال الشياطين فى توليهم الكفار كما تولاهم الكفار . قال الله تعالى (فقاتلوا أولياء الشيطان) يريد الكفرة وقال (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) وقرأ أبو جعفر المدنى : نتخذ ، على البناء للمفعول . وهذا الفعل أعنى « اتخذ » يتعدى إلى مفعول واحد ، كقولك : اتخذ وليا ، وإلى مفعولين كقولك اتخذ فلانا وليا . قال الله تعالى (أم اتخذوا آلهة من الأرض) وقال (واتخذ الله إبراهيم خليلا) فالقراءة الأولى من المتعدى إلى واحد وهو (من أولياء) والأصل : أن نتخذ أولياء ، فزيدت (من) لتأكيد معنى النفى ، والثانية من المتعدى إلى مفعولين . فالأول ما بنى له الفعل . والثانى : (من أولياء) . ومن للتبعيض ، أى : لا نتخذ بعض أولياء . وتنكير (أولياء) من حيث أنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام والذكر : ذكر الله والإيمان به . أو القرآن والشرائع . والبور : الهلاك ، يوصف به الواحد والجمع . ويجوز أن يكون جمع بائر ، كعائذ وعوذ .

فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

هذه المفاجأة [1] بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ونحوها قوله تعالى (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير) وقول القائل :

قَالُوا خُرَاسَانُ أَقْصَى مَا يُرَادُ بِنَا ثُمَّ الْقُفُولُ فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا [2]

وقرئ : يقولون . بالتاء والياء . فمعنى من قرأ بالتاء فقد كذبوكم بقولكم أنهم آلهة . ومعنى من قرأ بالياء : فقد كذبوكم بقولهم (سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) : فإن قلت : هل يختلف حكم الباء مع التاء والياء ؟ قلت إى والله ، هى مع التاء كقوله (بل كذبوا بالحق) والجار والمجرور بدل من الضمير ، كأنه قيل : فقد كذبوا بما تقولون : وهى مع الياء كقولك : كتبت بالقلم . وقرئ : يستطيعون ، بالتاء والياء أيضاً . يعنى . فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم . وقيل : الصرف : التوبة وقيل : الحيلة ، من قولهم : إنه ليتصرف ، أى . يحتال أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب . أو أن يحتالوا لكم . الخطاب على العموم للمكلفين . والعذاب الكبير لاحق بكل من ظلم ، والكافر ظالم ؛ لقوله (إن الشرك لظلم عظيم) والفاسق ظالم . لقوله (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) . وقرئ : يذقه ، بالياء . وفيه ضمير الله . أو ضمير مصدر يظلم .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

الجملة بعد « إلا » صفة لموصوف محذوف . والمعنى : وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين إلا آكلين وماشين . وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور . أعنى من المرسلين ونحوه قوله عز من قائل : (وما منا إلا له مقام معلوم) على معنى : وما منا أحد . وقرئ : ويمشون . على البناء للمفعول ، أى : تمشيهم حوائجهم أو الناس . ولو قرئ : يمشون ، لكان أوجه لولا الرواية . وقيل : هو احتجاج على من قال (مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى

(١) قوله « هذه المفاجأة » أى : التى فى قوله تعالى (فقد كذبوكم) . (ع)

(٢) يقول : قالوا إن هذه البلدة أبعد ما يراد بنا وغاية السفر بنا ، ثم يكون القفول أى الرجوع . ويجوز أنه عطف على خراسان . وقوله « فقد جئنا » مرتب على محذوف ، أى : إن صدقوا فى قولهم فقد جئنا خراسان ، فلم لم نتخلص من السفر . ويجوز أنه عدل إلى الخطاب ، أى : فقولوا لهم اقطعوا السفر بنا وارجعوا . فقد جئنا الموعد . لكن ليس ذلك التفاتاً .

الأسواق) . ﴿فتنة﴾ أى محنة وابتلاء . وهذا تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ماقالوه واستبدعوه ، من أكله الطعام ومشيه فى الأسواق بعد مااحتج عليهم بسائر الرسل ، يقول: وجرت عادتى وموجب حكمتى على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض . والمعنى : أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم ، وبمناصبتهم لهم العداوة ، وأقاويلهم الخارجة عن حدّ الإنصاف، وأنواع أذاهم ، وطلب منهم الصبر الجميل ، ونحوه (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) وموقع ﴿أتصبرون﴾ بعد ذكر الفتنة موقع (أيكم) بعد الابتلاء فى قوله (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) . ﴿بصيرا﴾ عالما بالصواب فيما يبتلى به وغيره فلا يضيقن صدرك ، ولا يستخفنك أقاويلهم فإن فى صبرك عليها سعادتك وفوزك فى الدارين . وقيل : هو تسلية له عما عيروه به من العقر ، حين قالوا : أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة . وأنه جعل الأغنياء فتنه للفقراء ؛ لينظر : هل يصبرون ؟ وأنها حكمته ومشيئته : يغنى من يشاء ويفقر من يشاء . وقيل : جعلناك فتنة لهم ؛ لأنك لو كنت غنياً صاحب كنوز وجنان لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا ، أو ممزوجة بالدنيا ؛ فإنما بعثناك فقيراً ليكون طاعة من يطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوى . وقيل : كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصى بن وائل ومن فى طبقتهم يقولون : إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار وصهيب وبلال وفلان وفلان ترفعوا علينا إدلالا بالسابقة ، فهو افتنان بعضهم ببعض .

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)

أى لا يأملون لقاءنا بالخير لأنهم كفرة . أو لا يخافون لقاءنا بالشر . والرجاء فى لغة تهامة : الخوف ، وبه فسر قوله تعالى (لا ترجون لله وقارا) جعلت الصيرورة إلى دار جزائه بمنزلة لقائه لو كان ملقيا . اقترحوا من الآيات أن ينزل الله عليهم الملائكة فتخبرهم بأن محمداً صادق حتى يصدقوه . أو يروا الله جهرة فيأمرهم بتصديقه واتباعه . ولا يخلو : إما أن يكونوا عالمين بأن الله لا يرسل الملائكة إلى غير الأنبياء ، وأن الله لا يصح أن يرى [1] . وإنما علقوا إيمانهم بما لا يكون . وإما أن لا يكونوا عالمين بذلك وإنما أرادوا التعنت باقتراح آيات سوى الآيات التى نزلت وقامت بها الحجة عليهم ، كما فعل قوم موسى حين قالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . فإن قلت: ما معنى ﴿فى أنفسهم﴾ ؟ قلت : معناه أنهم أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد

(١) قوله « لا يصح أن يرى » هذا مذهب المعتزلة ، وعند أهل السنة : يصح أن يرى . (ع)

فى قلوبهم واعتقدوه . كما قال (إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) . ﴿وعتوا﴾ وتجاوزوا الحدّ فى الظلم . يقال : عتا علينا فلان . وقد وصف العتو بالكبير . فبالغ فى إفراطه يعنى أنهم لم يجسروا على هذا القول العظيم ، إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو . واللام جواب قسم محذوف . وهذه الجملة فى حسن استئنافها غاية . وفى أسلوبها قول القائل :

وَجَارَةُ جَسَّاسٍ أَبَأْنَا بِنَابِهَا كُلَيْباً غَلَتْ نَابٌ كُلَيْبٌ بَوَاؤُهَا [1]

وفى فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ التعجب . ألا ترى أن المعنى : ما أشدّ استكبارهم ، وما أكبر عتوهم . وما أغلى نابا بواؤها كليب .

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢)

﴿يوم يرون﴾ منصوب بأحد شيئين : إما بما دل عليه (لا بشرى) أى : يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى أو يعدمونها . ويومئذ للتكرير . وإما بإضمار « اذكر » أى : اذكر يوم يرون الملائكة ثم قال ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ . وقوله « للمجرمين » إما ظاهر فى موضع ضمير . وإما لأنه عام ، فقد تناولهم بعمومه ﴿حجراً محجوراً﴾ ذكره سيبويه فى باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو : معاذ الله ، [2] وقعدك الله ، وعمرك الله . وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدوّ موتور أو هجوم نازلة ، أو نحو ذلك : يضعونها موضع الاستعاذة . قال سيبويه : ويقول الرجل للرجل : أتفعل كذا وكذا ،

---

(١) لرجل من بنى بكر : قبيلة جساس ، يفتخر على بنى تغلب : قبيلة كليب بن ربيعة أخى مهلهل وخال امرئ القيس . وجارة جساس : هى خالته البسوس . أبأنا ـ بالهمز ـ : أى قابلنا وساوينا كليبا ، بنابها : أى بناقتها المسنة ، فقتلناه فيها ، ثم قال تعجباً واستعظاما : غلت ، أى : ارتفعت وعظمت ناقة مسنة مهزولة بواؤها كليب المشهور . وبواء كسواء وزناً ومعنى ، أى : كفؤها ومساويها كليب بن ربيعة الشجاع المعروف . ومن خبرها أن البسوس أتت مع رجل من جرم تزور أختها هيلة أم جساس بن مرة فخرجت ناقة الجرمى ترعى مع إبل بنى بكر فى أرض تغلب لما كان بينهما من المصاهرة والمودة ، فأنكر كليب الناقة وظنها أجنبية ، فرماها بسهم فأصاب ضرعها فرجعت تشخب دما ، وبركت بفناء جساس ، فرأتها البسوس فصاحت : واذلاه ، واغربتاه ! فقال جساس : اهدئى ، والله لأعقرن فيها فحلا هو أعز على أهله منها ، فظن كليب أنه يعنى فحلا عنده اسمه عليان ، فقال : دون عليان خرط القتاد ، لكن جساساً كان يعنى نفس كليب ، فترقبه يوما ورماه برمحه فصرعه ، وتبعه عمرو بن الحرث ، فلما رآه كليب قال له : اسقنى يا عمرو . فقال : تركت الماء وراءك وأجهز عليه ، فضرب به المثل المشهور :

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

واشتعلت الحرب بين بكر وتغلب نحو ثلاثين سنة ، وضرب المثل السائر : سد كليب فى الناقة .

(٢) قوله « وقعدك الله » فى الصحاح : وقولهم : قعيدك لا آتيك ، وقعيدك الله لا آتيك ، وقعدك الله لا آتيك : يمين للعرب ، وهى مصادر استعملت منصوبة بفعل مضمر . والمعنى : بصاحبك الذى هو صاحب كل نجوى ، كما يقال : نشدتك الله . (ع)

فيقول: حجرا، وهي من حجره إذا منعه، لأن المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه فكان المعنى: أسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا. ومجيئه على فعل أو فعل في قراءة الحسن، تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد، كما كان قعدك وعمرك كذلك، وأنشدت لبعض الرجاز:

قَالَتْ وَفِيهَا حَيْـدَةٌ وَذُعْرُ عُوذٌ بِرَبِّي مِنْكُمُ وَحِجْرُ [١]

فإن قلت: فإذ قد ثبت أنه من باب المصادر، فما معنى وصفه بمحجور؟ قلت: جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر، كما قالوا. ذيل ذائل، والذيل: الهوان. وموت مائت. والمعنى في الآية: أنهم يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه، وهم إذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم، لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون. وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو الموتور [٢] وشدة النازلة. وقيل: هو من قول الملائكة ومعناه: حراما محرما عليكم الغفران والجنة والبشرى، أي: جعل الله ذلك حراما عليكم.

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣)

ليس ههنا قدوم ولا ما يشبه القدوم، ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم، وإغاثة ملهوف، وقرى ضيف، ومن على أسير، وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه، فقدم إلى أشيائهم، وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها ومزقها كل ممزق، ولم يترك لها أثرا ولا عثيرا [٣] والهباء: ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيه بالغبار. وفي أمثالهم: أقل من الهباء ﴿منثورا﴾ صفة للهباء، شبهه بالهباء في قلته وحقارته عنده، وأنه لا ينتفع به، ثم بالمنثور منه، لأنك تراه منتظما مع الضوء، فإذا حركته الريح رأيته قد تناثر وذهب كل مذهب. ونحوه قوله (كعصف مأكول) لم يكف أن شبههم بالعصف حتى جعله مؤوفا بالأكال [٤] ولا أن شبه عملهم بالهباء حتى جعله متناثرا. أو مفعول ثالث لجعلناه أي فجعلناه جامعا لحقارة الهباء والتناثر، كقوله (كونوا قردة خاسئين) أي جامعين للمسخ والخسء. ولام الهباء واو، بدليل الهبوة.

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)

---

(١) الحيدة: الصدود، وذعره ذعرا: فزعه. والذعر ـ بالضم ـ: اسم مصدر، وكذلك العوذ بمعنى التعوذ والالتجاء، وكذلك الحجر بمعنى الامتناع والتحصن، والمبتدأ محذوف، أي: قالت أمري تعوذ منكم وتحصن بربي، والحال أنها صادة فزعة، وهذا يقال على لسانهم عند لقاء المكروه.

(٢) قوله «الموتور» في الصحاح: الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه. (ع)

(٣) قوله «لم يترك لها أثرا ولا عثيرا» في الصحاح «العثير» بتسكين الثاء: الغبار. (ع)

(٤) قوله «بالأكال» هو بالضم: الحكة. (ع)

المستقرّ : المكان الذى يكونون فيه فى أكثر أوقاتهم مستقرّين يتجالسون ويتحادثون . والمقيل : المكان الذى يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهنّ وملامستهنّ ، كما أنّ المترفين فى الدنيا يعيشون على ذلك الترتيب . وروى أنه يفرغ من الحساب فى نصف ذلك اليوم ، فيقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار . وفى معناه قوله تعالى (إنّ أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) قيل فى تفسير الشغل : افتضاض الأبكار ، ولا نوم فى الجنة . وإنما سمى مكان دعتهم واسترواحهم إلى الحور مقيلا على طريق التشبيه . وفى لفظ الأحسن : رمز إلى ما يتزين به مقيلهم . من حسن الوجوه وملاحة الصور ، إلى غير ذلك من التحاسين والزين .

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾

وقرئ ﴿تشقق﴾ والأصل : تتشقق ، فحذف بعضهم التاء ، وغيره أدغمها . ولما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها ، جعل الغمام كأنه الذى تشقق به السماء ، كما تقول : شق السنام بالشفرة وانشق بها . ونظيره قوله تعالى (السماء منفطر به) . فإن قلت : أى فرق بين قولك : انشقت الأرض بالنبات ، وانشقت عن النبات ؟ قلت : معنى انشقت به : أنّ الله شقها بطلوعه فانشقت به . ومعنى انشقت عنه : أنّ التربة ارتفعت عنه عند طلوعه . والمعنى : أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها ، وفى الغمام الملائكة ينزلون وفى أيديهم صحائف أعمال العباد . وروى تنشق سماء سماء ، وتنزل الملائكة إلى الأرض . وقيل : هو غمام أبيض رقيق ، مثل الضبابة ، ولم يكن إلا لبنى إسرائيل فى تيههم . وفى معناه قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) . وقرئ : ونُنزل الملائكة ، وتَنزل الملائكة ، ونَزل الملائكة ، ونزلت الملائكة ، وأُنزل الملائكة ، ونُزل الملائكة ، ونزّل الملائكة : على حذف النون الذى هو فاء الفعل من ننزل : قراءة أهل مكة .

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾

الحق : الثابت : لأنّ كل ملك يزول يومئذ ويبطل ، ولا يبقى إلا ملكه .

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

عض اليدين والأنامل ، والسقوط فى اليد ، وأكل البنان ، وحرق الأسنان والأرم [1] ، وقرعها : كنايات عن الغيظ والحسرة ؛ لأنها من روادفها ، فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف ، فيرتفع الكلام به فى طبقة الفصاحة ، ويجد السامع عنده فى نفسه من الروعة والاستحسان مالا يجده عند لفظ المكنى عنه . وقيل : نزلت فى عقبة بن أبى معيط بن أمية بن عبد شمس ، وكان يكثر مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل وكان أبى بن خلف صديقه فعاتبه وقال : صبأت ياعقبة ؟ قال : لا ، ولكن آلى أن لا يأكل من طعامى وهو فى بيتى . فاستحييت منه فشهدت له والشهادة ليست فى نفسى ، فقال : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ قفاه وتبزق فى وجهه وتلطم عينه ، فوجده ساجداً فى دار الندوة ففعل ذلك . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فقتل يوم بدر : أمر عليا رضى الله عنه بقتله . وقيل : قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الأنصارى وقال : يا محمد ، إلى من السبية [2] قال : إلى النار . وطعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيا بأحد ، فرجع إلى مكة فمات [3] . واللام فى ﴿الظالم﴾ يجوز أن تكون للعهد ، يراد به عقبة خاصة . ويجوز أن تكون للجنس فيتناول عقبة وغيره . تمنى أن لو صحب الرسول وسلك معه طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم يتشعب به طرق الضلالة والهوى . أو أراد أنى كنت ضالا لم يكن لى سبيل قط ، فليتنى حصلت بنفسى فى صحبة الرسول سبيلا . وقرئ : ياويلتى بالياء ؛ وهو الأصل ؛ لأن الرجل ينادى ويلته وهى هلكته ، يقول لها : تعالى فهذا أوانك . وإنما قلبت الياء ألفاً كما فى : صحارى ، ومدارى . فلان : كناية عن الأعلام ، كما أن الهن كناية عن الأجناس فإن أريد بالظالم عقبة ، فالمعنى : ليتنى لم أتخذ أبيا خليلا ، فكنى عن اسمه . وإن أريد به الجنس ،

---

(١) قوله «وحرق الأسنان والأرم» فى الصحاح : حرقت الشيء حرقا : بردته وحككت بعضه ببعض . ومنه قولهم : حرقت نابه ، أى سحقه حتى سمع له صريف . وفلان يحرق عليك الأرم غيظا . وفيه أيضا : أرم على الشيء أى : عض عليه وأرمه أيضا ، أى : أكله ، والأرم : الأضراس ، كأنه جمع آرم . يقال : فلان يحرق عليك الأرم ، إذا تغيظ فحك أضراسه بعضها ببعض . (ع)

(٢) قوله «وقال يامحمد إلى من السبية» فى الصحاح «السبية» : المرأة تسبى . (ع)

(٣) أخرجه أبو نعيم فى الدلائل من طريق محمد بن مروان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فذكره مطولا لكن إلى قوله «فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبرا . ولم يقتل من الأسارى يوم بدر غيره . قتله ثابت بن أبى الأفلح» وروى الطبرى من طريق مجاهد فى قوله تعالى . (ويوم يعض الظالم على يديه) قال «دعا عقبة بن أبى معيط النبى صلى الله عليه وسلم إلى طعام صنعه إلى قوله فشهدت له ، والشهادة ليست فى نفسى» ومن طريق مقسم نحوه ، مختصرا قال فقتل عقبة يوم بدر صبرا» وأما أبى بن خلف فقتله النبى صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد فى القتال وهما اللذان أنزل الله تعالى فيهما (ويوم يعض الظالم على يديه) وذكره الثعلبي ثم الواحدى من غير سند .

فكل من اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم لا محالة ، فجعله كناية عنه ﴿عن الذكر﴾ عن ذكر الله ، أو القرآن ، أو موعظة الرسول . ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق ، وعزمه على الإسلام . والشيطان : إشارة إلى خليله ، سماه شيطاناً لأنه أضله كما يضل الشيطان ، ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة . أو أراد إبليس ، وأنه هو الذى حمله على مخالة المضل ومخالفة الرسول ، ثم خذله . أو أراد الجنس ، وكل من تشيطن من الجنّ والإنس . ويحتمل أن يكون (وكان الشيطان) حكاية كلام الظالم ، وأن يكون كلام الله . اتخذت : يقرأ على الإدغام والإظهار ، والإدغام أكثر .

وَقَالَ الرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا (٣٠)

الرسول : محمد صلى الله عليه وسلم وقومه قريش ، حكى الله عنه شكواه قومه إليه . وفى هذه الحكاية تعظيم للشكاية وتخويف لقومه : لأن الأنبياء كانوا إذا التجئوا إليه وشكوا إليه قومهم : حلّ بهم العذاب ولم ينظروا .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)

ثم أقبل عليه مسلياً ومواسياً وواعداً النصرة عليهم ، فقال ﴿وكذلك﴾ كان كل نبيّ قبلك مبتلى بعداوة قومه ، وكفاك بى هادياً إلى طريق قهرهم والانتصار منهم ، وناصراً لك عليهم . مهجوراً : تركوه وصدّوا عنه وعن الإيمان به . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفاً لم يتعاهده ولم ينظر فيه ، جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول : يا رب العالمين ، عبدك هذا اتخذنى مهجوراً ، اقض بينى وبينه[1] . وقيل : هو من هجر ، إذا هذى ، أى : جعلوه مهجوراً فيه ، فحذف الجار وهو على وجهين . أحدهما : زعمهم أنه هذيان وباطل وأساطير الأوّلين . والثانى : أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه ، كقوله تعالى (لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) ويجوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر ، كالمجلود والمعقول . والمعنى : اتخذوه هجراً . والعدوّ : يجوز أن يكون واحداً وجمعاً . كقوله (فإنهم عدوّ لى) وقيل المعنى : وقال الرسول يوم القيامة .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ

(١) أخرجه الثعلبي من طريق أبي هدية عن أنس وأبو هدية كذاب .

فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)

﴿نزل﴾ ههنا بمعنى أنزل لا غير، كخبر بمعنى أخبر، وإلا كان متدافعاً. وهذا أيضاً من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجافيهم عن اتباعه. قالوا: هلا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة، وماله أنزل على التفاريق. والقائلون: قريش. وقيل: اليهود. وهذا فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته؛ لأنّ أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرّقاً. وقوله ﴿كذلك﴾ جواب لهم، أى: كذلك أنزل مفرّقا. والحكمة فيه: أن نقوى بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه؛ لأنّ المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء، وجزأ عقيب جزء. ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا [1] بحفظه، والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام، حيث كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ، فأنزل عليه منجما في عشرين سنة. وقيل: في ثلاث وعشرين. وأيضاً: فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين، ولأنّ بعضه منسوخ وبعضه ناسخ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرّقا. فإن قلت: ذلك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدّمه، والذى تقدّم هو إنزاله جملة واحدة، فكيف فسرته بكذلك أنزلناه مفرّقا؟ قلت: لأنّ قولهم: لولا أنزل عليه جملة: معناه: لم أنزل مفرّقا؟ والدليل على فساد هذا الاعتراض: أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه، وتحدّوا بسورة واحدة من أصغر السور، فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا إلى المحاربة، ثم قالوا: هلا نزل جملة واحدة، كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته ﴿ورتلناه﴾ معطوف على الفعل الذى تعلق به كذلك، كأنه قال: كذلك فرقناه ورتلناه. ومعنى ترتيله: أن قدره آية بعد آية، ووقفة عقيب وقفة. ويجوز أن يكون المعنى: وأمرنا بترتيل قراءته، وذلك قوله (ورتل القرآن ترتيلا) أى اقرأه بترسل وتثبت. ومنه حديث عائشة رضى الله عنها فى صفة قراءته صلى الله عليه وسلم «لا كسردكم هذا، لو أراد السامع أن يعدّ حروفه يعدّها» [2] وأصله: الترتيل فى الأسنان:

(١) قوله «لبعل به وتعيا بحفظه» فى الصحاح: بعل الرجل - بالكسر - : أى دهش. وفيه أيضاً: عييت بأمرى، إذا لم تهتد لوجهه. وأعيا عليه الأمر وتعيا وتعايا، بمعنى اه فتدبر. (ع)

(٢) أخرجه البخارى. من رواية عروة. قال «جلس أبو هريرة رضى الله عنه إلى حجرة عائشة رضى الله =

وهو تفليجها. يقال: ثغر رتل ومرتل، ويشبه بنور الأقحوان في تفليجه. وقيل: هو أن نزله مع كونه متفرقا على تمكث وتمهل في مدة متباعدة وهي عشرون سنة، ولم يفرقه في مدة متقاربة ﴿ولا يأتونك﴾ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة ـ كأنه مثل في البطلان ـ إلا أتيناك نحن بالجواب الحق الذي لا محيد عنه وبما هو أحسن معنى. ومؤدّى من سؤالهم. ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام، وضع موضع معناه فقالوا: تفسير هذا الكلام كيت وكيت، كما قيل: معناه كذا وكذا. أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون: هلا كانت هذه صفتك وحالك، نحو: أن يقرن بك ملك ينذر معك، أو يلقى إليك كنز، أو تكون لك جنة، أو ينزل عليك القرآن جملة، إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه. وما هو أحسن تكشيفاً لما بعثت عليه ودلالة على صحته، يعني: أن تنزيله مفرقا وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها: أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة ويقال لهم جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بعد ما بين طرفيه. كأنه قيل لهم: إن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضللون سبيله وتحتقرون مكانه ومنزلته. ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم. لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه وسبيلكم أضل من سبيله. وفي طريقته قوله (هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه ... الآية) ويجوز أن يراد بالمكان: الشرف والمنزلة. وأن يراد الدار والمسكن، كقوله (أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا) ووصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي وعن النبي صلى الله عليه وسلم: يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث: ثلث على الدواب وثلث على وجوههم. وثلث على أقدامهم ينسلون نسلا.[1]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَآ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

ـــ عنها فقال إن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان يحدث الحديث لو عده العاد لأحصاه، ولمسلم «لم يكن يسرد الحديث كسردكم» وزاد الترمذي والنسائي ولكن كان يتكلم بكلام فصل يحفظه من جلس اليه، وسيأتي في المزمل.

(١) أخرجه البيهقي من طريق مسدد عن بشر بن المفضل عن علي بن زيد عن أوس بن أبي أوس، عن أبي هريرة مرفوعا بهذا. وأصله في الترمذي والبزار وأحمد وإسحق وابن أبي شيبة من هذا الوجه لكن قال عن أوس ابن خالد وعند الحاكم من رواية أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد عن أبي ذر حدثني الصادق المصدوق «أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج. فوجا طاعمين لابسين راكبين. وفوجا يمشون ويسعون. وفوجا تسحبهم الملائكة على وجوههم إلى النار» وفي الترمذي والنسائي من رواية معاوية بن جبلة حدثنا بهز بن حكيم رفعه «إنكم محشورون إلى الله ركبانا ورجالا وتمرون على وجوهكم».

الوزارة : لا تنافى النبوة ، فقد كان يبعث فى الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضاً . والمعنى : فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم ، كقوله (اضرب بعصاك البحر فانفلق) أى فضرب فانفلق . أراد اختصار القصة فذكر حاشيتيها أوّلها وآخرها ، لأنهما المقصود من القصة بطولها أعنى : إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم . وعن علىّ رضى الله عنه فدمّرتهم . وعنه : فدمّراهم . وقرئ فدمّرانهم ، على التأكيد بالنون الثقيلة .

وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧)

كأنهم كذبوا نوحا ومن قبله من الرسل صريحا . أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيب للجميع أو لم يروا بعثة الرسل أصلا كالبراهمة ﴿وجعلناهم﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿للظالمين﴾ إمّا أن يعنى بهم قوم نوح ، وأصله : وأعتدنا لهم ، إلا أنه قصد تظليمهم فأظهر . وإمّا أن يتناولهم بعمومه .

وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَٰبَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)

عطف عاداً على (هم) فى جعلناهم أو على الظالمين ، لأنّ المعنى : ووعدنا الظالمين . وقرئ : وثمود ، على تأويله القبلة . وأما المنصرف فعلى تأويل الحىّ أو لأنه اسم الأب الأكبر . قيل فى أصحاب الرس : كانوا قوما من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش . فبعث الله إليهم شعيباً فدعاهم إلى الإسلام . فتمادوا فى طغيانهم وفى إيذائه . فبيناهم حول الرس وهو البئر غير المطوية . عن أبى عبيدة : انهارت بهم فخسف بهم وبديارهم . وقيل : الرس قرية بفلج اليمامة . قتلوا نبيهم فهلكوا ، وهم بقية ثمود قوم صالح . وقيل : هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان ، كانوا مبتلين بالعنقاء ، وهى أعظم ما يكون من الطير ، سميت لطول عنقها . وكانت تسكن جبلهم الذى يقال له فتخ ، وهى تنقض على صبيانهم فتخطفهم ، إن أعوزها الصيد . فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ، ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا . وقيل : هم أصحاب الأخدود . والرسّ : هو الأخدود . وقيل الرس بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار . وقيل : كذبوا نبيهم ورسوه فى بئر ، أى : دسوه فيها ﴿بين ذلك﴾ أى بين ذلك المذكور . وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك ، ويحسب الحاسب أعداداً متكاثرة ثم يقول : فذلك كيت وكيت على معنى : فذلك المحسوب أو المعدود ﴿ضربنا له الأمثال﴾ بينا له القصص العجيبة من قصص الأوّلين ، ووصفنا لهم ما أجروا

إليه من تكذيب الأنبياء وجرى عليهم من عذاب الله وتدميره. والتتبير: التفتيت والتكسير. ومنه: التبر، وهو كسار الذهب والفضة والزجاج. و(كلا) الأول منصوب بما دل عليه (ضربنا له الأمثال) وهو: أنذرنا. أو: حذرنا. والثاني بتبرنا، لأنه فارغ له.

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)

أراد بالقرية «سدوم» من قرى قوم لوط، وكانت خمساً: أهلك الله تعالى أربعا بأهلها وبقيت واحدة. ومطر السوء: الحجارة، يعنى أن قريشا مرّوا مراراً كثيرة فى متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التى أهلكت بالحجارة من السماء ﴿أفلم يكونوا﴾ فى مرار مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاله ويذكرون ﴿بل كانوا﴾ قوما كفرة بالبعث لا يتوقعون ﴿نشورا﴾ وعاقبة، فوضع الرجاء موضع التوقع، لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن فمن ثم لم ينظروا ولم يذكروا، ومرّوا بها كما مرّت ركابهم. أولا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون لطمعهم فى الوصول إلى ثواب أعمالهم. أولا يخافون. على اللغة التهامية.

وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢)

﴿إن﴾ الأولى نافية. والثانية مخففة من الثقيلة. واللام هى الفارقة بينهما. واتخذه هزواً: فى معنى استهزأ به، والأصل: اتخذه موضع هزؤ، أو مهزوءا به ﴿أهذا﴾ محكى بعد القول المضمر. وهذا استصغار، و﴿بعث الله رسولا﴾ وإخراجه فى معرض التسليم والإقرار، وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء. ولو لم يستهزؤا لقالوا: أهذا الذى زعم أو ادّعى أنه مبعوث من عند الله رسولا. وقولهم ﴿إن كاد ليضلنا﴾ دليل على فرط مجاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعوتهم، وبذله قصارى الوسع والطاقة فى استعطافهم، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم. و﴿لولا﴾ فى مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى - لا من حيث الصنعة - مجرى التقييد للحكم المطلق ﴿وسوف يعلمون﴾ وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدّة الامهال، ولا بدّ للوعيد أن يلحقهم فلا يغرّنهم التأخير. وقوله ﴿من أضلّ سبيلا﴾ كالجواب

عن قولهم ﴿إن كاد ليضلنا﴾ لأنه نسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الضلال من حيث لايضلّ غيره إلا من هو ضال فى نفسه . ويروى أنه من قول أبى جهل لعنه الله .

أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

من كان فى طاعة الهوى فى دينه يتبعه فى كل مايأتى ويذر لا يتبصر دليلا ولا يصغى إلى برهان . فهو عابدهواه وجاعله إلهه ، فيقول لرسوله هذا الذى لا يرى معبوداً إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفتتوكل عليه وتجبره على الاسلام وتقول لا بد أن تسلم شئت أو أبيت ـ ولا إكراه فى الدين ؟ وهذا كقوله (وما أنت عليهم بجبار) ، (لست عليهم بمصيطر) ويروى أنّ الرجل منهم كان يعبد الحجر ، فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر . ومنهم الحرث بن قيس السهمى .

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

أم هذه منقطعة ، معناه : بل أتحسب كأن هذه المذمة أشدّ من التى تقدّمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهى كونهم مسلوبى الأسماع والعقول ، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنا ولا إلى تدبره عقلا ، ومشبهين بالأنعام التى هى مثل فى الغفلة والضلال ، ثم أرجح ضلالة منها . فإن قلت لم أخر هواه والأصل قولك : اتخذ الهوى إلهـا ؟ قلت : ما هو إلا تقديم المفعول الثانى على الأول للعناية ، كما تقول : علمت منطلقا زيدا : لفضل عنايتك بالمنطلق [(١)] . فإن قلت : ما معنى ذكر الأكثر ؟ قلت : كان فيهم من لم يصدّه عن الإسلام إلاداء واحد : وهو حب الرياسة ، وكفى به داء عضالا . فإن قلت : كيف جُعلوا أضل من الإنعام ؟ قلت : لأن الأنعام تنقاد لأربابها التى تعلفها وتتعهدها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يسىء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتجتنب مايضرها ، وتهتدى لمراعيها ومشاربها . وهؤلاء لاينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو عدوّهم ، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذى هو أشدّ المضارّ والمهالك ، ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنىّ والعذب الروى .

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

(١) قال محمود : «إن قلت لم قدم إلهه وهو المفعول الثانى ، وأجاب بأنه قدم عناية به كقولك ظننت منطلقا زيدا إذا كانت عنايتك بالمنطلق» قال أحمد : وفيه نكتة حسنة وهي إفادة الحصر ، فان الكلام قبل دخول أرأيت مبتدأ وخبر : المبتدأ هواه ، والخبر إلهه . وتقديم الخبر كما علمت يفيد الحصر ، فكأنه قال : أرأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه ، فهو أبلغ فى ذمه وتوبيخه ، والله أعلم .

﴿ألم تر إلى ربك﴾ ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ، ومعنى مدّ الظل : أن جعله يمتدّ وينبسط فينتفع به الناس ﴿ولو شاء لجعله ساكنا﴾ أى لاصقا بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة ، غير منبسط فلم ينتفع به أحد : سمى انبساط الظل وامتداده تحركا منه وعدم ذلك سكونا . ومعنى كون الشمس دليلا : أنّ الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها فى مسيرها على أحوال الظل ، من كونه ثابتا فى مكان زائلا [١] ومتسعا ومتقلصا ، فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك . وقبضه إليه : أنه ينسخه بضح الشمس [٢] ﴿يسيرا﴾ أى على مهل . وفى هذا القبض اليسير شيئا بعد شىء من المنافع ما لا يعدّ ولا يحصر ، ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا . فإن قلت : ثم فى هذين الموضعين كيف موقعها ؟ قلت : موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة : كان الثانى أعظم من الأول ، والثالث أعظم منهما ، تشبيها لتباعد ما بينهما فى الفضل بتباعد ما بين الحوادث فى الوقت . ووجه آخر : وهو أنه مدّ الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ، ودحا الأرض تحتها فألقت القبة ظلها على الأرض فينانا ما فى أديمه جوب [٣] لعدم النير ، ولو شاء لجعله ساكنا مستقرا على تلك الحالة ، ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل ، أى : سلطها عليه ونصبها دليلا متبوعا له كما يتبع الدليل فى الطريق ، فهو يزيد بها وينقص ، ويمتدّ ويتقلص ، ثم نسخه بها فقبضه قبضا سهلا يسيراً غير عسير . ويحتمل أن يريد : قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهى الأجرام التى تبقى الظل فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه ، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه ، وقوله : قبضناه إلينا : يدل عليه ، وكذلك قوله يسيراً ، كما قال (ذلك حشر علينا يسير)

وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر . والسبات : الموت . والمسبوت : الميت ؛ لأنه مقطوع الحياة ، وهذا كقوله (وهو الذى يتوفاكم بالليل) . فإن قلت : هلا فسرته بالراحة ؟ قلت : النشور فى مقابلته يأباه إباء العيوف الورد وهو مرنق [٤] . وهذه الآية مع دلالتها على

(١) قوله «زائلا» لعله : زائلا عن آخر . (ع)

(٢) قوله «وأنه ينسخه بضح الشمس» فى الصحاح : ضحضح السراب وتضحضح ، إذا ترقرق . والضح : الشمس . وفى الحديث «لا يقعدن أحدكم بين الضح والظل» فانه مقعد الشيطان . (ع)

(٣) قوله «ظلها على الأرض فينانا ما فى أديمه جوب» فى الصحاح «الفينان» الطويل . وفيه «الأدم» جمع الأديم ، مثل : أفيق وأفق ، وربما سمى وجه الأرض أديما . وفيه : جاب يجوب جوبا ، إذا خرق وقطع ، فتدبر . (ع)

(٤) قوله «يأباه إباء العيوف الورد وهو مرنق» فى الصحاح «العيوف» من الابل : الذى يشم الماء فيدعه وهو عطشان . وفيه : رنقته ترنيقا : كدرته . (ع)

قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه؛ لأنّ الاحتجاب بستر الليل، كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية. والنوم واليقظة وشبههما بالموت والحياة. أى عبرة فيها لمن اعتبر. وعن لقمان أنه قال لابنه: يابنى، كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشر.

وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾

قرئ: الريح. والرياح نشرا: إحياء. ونشرا: جمع نشور، وهى المحيية. ونشرا: تخفيف نشر، وبشرا تخفيف بشر: جمع بشور وبشرى. و﴿بين يدى رحمته﴾ استعارة مليحة، أى: قدام المطر ﴿طهورا﴾ بليغا فى طهارته. وعن أحمد بن يحيى: هو ما كان طاهرا فى نفسه مطهرا لغيره. فإن كان ما قاله شرحا لبلاغته فى الطهارة كان سديداً. ويعضده قوله تعالى (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) وإلا فليس «فعول» من التفعيل فى شيء. والطهور على وجهين فى العربية: صفة، واسم غير صفة؛ فالصفة قولك: ماء طهور، كقولك: طاهر؛ والاسم قولك لما يتطهر به: طهور، كالوضوء والوقود، لما يتوضأ به وتوقد به النار. وقولهم: تطهرت طهوراً حسنا، كقولك: وضوأ حسنا، ذكره سيبويه. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «لاصلاة إلا بطهور [1]» أى طهارة. فإن قلت: ما الذى يزيل عن الماء اسم الطهور؟ قلت: تيقن مخالطة النجاسة أو غلبتها على الظنّ، تغير أحد أوصافه الثلاثة أو لم يتغير. أو استعماله فى البدن لأداء عبادة عند أبى حنيفة. وعند مالك بن أنس رضى الله عنهما: مالم يتغير أحد أوصافه فهو طهور. فإن قلت: فما تقول فى قوله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن بئر بضاعة فقال: «الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه [2]»؟ قلت: قال الواقدى: كان بئر بضاعة طريقا للماء إلى البساتين.

لِنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾

وإنما قال ﴿ميتا﴾ لأنّ البلدة فى معنى البلد فى قوله: (فسقناه إلى بلد ميت)، وأنه غير جار

(١) أخرجه الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما «لاتقبل صلاة إلا بطهور» وأصله فى مسلم والطبرانى من طريق عيسى بن صبرة عن أبيه عن جده «لاصلاة إلا بوضوء» وفى الباب عن جماعة من الصحابة. قلت: استوفيت طرقه فى أول شرحى على الترمذى ولم يذكر المخرج منها إلا شيئا يسيرا

(٢) لم أجده هكذا. بل هو ملفق من حديثين فالأول أخرجه أصحاب السنن من حديث رافع بن خديج. قال يارسول الله. أنتوضأ من بضاعة وهى بئر يلقى فيها الجيف ولحوم الكلاب والنتن فقال: الماء طهور لا ينجسه شيء. إلا ماغلب على لونه أوطعمه أوريحه. وقد استوفيت طرقها فى تخريج أحاديث الرافعى.

على الفعل كفعول ومفعال ومفعيل . وقرئ : نسقيه بالفتح . وسقى ، وأسقى : لغتان . وقيل : أسقاه : جعل له سقيا . الأناسى : جمع إنسى أو إنسان . ونحوه ظرابى فى ظربان ، على قلب النون ياء . والأصل : أناسين وظرابين . وقرئ بالتخفيف بحذف ياء أفاعيل ، كقولك : أناعم ، فى : أناعيم . فإن قلت : إنزال الماء موصوفا بالطهارة وتعليله بالإحياء والسقى يؤذن بأن الطهارة شرط فى صحة ذلك ، كما تقول : حملنى الأمير على فرس جواد لأصيد عليه الوحش . قلت : لما كان سقى الأناسى من جملة ماأنزل له الماء ، وصفه بالطهور إكراما لهم ، وتتميما المنة عليهم ، وبيانا أن من حقهم حين أراد الله لهم الطهارة وأرادهم عليها أن يؤثروها فى بواطنهم ثم فى ظواهرهم ، وأن يربئوا بأنفسهم عن مخالطة القاذورات كلها كما ربأ بهم ربهم . فإن قلت : لم خص الأنعام من بين ماخلق من الحيوان الشارب ؟ قلت : لأن الطير والوحش تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب ، بخلاف الأنعام ؛ ولأنها قنية الأناسى ، وعامة منافعهم متعلقة بها ، فكان الإنعام عليهم بسقى أنعامهم كالإنعام بسقيهم . فإن قلت : فما معنى تنكير الأنعام والأناسى ووصفها بالكثرة ؟ قلت : معنى ذلك أن علية الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء ، فبهم غنية عن سقى السماء ، وأعقابهم ـ وهم كثير منهم ـ لايعيشهم إلا ماينزل الله من رحمته وسقيا سمائه . وكذلك قوله (لنحيي به بلدة ميتا) يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين من مظان الماء . فإن قلت : لم قدم إحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى الأناسى ؟ قلت : لأن حياة الأناسى بحياة أرضهم وحياة أنعامهم . فقدم ماهو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم ، ولأنهم إذا ظفروا بمايكون سقيا أرضهم ومواشيهم ، لم يعدموا سقياهم .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠)

يريد : ولقد صرفنا هذا القول بين الناس فى القرآن وفى سائر الكتب والصحف التى أنزلت على الرسل عليهم السلام ـ وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ـ ليفكروا ويعتبروا ، ويعرفوا حق النعمة فيه ويشكروا ﴿ فأبى ﴾ أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها . وقيل : صرفنا المطر بينهم فى البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة ، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل ، وجود ورذاذ ، وديمة ورهام [١] : فأبوا إلا الكفور وأن يقولوا : مطرنا بنوء كذا ، ولا يذكروا صنع الله ورحمته . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : مامن عام أقل مطراً من عام ، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ماشاء ، وتلا هذه الآية [٢] . وروى

(١) قوله «ورذاذ وديمة ورهام» الرذاذ : مطر ضعيف . والرهام . جمع رهمة وهى المطرة الضعيفة الدائمة ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه الحاكم والطبرى من رواية الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال : «مامن عام

أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره فى كل عام ، لأنه لايختلف ولكن تختلف فيه البلاد . وينتزع من هنا جواب فى تنكير البلدة والأنعام والأناسى ، كأنه قال : لنحيي به بعض البلاد الميتة ، ونسقيه بعض الأنعام والأناسى ، وذلك البعض كثير . فإن قلت : هل يكفر من ينسب الأمطار إلى الأنواء؟ قلت : إن كان لايراها إلا من الأنواء ويجحد أن تكون هى والأنواء من خلق الله : فهو كافر . وإن كان يرى أن الله خالقها وقد نصب الأنواء دلائل وأمارات عليها : لم يكفر .

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ولو شئنا﴾ لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى . و ﴿لبعثنا فى كل قرية﴾ نبياً ينذرها . وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمناك به ، وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل ، فقابل ذلك بالتشدد والتصبر ﴿فلا تطع الكافرين﴾ فيما يريدونك عليه ، وإنما أراد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم . والضمير للقرآن أو لترك الطاعة الذى يدل عليه : (فلا تطع) والمراد : أن الكفار يجدون ويجتهدون فى توهين أمرك ، فقابلهم من جدك واجتهادك وعضك على نواجذك بما تغلبهم به وتعلوهم ، وجعله جهاداً كبيراً لما يحتمل فيه من المشاق العظام . ويجوز أن يرجع الضمير فى (به) إلى ما دل عليه : (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً) من كونه نذير كافة القرى ، لأنه لو بعث فى كل قرية نذيراً لوجبت على كل نذير مجاهدة قريته ، فاجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المجاهدات كلها ، فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم ، فقال له ﴿وجاهدهم﴾ بسبب كونك نذير كافة القرى ﴿جهاداً كبيرا﴾ جامعاً لكل مجاهدة .

وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾

سمى الماءين الكثيرين الواسعين : بحرين ، والفرات : البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة .

= أمطر من عام . ولكن الله يصرفه ... الخ » وفى الباب عن ابن مسعود أخرجه العقيلى من رواية على بن حميد عن شعبة ، أخرجه العقيلى من رواية على بن حميد عن شعبة عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عنه وقال : لايتابع على رفعه . ثم أخرجه موقوفا من رواية عمر بن مرزوق عن شعبة وقال : هذا أولى ، وأورده ابن مردويه من وجه آخر عن ابن مسعود مرفوعا .

والأجاج : نقيضه . ومرجهما : خلاهما متجاورين متلاصقين ، وهو بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج . وهذا من عظيم اقتداره . وفى كلام بعضهم : وبحران : أحدهما مع الآخر ممروج ، وماء العذب منهما بالأجاج ممزوج [1] ﴿ برزخا ﴾ حائلا من قدرته ، كقوله تعالى (بغير عمد ترونها) يريد بغير عمد مرئية ، وهو قدرته . وقرئ : ملح ، على فعل . وقيل : كأنه حذف من مالح تخفيفا ، كما قال : وصليانا بردا ، يريد : بارداً : فإن قلت : ﴿ وحجرا محجورا ﴾ ما معناه؟ قلت : هى الكلمة التى يقولها المتعوذ ؛ وقد فسرناها ، وهى ههنا واقعة على سبيل المجاز ، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له : حجراً محجوراً ، كما قال (لا يبغيان) أى لا يبغى أحدهما على صاحبه بالممازجة ، فانتفاء البغى ثمة كالتعوذ ههنا : جعل كل واحد منهما فى صورة الباغى على صاحبه ، فهو يتعوذ منه . وهى من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة .

وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)

أراد : فقسم البشر قسمين ذوى نسب ، أى : ذكوراً ينسب إليهم ، فيقال : فلان بن فلان وفلانة بنت فلان ، وذوات صهر : أى إناثا يصاهر بهن ، ونحوه قوله تعالى (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) . ﴿ وكان ربك قديرا ﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً نوعين : ذكرا وأنثى .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥)

الظهير والمظاهر ، كالعوين والمعاون . وفعيل ، بمعنى مفاعل غير عزيز . والمعنى : أنّ الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة والشرك . روى أنها نزلت فى أبى جهل ، ويجوز أن يريد بالظهير : الجماعة ، كقوله (والملائكة بعد ذلك ظهير) كما جاء : الصديق والخليط ، يريد بالكافر : الجنس ، وأنّ بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور دين الله . وقيل : معناه : وكان الذى يفعل هذا الفعل ـ وهو عبادة ما لا ينفع ولا يضر ـ على ربه هينا مهينا ، من قولهم : ظهرت به ، إذا خلفته خلف ظهرك لا تلتفت إليه ، وهذا نحو قوله (أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم) .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧)

(١) قوله «ممزوج» لعله : غير ممزوج ، فليحرر . (ع)

مثال ﴿إلا من شاء﴾ والمراد : إلا فعل من شاء واستثنائه عن الأجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك فى تحصيل مال : ما أطلب منك ثوابا على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه. فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ، ولكن صوره هو بصورة الثواب وسماه باسمه، فأفاد فائدتين ، إحداهما : قلع شبهة الطمع فى الثواب من أصله ، كأنه يقول لك : إن كان حفظك لمالك ثوابا فإنى أطلب الثواب ، والثانية : إظهار الشفقة البالغة وأنك إن حفظت مالك : اعتد بحفظك ثوابا ورضى به كما يرضى المثاب بالثواب . ولعمرى إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه . ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلا : تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة . وقيل : المراد التقرب بالصدقة والنفقة فى سبيل الله .

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَىِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾

أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه فى استكفاء شرورهم، مع التمسك بقاعدة التوكل وأساس الالتجاء وهو طاعته وعبادته وتنزيهه وتحميده . وعرّفه أن الحى الذى لا يموت ، حقيق بأن يتوكل عليه وحده ولا يتكل على غيره من الأحياء الذين يموتون . وعن بعض السلف أنه قرأها فقال : لا يصح لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق . ثم أراه أن ليس إليه من أمر عباده شىء ، آمنوا أم كفروا ، وأنه خبير بأعمالهم كاف فى جزاء أعمالهم .

الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾

﴿فى ستة أيام﴾ يعنى فى مدة : مقدارها هذه المدة ، لأنه لم يكن حينئذ نهار ولا ليل . وقيل: ستة أيام من أيام الآخرة ، وكل يوم ألف سنة . والظاهر أنها من أيام الدنيا . وعن مجاهد : أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة . ووجهه أن يسمى الله لملائكته تلك الأيام المقدرة بهذه الأسماء فلما خلق الشمس وأدارها وترتب أمر العالم على ما هو عليه ، جرت التسمية على هذه الأيام . وأما الداعى إلى هذا العدد ـ أعنى الستة دون سائر الأعداد ـ فلا نشك أنه داعى حكمة ، لعلمنا أنه لا يقدّر تقديراً إلا بداعى حكمة ، وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدى إلى معرفته. ومن ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار تسعة عشر ، وحملة العرش ثمانية ، والشهور اثنى عشر ، والسموات سبعا والأرض كذلك ، والصلوات خمسا ، وأعداد النصب والحدود والكفارات وغير ذلك . والإقرار بدواعى الحكمة فى جميع أفعاله ، وبأن ما قدّره حق وصواب هو الإيمان. وقد نص عليه فى قوله ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين

كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ؛ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) ثم قال (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وهو الجواب أيضا فى أن لم يخلقها فى لحظة ، وهو قادر على ذلك . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنهما . إنما خلقها فى ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها فى لحظة ، تعليما لخلقه الرفق والتثبت . وقيل : اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيدا للمسلمين . الذى خلق مبتدأ . و ﴿الرحمن﴾ خبره . أوصفة للحىّ ، والرحمن : خبر مبتدإ محذوف . أو بدل عن المستتر فى استوى . وقرئ : الرحمن ، بالجر صفة للحىّ . وقرئ فسل ؛ والباء فى به صلة سل ، كقوله تعالى (سأل سائل بعذاب واقع) كما تكون عن صلته فى نحو قوله (ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم) فسأل به ؛ كقوله : اهتمّ به ، واعتنى به ؛ واشتغل به . وسأل عنه كقولك : بحث عنه ؛ وفتش عنه ، ونقر عنه . أو صلة خبيرا : وتجعل خبيرا مفعول سل ، يريد : فسل عنه رجلا عارفا يخبرك برحمته . أو فسل رجلا خبيرا به وبرحمته . أو : فسل بسؤاله خبيرا ؛ كقولك : رأيت به أسدا ، أى برؤيته . والمعنى : إن سألته وجدته خبيرا . أو تجعله حالا عن الهاء ، تريد : فسل عنه عالما بكل شىء . وقيل : الرحمن اسم من أسماء الله مذكور فى الكتب المتقدمة ، ولم يكونوا يعرفونه ؛ فقيل : فسل بهذا الاسم من يخبرك من أهل الكتاب ؛ حتى يعرف من ينكره . ومن ثمة كانوا يقولون : ما نعرف الرحمن إلا الذى باليمامة ، يعنون مسيلمة . وكان يقال له : رحمن اليمامة :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

﴿وما الرحمن﴾ يجوز أن يكون سؤالا عن المسمى به ؛ لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم ، والسؤال عن المجهول بـ « ما » . ويجوز أن يكون سؤالا عن معناه ، لأنه لم يكن مستعملا فى كلامهم كما استعمل الرحيم والرحوم والراحم . أو لأنهم أنكروا إطلاقه على الله تعالى ﴿لما تأمرنا﴾ أى للذى تأمرناه ؛ بمعنى تأمرنا سجوده : على قوله : أمرتك الخير . أو لأمرك لنا . وقرئ بالياء ، كأن بعضهم قال لبعض : أنسجد لما يأمرنا محمد صلى الله عليه وسلم . أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو . وفى ﴿زادهم﴾ ضمير ﴿اسجدوا للرحمن﴾ لأنه هو المقول .

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾

البروج : منازل الكواكب السبعة السيارة : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ،

والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت : سميت بالبروج التى هى القصور العالية ؛ لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها . واشتقاق البرج من التبرج ؛ لظهوره . والسراج : الشمس كقوله تعالى (وجعل الشمس سراجا) وقرئ . سرجا ، وهى الشمس والكواكب الكبار معها . وقرأ الحسن والأعمش : وقرا منيراً ، وهى جمع ليلة قمراء ، كأنه قال : وذا قمر منيراً ؛ لأنّ الليالى تكون قمراً بالقمر ، فأضافه إليها . ونظيره ـ فى بقاء حكم المضاف بعد سقوطه وقيام المضاف إليه مقامه ـ قول حسان :

* بَرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ * (١)

يريد : ماء بردى ، ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى القمر ، كالرشد والرشد ، والعرب والعرب .

وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)

الخلفة من خلف ، كالركبة من ركب : وهى الحالة التى يخلف عليها الليل والنهار كلّ واحد منهما الآخر . والمعنى : جعلهما ذوى خلفة ، أى : ذوى عقبة ، أى : يعقب هذا ذاك وذاك هذا . ويقال : الليل والنهار يختلفان ، كما يقال : يعتقبان . ومنه قوله (واختلاف الليل والنهار) ويقال : بفلان (٢) خلفة واختلاف ، إذا اختلف كثيراً إلى متبرّزه . وقرئ : يذكر ويذكر . وعن أبىّ بن كعب رضى الله عنه : يتذكر . والمعنى لينظر فى اختلافهما الناظر ، فيعلم أن لابد لانتقالهما من حال إلى حال ، وتغيرهما من ناقل ومغير . ويستدل بذلك على عظم قدرته ، ويشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار ، كما قال عز وعلا : (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) . أوليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين ، من فاته فى أحدهما ورده من العبادة قام به فى الآخر . وعن الحسن رضى الله عنه : من فاته عمله من التذكر والشكر بالنهار كان له فى الليل مستعتب . ومن فاته بالليل : كان له فى النهار مستعتب .

وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣)

﴿وعباد الرحمن﴾ مبتدأ خبره فى آخر السورة . كأنه قيل : وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٨٤ فراجعه إن شئت اه مصححه

(٢) قوله «ويقال بفلان خلفة» لعله : لفلان . (ع)

أولئك يجزون الغرفة . ويجوز أن يكون خبره (الذين يمشون) وأضافهم إلى الرحمن تخصيصاً وتفضيلا . وقرئ : وعباد الرحمن . وقرئ : يمشون ﴿هوناً﴾ حال ، أو صفة للمشى ، بمعنى : هينين . أو : مشياً هيناً ؛ إلا أنّ فى وضع المصدر موضع الصفة مبالغة . والهون : الرفق واللين . ومنه الحديث «أحبب حبيبك هوناً [(١)] ما» وقوله «المؤمنون هينون لينون [(٢)]» والمثل : إذا عزّ أخوك فهن . ومعناه : إذا عاسر فياسر . والمعنى : أنهم يمشون بسكينة ووقار وتواضع ، لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا ، ولذلك كره بعض العلماء الركوب فى الأسواق ، ولقوله (ويمشون فى الأسواق) . ﴿سلاما﴾ تسلماً منكم لا نجاهلكم ، ومتاركة لا خير بيننا ولا شر ، أى : نتسلم منكم تسلماً ، فأقيم السلام مقام التسلم . وقيل : قالوا سدادا من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم . والمراد بالجهل : السفه وقلة الأدب وسوء الرعة ، [(٣)] من قوله :

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا [(٤)]

وعن أبى العالية : نسختها آية القتال ، ولا حاجة إلى ذلك : لأنّ الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن فى الأدب والمروءة والشريعة ، وأسلم للعرض والورع .

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾

---

(١) أخرجه الترمذى من رواية أيوب عن ابن سيرين عن أبى هريرة تفرد به سويد بن عمرو عن حماد بن سلمة عن أيوب قال الترمذى . غريب . وقال ابن حبان . فى الضعفاء : سويد بن عمرو يضع المتون الواهية على الأسانيد الصحيحة . وليس هذا من حديث أبى هريرة . وإنما هو من قول على رضى الله عنه . وقد رفعه الحسن بن أبى جعفر عن أيوب عن حميد بن عبدالرحمن عن على . وهو خطأ فاحش . ورواية الحسن بن أبى جعفر فى فوائد تمام وأخرجه ابن عدى من طريق الحسن بن دنيا ـ عن ابن سيرين عن أبى هريرة . قال : الحسن بن دنيا ـ أجمعوا على ضعفه ورواه الطبرانى فى الأوسط . من رواية أبى الزناد عن الأعرج . عن أبى هريرة لكن الراوى له عن أبى الزناد متروك . وهو عباد بن كثير . وفى الباب عن ابن عمر أخرجه الطبرانى وفيه أبو الصلت الهروى . وهو متروك وعن ابن عمرو بن العاص أخرجه أيضاً من طريق محمد بن كثير الضمرى . عن ابن لهيعة ، عن أبى نهشل عنه وهذا إسناد واه جداً . والموقوف عن على . أخرجه البيهقى فى الشعب فى الحادى والأربعين من رواية أبى إسحاق عن صبرة بن يزيد ثم عن على . وقال الدارقطنى . الصحيح على على موقوف

(٢) أخرجه ابن المبارك فى الزهد قال أخبرنا سعيد بن عبد العزيز عن مكحول بهذا مرسلا «وزاد كالجمل الأنف الذى إن قيد انقاد . وإن ينخ على صخرة أناخ » وأخرجه البيهقى فى الشعب فى السادس والخمسين من هذا الوجه قال هذا مرسل ثم أخرجه من طريق العقيلى فى منكرات عبدالله بن عبدالعزيز . وفى الباب عن ابن أنس مرفوعا ذكره ابن طاهر فى الكلام على أحاديث الشهاب . وفيه زكريا بن يحيى الوقاد وهو واهى الحديث .

(٣) قوله «وسوء الرعة» فى الصحاح : يقال : فلان سيء الرعة ، أى : قليل الورع . وفيه : قيل ذلك الورع ـ بكسر الراء ـ : الرجل التقى . وقد ورع يرع ـ بالكسر فيهما ـ ورعا ورعة . (ع)

(٤) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٣٩٠ فراجعه إن شئت اه مصححه .

البيتوتة : خلاف الظلول، وهو أن يدركك الليل، نمت أو لم تنم ، وقالوا : من قرأ شيئاً من القرآن فى صلاته وإن قلّ فقد بات ساجدا وقائماً . وقيل : هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء . والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل أو بأكثره . يقال : فلان يظل صائماً ويبيت قائماً .

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)

﴿غراما﴾ هلاكا وخسراناً ملحا لازماً قال :

وَيَوْمُ النِّسَارِ وَيَوْمُ الْجِفَا رِ كَانَا عَذَابًا وَكَانَا غَرَامَا (١)

وقال :

إِنْ يُعَاقِبْ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُعْـ ـطِ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي (٢)

ومنه : الغريم : لإلحاحه ولزامه . وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه ، إيذاناً بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله فى صرف العذاب عنهم ، كقوله تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) . ﴿ساءت﴾ فى حكم « بئست » ، وفيها ضمير مبهم يفسره : مستقرا . والمخصوص بالذم محذوف ، معناه : ساءت مستقرا ومقاما هى . وهذا الضمير هو الذى ربط الجملة باسم إنّ وجعلها خبرا لها . ويجوز أن يكون (ساءت) بمعنى : أحزنت . وفيها ضمير اسم إنّ . و (مستقرا) حال أو تمييز . والتعليلان يصح أن يكونا متداخلين ومترادفين ، وأن يكونا من كلام الله وحكاية لقولهم .

وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)

قرئ (يقتروا) بكسر التاء وضمها . ويقتروا ، بتخفيف التاء وتشديدها . والقتر والإقتار والتقتير : التضييق الذى هو نقيض الإسراف . والإسراف : مجاوزة الحدّ فى النفقة . ووصفهم بالقصد الذى هو بين الغلو والتقصير . وبمثله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا تجعل

(١) لبشر بن أبى خازم . والنسار : ماء لبنى عامر . والجفار : ماء لبنى تميم بنجد ، يقول : واقعة النسار وواقعة الجفار ، كانا عذابا على أهلهما ، وكانا غراما ، أى : هلاكا لازما لهم . وقيل : شراً دائما .

(٢) للأعشى ، يقول : إن يعاقب هذا الممدوح أعداءه يكن غراما أى هلاكا ملازما لهم . وإن يعط السائل عطاء جزيلا عظيما فانه لايبالى به ولا يكترث به ولا يستكثره ، فهو شجاع جواد .

يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) وقيل : الإسراف إنما هو الإنفاق فى المعاصى ، فأما فى القرب فلا إسراف . وسمع رجل رجلا يقول : لاخير فى الإسراف . فقال : لا إسراف فى الخير . وعن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه شكر عبد الملك بن مروان حين زوّجه ابنته وأحسن إليه ، فقال : وصلت الرحم وفعلت وصنعت ، وجاء بكلام حسن ، فقال ابن لعبد الملك : إنما هو كلام أعدّه لهذا المقام ، فلما كان بعد أيام دخل عليه والابن حاضر ، فسأله عن نفقته وأحواله فقال : الحسنة بين السيئتين ، فعرف عبد الملك أنه أراد ما فى هذه الآية فقال لابنه : يا بنىّ ، أهذا أيضاً مما أعدّه ؟ وقيل : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ، ولكن كانوا يأكلون مايسدّ جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ، ويلبسون مايستر عوراتهم ويكنهم من الحرّ والقرّ [1] . وقال عمر رضى الله عنه : كفى سرفا أن لا يشتهى رجل شيئا إلا اشتراه فأكله [2] . والقوام : العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما . ونظير القوام من الاستقامة : السواء من الاستواء . وقرئ : قواما ، بالكسر ، وهو مايقام به الشيء . يقال : أنت قوامنا ، بمعنى ماتقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص . والمنصوبان أعنى (بين ذلك قواما) : جائز أن يكونا خبرين معا ، وأن يجعل بين ذلك لغوا ، وقواما مستقرا ، وأن يكون الظرف خبرا ، وقواما حالا مؤكدة . وأجاز الفراء أن يكون (بين ذلك) اسم كان ، على أنه مبنى لإضافته إلى غير متمكن ، كقوله :

* لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ * [3]

وهو من جهة الإعراب لا بأس به ، ولكن المعنى ليس بقوى : لأنّ ما بين الإسراف والتقتير قوام لامحالة ، فليس فى الخبر الذى هو معتمد الفائدة فائدة .

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠)

(١) قوله «والقر» أى البرد . (ع)

(٢) أخرجه عبدالرزاق فى التفسير عن ابن عيينة عن رجل عن الحسن عن عمر بن الخطاب وهذا منقطع من طريقه . رواه الثعلبي . ورواه أحمد فى الزهد عن إسماعيل عن يونس عن الحسن كذلك ورواه ابن ماجه وأبويعلى والبيهقى فى الشعب من طريق نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس رضى الله عنه مرفوعا والأول أصح

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ٤٣٢ فراجعه إن شئت اه مصححه .

﴿حرّم الله﴾ أى حرّمها . والمعنى : حرّم قتلها . و﴿إلا بالحق﴾ متعلق بهذا القتل المحذوف . أو بلا يقتلون ، ونفى هذه المقبحات العظام على الموصوفين بتلك الخلال العظيمة فى الدين ، للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم ، كأنه قيل : والذين برأهم الله وطهرهم مما أنتم عليه . والقتل بغير الحق : يدخل فيه الوأد وغيره . وعن ابن مسعود رضى الله عنه قلت : يا رسول الله ، أىّ الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قلت : ثم أىّ ؟ قال « أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك » قلت : ثم أى ؟ قال « أن تزانى حليلة جارك »[1] فأنزل الله تصديقه . وقرئ : يلق فيه أثاما . وقرئ : يلقى ، بإثبات الألف ، وقد مرّ مثله . والآثام : جزاء الإثم ، بوزن الوبال والنكال ومعناهما . قال :

جَزَي اللهُ ٱبْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَى ... عَقُوقًا وَالْعُقُوقُ لَهُ أَثَامُ[2]

وقيل هو الإثم . ومعناه : يلق جزاء أثام . وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه : أياما[3] ، أى شدائد . يقال : يوم ذو أيام : لليوم العصيب . ﴿يضاعف﴾ بدل من يلق : لأنهما فى معنى واحد . كقوله :

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا ... تَجِدْ حَطَبًا جَزْلًا وَنَارًا تَأَجَّجَا[4]

وقرئ : يضعف ، ونضعف له العذاب ، بالنون ونصب العذاب . وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال ، وكذلك (يخلد) وقرئ : ويخلد ، على البناء للمفعول مخففا ومثقلا ، من الإخلاد والتخليد . وقرئ : وتخلد ، بالتاء على الالتفات ﴿يبدل﴾ مخفف ومثقل ، وكذلك سيآتهم . فإن قلت : ما معنى مضاعفة العذاب وإبدال السيئات حسنات ؟ قلت : إذا ارتكب المشرك معاصى مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصى جميعا ، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه . وإبدال السيئات حسنات : أنه يمحوها بالتوبة ، ويثبت مكانها الحسنات : الإيمان ، والطاعة ، والتقوى . وقيل : يبدلهم بالشرك إيمانا ، وبقتل المسلمين : قتل المشركين ، وبالزنا : عفة وإحصانا .

---

(١) متفق عليه من رواية أبى وائل عن عمرو بن شرحبيل عنه .

(٢) العقوق ـ بالفتح ـ : كثير العقوق بالضم ، وهو منع بر الوالدين وقطع صلتهما . والأثام ـ كالوبال ـ : جزاء الاثم . وقيل : هو الاثم ، فسمي به مسببه وهو الجزاء ، ومفعول جزى الثانى محذوف . وعقوقا خبر أمسى . والعقوق : مبتدأ ، أى : لابد للعقوق من جزاء سيء عظيم .

(٣) قوله «أياما» وفى الصحاح «الأيام» : الدخان . (ع)

(٤) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٣١ فراجعه إن شئت اه مصححه .

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

يريد . ومن يترك المعاصى ويندم عليها ويدخل فى العمل الصالح فإنه بذلك تائب إلى الله ﴿متابا﴾ مرضيا عنده مكفرا للخطايا محصلا للثواب . أو فإنه تائب متابا إلى الله الذى يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يستوجبون ، والذى يحب التوابين ويحب المتطهرين . وفى كلام بعض العرب : لله أفرح بتوبة العبد من المضل الواجد ، والظمآن الوارد ، والعقيم الوالد . أو : فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعا حسنا وأىّ مرجع .

وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾

يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يحضرونها ولا يقربونها ، تنزها عن مخالطة الشر وأهله ، وصيانة لدينهم عما يثلمه : لأنّ مشاهد الباطل شركة فيه ، ولذلك قيل فى النظارة إلى كل مالم تسوّغه الشريعة : هم شركاء فاعليه فى الإثم : لأنّ حضورهم ونظرهم دليل الرضا به ، وسبب وجوده ، والزيادة فيه : لأنّ الذى سلط على فعله هو استحسان النظارة ورغبتهم فى النظر إليه . وفى مواعظ عيسى بن مريم عليه السلام : إياكم ومجالسة الخطائين . ويحتمل أنهم لايشهدون شهادة الزور ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وعن قتادة : مجالس الباطل . وعن ابن الحنفية : اللهو والغناء . وعن مجاهد : أعياد المشركين . اللغو : كل ماينبغى أن يلغى ويطرح . والمعنى : وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به ، مرّوا معرضين عنهم ، مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم والخوض معهم ، كقوله تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين) وعن الحسن رضى الله عنه : لم تسفههم المعاصى . وقيل : إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا . وقيل : إذا ذكروا النكاح كنوا عنه

وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾

﴿لم يخروا عليها﴾ ليس بنفى للخرور ، وإنما هو إثبات له ، ونفى للصمم والعمى ، كما تقول : لا يلقانى زيد مسلما ، هو نفى للسلام لا للقاء . والمعنى : أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصا على استماعها ، وأقبلوا على المذكر بها وهم فى إكبابهم عليها ، سامعون بآذان واعية ، مبصرون بعيون راعية ، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها ، مظهرين الحرص الشديد على استماعها ، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم .

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾

قرئ : ذريتنا ، وذرياتنا . وقرة أعين ، وقرات أعين . سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجا وأعقابا عمالا لله ، يسرون بمكانهم وتقر بهم عيونهم . وعن محمد بن كعب : ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو الولد إذا رآه يكتب الفقه . وقيل : سألوا أن يلحق الله بهم أزواجهم وذريتهم فى الجنة ليتم لهم سرورهم . أراد . أئمة ، فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس ، كقوله تعالى (ثم يخرجكم طفلا) أو أرادوا اجعل كل واحد منا إماما . أو أراد جمع آم ، كصائم وصيام . أو أرادوا اجعلنا إماما واحداً لاتحادنا واتفاق كلتنا . وعن بعضهم : فى الآية ما يدل على أن الرياسة فى الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها . وقيل : نزلت هذه الآيات فى العشرة المبشرين بالجنة . فإن قلت : (من) فى قوله ﴿ من أزواجنا ﴾ ما هى ؟ قلت : يحتمل أن تكون بيانية ، كأنه قيل : هب لنا قرة أعين ، ثم بينت القرة وفسرت بقوله : من أزواجنا وذرياتنا . ومعناه : أن يجعلهم الله لهم قرة أعين ، وهو من قولهم : رأيت منك أسداً ، أى : أنت أسد ، وأن تكون ابتدائية على معنى : هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح . فإن قلت : لم قال ﴿ قرة أعين ﴾ فنكر وقلل ؟ قلت : أما التنكير فلأجل تنكير القرة ؛ لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه ، كأنه قيل : هب لنا منهم سروراً وفرحا . وإنما قيل (أعين) دون عيون ؛ لأنه أراد أعين المتقين ، وهى قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم . قال الله تعالى (وقليل من عبادى الشكور) [1] ويجوز أن يقال فى تنكير (أعين) أنها أعين خاصة ، وهى أعين المتقين .

أُولَـٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾

المراد يجزون الغرفات وهى العلالى فى الجنة ، فوحد اقتصاراً على الواحد الدال على الجنس ،

---

(١) قال محمود : « إن قلت : لم قلل الأعين إذ الأعين صيغة جمع قلة ؟ قلت : لأن أعين المتقين قليل بالاضافة إلى غيرهم ، يدل على ذلك قوله : وقليل من عبادى الشكور » قال أحمد : والظاهر أن المحكى كلام كل أحد من المتقين ، فكأنه قال : يقول كل واحد منهم اجعل لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، وهذا أسلم من تأويله ؛ فان المتقين وإن كانوا بالاضافة إلى غيرهم قليلا إلا أنهم فى أنفسهم على كثرة من العدد . والمعتبر فى إطلاق جمع القلة أن يكون المجموع قليلا فى نفسه لا بالنسبة والاضافة ، والله أعلم .

والدليل على ذلك قوله (وهم فى الغرفات آمنون) وقراءة من قرأ: فى الغرفة ﴿بما صبروا﴾ بصبرهم على الطاعات، وعن الشهوات، وعن أذى الكفار ومجاهدتهم. وعلى الفقر وغير ذلك. وإطلاقه لأجل الشياع فى كل مصبور عليه. وقرئ: يلقون، كقوله تعالى (ولقاهم نضرة وسرورا) ويلقون، كقوله تعالى (يلق أثاما). والتحية: دعاء بالتعمير. والسلام: دعاء بالسلامة، يعنى أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم. أو يحيي بعضهم بعضا ويسلم عليه أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة عن كل آفة. اللهم وفقنا لطاعتك، واجعلنا مع أهل رحمتك، وارزقنا مما ترزقهم فى دار رضوانك.

قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

لما وصف عبادة العباد، وعدد صالحاتهم وحسناتهم، وأثنى عليهم من أجلها، ووعدهم الرفع من درجاتهم فى الجنة: أتبع ذلك بيان أنه إنما اكترث لأولئك وعبأ بهم وأعلى ذكرهم ووعدهم ماوعدهم، لأجل عبادتهم، فأمر رسوله أن يصرح للناس، ويجزم لهم القول بأن الاكتراث لهم عند ربهم، إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر، ولولا عبادتهم لم يكترث لهم البتة ولم يعتدّ بهم ولم يكونوا عنده شيء يبالى به. والدعاء: العبادة. و﴿ما﴾ متضمنة لمعنى الاستفهام، وهى فى محل النصب، وهى عبارة عن المصدر، كأنه قيل: وأى عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم. يعنى أنكم لاتستأهلون شيئا من العبء بكم لولا عبادتكم. وحقيقة قولهم ما عبأت به: ما اعتددت به من فوادح همومى ومما يكون عبئا علىّ، كما تقول: ما اكترثت له. أى: ما اعتددت به من كوارثى ومما يهمنى. وقال الزجاج فى تأويل (ما يعبأ بكم ربى): أى وزن يكون لكم عنده؟ ويجوز أن تكون (ما) نافية. ﴿فقد كذبتم﴾ يقول: إذا أعلمتكم أن حكمى أنى لا أعتد بعبادى إلا عبادتهم، فقد خالفتم بتكذيبكم حكمى، فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم فى النار. ونظيره فى الكلام أن يقول الملك لمن استعصى عليه: إن من عادتى أن أحسن إلى من يطيعنى ويتبع أمرى، فقد عصيت فسوف ترى ما أحلّ بك بسبب عصيانك. وقيل: معناه ما يصنع بكم ربى لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام. وقيل: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة. فإن قلت: إلى من يتوجه هذا الخطاب؟ قلت: إلى الناس على الإطلاق، ومنهم مؤمنون عابدون ومكذبون عاصون، فخوطبوا بما وجدوا فى جنسهم من العبادة والتكذيب. وقرئ: فقد كذب الكافرون. وقيل: يكون العذاب لزاما. وعن مجاهد رضى الله عنه: هو قتل يوم بدر، وأنه لوزم بين القتلى لزاما. وقرئ: لزاما، بالفتح بمعنى اللزوم، كالثبات والثبوت.

والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به ، لأجل الابهام وتناول مالا يكتنهه الوصف ، والله أعلم بالصواب .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الفرقان لقى الله يوم القيامة وهو مؤمن بأنّ الساعة آتية لاريب فيها ، وأدخل الجنة بغير نصب »[1]

سورة الشعراء

مكية ، إلا قوله (والشعراء ... إلى آخر السورة)

وهى مائتان وسبع وعشرون آية ، وفى رواية : وست وعشرون آية [نزلت بعد الواقعة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢)

﴿طسم﴾ بتفخيم الألف وإمالتها ، وإظهار النون وإدغامها ﴿الكتاب المبين﴾ الظاهر إعجازه ، وصحة أنه من عند الله ، والمراد به السورة أو القرآن . والمعنى : آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين .

لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)

البخع : أن يبلغ بالذبح البخاع بالباء ، وهو عرق مستبطن الفقار ، وذلك أقصى حدّ الذبح ، ولعل للإشفاق ، يعنى : أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على مافاتك من إسلام قومك ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ لئلا يؤمنوا ، أو لا متناع إيمانهم ، أو خيفة أن لا يؤمنوا . وعن قتادة رضى الله عنه : باخع نفسك على الإضافة .

إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ (٤)

أراد : آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه . ﴿فظلت﴾ معطوف على الجزاء الذى هو ننزل ،

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى .

لأنه لو قيل : أنزلنا ، لكان صحيحا . ونظيره : فأصدقوأ كن ،كأنه قيل : أصدق . وقد قرئ : لو شئنا لأنزلنا . وقرئ : فتظل أعناقهم . فإن قلت : كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الأعناق قلت : أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين . فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع ، وترك الكلام على أصله ، كقوله : ذهبت أهل اليمامة ، كأنّ الأهل غير مذكور . أو لما وصفت بالخضوع الذى هو للعقلاء قيل : خاضعين ، كقوله تعالى (لى ساجدين) وقيل أعناق الناس : رؤساؤهم ومقدموهم ، شبهوا بالأعناق كما قيل لهم هم الرءوس والنواصى والصدور . قال :

* فِى مَحْفِلٍ مِنْ نَوَاصِى النَّاسِ مَشْهُودِ * (١)

وقيل : جماعات الناس . يقال : جاءنا عنق من الناس لفوج منهم . وقرئ : فظلت أعناقهم لها خاضعة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت هذه الآية فينا وفى بنى أمية . قال : ستكون لنا عليهم الدولة ، فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ، ويلحقهم هوان بعد عزة .

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَٰؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦)

أى : وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيرا ، إلا جددوا إعراضا عنه وكفرا به . فإن قلت : كيف خولف بين الألفاظ والغرض واحد ، وهى الإعراض والتكذيب والاستهزاء ؟ قلت : إنما خولف بينها لاختلاف الأغراض ، كأنه قيل . حين أعرضوا عن الذكر فقد كذبوا به ، وحين كذبوا به فقد خف عندهم قدره وصار عرضة للاستهزاء والسخرية ؛ لأنّ من كان قابلا للحق مقبلا عليه ، كان مصدقا به لا محالة ولم يظنّ به التكذيب . ومن كان مصدقا به ، كان موقرا له ﴿فسيأتيهم﴾ وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ﴿ما﴾ الشيء الذى كانوا يستهزءون به وهو القرآن ، وسيأتيهم أنباؤه وأحواله التى كانت خافية عليهم .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)

وصف الزوج وهو الصنف من النبات بالكرم ، والكريم : صفة لكل ما يرضى ويحمد فى

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٤٢٨ فراجعه إن شئت اه مصححه .

بابه ، يقال : وجه كريم ، إذا رضى فى حسنه وجماله ، وكتاب كريم : مرضى فى معانيه وفوائده ، وقال :

* حَتَّى يَشُقَّ الصُّفُوفَ مِنْ كَرَمِهْ * [1]

أى : من كونه مرضيا فى شجاعته وبأسه . والنبات الكريم : المرضى فيما يتعلق به من المنافع ﴿إن فى﴾ إنبات تلك الأصناف ﴿لآية﴾ على أن منبتها قادر على إحياء الموتى ، وقد علم الله أن أكثرهم مطبوع على قلوبهم ، غير مرجو إيمانهم ﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ فى انتقامه من الكفرة ﴿الرحيم﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحا . فإن قلت : ما معنى الجمع بين كم وكل ، ولو قيل كم أنبتنا فيها من زوج كريم [2] ؟ قلت : قد دلّ (كل) على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل ، و(كم) على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة [3] ، فهذا معنى الجمع بينهما ، وبه نبه على كمال قدرته . فإن قلت : فما معنى وصف الزوج بالكريم ؟ قلت : يحتمل معنيين ، أحدهما :

---

(١) من رأى يومنا ويوم بنى التـــيم إذا التف صيقه بدمه
لما رأوا أن يومهم أشب شدوا حيازيمهم على ألمه
كأنما الأسد فى عرينهم ونحن كالليل جاش فى قتمه
لايسلمون الغداة جارهم حتى يزل الشراك عن قدمه
ولا يخيم اللقاء فارسهم حتى يشق الصفوف من كرمه

لرجل من حمير . ومن : استفهامية . والصيق والصيقة ـ بالكسر ـ : الغبار والتراب . والأشب ـ كحذر ـ : كثير الجلبة والاختلاط ، ويطلق على المكان الذى التف شجره . والحيزوم : الصدر . والعرين : أجمة الأسد يسكن فيها . وجاش : ارتفع وأقبل . والقتم : الغبار والسواد والظلمة . وروى فى غشمه : بالغين . والمعنى واحد ، لايسلمون لايخذلون ولايتركون . والشراك : سير النعل ، ولايخيم : أى لايجبن عن اللقاء ، واليوم : الزمن أو الواقعة ، وإضافة الصيق والدم إليه لأنه فيه . ووصف اليوم بأنه كثير الصياح والاختلاط ، لأن ذلك واقع فيه ، وشد الحيازيم على الألم : كناية عن التجلد والصبر . وشبههم بالأسود فى شجاعتهم . وشبه قومه بالليل فى الاحاطة والقهر للغير ، ثم قال : لايتركون حليفهم غداة الروع حتى يرتبك وحده فى الحرب ، فزال الشراك : كناية عن ذلك ولايجبن الفارس منهم عن اللقاء ، فهو نصب على نزع الخافض ، وقيل : مفعول معه ، حتى يشق صفوف الحرب ويدخلها من كرمه ، أى شجاعته وجراءته ، لأن الكرم فى كل باب بحسبه ، وحتى الأولى غاية للنفى ، والثانية غاية للنفى . ويجوز أن الثانية ابتدائية . والفعل بعدها مرفوع على الاستئناف ، وهذا أبلغ فى المدح ، ثم إن مدح عدوهم مدح لهم .

(٢) قوله «كم أنبتنا فيها من زوج كريم» لعل بعده سقطا تقديره «كان مستقيما» . (ع)

(٣) قال محمود : «إن قلت : مافائدة الجمع بين كل وكم ؟ وأجاب بأن كلا دخلت للاحاطة بأزواج النبات وكم دلت على أن هذا المحاط به متكاثر مفرط الكثرة» قال أحمد : فعلى مقتضى ذلك يكون المقصود بالتكثير : الأنواع والظاهر أن المقصود آحاد الأزواج والأنعام ، ويدل عليه أنك لو أسقطت (كل) فقلت : انظروا إلى الأرض كم أنبت الله فيها من الصنف الفلانى ، لكنت مكنيا عن آحاد ذلك الصنف المشار إليه ، فاذا أدخلت (كل) فقد أديت بتكريره آحاد كل صنف لا آحاد صنف معين ، والله أعلم .

أن النبات على نوعين : نافع وضار ، فذكر كثرة ما أنبت فى الأرض من جميع أصناف النبات النافع ، وخلى ذكر الضار . والثانى : أن يعم جميع النبات نافعه وضاره ، ويصفهما جميعا بالكرم وينبه على أنه ما أنبت شيئا إلا وفيه فائدة ، لأن الحكيم لا يفعل فعلا إلا لغرض صحيح ولحكمة بالغة، وإن غفل عنها الغافلون ، ولم يتوصل إلى معرفتها العاقلون . فإن قلت : فحين ذكر الأزواج ودل عليها بكلمتى الكثرة والإحاطة ، وكانت بحيث لا يحصيها إلا عالم الغيب ، كيف قال (إن فى ذلك لآية) وهلا قال : آيات ؟ قلت : فيه وجهان : أن يكون ذلك مشاراً به إلى مصدر أنبتنا ، فكأنه قال : إن فى الإنبات لآية أى آية . وأن يراد : أن فى كل واحدة من تلك الأزواج لآية . وقد سبقت لهذا الوجه نظائر .

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١)

سجل عليهم بالظلم بأن قدم القوم الظالمين ، ثم عطفهم عليهم عطف البيان ، كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد : إن شاء ذاكرهم عبر عنهم بالقوم الظالمين ، وإن شاء عبر بقوم فرعون . وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين : من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر وشرارتهم ، ومن جهة ظلمهم لبنى إسرائيل باستعبادهم لهم . قرئ : ألا يتقون بكسر النون ، بمعنى : ألا يتقوننى ، فحذفت النون لاجتماع النونين ، والياء للاكتفاء بالكسرة . فإن قلت : بم تعلق قوله : ألا يتقون ؟ قلت : هو كلام مستأنف أتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنذار ، والتسجيل عليهم بالظلم ، تعجيبا لموسى من حالهم التى شنعت فى الظلم والعسف ، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله . ويحتمل أن يكون (لا يتقون) حالا من الضمير فى الظالمين ، أى : يظلمون غير متقين الله وعقابه ، فأدخلت همزة الإنكار على الحال . وأما من قرأ : ألا تتقون . على الخطاب . فعلى طريقة الالتفات إليهم ، وجبههم ، وضرب وجوههم بالإنكار ، والغضب عليهم ، كما ترى من يشكو من ركب جناية إلى بعض أخصائه والجانى حاضر ، فإذا اندفع فى الشكاية وحر مزاجه [1] وحمى غضبه قطع مباثة صاحبه وأقبل على الجانى يوبخه ويعنف به ويقول له : ألم تتق الله ، ألم تستح من الناس . فإن قلت : فما فائدة هذا الالتفات ، والخطاب مع موسى عليه الصلاة والسلام فى وقت المناجاة ، والملتفت إليهم غيب لا يشعرون ؟ قلت : إجراء ذلك فى تكليم المرسل إليهم فى معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه إلى

(١) قوله «وحر مزاجه» فى الصحاح : حر يحر حرا وحرارة وحرورا . (ع)

مسامعهم، لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بين الناس، وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى، وكم من آية أنزلت فى شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين، تدبراً لها واعتباراً بموردها. وفى (ألا يتقون) بالياء وكسر النون وجه آخر. وهو أن يكون المعنى: ألا ياناس اتقون، كقوله (ألا يا اسجدوا).

قَالَ رَبِّ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَى هَٰرُونَ ﴿١٣﴾

ويضيق وينطلق، بالرفع؛ لأنهما معطوفان على خبر إنّ، وبالنصب لعطفهما على صلة أن. والفرق بينهما فى المعنى: أنّ الرفع يفيد أنّ فيه ثلاث علل: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وامتناع انطلاق اللسان. والنصب على أنّ خوفه متعلق بهذه الثلاثة. فإن قلت: فى النصب تعليق الخوف بالأمور الثلاثة، وفى جملتها نفى انطلاق اللسان. وحقيقة الخوف إنما هى غم يلحق الإنسان لأمر سيقع، وذلك كان واقعاً، فكيف جاز تعليق الخوف به؟ قلت: قد علق الخوف بتكذيبهم وبما يحصل له بسببه من ضيق الصدر، والحبسة فى اللسان زائدة على ما كان به، على أنّ تلك الحبسة التى كانت به قد زالت بدعوته. وقيل: بقيت منها بقية يسيرة. فإن قلت: اعتذارك هذا يرده الرفع، لأنّ المعنى: إنى خائف ضيق الصدر غير منطلق اللسان. قلت: يجوز أن يكون هذا قبل الدعوة واستجابتها. ويجوز أن يريد القدر اليسير الذى بقى به، ويجوز أن لا يكون مع حل العقدة من لسانه من الفصحاء المصاقع [1] الذين أوتوا سلاطة الألسنة وبسطة المقال، وهرون كان بتلك الصفة، فأراد أن يقرن به. ويدل عليه قوله تعالى (وأخى هرون هو أفصح منى لساناً) ومعنى ﴿فأرسل إلى هرون﴾: أرسل إليه جبرائيل، واجعله نبياً، وآزرنى به [2]، واشدد به عضدى، وهذا كلام مختصر. وقد بسطه فى غير هذا الموضع، وقد أحسن فى الاختصار حيث قال (فأرسل إلى هرون) فجاء بما يتضمن معنى الاستنباء، ومثله فى تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى (فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً) حيث اقتصر على ذكر طرفى القصة أولها وآخرها، وهما الإنذار والتدمير، ودلّ بذكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها، وهو أنهم قوم كذبوا بآيات الله. فأراد الله إلزام الحجة عليهم، فبعث إليهم رسولين فكذبوهما، فأهلكهم. فإن قلت: كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره الله بأمر فلا يتقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعلل. وقد علم أن الله من

---

(١) قوله «من الفصحاء المصاقع» فى الصحاح «صقع الديك»: صاح. وخطيب مصقع. أى: بليغ. (ع)

(٢) قوله «وآزرنى به» فى الصحاح «آزرت فلاناً»: عاونته. والعامة تقول: وازرته. (ع)

ورائه ؟ قلت : قد امتثل وتقبل ، ولكنه التمس من ربه أن بعضده بأخيه حتى يتعاونا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته . فمهد قبل التماسه عذره فيما التمسه ، ثم التمس بعد ذلك ، وتمهيد العذر فى التماس المعين على تنفيذ الأمر : ليس بتوقف فى امتثال الأمر ، ولا بتعلل فيه ؛ وكفى بطلب العون دليلا على التقبل لا على التعلل .

وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾

أراد بالذنب : قتله القبطى . وقيل : كان خباز فرعون واسمه فاتون . يعنى : ولهم علىّ تبعة ذنب ، وهى قود ذلك القتل [1] . فأخاف أن يقتلونى به ، فحذف المضاف . أو سمى تبعة الذنب ذنباً ، كما سمى جزاء السيئة سيئة . فإن قلت : قد أبيت أن تكون تلك الثلاث عللا ، وجعلتها تمهيداً للعذر فيما التمسه ، فما قولك فى هذه الرابعة ؟ قلت : هذه استدفاع للبلية المتوقعة . وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة ، فكيف يكون تعللا . والدليل عليه : ماجاء بعده من كلمة الردع ، والموعد بالكلاءة والدفع .

قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾

جمع الله له الاستجابتين معاً فى قوله ﴿كلا فاذهبا﴾ لأنه استدفعه بلاءهم فوعده الدفع بردعه عن الخوف ، والتمس منه الموازرة بأخيه فأجابه بقوله (اذهبا) أى اذهب أنت والذى طلبته وهو هرون . فإن قلت : علام عطف قوله (فاذهبا) ؟ قلت : على الفعل الذى يدل عليه (كلا) كأنه قيل : ارتدع ياموسى عما تظن . فاذهب أنت وهرون . وقوله ﴿معكم مستمعون﴾ من مجاز الكلام ، يريد : أنا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع مايجرى بينكما

(١) قوله «وهي قود ذلك القتل» لعله القتيل . (ع)

وبينه . فأظهركما وأغلبكما وأكسر شوكته عنكما وأنكسه . ويجوز أن يكونا خبرين لأنّ ، أو يكون (مستمعون) مستقراً ، و (معكم) لغواً . فإن قلت : لم جعلت (مستمعون) قرينة (معكم) فى كونه من باب المجاز ، والله تعالى يوصف على الحقيقة بأنه سميع وسامع ؟ قلت : ولكن لايوصف بالمستمع على الحقيقة ؛ لأنّ الاستماع جار مجرى الإصغاء ، والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية . ومنه قوله تعالى (قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجنّ فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً) ويقال : استمع إلى حديثه ، وسمع حديثه ، أى : أصغى إليه وأدركه بحاسة السمع . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم [1] « من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صبّ فى أذنيه البرم » [2] . فإن قلت : هلا ثنى الرسول كما ثنى فى قوله (إنا رسولا ربك) ؟ قلت : الرسول يكون بمعنى المرسل ، وبمعنى الرسالة ، فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته ، وجعل ههنا بمعنى الرسالة لجاز التسوية فيه ـ إذا وصف به ـ بين الواحد والتثنية والجمع ، كما يفعل بالصفة بالمصادر ، نحو : صوم ، وزور . قال :

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُو ل أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرْ [3]

فجعله للجماعة . والشاهد فى الرسول بمعنى الرسالة قوله :

لَقَدْ كَذَبَ الْوَاشُونَ مَافُهْتُ عِنْدَهُمْ بِسِرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ [4]

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ ، والمحفوظ «صب فى أذنيه الآنك» وهو الرصاص . وذكره ابن الأثير فى النهاية بلفظ : «البرم الدم» وقال : هو الكحل المذاب . قلت : وإنما تلقاه ابن الأثير عن الفائق ، فرجع إلى الزمخشرى .

(٢) قوله «صب فى أذنيه البرم» فى الصحاح «البرم» : ثمر العضاه . (ع)

(٣) لأبى ذؤيب . والألكة يليكه : إذا أرسله . والمصدر الالكة ، فالهمزة زائدة . والأصل : لاك يلوك ، كقام يقوم . وأما ألكه : إذا أرسله أيضاً ، فصدره : ألوكة وأليكة ومألكة ، بضم اللام وفتحها . ومألك بضمها . وقيل : ألا كه ، إذا تحمل رسالته . فالمعنى : أرسلنى ، أو تحمل رسالتى إليها . ويروى : إليه : أى : إلى ذلك الأمر . والرسول فى الأصل مصدر ، لجاز إفراده مع تعدد معناه ، ولذلك عاد إليه ضمير الجمع فى أعلمهم . وشبه الخبر بمكان ذى جهات على طريق المكنية . والنواحى تخييل . أوشبه توابع الخبر التى يسأل عنها تبعاً له بالنواحى على طريق التصريحية ، يعنى أنه أعلم من غيره بذلك .

(٤)
حلفت برب الراقصات إلى منى خلال الملا يمددن كلّ جديل
لقد كذب الواشون مافهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول
فلا تعجلى ياعز أن تتفهمى بنصح أتى الواشون أم بحبول

لكثير صاحب عزة . والراقصات : المطايا السائرات إلى منى فى الحج ، خلال الملا : أى فى أثناء الناس . والجديل الرسن فى عنقها تمده به . والواشى : الذى يحسن الكلام ويموهه ، ويخلط الصدق بالكذب ، ويحرف الكلم عن مواضعه . و «ما» نافية ، أى : ماتفوهت عندهم بسر ، ولا أرسلتهم إلى أحد برسول ، أى برسالة ، فهو فى الأصل مصدر . وقد يطلق على المرسل ، وهو الظاهر فى رواية ، (ولا راسلتهم برسول) أى لاشافهتهم بالسر ولا أرسلت ==

ويجوز أن يوحد ، لأنّ حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة ، واتحادهما لذلك وللإخوة كان حكما واحداً ، فكأنهما رسول واحد . أو أريد أنّ كل واحد منا ﴿أن أرسل﴾ بمعنى : أى أرسل ؛ لتضمن الرسول معنى الإرسال . وتقول : أرسلت إليك أن افعل كذا ، لما فى الإرسال من معنى القول ، كما فى المناداة والكتابة ونحو ذلك . ومعنى هذا الإرسال : التخلية والإطلاق كقولك : أرسل البازى ، يريد : خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين ، وكانت مسكنهما . ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة ، حتى قال البواب : إنّ ههنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين ، فقال : ائذن له لعلنا نضحك منه ، فأدّيا إليه الرسالة ، فعرف موسى فقال له ﴿ألم نربك﴾ حذف : فأتيا فرعون فقالا له ذلك ، لأنه معلوم لا يشتبه . وهذا النوع من الاختصار كثير فى التنزيل . الوليد : الصبى لقرب عهده من الولادة . وفى رواية عن أبى عمرو : من عمرك ، بسكون الميم ﴿سنين﴾ قيل : مكث عندهم ثلاثين سنة . وقيل : وكز القبطى وهو ابن ثنتى عشرة سنة ، وفرّ منهم على أثرها ، والله أعلم بصحيح ذلك . وعن الشعبي : فعلتك بالكسر ، وهى قتلة القبطى ، لأنه قتله بالوكزة وهو ضرب من القتل . وأما الفعلة ؛ فلأنها كانت وكزة واحدة . عدّد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ، ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه ، وعظم ذلك وفظعه [1] بقوله ﴿وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين﴾ يجوز أن يكون حالا ، أى : قتلته وأنت لذاك من الكافرين بنعمتى . أو أنت إذ ذاك ممن تكفرهم الساعة . وقد افترى عليه أو جهل أمره ؛ لأنه كان يعايشهم بالتقية ، فإنّ الله تعالى عاصم من يريد أن يستنبئه من كل كبيرة ومن بعض الصغائر ، فما بال الكفر . ويجوز أن يكون قوله (وأنت من الكافرين) حكما عليه بأنه من الكافرين بالنعم ، ومن كانت عادته كفران النعم لم يكن قتل خواص المنعم عليه بدعا منه . أو بأنه من الكافرين لفرعون وإلهيته . أو من الذين كانوا يكفرون فى دينهم ، فقد كانت لهم آلهة يعبدونهم ، يشهد لذلك قوله تعالى (ويذرك وآلهتك) وقرئ : إلهتك ، فأجابه موسى بأن تلك الفعلة إنما فرطت منه وهو ﴿من الضالين﴾ أى الجاهلين . وقراءة ابن مسعود : من الجاهلين ، مفسرة . والمعنى : من

ـــ إليهم رسولا به ، وهذه الرواية أوفق بالمقابلة . ويمكن أن أرسلتهم بمعنى أرسلت إليهم ، والأصل : ياعزة ، فرخم بحذف التاء ، أن تفهمى ، أى : فى أن تفهمى . أو لأجل أن تفهمى ، بنصح ، أى : أبنصح أتى الواشون إليك ، أم بحبول : جمع حبل بالكسر : وهى الداهية العظيمة ، ولأدهى من الكذب .

(١) قال محمود : « عدد نعمته عليه ووبخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وفظعه عليه بقوله : وفعلت فعلتك » قال أحمد : ووجه التفظيع عليه من ذلك أن فى إتيانه به مجملا مبهما ، إيذاناً بأنه لفظاعته مما لا ينطق به إلا مكنياً عنه . ونظيره فى التفخيم المستفاد من الابهام قوله تعالى (فغشيهم من اليم ما غشيهم) ، (إذ يغشى السدرة ما يغشى) ، (فأوحى إلى عبده ما أوحى) ومثله كثير ، والله أعلم .

الفاعلين فعل أولى الجهل والسفه . كما قال يوسف لإخوته (هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل . أو الذاهبين عن الصواب . أو الناسين ، من قوله (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) وكذب فرعون ودفع الوصف بالكفر عن نفسه ، وبرأ ساحته ، بأن وضع الضالين موضع الكافرين رَبْئاً بمحل من رشح للنبوة عن تلك الصفة ، ثم كرّ على امتنانه عليه بالتربية . فأبطله من أصله واستأصله من سنخه [1] ، وأبى أن يسمى نعمته إلا نقمة . حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بنى إسرائيل ؛ لأنّ تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب فى حصوله عنده وتربيته ، فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت ، وتعبيدهم : تذليلهم واتخاذهم عبيداً . يقال : عبدت الرجل وأعبدته . إذا اتخذته عبداً . قال :

عَلَامَ يُعْبِدُنِي قَوْمِي وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِمْ أَبَاعِرُ مَاشَاؤُا وَعُبْدَانُ [2]

فإن قلت : إذا جواب وجزاء معا ، والكلام وقع جوابا لفرعون ، فكيف وقع جزاء قلت : قول فرعون : (وفعلت فعلتك) فيه معنى : إنك جازيت نعمتى بما فعلت ، فقال له موسى : نعم فعلتها مجازيا لك ، تسليما لقوله ، لأنّ نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء . فإن قلت : لم جمع الضمير فى منكم وخفتكم ؟ مع إفراده فى تمنها وعبدت ؟ قلت : الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله ، بدليل قوله (إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) وأما الامتنان فمنه وحده ، وكذلك التعبيد . فإن قلت : (تلك) إشارة إلى ماذا ، و (أن عبدت) ما محلها من الإعراب ؟ قلت : تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة ، لا يدرى ما هى إلا بتفسيرها . ومحل (أن عبدت) الرفع عطف بيان لتلك . ونظيره قوله تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر أنّ دابر هؤلاء مقطوع) والمعنى : تعبيدك بنى إسرائيل نعمة تمنها علىّ . وقال

---

(١) قوله « واستأصله من سنخه » فى الصحاح « السنخ » الأهل . وسنخ فى العلم سنوخا رسخ : وسنخ الدهر ـ بالكسر ـ : لغة فى زنخ ، إذا فسد وتغيرت ريحه . يقال : بيت له سنخة وسناخة اه . (ع)

(٢) علام : استفهام إنكارى عن العلة ، أى : على أى شىء . وأعبدت الرجل وعبدته : إذا اتخذته عبداً . والأباعر : جمع بعير ، يطلق على الذكر والأنثى من الابل . والعبد : يجمع على عبدان بالكسر والضم وعبدى ، بتشديد الدال مقصوراً وممدوداً . ومعبودا ، وعباد ، وأعبد ، وعبيد ، وعبد بضمتين وبفتحتين ، يقول : لأى شىء يتخذونى عبداً ، والحال أنه كثرت فيهم الابل والعبيد بسببى ، فليتخذوا منها ماشاؤا . وما شاؤا : بدل من الأباعر أو واقع موقع المصدر لكثرت ، دلالة على التكثير . وفى هذه الحال : تهكم بهم ودلالة على حمقهم . ويجوز أن المعنى : والحال أن بعضهم كالأباعر ، وبعضهم عبيد ، فليكتفوا ببعضهم عنى . وقيل : يجوز أن التقييد بهذه الحالة ، لأنها التى حملتهم على التكبر عليه .

الزجاج : ويجوز أن يكون (أن) فى موضع نصب ، المعنى : إنما صارت نعمة علىّ لأن عبدت بنى إسرائيل ؛ أى : لو لم تفعل ذلك لكفلنى أهلى ولم يلقونى فى اليم .

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ (٢٣)

لما قال له بوّابه إن ههنا من يزعم أنه رسول رب العالمين قال له عند دخوله : ﴿وما رب العالمين﴾ يريد : أى شيء رب العالمين . وهذا السؤال لا يخلو : إما أن يريد به أى شيء هو من الأشياء التى شوهدت وعرفت أجناسها ، فأجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة ، ليعرّفه أنه ليس بشيء مما شوهد وعرف من الأجرام والأعراض ، وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء ، «ليس كمثله شيء» ، وإما أن يريد به : أى شيء هو على الإطلاق ، تفتيشا عن حقيقته الخاصة ما هى ، فأجابه بأنّ الذى إليه سبيل وهو الكافى فى معرفته معرفة ثباته بصفاته ، استدلالا بأفعاله الخاصة على ذلك . وأمّا التفتيش عن حقيقته الخاصة التى هى فوق فطر العقول ، فتفتيش عما لا سبيل إليه ، والسائل عنه متعنت غير طالب للحق . والذى يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام : أن يكون سؤاله هذا إنكارا لأن يكون للعالمين رب سواه لادعائه الإلهية ، فلما أجاب موسى بما أجاب ، عجب قومه من جوابه حيث نسب الربوبية إلى غيره ، فلما ثنى بتقرير قوله ، جننه إلى قومه وطنز به [١] ، حيث سماه رسولهم . فلما ثلث بتقرير آخر : احتدّ واحتدم وقال : لئن اتخذت إلها غيرى . وهذا يدل على صحة هذا الوجه الأخير .

قَالَ رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤)

فإن قلت : كيف قيل ﴿وما بينهما﴾ على التثنية ، والمرجوع إليه مجموع ؟ قلت : أريد وما بين الجنسين ، فعل بالمضمر ما فعل بالظاهر من قال :

* ... فِى الْهَيْجَا جِمَالَيْنِ * [٢]

---

(١) قوله «وطنز به» أى : سخر به واحتدم ، أى : التهب صدره غيظا . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) سعى عقالا فلم يترك لنا سبدا ... فكيف لو قد سعى عمرو عقالين
لأصبح الناس أوبادا ولم يجدوا ... عند التفرق فى الهيجا جمالين

الساعى : المنصوب لأخذ الزكاة . والعقال : زكاة العام ، والمراد به هنا العام ، لأنه جرى مجرى الظرف . والسبد : الشيء القليل . يقال : لا له سبد ولالبد ، أى : لاقليل ولا كثير . وقال الأصمعي : الأول من الشعر ، والثانى من الصوف . والأوباد : جمع وبد بفتحتين ، وأصله ضيق العيش وسوء الحال ، فاستعمل استعمال الصفات للمبالغة ، وثنى الجمال على معنى نوعين منها أو طائفتين منها ولو من نوع واحد . يقول : سعى سنة واحدة لأخذ زكاتها ، فظلمنا ولم يترك لنا شيئاً قليلا من مالنا ، فكيف يكون حالنا لو سعى عامين . وفى ذكر عمرو بعد تقدم ضميره نوع من التهويل . ويحتمل أنه من باب التنازع ، فيجوز أن الظاهر فاعل الأول ، وفاعل الثانى ضميره . وقوله «لأصبح» =

فإن قلت : ما معنى قوله ﴿إن كنتم موقنين﴾ وأين غن فرعون وملئه الإيقان ؟ قلت : معناه إن كان يرجى منكم الإيقان الذى يؤدى إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب ، وإلا لم ينفع . أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به ، لظهوره وإنارة دليله .

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

فإن قلت : ومن كان حوله ؟ قلت : أشراف قومه قيل: كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة . فإن قلت : ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلها ، فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب ؟ قلت : قد عمم أولا ، ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم . لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه ، وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع ، والناقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته ، ثم خصص المشرق والمغرب. لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها فى الآخر على تقدير مستقيم فى فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به ؛ ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله ، عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان ، فبهت الذى كفر . وقرئ : رب المشارق والمغارب . الذى أرسل إليكم بفتح الهمزة . فإن قلت : كيف قال أولا (إن كنتم موقنين) وآخراً (إن كنتم تعقلون) ؟ قلت : لاين أولا ، فلما رأى منهم شدة الشكيمة [1] فى العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض : إن رسولكم لمجنون ، بقوله : إن كنتم تعقلون .

قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾

فإن قلت : ألم يكن : لأسجننك ، أخصر من (لأجعلنك من المسجونين) ومؤديا مؤداه ؟ قلت : أما أخصر فنعم . وأما مؤد مؤداه فلا ؛ لأن معناه : لأجعلنك واحدا ممن عرفت حالهم فى

ـــ مرتب على محذوف ، أى : لو سمى عقالين ، لأصبح الناس هلكى من الفقر ، ولم يجدوا عند تفرقهم فى الحرب نوعين من الجمال : لكل فريق منهما نوع ، فيختل أمر الغزوات لاحتمال محاربة العدو فى جهتين بل فى جهات ، فيحتاج إلى جمالين ، بل إلى جمالات .

(١) قوله شدة الشكيمة : فى الصحاح : فلان شديد الشكيمة ، إذا كان شديد النفس أنفا أبيا . (ع)

سجونى . وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه فى هوّة ذاهبة فى الأرض بعيدة العمق فردا لا يبصر فيها ولا يسمع ، فكان ذلك أشدّ من القتل وأشدّ .

قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

الواو فى قوله ﴿أو لو جئتك﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام . معناه : أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشيء مبين ، أى : جائيا بالمعجزة . وفى قوله ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أنه لا يأتى بالمعجزة إلا الصادق فى دعواه ، لأن المعجزة تصديق من الله لمدعى النبوّة ، والحكيم لا يصدّق الكاذب . ومن العجب أن مثل فرعون لم يخف عليه هذا ، وخفى على ناس من أهل القبلة [1] حيث جوّزوا القبيح على الله تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات [2] ،

(١) قوله «وخفى على ناس من أهل القبلة» يريد أهل السنة ، حيث قالوا : إن كلا من الحسن والقبيح بقضاء الله تعالى وقدره ، ولم يلزمهم باطل كما بين فى علم التوحيد . (ع)

(٢) قال محمود : «علم فرعون أنه لايأتى بالمعجزة إلا صادق فى دعواه ، لأن المعجزة تصديق من الله تعالى لمدعى النبوة ، والحكيم لايصدق الكاذب . ومن العجب أن فرعون لم يخف عليه هذا وخفى على طائفة من أهل القبلة ، حيث جوزوا القبيح على الله تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات . انتهى كلامه» قال أحمد : ليته سلم وجه تصنيفه من ثآليل هذه الأباطيل ، وكلف هذا التكليف فى كيده لأهل السنة وإن كيده لفى تضليل ، بينا هو يعرض بتفضيل فرعون عليهم ، إذا هو قد حتم على إخوانه القدرية أنهم فراعنة ، وأن كلا منهم إذا فتش نفسه وجد فيها نصيبا من فرعنته حيث يقول (أنا ربكم الأعلى) لأنهم يعتقدون أن أفعالهم خلقهم ، وأنهم لها مبدعون خالقون كلا إنهم لهم المبتدعون المختلقون ، لأنهم حجروا على الله تعالى أن يفعل إلا ماتوطأت أوهامهم ، على أنه حسن بالنسبة إلى الخلق فى الشاهد ، فمن ثم أشركوا به وهم لايشعرون . ولما هدى الله تعالى أهل السنة إلى التوحيد الحق ، اعتقدوا أن كل شيء هو مخلوق لله تعالى لاشريك له فى ملكه ، وأن كل ممكن يجوز أن ينظمه سلطان القدرة الأزلية فى سلكه ، فكان من الممكنات أن يبتلى الله عباده بخرق العادات على أيدى الكذابين ، ومراده إظهار الضلالات : وقد اندرج ذلك لكونه ممكنا تحت سطوة القدرة حقاً بيناً ، ثم لم يلزم من ذلك لله الحمد خرم فى الدين ، فان توهم ناظر بعين الهوى والغرض ، معنون عما فى قلبه من مرض : أن ذلك يجر إلى عدم الوثوق بمعجزات الأنبياء ، حيث كان على يدغيرهم من الكذابين الأشقياء . قيل : معاذ الله أن نأخذ ذلك بنفس مطمئنة بصدق الأنبياء ، آمنة بحصول العلم لها من وقوع ما جوزه العقل ، ولوقدح الامكان العقلى فى علم حاصل يقينى ، للزم الآن الشك فى أن جبال الأرض قد عادت تبرا أحمر ، وترابها مسكا أذفر ، وانقلبت البحار دما عبيطا لأن ذلك ممكن فى العقل بلا خلاف ، ولايشكك نفسه فى هذا الامكان إلاذو خبل وعته وعمى وعمه ، وأين الزمخشرى من الحديث الصحيح فى الشاب الذى يكذب الدجال فيقسمه بالسيف جزلتين فيمشى بينهما ، ثم يقول له : عد فيعود حياً ، فيقول له : مازددت فيك إلا بصيرة ، أنت الدجال الذى وصفه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيهم به ثانى مرة فلا يسلط عليه . قال النبى صلى الله عليه وسلم : وهو حينئذ خير أهل الأرض ، أو من خير أهل الأرض ، أفرأيت هذا المؤمن لما نظر انخراق العادة على يد أكذب الكاذبين حتى شاهد ذلك فى نفسه ، لم يشككه ذلك فى معلومه ، فلم يتلكأ فى معاودة تكذيبه ، ولكن (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء) .

وتقديره : إن كنت من الصادقين فى دعواك أتيت به ، فحذف الجزاء ، لأن الأمر بالإتيان به يدل عليه .

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣)

﴿ ثعبان مبين ﴾ ظاهر الثعبانية ، لاشىء يشبه الثعبان ، كما تكون الأشياء المزورة بالشعوذة والسحر . وروى أنها انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ، ثم انحطت مقبلة إلى فرعون ، وجعلت تقول : يا موسى ، مرنى بما شئت . ويقول فرعون : أسألك بالذى أرسلك إلا أخذتها ، فأخذها فعادت عصا ﴿ للناظرين ﴾ دليل على أن بياضها كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر إليه ، لخروجه عن العادة ، وكان بياضا نوريا . روى أنّ فرعون لما أبصر الآية الأولى قال : فهل غيرها ؟ فأخرج يده فقال له : ما هذه ؟ قال : يدك فما فيها ؟ فأدخلها فى إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار [١] ويسدّ الأفق .

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥)

فإن قلت : ما العامل فى ﴿ حوله ﴾ ؟ قلت : هو منصوب نصبين : نصب فى اللفظ ، ونصب فى المحل ؛ فالعامل فى النصب اللفظى ما يقدر فى الظرف ، والعامل فى النصب المحلى وهو النصب على الحال : قال : ولقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين ، وبقى لا يدرى أى طرفيه أطول ، حتى زلّ عنه ذكر دعوى الإلهية ، وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية ، وارتعدت فرائصه ، وانتفخ سحره خوفا وفرقا [٢] ؛ وبلغت به الاستكانة لقومه الذين هم بزعمه عبيده وهو إلههم : أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه وتوقعه وأحسّ به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على ملكه وأرضه ، وقوله ﴿ إنّ هذا لساحر عليم ﴾ قول باهت إذا غلب ومتمحل إذا لزم ﴿ تأمرون ﴾ من المؤامرة وهى المشاورة . أو من الأمر الذى هو ضد النهى : جعل العبيد آمرين وربهم مأموراً لما استولى عليه من فرط الدهش والحيرة . وماذا منصوب : إما لكونه فى معنى المصدر ، وإما لأنه مفعول به من قوله : أمرتك الخير .

---

(١) قوله «ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار» فى الصحاح «الغشاء» : الغطاء . اه . ولعل عبارة المصنف يعشى بالعين المهملة ، وفى الصحاح «العشا» مقصور : مصدر : الأعشى ، وهو الذى لايبصر بالليل ويبصر بالنهار . (ع)
(٢) قوله «وانتفخ سحره خوفا وفرقا» فى الصحاح «السحر» : الرئة . ويقال للجبان : قد انتفخ سحره . (ع)

قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

قرئ : أرجئه وأرجه : بالهمز والتخفيف ، وهما لغتان . يقال : أرجأته وأرجيته ، إذا أخرته . ومنه : المرجئة [1] ، وهم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون : هم مرجئون لأمر الله . والمعنى : أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة . وقيل : احبسه ﴿حاشرين﴾ شرطاً يحشرون السحرة [2] ، وعارضوا قوله : إن هذا لساحر ، بقولهم : بكل سحار ، فجاؤا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة ، ليطامنوا من نفسه ويسكنوا بعض قلقه . وقرأ الأعمش : بكل ساحر .

فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾

اليوم المعلوم : يوم الزينة . وميقاته : وقت الضحى ؛ لأنه الوقت الذى وقته لهم موسى صلوات الله عليه من يوم الزينة فى قوله (موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى) والميقات : ما وقت به ، أى حدد من زمان أو مكان . ومنه : مواقيت الإحرام ﴿هل أنتم مجتمعون﴾ استبطاء لهم فى الاجتماع ، والمراد منه : استعجالهم واستحثاثهم ، كما يقول الرجل لغلامه : هل أنت منطلق : إذا أراد أن يحرك منه ويحثه على الانطلاق ، كأنما يخيل له أن الناس قد انطلقوا وهو واقف . ومنه قول تأبط شرا :

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا ... أَوْ عَبْدَ رَبِّ أَخَا عَوْنِ بْنِ مِخْرَاقِ [3]

يريد : ابعثه إلينا سريعا ولا تبطئ به ﴿لعلنا نتبع السحرة﴾ أى فى دينهم إن غلبوا موسى ،

---

(١) قال محمود : «معناه أخره . ومنه المرجئة الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون : هم مرجئون لأمر الله» قال أحمد : ضاقت عليه المسالك فى تفسير الارجاء ، حتى استدل عليه بالمرجئة ، وصرف هذا اللقب لأهل السنة ، فانهم هم الذين لا يقطعون بوعيد فساق المؤمنين ، ويقولون : أمرهم إلى الله ، إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم . فان كانت المرجئة هم المؤمنون بقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) اللهم فاشهد أنا مرجئة .

(٢) قوله «شرطا يحشرون السحرة» الشرط ـ محركة ـ : الحرس ، سموا بذلك لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها ، أفاده الصحاح . (ع)

(٣) لتأبط شراً . وقيل : لجرير الخطفى ، وهل : استفهام استبطائى فيه حث على الفعل . ودينار : اسم رجل وعبد رب كذلك ، وهو نصب عطفاً على محل دينار ، لأنه مفعول معنى . وأخا عوف : نعت له . وقيل : منادى . وعوف ومخراق : اسمان لرجلين . ويروى «عون» بالنون .

ولا نتبع موسى فى دينه . وليس غرضهم باتباع السحرة [١] ، وإنما الغرض الكلى : أن لا يتبعوا موسى ، فساقوا الكلام مساق الكناية ؛ لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى عليه السلام .

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾

وقرئ : نعم ، بالكسر [٢] ، وهما لغتان . ولما كان قوله ﴿إن لنا لأجرا﴾ فى معنى جزاء الشرط ، لدلالته عليه ، وكان قوله ﴿وإنكم إذاً لمن المقربين﴾ معطوفا عليه ومدخلا فى حكمه ، دخلت إذا قارة فى مكانها الذى تقتضيه من الجواب والجزاء ، وعدهم أن يجمع لهم إلى الثواب على سحرهم الذى قدروا أنهم يغلبون به موسى : القربة عنده والزلفى .

قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

أقسموا بعزة فرعون وهى من أيمان الجاهلية ، وهكذا كل حلف بغير الله ، ولا يصح فى الإسلام إلا الحلف بالله معلقاً ببعض أسمائه أو صفاته ، كقولك : بالله ، والرحمن ، وربى ، ورب العرش ، وعزة الله ، وقدرة الله ، وجلال الله ، وعظمة الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالطواغيت ، ولا تحلفوا إلا بالله ، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » [٣] ولقد استحدث الناس فى هذا الباب فى إسلامهم جاهلية نسيت لها الجاهلية الأولى ، وذلك أنّ الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وصفاته على شىء : لم يقبل منه ، ولم يعتدّ بها حتى يقسم برأس سلطانه ، فإذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التى ليس وراءها حلف لحالف .

فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾

---

(١) قوله « باتباع السحرة » لعله : اتباع ، كعبارة النسفى . (ع)

(٢) قوله « وقرئ نعم بالكسر » أى كسر العين ، كما فى الصحاح . (ع)

(٣) أخرجه النسائى من حديث أبى هريرة دون قوله « ولا تحلفوا إلا بالله » وقال « بالأنداد » بدل الطواغيت وله من حديث عبد الرحمن بن سمرة « لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت » مختصر . وفى الصحيحين عن ابن عمر رفعه « من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله » .

﴿ما يأفكون﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم، ويزوّرونه فيخيلون فى حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى، بالتمويه على الناظرين أو إفكهم: سمى تلك الأشياء إفكا مبالغة. روى أنهم قالوا: إن يك ما جاء به موسى سحراً فلن يغلب، وإن كان من عند الله فلن يخفى علينا، فلما قذف عصاه فتلقفت ما أتوا به. علموا أنه من الله فآمنوا. وعن عكرمة رضى الله عنه: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء. وإنما عبر عن الخرور بالإلقاء، لأنه ذكر مع الإلقاآت، فسلك به طريق المشاكلة. وفيه أيضاً مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا، لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين، كأنهم أخذوا فطرحوا طرحا. فإن قلت: فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به؟ قلت: هو الله عزّ وجل بما خوّلهم من التوفيق. أو إيمانهم. أو ما عاينوا من المعجزات الباهرة، ولك أن لا تقدر فاعلا: لأنّ (ألقوا) بمعنى خرّوا وسقطوا ﴿رب موسى وهرون﴾ عطف بيان لرب العالمين، لأنّ فرعون لعنة الله عليه كان يدعى الربوبية، فأرادوا أن يعزلوه. ومعنى إضافته إليهما فى ذلك المقام: أنه الذى يدعو إليه هذان، والذى أجرى على أيديهما ما أجرى.

قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾

﴿فلسوف تعلمون﴾ أى وبال ما فعلتم.

قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

الضر والضير والضور: واحد، أرادوا: لا ضرر علينا فى ذلك، بل لنا فيه أعظم النفع لما يحصل لنا فى الصبر عليه لوجه الله، من تكفير الخطايا والثواب العظيم، مع الأعواض الكثيرة. أو لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل أنه لابد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت. والقتل أهون أسبابه وأرجاها. أو لا ضير علينا فى قتلك، إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من يطمع فى مغفرته ويرجو رحمته. لما رزقنا من السبق إلى الإيمان وخبر (لا) محذوف. والمعنى: لا ضير فى ذلك، أو علينا ﴿أن كنا﴾ معناه: لأن كنا، وكانوا أوّل جماعة مؤمنين من أهل زمانهم، أو من رعية فرعون، أو من أهل المشهد. وقرئ: إن كنا، بالكسر وهو من الشرط الذى يجىء به المدلّ بأمره[1]، المتحقق لصحته، وهم كانوا متحققين أنهم أوّل

(١) قوله «المدل بأمره» أى الواثق به. أفاده الصحاح. (ع)

المؤمنين . ونظيره قول العامل لمن يؤخر جعله : إن كنت عملت لك فوفنى حقى . ومنه قوله تعالى (إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى) مع علمه أنهم لم يخرجوا إلا لذلك .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦)

قرئ : أسر ، بقطع الهمزة ووصلها . وسر ﴿إنكم متبعون﴾ علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون وجنوده آثارهم . والمعنى : أنى بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدموا ويتبعوكم ، حتى يدخلوا مدخلكم ، ويسلكوا مسلككم من طريق البحر ، فأطبقه عليهم فأهلكهم . وروى : أنه مات فى تلك الليلة فى كل بيت من بيوتهم ولد ، فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه . وروى : أنّ الله أوحى إلى موسى : أن اجمع بنى إسرائيل ، كل أربعة أبيات فى بيت ، ثم اذبحوا الجداء [1] واضربوا بدمائها على أبوابكم ، فإنى سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتا على بابه دم ، وسآمرهم بقتل أبكار القبط ، واخبزوا خبزا فطيراً [2] فإنه أسرع لكم ، ثم أسر بعبادى حتى تنتهى إلى البحر فيأتيك أمرى ، فأرسل فرعون فى أثره ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسوّر ، مع كل ملك ألف ، وخرج فرعون فى جمع عظيم ، وكانت مقدمته سبعمائة ألف : كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : خرج فرعون فى ألف ألف حصان سوى الإناث ، فلذلك استقل قوم موسى عليه السلام وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا ، وسماهم شرذمة قليلين ﴿إن هؤلاء﴾ محكى بعد قول مضمر . والشرذمة : الطائفة القليلة . ومنها قولهم : ثوب شراذم ، للذى بلى وتقطع قطعا ، ذكرهم بالاسم الدال على القلة . ثم جعلهم قليلا بالوصف ، ثم جمع القليل لجعل كل حزب منهم قليلا ، واختار جمع السلامة الذى هو للقلة [3] ، وقد يجمع

(١) قوله «ثم اذبحوا الجداء» فى الصحاح «الجدى» من ولد المعز . وثلاثة أجد . فاذا كثرت فهى الجداء . (ع)

(٢) قوله «واخبزوا خبزا فطيرا» فى الصحاح «الفطير» : خلاف الخمير ، وكل شىء أعجلته عن إدراكه فهو فطير . (ع)

(٣) قال محمود : «وقللهم من أربعة أوجه : عبر عنهم بالشرذمة وهى تفيد القلة ، ثم وصفهم بالقلة ، وجمع وصفهم ليعلم أن كل ضرب منهم قليل ، واختار جمع السلامة ليفيد القلة» قال أحمد : ووجه آخر فى تقليلهم يكون خامساً : وهو أن جمع الصفة والموصوف منفرد ، قد يكون مبالغة فى لصوق ذلك الوصف بالموصوف وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره من الموصوفين به ، كقولهم : معا زيد جياع ، مبالغة فى وصفه بالجوع ، فكذلك ههنا جمع قليلا ، وكان الأصل إفراده فيقال : لشرذمة قليلة ، كما أفرد فى قوله (كم من فئة قليلة) ليدل بجمعه على تناهيهم فى القلة ، لكن يبق النظر فى أن هذا السريق الوجوه المذكورة على ماهى عليه ، أو يسقط منها شيئاً ويخلفه ، فتأمله والله الموفق .

القليل على أقلة وقلل [١] . ويجوز أن يريد بالقلة : الذلة والقماءة ، ولا يريد قلة العدد . والمعنى : أنهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ، ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا ، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور ، فإذا خرج علينا خارج ، سارعنا إلى حسم فساده ؛ وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن ، لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه . وقرئ : حذرون وحاذرون وحادرون [٢] ، بالدال غير المعجمة . فالحذر : اليقظ ، والحاذر : الذى يجدد حذره . وقيل : المؤدى فى السلاح ، وإنما يفعل ذلك حذرا واحتياطا لنفسه . والحادر : السمين القوى . قال :

أُحِبُّ الصَّبِيَّ السُّوءَ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ ... وَأُبْغِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهُوَ حَادِرُ [٣]

أراد أنهم أقوياء أشداء . وقيل مدججون فى السلاح ، قد كسبهم ذلك حدارة فى أجسامهم .

فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠)

وعن مجاهد : سماها كنوزا لأنهم لم ينفقوا منها فى طاعة الله . والمقام : المكان ، يريد : المنازل الحسنة والمجالس البهية . وعن الضحاك : المنابر . وقيل السرر فى الحجال [٤] ﴿كذلك﴾ يحتمل ثلاثة أوجه : النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذى وصفناه . والجر على أنه وصف لمقام ، أى : مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم . والرفع على أنه خبر لمبتدإ محذوف ، أى : الأمر كذلك . ﴿فأتبعوهم﴾ فلحقوهم . وقرئ . فاتبعوهم ﴿مشرقين﴾ داخلين فى وقت الشروق ، من شرقت الشمس شروقا إذا طلعت .

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّآ إِنَّ

(١) قوله «وقد يجمع القليل على أقلة وقلل» فى الصحاح : مثل سرير وسرر . (ع)

(٢) قوله «وقرئ حذرون وحاذرون وحادرون» فى الصحاح : وقرئ : وإنا لجميع حاذرون . وحذرون ، وحذرون ، أيضاً بضم الذال ، حكاه الأخفش . ومعنى «حاذرون» متأهبون . وفيه : آد الرجل ، أى قوى ، من الأداة ، فهو مؤد بالهمز ، أى : شاك فى السلاح . وفيه آديت للسفر فأنا مؤد له ، إذا كنت متهيئا له . (ع)

(٣) الحادر : القوى الشديد ، أو الشجاع الباسل ، أى : إن مدار حب الولد على حب أمه ، لا على حسن أوصافه وضمير «أبغضه» عائد على الصبي بدون وصفه ، لكن هذه شيمة المنهمك فى حب النساء .

(٤) قوله «وقيل السرر فى الحجال» السر : الجماع ، والحجال : جمع حجلة وهى بيت العروس يزين بالثياب والأسرة والستور ، كذا فى الصحاح . (ع)

مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

﴿سيهدين﴾ طريق النجاة من إدراكهم وإضرارهم . وقرئ ، فلما تراءت الفئتان . إنا لمدّرِكون : بتشديد الدال وكسر الراء ، من ادّرك الشيء إذا تتابع ففنى . ومنه قوله تعالى (بل ادارك علمهم فى الآخرة) قال الحسن : جهلوا علم الاخرة . وفى معناه بيت الحماسة :

أَبَعْــــدَ بَنِي أُمِّي الَّذِينَ تَتَابَعُوا أُرَجِّي الْحَيَاةَ أَمْ مِنَ الْمَوْتِ أَجْزَعُ [1]

والمعنى : إنا لمتتابعون فى الهلاك على أيديهم ، حتى لا يبقى منا أحد . الفرق : الجزء المتفرق منه . وقرئ : كل فلق . والمعنى واحد . والطود : الجبل العظيم [2] المنطاد فى السماء ﴿وأزلفنا ثم﴾ حيث انفلق البحر ﴿الآخرين﴾ قوم فرعون ، أى : قربناهم من بنى إسرائيل : أو أدنينا بعضهم من بعض ، وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد ، أو قدمناهم إلى البحر . وقرئ : وأزلقنا ، بالقاف ، أى : أزللنا أقدامهم . والمعنى : أذهبنا عزهم ، كقوله :

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَقَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا وَذُبْيَانَ إِذْ زَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النَّعْلُ [3]

---

(١) أبعد بنى أمى الذين تتابعوا أرجى حياة أم من الموت أجزع
ثمانية كانوا ذؤابة قومهم بهم كنت أعطى ماأشاء وأمنع
أولئك إخوان الصفاء رزئتهم وما الكف إلا أصبع ثم أصبع

لأبى الحناك البراء ربعى الفقعسى ، والهمزة للاستفهام الانكارى ، والمراد التحسر والتحزن ، وتتابعوا أى انقرضوا واحداً بعد واحد . أرجى : أى أرتجى حياة أم أجزع من الموت ، أى : لاأفعل ذلك بعدهم وقال : بنى أمى ، لأن المقام مقام رقة ورحمة ، فهم ثمانية كانوا رؤساء قومهم ، كالذؤابة الرأس ، وهى شعرها الذى يتحرك حولها ، فهو تشبيه بليغ ، ثم قال : كنت بهم أفعل ماأريد من الاعطاء والمنع . ويجوز بناء الفعلين للمجهول ، فالمعنى : كنت بهم أنال ماأشاء وأكفى شر ماأشاء ، ورزأته أصبته فى ماله . ورزأته ماله . ورزأتهم : مبنى للمجهول ، أى : نقصنى الدهر إياهم وأخذهم منى ، فلا قوة لى بعدهم ، كما أن الكف إذا فقدت أصابعها بطلت قوتها ؛ لأن بطشها ليس إلا بالأصابع منتظمة مرتبة ، فهم لى كالأصابع للكف .

(٢) قوله «والطود الجبل العظيم المنطاد فى السماء» فى الصحاح «طود فى الجبال» : مثل طوف وطوح . والمطاود مثال المطاوح . (ع)

(٣) لزهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف . وعبس وذبيان كلاهما اسم قبيلة . يقول : تداركتماهما تين

ويحتمل أن يجعل الله طريقهم فى البحر على خلاف ما جعله لبنى إسرائيل يبسا فيزلقهم فيه . عن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بنى إسرائيل وبين آل فرعون ، فكان يقول لبنى إسرائيل : ليلحق آخركم بأولكم . ويستقبل القبط فيقول : رويدكم يلحق آخركم . فلما انتهى موسى إلى البحر قال له مؤمن آل فرعون ـ وكان بين يدى موسى : أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون ؟ قال : أمرت بالبحر ولا يدرى موسى ما يصنع ، فأوحى الله تعالى إليه : أن اضرب بعصاك البحر . فضربه فصار فيه اثنا عشر طريقا : لكل سبط طريق . وروى أنّ يوشع قال : يا كليم الله ، أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا ؟ قال موسى : ههنا . فخاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا . وروى أنّ موسى قال عند ذلك : يا من كان قبل كل شيء ، والمكوّن لكل شيء ، والكائن بعد كل شيء . ويقال : هذا البحر هو بحر القلزم . وقيل : هو بحر من وراء مصر ، يقال له : أساف ﴿إن فى ذلك لآية﴾ أية آية ، وآية لا توصف ، وقد عاينها الناس وشاع أمرها فيهم ، وما تنبه عليها أكثرهم ، ولا آمن بالله . وبنو إسرائيل : الذين كانوا أصحاب موسى المخصوصين بالإنجاء قد سألوه بقرة يعبدونها ، واتخذوا العجل ، وطلبوا رؤية الله جهرة ﴿وإنّ ربك لهو العزيز﴾ المنتقم من أعدائه ﴿الرحيم﴾ بأوليائه .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠)
قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١)

كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ؛ ولكنه سألهم ليريهم أنّ ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شيء ، كما تقول للتاجر : ما مالك ؟ وأنت تعلم أنّ ماله الرقيق ، ثم تقول له : الرقيق جمال وليس بمال . فإن قلت : ﴿ما تعبدون﴾ سؤال عن المعبود فحسب ، فكان القياس أن يقولوا : أصناما ، كقوله تعالى (ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو) ، (ماذا قال ربكم قالوا الحق) ، (ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً) . قلت : هؤلاء قد جاءوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين ، فاشتملت على جواب إبراهيم ، وعلى ما قصدوه من إظهار ما فى نفوسهم من الابتهاج والافتخار . ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم نعبد ﴿فنظلّ لها عاكفين﴾ ولم يقتصروا على زيادة نعبد وحده . ومثاله أن تقول لبعض الشطار : ما تلبس فى بلادك ؟ فيقول :

ـــ القبيلتين بالصلح بينهما ودفع ديات قتلاهم ، وقد ثل : أى هدم عرشها . وهذا تمثيل لذهاب عزهم وفناء دولتهم . وزلت النعل بالقدم : زلقت عن مقرها ، وهذا أيضاً تمثيل لاختلال أمرهم وفساد رأيهم . وفى البيت شبه الطباق ، حيث أن الأولى أتاها العذاب من فوق رؤسها ، والثانية : أتاها من تحت أرجلها

ألبس البرد الأتحمى [1] ، فأجرّ ذيله بين جوارى الحى . وإنما قالوا : نظل ،لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل .

قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾

لابد فى ﴿يسمعونكم﴾ من تقدير حذف المضاف ، معناه : هل يسمعون دعاءكم . وقرأ قتادة : يسمعونكم ، أى : هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم ؟ وهل يقدرون على ذلك ؟ وجاء مضارعا مع إيقاعه فى إذ على حكاية الحال الماضية . ومعناه : استحضروا الأحوال الماضية التى كنتم تدعونها فيها ، وقولوا هل سمعو أو أسمعوا قط . وهذا أبلغ فى التبكيت .

قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

لما أجابوه بجواب المقلدين لآبائهم قال لهم : رقوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهى عبادة الأقدمين الأولين من آبائكم ، فإن التقدم والأولية لا يكون برهاناً على الصحة ، والباطل لا ينقلب حقا بالقدم ، وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له ، ومعنى العداوة قوله تعالى (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) ولأنّ المغرى على عبادتها أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان ، وإنما قال ﴿عدوّ لى﴾ تصويراً للمسألة فى نفسه ، على معنى : أنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو ، فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه ، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أوّلا وبنى عليها تدبير أمره ، لينظروا فيقولوا : مانصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه ، ليكون أدعى لهم إلى القبول ، وأبعث على الاستماع منه . ولو قال : فإنه عدوّ لكم لم يكن بتلك المثابة ، ولأنه دخل فى باب من التعريض . وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح ؛ لأنه يتأمّل فيه ،

(١) قوله «البرد الأتحمى» فى الصحاح «الأتحمي» : ضرب من البرود . (ع)

فربما قاده التأمل إلى التقبل . ومنه ما يحكى عن الشافعىّ رضى الله تعالى عنه أنّ رجلا واجهه بشىء فقال : لو كنت بحيث أنت ، لاحتجت إلى أدب ، وسمع رجل ناسا يتحدثون فى الحجر فقال : ماهو ببيتى ولا بيتكم . والعدوّ والصديق : يجيئان فى معنى الوحدة والجماعة . قال :

وَقَـــوْمٍ عَلَىَّ ذَوِى مِـئْرَةٍ أَرَاهُمْ عَدُوًّا وَكَانُوا صَدِيقًا (١)

ومنه قوله تعالى (وهم لكم عدوّ) شبها بالمصادر للموازنة ، كالقبول والولوع ، والحنين والصهيل ﴿إلا رب العالمين﴾ استثناء منقطع ، كأنه قال : ولكن رب العالمين ﴿فهو يهدين﴾ يريد أنه حين أتمّ خلقه ونفخ فيه الروح ، عقب ذلك هدايته المتصلة التى لا تنقطع إلى كلّ مايصلحه ويعنيه ، وإلا فمن هداه إلى أن يغتذى بالدم فى البطن امتصاصا ، ومن هداه إلى معرفة الثدى عند الولادة ، وإلى معرفة مكانه ، ومن هداه لكيفية الارتضاع ، إلى غير ذلك من هدايات المعاش والمعاد ، وإنما قال ﴿مرضت﴾ دون «أمرضنى» لأنّ كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان فى مطاعمه ومشاربه (٢) وغير ذلك . ومن ثم قالت الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى : ماسبب آجالكم ؟ لقالوا : التخم . وقرئ : خطاياى ، والمراد : مايندر منه من بعض الصغائر ؛ لأنّ الأنبياء معصومون مختارون على العالمين . وقيل : هى قوله (إنى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم) وقوله لسارة : هى أختى . وما هى إلا معاريض كلام ، وتخييلات للكفرة ، وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار . فإن قلت : إذا لم يندر منهم إلا الصغائر وهى

---

(١) المرة : القوة ، وشدة الجدال . ويروى : ذوى مبرة ، أى : عداوة أوغمر أوشدة . والعدو والصديق يجيئان للمذكر والمؤنث والمثنى والجمع . يقول : ورب قوم أصحاب قوة على ، أراهم اليوم أعداء وكانوا أصدقاء .

(٢) قال محمود : «إنما أضاف المرض إلى نفسه لأن كثيراً منه بتفريط الانسان فى مطعمه ومشربه» قال أحمد : والذى ذكره غير الزمخشرى أن السر فى إضافة المرض إلى نفسه التأدب مع الله تعالى بتخصيصه بنسبة الشفاء الذى هو نعمة ظاهرة إليه تعالى ، ولعل الزمخشرى إنما عدل عن هذا لأن إبراهيم عليه السلام قد أضاف الأماتة إلى الله تعالى وهى أشد من المرض ، فلم يثبت عنده المعنى المذكور ، ولكن المعنى الذى أبداه الزمخشرى أيضا فى المرض ينكسر بالموت ، فان المرض كما يكون بسبب تفريط الانسان فى نفسه ، كذلك الموت الناشىء عن سبب هذا المرض الذى يكون بتفريط الانسان وقد أضافه إلى الله تعالى . ويمكن أن يفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض فى مقتضى الأدب : بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر ، وحكم عام لايخص ، ولا كذلك المرض . فكم من معافى منه قد بغته الموت ، فالتأسى بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاء فيسوغ فى الأدب نسبته إلى الله تعالى . وأما المرض فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض ، كان بلاء محققاً فاقتضى العلو فى الأدب مع الله تعالى أن ينسبه الانسان إلى نفسه باعتبار ذلك السبب الذى لايخلو منه ، ويؤيد ذلك أن كل ماذكره مع المرض أخبر عن وقوعه بتاً وجزما ؛ لأنه أمر لابد منه . وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا ، أورده مقرونا بشرط إذا ، فقال (وإذا مرضت) وكان ممكنا أن يقول : والذى يمرضنى فيشفينى كما قال فى غيره ، فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة إلا لذلك ، والله أعلم .

تقع مكفرة ، فما له أثبت لنفسه خطيئة أو خطايا وطمع أن تغفر له ؟ قلت : الجواب ما سبق لى : أن استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم ، وهضم لأنفسهم ، ويدل عليه قوله (أطمع) ولم يجزم القول بالمغفرة . وفيه تعليم لأممهم ، وليكون لطفا لهم فى اجتناب المعاصى والحذر منها ، وطلب المغفرة مما يفرط منهم . فإن قلت : لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين ، وإنما تغفر فى الدنيا ؟ قلت : لأنّ أثرها يتبين يومئذ ، وهو الآن خفى لا يعلم .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)

الحكم : الحكمة ، أو الحكم بين الناس بالحق . وقيل : النبوّة ؛ لأنّ النبي ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله . والإلحاق بالصالحين : أن يوفقه لعمل ينتظم به فى جملتهم ، أو يجمع بينه وبينهم فى الجنة . ولقد أجابه حيث قال (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) . والإخزاء : من الخزى وهو الهوان . ومن الخزاية [١] وهى الحياء . وهذا أيضا من نحو استغفارهم مما علموا أنه مغفور وفى ﴿يبعثون﴾ ضمير العباد ، لأنه معلوم . أو ضمير الضالين . وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه [٢] ، يعنى : ولا تخزنى يوم يبعث الضالون وأبى فيهم ﴿إلا من أتى الله﴾ إلا حال من أتى الله ﴿بقلب سليم﴾ وهو من قولهم :

* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ * [٣]

وما ثوابه إلا السيف . وبيانه أن يقال لك : هل لزيد مال وبنون ؟ فتقول : ماله وبنوه : سلامة قلبه ، تريد نفى المال والبنين عنه ، وإثبات سلامة القلب له بدلا عن ذلك . وإن شئت حملت الكلام على المعنى وجعلت المال والبنين فى معنى الغنى ، كأنه قيل : يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم ؛ لأن غنى الرجل فى دينه بسلامة قلبه ، كما أن غناه فى دنياه بماله وبنيه .

(١) قوله «ومن الخزاية» لعله : أو من . (ع)

(٢) قوله «أو ضمير الضالين ، وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه» لعله عطف على المعنى ، كأنه قال : ويحتمل أنه ضمير الضالين ... الخ . (ع)

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٦٠ فراجعه إن شئت اه مصححه .

ولك أن تجعل الاستثناء منقطعا . ولا بد لك مع ذلك من تقدير المضاف وهو الحال ، والمراد بها سلامة القلب ، وليست هى من جنس المال والبنين ، حتى يؤول المعنى إلى أن المال والبنين لا ينفعان ، وإنما ينفع سلامة القلب . ولو لم يقدر المضاف ، لم يتحصل للاستثناء معنى . وقد جعل (من) مفعولا لينفع ، أى : لا ينفع مال ولا بنون ، إلا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه فى طاعة الله ، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع . ويجوز على هذا (إلا من أتى الله بقلب سليم) من فتنة المال والبنين . ومعنى سلامة القلب : سلامته من آفات الكفر والمعاصى ، ومما أكرم الله تعالى به خليله ونبه على جلالة محله فى الإخلاص : أن حكى استثناءه هذا حكاية راض بإصابته فيه . ثم جعله صفة له فى قوله (وإنّ من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم) ومن بدع التفاسير : تفسير بعضهم السليم باللديغ من خشية الله . وقول آخر : هو الذى سلم وسلم وأسلم وسالم واستسلم . وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين ، حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليدهم آباءهم الأقدمين ، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا أن يكون حجة . ثم صوّر المسألة فى نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا ، فعظم شأنه وعدّد نعمته ، من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته ، مع ما يرجى فى الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، وابتهل اليه ابتهال الأوابين . ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾

الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويغتبطون بأنهم المحشورون إليها ، والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم ، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها : قال الله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) وقال (فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا): يجمع عليهم الغموم كلها والحسرات ، فتجعل النار بمرأى منهم ، فيهلكون غما فى كل لحظة ،

ويوبخون على إشراكهم ، فيقال لهم : أين آلهتكم ؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم . أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم : لأنهم وآلهتهم وقود النار ، وهو قوله ﴿ فكبكبوا فيها هم ﴾ أى الآلهة ﴿ والغاوون ﴾ وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم . والكبكبة : تكرير الكب ، جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها ، اللهم أجرنا منها ياخير مستجار ﴿ وجنود إبليس ﴾ شياطينه ، أو متبعوه من عصاة الجن والإنس .

قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم . ويجوز أن يجرى ذلك بين العصاة والشياطين . والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم : رؤساؤهم وكبراؤهم ، كقوله (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) وعن السدى : الأولون الذين اقتدينا بهم . وعن ابن جريج : إبليس ، وابن آدم القاتل ، لأنه أول من سنّ القتل وأنواع المعاصى ، ﴿ فما لنا من شافعين ﴾ كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ﴿ ولا صديق ﴾ كما نرى لهم أصدقاء ، لأنه لا يتصادق فى الآخرة إلا المؤمنون . وأما أهل النار فبينهم التعادى والتباغض ، قال الله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) أو : فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء ، لأنهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله ، وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس . أو أرادوا أنهم وقعوا فى مهلكة علموا أنّ الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم ، فقصدوا بنفيهم نفى ما يتعلق بهم من النفع ؛ لأنّ ما لا ينفع حكمه حكم المعدوم . والحميم من الاحتمام ، وهو الاهتمام ، وهو الذى يهمه ما يهمك . أو من الحامة بمعنى الخاصة ، وهو الصديق الخاص. فإن قلت : لم جمع الشافع ووحد الصديق ؟ قلت : لكثرة الشفعاء فى العادة وقلة الصديق [1] . ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده

---

(١) قال محمود : « إنما جمع الشافع ووحد الصديق لكثرة الشفعاء فى العادة إذا نزل بإنسان خطب من يعرفه ومن لا يعرفه وأما الصديق فقليل » قال أحمد : العجب أن الصديق يقع على الواحد وعلى الجمع ، فما الدليل على إرادة الإفراد ؟ ثم لو كان المراد الإفراد لكان أعم ؛ لأنه فى سياق النفى ، فينفى الواحد فما زاد عليه إلى ما لا نهاية له ، والله أعلم

لشفاعته، رحمة له وحسبة، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة. وأما الصديق - وهو الصادق فى ودادك الذى يهمه ما أهمك - فأعز من بيض الأنوق [١]. وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: اسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق: الجمع. الكرة: الرجعة إلى الدنيا. ولو فى مثل هذا الموضع فى معنى التمنى، كأنه قيل: فليت لنا كرة. وذلك لما بين معنى «لو» و «ليت» من التلاقى فى التقدير. ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب، وهو: لفعلنا كيت وكيت.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)

القوم: مؤنثة، وتصغيرها قويمة. ونظير قوله ﴿المرسلين﴾ والمراد نوح عليه السلام: قولك: فلان يركب الدواب ويلبس البرود، وماله إلا دابة وبرد [٢]. قيل: أخوهم؛ لأنه كان منهم، من قول العرب: يا أخا بنى تميم، يريدون: يا واحدا منهم. ومنه بيت الحماسة:

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ... فِى النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا [٣]

كان أمينا فيهم مشهورا بالأمانة، كمحمد صلى الله عليه وسلم فى قريش ﴿وأطيعون﴾ فى نصحى

---

(١) قوله «فأعز من بيض الأنوق» فى الصحاح: الأنوق - على فعول -: طائر وهو الرخمة. (ع)

(٢) قال محمود: «المراد نوح، كما تقول: فلان يركب الدواب ويلبس البرود، وماله إلا دابة وبرد» قال أحمد: لا حاجة إلى تأويل الجمع بالواحد ههنا مع القطع بأن من كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل لأنه ما من نبى إلا ومستند صدقه المعجزة الدالة على الصدق فقد كذبوا كل من استند صدقه إلى دليل المعجزة، وكذلك الاشارة بقوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله) لأن التفرقة بينهم توجب تكذيب الكل وتصديق واحد يوجب تصديق الكل والله أعلم.

(٣)
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا

لقريط بن أنيف من قبيلة بلعنبر، أغار عليه ناس من بنى شيبان فأخذوا منه ثلاثين بعيرا، فاستنجد قومه فلم ينجدوه، فاستغاث ببنى مازن فركبوا معه وأطردوا له مائة بعير من بنى شيبان، وحرسوه إلى قومه، فمدحهم ووبخ قومه. والناجذ: السن بين الضرس والناب. وقيل: ضرس العقل. وقيل: الضرس مطلقا. والزرافة - بالفتح والضم -: الجماعة من الناس، وبها سميت الدابة المعروفة. والوحدان - بالضم -: جمع واحد. وشبه الشر بأسد يكشر عن أنيابه على طريق المكنية وأثبت له الناجذين تخييلا. يقول: بنو مازن شجعان: إذا ظهر الشر واشتد فزعوا إليه جماعات ومنفردين، فاستعار الطيران لذلك على طريق التصريحية. أو شبههم بالطيور فى السرعة والانتشار على طريق الكناية والطريق تخييل، لا يسألون صاحبهم دليلا على ما قاله حين يناديهم برفع صوته فى الملمات.

لكم وفيما أدعوكم إليه من الحق ﴿عليه﴾ على هذا الأمر، وعلى ما أنا فيه، يعنى: دعاءه ونصحه ومعنى (فاتقوا الله وأطيعون): فاتقوا الله فى طاعتى، وكرره ليؤكده عليهم ويقرره فى نفوسهم، مع تعليق كل واحدة منهما بعلة، جعل علة الأول كونه أمينا فيما بينهم، وفى الثانى حسم طمعه عنهم.

قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

وقرئ: وأتباعك، جمع تابع، كشاهد وأشهاد. أو جمع تبع، كبطل وأبطال. والواو للحال. وحقها أن يضمر بعدها «قد» فى: واتبعك. وقد جمع الأرذل على الصحة وعلى التكسير فى قوله (الذين هم أراذلنا) والرذالة والنذالة: الخسة والدناءة. وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا. وقيل كانوا من أهل الصناعات الدنية [1] كالحياكة والحجامة. والصناعة لا تزرى بالديانة، وهكذا كانت قريش تقول فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومازالت أتباع الأنبياء كذلك، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم. ألا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قال: ضعفاء الناس وأراذلهم قال: مازالت أتباع الأنبياء كذلك [2]. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: هم الغاغة [3]. وعن عكرمة: الحاكة والأساكفة. وعن مقاتل: السفلة.

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾

﴿وماعلمى﴾ وأى شىء علمى؟ والمراد: انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم لله واطلاعه على سر أمرهم وباطنه. وإنما قال هذا لأنهم قد طعنوا - مع استرذالهم - فى إيمانهم، وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة، وإنما آمنوا هوى وبديهة، كما حكى الله عنهم فى قوله (الذين هم أراذلنا بادى الرأى) ويجوز أن يتغابى لهم نوح عليه السلام. فيفسر قولهم الأرذلين، بما هو الرذالة عنده، من سوء الأعمال وفساد العقائد، ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم، ثم يبنى جوابه على ذلك فيقول: ما علىّ إلا اعتبار الظواهر، دون التفتيش عن أسرارهم والشق عن قلوبهم، وإن كان لهم عمل سيئ، فالله محاسبهم ومجازيهم عليه، وما أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجاز ﴿لو تشعرون﴾ ذلك، ولكنكم تجهلون فتنساقون مع الجهل حيث سيركم، وقصد بذلك رد اعتقادهم وإنكار

(١) قوله «الصناعات الدنية» لعله: الدنيئة. كعبارة النسفى. (ع)

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس عن أبى سفيان بلفظ: وسألتك ضعفاء الناس اتبعوه أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم وكذلك أتباع الرسل. قلت: رواه بلفظ «أراذلهم».

(٣) قوله «هم الغاغة» لعله الصاغة. وفى الخازن: قال ابن عباس: يعنى القافة. (ع)

أن يسمى المؤمن رذلا ، وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسبا ، فإن الغنى غنى الدين ، والنسب نسب التقوى ﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ يريد ليس من شأنى أن أتبع شهواتكم وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صح إيمانهم طمعا فى إيمانكم وما علىّ إلا أن أنذركم إنذاراً بينا بالبرهان الصحيح الذى يتميز به الحق من الباطل ، ثم أنتم أعلم بشأنكم .

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

ليس هذا بإخبار بالتكذيب ، لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم ، ولكنه أراد أنى لا أدعوك عليهم لما غاظونى وآذونى ، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ، ولأنهم كذبونى فى وحيك ورسالتك . فاحكم ﴿بينى وبينهم﴾ والفتاحة : الحكومة . والفتاح : الحاكم ، لأنه يفتح المستغلق كما سمى فيصلا ، لأنه يفصل بين الخصومات . الفلك : السفينة . وجمعه فلك : قال الله تعالى : وترى الفلك فيه مواخر : فالواحد بوزن قفل . والجمع بوزن أسد ، كسروا فعلا على فعل ، كما كسروا فعلا على فعل ، لأنهما أخوان فى قولك : العرب والعرب ، والرشد والرشد . فقالوا : أسد وأسد ، وفلك وفلك . ونظيره : بعير هجان ، وإبل هجان . ودرع دلاص . ودروع دلاص ، فالواحد بوزن كناز ، والجمع بوزن كرام . والمشحون : المملوء . يقال : شحنها عليهم خيلا ورجالا .

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾

قرئ : بكل ريع ، بالكسر والفتح : وهو المكان المرتفع . قال المسيب بن علس :

فِي الآلِ يَرْفَعُهَا وَيَخْفِضُهَا رِيعٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ سَحْلُ (١)

ومنه قولهم : كم ريع أرضك ؟ وهو ارتفاعها . والآية : العلم وكانوا ممن يهتدون بالنجوم فى أسفارهم . فاتخذوا فى طرقهم أعلاما طوالا فعبثوا بذلك ، لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم . وعن مجاهد : بنوا بكل ريع بروج الحمام (٢) . والمصانع : مآخذ الماء . وقيل : القصور المشيدة والحصون ﴿لعلكم تخلدون﴾ ترجون الخلود فى الدنيا . أو تشبه حالكم حال من يخلد . وفى حرف أبىّ : كأنكم . وقرئ تخلدون بضم التاء مخففاً ومشدداً ﴿وإذا بطشتم﴾ بسوط أو سيف كان ذلك ظلماً وعلواً ، وقيل : الجبار الذى يقتل ويضرب على الغضب . وعن الحسن : تبادرون تعجيل العذاب ، لا تتثبتون متفكرين فى العواقب .

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

بالغ فى تنبيههم على نعم الله ، حيث أجملها ثم فصلها مستشهداً بعلمهم ، وذلك أنه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال (٣) ﴿أمدكم بما تعلمون﴾ ثم عددها عليهم وعرفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته ، وأنه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة ، فهو قادر على الثواب والعقاب ، فاتقوه . ونحوه قوله تعالى ﴿ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) . فإن قلت : كيف قرن البنين بالأنعام ؟ قلت : هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها .

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا

---

(١) للمسيب بن علس . والآل : هو السراب . وقيل : الآل : ما فى طرفى النهار وما فى وسطه السراب . والريع بالكسر : الطريق والمرتفع من الأرض . والسحل : نوع أبيض من ثياب اليمن ، ولعل الضمير للظعائن ، أى : هى فى الآل . أو فى وقته : يرفعها تارة ويخفضها أخرى ، ريع : أى طريق مرتفع تارة ، ومنخفض أخرى . أو مكان عال ترتفع بصعوده وتنخفض بالهبوط منه ، يلوح : أى يظهر من بعد ، كأنه ثياب بيض .

(٢) قال محمود : « كانوا يهتدون فى أسفارهم بالنجوم ، فاتخذوا فى طرقهم أعلاما فعبثوا بذلك . إذ النجوم فيها غنية عنها . وقيل : المراد القصور المشيدة ، وقيل : بروج الحمام » قال أحمد : وتأويلها على القصور أظهر ، وقد ورد ذم ذلك على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم ، حيث وصف الكائنين آخر الزمان بأنهم يتطاولون فى البنيان ، وما أحسن قول مالك رضى الله عنه : ولا يصلى الامام على شىء أرفع مما عليه أصحابه ، كالدكاك تكون مرتفعة فى المحراب ارتفاعا كبيراً ، لأنهم يعبثون ، فعبر عن ترفعهم إلى المحراب على سبيل التكبر ومطاولتهم المأمومين بالعبث ، كتعبير هود صلوات الله عليه وسلامه عن ترفع قومه فى البنيان بالعبث . وأما تأويل الآية على اتخاذهم الأعلام فى الطرقات وقد كانت لهم بالنجوم كفاية ، ففيه بعد ، من حيث أن الحاجة تدعو إلى ذلك لغيم مطبق وما يجرى مجراه . ولو وضع هذا فى زماننا اليوم لهذا المقصد لم يكن عبثا ، والله أعلم .

(٣) قوله « حين قال » لعله : حيث قال . (ع)

خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

فإن قلت : لو قيل ﴿ أوعظت ﴾ أو لم تعظ ، كان أخصر . والمعنى واحد . قلت : ليس المعنى بواحد وبينهما فرق ، لأنّ المراد : سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ ، أم لم تكن أصلا من أهله ومباشريه ، فهو أبلغ فى قلة اعتدادهم بوعظه ، من قولك : أم لم تعظ . من قرأ : خلق الأوّلين بالفتح ، فمعناه : أنّ ما جئت به اختلاق الأوّلين وتخرّصهم ، كما قالوا : أساطير الأوّلين . أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية ، نحيا كما حيوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا حساب . ومن قرأ : خلق ، بضمتين ، وبواحدة . فمعناه . ما هذا الذى نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم، كانوا يدينونه ويعتقدونه، ونحن بهم مقتدون . أو ما هذا الذى نحن عليه من الحياة والموت الإعادة لم يزل عليها الناس فى قديم الدهر أو ما هذا الذى جئت به من الكذب إلا عادة الأولين ، كانوا يلفقون مثله ويسطرونه .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

﴿ أتتركون ﴾ يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلدين فى نعيمهم لا يزالون عنه ، وأن يكون تذكيرا بالنعمة فى تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك ، مع الأمن والدعة ﴿ فيما ههنا ﴾ فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم ، ثم فسره بقوله ﴿ فى جنات وعيون ﴾ وهذا أيضا إجمال ثم تفصيل . فإن قلت : لم قال ﴿ ونخل ﴾ بعد قوله : فى جنات ، والجنة تتناول النخل أوّل شىء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج ، حتى أنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخيل ؛ كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل . قال زهير:

* ...... تَسْقِي جَنَّةً سَحَقَا * (١)

قلت : فيه وجهان : أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر ، تنبيها على انفراده عنها بفضله عليها ، وأن يريد بالجنات : غيرها من الشجر ؛ لأنّ اللفظ يصلح لذلك ، ثم يعطف عليها النخل . الطلعة : هى التى تطلع من النخلة ، كنصل السيف فى جوفه شماريخ القنو . والقنو : اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه . والهضيم : اللطيف الضامر ، من قولهم : كشح هضيم ، وطلع إناث النخل فيه لطف ، وفى طلع الفحاحيل جفاء ، وكذلك طلع البرنى ألطف من طلع اللون (٢) . فذكرهم نعمة الله فى أن وهب لهم أجود النخل وأنفعه : لأنّ الإناث ولادة التمر ، والبرنى : أجود التمر وأطيبه ويجوز أن يريد أن نخيلهم أصابت جودة المنابت وسعة الماء . وسلمت من العاهات ، فحملت الحمل الكثير ، وإذا كثر الحمل هضم ، وإذا قل جاء فاخرا . وقيل : الهضيم : اللين النضيج ، كأنه قال : ونخل قد أرطب ثمره . قرأ الحسن : وتنحتون ، بفتح الحاء . وقرئ : فرهين ، وفارهين . والفراهة : الكيس والنشاط . ومنه : خيل فرهة ، استعير لامتثال الأمر ، وارتسامه طاعة الآمر المطاع . أو جعل الأمر مطاعا على المجاز الحكمى ، والمراد الآمر . ومنه قولهم : لك علىّ إمرة مطاعة . وقوله تعالى (وأطيعوا أمرى) . فإن قلت : ما فائدة قوله ﴿ولا يصلحون﴾ ؟ قلت : فائدته أنّ فسادهم فساد مصمت ليس معه شىء من الصلاح ، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح .

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤)

المسحر : الذى سحر كثيراً حتى غلب على عقله . وقيل : هو من السحر الرئة ،(٣) وأنه بشر .

قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦)

الشرب : النصيب من الماء ، نحو السقى والقيت ، للحظ من السقى والقوت . وقرئ بالضم . روى أنهم قالوا : نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة ، فتلد سقبا (٤) ، فقعد صالح يتفكر ،

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٠٥ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله «وكذلك طلع البرنى ألطف من طلع اللون» البرنى : ضرب من التمر . واللون : الدقل ، والدقل : أردأ التمر ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله «الرئة» لعله : بمعنى الرئة . (ع)

(٤) قوله «فتلد سقبا» فى الصحاح «السقب» : الذكر من ولد الناقة . (ع)

فقال له جبريل عليه السلام : صل ركعتين وسل ربك الناقة ، ففعل ، فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقبا مثلها فى العظم . وعن أبى موسى : رأيت مصدرها فإذا هو ستون ذراعا . وعن قتادة : إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ، ولهم شرب يوم لا تشرب فيه الماء ﴿بسوء﴾ بضرب أو عقر أو غير ذلك . عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب ، لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد .

فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

وروى أن مسطعا ألجأها إلى مضيق فى شعب ، فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت ؛ ثم ضربها قدار . وروى أنّ عاقرها قال : لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين ، فكانوا يدخلون على المرأة فى خدرها فيقولون : أترضين ؟ فتقول : نعم ، وكذلك صبيانهم . فإن قلت : لم أخذهم العذاب وقد ندموا ؟ قلت : لم يكن ندمهم ندم تائبين . ولكن ندم خائفين أن يعاقبوا على العقر عقابا عاجلا ، كمن يرى فى بعض الأمور رأيا فاسداً ويبنى عليه ، ثم يندم ويتحسر كندامة الكسعي[1] أو ندموا ندم تائبين ولكن فى غير وقت التوبة ، وذلك عند معاينة العذاب . وقال الله تعالى ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيآت ... الآية﴾ . وقيل : كانت ندامتهم على ترك الولد ، وهو بعيد . واللام فى العذاب : إشارة إلى عذاب يوم عظيم .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾

أراد بالعالمين : الناس . أى : أتأتون من بين أولاد آدم عليه السلام ـ على فرط كثرتهم وتفاوت أجناسهم وغلبة إناثهم على ذكورهم فى الكثرة ـ ذكرانهم ؛ كأن الإناث قد أعوزتكم .

(١) قوله «كندامة الكسعي» الكسع : حي من اليمن . والكسعي : رجل منهم ربى تبعة حتى أخذ منها قوسا فرمي عنها الوحش ليلا وظن أنه أخطأ ، فكسر القوس . فلما أصبح رأى ما أصابه من الصيد فندم ، وضرب به المثل من قال :

ندمت ندامة الكسعي لما رأت عيناه ما صنعت يداه

كذا في الصحاح . (ع)

أو أتأتون أنتم ـ من بين من عداكم من العالمين ـ الذكران ، يعنى أنكم يا قوم لوط وحدكم مختصون بهذه الفاحشة . والعالمون على هذا القول : كل ما ينكح من الحيوان ﴿من أزواجكم﴾ يصلح أن يكون تبييناً لما خلق [١] ، وأن يكون للتبعيض ، ويراد بما خلق : العضو المباح منهن . وفى قراءة ابن مسعود : ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم ، وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم . العادى : المتعدّى فى ظلمه ، المتجاوز فيه الحدّ ، ومعناه : أترتكبون هذه المعصية على عظمها ، بل أنتم قوم عادون فى جميع المعاصى ، فهذا من جملة ذاك ، أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان ، حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة .

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾

﴿لئن لم تنته﴾ عن نهينا وتقبيح أمرنا ﴿لتكونن﴾ من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا وطردناه من بلدنا ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوإ حال : من تعنيف به ، واحتباس لأملاكه [٢] . وكما يكون حال الظلمة إذا أجلوا بعض من يغضبون عليه، وكما كان يفعل أهل مكة بمن يريد المهاجرة .

---

(١) قال محمود : « يحتمل أن يكون من أزواجكم بيانا لما خلق ، وأن يكون للتبعيض ويراد به العضو المباح منهن . وفى قراءة ابن مسعود : ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم ، فكأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم » قال أحمد : وقد أشار الزمخشرى بهذه الاشارة الاستدلال بهذه الآية على حظر إتيان المرأة فى غير المأتى ، وبيانه أن « من » لو كانت بيانا لكان المعنى حينئذ على ذمهم بترك الأزواج ، ولا شك أن ترك الأزواج مضموم إلى إتيان الذكران ، وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران ، لا أن ترك الأزواج وحده منكر ، ولو كان الأمر كذلك لكان النصب فى الثانى متوجها على الجمع ، وكان إما الأفصح أو المتعين ، وقد اجتمعت العامة على القراءة به مرفوعا ، ولا يتفقون على ترك الأفصح إلى ما لا مدخل له فى الفصاحة أو فى الجواز أصلا ، فلما وضح ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد ، فيتعين حمل « من » على البعضية ، فيكون المنكر عليهم أمرين كل واحد منهما مستقل بالانكار ، أحدهما : إتيان الذكران . والثانى : مجانبة إتيان النساء فى المأتى رغبة فى إتيانهن فى غيره ، وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأول ، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير ، والله الموفق .

(٢) قال محمود : « أى من جملة من أخرجناه ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال من تعنيف به واحتباس لأملاكه وأشباه ذلك » قال أحمد : وكثيراً ما ورد فى القرآن خصوصا فى هذه الصورة العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة ، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع ، كقول فرعون (لأجعلنك من المسجونين) وقولهم (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) وقولهم (لتكونن من المرجومين) وقوله (إنى لعملكم من القالين) وقوله تعالى فى غيرها (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) وكذلك (ذرنا نكن مع القاعدين) وأمثاله كثيرة ، والسر فى ذلك والله أعلم : أن التعبير بالفعل إنما يفهم وقوعه خاصة ، وأما التعبير بالصفة ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع ، فانه يفهم أمراً زائداً على وقوعه ، وهو أن الصفة المذكورة كالسمة للموصوف ثابتة العلوق به ، كأنها لقب ، وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة . واعتبر ذلك لو قلت : رضوا بأن يتخلفوا ، لما كان فى ذلك مزيد على الاخبار بوقوع التخلف منهم لا غير . وانظر إلى =

قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

و﴿من القالين﴾ أبلغ من أن يقول : إنى لعملكم قال ، كما تقول : فلان من العلماء ، فيكون أبلغ من قولك : فلان عالم ؛ لأنك تشهد له بكونه معدوداً فى زمرتهم ، ومعروفة مساهمته لهم فى العلم . ويجوز أن يريد : من الكاملين فى قلاكم . والقلى : البغض الشديد ، كأنه بغض يقلى الفؤاد والكبد . وفى هذا دليل على عظم المعصية ، والمراد : القلى من حيث الدين والتقوى ، وقد تقوى همة الدّين فى دين الله حتى تقرب كراهته للمعاصى من الكراهة الجبلية ﴿مما يعملون﴾ من عقوبة عملهم وهو الظاهر . ويحتمل أن يريد بالتنجية : العصمة . فإن قلت : فما معنى قوله ﴿فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً﴾ ؟ قلت : معناه أنه عصمه وأهله من ذلك إلا العجوز ، فإنها كانت غير معصومة منه ، لكونها راضية به ومعينة عليه ومحرشة ، والراضى بالمعصية فى حكم العاصى . فإن قلت : كان أهله مؤمنين ولولا ذلك لما طلب لهم النجاة ، فكيف استثنيت الكافرة منهم : قلت الاستثناء إنما وقع من الأهل وفى هذا الاسم لها معهم شركة بحق الزواج وإن لم تشاركهم فى الإيمان . فإن قلت : ﴿فى الغابرين﴾ صفة لها ، كأنه قيل : إلا عجوزاً غابرة ، ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم[1] قلت : معناه إلا عجوزاً مقدّراً غبورها . ومعنى الغابرين فى العذاب والهلاك : غير الناجين . قيل : إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة . والمراد بتدميرهم : الائتفاك بهم ، وأمّا الإمطار : فعن قتادة : أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم . وعن ابن زيد : لم يرض بالائتفاك حتى أتبعه مطراً من حجارة . وفاعل ﴿ساء : مطر المنذرين﴾ ولم يرد

= المساق وهو قوله (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) كيف ألحقهم لقباً رديئاً ، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف ، حتى صارت له لقبا لاصقاً به . وهذا الجواب عام فى جميع ما يرد عليك من أمثال ذلك ، فتأمله واقدره قدره ، والله الموفق للصواب .

(١) قال محمود : «والمجرور صفة لها ، كأنه قيل : إلا عجوزا غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم . قلت : معناه إلا عجوزا مقدرا غبورها ، أى : فى الهلاك والعذاب» قال أحمد : وإن تعجلت برفع القاعدة الممهدة آنفا ، فاعلم أن السر الذى اقتضى العدول عن أن يقول مثلا : إلا عجوزاً غابرة إلى ما ذكر فى المتلوّ : هو أن المذكور فى التلاوة يقتضى الاسجال عليها بأنها من أمة موسومين بهذه السمة من الهلاك كما قدمته الآن ، فهو أبلغ من مجرد وصفها بالغبور ، والله أعلم .

بالمنذرين قوما بأعيانهم ، إنما هو للجنس ، والمخصوص بالذم محذوف ، وهو مطرهم .

كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠)

قرئ أصحاب الأيكة بالهمزة و بتخفيفها ، وبالجر على الإضافة وهو الوجه . ومن قرأ بالنصب وزعم أن ليكة بوزن ليلة : اسم بلد ، فتوهم قاد إليه خط المصحف ، حيث وجدت مكتوبة فى هذه السورة وفى سورة صۤ بغير ألف . وفى المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه ، وإنما كتبت فى هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ ، كما يكتب أصحاب النحو لان ، ولولى : على هذه الصورة لبيان لفظ المخفف ، وقد كتبت فى سائر القرآن على الأصل ، والقصة واحدة ، على أن ليكة اسم لا يعرف . وروى أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف ، وكان شجرهم الدوم . فإن قلت : هلا قيل : أخوهم شعيب ، كما فى سائر المواضع ؟ قلت : قالوا : إن شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة . وفى الحديث : إن شعيباً أخا مدين ، أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة .

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤)

الكيل على ثلاثة أضرب : واف ، وطفيف ، وزائد . فأمر بالواجب الذى هو الإيفاء ، ونهى عن المحرم الذى هو التطفيف ، ولم يذكر الزائد ، وكأن تركه عن الأمر والنهى : دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا عليه . قرئ : بالقسطاس مضموماً ومكسوراً وهو الميزان وقيل : القرسطون ، فإن كان من القسط وهو العدل ــ وجعلت العين مكررة ــ فوزنه فعلاس ، وإلا فهو رباعى . وقيل : وهو بالرومية العدل . يقال : بخسته حقه ، إذا نقصته إياه . ومنه قيل للمكس : البخس ، وهو عام فى كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم ، وفى كل ملك أن لا يغصب عليه مالكه ولا يتحيف منه ، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفا شرعياً . يقال : عثا فى الأرض وعثى وعاث ، وذلك نحو قطع الطريق ، والغارة ، وإهلاك الزروع ، وكانوا يفعلون ذلك مع

توليهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك . وقرئ : الجبلة ، بوزن الأبلة . والجبلة [١]، بوزن الخلقة . ومعناهنّ واحد ، أى : ذوى الجبلة ، وهو كقولك : والخلق الأوّلين .

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)

فإن قلت : هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها فى قصة ثمود ؟ قلت : إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان : كلاهما مناف للرسالة عندهم : التسحير والبشرية ، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً ولا يجوز أن يكون بشراً ، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً ، ثم قرر بكونه بشراً مثلهم . فإن قلت : إن المخففة من الثقيلة ولامها كيف تفرقتا على فعل الظنّ وثانى مفعوليه ؟ قلت : أصلهما أن يتفرقا على المبتدإ والخبر ، كقولك : إن زيد لمنطلق ، فلما كان البابان ـ أعنى باب كان وباب ظننت ـ من جنس باب المبتدإ والخبر ، فعل ذلك فى البابين فقيل : إن كان زيد لمنطلقاً ، وإن ظننته لمنطلقا .

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧)

قرئ : كسفا بالسكون والحركة ، وكلاهما جمع كسفة ، نحو : قطع وسدر . وقيل : الكسف والكسفة ، كالريع والريعة ، وهى القطعة . وكسفه : قطعه . والسماء : السحاب ، أو المظلة . وما كان طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب . ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلا أن يطلبوه . والمعنى : إن كنت صادقا أنك نبىّ ، فادع الله أن يسقط علينا كسفا من السماء .

قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨)

﴿ربى أعلم بما تعملون﴾ يريد : أنّ الله أعلم بأعمالكم وبما تستوجبون عليها من العقاب ، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل ، وإن أراد عقابا آخر فإليه الحكم والمشيئة

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩)

(١) قوله « الأبلة والجبلة » فى الصحاح « الأبلة » بالضم وتشديد اللام : الفدرة من التمر . وفيه « الفدرة » : القطعة من اللحم إذا كانت مجتمعة . وفيه أيضا : الجبلة الخلقة . ومنه قوله تعالى (والجبلة الأولين) وقرأها الحسن بالضم اه (ع)

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

﴿فأخذهم﴾ الله بنحو ما اقترحوا من عذاب الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب، وإن أرادوا المظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم. يروى أنه حبس عنهم الريح سبعا، وسلط عليهم الومد[١] فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيما، فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا. وروى أن شعيباً بعث إلى أمتين: أصحاب مدين، وأصحاب الأيكة، فأهلكت مدين بصيحة جبريل، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة. فإن قلت: كيف كرر فى هذه السورة فى أول كل قصة وآخرها ما كرر؟ قلت: كل قصة منها كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما فى غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلى بحق فى أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بما اختتمت به، ولأن فى التكرير تقريراً للمعانى فى الأنفس، وتثبيتا لها فى الصدور. ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن له فى القلب وأرسخ فى الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان، ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذناً، أو يفتق ذهناً، أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل، أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ.

وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾

﴿وإنه﴾ وإن هذا التنزيل، يعنى: ما نزل من هذه القصص والآيات. والمراد بالتنزيل: المنزل. والباء فى (نزل به الروح) ونزل به الروح، على القراءتين للتعدية. ومعنى (نزل به الروح) جعل الله الروح نازلا ﴿به على قلبك﴾ أى: حفظكه وفهمك إياه، وأثبته فى قلبك إثبات مالا ينسى، كقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى) ﴿بلسان عربى﴾ إما أن يتعلق بالمنذرين،

(١) قوله «الومد» شدة حر الليل، كما فى الصحاح. (ع)

فيكون المعنى : لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة : هود ، وصالح ، وشعيب ، وإسمعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وإما أن يتعلق بنزل ، فيكون المعنى : نزله باللسان العربي[1] لتنذر به ؛ لأنه لو نزله باللسان الأعجمي ، لتجافوا عنه أصلا ، ولقالوا : ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به وفي هذا الوجه : أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك ، لأنك تفهمه ويفهمه قومك . ولو كان أعجمياً لكان نازلا على سمعك دون قلبك ، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها ، وقد يكون الرجل عارفا بعدّة لغات ، فإذا كلم بلغته التي لقنها أولا ونشأ عليها وتطبع بها ، لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت ، وإن كلم بغير تلك اللغة وإن كان ماهرا بمعرفتها كان نظره أولا في ألفاظها ثم في معانيها ، فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين ﴿ وإنه ﴾ وإن القرآن ـ يعني ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية . وقيل : إن معانيه فيها . وبه يحتج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية حيث قيل (وإنه لفي زبر الأولين) لكون معانيه فيها . وقيل : الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك في (أن يعلمه) وليس بواضح .

أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾

وقرئ : يكن ، بالتذكير . وآية . بالنصب على أنها خبره ، و(أن يعلمه) هو الاسم . وقرئ . تكن ، بالتأنيث ، وجعلت (آية) اسما ، و(أن يعلمه) خبراً ، وليست كالأولى لوقوع النكرة اسما والمعرفة خبراً ، وقد خرج لها وجه آخر ليتخلص من ذلك ، فقيل : في (تكن) ضمير القصة ، و(آية أن يعلمه) جملة واقعة موقع الخبر . ويجوز على هذا أن يكون (لهم آية) هي جملة الشأن ، (وأن يعلمه) بدلا عن آية . ويجوز مع نصب الآية تأنيث (تكن) كقوله تعالى (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا) ومنه بيت لبيد :

---

(١) عاد كلامه . قال : واعلم أن الآيات الأول كالمقدمات لهذه الآيات ، فان الله تعالى أبان أنه منزل بلغتهم التي لا يعرفون غيرها ، وعلى لسان عربي لو أشكل عليهم فهم شيء منه لكان البيان عنده عتيداً ناجزاً ، وما نزله على لسان أعجمي قد يعتذرون بأنه لا يفهمهم ما استغلق على أفهامهم من معانيه ، فقد أزاح أعذارهم ودحض حججهم ، وسلكه في قلوبهم ومكنهم من فهمه أشد التمكين ، ولكن لم يوفقهم بل قدر عليهم أنهم لا يؤمنون» قال أحمد : يعني بقوله قدر عليهم أنهم لا يؤمنون علم أنهم لا يؤمنون ، لأن التقدير عنده العلم . والحق أن الله تعالى أراد منهم أنهم لا يؤمنون . وهذا تقرير لجواب عن سؤال مقدر ، وهو أن يقال : قلوبهم نائية عن قبول الحق ، لا يلجها بوجه ولا بسبب ، فكيف يسلك الحق فيها ؟ فيجاب عنه بهذا الجواب ، والله أعلم .

فَمَضَى وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً مِنْهُ إِذَا هِيَ عَرَّدَتْ أَقْدَامَهَا (١)

وقرئ : تعلمه ، بالتاء . (وعلماء بنى إسرائيل) : عبد الله بن سلام وغيره . قال الله تعالى (وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) . فإن قلت : كيف خط فى المصحف (علمواء) بواو قبل الألف ؟ قلت : خط على لغة من يميل الألف إلى الواو وعلى هذه اللغة كتبت الصلوة والزكوة والربوا .

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)

الأعجم : الذى لا يفصح وفى لسانه عجمة واستعجام . والأعجمى مثله ، إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد . وقرأ الحسن : الأعجميين . ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه ، قالوا له : أعجم وأعجمى ، شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين ، وقالوا لكل ذى صوت من البهائم والطيور وغيرها : أعجم ، قال حميد :

* وَلَا عَرَبِيًّا شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمَا * (٢)

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ١٣ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢)
وما هاج هذا الشوق إلا حمامة — دعت ساق حر ترحة وتندما
فغنت على غصن عشاء فلم تدع — لنائحة فى نوحها متندما
عجبت لها أنى يكون غناؤها — فصيحا ولم تغفر بمنطقها فما
ولم أر مثلى شاقه صوت مثلها — ولا عربيا شاقه صوت أعجما

لحميد بن ثور ، وقد رحلت صاحبته سلمى ، يقول : وما حرك هذا الشوق وبعثه فتوقد بقلبى ، إلا حمامة دعت ذكرها وساق حر : مركب إضافى ، وهو ذكر القمرى ، أوذكر الحمام مطلقا . والحر - بالضم - : فرخ الحمامة . والترحة : الحزن ، ضد الفرحة . والتندم : التأسف على مافات . ويروى «ترنما» وهو تحسين الصوت ، وهما نصب على الحالية ، أى : حزينة ومتأسفة . أوذات ترحة وذات تندم . وعشا : نصب على الظرف . فلم تدع : أى تترك لنائحة فى غنائها ، متندما : أى تندما أوشيئا يتندم به أوفيه . ويجوز أن ضمير نوحها للنائحة . وأنى بمعنى : كيف .

(سلكناه) أدخلناه ومكناه . والمعنى : إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربى بلسان عربى مبين ، فسمعوا به وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز لايعارض بكلام مثله ، وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على أن البشارة بإنزاله وتحلية المنزل عليه وصفته فى كتبهم ، وقد تضمنت معانيه وقصصه ، وصحّ بذلك أنها من عند الله وليست بأساطير كما زعموا ، فلم يؤمنوا به وجحدوه ، وسموه شعراً تارة ، وسحراً أخرى ، وقالوا : هو من تلفيق محمد وافترائه ﴿ولو نزلناه على بعض﴾ الأعاجم الذى لا يحسن العربية ، فضلا أن يقدر على نظم مثله ﴿فقرأه عليهم﴾ هكذا فصيحاً معجزاً متحدّى به ، لكفروا به كما كفروا ، ولتمحلوا لجحودهم عذراً ، ولسموه سحراً ، ثم قال ﴿كذلك سلكناه﴾ أى مثل هذا السلك سلكناه فى قلوبهم ، وهكذا مكناه وقرّرناه فيها . وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فيها ، فكيفما فعل بهم وصنع وعلى أى وجه دبر أمرهم ، فلا سبيل أن يتغيروا عماهم عليه من جحوده وإنكاره ، كما قال (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) . فإن قلت : كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته ؟ قلت : أراد به الدلالة على تمكنه مكذبا فى قلوبهم أشدّ التمكن ، وأثبته فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه وفطروا . ألا ترى إلى قولهم : هو مجبول على الشح ، يريدون : تمكن الشحّ فيه ؛ لأنّ الأمور الخلقية أثبت من العارضة ، والدليل عليه أنه أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه [1] ، وهو قوله (لا يؤمنون به) . فإن قلت : ماموقع ﴿لا يؤمنون به﴾ من قوله (سلكناه فى قلوب المجرمين) ؟ قلت : موقعه منه موقع الموضح والملخص ؛ لأنه مسوق لثباته مكذبا مجحوداً فى قلوبهم ، فأتبع ما يقرر هذا المعنى من أنهم لايزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد . ويجوز أن يكون حالا ، أى : سلكناه فيها غير مؤمن به . وقرأ الحسن : فتأتيهم ، بالتاء يعنى : الساعة . وبغتة ، بالتحريك . وفى حرف أبىّ : ويروه بغتة . فإن قلت : مامعنى التعقيب فى قوله (فيأتيهم بغتة . . . . . . فيقولوا) ؟ قلت : ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته

ـــــ أومن أى . والاستفهام تعجبى . والفصيح : البين الخالى عن اللكنة والتعقيد . وفغرفاه يفغره ، من باب نفع : فتحه ، أى : والحال أنها لم تفتح فها بنطقها ، وإنما يخرج صوتها من صدرها . وشاقه : تسبب له فى الشوق . والعربى : المفصح . والأعجم : الذى لا يفصح من الحيوان ، نقلته العرب لمن لايفهمون كلامه ولا يفقهون مراده ، وربما ألحقوه ياء النسب للمبالغة فى شدة العجمة وبينه وبين عربى طباق التضاد .

(١) قال محمود : «إن قلت : كيف أسند السلك بصيغة التكذيب إلى ذاته ؟ قلت : المراد الدلالة على تمكنه مكذبا فى قلوبهم أشد التمكن ، فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه ، بدليل أنه أسند إليهم ترك الايمان به على عقبه فى قوله : لايؤمنون به» قال أحمد : ومايتقم من بقائه على ظاهره إلا أنه التوحيد المحض والايمان الصرف ، وأن الله تعالى خلق قلوبهم نائية عن قبول الحق . والقدرية لايبلغون فى التوحيد إلى هذا الحد ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وسؤال النظرة فيه في الوجود ، وإنما المعنى ترتبها في الشدّة ، كأنه قيل : لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب فما هو أشدّ منها وهو لحوقه بهم مفاجأة ، فما هو أشدّ منه وهو سؤالهم النظرة . ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه : إن أسأت مقتك الصالحون فمقتك الله ، فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أنّ مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين ، وإنما قصدك إلى ترتيب شدّة الأمر على المسيء ، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين ، فما هو أشدّ من مقتهم : وهو مقت الله ، وترى ثمّ يقع في هذا الأسلوب فيحل موقعه ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ تبكيت لهم بإنكار وتهكم ، ومعناه : كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه من جنس ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال طرفة عين فلا يجاب إليها . ويحتمل أن يكون هذا حكاية توبيخ يوبخون به عند استنظارهم يومئذ ، و (يستعجلون) على هذا الوجه حكاية حال ماضية . ووجه آخر متصل بما بعده ، وذلك أنّ استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم ، وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن ، فقال تعالى: أفبعذابنا يستعجلون أشرا وبطرا واستهزاء واتكالا على الأمل الطويل ، ثم قال : هب أنّ الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم ، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم . وعن ميمون بن مهران : أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له : عظني ، فلم يزده على تلاوة هذه الآية . فقال ميمون : لقد وعظت فأبلغت . وقرئ : يمتعون ، بالتخفيف .

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

﴿منذرون﴾ رسل ينذرونهم ﴿ذكرى﴾ منصوبة بمعنى تذكرة . إمّا لأن «أنذر» و«ذكر» متقاربان ، فكأنه قيل : مذكرون تذكرة . وإمّا لأنها حال من الضمير في منذرون أي ، ينذرونهم ذوي تذكرة . وإمّا لأنها مفعول له ؛ على معنى : أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة . أو مرفوعة على أنها خبر مبتدإ محذوف ، بمعنى : هذه ذكرى . والجملة اعتراضية . أو صفة بمعنى : منذرون ذوو ذكرى . أو جعلوا ذكرى لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها . ووجه آخر : وهو أن يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولا له . والمعنى : وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ، ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم ، فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وما كنا ظالمين﴾ فنهلك قوما غير ظالمين . وهذا الوجه عليه المعوّل . فإن قلت: كيف عزلت الواو عن الجملة بعد «إلا» ، ولم تعزل عنها في قوله (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم)؟

قلت : الأصل :عزل الواو لأن الجملة صفة لقرية، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف كما فى قوله (سبعة وثامنهم كلبهم).

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

كانوا يقولون : إنّ محمداً كاهن وما يتنزل عليه من جنس مايتنزل به الشياطين على الكهنة ، فكذبوا بأنّ ذلك مما لا يتسهل للشياطين ولا يقدرون عليه ؛ لأنهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء . وقرأ الحسن : الشياطون . ووجهه أنه رأى آخره كآخر يبرين وفلسطين ، فتخير بين أن يجرى الإعراب على النون ، وبين أن يجريه على ماقبله ، فيقول : الشياطين والشياطون . كما تخيرت العرب بين أن يقولوا . هذه يبرون ويبرين . وفلسطون وفلسطين . وحقه أن تشتقه من الشيطوطة وهى الهلاك كما قيل له الباطل . وعن الفرّاء : غلط الشيخ فى قراءته «الشياطون» ظنّ أنها النون التى على هجاءين ، فقال النضر بن شميل : إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤبة ، فهلا جاز أن يحتجّ بقول الحسن وصاحبه ـ يريد : محمد ابن السميفع ـ مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ به إلا وقد سمعا فيه .

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾

قد علم أنّ ذلك لا يكون ، ولكنه أراد أن يحرّك منه لازدياد الإخلاص والتقوى . وفيه لطف لسائر المكلفين ، كما قال (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل) ، فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ، فيه وجهان : أحدهما أن يؤمر بإنذار الأقرب فالأقرب من قومه ، ويبدأ فى ذلك بمن هو أولى بالبداءة ، ثم بمن يليه . وأن يقدم إنذارهم على إنذار غيرهم ، كما روى عنه عليه السلام : أنه لما دخل مكة قال : «كل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين ، وأول ماأضعه ربا العباس»[1] ، والثانى : أن يؤمر بأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة ، ولا يحابيهم فى الإنذار والتخويف . وروى أنه صعد الصفا ـ لما نزلت ـ فنادى الأقرب فالأقرب فخذاً فخذاً ، وقال : يا بنى عبد المطلب ، يا بنى هاشم، يا بنى عبد مناف ، ياعباس عمّ النبىّ

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل فى صفة الحج وعزاه الطيبى للترمذى من رواية عمرو بن الأحوص وليس هو عنده بتمامه .

يا صفية عمة رسول الله ، إنى لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلونى من مالى ماشئتم [١] » . وروى أنه جمع بنى عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلا : الرجل منهم يأكل الجذعة ، ويشرب العس [٢] على رجل شاة وقعب من لبن ، فأكلوا وشربوا حتى صدروا ، ثم أنذرهم فقال : « يابنى عبد المطلب ، لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدّقىّ ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » ، وروى أنه قال « يابنى عبد المطلب ، يابنى هاشم ، يابنى عبد مناف ، افتدوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم شيئاً » ثم قال : « ياعائشة بنت أبى بكر ، وياحفصة بنت عمر ، ويافاطمة بنت محمد ، وياصفية عمة محمد ، اشترين أنفسكنّ من النار فإنى لا أغنى عنكنّ شيئاً [٣] » .

وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾

الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه ، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه ، فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلا فى التواضع ولين الجانب . ومنه قول بعضهم :

---

(١) أخرجه ابن حبان من حديث أبى هريرة قال « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) فقال : يابنى عبد مناف يابنى هاشم ، لاأغنى عنكم من الله شيئا » وروى مسلم من حديث عائشة « لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا فقال : يافاطمة بنت محمد ياصفية بنت عبد المطلب ، يابنى عبد المطلب : لاأملك لكم من الله شيئاً . سلونى من مالى ماشئتم » وروى ابن مردويه من حديث أبى أمامة قال « لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يابنى هاشم اشتروا أنفسكم من النار . فانى لاأملك لكم من الله شيئاً ، ياعائشة بنت أبى بكر وياحفصة بنت عمر ، ويا أم سلمة ويافاطمة بنت محمد ، ويا أم الزبير عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشتروا أنفسكم من النار فأنى لاأملك لكم من الله شيئا » .

(٢) قوله « ويشرب العس » هو القدح العظيم ، كما فى الصحاح . (ع)

(٣) أما أوله فأخرجه ابن إسحاق فى المغازى والبيهقى فى الدلائل من طريقه من رواية ابن عباس مطولا . وأخرجه البزار وأبو نعيم فى الدلائل من طريق عباد بن عبدالله الأسدى عن على قال « لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : اصنع لى رجل شاة على صاع من طعام . وأعد قعبا من لبن . ففعلت . ثم قال لى : اجمع لى بنى عبد المطلب فجمعتهم وهم يومئذ أربعون رجلا . فوضعت الطعام بينهم ، فأكلوا حتى شبعوا وإن فيهم لمن يأكل الجذعة ويشرب العس ، ثم جئت بالعس فشربوا حتى رووا » وأما بقيته فمتفق عليه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال « لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا ، فنادى : ياصباحاه فاجتمعوا إليه فقال : يابنى عبد مناف ، يابنى عبد المطلب ، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : ماجربنا عليك كذبا . قال : فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبالك ؟ ألهذا جمعتنا فنزلت هذه السورة (تبت يدا أبى لهب وتب) » .

وَأَنْتَ الشَّهِيرُ بِخَفْضِ الْجَنَاحِ فَلَا تَكُ فِي رَفْعِهِ أَجْدَلَا [1]

ينهاه عن التكبر بعد التواضع . فإن قلت : المتبعون للرسول هم المؤمنون ، والمؤمنون هم المتبعون للرسول ، فما قوله ﴿لمن اتبعك من المؤمنين﴾ ؟ قلت : فيه وجهان : أن يسميهم قبل الدخول فى الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك ، وأن يريد بالمؤمنين المصدقين بألسنتهم ، وهم صنفان : صنف صدّق واتبع رسول الله فيما جاء به ، وصنف ماوجد منه إلا التصديق فحسب ، ثم إما أن يكونوا منافقين أو فاسقين ، والمنافق والفاسق لايخفض لهما الجناح . والمعنى : من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم ، يعنى : أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك ، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره .

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)

﴿وتوكل﴾ على الله يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم . والتوكل : تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره . وقالوا : المتوكل من إن دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله . فعلى هذا إذا وقع الإنسان فى محنة ثم سأل غيره خلاصه ، لم يخرج من حد التوكل ؛ لأنه لم يحاول دفع مانزل به عن نفسه بمعصية الله . وفى مصاحف أهل المدينة والشام : فتوكل ، وبه قرأ نافع وابن عامر ، وله محملان فى العطف : أن يعطف على (فقل) . أو (فلا تدع) . ﴿على العزيز الرحيم﴾ على الذى يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته . ثم أتبع كونه رحيما على رسوله ماهو من أسباب الرحمة : وهو ذكر ما كان يفعله فى جوف الليل من قيامه للتهجد ، وتقلبه فى تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ؛ ليطلع عليهم من حيث لايشعرون ، ويستبطن سر أمرهم ، وكيف يعبدون الله ، وكيف يعملون لآخرتهم ، كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل ، طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر مايصنعون لحرصه عليهم وعلى مايوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات ، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله والتلاوة . والمراد بالساجدين : المصلون . وقيل : معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة . وتقلبه فى الساجدين : تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه

---

(١) شبه بطائر يرق لأفراخه ويخفض إليها جناحه رحمة لها ؛ فاستعار خفض الجناح لذلك على سبيل التمثيل ؛ ورشحه بقوله : «فلا تك فى رفعه أجدلا » أى شبيها بالأجدل ؛ وهو الصقر فى القسوة والجفوة . أوفى التكبر والترفع ويجوز أن خفض الجناح : كناية عما يلزمه من الرقة والرحمة واللين ، ورفعه : كناية عن القسوة والجفوة ؛ وبين الخفض والرفع طباق التضاد .

وسجوده وقعوده إذا أمّهم . وعن مقاتل : أنه سأل أبا حنيفة رحمه الله ، هل تجد الصلاة فى الجماعة فى القرآن ؟ فقال : لا يحضرنى ، فتلا له هذه الآية . ويحتمل أنه : لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين فى كفاية أمور الدين ﴿إنه هو السميع﴾ لما تقوله ﴿العليم﴾ بما تنويه وتعمله . وقيل : هو تقلب بصره فيمن يصلى خلفه ، من قوله صلى الله عليه وسلم : «أتموا الركوع والسجود ، فوالله إنى لأراكم من خلف ظهرى إذا ركعتم وسجدتم»[1] . وقرئ : ويقلبك .

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾

﴿كل أفاك أثيم﴾ هم الكهنة والمتنبئة ، كشقّ ، وسطيح ، ومسيلمة ، وطليحة ﴿يلقون السمع﴾ هم الشياطين ، كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يسمعون إلى الملإ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أوليائهم من أولئك ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ فيما يوحون به إليهم ؛ لأنهم يسمعونهم مالم يسمعوا . وقيل : يلقون إلى أوليائهم السمع أى المسموع من الملائكة . وقيل : الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون وحيهم إليهم . أو يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس ، وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا إليهم ، وترى أكثر ما يحكمون به باطلا وزوراً . وفى الحديث : «الكلمة يتخطفها الجنىّ فيقرّها فى أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة»[2] والقرّ : الصبّ . فإن قلت : كيف دخل حرف الجرّ على «من» المتضمنة لمعنى الاستفهام والاستفهام له صدر الكلام ؟ ألا ترى إلى قولك : أعلى زيد مررت ؟ ولا تقول : على أزيد مررت ؟ قلت : ليس معنى التضمن أن الاسم دل على معنيين معاً : معنى الاسم ، ومعنى الحرف . وإنما معناه : أن الأصل أمن ، فحذف حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حذفه ، كما حذف من «هل» ، والأصل : أهل . قال :

* أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ الْقَاعِ ذِى الأَكَمِ *[3]

---

(١) متفق عليه من حديث قتادة عن أنس بمعناه . واللفظ المذكور عند النسائى واتفقا عليه من حديث أبى هريرة بلفظ «هل ترون قبلتى ههنا : فوالله ما يخفى على ركوعكم ولا سجودكم ، وإنى لأراكم من وراء ظهرى» .

(٢) متفق عليه من حديث عائشة أتم منه .

(٣) سائل فوارس يربوع بشدتنا أهل رأونا بسفح القاع ذى الأكم

لزيد الخيل الذى سماه النبى صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وسائل : فعل أمر بمعنى اسألهم وراجعهم فى السؤال ، لتتلقن حقيقة الحال . ويربوع : أبو حى ، والباء بمعنى عن ، أى : سلهم عن قوتنا ، ويروى : =

فإذا أدخلت حرف الجرّ على «من» فقدّر الهمزة قبل حرف الجرّ فى ضميرك، كأنك تقول: أعلى من تنزّل الشياطين، كقولك: أعلى زيد مررت. فإن قلت: (يلقون) ما محله؟ قلت: يجوز أن يكون فى محل النصب على الحال، أى: تنزل ملقين السمع، وفى محل الجرّ صفة لكل أفاك؛ لأنه فى معنى الجمع. وأن لا يكون له محل بأن يستأنف، كأن قائلا قال: لم تنزل على الأفاكين؟ فقيل: يفعلون كيت وكيت. فإن قلت: كيف قيل (وأكثرهم كاذبون) بعد ما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك؟ قلت: الأفاكون هم الذين يكثرون الإفك، ولا يدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قلّ من يصدق منهم فيما يحكى عن الجنى: وأكثرهم مفتر عليه. فإن قلت: (وإنه لتنزيل رب العالمين)، (وما تنزلت به الشياطين)، (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) لم فرق بينهنّ وهنّ أخوات؟ قلت: أريد التفريق بينهنّ بآيات ليست فى معناهنّ، ليرجع إلى المجيء بهنّ وتطرية ذكر ما فيهنّ كرّة بعد كرّة: فيدل بذلك على أن المعنى الذى نزلن فيه من المعانى التى اشتدت كراهة الله لخلافها. ومثاله: أن يحدّث الرجل بحديث وفى صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية، فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه.

وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)

﴿والشعراء﴾ مبتدأ. و﴿يتبعهم الغاوون﴾ خبره: ومعناه: أنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح فى الأنساب، والنسيب بالحرم والغزل [1] والابتهار، ومدح من لا يستحق المدح، ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم ـ إلا الغاوون والسفهاء والشطار. وقيل: الغاوون: الراوون. وقيل: الشياطين،

= بشدتنا، بفتح الشين. يقال: شد على قرنه فى الحرب: حمل عليه، أى سلهم عن صولتنا عليهم، وجعل البصريون الباء بعد السؤال للسببية، لا بمعنى عن، والأصل فى الاستفهام الهمزة، ولذلك كان لها تمام التصدير فى الكلام، وأصل «هل» بمعنى «قد»، «ومن» لمن يفعل، «وما» لما لا يفعل. «ومتى» للزمان، وهكذا بقية الأدوات موضوعة لمعان غير الاستفهام، فليست عريقة فيه، بل الهمزة مقدرة قبلها، ولذلك تظهر فى بعض الأحيان كما فى البيت، ويدخل عليها حروف الجر، ويضاف إليها غيرها: لكن لكثرة الاستعمال فيه صارت الهمزة نسيا منسيا فى حيز الاهمال. والاستفهام هنا للتقرير، «وهل» بمعنى «قد»، وأنكر ذلك ابن هشام. ونقل عن السيرافى أن الرواية: أم هل، فأم بمعنى «بل» «وهل» للاستفهام: قال: وعلى صحة الأولى فهل مؤكدة للهمزة شذوذاً اه ويروى: فهل رأونا. ويجوز أن معناه: سلهم فقد رأونا. والسفح: السطح أو أصل الجبل المنسطح. والقاع المستوى من الأرض. والأكم ـ بالفتح ـ: واحده أكمة؛ وجمعه أكم بالضم، وهى التلول المرتفعة.

(١) قوله «والنسيب بالحرم والغزل» النسيب: أى التشبب. والغزل: محادثة النساء ومراودتهن. والابتهار: ادعاء الشيء كذبا، كذا فى الصحاح فى مواضع. (ع) •

وقيل: هم شعراء قريش: عبد الله بن الزبعرى، وهبيرة بن أبى وهب المخزومى، ومسافع بن عبد مناف، وأبو عزة الجمحىّ. ومن ثقيف: أمية ابن أبى الصلت. قالوا: نحن نقول مثل قول محمد ـ وكانوا يهجونه، ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم ـ وقرأ عيسى بن عمر: والشعراء، بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر. قال أبو عبيد: كان الغالب عليه حبّ النصب. قرأ: (حمالة الحطب). (والسارق والسارقة) و (سورة أنزلناها) [1] وقرئ: يتبعهم، على التخفيف. ويتبعهم، بسكون العين تشبيها «لبعه» بعضد».

ذكر الوادى والهيوم: فيه تمثيل لذهابهم فى كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو فى المنطق ومجاوزة حدّ القصد فيه، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحهم على حاتم، وأن يبهتوا البرىّ [2]، ويفسقوا التقى. وعن الفرزدق: أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الْخِتَامِ [3]

فقال: قد وجب عليك الحدّ. فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عنى الحدّ بقوله: (وأنهم يقولون ما لا يفعلون).

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعراً قالوه فى توحيد الله والثناء عليه، والحكمة والموعظة، والزهد والآداب الحسنة، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة وصلحاء الأمة،

(١) قوله «وسورة أنزلناها» لعل بعدها سقطا تقديره: بالنصب. (ع)
(٢) قوله «وأن يبهتوا البرى» أى يتهموا. (ع)
(٣) خرجن إلىّ لم يطمثن قبلى وهن أصح من بيض النعام
فبتن بجانبىّ مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

للفرزدق، يقول: خرج النسوة إلى من خدورهن حال كونهن لم يطمثن، أى لم يزل بكارتهن أحد قبلى، وأكد ذلك بقوله: وهن أصح من بيض النعام الذى يصان عادة عن الكسر، لئلا تذهب زينته، فبتن مطروحات عن يمينى وشمالى، وبت أفض: أفتح وأزيل بكارتهن الشبيهة بأغلاق الختام لسدها الفروج، والأغلاق جمع غلق كسبب، بمعنى الأقفال. والختام: ما يسد به فم الزجاجة ونحوها، فاضافتها إليه بيانية. أو من إضافة المسميات إلى الاسم كأعواد السواك. ويجوز أن الختام بمعنى المختوم وهو الفرج، ويمكن أن يراد بالأغلاق: جوانب البكارة المشتبكة بالفرج وشبه البكارات أو جوانبها بالأغلاق على طريق التصريح، ولما سمع سليمان بن عبد الملك ذلك، قال: قد وجب عليك الحد، فقال: قد درأه الله عنى بقوله: (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) فخلى سبيله.

وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون فيها بذنب ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة ، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم . قال الله تعالى (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب لقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وعن عمرو بن عبيد : أن رجلا من العلوية قال له : إن صدري ليجيش بالشعر ، فقال : فما يمنعك منه فيما لا بأس به ؟ والقول فيه : أن الشعر باب من الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام . وقيل : المراد بالمستثنين : عبدالله بن رواحة ، وحسان ابن ثابت ، والكعبان : كعب بن مالك ، وكعب بن زهير ؛ والذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافحون هجاة قريش . وعن كعب بن مالك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « اهجهم ، فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ عليهم من النبل » [1] وكان يقول لحسان : « قل وروح القدس معك » [2] . ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول ، ولا أنكى لقلوب المتأملين ولا أصدع لأكباد المتدبرين . وذلك قوله ﴿ وسيعلم ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ ، وقوله ﴿ الذين ظلموا ﴾ وإطلاقه . وقوله ﴿ أي منقلب ينقلبون ﴾ وإبهامه ، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضى الله عنهما حين عهد إليه [3] : وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدتها . وتفسير الظلم بالكفر تعليل [4] ، ولأن تخاف فتبلغ الأمن : خير من أن تأمن فتبلغ الخوف . وقرأ ابن عباس : أي منفلت ينفلتون . ومعناها : إن الذين ظلموا يطمعون أن ينفلتوا من عذاب

(١) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال « لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاوون) أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، ماذا ترى في الشعر ؟ فقال : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه . والذي نفس محمد بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل » قلت : وأخرجه من هذا الوجه وقال ابن سعد في الطبقات : أخبرنا عبد الوهاب أخبرنا ابن عوف عن ابن سيرين « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن مالك : هيه : فأنشده . فقال : « لهو أشد عليهم من وقع النبل » ولمسلم عن عائشة مرفوعا « اهجوا قريشاً فانه أشد عليها من رشق النبل » وللترمذي والنسائي من حديث ثابت عن أنس في أثناء حديث : فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « خل عنهم ياعمر ، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل » .

(٢) متفق عليه من حديث البراء . ولفظ النسائي : قال لحسان : اهج المشركين ، فان روح القدس معك » وللحاكم وابن مردويه من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم . قال يوم الأحزاب : « من يحمى أعراض المسلمين ؟ فقال حسان : أنا . قال : فقم اهجهم ، فان روح القدس سيعينك » .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق محمد بن عبد الرحمن بن المحبر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت « كتب أبي وصية فذكرها وفي آخرها : وإن تجر وتظلم فانى لاأعلم الغيب . وسيعلم الذين ظلموا ـ الآية » ورواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة أبي بكر عن الواقدى بأسانيد متعددة مطولا .

(٤) قوله « وتفسير الظلم بالكفر تعليل » لعله من علله بالشيء ، أي : لهاه به ، كما يعلل الصبي بشيء من الطعام يجتزأ به عن اللبن ، كما في الصحاح . (ع)

الله ، وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات وهو النجاة : اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها ؛ وعلم أن من عمل سيئة فهو من الذين ظلموا ، والله أعلم بالصواب .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام » (١)

ســـــورة النمل

مكية ، وهى ثلاث وتسعون آية ، وقيل أربع وتسعون

[نزلت بعد الشعراء]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣)

﴿ طس ﴾ قرئ بالتفخيم والإمالة ، و﴿ تلك ﴾ إشارة إلى آيات السورة والكتاب المبين : إما اللوح ، وإبانته : أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه إبانة . وإما السورة . وإما القرآن ، وإبانتهما : أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع ، وأن إعجازهما ظاهر مكشوف ، وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين : على سبيل التفخيم لها والتعظيم ، لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه . فإن قلت : لم نكر الكتاب المبين ؟ قلت : ليبهم بالتنكير فيكون أفخم له ، كقوله تعالى (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) . فإن قلت : ما وجه عطفه على القرآن إذا أريد به القرآن ؟ قلت : كما يعطف إحدى الصفتين على الأخرى فى نحو قولك : هذا فعل السخى والجواد الكريم . لأن القرآن هو المنزل المبارك المصدق لما بين يديه ، فكان حكمه حكم الصفات المستقلة بالمدح ، فكأنه قيل : تلك الآيات آيات المنزل المبارك آى

(١) رواه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب .

كتاب مبين . وقرأ ابن أبى عبلة : وكتاب مبين بالرفع على تقدير : وآيات كتاب مبين ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . فإن قلت : ما الفرق بين هذا وبين قوله : الـر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ؟ قلت : لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدّم والتأخر ، وذلك على ضربين : ضرب جار مجرى التثنية لا يترجح فيه جانب على جانب ، وضرب فيه ترجح ، فالأول نحو قوله تعالى (وقولوا حطة) ، (وادخلوا الباب سجدا) ومنـه ما نحن بصدده . والثانى : نحو قوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم) ، ﴿هدى وبشرى﴾ فى محل النصب أو الرفع ، فالنصّب على الحال ، أى : هادية ومبشرة ؛ والعامل فيهـا ما فى تلك من معنى الإشارة ، والرفع على ثلاثة أوجه ، على : هى هدى وبشرى ، وعلى البدل من الآيات ، وعلى أن يكون خبرا بعد خبر ، أى : جمعت أنها آيات ، وأنهـا هدى وبشرى . والمعنى فى كونها هدى للمؤمنين : أنها زائدة فى هداهم . قال الله تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) . فإن قلت ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ كيف يتصل بما قبله ؟ قلت : يحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول ، ويحتمل أن تتم الصلة عنده ويكون جملة اعتراضية ، كأنه قيل : وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة : هم الموقنون بالآخرة ، وهو الوجه . ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكرّر فيها المبتدأ الذى هو (هم) حتى صار معناها : وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأنّ خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق [1] .

---

(١) قال محمود : «كرر الضمير حتى صار معنى الكلام : ولا يوقن بالآخرة حق الايقان إلا هؤلاء الجامعون بين الايمان والعمل الصالح ، لأن خوف الآخرة يحملهم على تحمل المشاق ، قال أحمد : قد تقدم فى غير موضع اعتقاد أن إيقاع الضمير مبتدأ يفيد الحصر ، كما مر له فى قوله تعالى (هم ينشرون) أن معناه : لاينشر إلا هم ، وعد الضمير من آلات الحصر كما مر ليس ببين ، وقد بينا لمجيء الضمير فى سورة اقترب وجها سوى الحصر . وأما وجه تكراره ههنا ـ والله أعلم ـ فهو أنه لما كان أصل الكلام : وهم يوقنون بالآخرة ، ثم قدم المجرور على عامله عناية به فوقع فاصلا بين المبتدإ والخبر ، فأريد أن يلى المبتدأ خبره وقد حال المجرور بينهما ، فطرى ذكره ليليه الخبر ، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور ، حيث بقى على حاله مقدما ، ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها بعد مايوجب التطرية ، فأقرب منها أن الشاعر قال :

سل ذو عجل ذا وألحقنا بذا الـ ... ـشحم إنا قد مللناه بجـل

والأصل : وألحقنا بذا الشحم ، فوقع منتصف الرجز أو منتهاه ، على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل عند اللام وبنى الشاعر على أنه لابد عند المنتصف أو المنتهى من وقيفة ما ، فقدر بتلك الوقفة بعد أن بين المعرف وآلة التعريف فطراها ثانية ، فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكرر ولا كلمة واحدة ، سوى تقديره وقفة لطيفة لاغير . فتأمل هذا الفصل فانه جدير بالتأمل ، والله أعلم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾

فإن قلت : كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته ، وقد أسنده إلى الشيطان فى قوله (وزين لهم الشيطان أعمالهم) ؟ قلت : بين الإسنادين فرق ، وذلك أنّ إسناده إلى الشيطان حقيقة ، وإسناده إلى الله عز وجل[1] مجاز ، وله طريقان فى علم البيان . أحدهما : أن يكون من المجاز الذى يسمى الاستعارة . والثانى : أن يكون من المجاز الحكمىّ . فالطريق الأوّل : أنه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق ، وجعلوا إنعام الله بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وبطرهم وإيثارهم الروح والترفه ، ونفارهم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة ، فكأنه زين لهم بذلك أعمالهم . وإليه أشارت الملائكة صلوات الله عليهم فى قولهم (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر) والطريق الثانى : أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين ، فأسند إليه لأن المجاز الحكمىّ يصححه بعض الملابسات . وقيل : هى أعمال الخير التى وجب عليهم أن يعملوها : زينها لهم الله فعمهوا عنها وضلوا ، ويعزى إلى الحسن . والعمه : التحير والتردّد ، كما يكون حال الضال عن الطريق . وعن بعض الأعراب : أنه دخل السوق وما أبصرها قط ، فقال : رأيت الناس عمهين ، أراد : متردّدين فى أعمالهم وأشغالهم ﴿سوء العذاب﴾ القتل والأسر يوم بدر . و ﴿الأخسرون﴾ أشدّ الناس خسراناً ؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم ، فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله .

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

---

(١) قال محمود : « إن قلت كيف أسند التزيين إلى ذاته وقد أسنده إلى الشيطان فى قوله (وزين لهم الشيطان أعمالهم) قلت : إن بين الاسنادين فرقا ، فالاسناد إلى الله مجاز ، وإلى الشيطان حقيقة . وقد روى عن الحسن أن المراد زينا لهم أعمال البر فعمهوا عنها ولم يهتدوا إلى العمل بها » قال أحمد : وهذا الجواب مبنى على القاعدة الفاسدة فى إيجاب رعاية الصلاح والأصلح ، وامتناع أن يخلق الله تعالى للعبد إلا ماهو مصلحة ، فمن ثم جعل إسناد التزيين إلى الله تعالى مجازاً ، وإلى الشيطان حقيقة ، ولو عكس الجواب لفاز بالصواب ، وتأمل ميله إلى التأويل الآخر : من أن المراد أعمال البر على بعده ؛ لأنه لايعرض لقاعدته بالنقض ، وأنى لهم ذلك وقد أتى الله بنيانهم من القواعد ؛ على أن التزيين قد ورد فى الخير فى قوله تعالى (ولكن الله حبب إليكم الايمان وزينه فى قلوبكم) على أن غالب وروده فى غير البر ، كقوله (زين للناس حب الشهوات) ، (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) ، (وكذلك زين لكثير من المشركين) ومما يبعد حمله على أعمال البر : إضافة الأعمال إليهم فى قوله (أعمالهم) وأعمال البر ليست مضافة إليهم ؛ لأنهم لم يعملوها قط ، فظاهر الاضافة يعطى ذلك . ألا ترى إلى قوله تعالى (ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) وقوله (قل لاتمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) فأطلق الايمان فى المكانين عن إضافته إليهم ؛ لأنه لم يصدر منهم ، وأضاف الاسلام الظاهر إليهم ، لأنه صدر منهم ، والله أعلم .

﴿لتلقى القرآن﴾ لتؤتاه وتلقنه ﴿من﴾ عند أىّ ﴿حكيم﴾ وأىّ ﴿عليم﴾ وهذا معنى مجيئهما نكرتين . وهذه الآية بساط وتمهيد ، لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص وما فى ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه .

إذ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾

﴿إذ﴾ منصوب بمضمر ، وهو : اذكر ، كأنه قال على أثر ذلك : خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى . ويجوز أن ينتصب بعليم . وروى أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته ، وقد كنى الله عنها بالأهل ، فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع ، وهو قوله (امكثوا) . الشهاب : الشعلة . والقبس : النار المقبوسة . وأضاف الشهاب إلى القبس لأنه يكون قبسا وغير قبس . ومن قرأ بالتنوين : جعل القبس بدلا ، أو صفة لما فيه من معنى القبس . والخبر : ما يخبر به عن حال الطريق ، لأنه كان قد ضله . فإن قلت : سآتيكم منها بخبر ، ولعلى آتيكم منها بخبر : كالمتدافعين : لأنّ أحدهما ترجّ والآخر تيقن . قلت : قد يقول الراجى إذا قوى رجاؤه : سأفعل كذا ، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة . فإن قلت : كيف جاء بسين التسويف ؟ قلت : عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ ، أو كانت المسافة بعيدة . فإن قلت : فلم جاء بأو دون الواو ؟ قلت : بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما : إمّا هداية الطريق ؛ وإما اقتباس النار ، ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده ، وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعاً ، وهما العزّان : عز الدنيا ، وعز الآخرة .

فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾

﴿أن﴾ هى المفسرة : لأنّ النداء فيه معنى القول . والمعنى : قيل له بورك . فإن قلت : هل يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة وتقديره : نودى بأنه بورك . والضمير ضمير الشأن ؟ قلت : لا ، لأنه لا بدّ من قد . فإن قلت : فعلى إضمارها ؟ قلت : لا يصح ؛ لأنها علامة لا تحذف . ومعنى ﴿بورك من فى النار ومن حولها﴾ بورك من فى مكان النار ، ومن حول مكانها . ومكانها : البقعة التى حصلت فيها وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله تعالى (نودى من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة) وتدل عليه قراءة أبىّ . تباركت الأرض ومن حولها . وعنه : بوركت النار ؛ والذى بوركت له البقعة ، وبورك من فيها وحواليها حدوث أمر دينى فيها : وهو تكليم

الله موسى واستنباؤه له وإظهار المعجزات عليه ؛ ورب خير يتجدد فى بعض البقاع ، فينشر الله بركة ذلك الخير فى أقاصيها ، ويبث آثار يمنه فى أباعدها ، فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذى جرى فى تلك البقعة . وقيل : المراد بالمبارك فيهم : موسى والملائكة الحاضرون . والظاهر أنه عامّ فى كل من كان فى تلك الارض وفى ذلك الوادى وحواليهما من أرض الشام ، ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة فى قوله (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) وحقت أن تكون كذلك ، فهى مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ومهبط الوحى إليهم وكفاتهم أحياء وأمواتا . فإن قلت : فما معنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه ؟ قلت : هى بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه فى أرض الشام كلها البركة ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ تعجيب لموسى عليه السلام من ذلك ، وإيذان بأنّ ذلك الأمر مريده ومكوّنه رب العالمين ، تنبيها على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشؤون .

يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

الهاء فى ﴿إنه﴾ يجوز أن يكون ضمير الشأن ، والشأن ﴿أنا الله﴾ مبتدأ وخبر . و ﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان للخبر . وأن يكون راجعاً إلى مادل عليه ما قبله ، يعنى : أنّ مكلمك أنا ، والله بيان لأنا . والعزيز الحكيم : صفتان للمبين ، وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة ، يريد : أنا القوىّ القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية ، الفاعل كل ما أفعله بحكمة وتدبير .

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾

فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وألق عصاك﴾ ؟ قلت : على بورك ؛ لأن المعنى : نودى أن بورك من فى النار ، وأن ألق عصاك : كلاهما تفسير لنودى . والمعنى : قيل له بورك من فى النار ، وقيل له : ألق عصاك . والدليل على ذلك قوله تعالى (وأن ألق عصاك) بعد قوله (أن يا موسى إنى أنا الله) على تكرير حرف التفسير ، كما تقول : كتبت إليك أن حج وأن اعتمر ، وإن شئت أن حج واعتمر . وقرأ الحسن : جأنّ على لغة من يجدّ فى الهرب من التقاء الساكنين ، فيقول : شأبّة ودأبّة . ومنها قراءة عمرو بن عبيد : ولا الضألين ﴿ولم يعقب﴾ لم يرجع ، يقال : عقب المقاتل ، إذا كرّ بعد الفرار . قال :

فَمَا عَقَّبُوا إِذْ قِيلَ هَلْ مِنْ مُعَقِّبٍ ۝ وَلَا نَزَلُوا يَوْمَ الْكَرِيهَةِ مَنْزِلَا (١)

وإنما رعب لظنه أن ذلك لأمر أريد به، ويدل عليه ﴿إني لا يخاف لدىّ المرسلون﴾ و ﴿إلا﴾ بمعنى «لكن»، لأنه لما أطلق نفى الخوف عن الرسل، كان ذلك مظنة لطرق الشبهة، فاستدرك ذلك. والمعنى: ولكن من ظلم منهم أى فرطت منه صغيرة مما يجوز على الأنبياء، كالذى فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف، ومن موسى بوكزة القبطى، ويوشك أن يقصد بهذا التعريض بما وجد من موسى، وهو من التعريضات التى يلطف مأخذها. وسماه ظلما، كما قال موسى (رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى) والحسن، والسوء: حسن التوبة، وقبح الذنب. وقرئ: ألا من ظلم، بحرف التنبيه. وعن أبى عمرو فى رواية عصمة: حسناً.

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢)

و ﴿فى تسع آيات﴾ كلام مستأنف، وحرف الجر فيه يتعلق بمحذوف. والمعنى: اذهب فى تسع آيات ﴿إلى فرعون﴾ ونحوه:

فَقُلْتُ إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ ۝ فَرِيقٌ نَحْسُدُ الإِنْسَ الطَّعَامَا (٢)

ويجوز أن يكون المعنى: وألق عصاك، وأدخل يدك: فى تسع آيات، أى: فى جملة تسع آيات وعدادهن. ولقائل أن يقول: كانت الآيات إحدى عشرة: ثنتان منها اليد والعصا، والتسع: الفلق، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمسة، والجدب فى بوادبهم، والنقصان فى مزارعهم.

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣)

المبصرة: الظاهرة البينة. جعل الإبصار لها وهو فى الحقيقة لمتأمليها، لأنهم لابسوها وكانوا بسبب منها بنظرهم وتفكرهم فيها. ويجوز أن يراد بحقيقة الإبصار: كل ناظر فيها من كافة أولى العقل، وأن يراد إبصار فرعون وملئه. لقوله (واستيقنتها أنفسهم) أو جعلت كأنها تبصر فتهدى، لأنّ العمى لا تقدر على الاهتداء، فضلا أن تهدى غيرها. ومنه قولهم: كلمة عيناء،

(١) يصف قوما بالجبن، وإنهم إن قيل: هل من معقب وراجع على عقبه للحرب فما رجعوا إليها، ولا نزلوا يوم الحرب منزلا من منازلها، أى: لم يقدموا مرة على العدو. وروى: إذ قيل، أى: حين ذلك.

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢ فراجعه إن شئت اه مصححه.

وكلمة عوراء . لأن الكلمة الحسنة ترشد ، والسيئة تغوى . ونحوه قوله تعالى (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) فوصفها بالبصارة ، كما وصفها بالإبصار . وقرأ علىّ بن الحسين رضى الله عنهما وقتادة : مَبصرة ، وهى نحو : مجبنة ومبخلة ومجفرة [1] ، أى : مكانا يكثر فيه التبصر .

وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٤)

الواو فى ﴿ واستيقنتها ﴾ واو الحال، وقد بعدها مضمرة، والعلو : الكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى ، كقوله تعالى (فاستكبروا وكانوا قوما عالين) فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) وقرئ : عليا ، وعليا بالضم والكسر ، كما قرئ عتيا ، وعتيا . وفائدة ذكر الأنفس : أنهم جحدوها بألسنتهم ، واستيقنوها فى قلوبهم وضمائرهم . والاستيقان أبلغ من الإيقان ، وقد قوبل بين المبصرة والمبين ، وأى ظلم أفحش من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله ، ثم كابر بتسميتها سحراً بينا مكشوفا لا شبهة فيه .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٥)

﴿ علما ﴾ طائفة من العلم [2] أو علماً سنياً غزيرا . فإن قلت : أليس هذا موضع الفاء دون الواو ، كقولك : أعطيته فشكر ، ومنعته فصبر ؟ قلت : بلى ، ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشىء من مواجبه ، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد ، كأنه قال : ولقد آتيناهما علماً فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه [3] والفضيلة ﴿ وقالا الحمد لله

---

(١) قوله «ومجفرة» فى الصحاح «جفر الفحل عن الضراب» : إذا انقطع عنه . ومنه قيل : الصوم مجفرة ، أى قاطع للنكاح . (ع)

(٢) قال محمود : «معناه طائفة من العلم» قال أحمد : التبعيض والتقليل من التنكير ، وكما يرد للتقليل من شأن المنكر ، فكذلك يرد للتعظيم من شأنه كما مر آنفا فى قوله تعالى (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) ولم يقبل الحكيم العليم . والغرض من التنكير التفخيم ، كأنه قال : من لدن حكيم عليم : فظاهر قوله (ولقد آتينا داود وسليمان علما) فى سياق الامتنان تعظيم العلم الذى أوتياه ؛ كأنه قال : علما أى علم ، وهو كذلك ؛ فان علمهما كان مما يستعظم ويستغرب ؛ ومن ذلك علم منطق الطير وسائر الحيوانات الذى خصهما الله تعالى به وكل علم بالاضافة إلى علم الله تعالى قليل ضئيل ؛ والله أعلم .

(٣) قال محمود : «وجلا نعمة الله عليهما من حيث قولها (فضلنا) وتواضعا بقولها (على كثير) ولم يقولا : على عباده ؛ اعترافا بأن غيرهما يفضلهما ، حذرا من الترفع .

الذى فضلنا﴾ . والكثير المفضل عليه : من لم يؤت علماً . أو من لم يؤت مثل علمهما . وفيه : أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير . وفى الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجل النعم . وأجزل القسم ، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباد الله . كما قال (والذين أوتوا العلم درجات) ، وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « ورثة الأنبياء »[1] ، إلا لمداناتهم لهم فى الشرف والمنزلة ، لأنهم القوام بما بعثوا من أجله . وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم ، منها : أن يحمدوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم . وفيها التذكير بالتواضع ، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم . وما أحسن قول عمر : كل الناس أفقه من عمر[2] .

وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

ورث منه النبوّة والملك دون سائر بنيه ـ وكانوا تسعة عشر ـ وكان داود أكثر تعبداً ، وسليمان أقضى وأشكر لنعمة الله ﴿وقال يا أيها الناس﴾ تشهيرا لنعمة الله ، وتنويهاً بها ، واعترافا بمكانها ، ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التى هى علم منطق الطير ، وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور . والمنطق : كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف ، المفيد وغير المفيد . وقد ترجم يعقوب بن السكيت كتابه بإصلاح المنطق ، وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم . وقالت العرب : نطقت الحمامة ، وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته ، والذى علمه سليمان من منطق الطير : هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه[3] وأغراضه . ويحكى أنه مر على بلبل فى شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه . فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : الله ونبيه أعلم : قال يقول : أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء . وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا . وصاح طاووس ، فقال يقول : كما تدين تدان . وصاح هدهد ، فقال يقول : استغفروا الله يامذنبين .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى الدرداء ، من حديث واه ، من سلك طريقا يلتمس فيه علما وفيه : إن العلماء ورثة الأنبياء ، وله طرق عند الطبرانى . وفى الباب عن البراء وابن عمرو ابن العاص أخرجهما أبو نعيم فى كتاب فضل العالم العفيف على الجاهل الشريف . وعن ابن مسعود أخرجه ابن حمزة السهمى فى تاريخ جرجان . وعن جابر أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد فى ترجمة أحمد بن محمد الثلجى . وفى إسناده الضحاك بن حجزة . وهو متهم بوضع الحديث

(٢) تقدم فى سورة النساء

(٣) قوله « هو مايفهم بعضه من بعض معانيه » عبارة النسفى : والمنطق : كل ما يصوت من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد ، وكان سليمان عليه السلام يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض اه (ع)

وصاح طيطوى ، فقال يقول : كل حيّ ميت ، وكل جديد بال . وصاح خطاف فقال يقول : قدّموا خيراً تجدوه . وصاحت رخمة ، فقال تقول : سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه . وصاح قمرى ، فأخبر أنه يقول : سبحان ربى الأعلى . وقال : الحدأ يقول : كل شيء هالك إلا الله . والقطاة تقول : من سكت سلم . والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه : والديك يقول : اذكروا الله يا غافلين . والنسر يقول : يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت . والعقاب يقول: فى البعد من الناس أنس . والضفدع يقول : سبحان ربى القدوس . وأراد بقوله ﴿من كل شيء﴾ كثرة ما أوتى ، كما تقول : فلان يقصده كل أحد ، ويعلم كل شيء ، تريد : كثرة قصاده ورجوعه إلى غزارة فى العلم واستكثار منه . ومثله قوله (وأوتيت من كل شيء) . ﴿إن هذا لهو الفضل المبين﴾ قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا فخر (١) » أى : أقول هذا القول شكراً ولا أقوله فخراً . فإن قلت : كيف قال علمنا وأوتينا وهو من كلام المتكبرين ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يريد نفسه وأباه . والثانى : أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع ـ وكان ملكا مطاعا ـ فكلم أهل طاعته على صفته وحاله التى كان عليها ، وليس التكبر من لوازم ذلك ، وقد يتعلق بتجمل الملك وتفخمه وإظهار آيينه (٢) وسياسته مصالح ، فيعود تكلف ذلك واجباً . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل نحوا من ذلك إذا وفد عليه وفد أو احتاج أن يرجح فى عين عدو . ألا ترى كيف أمر العباس رضى الله عنه بأن يحبس أبا سفيان حتى تمر عليه الكتائب (٣) .

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

روى أن معسكره كان مائة فرسخ فى مائة : خمسة وعشرون للجنّ ، وخمسة وعشرون للإنس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب ، فيها ثلثمائة منكوحة . وسبعمائة سرية ، وقد نسجت له الجنّ بساطا من ذهب وإبريسم فرسخا فى فرسخ ، وكان يوضع منبره فى وسطه وهو من ذهب ، فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة ، فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة ، وحولهم الناس وحول الناس الجنّ والشياطين ، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه الشمس ،

---

(١) تقدم فى سورة يوسف

(٢) قوله «وإظهار آيينه» قيل : مراتبه وبهاؤه . وفى نسخة : أبهته ، فليحرر . (ع)

(٣) أخرجه البخارى من رواية هشام بن عروة عن أبيه فى قصة الفتح قال فأسلم أبو سفيان . فلما سار قال للعباس احبس أبا سفيان عند حطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين ؛ فحبسه العباس ، فجعلت الكتائب تمر مع النبى صلى الله عليه وسلم كتيبة بعد كتيبة ، وأخرجه البيهقى فى الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر . ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ، ويأمر الرخاء تسيره ، فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض : إنى قد زدت فى ملكك لا يتكلم أحد بشىء إلا ألقته الريح فى سمعك ، فيحكى أنه مر بحرّاث فقال : لقد أوتى آل داود ملكا عظيما ، فألقته الريح فى أذنه ، فنزل ومشى إلى الحرّاث وقال : إنما مشيت إليك لئلا تتمنى مالا تقدر عليه ، ثم قال : لتسبيحة واحدة يقبلها الله ، خير مما أوتى آل داود ﴿ يوزعون ﴾ يحبس أولهم على آخرهم ، أى : توقف سلاف العسكر [1] حتى تلحقهم التوالى فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد ، وذلك للكثرة العظيمة .

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾

قيل : هو واد بالشام كثير النمل . فإن قلت : لم عدّى (أتوا) بعلى ؟ قلت : يتوجه على معنيين أحدهما : أن إتيانهم كان من فوق ، فأتى بحرف الاستعلاء ، كما قال أبو الطيب :

* وَلَشَدَّ مَاقَرُبَتْ عَلَيْكَ الأَنْجُمُ * [2]

لما كان قربا من فوق . والثانى : أن يراد قطع الوادى وبلوغ آخره ، من قولهم : أتى على الشىء إذا أنفذه وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادى ، لأنهم ما دامت الريح تحملهم فى الهواء لا يخاف حطمهم . وقرئ نملة يا أيها النمل ، بضم الميم وبضم النون والميم ، وكان الأصل : النمل ، بوزن الرجل ، والنمل الذى عليه الاستعمال : تخفيف عنه ، كقولهم «السبع» فى السبع . قيل : كانت تمشى وهى عرجاء تتكاوس [3] ، فنادت : يا أيها النمل : الآية ، فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال . وقيل : كان اسمها طاخية . وعن قتادة أنه دخل الكوفة

---

(١) قوله «سلاف العسكر» أى متقدموهم . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) فلشد ما جاوزت قدرك صاعداً ولشد ما قربت عليك الأنجم

لأبى الطيب المتنبى ، طلب منه رجل المدح ، فأبى وقال ذلك ، واللام للتأكيد ، وشد على صورة المبنى للمجهول للتعجب ، وأصله شدد كحسن ، فنقل ضم الدال إلى الشين وأدغم ، كما هو قياس بناء التعجب ، أى . ما أشد مجاوزتك لقدرك ، يعنى : كثرت مجاوزتك لمقدارك ، حال كونك صاعداً فيما ليس لك من الرفعة ، وقال : عليك ، دون : إليك ؛ لأن قرب الأنجم من جهة العلو ، أى : كثر عندك قرب النجوم إليك من فوق ، ثم يحتمل أن النجوم حقيقة فقد بنى على الصعود المعنوى ماينبنى على الصعود الحسى ، للمبالغة فى تشبيه الأول بالثانى . ويحتمل أنها مستعارة لشعره الذى هو النجوم فى الحسن ، وعزة الوصول إليه على طريق التصريحية ، ففيه شبه التورية .

(٣) قوله «تتكاوس» فى الصحاح : كوسته على رأسه تكويساً ، أى : قلبته . وكاس هو يكوس : إذا فعل ذلك . وكاس البعير : إذا مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب . (ع)

فالتف عليه الناس، فقال: سلوا عما شئتم، وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضرا - وهو غلام حدث - . فقال: سلوه عن نملة سليمان. أكانت ذكرا أم أنثى؟ فسألوه فأفحم، فقال أبو حنيفة: كانت أنثى، فقيل له: من أين عرفت؟ قال: من كتاب الله، وهو قوله (قالت نملة) ولو كانت ذكرا لقال: قال نملة، (١) وذلك أنّ النملة مثل الحمامة والشاة فى وقوعها على الذكر والأنثى، فيميز بينهما بعلامة، نحو قولهم: حمامة ذكر، وحمامة أنثى، وهو وهى. وقرئ: مسكنكم ولا يحطمنكم، بتخفيف النون، وقرئ لا يحطمنكم بفتح الحاء وكسرها. وأصله: يحتطمنكم. ولما جعلها قائلة والنمل مقولا لهم كما يكون فى أولى العقل: أجرى خطابهم مجرى خطابهم. فإن قلت: لا يحطمنكم ماهو؟ قلت: يحتمل أن يكون جوابا للأمر، وأن يكون نهيا بدلا من الأمر، والذى جوّز أن يكون بدلا منه: أنه فى معنى: لا تكونوا حيث أنتم فيحطمكم، على طريقة: لا أرينك ههنا، أراد: لا يحطمنكم جنود سليمان، فجاء بما هو أبلغ، ونحوه: عجبت من نفسى ومن إشفاقها.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

ومعنى (تبسم ضاحكا) تبسم شارعا فى الضحك وآخذا فيه، يعنى أنه قد تجاوز حدّ التبسم إلى الضحك، وكذلك ضحك الأنبياء عليهم السلام. وأما ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه (١) فالغرض المبالغة فى وصف ما وجد منه من الضحك

(١) قال محمود «لما دخل قتادة الكوفة التفت عليه الناس، فقال: سلوا عما شئتم، فقال أبو حنيفة - وكان شابا - : سلوه عن النملة التى كلمت سليمان، أذكر كانت أم أنثى؟ فسألوه فأفحم، فقال أبو حنيفة: كانت أنثى فقيل: كيف لك ذلك؟ قال: لأن الله عز وجل قال (قالت نملة)، ولو كانت ذكراً لقال: قال نملة» قال أحمد: لا أدرى العجب منه أم من أبى حنيفة أن يثبت ذلك عنه، وذلك أن النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى لأنه اسم جنس، يقال: نملة ذكر ونملة أنثى، كما يقولون حمامة ذكر وحمامة أنثى، وشاة ذكر وشاة أنثى، فلفظها مؤنث. ومعناه محتمل، فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها، وإن كانت واقعة على ذكر. بل هذا هو الفصيح المستعمل. ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تضحى بعوراء ولا عجفاء ولا عمياء» كيف أخرج هذه الصفات على اللفظ مؤنثة ولا يعنى الاناث من الأنعام خاصة. فحينئذ قوله تعالى (قالت نملة) روعى فيه تأنيث اللفظ. وأما المعنى فيحتمل على حد سواء. وإنما أطلت فى هذا وإن كان لا يتمشى عليه حكم، لأنه نسبه إلى الامام أبى حنيفة على بصيرته باللغة، ثم جعل هذا الجواب معجباً لنعمان عن غزارة علمه وتبصره بالمنقولات؛ ثم قرر الكلام على ماهو عليه مصوناً له، فياللعجب العجاب، والله الموفق للصواب.

(٢) وقعت فى هذه الجملة عدة أحاديث. منها حديث ابن مسعود «جاء رجل من اليهود. فقال: يا محمد، إن الله يمسك السموات على أصبع الحديث. وفيه فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه» متفق =

النبوى ، وإلا فبدو التواجذ على الحقيقة إنما يكون عند الاستغراب ، وقرأ ابن السميفع : ضحكا . فان قلت : ما أضحكه من قولها ؟ قلت : شيئان ، إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم ، وعلى شهرة حاله وحالهم فى باب التقوى ، وذلك قولها (وهم لايشعرون) تعنى أنهم لو شعروا لم يفعلوا . وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً : من إدراكه بسمعه ما همس به بعض الحكل [1] الذى هو مثل فى الصغر والقلة ، ومن إحاطته بمعناه ، ولذلك اشتمل دعاؤه على استيزاع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك ، وعلى استيفاقه [2] لزيادة العمل الصالح والتقوى . وحقيقة ﴿ أوزعنى ﴾ اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى ، وأكفه وأرتبطه لا ينفلت عنى ، حتى لا أنفك شاكراً لك . وإنما أدرج ذكر والديه لأن النعمة على الولد نعمة على الوالدين ، خصوصا النعمة الراجعة إلى الدين ، فإنه إذا كان تقيا نفعهما بدعائه وشفاعته وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له ، وقالوا : رضى الله عنك وعن والديك . وروى

═ عليه . ومنها حديثه مرفوعا «إنى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها ـ الحديث . وفيه : قول الرجل : أتسخر بى وأنت الملك ؟ قال : ولقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه» متفق عليه أيضا . ومنها حديث أبى ذر رضى الله عنه «يؤتى برجل يوم القيامة . فيقال اعرض عليه صغار ذنوبه ـ الحديث . وفيه : فلقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم إلى آخره» أخرجه مسلم . ومنها حديث أبى سعيد ـ رفعه ـ «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ـ الحديث . وفيه : فنظر إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضحك حتى بدت نواجذه» متفق عليه ومنها حديث جابر «دخل أبو بكر والقوم جلوس على الباب ـ فذكر الحديث وفيه : فقال عمر : لو رأيت بنت خارجة وهى تسألنى النفقة فقمت فوجأت عنقها . قال : فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه» أخرجه مسلم . ومنها حديث ابن عمر رضى الله عنهما «كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة فأصاب الناس مخمصة ـ الحديث . وفيه : فلم يبق فى الجيش وعاء إلا ملىء وبقى مثله . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه» أخرجه ابن حبان والحاكم . ومنها حديث سلمة بن الأكوع «قدمنا الحديبية ـ الحديث . وفيه : قلت يا رسول الله ، خلنى أنتخب من القوم مائة رجل ، فأتبع القوم ، فلا أبقى منهم أحداً إلا قتلته . فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه» وهو حديث طويل . وفيه هذه اللفظة فى موضع آخر أخرجه مسلم . ومنها حديث زيد بن أرقم «أتى على رضى الله عنه ـ وهو باليمن ـ بثلاثة وقعوا على امرأة فى طهر واحد ـ الحديث . وفيه : فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم . ومنها حديث أم أيمن «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل ، فبال فى فخارة . فقمت وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أشعر فلما أصبح أمرنى أن أهريقها فقلت : إنى شربتها ، فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه الحاكم . ومنها حديث صهيب فى أكلة التمر وهو أرمد . فقال «إنما آكله من شق عينى الصحيحة . قال : فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه» أخرجه البزار بتمامه . وبعضه لابن ماجه والحاكم . ومنها حديث ابن عباس «كان عبد الله ابن رواحة مضطجعاً إلى جنب امرأته . فقام إلى جارية له فوقع عليها ـ الحديث . وفيه : الشعر . وقول المرأة : آمنت بالله وكذبت البصر . قال : فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه البزار وإسناده ضعيف .

(١) قوله «ماهمس به بعض الحكل» فى الصحاح «الحكل» : مالا يسمع له صوت . (ع)

(٢) قوله «وعلى استيفاقه لزيادة العمل» فى الصحاح «استوفقت الله» : سألته التوفيق . (ع)

أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم فى الهواء ، فأمر سليمان الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهن ، ثم دعا بالدعوة . ومعنى ﴿ وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ واجعلنى من أهل الجنة .

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١)

(أم) هى المنقطعة : نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره ، فقال ﴿ مالى لا أرى ﴾ على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك ، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : أهو غائب ؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له . ونحوه قولهم : إنها لإبل أم شاء ، وذكر من قصة الهدهد أنّ سليمان حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره [١] ، فوافى الحرم وأقام به ما شاء ، وكان يقرّب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ، ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحا يؤم سهيلا ؛ فوافى صنعاء وقت الزوال ؛ وذلك مسيرة شهر ، فرأى أرضاً حسناء أعجبته خضرتها ، فنزل ليتغدّى ويصلى فلم يجدوا الماء ، وكان الهدهد قناقنه [٢] ، وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء فى الزجاجة فيجىء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الإهاب ويستخرجون الماء ، فتفقده لذلك ، وحين نزل سليمان حلق الهدهد فرأى هدهداً واقعاً ، فانحط إليه فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شىء ، وذكر له صاحبه ملك بلقيس ، وأنّ تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر . وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب : علىّ به ، فارتفعت فنظرت ، فإذا هو مقبل فقصدته . فناشدها الله وقال : بحق الذى قوّاك وأقدرك علىّ إلا رحمتينى ، فتركته وقالت : ثكلتك أمك ، إنّ نبى الله قد حلف ليعذبنك ؛ قال : وما استثنى ؟ قالت : بلى قال : أو ليأتينى بعذر مبين ، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض تواضعاً له ، فلما دنا منه أخذ برأسه فمدّه إليه . فقال : يا نبى الله ، اذكر وقوفك بين يدى الله : فارتعد سليمان وعفا عنه ؛ ثم سأله . تعذيبه : أن يؤدّب

(١) قوله «تجهز للحج بحشره» فى الصحاح : حشرت الناس أحشرهم حشراً : جمعتهم . ومنه : يوم الحشر . (ع)

(٢) قوله «وكان الهدهد قناقنه» القناقن ـ بالضم ـ : الدليل الهادى والبصير بالماء فى حفر القنى . والقنى : جمع قناة . أفاده الصحاح فى موضعين . (ع)

بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه. وقيل: كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه. وقيل: أن يطلى بالقطران ويشمس. وقيل: أن يلقى للنمل تأكله. وقيل: إيداعه القفص. وقيل: التفريق بينه وبين إلفه. وقيل: لألزمنه صحبة الأضداد. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد. وقيل: لألزمنه خدمة أقرانه. فإن قلت: من أين حل له تعذيب الهدهد؟ قلت: يجوز أن يبيح له الله ذلك. لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة؛ كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع: وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة: جاز أن يباح له ما يستصلح به. وقرئ: ليأتيني. وليأتين. والسلطان: الحجة والعذر. فإن قلت: قد حلف على أحد ثلاثة أشياء: فحلفه على فعليه لا مقال فيه، ولكن كيف صح حلفه على فعل الهدهد؟ ومن أين درى أنه يأتي بسلطان، حتى يقول والله ليأتيني بسلطان؟ قلت: لما نظم الثلاثة «بأو» في الحكم الذي هو الحلف: آل كلامه إلى قولك: ليكونن أحد الأمور، يعني: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح. وإن لم يكن كان أحدهما، وليس في هذا ادعاء دراية. على أنه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحي من الله بأنه سيأتيه بسلطان مبين، فثلث بقوله (أو ليأتيني بسلطان مبين) عن دراية وإيقان.

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)

﴿فمكث﴾ قرئ بفتح الكاف وضمها ﴿غير بعيد﴾ غير زمان بعيد، كقوله: عن قريب. ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفا من سليمان، وليعلم كيف كان الطير مسخرا له، ولبيان ما أعطي من المعجزة الدالة على نبوته وعلى قدرة الله تعالى ﴿أحطت﴾ بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق: ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة، ابتلاء له في علمه، وتنبيها على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بما لم يحط به، لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه، ويكون لطفا له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة، والإحاطة بالشيء علما: أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم. قالوا: وفيه دليل على بطلان قول الرافضة إن الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه. سبأ: قرئ بالصرف ومنعه. وقد روي بسكون الباء. وعن ابن كثير في رواية: سبا، بالألف كقولهم: ذهبوا أيدي سبا. وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فمن جعله اسما للقبيلة لم يصرف، ومن جعله اسما للحي أو الأب الأكبر صرف. قال:

مِنْ سَبَإٍ الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ إِذْ يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهِ الْعَرِمَا (١)

وقال :

الْوَارِدُونَ وَتَيْمٌ فِي ذُرَى سَبَإٍ قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ (٢)

ثم سميت مدينة مأرب بسبإ، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ، كما سميت معافر بمعافر بن أدّ . ويحتمل أن يراد المدينة والقوم . والنبأ : الخبر الذي له شأن . وقوله ﴿من سبإ بنبإ﴾ من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق (٣) باللفظ ، بشرط أن يجيء مطبوعا . أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده ، ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنى . ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبإ بخبر ، لكان المعنى صحيحا ، وهو كما جاء أصح ، لما في النبإ ، من الزيادة التي يطابقها وصف الحال .

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)

المرأة بلقيس بنت شراحيل ، وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها ، وقد ولده أربعون ملكا ولم يكن له ولد غيرها ، فغلبت على الملك ، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس . والضمير في ﴿تملكهم﴾ راجع إلى سبإ . فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر ، وإن أريدت المدينة فمعناه تملك أهلها . وقيل في وصف عرشها : كان ثمانين ذراعا في ثمانين وسمكه ثمانين . وقيل ثلاثين مكان ثمانين ، وكان من ذهب وفضة مكللا بأنواع الجواهر ، وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودرّ وزمرّذ ، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق . فإن قلت : كيف استعظم عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان ؟ قلت : يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان ، فاستعظم لها ذلك العرش . ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته في كل شيء ، كما يكون لبعض

---

(١) يمدح رجلا بأنه من قبيلة سبأ ، وهو في الأصل اسم لابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ثم سميت به القبيلة ومأرب : مدينتها . وقيل : قصر الملكهم ، وهو مفعول الحاضرين ممنوع من الصرف . وإذ ظرف . ومن دون بمعنى أمام . والعرم : السد العظيم ، يحبس السيل عن المدينة .

(٢) أي الواردون هم ، وتيم : اسم قبيلة في أعالي أرض سبأ . والمراد بجلد الجواميس : الحبال المفتولة منه لتغل بها الأسرى في أعناقهم ، فشبهت مايصح منه العض لصلابتها على طريق المكنية ، والعض تخييل ، ويصح استعارته للقرص على طريق التصريحية ، وسبأ ـ في الأصل ـ : لقب رجل من قحطان اسمه عبد شمس ، لأنه أول من سبي كان له عشرة أولاد ، فذهب ستة إلى اليمن : حمير ، وكندة ، والأسد ، وأشعر ، وقشعم ، وبجيلة . وذهب أربعة إلى الشام : لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان . وبها سميت قبائلهم المشهورة .

(٣) قوله «الذي يتعلق» لعله : التي تتعلق . (ع)

أمراء الأطراف شيء لا يكون مثله للملك الذى يملك عليهم أمرهم ويستخدمهم . ومن نوكى القصاص [١] من يقف على قوله (ولها عرش) ثم يبتدئ (عظيم وجدتها) يريد : أمر عظيم ، أن وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، فرّ من استعظام الهدهد عرشها ، فوقع فى عظيمة وهى مسخ كتاب الله. فإن قلت : كيف قال ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ مع قول سليمان (وأوتينا من كل شيء) كأنه سوى بينهما ؟ قلت : بينهما فرق بين ؛ لأن سليمان عليه السلام عطف قوله على ماهو معجزة من الله ، وهو تعلم منطق الطير ، فرجع أولا إلى ماأوتى من النبوة والحكمة وأسباب الدين ، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا ، وعطفه الهدهد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها فبين الكلامين بون بعيد . فإن قلت : كيف خفى على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة ، وهى مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب ؟ قلت : لعل الله عز وجل أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها ، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب .

وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

فإن قلت : من أين للهدهد التهدى إلى معرفة الله ، ووجوب السجود له ، وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه ؟ قلت : لا يبعد أن يلهمه الله ذلك كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التى لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها ، ومن أراد استقراء ذلك فعليه بكتاب الحيوان ، خصوصا فى زمن نبى سخرت له الطيور وعلم منطقها ، وجعل ذلك معجزة له . من قرأ بالتشديد أراد : فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع أن . ويجوز أن تكون «لا» مزيدة ، ويكون المعنى : فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا . ومن قرأ بالتخفيف ، فهو ألا يسجدوا . ألا للتنبيه ، ويا حرف النداء . ومناداه محذوف ، كما حذفه من قال :

* أَلَا يَا اْسْلَمِى يَادَارَ مَىٍّ عَلَى الْبِلَى * [٢]

---

(١) قوله «ومن نوكى القصاص» النوكى : جمع أنوك ، وهو الأحمق . (ع)

(٢) ألا يا اسلمى يا دار مى على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

لذى الرمة . وألا استفتاحية للتنبيه ، فلا معنى ليا إلا النداء . والمنادى بها محذوف ، تقديره : يادارى اسلمى ، فاستغنى عنه بما بعده ؛ وحذفه اهتماما بطلب السلامة لها . وفى تكرير ندائها : نوع تفجع . ومى : مرخم مية .

وفى حرف عبد الله وهى قراءة الأعمش: هلا وهلا: بقلب الهمزتين هاء. وعن عبد الله: هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب. وفى قراءة أبىّ: ألا تسجدون لله الذى يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون. وسمى المخبوء بالمصدر: وهو النبات والمطر وغيرهما مما خبأه عز وعلا من غيوبه. وقرئ: الخب، على تخفيف الهمزة بالحذف. والخبا، على تخفيفها بالقلب، وهى قراءة ابن مسعود ومالك بن دينار. ووجهها: أن تخرج على لغة من يقول فى الوقف: هذا الخبو، رأيت الخبا، ومررت بالخبى. ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، لا على لغة من يقول: الكمأة والحمأة؛ لأنها ضعيفة مسترذلة. وقرئ: يخفون ويعلنون، بالياء والتاء. وقيل: من أحطت إلى العظيم [1]: هو كلام الهدهد. وقيل: كلام رب العزة. وفى إخراج الخبء: أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء فى السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد تخفى على ذى الفراسة النظار بنور الله مخائل كل مختص بصناعة أو فنّ من العلم فى روائه [2] ومنطقه وشمائله، ولهذا ورد: ما عمل عبد عملا إلا ألقى الله عليه رداء عمله. فإن قلت: أسجدة التلاوة واجبة فى القراءتين جميعا أم فى إحداهما؟ قلت: هى واجبة فيهما جميعا، لأنّ مواضع السجدة إما أمرٌ بها، أو مدحٌ لمن أتى بها، أو ذمٌّ لمن تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود. والأخرى ذم للتارك. وقد اتفق أبو حنيفة والشافعى رحمهما الله على أنّ سجدات القرآن أربع عشرة، وإنما اختلفا فى سجدة صٓ: فهى عند أبى حنيفة سجدة تلاوة. وعند الشافعى: سجدة شكر. وفى سجدتى سورة الحج وماذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد، فغير مرجوع إليه. فإن قلت: هل يفرق الواقف بين القراءتين؟ قلت: نعم إذا خفف وقف على (فهم لا يهتدون) ثم ابتدأ (ألا يا اسجدوا)، وإن شاء وقف على (ألا يا) ثم ابتدأ (اسجدوا) وإذا شدّد لم يقف إلا على (العرش العظيم). فإن قلت: كيف سوّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله فى الوصف بالعظم؟ قلت: بين الوصفين بون عظيم، لأنّ وصف عرشها بالعظم: تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك. ووصف عرش الله بالعظم: تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض. وقرئ: العظيم، بالرفع.

ـــ وترخيم المضاف إليه: ضرورة حسنها سبق النداء. وعلى: بمعنى مع، أى: اسلمى ولو كنت بالية، لأنه إن لم تبق الدار كفتنى الآثار. ومنهلا: منصبا. والجرعاء: مؤنث الأجرع، وهو الموضع المختلط ترابه بالحصى. والقطر: المطر، يدعو لها بالخصب.

(١) قوله «وقيل من أحطت إلى العظيم» فى اللباب: أن الخلاف فى: ألا يسجدوا ـ إلى ـ العظيم، ومال إليه فى التقريب اهـ من هامش (ع)

(٢) قوله «فى روائه» بالضم، أى: منظره. أفاده الصحاح. (ع)

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

﴿سننظر﴾ من النظر الذى هو التأمل والتصفح . وأراد : أصدقت أم كذبت ، إلا أن (كنت من الكاذبين) أبلغ ، لأنه إذا كان معروفا بالانخراط فى سلك الكاذبين كان كاذبا لا محالة ، وإذا كان كاذبا اتهم بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به ، [1] ﴿تول عنهم﴾ تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ، ليكون ما يقولونه بمسمع منك . و﴿يرجعون﴾ من قوله تعالى (يرجع بعضهم إلى بعض القول) فيقال : دخل عليها من كوة فألقى الكتاب إليها وتوارى فى الكوة . فإن قلت : لم قال : فألقه إليهم ، على لفظ الجمع ؟ قلت : لأنه قال : وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، فقال : فألقه إلى الذين هذا دينهم ، اهتماما منه بأمر الدين ، واشتغالا به عن غيره . وبنى الخطاب فى الكتاب على لفظ الجمع لذلك .

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿كريم﴾ حسن مضمونه وما فيه . أو وصفته بالكرم ، لأنه من عند ملك كريم أو مختوم . قال صلى الله عليه وسلم : «كرم الكتاب ختمه [2]» وكان صلى الله عليه وسلم يكتب إلى العجم ، فقيل له : إنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه خاتم ، فاصطنع خاتما [3] . وعن ابن المقفع : من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به . وقيل : مصدّر ببسم الله الرحمن الرحيم : هو استئناف وتبيين لما ألقى إليها ، كأنها لما قالت : إنى ألقى إلىّ كتاب كريم ، قيل لها : ممن هو ؟ وما هو ؟ فقالت : إنه من سليمان وإنه : كيت وكيت . وقرأ عبد الله : وإنه من سليمان وإنه ، عطفا على : إنى . وقرئ : أنه من سليمان وأنه ، بالفتح على أنه بدل من كتاب ، كأنه قيل : ألقى إلىّ أنه من سليمان . ويجوز أن تريد : لأنه من سليمان ولأنه ، كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان ، وتصديره

(١) قال محمود : «ومعناه أصدقت أم كذبت ، إلا أن عبارة الآية أبلغ ؛ لأنه إذا كان معروفا بالكذب اتهم فى جملة إخباره فلم يوثق به» قال أحمد : وهذا مما نبهت عليه فى سورة الشعراء من العدول عن الفعل الذى هو : أم كذبت ، وعن مجرد صفته فى قوله : أم كنت كاذبا ، إلى جعله واحدا من الفئة الموسومة بالكذب ، فهو أبلغ فى مقصود سياق الآية من التهديد . والله أعلم .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط من رواية محمد بن مروان . وهو السدى الصغير عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس . وأخرجه القضاعى فى مسند البيهقى .

(٣) متفق عليه من رواية قتادة عن أنس قال : أراد أن يكتب ... فذكره .

باسم الله . وقرأ أبىّ : أنْ من سليمان وأنْ بسم الله ، على أن المفسرة . وأن فى ﴿ألا تعلوا﴾ مفسرة أيضا . لاتعلوا : لا تتكبروا كما يفعل الملوك . وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما بالغين معجمة من الغلو : وهو مجاوزة الحد . يروى أنّ نسخة الكتاب من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ : السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد: فلا تعلوا علىّ وائتونى مسلمين ،وكانت كتب الأنبياء عليهم السلام جملا لا يطيلون ولا يكثرون ، وطبع الكتاب بالمسك وختمه بخاتمه ، فوجدها الهدهد راقدة فى قصرها بمأرب ، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها ، فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية . وقيل : نقرها فانتبهت فزعة . وقيل : أتاها والقادة والجنود حواليها ، فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها ، فألقى الكتاب فى حجرها ، وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع بن شراحيل الحميرى؛ فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت ، وقالت لقومها ما قالت ﴿مسلمين﴾ منقادين أو مؤمنين.

قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾

الفتوى : الجواب فى الحادثة ، اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى فى السن . والمراد بالفتوى ههنا : الإشارة عليها بما عندهم فيما حدث لها من الرأى والتدبير ، وقصدت بالانقطاع إليهم والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم : استعطافهم وتطييب نفوسهم ليمالئوها ويقوموا معها ﴿قاطعة أمرا﴾ فاصلة . وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : قاضية أى لا أبت أمرا إلا بمحضركم . وقيل :كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا :كل واحد على عشرة آلاف .

قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾

أرادوا بالقوة : قوة الأجساد وقوة الآلات والعدد . وبالبأس : النجدة والبلاء فى الحرب ﴿والأمر إليك﴾ أى هو موكول إليك ، ونحن مطيعون لك ، فمرينا بأمرك نطعك ولا نخالفك. كأنهم أشاروا عليها بالقتال . أو أرادوا : نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأى والمشورة ، وأنت ذات الرأى والتدبير ، فانظرى ماذا ترين : نتبع رأيك .

قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾

لما أحست منهم الميل إلى المحاربة، رأت من الرأى الميل إلى الصلح والابتداء بما هو أحسن، ورتبت الجواب، فزيفت أولا ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه بـ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية﴾ عنوة وقهراً ﴿أفسدوها﴾ أى خربوها ـ ومن ثمة قالوا للفساد: الخربة ـ، وأذلوا أعزتها، وأهانوا أشرافها، وقتلوا وأسروا، فذكرت لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها ثم قالت ﴿وكذلك يفعلون﴾ أرادت: وهذه عادتهم المستمرة الثابتة التى لا تتغير، لأنها كانت فى بيت الملك القديم، فسمعت نحو ذلك ورأت، ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية وما رأت من الرأى السديد. وقيل: هو تصديق من الله لقولها، وقد يتعلق الساعون فى الأرض بالفساد بهذه الآية ويجعلونها حجة لأنفسهم. ومن استباح حراما فقد كفر، فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين ﴿مرسلة إليهم بهدية﴾ أى مرسلة رسلا بهدية أصانعه بها عن ملكى ﴿فناظرة﴾ ما يكون منه حتى أعمل على حسب ذلك، فروى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى، وحليهنّ الأساور والأطواق. والقرطة [١] راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر، وخمسمائة جارية على رماك [٢] فى زى الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضة، وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع والمسك والعنبر، وحقاً فيه درّة عذراء، وجزعة معوجة الثقب، وبعثت رجلين من أشراف قومها: المنذر بن عمرو، وآخر ذا رأى وعقل، وقالت: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجوارى، وثقب الدرّة ثقبا مستويا، وسلك فى الخرزة خيطا، ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك؛ فلا يهولنك، وإن رأيته بشاً لطيفا فهو نبىّ، فأقبل الهدهد فأخبر سليمان، فأمر الجنّ فضربوا لبن الذهب والفضة، وفرشوه فى ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطا شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب فى البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن، وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا عن اليمين واليسار، ثم قعد على سريره والكراسىّ من جانبيه، واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ، والإنس صفوفا فراسخ، والوحش والسباع والهوام والطيور كذلك، فلما دنا القوم ونظروا: بهتوا، ورأوا الدواب تروث على اللبن، فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم، ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال: ما وراءكم؟

(١) قوله «والقرطة» واحدها: قرط. (ع)
(٢) قوله «على رماك» هى إناث الخيل. (ع)

وقال : أين الحقّ ؟ وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه فقال لهم : إن فيه كذا وكذا ، ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فيها ، فجعل رزقها في الشجرة . وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها ، فجعل رزقها في الفواكه . ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها ، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ، ثم رد الهدية وقال للمنذر : ارجع إليهم ، فقالت : هو نبيّ وما لنا به طاقة ، فشخصت إليه في اثني عشر ألف قيل ، تحت كل قيل ألوف . وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : فلما جاءوا . ﴿أتمدوننى﴾ وقرئ بحذف الياء والاكتفاء بالكسرة وبالادغام ، كقوله ﴿أتحاجونى﴾ وبنون واحدة : أتمدونى . الهدية : اسم المهدَى ؛ كما أن العطية اسم المعطَى ، فتضاف إلى المهدى والمهدى إليه ، تقول هذه هدية فلان ، تريد : هي التي أهداها أو أهديت إليه ، والمضاف إليه ههنا هو المهدى إليه . والمعنى : أن ما عندى خير مما عندكم ، وذلك أن الله آتانى الدين الذي فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع ، وآتانى من الدنيا ما لا يستزاد عليه ، فكيف يرضى مثلي بأن يمدّ بمال ويصانع به ﴿بل أنتم﴾ قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فلذلك ﴿تفرحون﴾ بما تزادون ويهدى إليكم ، لأن ذلك مبلغ همتكم وحالى خلاف حالكم ؛ وما أرضى منكم بشيء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية . فإن قلت : ما الفرق بين قولك : أتمدنى بمال وأنا أغنى منك ، وبين أن تقوله بالفاء ؟ قلت : إذا قلته بالواو ، فقد جعلت مخاطبي عالماً بزيادتي عليه في الغنى واليسار ، وهو مع ذلك يمدنى بالمال . وإذا قلته بالفاء ، فقد جعلته ممن خفيت عليه حالى ، فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده ، كأنى أقول له : أنكر عليك ما فعلت ، فإنى غنى عنه . وعليه ورد قوله ﴿فما آتانى الله﴾ . فإن قلت : فما وجه الإضراب ؟ قلت : لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره ، أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه : وهو أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح ، إلا أن يهدى إليهم حظ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها . ويجوز أن تجعل الهدية مضافة إلى المهدى ، ويكون المعنى : بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون فرح افتخار على الملوك ، بأنكم قدرتم على إهداء مثلها . ويحتمل أن يكون عبارة عن الرد ، كأنه قال : بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها.

ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿ارجع﴾ خطاب للرسول . وقيل : للهدهد محملا كتابا آخر ﴿لا قبل﴾ لا طاقة . وحقيقة القبل : المقاومة والمقابلة ، أي : لا يقدرون أن يقابلوهم . وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : لا قبل لهم بهم . الضمير في منها لسبأ . والذل : أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العزّ والملك .

والصغار : أن يقعوا فى أسر واستعباد ، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكا .

قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾

يروى أنها أمرت عند خروجها إلى سليمان عليه السلام ، فجعل عرشها فى آخر سبعة أبيات بعضها فى بعض فى آخر قصر من قصور سبعة لها . وغلقت الأبواب ووكلت به حرسا يحفظونه ، ولعله أوحى إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها ، فأراد أن يغرب عليها ويريها بذلك بعض ماخصه الله به من إجراء العجائب على يده ، مع اطلاعها على عظيم قدرة الله وعلى مايشهد لنبوة سليمان عليه السلام ويصدقها . وعن قتادة : أراد أن يأخذه قبل أن تسلم ، لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها . وقيل . أراد أن يؤتى به فينكر ويغير ، ثم ينظر أتثبته أم تنكره ؟ اختبارا لعقلها .

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾

وقرئ : عفرية . والعفر ، والعفريت ، والعفرية ، والعفراة ، والعفارية من الرجال : الخبيث المنكر ، الذى يعفر أقرانه . ومن الشياطين : الخبيث المارد . وقالوا : كان اسمه ذكوان ﴿ لقوى ﴾ على حمله ﴿ أمين ﴾ آتى به كما هو لا أختزل منه شيئاً ولا أبدله .

قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿ الذى عنده علم من الكتاب ﴾ رجل كان عنده اسم الله الأعظم ، وهو ياحى ياقيوم ، وقيل : ياإلهنا وإله كل شىء إلها واحداً لا إله إلا أنت . وقيل : ياذا الجلال والإكرام ، وعن الحسن رضى الله عنه : الله . والرحمن . وقيل هو آصف بن برخيا كاتب سليمان عليه السلام ، وكان صديقاً عالما . وقيل : اسمه أسطوم . وقيل : هو جبريل . وقيل : ملك أيد الله به سليمان . وقيل : هو سليمان نفسه ، كأنه استبطأ العفريت فقال له : أنا أريك ماهو أسرع مما تقول . وعن ابن لهيعة : بلغنى أنه الخضر عليه السلام : علم من الكتاب : من الكتاب المنزل ، وهو

علم الوحى والشرائع . وقيل : هو اللوح . والذى عنده علم منه : جبريل عليه السلام . وآتيك ـ فى الموضعين ـ يجوز أن يكون فعلا واسم فاعل . الطرف : تحريكك أجفانك إذا نظرت ، فوضع موضع النظر . ولما كان الناظر موصوفا بإرسال الطرف فى نحو قوله :

وَكُنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ [1]

وصف برد الطرف ، ووصف الطرف بالارتداد . ومعنى قوله ﴿قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ أنك ترسل طرفك إلى شىء ، فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك : ويروى أن آصف قال لسليمان عليه السلام : مد عينيك حتى ينتهى طرفك . فمد عينيه فنظر نحو اليمن . ودعا آصف فغار العرش فى مكانه بمأرب ، ثم نبغ [2] عند مجلس سليمان عليه السلام بالشام بقدرة الله ، قبل أن يرد طرفه . ويجوز أن يكون هذا مثلا لاستقصار مدة المجىء به ، كما تقول لصاحبك : افعل كذا فى لحظة ، وفى ردة طرف ، والتفت ترنى ، وما أشبه ذلك : تريد السرعة . ﴿يشكر لنفسه﴾ لأنه يحط به عنها عبء الواجب ، ويصونها عن سمة الكفران ، وترتبط به النعمة ويستمد المزيد . وقيل : الشكر ، قيد للنعمة الموجودة . وصيد للنعمة المفقودة . وفى كلام بعض المتقدمين : إن كفران النعمة بوار ، وقلما أقشعت [3] نافرة فرجعت فى نصابها ، فاستدع شاردها بالشكر ، واستدم راهنها بكرم الجوار . واعلم أن سبوغ ستر الله متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج لله وقارا ﴿غنى﴾ عن الشكر ﴿كريم﴾ بالإنعام على من يكفر نعمته ، والذى قاله سليمان عليه السلام عند رؤية العرش شاكراً لربه ، جرى على شاكلة أبناء جنسه من أنبياء الله والمخلصين من عباده يتلقون النعمة القادمة بحسن الشكر ، كما يشيعون النعمة المودعة بجميل الصبر .

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾
فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا

---

(١) وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً ... لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

لأعرابية ، نظرها أعرابى فخاطبها بشعر يسألها عن أحوالها ومحاسنها ، كأنه يراودها عن نفسها ، فأجابته بذلك وقيل : هو لشاعر حماسى . وشبه إطلاق البصر نحو المناظر الجميلة بإرسال الرائد أمام الركب يتعرف لهم مكان الخصب ، على طريق التصريحية ، ورائداً ترشيح ، لأنه يلائم الإرسال . ويوما : ظرف له . والمناظر : مواقع النظر ، واستدل على إتعابها إياه بقوله : رأيت الذى لا تملكه كله ولا تصبر عن بعضه ، فكانت عينك سببا لوقوع قلبك فى حيرة الهوى وحرقة الجوى .

(٢) قوله « ثم نبغ عند مجلس سليمان » فى الصحاح « نبغ الشىء » : ظهر . (ع)

(٣) قوله « وقلما أقشعت » أى : أقلعت . أفاده الصحاح . (ع)

وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣)

﴿نكروا﴾ اجعلوه متنكراً متغيراً عن هيئته وشكله، كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه. قالوا: وسعوه وجعلوا مقدمه مؤخره. وأعلاه أسفله. وقرئ: ننظر، بالجزم على الجواب، وبالرفع على الاستئناف ﴿أتهتدى﴾ لمعرفته، أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه، أو للدين والإيمان بنبوة سليمان عليه السلام إذا رأت تلك المعجزة البينة، من تقدم عرشها وقد خلفته وأغلقت عليه الأبواب ونصبت عليه الحرس. هكذا ثلاث كلمات: حرف التنبيه، وكاف التشبيه، واسم الإشارة. لم يقل: أهذا عرشك، ولكن: أمثل هذا عرشك؛ لئلا يكون تلقينا ﴿فقالت كأنه هو﴾ ولم تقل: هوهو، ولا ليس به، وذلك من رجاحة عقلها، حيث لم تقع فى المحتمل [1] ﴿وأوتينا العلم﴾ من كلام سليمان وملئه: فإن قلت: علام عطف هذا الكلام، وبم اتصل؟ قلت: لما كان المقام - الذى سئلت فيه عن عرشها وأجابت بما أجابت به - مقاما أجرى فيه سليمان وملؤه مايناسب قولهم (وأوتينا العلم) نحو أن يقولوا عند قولها كأنه هو: قد أصابت فى جوابها وطبقت المفصل [2]. وهى عاقلة لبيبة، وقد رزقت الإسلام، وعلمت قدرة الله وصحة النبوة بالآيات التى تقدمت عند وفدة المنذر، وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها - عطفوا على ذلك قولهم: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته، وبصحة ماجاء من عنده قبل علمها، ولم نزل على دين الإسلام شكراً لله على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله والإسلام قبلها ﴿وصدها﴾ عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهرانى الكفرة؛ ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولا بقولها (كأنه هو) والمعنى: وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوة سليمان

---

(١) قال محمود: «لم يقل أهذا عرشك؛ لئلا يكون تلقينا، قالت. كأنه هو ولم تقل هو هو، ولا ليس بهو وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقع فى المحتمل» قال أحمد: وفى قولها (كأنه هو) وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال، بأن تقول: هكذا هو، نكتة حسنة. ولعل قائلا يقول: كلا العبارتين تشبيه؛ إذ كاف التشبيه فيهما جميعا، وإن كانت فى إحداهما داخلة على اسم الاشارة، وفى الأخرى داخلة على المضمر. وكلاهما - أعنى اسم الاشارة والمضمر - واقع على الذات المشبهة، وحينئذ تستوى العبارتان فى المعنى، ويفضل قولها هكذا هو بمطابقته للسؤال. فلا بد فى اختيار (كأنه هو) من حكمة فنقول: حكمته والله أعلم: أن (كأنه هو) عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه فى التغاير بين الأمرين، فكاد يقول: هو هو، وتلك حال بلقيس. وأما هكذا هو؛ فعبارة جازم بتغاير الأمرين، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير، فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة فى التلاوة لمطابقتها لحالها والله أعلم. وقول الزمخشرى: ولا ليس بهو، إن كان من قوله فوهم، والصواب: ولا ليس به، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢) قوله «وطبقت المفصل» لعله: وطابقت. (ع)

عليه السلام قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة، تعنى: ما تبينت من الآيات عند وفدة المنذر ودخلنا فى الإسلام، ثم قال الله تعالى: وصدها قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل. وقيل: وصدها الله - أو سليمان - عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل. وقرئ: أنها، بالفتح على أنه بدل من فاعل صد. أو بمعنى لأنها.

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)

الصرح: القصر. وقيل: صحن الدار. وقرأ ابن كثير: سأقيها، بالهمزة. ووجهه أنه سمع: سؤقا، فأجرى عليه الواحد. والممرد: المملس. وروى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره، ووضع سريره فى صدره، فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لأمره، وتحققا لنبوته، وثباتا على الدين. وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضى إليه بأسرارهم، لأنها كانت بنت جنية. وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد تجتمع له فطنة الجن والإنس، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد وأفظع، فقالوا له: إن فى عقلها شيئا، وهى شعراء الساقين، ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها، فكشفت عنهما فإذا هى أحسن الناس ساقا وقدما لا أنها شعراء، ثم صرف بصره وناداها ﴿إنه صرح ممرد من قوارير﴾ وقيل: هى السبب فى اتخاذ النورة: أمر بها الشياطين فاتخذوها، واستنكحها سليمان عليه السلام وأحبها وأقرها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان [1]، وكان يزورها فى الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام، وولدت له. وقيل: بل زوجها ذا تبع ملك همدان، وسلطه على اليمن، وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه، فبنى له المصانع، ولم يزل أميرا حتى مات سليمان ﴿ظلمت نفسى﴾ تريد بكفرها فيما تقدم، وقيل حسبت أن سليمان عليه السلام يغرقها فى اللجة فقالت: ظلمت نفسى بسوء ظنى بسليمان عليه السلام.

---

(١) قوله «فبنوا لها سيلحين وغمدان» فى الصحاح «سيلحون»: قرية. وفيه فى فصل «نصب»: أن للعرب فى نصيبين ونحوه كبيرين وفلسطين وسيلحين وياسمين وقنسرين: مذهبين، أحدهما: لزوم الياء وإعراب ما لا ينصرف. والثانى: إعراب الجمع بالياء والنون نصباً وجراً، وبالواو والنون رفعاً. وفى فصل «غمد»: غمدان: قصر باليمن. وفى فصل «صنع» المصانع: الحصون. (ع)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾

وقرئ: أن اعبدوا، بالضم على إتباع النون الباء ﴿فريقان﴾ فريق مؤمن وفريق كافر. وقيل أريد بالفريقين صالح عليه السلام وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد ﴿يختصمون﴾ يقول كل فريق: الحق معى. السيئة: العقوبة، والحسنة: التوبة، فإن قلت: ما معنى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة؟ وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقعتين إحداهما قبل الأخرى؟ قلت: كانوا يقولون لجهلهم: إن العقوبة التى يعدها صالح عليه السلام إن وقعت على زعمه، تبنا حينئذ واستغفرنا ـ مقدرين أن التوبة مقبولة فى ذلك الوقت ـ . وإن لم تقع، فنحن على ما نحن عليه، فخاطبهم صالح عليه السلام على حسب قولهم واعتقادهم، ثم قال لهم: هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب؟ ﴿لعلكم ترحمون﴾ تنبيها لهم على الخطأ فيما قالوه؛ وتجهيلا فيما اعتقدوه.

قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

وكان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره، فإن مرّ سانحا[1] تيمن، وإن مر بارحا تشاءم، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر، استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته: أو من عمل العبد الذى هو السبب فى الرحمة والنقمة. ومنه قالوا: طائر الله لا طائرك، أى: قدر الله الغالب الذى ينسب إليه الخير والشر، لا طائرك الذى تتشاءم به وتتيمن، فلما قالوا: اطيرنا بكم، أى: تشاءمنا وكانوا قد قحطوا ﴿قال طائركم عند الله﴾ أى سببكم الذى يجىء منه خيركم وشركم عند الله، وهو قدره وقسمته، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم. ويجوز أن يريد: عملكم مكتوب عند الله، فمنه نزل بكم ما نزل. عقوبة لكم وفتنة. ومنه قوله (طائركم معكم)، (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه). وقرئ: تطيرنا بكم، على الأصل. ومعنى: تطير به: تشاءم به. وتطير منه: نفر منه ﴿تفتنون﴾ تختبرون. أو تعذبون. أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة.

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ

(١) قوله «فان مرّ سانحا تيمن ... الخ» السانح: ماولاك ميامنه من ظبى أو طائر أو غيرهما، بأن يمر من مياسرك إلى ميامنك. والبارح: ماولاك مياسره بأن يمر من ميامنك إلى مياسرك، كذا فى الصحاح. (ع)

وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾
فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾
وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

﴿المدينة﴾ الحجر . وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنه فى معنى الجماعة ، فكأنه قيل : تسعة أنفس . والفرق بين الرهط والنفر : أن الرهط من الثلاثة إلى العشرة ، أو من السبعة إلى العشرة. والنفر من الثلاثة إلى التسعة وأسماؤهم عن وهب : الهذيل بن عبد رب . غنم بن غنم . رباب بن مهرج . مصدع بن مهرج . عمير بن كردبة . عاصم بن مخرمة . سبيط بن صدقة . سمعان بن صفى . قدار بن سالف : وهم الذين سعوا فى عقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح عليه السلام ، وكانوا من أبناء أشرافهم ﴿ولا يصلحون﴾ يعنى أن شأنهم الإفساد البحت الذى لا يخلط بشىء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح ﴿تقاسموا﴾ يحتمل أن يكون أمرا وخبراً فى محل الحال بإضمار قد ، أى : قالوا متقاسمين : وقرئ : تقسموا . وقرئ : لتبيتنه ، بالتاء والياء والنون ، فتقاسموا ـ مع النون والتاء ـ يصح فيه الوجهان . ومع الياء لا يصح إلا أن يكون خبراً. والتقاسم ، والتقسم : كالتظاهر ، والتظهر : التحالف . والبيات : مباغتة العدو ليلا[1] . وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال : ليس من آيين الملوك[2] استراق الظفر ، وقرئ : مهلك بفتح الميم واللام وكسرها من هلك . ومهلك بضم الميم من أهلك . ويحتمل المصدر والزمان والمكان ، فإن قلت : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا ، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه[3] ؟ قلت كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين ثم قالوا

---

(١) قوله «والبيات مباغتة العدو ليلا» فى الصحاح «بيت العدو» أى : أوقع بهم ليلا ، والاسم : البيات . (ع)

(٢) قوله «ليس من آيين الملوك» تقدم آنفاً أنه قيل : آيين الملك : مراتبه وبهاؤه ، كما وجد بهامش . (ع)

(٣) قال محمود : «إن قلت : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا ، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه ؟ قلت : كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أهله وجمعوا بين البياتين جميعاً لا لأحدهما كانوا صادقين ، وفى هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم ، ألا تراهم قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سووا للصدق حيلة يتفصون بها عن الكذب ، قال أحمد : وحيلة الزمخشرى لتصحيح قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل أقرب من حيلتهم التى سماها الله تعالى مكراً ؛ لأن غرضه من تمهيد حيلتهم أن يستشهد على صحة القاعدة المذكورة فى موافقة قوم لوط عليها ، إذ استقبحوا الكذب بعقولهم لا بالشرع . وأنى يتم له ذلك أو لهم ، وهم كاذبون صريح الكذب فى قولهم (ما شهدنا مهلك أهله) وذلك =

ما شهدنا مهلك أهله ؛ فذكروا أحدهما : كانوا صادقين ، لأنهم فعلوا البياتين جميعاً لا أحدهما وفى هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم . ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سووا للصدق فى خبرهم حيلة يتفصون بها عن الكذب [1] . مكرهم : ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله . ومكر الله : إهلاكهم من حيث لا يشعرون . شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة . روى أنه كان لصالح مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه ، فقالوا : زعم صالح عليه السلام أنه يفرغ منا إلى ثلاث ، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث . فخرجوا إلى الشعب وقالوا : إذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم . فبعث الله صخرة من الهضب [2] حيالهم، فبادروا ، فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب . فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم، وعذب الله كلا منهم فى مكانه ، ونجى صالحاً ومن معه . وقيل : جاءوا بالليل شاهرى سيوفهم ، وقد أرسل الله الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة : يرون الحجارة ولا يرون رامياً ﴿ أنا دمرناهم ﴾ استئناف . ومن قرأ بالفتح رفعه بدلا من العاقبة ، أو خبر مبتدإ محذوف تقديره: هى تدميرهم . أو نصبه على معنى : لأنا . أو على أنه خبر كان ، أى : كان عاقبة مكرهم الدمار ﴿ خاوية ﴾ حال عمل فيها مادل عليه تلك . وقرأ عيسى بن عمر : خاوية ، بالرفع على خبر المبتدإ المحذوف .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ لوطاً ﴾ أو أرسلنا لوطاً لدلالة (ولقد أرسلنا) عليه . و ﴿ إذا ﴾ بدل على

أنهم فعلوا الأمرين ، ومن فعل الأمرين فجحد فعل أحدهما لم يكن فى فريته مرية ، وإنما كانت الحيلة تتم لو فعلوا أمراً فادعي عليهم فعل أمرين ، فجحدوا المجموع . ومن ثم لم تختلف العلماء فى أن من حلف لا أضرب زيداً ، فضرب زيداً وعمراً : كان حانثاً ، بخلاف الحالف لا أضرب زيداً وعمراً فضرب عمراً ، ولا آكل رغيفين فأكل أحدهما ، فان مثل هذا محل خلاف العلماء فى الحنث وعدمه ، فاذا تمهد أن هؤلاء كاذبون صراحا فى قولهم (ما شهدنا مهلك أهله) وأنه لا حيلة لهم فى الخلاص من الكذب ، فلا يخلو أمرهم أن يكونوا عقلاء فهم لا يتواطؤون على اعتقاد الصدق بهذه الحيلة ، مع القطع بأنها ليست حيلة ، ولا شبهة لقرب جحدهم من الصدق ، فيبطل ما قال الزمخشرى لاثبات قاعدة دينه على زعمه ، إذ قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل من قواعد عقائد القدرية ، بموافقة قوم غير عقلاء على صحتها ، لحسبه مارضى به لدينه ، والسلام .

(١) قوله «حيلة يتفصون بها عن الكذب» فى الصحاح «تفصى الانسان» : إذا تخلص من البلية والضيق ، وتفصيت من الديون : إذا خرجت منها وتخلصت . (ع)

(٢) قوله «صخرة من الهضب حيالهم» أي من المطر المتتابع مطرة بعد مطرة ، وقعد حياله : أى إزاءه . وأصله الواو ، أفاده الصحاح . (ع)

الأول ظرف على الثانى ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ من بصر القلب ، أى : تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها ، وأن الله إنما خلق الأنثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر ، ولا الأنثى للأنثى ، فهى مضادة لله فى حكمته وحكمه ، وعلمكم بذلك أعظم لذنوبكم وأدخل فى القبح والسماجة . وفيه دليل على أن القبيح من الله أقبح منه من عباده ؛ لأنه أعلم العالمين وأحكم الحاكمين . أو تبصرونها بعضكم من بعض ، لأنهم كانوا فى ناديهم يرتكبونها معالنين بها ، لا يتستر بعضهم من بعض خلاعة ومجانة ، وانهماكا فى المعصية ، وكأن أبا نواس بنى على مذهبهم قوله :

وَبُحْ بِاسْمِ مَا تَأْتِى وَذَرْنِى مِنَ الْكُنَى فَلَا خَيْرَ فِى اللَّذَّاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ (١)

أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم . فإن قلت : فسرت تبصرون بالعلم وبعده ﴿ بل أنتم قوم تجهلون ﴾ فكيف يكونون علماء وجهلاء ؟ قلت : أراد : تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك . أو تجهلون العاقبة . أو أراد بالجهل . السفاهة والمجانة التى كانوا عليها فإن قلت : (تجهلون) صفة لقوم ، والموصوف لفظه لفظ الغائب ، فهلا طابقت الصفة الموصوف فقرئ بالياء دون التاء ؟ وكذلك بل أنتم قوم تفتنون ؟ قلت : اجتمعت الغيبة والمخاطبة ، فغلبت المخاطبة ، لأنها أقوى وأرسخ أصلا من الغيبة .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨)

وقرأ الأعمش : جواب قومه ، بالرفع . والمشهورة أحسن ﴿ يتطهرون ﴾ يتنزهون عن القاذورات كلها ، فينكرون هذا العمل القذر ، ويغيظنا إنكارهم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو استهزاء ﴿ قدرناها ﴾ قدرنا كونها ﴿ من الغابرين ﴾ كقوله (قدرنا إنها لمن الغابرين) فالتقدير واقع على الغبور فى المعنى .

---

(١) ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر
وبح باسم من تهوى وذرنى من الكنى فلا خير فى اللذات من دونها ستر

لأبى نواس . وألا استفتاحية للتنبيه ، فكأنه قال : تنبه فاسقنى . وقل لى هى الخمر : أى اجهر باسمها . وقوله : إذا أمكن الجهر : احترس . وباح الشىء : ظهر . وباح به : أظهره ، أى : أظهر اسم من تحب كما تبوح باسم الخمر . ويروى وبح باسم ما تأتى ، أى : ما تفعل . ودعنى : أى اتركنى : ضمنه معنى باعدنى فعداه بمن ، كناية عن نهيه عن ذكر الكنى : جمع كنية : وهو ما دل على الشىء دلالة خفية ، وشبه العبارة الخفية بالستر الحائل تصريحا .

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)

أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين، والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع. ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله عزّ وجل وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد وقبل كل عظة وتذكرة، وفى مفتتح كل خطبة، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم فى الفتوح والتهانى وغير ذلك من الحوادث التى لها شأن. وقيل: هو متصل بما قبله، وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين. وقيل: هو خطاب للوط عليه السلام، وأن يحمد الله على هلاك كفار قومه، ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم. معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه، وإنما هو إلزام لهم وتبكيت[1] وتهكم بحالهم، وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله، ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة، فقيل لهم، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى وعبثاً، لينبهوا على الخطإ المفرط والجهل المورط وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول وليعلموا أنّ الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد. ونحوه ما حكاه عن فرعون (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين) مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التى كانت تجرى تحته. ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التى هى آثار رحمته وفضله، كما عدّدها فى موضع آخر ثم قال: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء. وقرئ: يشركون بالياء والتاء. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه كان إذا قرأها يقول «بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم[2]».

(١) قال محمود: «معلوم أن لا خير فيما أشركوه حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه، وإنما هو إلزام لهم وتبكيت» قال أحمد: كلام مرضى بعد أن تضع (خالق كل شيء) مكان قوله (خالق كل خير) فانه تخصيص قدرى: أو إشراك خفى. والتوحيد الأبلج: ماقلناه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(٢) كذا ذكره الثعلبي بغير إسناد. وأخرجه البيهقى فى الشعب فى الباب التاسع من رواية جابر الجعفى عن أبى جعفر قال «كان على بن الحسين يذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم إذا ختم القرآن - فذكر حديثا طويلا - وفيه والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أم مايشركون؟ بل الله خير وأجل وأبقى وأكرم وأعظم عما يشركون».

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَـٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)

فإن قلت : ما الفرق بين أم وأم فى (أم ما تشركون) و (أمّن خلق) ؟ قلت : تلك متصلة ؛ لأنّ المعنى : أيهما خير . وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة ، لما قال الله تعالى : آلله خير أم الآلهة ؟ قال : بل أمّن خلق السموات والأرض خير ؟ تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء . وقرأ الأعمش : أَمَن ، بالتخفيف . ووجهه أن يجعل بدلا من الله ، كأنه قال : أمّن خلق السموات والأرض خير أم ما تشركون ؟ فإن قلت : أى نكتة فى نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته فى قوله فأنبتنا ؟ قلت : تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته ، والإيذان بأنّ إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد . لا يقدر عليه إلا هو وحده . ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ ومعنى الكينونة : الانبغاء . أراد أن تأتى ذلك محال من غيره ، وكذلك قوله (بل هم) بعد الخطاب : أبلغ فى تخطئة رأيهم . والحديقة : البستان عليه حائط : من الإحداق وهو الإحاطة . وقيل (ذات) ؛ لأنّ المعنى : جماعة حدائق ذات بهجة ، كما يقال : النساء ذهبت . والبهجة : الحسن ، لأنّ الناظر يبتهج به ﴿أإله مع الله﴾ أغيره يقرن به ويجعل شريكا له . وقرئ : أإلها مع الله ، بمعنى : أتدعون ، أو أتشركون . ولك أن تحقق الهمزتين وتوسط بينهما مدّة ، وتخرج الثانية بين بين ﴿يعدلون﴾ به غيره أو يعدلون عن الحق الذى هو التوحيد .

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَـٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)

﴿أمن جعل﴾ وما بعده بدل من (أمّن خلق) فكان حكمهما حكمه ﴿قراراً﴾ دحاها وسوّاها بالاستقرار عليها ﴿حاجزا﴾ كقوله : برزخاً .

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)

الضرورة : الحالة المحوجة إلى اللجإ . والاضطرار : افتعال منها . يقال : اضطره إلى كذا

والفاعل والمفعول : مضطر . والمضطر الذى أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجإ والتضرع إلى الله . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو المجهود . وعن السدى : الذى لا حول له ولا قوة . وقيل : المذنب إذا استغفر . فإن قلت : قد عم المضطرين بقوله (يجيب المضطر إذا دعاه) وكم من مضطر يدعوه فلا يجاب[1] ؟ قلت : الإجابة موقوفة على أن يكون المدعو به مصلحة ، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطا فيه المصلحة . وأما المضطر فمتناول للجنس مطلقاً ، يصلح لكله ولبعضه ، فلا طريق إلى الجزم على أحدهما إلا بدليل ، وقد قام الدليل على البعض وهو الذى أجابته مصلحة ، فبطل التناول على العموم ﴿خلفاء الأرض﴾ خلفاء فيها ، وذلك توارثهم سكناها والتصرف فيها قرنا بعد قرن . أو أراد بالخلافة الملك والتسلط . وقرئ : يذكرون ، بالياء مع الإدغام . وبالتاء مع الإدغام والحذف . وما مزيدة ، أى : يذكرون تذكرا قليلا . والمعنى : نفى التذكر ، والقلة تستعمل فى معنى النفى .

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ أَءِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)

﴿يهديكم﴾ بالنجوم فى السماء ، والعلامات فى الأرض : إذا جن الليل عليكم مسافرين فى البر والبحر .

أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ (٦٤)

فإن قلت : كيف قيل لهم ﴿أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ وهم منكرون للإعادة ؟ قلت : قد أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة والإقرار ، فلم يبق لهم عذر فى الإنكار ﴿من السماء﴾ الماء ﴿و﴾ من ﴿الأرض﴾ النبات ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن مع الله إلها ، فأين دليلكم عليه ؟

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)

---

(١) قال محمود ، إن قلت فكم من مضطر لا يجاب ؟ قلت : الاجابة موقوفة على كون المدعو به مصلحة ، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطاً فيه المصلحة ، قال أحمد : الصواب أن الاجابة مقرونة بالمشيئة لا بالمصلحة ، وإنما تقف الاجابة على المصلحة عند القدرية ، لايجابهم على الله تعالى رعاية المصالح ، فقول الزمخشرى : لا يحسن الدعاء من العبد إلا شارطا فيه المصلحة : فاسد ؛ فان المشيئة شرط فى إجابة الدعاء اتفاقا ، ومع ذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول الداعى : اللهم اغفر لى إن شئت .

فإن قلت : لم رفع اسم الله ، والله يتعالى أن يكون ممن فى السموات والأرض ؟ قلت : جاء على لغة بنى تميم ، حيث يقولون : مافى الدار أحد إلا حمار ، يريدون : مافيها إلا حمار ، كأنّ أحداً لم يذكر . ومنه قوله :

عَشِيَّةَ مَاتُغنِي الرِّمَاحُ مَكَانَهَا وَلَا النَّبْلُ إلَّا الْمَشْرَفِيُّ الْمُصَمِّمُ (١)

وقولهم : ماأتانى زيد إلا عمرو ، وما أعانه إخوانكم إلا إخوانه . فإن قلت : ماالداعى إلى اختيار المذهب التميمى على الحجازى ؟ قلت : دعت إليه نكتة سَرية (٢) . حيث أخرج المستثنى مخرج قوله : إلا اليعافير ، بعد قوله : ليس بها أنيس ، ليؤول المعنى إلى قولك : إن كان الله ممن فى السموات والأرض ، فهم يعلمون الغيب ، يعنى : أنّ علمهم الغيب فى استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم ، كما أنّ معنى مافى البيت (٣) : إن كانت اليعافير أنيساً ففيها أنيس ، بتا للقول بخلوها عن الأنيس . فإن قلت : هلا زعمت أنّ الله ممن فى السموات والأرض ، كما يقول المتكلمون : الله فى كل مكان ، على معنى أنّ علمه فى الأماكن كلها ، فكأن ذاته فيها حتى لاتحمله على مذهب بنى تميم ؟ قلت : يأبى ذلك أن كونه فى السموات والأرض مجاز ، وكونهم فيهن حقيقة ، وإرادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازاً غير صحيحة ، على أنّ قولك : من فى السموات والأرض . وجمعك بينه وبينهم فى إطلاق اسم واحد : فيه إيهام تسوية ، والإيهامات مزالة عنه وعن صفاته تعالى . ألا ترى كيف قال صلى الله عليه وسلم لمن قال : ومن يعصهما فقد غوى : « بئس خطيب القوم أنت (٤) » وعن عائشة رضى الله عنها : من زعم أنه يعلم مافى غد فقد أعظم على الله الفرية (٥) ، والله تعالى يقول : (قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب

---

(١) النبل : السهام العربية . والمشرفى : السيف ، نسبة لمشارف اليمن . والمصمم : الماضى النافذ لصلابته ، وكانت عادة المتحاربين التناضل بالسهام عند التباعد ، فاذا تقاربوا تحاربوا بالرماح ، فاذا التقوا تضاربوا بالسيوف . وذكر النبل بعد الرماح لدفع توهم بعد العدو ، فكأن النبل يغنى عن غيره ، فالبيت كناية عن شدة الأمر واختلاط الصفين . وضمير مكانها للحرب أو للسيوف ، والاستثناء منقطع بعد النفى ، ويجب نصبه عند الحجازيين . ويجوز رفعه كما هنا عند التميميين : إما على البدل ، أو على توهم أن المستثنى منه غير مذكور ، وأن العامل مفرغ لما بعد « إلا » .

(٢) قوله « دعت إليه نكتة سرية » لعله بزنة فعيلة ، فيكون بمعنى شريفة . (ع)

(٣) قوله : « معنى مافى البيت » هو قول الشاعر :

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس (ع)

(٤) أخرجه مسلم من حديث عدى بن حاتم .

(٥) متفق عليه من حديثها فى أثناء حديث .

إلا الله) . وعن بعضهم : أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحداً ؛ لئلا يأمن أحد من عبيده مكره . وقيل : نزلت فى المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة ﴿أيان﴾ بمعنى متى ، ولو سمى به : لكان فعالا ، من آن يئين ولانصرف . وقرئ : إيان ، بكسر الهمزة .

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

وقرئ : بل أدَّرك . بل ادَّراك . بل ادَّارك . بل تدارك . بل أأدرك ، بهمزتين . بل آأدرك ، بألف بينهما . بل ادرك ، بالتخفيف والنقل . بل ادّرك ، بفتح اللام وتشديد الدال . وأصله : بل أدرك ؟ على الاستفهام . بلى أدرك . بلى أأدرك . أم تدارك . أم أدرك ؛ فهذه ثنتا عشرة قراءة . وادّارك : أصله تدارك ، فأدغمت التاء فى الدال . وادّرك : افتعل . ومعنى أدرك علمهم : انتهى وتكامل . وادّرك : تتابع واستحكم . وهو على وجهين ، أحدهما : أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لاريب فيه ، قد حصلت لهم ومكنوا من معرفته ، وهم شاكون جاهلون ، وهو قوله (بل هم فى شك منها بل هم منها عمون) : يريد المشركين ممن فى السموات والأرض ؛ لأنهم لما كانوا فى جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع ، كما يقال : بنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله ناس منهم . فإن قلت : إن الآية سيقت لاختصاص الله بعلم الغيب ، وأن العباد لاعلم لهم بشىء منه وأن وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لايشعرون به ، فكيف لاءم هذا المعنى وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة ؟ قلت : لما ذكر أن العباد لايعلمون الغيب ، ولايشعرون بالبعث الكائن ووقته الذى يكون فيه ، وكان هذا بيانا لعجزهم ووصفاً لقصور علمهم : وصل به أن عندهم عجزا أبلغ منه ، وهو أنهم يقولون للكائن الذى لابدّ أن يكون ـ وهو وقت جزاء أعمالهم ـ : لايكون ، مع أن عندهم أسباب معرفة كونه واستحكام العلم به . والوجه الثانى : أن وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكم بهم ، كما تقول لأجهل الناس : ماأعلمك ! على سبيل الهزؤ ، وذلك حيث شكوا وعموا عن إثباته الذى الطريق إلى علمه مسلوك ، فضلا أن يعرفوا وقت كونه الذى لاطريق إلى معرفته : وفى : أدرك علمهم ، وادارك علمهم : وجه آخر ، وهو أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى ، من قولك : أدركت الثمرة ؛ لأن تلك غايتها التى عندها تعدم : وقد فسره الحسن رضى الله عنه باضمحل علمهم وتدارك ، من تدارك بنو فلان : إذا تتابعوا فى الهلاك . فإن قلت ، فما وجه قراءة من قرأ : بل أأدرك على الاستفهام ؟ قلت : هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم ، وكذلك من قرأ : أم أدرك . وأم تدارك ؛ لأنها أم التى بمعنى بل والهمزة . فإن قلت : فمن قرأ :

بلى أدرك ، وبلى أأدرك ؟ قلت : لما جاء ببلى . بعد قوله (وما يشعرون) كان معناه : بلى يشعرون ، ثم فسر الشعور بقوله : أدرك علمهم فى الآخرة على سبيل التهكم الذى معناه المبالغة فى نفى العلم ، فكأنه قال : شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها ، فيرجع إلى نفى الشعور على أبلغ ما يكون . وأما من قرأ : بلى أأدرك ؟ على الاستفهام فمعناه : بلى يشعرون متى يبعثون ، ثم أنكر علمهم بكونها ، وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها ؛ لأنّ العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن ﴿فى الآخرة﴾ فى شأن الآخرة ومعناها . فإن قلت : هذه الاضرابات الثلاث ما معناها ؟ قلت : ماهى إلا تنزيل لأحوالهم : وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون وقت البعث ، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ، ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة . ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض : كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل ، ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى ، وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه ، لا يخطر بباله حقا ولا باطلا . ولا يفكر فى عاقبة . وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه فلذلك عداه بمن دون عن ؛ لأنّ الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذى جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

العامل فى ﴿إذا﴾ مادلّ عليه ﴿أئنا لمخرجون﴾ وهو نخرج ؛ لأنّ بين يدى عمل اسم الفاعل[1] فيه عقابا وهى همزة الاستفهام ، وإن ولام الابتداء وواحدة منها كافية ، فكيف إذا اجتمعن ؟ والمراد : الإخراج من الأرض . أو من حال الفناء إلى الحياة ، وتكرير حرف الاستفهام بادخاله على «إذا» و «إن» جميعا إنكار على إنكار ، وجحود عقيب جحود ، ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه . والضمير فى (إنا) لهم ولآبائهم ؛ لأنّ كونهم ترابا قد تناولهم وآباءهم . فإن قلت : قدّم فى هذه الآية (هذا) على (نحن وآباؤنا) وفى آية أخرى قدّم (نحن وآباؤنا) على (هذا) ؟ قلت . التقديم دليل على أن المقدّم هو الغرض المتعمد بالذكر ، وإن الكلام إنما سيق لأجله ، ففى إحدى الآيتين دلّ على أن اتخاذ البعث هو الذى تعمد بالكلام ، وفى الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد .

(١) قوله «واسم الفاعل فيه عقابا» لعله اسم المفعول وعقابا جمع عقبة . أفاده الصحاح . وعبارة النسفى : لأن اسم الفاعل والمفعول - بعد همزة الاستفهام أو أن أو لام الابتداء - لا يعمل فيما قبله ، فكيف إذا اجتمعن . (ع)

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

لم تلحق علامة التأنيث بفعل العاقبة ؛ لأنّ تأنيثها غير حقيقي ؛ ولأنّ المعنى : كيف كان آخر أمرهم ؟ وأراد بالمجرمين: الكافرين ، وإنما عبر عن الكفر بلفظ الإجرام ليكون لطفاً للمسلمين فى ترك الجرائم وتخوف عاقبتها. ألا ترى إلى قوله (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم) وقوله :(مما خطيآتهم أغرقوا) . ﴿ولا تحزن عليهم﴾ لأنهم لم يتبعوك، ولم يسلموا فيَسلموا وهم قومه قريش ، كقوله تعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) . ﴿فى ضيق﴾ فى حرج صدر من مكرهم وكيدهم لك ، ولا تبال بذلك فإن الله يعصمك من الناس . يقال : ضاق الشيء ضيقاً وضيقا ، بالفتح والكسر . وقد قرئ بهما . والضيق أيضاً : تخفيف الضيق . قال الله تعالى (ضيقاً حرجا) قرئ مخففاً ومثقلا ويجوز أن يراد فى أمر ضيق من مكرهم .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾

استعجلوا العذاب الموعود فقيل لهم (عسى أن يكون) ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء فى (ولا تلقوا بأيديكم) أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو: دنا لكم وأزف لكم ، ومعناه : وتبعكم ولحقكم ، وقد عدى بمن قال :

فَلَمَّا رَدِفْنَا مِنْ عُمَيْرٍ وَصَحْبِهِ ... تَوَلَّوْا سِرَاعًا وَالْمَنِيَّةُ تُعْنِقُ (١)

يعنى : دنونا من عمير ، وقرأ الأعرج : ردف لكم ، بوزن ذهب ، وهما لغتان ، والكسر أفصح . وعسى ولعل وسوف ـ فى وعد الملوك ووعيدهم ـ يدل على صدق الأمر وجدّه وما لا مجال للشكّ بعده ، وإنما يعنون بذلك : إظهار وقارهم وأنهم لا يعجلون بالانتقام ؛ لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم أنّ عدوّهم لا يفوتهم ، وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم ؛ فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده .

---

(١) ردف كتبع يتعدى بنفسه ، وضمن هنا معنى الدنو فعدى بمن ، وأعنق الفرس : سار سيراً سريعاً سهلا . والعنق : اسم منه يقول : فلما دنونا من عمير وأصحابه للحرب أدبروا مسرعين ، والحال أن الموت يسرع خلفهم من جهتنا . شبه المنية بالأسد على طريق المكنية ، فأثبت لها العنق تخييلا ، كأنهم كانوا تبعوهم برمى النبال . ويجوز أنه استعار المنية لنفسه وقومه على طريق التصريح ، أى : ونحن نسرع خلفهم ، فذكر العنق تجريد ؛ لأنه يلائم المشبه .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣)

الفضل والفاضلة : الإفضال . ولفلان فواضل فى قومه وفضول . ومعناه : أنه مفضل عليهم بتأخير العقوبة ، وأنه لا يعاجلهم بها ، وأكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا يشكرونه ، ولكنهم بجهلهم يستعجلون وقوع العقاب : وهم قريش .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤)

قرئ تكن . يقال : كننت الشيء وأكننته : إذا سترته وأخفيته ، يعنى : أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكايدهم ، وهو معاقبهم على ذلك بما يستوجبونه .

وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥)

سمى الشيء الذى يغيب ويخفى : غائبة وخافية ، فكانت التاء فيهما بمنزلتها فى العافية والعاقبة . ونظائرهما : النطيحة ، والرمية ، والذبيحة : فى أنها أسماء غير صفات . ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة ، كالراوية فى قولهم : ويل للشاعر من راوية السوء ، كأنه قال : وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبته فى اللوح . المبين: الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة .

إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦)
وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)

قد اختلفوا فى المسيح فتحزبوا فيه أحزابا ، ووقع بينهم التناكر فى أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضا ، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا ، يريد : اليهود والنصارى ﴿ للمؤمنين ﴾ لمن أنصف منهم وآمن ، أى : من بنى إسرائيل . أو منهم ومن غيرهم .

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨)

﴿ بينهم ﴾ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به . فإن قلت : ما معنى يقضى بحكمه ؟ ولا يقال: زيد يضرب بضربه ويمنع بمنعه ؟ قلت . معناه بما يحكم به وهو عدله ، لأنه لا يقضى إلا بالعدل ، فسمى المحكوم به حكماً . أو أراد بحكمته ـ وتدل عليه قراءة من قرأ بحكمه ـ : جمع حكمة . ﴿ وهو العزيز ﴾ فلا يرد قضاؤه ﴿ العليم ﴾ بمن يقضى له وبمن يقضى عليه ، أو العزيز فى انتقامه من المبطلين ، العليم بالفصل بينهم وبين المحقين .

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

أمره بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين، وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذى لا يتعلق به الشك والظن. وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته. وأن مثله لا يخذل. فإن قلت: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ يشبه أن يكون تعليلا آخر للتوكل، فما وجه ذلك؟ قلت: وجهه أن الأمر بالتوكل جعل مسبباً عما كان يغيظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة المشركين وأهل الكتاب: من ترك اتباعه وتشييع ذلك بالأذى والعداوة، فلاءم ذلك أن يعلل توكل متوكل مثله، بأن اتباعهم أمر قد يئس منه، فلم يبق إلا الاستنصار عليهم لعداوتهم واستكفاء شرورهم وأذاهم، وشبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله ـ فكانوا أقماع القول لا تعيه آذانهم وكان سماعهم كلا سماع ـ : كانت حالهم ـ لانتفاء جدوى السماع ـ : كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع؛ وكذلك تشبيههم بالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون. وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم، وأن يجعلهم هداة بصراء إلا الله عز وجل. فإن قلت: ما معنى قوله ﴿إذا ولوا مدبرين﴾؟ قلت: هو تأكيد لحال الأصم، لأنه إذا تباعد عن الداعى بأن يولى عنه مدبرا كان أبعد عن إدراك صوته. وقرئ: ولا يسمع الصم، وما أنت بهاد العمى، على الأصل. وتهدى العمى. وعن ابن مسعود: وما أن تهدى العمى، وهداه عن الضلال. كقولك: سقاه عن العيمة[1] أى: أبعده عنها بالسقى، وأبعده عن الضلال بالهدى ﴿إن تسمع﴾ أى ما يجدى إسماعك إلا على الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته، أى: يصدقون بها ﴿فهم مسلمون﴾ أى مخلصون من قوله (بلى من أسلم وجهه لله) يعنى: جعله سالما لله خالصا له.

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

سمى معنى القول ومؤداه بالقول، وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب، ووقوعه: حصوله. والمراد: مشارفة الساعة وظهور أشراطها وحين لا تنفع التوبة. ودابة الأرض:

(١) قوله «سقاه عن العيمة» هى شهوة اللبن كما فى الصحاح. (ع)

الجساسة . جاء في الحديث : أنّ طولها ستون ذراعا ، لايدركها طالب ، ولايفوتها هارب [١]. وروى : لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان . وعن ابن جريج في وصفها : رأس ثور ، وعين خنزير ، وأذن فيل ، وقرن إيل ، وعنق نعامة ، وصدر أسد ، ولون نمر ، وخاصرة هرّ ، وذنب كبش ، وخف بعير . وما بين المفصلين : اثنا عشر ذراعاً بذراع آدم عليه السلام . وروى : لا تخرج إلا رأسها ، ورأسها يبلغ أعنان السماء [٢]، أو يبلغ السحاب . وعن أبي هريرة : فيها من كل لون ، وما بين قرنيها فرسخ للراكب . وعن الحسن رضى الله عنه : لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام . وعن علي رضى الله عنه : أنها تخرج ثلاثة أيام ، والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه سئل : من أين تخرج الدابة ؟ فقال « من أعظم المساجد حرمة على الله [٣] » يعني المسجد الحرام . وروى : أنها تخرج ثلاث خرجات : تخرج بأقصى اليمن ثم تتكمن ، ثم تخرج بالبادية ثم تتكمن دهراً طويلا ، فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله ، فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد ، فقوم يهربون وقوم يقفون نظارة . وقيل : تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية بلسان ذلق [٤] فتقول ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ يعني أن الناس كانوا لا يوقنون بخروجي ؛ لأنّ خروجها من الآيات ، وتقول : ألا لعنة الله على الظالمين . وعن السدى : تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين الإسلام . وعن ابن عمر رضى الله عنه : تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل المشرق ، ثم الشام ثم اليمن فتفعل مثل ذلك . وروى : تخرج من أجياد [٥] . وروى : بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون ، إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل ، وينشق الصفا مما يلي المسعى ، فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، فتضرب المؤمن في مسجده ، أو فيما بين عينيه بعصا موسى عليه السلام ، فتنكت نكتة

---

(١) أخرجه الثعلبي من حديث حذيفة دون قوله « وهي الجساسة » وسيأتي بعضه للحاكم وغيره في الذي بعده .

(٢) قوله « ورأسها يبلغ أعنان السماء » في الصحاح « أعنان السماء » : صفائحها وما اعترض من أقطارها ، كأنه جمع عنن . والعامة تقول : عنان السماء . (ع)

(٣) أخرجه الطبري من طريق ربعي عن حذيفة بن اليمان : « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقلت يارسول الله ، من أين تخرج ؟ فقال : من أعظم المساجد حرمة على الله ... الحديث » وروى الحاكم والبيهقي في الشعب وإسحاق في مسنده وابن مردويه من حديث أبي الطفيل عن حذيفة عن أسيد رفعه قال « يكون للدابة ثلاث خرجات - إلى أن قال : بينما الناس في أعظم المساجد حرمة وخيرها وأكرمها : المسجد الحرام ، لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام ... الحديث . وفيه : ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب . ولا يفوتها هارب » وفي الباب عن ابن عباس : أخرجه ابن مردويه مطولا .

(٤) قوله « بلسان ذلق » أي طلق ، كما في الصحاح . (ع)

(٥) قوله « تخرج من أجياد » جبل بمكة ، سمى بذلك لموضع خيل تبع ، وسمى « قعيقعان » لموضع سلاحه . (ع)

بيضاء فتفشو تلك النكتة فى وجهه حتى يضيء لها وجهه أو فتترك وجهه كأنه كوكب درّى ، وتكتب بين عينيه : مؤمن : وتنكت الكافر بالخاتم فى أنفه ، فتفشو النكتة حتى يسودّ لها وجهه وتكتب بين عينيه : كافر . وروى : فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم ، ثم تقول لهم : يا فلان ، أنت من أهل الجنة . ويا فلان ، أنت من أهل النار . وقرئ : تكلمهم ، من الكلم وهو الجرح . والمراد به : الوسم بالعصا والخاتم . ويجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضاً ، على معنى التكثير . يقال : فلان مكلم ، أى مجرّح . ويجوز أن يستدل بالتخفيف على أنّ المراد بالتكليم : التجريح ، كما فسر : لنحرقنه ، بقراءة علىّ رضى الله عنه : لنحرقنه ، وأن يستدل بقراءة أبىّ : تنبئهم . وبقراءة ابن مسعود : تكلمهم بأنّ الناس ، على أنه من الكلام . والقراءة بإن مكسورة : حكاية لقول الدابة ، إما لأنّ الكلام بمعنى القول . أو بإضمار القول ، أى : تقول الدابة ذلك . أو هى حكاية لقوله تعالى عند ذلك . فإن قلت : إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف تقول بآياتنا قلت : قولها حكاية لقول الله تعالى . أو على معنى بآيات ربنا . أو لاختصاصها بالله وأثرتها عنده ، وأنها من خواص خلقه : أضافت آيات الله إلى نفسها ، كما يقول بعض خاصة الملك : خيلنا وبلادنا ، وإنما هى خيل مولاه وبلاده . ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار . أى : تكلمهم بأن .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿فهم يوزعون﴾ يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا فى النار . وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه ، كما وصفت جنود سليمان بذلك . وكذلك قوله (فوجاً) فإن الفوج الجماعة الكثيرة . ومنه قوله تعالى (يدخلون فى دين الله أفواجاً) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أبو جهل والوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة : يساقون بين يدى أهل مكة ، وكذلك يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار . فإن قلت : أى فرق بين من الأولى والثانية ؟ قلت : الأولى للتبعيض ، والثانية للتبيين ، كقوله (من الأوثان) .

حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾

الواو للحال ، كأنه قال : أكذبتم بها بادئ الرأى من غير فكر ولا نظر يؤدى إلى إحاطة العلم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب . أو للعطف ، أى : أجحدتموها ومع جحودكم لم تلقوا أذهانكم لتحققها وتبصرها ؛ فإن المكتوب إليه قد يجحد أن يكون الكتاب من عند من كتبه . ولا يدع مع ذلك أن يقرأه ويتفهم مضامينه ويحيط بمعانيه ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾

بها للتبكيت لا غير. وذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب، فلا يقدرون أن يكذبوا ويقولوا قد صدقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب. ومثاله أن تقول لراعيك ـ وقد عرفته رويعي سوء ـ : أتأكل نعمي، أم ماذا تعمل بها؟ فتجعل ما تبتدئ به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذى صحّ عندك من أكله وفساده، وترمى بقولك: أم ماذا تعمل بها، مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل؛ لتبهته[1] وتعلمه علمك بأنه لا يجيء منه إلا أكلها، وأنه لا يقدر أن يدعى الحفظ والإصلاح؛ لما شهر من خلاف ذلك. أو أراد: أما كان لكم عمل فى الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله، أم ماذا كنتم تعملون من غير ذلك؟ يعنى أنه لم يكن لهم عمل غيره، كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية، وإنما خلقوا للإيمان والطاعة: يخاطبون بهذا قبل كبهم فى النار ثم يكبون فيها، وذلك قوله ﴿ووقع القول عليهم﴾ يريد أن العذاب الموعود يغشاهم بسبب ظلمهم. وهو التكذيب بآيات الله. فيشغلهم عن النطق والاعتذار، كقوله تعالى (هذا يوم لا ينطقون).

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

جعل الإبصار للنهار وهو لأهله. فإن قلت: ما للتقابل لم يراع فى قوله (ليسكنوا) و(مبصراً) حيث كان أحدهما علة والآخر حالا؟ قلت: هو مراعى من حيث المعنى، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف؛ لأن معنى مبصرا: ليبصروا فيه طرق التقلب فى المكاسب.

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾

فإن قلت: لم قيل ﴿ففزع﴾ دون فيفزع؟ قلت: لنكتة وهى الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السموات والأرض؛ لأنّ الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به. والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون ﴿إلا من شاء الله﴾ إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة، قالوا: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت ـ عليهم السلام. وقيل: الشهداء. وعن الضحاك: الحور، وخزنة النار، وحملة العرش. وعن جابر: منهم موسى عليه السلام، لأنه صعق مرّة. ومثله قوله تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله). وقرئ: أتوه. وأتاه. ودخرين، فالجمع

(١) قوله «لتبهته» أى تدهشه وتحيره (ع)

على المعنى والتوحيد على اللفظ. والداخر والدخر: الصاغر. وقيل: مع الإتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية. ويجوز أن يراد رجوعهم إلى أمره وانقيادهم له.

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)

﴿جامدة﴾ من جمد فى مكانه إذا لم يبرح. تجمع الجبال فتسير كما تسير الريح السحاب، فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفة ثابتة فى مكان واحد ﴿وهى تمر﴾ مرا حثيثاً كما يمر السحاب. وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد: إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها، كما قال النابغة فى صفة جيش:

بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ وُقُوفٌ لِحَاجٍ وَالرِّكَابُ تُهَمْلِجُ [1]

﴿صنع الله﴾ من المصادر المؤكدة، كقوله (وعد الله). و(صبغة الله) إلا أن مؤكده محذوف، وهو الناصب ليوم ينفخ، والمعنى: ويوم ينفخ فى الصور وكان كيت وكيت أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين، ثم قال: صنع الله، يريد به: الإثابة والمعاقبة. وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التى أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب، حيث قال: صنع الله ﴿الذى أتقن كل شىء﴾ يعنى أن مقابلته الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب: من جملة إحكامه للأشياء وإتقانه لها، وإجرائه لها على قضايا الحكمة أنه عالم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه، فيكافئهم على حسب ذلك. ثم لخص ذلك بقوله ﴿من جاء بالحسنة﴾ إلى آخر الآيتين، فانظر إلى بلاغة هذا الكلام، وحسن نظمه وترتيبه، ومكانة إضماده، ورصانة تفسيره، [2] وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنما أفرغ إفراغا واحداً ولأمر ما أعجز القوى وأخرس الشقاشق [3]. ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب

(١) للنابغة. والأرعن: الجبل العالى. والطود: الجبل العظيم، فاستعار الأرعن للجيش؛ ثم شبهه بالطود ليفيد المبالغة فى الكثرة. والحاج: اسم جمع واحده حاجة. والركاب: المطى لا واحد له من لفظه. والهملجة: السير الرهو السهل، فارسى معرب. والهملاج: السريع. يقول: حاربنا العدو بجيش عظيم، تظنهم واقفين لحاجة لكثرتهم، والحال أن ركابهم تسرع السير.

(٢) قوله «ومكانة إضماده ورصانة تفسيره» الذى فى الصحاح «ضمد الجرح، يضمده ضمداً»: شده بعصابة وفيه «الرصين» المحكم الثابت. وقد رصن - بالضم - رصانة. (ع)

(٣) قوله «وأخرس الشقاشق» فى الصحاح «شقشق الفحل شقشقة»: هدر. وإذا قالوا للخطيب: ذو شقشقة، فانما يشبه بالفحل. (ع)

كلام ، جاء كالشاهد بصحته والمنادى على سداده ، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان . ألا ترى إلى قوله : (صنع الله)، و (صبغة الله) ، و (وعد الله)، و (فطرة الله) : بعدما وسمها بإضافتها إليه بسمة التعظيم ، كيف تلاها بقوله (الذى أتقن كل شيء) ، (ومن أحسن من الله صبغة) ، لا يخلف الله الميعاد (لا تبديل لخلق الله) وقرئ : تفعلون ، على الخطاب . ﴿فله خير منها﴾ يريد الإضعاف وأنّ العمل يتقضى والثواب يدوم ، وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد . وقيل : فله خير منها ، أى : له خير حاصل من جهتها وهو الجنة . وعن ابن عباس : الحسنة كلمة الشهادة . وقرئ : ﴿يومئذ﴾ مفتوحا مع الإضافة ؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن . ومنصوبا مع تنوين فزع . فإن قلت : ما الفرق بين الفزعين ؟ قلت : الفزع الأوّل : هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس بشدّة تقع وهول يفجأ ، من رعب وهيبة ، وإن كان المحسن يأمن لحاق الضرر به ؛ كما يدخل الرجل على الملك بصدر هياب وقلب وجاب[١] وإن كانت ساعة إعزاز وتكرمة وإحسان وتولية . وأمّا الثانى : فالخوف من العذاب . فإن قلت : فمن قرأ ﴿من فزع﴾ بالتنوين ما معناه ؟ قلت : يحتمل معنيين . من فزع واحد وهو خوف العقاب ، وأمّا ما يلحق الإنسان من التهيب والرعب لما يرى من الأهوال والعظائم ، فلا يخلون منه ؛ لأنّ البشرية تقتضى ذلك . وفى الأخبار والآثار ما يدل عليه . ومن فزع شديد مفرط الشدّة لا يكتنهه الوصف : وهو خوف النار . أمن : يعدى بالجار وبنفسه ، كقوله تعالى (أفأمنوا مكر الله) . وقيل : السيئة : الإشراك . يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة ، فكأنه قيل : فكبوا فى النار ، كقوله تعالى (فكبكبوا فيها) ويجوز أن يكون ذكر الوجوه إيذانا بأنهم يكبون على وجوههم فيها منكوسين (هل تجزون) يجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكب بإضمار القول .

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

أمر رسوله بأن يقول ﴿أمرت﴾ أن أخص الله وحده بالعبادة ، ولا أتخذ له شريكا كما فعلت قريش ، وأن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام ﴿وأن أتلو القرآن﴾ من التلاوة أو التلوّ كقوله (واتبع ما يوحى إليك) . والبلدة : مكة حرسها الله تعالى : اختصها من بين سائر

(١) قوله «وقلب وجاب» فى الصحاح «وجب القلب وجيباً» : اضطرب . (ع)

البلاد بإضافة اسمه إليها ؛ لأنها أحبّ بلاده إليه ، وأكرمها عليه ، وأعظمها عنده . وهكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج في مهاجره، فلما بلغ الحزورة [1] استقبلها بوجهه الكريم فقال : « إني أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله. ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت » [2] وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب ، دالا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه. ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها ، فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو ، ووصفها بأنها محرّمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضادّ لربه (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) لا يختلى خلاها ، ولا يعضد شجرها [3] ، ولا ينفر صيدها . واللاجئ إليها آمن. وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما . وفي ذلك إشارة إلى أن ملكا ملك مثل هذه البلدة عظيم الشأن قد ملكها وملك إليها كل شيء [4] : اللهم بارك لنا في سكناها ، وآمنا فيها شرّ كل ذي شرّ ، ولا تنقلنا من جوار بيتك إلا إلى دار رحمتك . وقرئ : التي حرمها . واتل عليهم هذا القرآن :عن أبيّ وأن أتل : عن ابن مسعود . ﴿فمن اهتدى﴾ باتباعه إياي فيما أنا بصدده من توحيد الله ونفي الأنداد عنه ، والدخول في الملة الحنيفية ، واتباع ما أنزل عليّ من الوحي ؛ فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إليّ ﴿ومن ضلّ﴾ ولم يتبعني فلا عليّ ، وما أنا إلا رسول منذر ، وما على الرسول

(١) قوله « فلما بلغ الحزورة » هي تل صغير كما في الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وابن أبي شيبة والدارمي وعبد بن حميد والبزار وأبو يعلى والبيهقي في الدلائل . كلهم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدي بن الخيار قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً على الحزورة وهو يقول : والله إنك لخير أرض الله إلى الله وأحب أرض الله إلى الله . ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » هكذا رواه عقيل ويونس وشعيب وصالح بن كيسان عنه . ورواه ابن أخي الزهري عن عمه عن محمد بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عدي بن الخيار : أخرجه الطبراني . وصححه الدارقطني لوجهين . ورواه النسائي وإسحاق والبزار والبيهقي في الدلائل من رواية معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة . ولفظه للبيهقي « ولولا أن أهلك أخرجوني منك ماخرجت » قال البزار : تفرد به معمر هكذا . وقال البيهقي : وهم فيه معمر وقال الترمذي : رواه محمد بن عمر بن أبي سلمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة . وقول الزهري عن أبي سلمة عن عبد الله بن عدي أصح . وقال البيهقي أيضاً : ورواية محمد بن عمرو وهم . وفي الباب عن ابن عباس . أخرجه الترمذي من رواية ابن خثيم عن سعيد بن جبير وأبي الطفيل جميعاً فيه نحو « ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ . ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك » .

(٣) قوله « لا يختلى خلاها ... الخ » : أي لا يجز حشيشها ، ولا يقطع شجرها . (ع)

(٤) قال محمود : « المراد بالبلدة مكة وإضافة اسم الله تعالى إليها لتشريفها وذكر تحريمها ، لأنه أخص أوصافها وأسنده إلى ذاته تأكيداً لشرفها ثم قال : (وله كل شيء) ، فجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخول هذه البلدة المعظمة . وفي ذلك إشارة إلى أن ملكا قد ملك هذه البلدة المكرمة وملك إليها كل شيء إنه لعظيم الشأن » قال أحمد : وتحت قوله (وله كل شيء) : فائدة أخرى سوى ذلك ، وهي أنه لما أضاف اسمه إلى البلدة المخصوصة تشريفاً لها ، أتبع ذلك إضافة كل شيء سواها إلى ملكه ، قطعاً لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها ، وتنبيها على أن الإضافة الأولى إنما قصد بها التشريف ، لا لأنها ملك الله تعالى خاصة ، والله أعلم .

إلا البلاغ . ثم أمره أن يحمد الله على ما خوله من نعمة النبوة التى لا توازيها نعمة ، وأن يهدّد أعداءه بما سيريهم الله من آياته التى تلجئهم إلى المعرفة ، والإقرار بأنها آيات الله . وذلك حين لاتنفعهم المعرفة . يعنى فى الآخرة . عن الحسن وعن الكلبي : الدخان ، وانشقاق القمر . وما حلّ بهم من نقمات الله فى الدنيا . وقيل : هو كقوله (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم الآية) وكل عمل يعملونه ، فالله عالم به غير غافل عنه لأنّ الغفلة والسهو لا يجوزان على عالم الذات[1] ، وهو من وراء جزاء العاملين . قرئ : تعملون ، بالتاء والياء .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . « من قرأ طس سليمان : كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ، ويخرج من قبره وهو ينادى لا إله إلا الله »[2] .

---

(١) قال محمود : « لأن العالم بالذات لايجوز عليه الغفلة » قال أحمد : قد سبق له جحد صفة العلم ، وإيهام أن سلبها داخل فى تنزيه الله تعالى ، لأنه يجعل استحالة الغفلة عليه معللة بأنه عالم بالذات لابعلم ، والحق أن استحالة الغفلة عليه تعالى ، لأن علمه لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، بل هو علم قديم أزلى عام التعليق بجميع الواجبات والممكنات والممتنعات ، ولا يتوقف تنزيهه تعالى على تعطيل صفاته وكماله وجلاله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضى الله عنه .

ســـورة القصص

مكية ، [إلا من آية ٥٢ إلى غاية آية ٥٥ فمدنية ، وآية ٨٥ فبالجحفة أثناء الهجرة]
وآياتها ٨٨ [نزلت بعد النمل]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ
وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

﴿من نبأ موسى وفرعون﴾ مفعول نتلو ، أى : نتلو عليك بعض خبرهما ﴿بالحق﴾ محقين، كقوله تنبت بالدهن ﴿لقوم يؤمنون﴾ لمن سبق فى علمنا أنه يؤمن ، لأنّ التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم .

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ
أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾

﴿إنّ فرعون﴾ جملة مستأنفة كالتفسير للمجمل ، كأن قائلا قال : وكيف كان نبؤهما فقال : إنّ فرعون ﴿علا فى الأرض﴾ يعنى أرض مملكته قد طغى فيها وجاوز الحدّ فى الظلم والعسف ﴿شيعا﴾ فرقا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه ، لا يملك أحد منهم أن يلوى عنقه . قال الأعشى:

وَبَلْدَةٍ يَرْهَبُ الْجَوَّابُ دُلْجَتَهَا ۔ حَتَّي تَرَاهُ عَلَيْهَا يَبْتَغِي الشِّيَعَا [1]

---

(١) وبلدة يرهب الجواب دلجتها ۔ حتى تراه عليها يبتغى الشيعا
كلفت مجهولها نفسى وشايعنى ۔ همى عليها إذا ما آلها لمعا
بذات لوث عفرناة إذا عثرت ۔ فالتعس أولى لها من أن يقال لعا

للأعشى ، أى : ورب مفازة يخاف الجواب : أى كثير السير ، من جبت الأرض : قطعتها بالسير . والدلجة ، من دلج وأدلج بوزن افتعل ، وأدلج بوزن أكرم : إذا سار ليلا . والدلجة : ساعة من الليل ، أى : يخاف المعتاد على السير من سيرها ليلا حتى يطلب الجماعات المساعدين له على سيرها ، كلفت نفسى سير المجهول منها ، وعاونى عزمى على سيرها وقت لمعان آلها ، وهو السراب الذى يرى عند شدة الحر كأنه ماء ، مع أن سير الهاجرة أشد من سير ==

أو يشيع بعضهم بعضا فى طاعته . أو أصنافا فى استخدامه يتسخر صنفاً فى بناء وصنفا فى حرث وصنفا فى حفر ، ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية . أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة ، وهم بنو إسرائيل والقبط . والطائفة المستضعفة : بنو إسرائيل . وسبب ذبح الأبناء : أنّ كاهنا قال له : يولد مولود فى بنى إسرائيل يذهب ملكك على يده . وفيه دليل بين على ثخانة حمق فرعون، فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن ، وإن كذب فما وجه القتل ؟ و ﴿يستضعف﴾ حال من الضمير فى (وجعل) أو صفة لشيعا . أو كلام مستأنف . و ﴿يذبح﴾ بدل من يستضعف . وقوله ﴿إنه كان من المفسدين﴾ بيان أنّ القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب ، لأنه فعل لا طائل تحته ، صدق الكاهن أو كذب .

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

فإن قلت : علام عطف قوله ﴿ونريد أن نمنّ﴾ وعطفه على (نتلو) و (يستضعف) غير سديد ؟ قلت : هى جملة معطوفة على قوله (إنّ فرعون علا فى الأرض) لأنها نظيرة « تلك » فى وقوعها تفسيرا لنبأ موسى وفرعون ، واقتصاصا له . (ونريد) : حكاية حال ماضية . ويجوز أن يكون حالا من يستضعف ، أى يستضعفهم فرعون ، ونحن نريد أن نمنّ عليهم . فإن قلت : كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله المنة عليهم ؟ وإذا أراد الله شيئا كان ولم يتوقف إلى وقت آخر ، قلت : لما كانت منة الله بخلاصهم من فرعون قريبة الوقوع ، جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم ﴿أئمة﴾ مقدّمين فى الدين والدنيا ، يطأ الناس أعقابهم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : قادة يقتدى بهم فى الخير . وعن مجاهد رضى الله عنه : دعاة إلى الخير ، وعن قتادة رضى الله عنه : ولاة ، كقوله تعالى (وجعلكم ملوكا) . ﴿الوارثين﴾ يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم . مكن له : إذا جعل له مكانا يقعد عليه أو يرقد ، فوطأه ومهده ونظيره : أرّض له . ومعنى التمكين لهم فى الأرض وهى أرض مصر والشام : أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم ولا تغث [1] عليهم؛ كما كانت فى أيام الجبابرة ، وينفذ أمرهم ، ويطلق أيديهم ويسلطهم .

= الليل ، ثم قال مع ناقة صاحبة قوة ، ويطلق اللوث على الضعف أيضاً ، فهو من الأضداد ، عفرناة : غليظة ، ويقال للعاثر : لعالك ، دعاء له بالانتعاش . وتعساً له : دعاء عليه بالسقوط ، يريد أنها لاتعثر ، ولو عثرت فالدعاء عليها أحق بها من الدعاء لها .

(١) قوله «ولا تغث عليهم» أى : ولا تفسد وتردؤ . أفاده الصحاح . (ع)

وقرئ : ويرى فرعون وهامان وجنودهما ، أى : يرون ﴿منهم ما﴾ حذروه : من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

اليم : البحر . قيل : هو نيل مصر . فإن قلت : ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر ؟ قلت : أما الأول فالخوف عليه من القتل ؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه . وأما الثانى ، فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع فى يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون فى تطلب الولدان ، وغير ذلك من المخاوف . فإن قلت : ما الفرق بين الخوف والحزن ؟ قلت : الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع . والحزن : غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به ، فنهيت عنهما جميعاً . وأومنت بالوحى إليها ، ووعدت ما يسليها ويطامن قلبها ويملؤها غبطة وسرورا : وهو رده إليها وجعله من المرسلين . وروى : أنه ذبح فى طلب موسى عليه السلام تسعون ألف وليد . وروى : أنها حين أقربت وضربها الطلق وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها ، فقالت لها : لينفعنى حبك اليوم ، فعالجتها ، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ، وارتعش كل مفصل منها ، ودخل حبه قلبها ، ثم قالت : ما جئتك إلا لأقبل مولودك وأخبر فرعون ، ولكنى وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله فاحفظيه ، فلما خرجت جاء عيون فرعون ، فلفته فى خرقة ووضعته فى تنور مسجور [1] ، لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها ، فطلبوا فلم يلقوا شيئا ، فخرجوا وهى لا تدرى مكانه ، فسمعت بكاءه من التنور ، فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً ، فلما ألح فرعون فى طلب الولدان أوحى الله إليها فألقته فى اليم . وقد روى أنها أرضعته ثلاثة أشهر فى تابوت من بردى [2] مطلى بالقار من داخله .

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾

---

(١) قوله «ووضعته فى تنور مسجور» فى الصحاح «التنور» : الذى يخبز فيه . وفيه أيضاً . سجرت التنور سجراً ، إذا حميته . (ع)

(٢) قوله «تابوت من بردى مطلى بالقار» فى الصحاح «البردى» بالفتح : نبات معروف ، فلينظر . (ع)

اللام فى ﴿ ليكون ﴾ هى لام كى التى معناها التعليل ، كقولك : جئتك لتكرمنى سواء بسواء ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة ، لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوّا وحزناً ، ولكن : المحبة والتبنى ، غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته ، شبه بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لأجله ، وهو الإكرام الذى هو نتيجة المجىء ، والتأدب الذى هو ثمرة الضرب فى قولك : ضربته ليتأدب . وتحريره : أن هذه اللام حكمها حكم الأسد ، حيث استعيرت لما يشبه التعليل ، كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد . وقرئ : وحزناً وهما لغتان : كالعُدم والعَدم ﴿ كانوا خاطئين ﴾ فى كل شىء ، فليس خطؤهم فى تربية عدوّهم ببدع منهم . أو كانوا مذنبين مجرمين ، فعاقبهم الله بأن ربى عدوّهم ـ ومن هو سبب هلاكهم ـ على أيديهم . وقرئ : خاطين ، تخفيف خاطئين ، أو خاطين الصواب إلى الخطأ .

وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

روى أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه ، فلم يقدروا عليه ، فعالجوا كسره فأعياهم ، فدنت آسية فرأت فى جوف التابوت نوراً ، فعالجته ففتحته ، فإذا بصبىّ نوره بين عينيه وهو يمصّ إبهامه لبنا فأحبوه ، وكانت لفرعون بنت برصاء ، وقالت له الأطباء : لا تبرأ إلا من قبل البحر ، يوجد فيه شبه إنسان دواؤها ريقه ، فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرأت[1] . وقيل لما نظرت إلى وجهه برأت ، فقالت : إن هذه لنسمة مباركة ، فهذا أحد ما عطفهم عليه ، فقال الغواة من قومه : هو الصبى الذى نحذر منه ، فأذن لنا فى قتله ، فهمّ بذلك فقالت آسية ﴿ قرة عين لى ولك ﴾ فقال فرعون : لك لا لى . وروى فى حديث : « لو قال هو قرة عين لى كما هو لك ، لهداه الله كما هداها »[2] ، وهذا على سبيل الفرض والتقدير ، أى : لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها ، ولأسلم كما أسلمت : هذا ـ إن صح الحديث ـ تأويله ، والله أعلم بصحته . وروى أنها قالت له : لعله من قوم آخرين ليس من بنى إسرائيل . قرة عين : خبر مبتدإ محذوف ولا يقوى أن تجعله مبتدأ و (لا تقتلوه) خبراً ، ولو نصب لكان أقوى . وقراءة ابن مسعود

---

(١) قوله « فبرأت » فى الصحاح : برئت من المرض برءاً بالضم . وأهل الحجاز يقولون : برأت من المرض برءاً بالفتح . وأصبح فلان بارئا من مرضه (ع)

(٢) هذا طرف من حديث الفتون الطويل . وقد ذكرنا فى طه أن النسائى أخرجه من حديث ابن عباس وفيه فألت فرعون فقالت : قرة عين لى ولك فقال فرعون : يكون لك فأما أنا فلا حاجة لى فيه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى يحلف به ، لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن الله حرمه ذلك » .

رضى الله عنه دليل على أنه خبر ، قرأ : لا تقتلوه قرة عين لى ولك ، بتقديم (لا تقتلوه) . ﴿عسى أن ينفعنا﴾ فإنّ فيه مخايل اليمن ودلائل النفع لأهله ، وذلك لما عاينت من النور وارتضاع الإبهام وبرء البرصاء ، ولعلها توسمت فى سيماه النجابة المؤذنة بكونه نفاعاً . أو نتبناه ، فإنه أهل للتبنى ، ولأن يكون ولداً لبعض الملوك . فإن قلت : ﴿وهم لا يشعرون﴾ حال ، فما ذو حالها ؟ قلت : ذو حالها آل فرعون . وتقدير الكلام : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم فى التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيه . وقوله : إن فرعون . . . الآية : جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه ، مؤكدة لمعنى خطئهم . وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم .

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

﴿فارغاً﴾ صفراً من العقل . والمعنى : أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش . ونحوه قوله تعالى (وأفئدتهم هواء) أى جوف لا عقول فيها ومنه بيت حسان :

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّى ... فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ [(١)]

وذلك أنّ القلوب مراكز العقول . ألا ترى إلى قوله (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) ويدل عليه قراءة من قرأ : فرغاً . وقرئ : قرعاً ، أى خالياً من قولهم : أعوذ بالله من صفر الإناء وقرع الفناء [(٢)] . وفرغاً ، من قولهم : دماؤهم بينهم فرغ ، أى هدر ، يعنى : بطل قلبها وذهب ، وبقيت لا قلب لها من شدّة ما ورد عليها ﴿لتبدى به﴾ لتصحر [(٣)] به . والضمير لموسى والمراد بأمره وقصته ، وأنه ولدها ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ بإلهام الصبر ، كما يربط على الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن ﴿لتكون من المؤمنين﴾ من المصدقين بوعد الله ، وهو قوله (إنا

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات فى الجزء الثانى صفحة ٦٣ه فراجعه إن شئت اهـ مصححه .

(٢) قوله «من صفر الاناء وقرع الفناء» صفر الاناء : خلوه ، مصدر : صفر الشيء بالكسر ، أى : خلا . وقرع الفناء : خلوه من الغاشية ، مصدر قرع بالكسر ، أى : خلا . (ع)

(٣) قوله «لتصحر به» فى الصحاح : أصحر الرجل ، أى : خرج إلى الصحراء . والمراد هنا تجهر به ولا تكتم أمره (ع)

رادّوه إليك) ويجوز : وأصبح فؤادها فارغاً من الهم ، حين سمعت أن فرعون عطف عليه و تبناه إن كادت لتبدى بأنه ولدها ؛ لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت ، لولا أنا طامنا قلبها وسكّنّا قلقه الذى حدث به من شدّة الفرح والابتهاج ، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبنى فرعون وتعطفه . وقرئ : مؤسى ، بالهمزة : جعلت الضمة فى جارة الواو ـ وهى الميم ـ كأنها فيها ، فهمزت كما تهمز واو وجوه ﴿قصيه﴾ اتبعى أثره وتتبعى خبره . وقرئ فبصرت بالكسر ـ يقال بصرت به عن جنب وعن جنابة ، بمعنى : عن بعد . وقرئ : عن جانب ، وعن جنب . والجنب : الجانب . يقال : قعد إلى جنبه وإلى جانبه ، أى : نظرت إليه مزورة متجانفة مخاتلة [١] . وهم لا يحسون بأنها أخته ، وكان اسمها مريم .

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

التحريم : استعارة للمنع ؛ لأنّ من حرم عليه الشىء فقد منعه . ألا ترى إلى قولهم : محظور . وحجر ، وذلك لأن الله منعه أن يرضع ثديا ، فكان لا يقبل ثدى مرضع قط ، حتى أهمهم ذلك . والمراضع : جمع مرضع ، وهى المرأة التى ترضع . أو جمع مرضع ، وهو موضع الرضاع يعنى الثدى أو الرضاع ﴿من قبل﴾ من قبل قصصها أثره . روى أنها لما قالت ﴿وهم له ناصحون﴾ قال هامان : إنها لتعرفه وتعرف أهله ، فقالت : إنما أردت وهم للملك ناصحون [٢] والنصح : إخلاص العمل من شائب الفساد ، فانطلقت إلى أمها بأمرهم ، فجاءت بها والصبىّ على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكى يطلب الرضاع ، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها ، فقال لها فرعون : ومن أنت منه فقد أبى كل ثدى إلا ثديك ؟ قالت : إنى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن ، لا أوتى بصبى إلا قبلنى ، فدفعه إليها وأجرى عليها ، وذهبت به إلى بيتها ، وأنجز الله وعده فى الرد ، فعندها ثبت واستقر فى علمها أن سيكون نبياً . وذلك قوله ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾ يريد . وليثبت علمها ويتمكن . فإن قلت : كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها ؟

(١) قوله «متجانفة مخاتلة» متجانفة : أى مائلة . ومخاتلة : أى مخادعة . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : «إنهم اتهموها لما قالت (وهم له ناصحون) بمعرفة موسى عليه السلام ، فقالت إنما أردت وهم للملك فرعون ناصحون ، فخلصت من التهمة» قال أحمد : أوردت هذه التورية استحسانا لفطنتها ، ولكونها من بيت النبوة ، وأخت النبي ، فحقيق لها ذلك .

قلت : ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ، ولكنه مال حربىّ كانت تأخذه على وجه الاستباحة . وقوله ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ داخل تحت علمها . المعنى : لتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حق فيرتابون . ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى ، فجزعت وأصبح فؤادها فارغا يروى أنها حين ألقت التابوت فى اليم جاءها الشيطان فقال لها : يا أم موسى ، كرهت أن يقتل فرعون موسى فتؤجرى ، ثم ذهبت فتوليت قتله ، فلما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه قالت : وقع فى يد العدو ، فنسيت وعد الله . ويجوز أن يتعلق (ولكنّ) بقوله (ولتعلم) ومعناه : أن الرد إنما كان لهذا الغرض الدينى ، وهو علمها بصدق وعد الله . ولكنّ الأكثر لا يعلمون بأن هذا هو الغرض الأصلى الذى ما سواه تبع له : من قرة العين وذهاب الحزن .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

﴿واستوى﴾ واعتدل وتمّ استحكامه ، وبلغ المبلغ الذى لا يزاد عليه ، كما قال لقيط :

وَاسْتَحْمِلُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرُّكُمُ ... شَزْرَ الْمَرِيرَةِ لَاقَحْمًا وَلَا ضَرَعَا [1]

وذلك أربعون سنة : ويروى : أنه لم يبعث نبىّ إلا على رأس أربعين سنة [2] . العلم . التوراة . والحكم : السنة . وحكمة الأنبياء : سنتهم . قال الله تعالى (واذكرن ما يتلى فى بيوتكنّ من

---

(١) للقيط . وروى : واستحكموا . والشزر : الفتل الشديد ، والشىء الشديد ، فهو مصدر أو وصف ، والمريرة من المرة وهى القوة . والمرير : الحبل المحكم الفتل . والقحم : الشيخ الهرم يعتريه خرق وخرف . والضرع : اللين الذليل ، من الضراعة وهى الذلة والخضوع ، يقول : قلدوا أمر خلافتكم رجلا محكم العزيمة قوى الهمة ، لا هرما مختل الرأى ولا ضعيفا ، ولله دركم : جملة اعتراضية ، أى : لله خيركم وصالح عملكم . وقيل : هذا البيت ملفق مما رواه أبو العباس المبرد فى كامله ، ومنه :

فقلدوا أمركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
مازال يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متبعا طورا ومتبعا
حتى استمرت على شزر مريرته ... مستحكم الرأى لا قحما ولا ضرعا

ورحب الذراع : طويل الباع واسع الصدر ، أى : شجاع جواد ، واضطلع بكذا : قوى عليه واشتد ، من الضلاعة وهى القوة واحتمال الثقيل ، وشطرت الناقة شطراً : حلبت شطر لبنها وتركت شطره ، أى : نصفه وما هنا مستعار منه ، أى : جربت الدهر ومرت بى ضروبه من خير وشر ، فاكتسبت منه ما يصح به رأيى . والأشطر : جمع شطر بدل من الدهر . ويجوز أن حلب يتعدى إلى مفعولين ولو بالتضمين . ومتبع الأول : اسم مفعول ، والثانى : اسم فاعل ، أى : تارة تابع ، وتارة متبوع . واستمرت مريرته : قوى عزمه واستحكم أمره على شزر ، أى قوة وصدق همة .

(٢) لم أجده .

من آيات الله والحكمة) وقيل : معناه أتيناه سيرة الحكماء العلماء . وسمتهم قبل البعث ، فكان لا يفعل فعلا يستجهل فيه .

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

المدينة : مصر . وقيل : مدينة منف من أرض مصر . وحين غفلتهم : ما بين العشاءين . وقيل : وقت القائلة . وقيل : يوم عيد لهم هم مشتغلون فيه بلهوهم . وقيل : لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم ، فأخافوه ، فلا يدخل قرية إلا على تغفل . وقرأ سيبويه : فاستعانه ﴿من شيعته﴾ ممن شايعه على دينه من بنى إسرائيل . وقيل : هو السامرى ﴿من عدوه﴾ من مخالفيه من القبط ، وهو فاتون، وكان يتسخر الإسرائيلى لحمل الحطب إلى مطبخ فرعون. والوكز : الدفع بأطراف الأصابع . وقيل : بجمع الكف . وقرأ ابن مسعود : فلكزه . باللام ﴿فقضى عليه﴾ فقتله . فإن قلت : لم جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلماً لنفسه واستغفر منه ؟ قلت : لأنه قتله قبل أن يؤذن له فى القتل ، فكان ذنباً يستغفر منه . عن ابن جريج : ليس لنبى أن يقتل مالم يؤمر ﴿بما أنعمت علىّ﴾ يجوز أن يكون قسما جوابه محذوف ، تقديره : أقسم بإنعامك علىّ بالمغفرة لأتوبنّ ﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾[1] وأن يكون استعطافا ، كأنه قال : رب اعصمنى بحق ماأنعمت علىّ من المغفرة ، فلن أكون ـ إن عصمتنى ـ ظهيراً للمجرمين . وأراد بمظاهرة المجرمين : إما صحبة فرعون وانتظامه فى جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يسمى ابن فرعون . وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلى المؤدية إلى القتل الذى لم يحل له . وعن ابن عباس : لم يستثن فابتلى به مرّة أخرى . يعنى : لم يقل : (فلن أكون) إن شاء الله . وهذا نحو قوله (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) وعن عطاء : أنّ رجلا قال له : إنّ أخى يضرب بقلمه ولا يعدو رزقه . قال : فمن الرأس ، يعنى

(١) قوله تعالى (قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين) قال أحمد : لقد تبرأ من عظيم ؛ لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصدده . ويروى : أنه يقال يوم القيامة : أين الظلمة وأعوان الظلمة، فيؤتى بهم حتى بمن لاق لهم ليقة أو برى لهم قلماً فيجعلون فى تابوت من حديد ويلقى بهم فى النار .

من يكتب له ؟ قال : خالد بن عبدالله القسرى : قال : فأين قول موسى ؟ وتلا هذه الآية . وفى الحديث : «ينادى مناد يوم القيامة : أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة ، حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلماً ، فيجمعون فى تابوت من حديد فيرمى به فى جهنم»[1] وقيل معناه . بما أنعمت علىّ من القوّة ، فلن أستعملها إلا فى مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والإيمان بك . ولا أدع قبطيا يغلب أحداً من بنى إسرائيل .

فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

﴿يترقب﴾ المكروه وهو الاستقادة منه ، أو الاخبار وما يقال فيه ، ووصف الإسرائيلى بالغىّ ؛ لأنه كان سبب قتل رجل ، وهو يقاتل آخر . وقرىء : يبطش ، بالضم . والذى هو عدوّ لهما : القبطى ؛ لأنه ليس على دينهما . ولأن القبط كانوا أعداء بنى إسرائيل . والجبار : الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم ، لا ينظر فى العواقب ولا يدفع بالتى هى أحسن : وقيل : المتعظم الذى لا يتواضع لأمر الله ، ولما قال هذا : أفشى على موسى فانتشر الحديث فى المدينة ورقى إلى فرعون ، وهموا بقتله .

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾

قيل : الرجل : مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ، و﴿يسعى﴾ يجوز ارتفاعه وصفاً لرجل ، وانتصابه حالا عنه ، لأنه قد تخصص بأن وصف بقوله ﴿من أقصى المدينة﴾ وإذا جعل صلة لجاء ، لم يجز فى (يسعى) إلا الوصف . والائتمار : التشاور . يقال : الرجلان يتآمران ويأتمران ، لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشىء أو يشير عليه بأمر . والمعنى : يتشاورون بسببك ﴿لك﴾ بيان ، وليس بصلة الناصحين .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

---

(١) ذكره صاحب الفردوس من حديث أبى هريرة .

﴿ يترقب ﴾ التعرّض له فى الطريق . أو أن يلحق .

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾

﴿ تلقاء مدين ﴾ قصدها ونحوها . ومدين : قرية شعيب عليه السلام ، سميت بمدين بن إبراهيم ، ولم تكن فى سلطان فرعون ، وبينها وبين مصر مسيرة ثمان ، وكان موسى لا يعرف إليها الطريق قال ابن عباس : خرج وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه . و ﴿ سواء السبيل ﴾ وسطه ومعظم نهجه . وقيل : خرج حافياً لا يعيش إلا بورق الشجر ، فما وصل حتى سقط خف قدمه . وقيل : جاءه ملك على فرس بيده عنزة ، فانطلق به إلى مدين .

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

﴿ ماء مدين ﴾ ماءهم الذى يستقون منه ، وكان بئراً فيما روى . وورود : مجيئه والوصول إليه ﴿ وجد عليه ﴾ وجد فوق شفيره ومستقاه ﴿ أمة ﴾ جماعة كثيفة العدد ﴿ من الناس ﴾ من أناس مختلفين ﴿ من دونهم ﴾ فى مكان أسفل من مكانهم . والذود : الطرد والدفع وإنما كانتا تذودان ؛ لأنّ على الماء من هو أقوى منهما فلا يتمكنان من السقى . وقيل : كانتا تكرهان المزاحمة على الماء . وقيل : لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم ، وقيل : تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما ﴿ ما خطبكما ﴾ ما شأنكما . وحقيقته : ما مخطوبكما ، أى : مطلوبكما من الذياد ، فسمى المخطوب خطبا ،

كما سمي المشئون شأنا في قولك: ماشأنك؟ يقال: شأنت شأنه، أي: قصدت قصده. وقرئ: لانسق. ويصدر. والرعاء. بضم النون والياء والراء. والرعاء: اسم جمع كالرخال والثناء [1]. وأما الرعاء بالكسر فقياس، كصيام وقيام ﴿كبير﴾ كبير السن ﴿فسقى لهما﴾ فسقى غنمهما لأجلهما. وروى أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا سبعة رجال. وقيل: عشرة. وقيل: أربعون. وقيل: مائة، فأقله وحده. وروى أنه سألهم دلواً من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا: استق بها، وكانت لا ينزعها إلا أربعون، فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة، وروّى غنمهما وأصدرهما. وروى أنه دفعهم عن الماء حتى سقى لهما. وقيل: كانت بئراً أخرى عليها الصخرة. وإنما فعل هذا رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف. والمعنى: أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمّة من أناس مختلفة متكاثفة العدد، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفراغهم، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة، مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما، وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوّة قلبه وقوّة ساعده، وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتي من البطش والقوة وما لم يغفل عنه، على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب، ترغيب في الخير، وانتهاز فرصه، وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم. فإن قلت: لم ترك المفعول غير مذكور في قوله (يسقون) و (تذودان) و (لا نسقي) [2]؟ قلت: لأن الغرض هو الفعل لا المفعول. ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد وهم على السقي. ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلا، وكذلك قولهما (لا نسقي حتى يصدر الرعاء) المقصود فيه السقي لا المسقي. فإن قلت: كيف طابق جوابهما سؤاله قلت: سألهما عن سبب الذود فقالتا: السبب في ذلك أنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال [3] ومزاحمتهم، فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا، وما لنا رجل يقوم بذلك، وأبونا شيخ قد أضعفه الكبر فلا يصلح للقيام به: أبلتا إليه عذرهما [4] في توليهما السقي بأنفسهما. فإن قلت: كيف ساغ لنبيّ الله الذى هو شعيب عليه السلام أن يرضى لابنتيه

(١) قوله «لا نسق ويصدر والرعاء بضم النون والياء والراء ... الخ» يفيد أن القراءة المشهورة بفتح النون والياء وكسر الراء. والرخال: واحده رخل، وهي الأنثى من ولد الضأن. والثناء: عقال البعير ونحوه من حبل مثنى، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «وتذودان ولا نسق» لعل بعده سقطا تقديره: فسقى لهما، وعبارة النسفي: لا نسقي، و: فسقى. (ع)

(٣) قوله «لا نقدر على مساجلة الرجال» في الصحاح: «السجل» الدلو إذا كان فيه ماء. والمساجلة: المفاخرة بأن تصنع مثل صنعه في جري أو سقي، وأصله من الدلو اه. (ع)

(٤) قوله «أبلتا إليه عذرهما» لعله تحريف، وأصله: أبدتا، كعبارة النسفي. (ع)

بسق الماشية ؟ قلت : الأمر فى نفسه ليس بمحظور . فالدين لا يأباه . وأما المروأة ، فالناس مختلفون فى ذلك ، والعادات متباينة فيه ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر ، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة. ﴿إنى﴾ لأى شيء ﴿أنزلت إلىّ﴾ قليل أو كثير ، غث أو سمين ا ﴿فقير﴾ [1] وإنما عدى فقير باللام ؛ لأنه ضمن معنى سائل وطالب . قيل : ذكر ذلك وإن خضرة البقل تتراءى فى بطنه من الهزال ، ماسأل الله إلا أكلة . ويحتمل أن يريد : إنى فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلىّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين : لأنه كان عند فرعون فى ملك وثروة : قال ذلك رضا بالبدل السنى ، وفرحا به ، وشكراً له ، وكان الظل ظل سمرة ﴿على استحياء﴾ فى موضع الحال ، أى : مستحيية متخفرة [2] . وقيل . قد استترت بكم درعها . روى أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفل بطان [3] قال لهما : ما أعجلكما ؟ قالتا : وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا ، فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه لى ، فتبعها موسى فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته ، فقال لها : امشى خلفى وانعتى لى الطريق ، فلما قص عليه قصته قال له . لا تخف فلا سلطان لفرعون بأرضنا . فإن قلت: كيف ساغ لموسى أن يعمل بقول امرأة ، وأن يمشى معها وهى أجنبية ؟ قلت : أما العمل بقول امرأة فكما يعمل بقول الواحد حرا كان أو عبدا ذكرا كان أو أنثى فى الأخبار ، وما كانت إلا مخبرة عن أبيها بأنه يدعوه ليجزيه . وأما مما شاته امرأة أجنبية فلا بأس بها فى نظائر تلك الحال، مع ذلك الاحتياط والتورع . فإن قلت : كيف صح له أخذ الأجر على البرّ والمعروف ؟ قلت : يجوز أن يكون قد فعل ذلك لوجه الله وعلى سبيل البر والمعروف . وقيل إطعام شعيب وإحسانه لا على سبيل أخذ الأجر ، ولكن على سبيل التقبل لمعروف مبتدإ . كيف وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوّة من أولاد يعقوب ؟ ومثله حقيق بأن يضيَّف ويكرم خصوصاً فى دار نبىّ من أنبياء الله ، وليس بمنكر أن يفعل ذلك لاضطرار الفقر والفاقة طلبا للأجر . وقد روى ما يعضد كلا القولين : روى أنها لما قالت : ليجزيك ، كره ذلك ، ولما قدم إليه الطعام امتنع وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض [4] ذهبا ، ولا نأخذ على المعروف ثمنا ،حتى قال شعيب : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا . وعن عطاء ابن السائب: رفع صوته بدعائه ليسمعهما، فلذلك قيل له : ليجزيك أجر ما سقيت ، أى ؛ جزاء سقيك . والقصص : مصدر كالعلل ، سمى

(١) قوله «غث أو سمين لفقير» أى مهزول كما فى الصحاح . والمراد : ردىء أو جيد . (ع)

(٢) قوله «أى مستحيية متخفرة» الخفر : شدة الحياء . ومنه جارية خفرة ومتخفرة ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله «وأغنامهما حفل بطان» فى الصحاح : ضرع حافل ، أى ممتلىء لبنا . وفيه : بطن بالكسر يبطن بطنا : عظم بطنه من الشبع . (ع)

(٤) قوله «لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهبا» فى الصحاح «طلاع الشيء» : ملؤه . (ع)

به المقصوص . كبراهما : كانت تسمى صفراء ، والصغرى : صفيراء . وصفراء : هي التي ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره ، وهى التي تزوجها . وعن ابن عباس : أن شعيباً أحفظته الغيرة[(١)] فقال: وما علمك بقوّته وأمانته ؟ فذكرت إقلال الحجر ونزع الدلو ، وأنه صوّب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه . وقولها ﴿إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾ كلام حكيم جامع لايزاد عليه ، لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ؛ أعنى الكفاية والأمانة فى القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك ؛ وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذى سياقه سياق المثل ،والحكمة أن تقول استأجره لقوّته وأمانته[(٢)] . فإن قلت : كيف جعل خير من استأجرت اسما لإنّ ، والقوى الأمين خبراً ؟ قلت : هو مثل قوله :

أَلاَ إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا وَهَالِكاً ... أَسِيرُ ثَقِيفٍ عِنْدَهُمْ فِي السَّلاَسِلِ[(٣)]

---

(١) قوله « أن شعيبا أحفظته الغيرة » أى أغضبته ، كما فى الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : « هذا كلام حكيم جامع لا يزاد عليه ؛ لأنه إذا اجتمعت القوة والأمانة فى القائم بأمرك فقد فرغ بالك ، وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذى ساقته سياق المثل والحكم عن أن تقول : فإنه قوى أمين » قال أحمد : وهو أيضا أجل فى مدح النساء للرجال من المدح الخاص وأبقى للحشمة ، وخصوصا إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجها منه ، وما أحسن ما أخذ الفاروق رضى الله تعالى عنه هذا المعنى فقال : أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى ، فى مضمون هذه الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين ، فكان قوياً أمينا يستعين به على ما كان بصدده رضى الله عنه . وهذا الابهام - من ابنة شعيب صلوات الله عليه وسلامه - قد سلكته زليخا مع يوسف عليه السلام ، ولكن شتان مابين الحياء المجبول والمستعمل ، ليس التكحل فى العينين كالكحل ، حيث قالت لسيدها : ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، وهى تعنى ما جزاء يوسف بما أرادنى من السوء إلا أن تسجنه أو تعذبه عذاباً أليما ، ولكنها أوهمت زوجها الحياء والخفر أن تنطق بالعصمة منسوباً إليها الخنا ، إيذانا بأن هذا الحياء منها الذى يمنعها أن تنطق بهذا الأمر ، يمنعها من مراودة يوسف بطريق الأحرى والأولى ، والله أعلم .

(٣)
ألا إن خير الناس حيا وميتا ... أسير ثقيف عندهم فى السلاسل
لعمرى إن عمرتم السجن خالداً ... وأوطأتموه وطأة المتثاقل
لقد كان نهاضا بكل ملمة ... ومعطي اللهى غمراً كثير النوافل

لأبى الهذيل العبسى ، يتحزن على خالد بن عبد الله القسرى حين أسره يوسف بن عمرو . وخير الناس : أفعل تفضيل ، مضاف إلى المعرف بأل ، وهو اسم إن . وحيا وميتا ، وروى هالكا : حالان منه . وأسير : خبر إن مضاف إلى ثقيف علم القبيلة . والعلم أعرف من المحلى بأل ، فخبر إن المضاف إليه أعرف من اسمها المضاف للمحلى ، ولا مانع منه مع اتحاد الماصدق الذى هو مراد المخبر . وعندهم فى السلاسل : حال أو خبر بعد خبر . ولعمرى : قسم ، إن عمرتم : أى أدخلتم وأسكنتم خالداً السجن . وأوطأتموه ، أى : صيرتموه يطأ برجله الأرض كوطأة المتثاقل : الحامل لشىء ثقيل ، لجعل القيد فى رجليه ، فهو كناية عن ذلك لقد كان نهاضا جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف ، أى : كان سريع القيام بكل نازلة ثقيلة ، وكان معطى اللهى - بالفتح - : جمع لهاة ، كحصى وحصاة ، بمعنى اللحمة التى فى أقصى الفم ، لكنها هنا بمعنى الفم نفسه . والأوجه أنه بالضم جمع لهوة ، كغرف : جمع غرفة بمعنى العطية

فى أن العناية هى سبب التقديم، وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خبراً اسما، وورود الفعل بلفظ الماضى للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف. ومنه قولهم: أهون ما أعملت لسان ممخ[١]. وعن ابن مسعود رضى الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف، فى قوله (عسى أن ينفعنا) وأبو بكر فى عمر. روى أنه أنكحه صفراء. وقوله ﴿هاتين﴾ فيه دليل على أنه كانت له غيرهما ﴿تأجرنى﴾ من أجرته إذا كنت له أجيراً، كقولك: أبوته إذا كنت له أبا، و﴿ثمانى حجج﴾ ظرفه. أو من أجرته كذا، إذا أثبته إياه. ومنه: تعزية رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجركم الله ورحمكم[٢]. وثمانى حجج: مفعول به، ومعناه: رعية ثمانى حجج فإن قلت: كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز؟ قلت: لم يكن ذلك عقداً للنكاح، ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم[٣] عليه، ولو كان عقداً لقال: قد أنكحتك ولم يقل: إنى أريد أن أنكحك. فإن قلت: فكيف صح أن يمهرها إجارة نفسه فى رعية الغنم، ولا بد من تسليم ما هو مال؟ ألا ترى إلى أبى حنيفة كيف منع أن يتزوج امرأة بأن يخدمها سنة[٤] وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة. أو يسكنها داره سنة، لأنه فى الأول: مسلم نفسه وليس بمال، وفى الثانى: هو مسلم مالا وهو العبد أو الدار، قلت: الأمر على مذهب أبى حنيفة على ما ذكرت. وأما الشافعى: فقد جوز التزوج على الإجارة لبعض الأعمال والخدمة،

ـــ من أى نوع كانت، غمراً: أى عطاء كثيراً غامراً، وكان كثير الزيادات فى العطاء، وأجرى «معطي» مجرى المرفوع للوزن.

(١) قوله «أهون ما أعملت لسان ممخ» فى الصحاح: تمخيت من الشىء وأمخيت منه: إذا تبرأت منه اهـ، فلعل ممخ: اسم فاعل من أمخيت. (ع)

(٢) أخرجه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان من طريق أحمد بن الحسن بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن ابن الحسن بن على عن آبائه إبراهيم بن الحسن عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها. قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عزى قال: «آجركم الله ورحمكم» وإذا هنأ قال: «بارك الله لكم وبارك عليكم» وله شاهد مرسل أخرجه ابن أبى شيبة من رواية ابن خالد الوالبي: أن النبي صلى الله عليه وسلم عزى رجلا فقال له: «يرحمه الله ويأجركم» وفى الضعفاء لابن حبان عن ابن عمر: أن النبي صلى الله عليه وسلم عزى مسلما بذميمات له، فقال: «آجرك الله وأعظم أجرك» وفى إسناده إسماعيل بن يحيى التيمي. وهو ساقط

(٣) قوله «ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه» لعله: ومواضعة (ع)

(٤) قال محمود: «نقل من مذهب أبى حنيفة منع النكاح على مثل خدمته بعينه، وجوازه على مثل خدمة عبده سنة، وفرق بأنه فى الأولى سلم نفسه وليس بمال، وفى الثانية سلم عبده وهو مال. ونقل عن الشافعي جواز النكاح على المنافع المعلومة مطلقا» قال أحمد: ومذهب مالك على ثلاثة أقوال: المنع، والكراهة، والجواز. والعجب من إجازة أبى حنيفة النكاح على منافع العبد، بخلاف منافع الزوج، مع أن الآية أجازت النكاح على منافع الزوج ولم تتعرض لغيره، وما ذاك إلا لترجيح المعنى الذى أشار إليه الزمخشرى. أو تفريعاً على أن لا دليل فى شرع من قبلنا، أو غير ذلك، والله أعلم.

إذا كان المستأجر له أو المخدوم فيه أمراً معلوما ، ولعلّ ذلك كان جائزاً فى تلك الشريعة . ويجوز أن يكون المهر شيئاً آخر ، وإنما أراد أن يكون راعى غنمه هذه المدة ، وأراد أن ينكحه ابنته ، فذكر له المرادين ، وعلق الإنكاح بالرعية على معنى : إنى أفعل هذا إذا فعلت ذاك على وجه المعاهدة لا على وجه المعاقدة . ويجوز أن يستأجره لرعية ثمانى سنين بمبلغ معلوم ويوفيه إياه ، ثم ينكحه ابنته به ، ويجعل قوله (على أن تأجرنى ثمانى حجج) عبارة عما جرى بينهما ﴿فإن أتممت﴾ عمل عشر حجج ﴿فمن عندك﴾ فإتمامه من عندك . ومعناه : فهو من عندك لا من عندى . يعنى : لا ألزمكه ولا أحتمه عليك ، ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع . وإلا فلا عليك ﴿وما أريد أن أشق عليك﴾ بإلزام أتمّ الأجلين وإيجابه . فإن قلت : ما حقيقة قولهم : شققت عليه ، وشق عليه الأمر ؟ قلت : حقيقته أن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين ، تقول تارة : أطيقه ، وتارة : لا أطيقه . أو وعده المساهلة والمسامحة من نفسه ، وأنه لا يشق عليه فيما استأجره له من رعى غنمه ، ولا يفعل نحو ما يفعل المعاسرون من المسترعين ، من المناقشة فى مراعاة الأوقات ، والمداقة فى استيفاء الأعمال ، وتكليف الرعاة أشغالا خارجة عن حدّ الشرط ، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالأسمح فى معاملات الناس . ومنه الحديث «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شريكى ، فكان خير شريك لا يدارى ولا يشارى ولا يمارى» [1] وقوله ﴿ستجدنى إن شاء الله من الصالحين﴾ يدل على ذلك ، يريد بالصلاح : حسن المعاملة ووطأة الخلق ولين الجانب [2] . ويجوز أن يريد الصلاح على العموم . ويدخل تحته حسن المعاملة ، والمراد باشتراط مشيئة الله فيما وعد من الصلاح : الاتكال على توفيقه فيه ومعونته ، لا أنه يستعمل الصلاح إن شاء الله ، وإن شاء استعمل خلافه ﴿ذلك﴾ مبتدأ ، و﴿بينى وبينك﴾ خبره ، وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب ، يريد . ذلك الذى قلته وعاهدتنى فيه وشارطتنى عليه قائم بيننا جميعا ، لا نخرج كلانا عنه ، لا أنا عما شرطت علىّ ولا أنت عما شرطت على نفسك . ثم قال : أى أجل من الأجلين قضيت : أطولهما الذى هو العشر ، أو أقصرهما الذى هو الثمان ﴿فلا عدوان علىّ﴾ أى لا يعتدى علىّ فى طلب الزيادة عليه . فإن قلت . تصوّر العدوان إنما هو فى أحد الأجلين الذى هو الأقصر وهو المطالبة بتتمة العشر ، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعا ؟ قلت : معناه كما أنى إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدوانا لا شك فيه ، فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمان . أراد بذلك تقرير أمر الخيار ، وأنه ثابت

(١) أخرجه أبو داود ، وابن ماجه من حديث السائب أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم : كنت شريكى ، فكنت خير شريك . لا تدارى ولا تمارى .

(٢) قوله «ووطأة الخلق ولين الجانب» فى الصحاح : «شىء وطىء» : بين الوطاءة . (ع)

مستقرّ ، وأن الأجلين على السواء : إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما فى القضاء . وأما التتمة فموكولة إلى رأيى : إن شئت أتيت بها ، وإلا لم أجبر عليها . وقيل : معناه فلا أكون متعدّيا ، وهو فى نفى العدوان عن نفسه ، كقولك : لا إثم علىّ ، ولا تبعة علىّ . وفى قراءة ابن مسعود : أى الأجلين ما قضيت . وقرئ : أيما ، بسكون الياء ، كقوله :

تَنَظَّرْتُ نَصْرًا وَالسِّمَاكَيْنِ أَيْهُمَا عَلَيَّ مِنَ الْغَيْثِ اسْتَهَلَّتْ مَوَاطِرُهْ [1]

وعن ابن قطيب : عدوان ، بالكسر . فإن قلت : ما الفرق بين موقعى (ما) المزيدة فى القراءتين ؟ قلت : وقعت فى المستفيضة مؤكدة لإبهام ، أىّ : زائدة فى شياعها : وفى الشاذة تأكيدا للقضاء ، كأنه قال : أى الأجلين صممت على قضائه وجردت عزيمتى له . الوكيل : الذى وكل إليه الأمر ، ولما استعمل فى موضع الشاهد والمهيمن والمقيت [2] ، عدى بعلى لذلك . روى أنّ شعيبا كانت عنده عصى الأنبياء فقال لموسى بالليل : ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى . فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ، ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب ، فمسها ـ وكان مكفوفا ، فضنّ بها فقال : غيرها ، فما وقع فى يده إلا هى سبع مرات ، فعلم أنّ له شأنا . وقيل : أخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقى بها موسى ليلا . وقيل : أودعها شعيباً ملك فى صورة رجل ، فأمر بنته أن تأتيه بعصا ، فأتته بها فردها سبع مرات فلم يقع فى يدها غيرها ، فدفعها إليه ثم ندم لأنها وديعة ، فتبعه فاختصما فيها ، ورضيا أن يحكم بينهما أوّل طالع ، فأتاهما الملك فقال : ألقياها فمن رفعها فهى له ، فعالجها الشيخ فلم يطقها ؛ ورفعها موسى . وعن الحسن : ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا . وعن الكلبى : الشجرة التى منها نودى شجرة العوسج ، ومنها كانت عصاه . ولما أصبح قال له شعيب : إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على عينك ، فإنّ الكلأ وإن كان بها أكثر ، إلا أنّ فيها تنينا [3] أخشاه عليك وعلى الغنم ، فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها ، فمشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله ، فنام فإذا بالتنين قد أقبل ، فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى دامية . فلما أبصرها دامية

---

(١) للفرزدق . ونصر : هو ابن سيار ملك العراقين . والسماكان : كوكبان : السماك الأعزل لانجم أمامه ، والسماك الرامح أمامه نجوم ، وأيهما أصله مشدد فسكن للضرورة ، ثم يحتمل أنه نصب بدل مما قبله ، وأنه معمول لمحذوف : أى لا أعلم أيهما وهو موصول . ويجوز أنه استفهام ، وعليه فهو رفع على الابتداء ، والضمير فيه راجع لنصر والسماكين ، أى : ترقبت نصراً والسماكين أيهما استهلت مواطره على من الغيث ، وأهل السحاب واستهل : اشتد انصبابه . والمواطر : السحائب . والغيث : المطر . وفى قرن نصر بالسماكين : دلالة على تشبيهه بهما فى الخير وعلى الاستفهام ، فهو من باب تجاهل العارف ، وكذلك على لنى العلم .

(٢) قوله «والمهيمن والمقيت» أى : المقتدر ، أو الحافظ . (ع)

(٣) قوله «إلا أن فيها تنينا» أى : ثعبانا . (ع)

والثنين مقتولا ارتاح لذلك ، ولما رجع إلى شعيب مسّ الغنم ، فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن ، فأخبره موسى ففرح وعلم أنّ لموسى والعصا شأنا ، وقال له : إنى وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كلّ أدرع ودرعاء [1] ، فأوحى إليه فى المنام : أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ، ففعل ؛ ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاء ، فوفى له بشرطه .

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢)

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الأجلين قضى موسى ؟ فقال : أبعدهما وأبطأهما .[2] وروى أنه قال : قضى أوفاهما ، وتزوج صغراهما . وهذا خلاف الرواية التى سبقت . الجذوة ـ باللغات الثلاث . وقرئ بهنّ جميعاً ـ : العود الغليظ ، كانت فى رأسه نار أولم تكن ، قال كثير :

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا جَزْلَ الْجُذَى غَيْرَ خَوَّارٍ وَلَا دَعِرِ [1]

---

(١) قوله « كل أدرع ودرعاء » لعله « كل أردع وردعاء » وفى الصحاح : به ردع من زعفران أو دم ، أى : لطخ وأثر . وردعته بالشيء فارتدع ، أى : لطخته به فتلطخ اه ، فالأردع : شبيه المتلطخ بلون آخر . ولفظ الخازن : أبلق وبلقاء . (ع)

(٢) أخرجه الحاكم من طريق ابن عيينة عن إبراهيم بن يحيى عن عكرمة عن ابن عباس بهذا قلت . وإبراهيم مجهول . وقوله : وروى أنه قال قضى أوفاهما وتزوج من صغراهما : أخرجه الطبرانى والبزار من طريق عويد بن أبى عمران الجونى عنه عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبى ذر « أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل : أى الأجلين قضى موسى ؟ قال : أوفاهما وأبرهما . قال وسئل أى المرأتين تزوج ؟ قال الصغرى منهما » وعويد ضعيف وفى ابن مردويه من حديث أبى هريرة رفعه « قال لى جبريل : إن سألك اليهودى : أى الأجلين قضى موسى ؟ فقل أوفاهما وإن سألك أيهما تزوج ؟ فقل الصغرى منهما » وفى إسناده سليمان الشاذكونى وهو ضعيف .

(٣) لابن مقبل . والحواطب : الجوارى يطلبن الحطب ، والالتماس ـ بحسب الأصل ـ : من اللمس ، ثم اتسع فيه . والجزل : الحطب الغليظ اليابس : والجذى : جمع جذوة بتثليث الجيم فيهما وهي العود الغليظ فى رأسه

وقال :

وَأَلْقَى عَلَى قَبَسٍ مِنَ النَّارِ جَذْوَةً شَدِيدًا عَلَيْهِ حَرُّهَا وَالْتِهَابُهَا [١]

﴿من﴾ الأولى والثانية لابتداء الغاية ، أى : أتاه النداء من شاطئ الوادى من قبل الشجرة . و ﴿من الشجرة﴾ بدل من قوله : من شاطئ الوادى ، بدل الاشتمال ؛ لأنّ الشجرة كانت نابتة على الشاطئ ، كقوله تعالى (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم) وقرئ : ﴿البقعة﴾ بالضم والفتح . و (الرهب) بفتحتين ، وضمتين ، وفتح وسكون ، وضم وسكون : وهو الخوف . فإن قلت : مامعنى قوله (واضمم إليك جناحك من الرهب) ؟ قلت : فيه معنيان ، أحدهما : أنّ موسى عليه السلام لما قلب الله العصا حية : فزع واضطرب ، فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء ، فقيل له : إنّ اتقاءك بيدك فيه غضاضة [٢] عند الأعداء . فإذا ألقيتها فكما تنقلب [٣] حية ، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب ماهو غضاضة عليك ، وإظهار معجزة أخرى . والمراد بالجناح : اليد ؛ لأنّ يدى الإنسان بمنزلة جناحى الطائر . وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى ، فقد ضمّ جناحه إليه . والثانى : أن يراد بضم جناحه إليه : تجلده وضبطه نفسه . وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب ، استعارة من فعل الطائر ؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما . وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران . ومنه ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز أنّ كاتباً له كان يكتب بين يديه ، فانفلتت منه فلتة ريح ، فخجل وانكسر ، فقام وضرب بقلمه الأرض ، فقال له عمر : خذ قلمك ، واضمم إليك جناحك ، وليفرخ روعك [٤] ، فإنى ماسمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسى . ومعنى قوله (من الرهب) من أجل الرهب ، أى : إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك : جعل الرهب الذى كان يصيبه سبباً وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه . ومعنى : (واضمم إليك جناحك) ، وقوله (اسلك يدك فى جيبك) على أحد التفسيرين : واحد . ولكن خولف بين العبارتين ، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين ، وذلك أن الغرض فى أحدهما خروج اليد بيضاء

= نار أولا . والخوار : الضعيف . والخور معيب ، إلا فى قولهم : ناقة خوارة ، أى كثيرة اللبن . ونخلة خوارة : كثيرة الحمل . ودعر العود دعراً كتعب كثر دخانه ، فهو دعر كحذر . والدعر أيضا : السوس والفساد . والدعار : الفسق والخبث ، وغير خوار : حال من جزل الجذى .

(١) الجذوة فى الأصل : العود الغليظ فى رأسه نار أولا ، ولكن خصها الوصف بما فى رأسه نار ، ثم إنها استعارة تصريحية للرمح أو للسيف ، والحر والالتهاب : ترشيح لها . وشديد : خبر المبتدأ الذى بعده .

(٢) قوله « فيه غضاضة » أى : ذلة ومنقصة ، كما فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله « فكما تنقلب حية » أى : فعند ما تنقلب . (ع)

(٤) قوله « وليفرخ روعك » أى ليذهب فزعك . أفاده الصحاح . (ع)

وفى الثاني : إخفاء الرهب . فإن قلت : قد جعل الجناح وهو اليد فى أحد الموضعين مضموما وفى الآخر مضموما إليه ، وذلك قوله (واضمم إليك جناحك) وقوله (واضمم يدك إلى جناحك) فما التوفيق بينهما ؟ قلت : المراد بالجناح المضموم . هو اليد اليمنى ، و بالمضموم إليه : اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما : جناح . ومن بدع التفاسير : أن الرهب : الكم ، بلغة حمير وأنهم يقولون : أعطنى مما فى رهبك ، وليت شعرى كيف صحته فى اللغة ؟ وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضى عربيتهم ؟ ثم ليت شعرى كيف موقعه فى الآية ؟ وكيف تطبيقه المفصل[1] كسائر كلمات التنزيل ؟ على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زرمانقة[2] من صوف لا كمى لها ﴿فذانك﴾ قرئ مخففا ومشدداً ، فالمخفف مثنى ذاك . والمشدد مثنى ذلك ، ﴿برهانان﴾ حجتان بينتان نيرتان . فإن قلت : لم سميت الحجة برهانا ؟ قلت : لبياضها وإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء . برهرهة ، بتكرير العين واللام معا . والدليل على زيادة النون قولهم : أبره الرجل ، إذا جاء بالبرهان . ونظيره تسميتهم إياها سلطانا من السليط وهو الزيت ، لإنارتها .

قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾

يقال : ردأته : أعنته . والردء : اسم مايعان به ، فعل بمعنى مفعول كما أن الدفء اسم لما يدفأ به . قال سلامة بن جندل :

وَرِدْئِى كُلُّ أَبْيَضَ مَشْرَفِىٍّ شَحِيذِ الْحَدِّ عَضْبٍ ذِى فُلُولِ[3]

وقرئ : رداً على التخفيف ، كما قرئ : الخب ﴿ردءا يصدقنى﴾ بالرفع والجزم صفة وجواب ، نحو (ولياً يرثنى) سواء . فإن قلت : تصديق أخيه ماالفائدة فيه ؟ قلت : ليس الغرض بتصديقه أن يقول له : صدقت ، أو يقول للناس : صدق موسى ، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ، ويبسط القول فيه ، ويجادل به الكفار ، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة ، فذلك جار مجرى التصديق المفيد ، كما يصدق القول بالبرهان . ألا ترى إلى قوله (وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله

(١) قوله «وكيف تطبيقه المفصل» لعله تطبيقه على المفصل (ع)

(٢) قوله «زرمانقة من صوف» فى الحديث : أن موسى عليه السلام لما أتى فرعون أتاه وعليه زرمانقة ، يعنى : جبة صوف . قال أبو عبيد : أراها عبرانية ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٣) لسلامة بن جندل . يقول : وردئى الذى أتوقى به المكاره كل سيف أبيض ، وعبر بكل ، لأن المراد بيان الجنس لا الشخص ، مشرفى : نسبة إلى مشارف اليمن قرى منها . وقيل : من الشام ، شحيذ الحد : مرهفه ، من شحذ المدية : حددها . عضب : قاطع ، والفلول : جمع فل - بالفتح : وهو كسر فى حد السيف وانثلام ، أى : به فلول من قراع الكتائب .

معى) ، وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك ، لا لقوله : صدقت ، فإنّ سحبان و باقلا [١] يستويان فيه ، أويصل جناح كلامه بالبيان ، حتى يصدّقه الذي يخاف تكذيبه ، فأسند التصديق إلى هرون ، لأنه السبب فيه إسناداً مجازياً . ومعنى الإسناد المجازى : أن التصديق حقيقة فى المصدّق ، فإسناده إليه حقيقة وليس فى السبب تصديق ، ولكن استعير له الإسناد لأنه لابس التصديق بالتسبب كما لابسه الفاعل بالمباشرة . والدليل على هذا الوجه قوله : (إنى أخاف أن يكذبون) وقراءة من قرأ : ردءا يصدقونى . وفيها تقوية للقراءة بجزم يصدقنى .

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾

العضد : قوام اليد ، وبشدّتها تشتد . قال طرفة :

أَبَنِى لُبَيْنَى لَسْتُمُو بِيَدٍ إِلَّا يَدًا لَيْسَتْ لَهَا عَضُدُ [٢]

ويقال فى دعاء الخير : شدّ الله عضدك . وفى ضده : فتّ الله فى عضدك . ومعنى ﴿سنشدّ عضدك بأخيك﴾ سنقويك به ونعينك ، فإمّا أن يكون ذلك لأن اليد تشتد بشدة العضد . والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور . وإمّا لأنّ الرجل شبه باليد فى اشتدادها باشتداد العضد، فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة ﴿سلطانا﴾ غلبة وتسلطا . أو حجة واضحة ﴿بآياتنا﴾ متعلق بنحو ما تعلق به فى تسع آيات ، أى اذهبا بآياتنا . أو بنجعل لكما سلطانا ، أى : نسلطكما بآياتنا . أو بلا يصلون ، أى : تمتنعون منهم بآياتنا . أو هو بيان للغالبون لا صلة ، لامتناع تقدم الصلة على الموصول . ولو تأخر : لم يكن إلا صلة له . ويجوز أن يكون قسما جوابه : لا يصلون ، مقدما عليه . أو من لغو القسم .

---

(١) قوله « فان سحبان وباقلا يستويان فيه » مثل فى الفصاحة . وباقل : مثل فى الفهاهة والعي . (ع)

(٢)
أبنى لبينى لستم بيـــد إلا يداً ليست لها عضد
أبنى لبينى لا أحقكم وجد الاله بكم كما أجد

لطرفة بن العبد . وقيل : لأوس بن حجر . والهمزة للنداء . ولبينى : اسم أمة كناية عن أنهم أرقاء . واليد استعارة تصريحية للأقوياء . أو تشبيه بليغ ، أى : لستم مثل يد من الأيدى فى القوة ، إلا مثل يد لا عضد لها ، فهى صعبة . ويروى إلا يداً مخبولة العضد ، يقال : خبلت يده أشلتها ، فن القافية الاقواء ، وفيه استتباع الذم بما يشبه المدح للمبالغة فى الذم ، وكرر النداء لزيادة التعبير ، وحقه يحقه : خصمه يخصمه ، وأثبته ، وأوجبه أيضا ، أى : لا أثبتكم . أو لستم أهلا لمخاصمتى إياكم . ووجد عليه : غضب . ووجد به : حزن ، أى : غضب الله بسببكم كما أغضب أنا . أو كرهكم كما يكره الحزين ما يحزنه . وهذا دعاء عليهم بالاهلاك .

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦)

﴿سحر مفترى﴾ سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله . أو سحر ظاهر افتراؤه . أو موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله ﴿فى آبائنا﴾ حال منصوبة عن هذا، أى : كائناً فى زمانهم وأيامهم ، يريد : ما حدثنا بكونه فيهم ، ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين فى ذلك ، وقد سمعوا وعلموا بنحوه . أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله فى فظاعته . أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى ومجيئه بما جاء به . وهذا دليل على أنهم حجوا وبهتوا ، وما وجدوا ما يدفعون به ما جاءهم من الآيات إلا قولهم هذا سحر وبدعة لم يسمعوا بمثلها .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)

يقول : ﴿ربى أعلم﴾ منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم ، حيث جعله نبيا وبعثه بالهدى ، ووعده حسن العقبى : يعنى نفسه ، ولو كان كما تزعمون كاذبا ساحراً مفتريا لما أهله لذلك، لأنه غنى حكيم لا يرسل الكاذبين ، ولا ينبئ الساحرين ، ولا يفلح عنده الظالمون . و﴿عاقبة الدار﴾ هى العاقبة المحمودة . والدليل عليه قوله تعالى ﴿أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن﴾ وقوله (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) والمراد بالدار : الدنيا ، وعاقبتها وعقباها : أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت . فإن قلت : العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار ، لأن الدنيا إما أن تكون خاتمتها بخير أو بشر ، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر ؟ قلت : قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازا إلى الآخرة ، وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير ، وما خلقهم إلا لأجله ليتلقوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق ، ومن عمل فيها خلاف ما وضعها الله فقد حرف ؛ فإذا عاقبتها الأصلية هى عاقبة الخير . وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها ؛ لأنها من نتائج تحريف الفجار [1] . وقرأ ابن كثير : (قال موسى) بغير

---

(١) قال محمود : « العاقبة هى العاقبة المحمودة ، والدليل عليه قوله عز وجل (أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن) وقوله (وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار) والمراد دار الدنيا وعاقبتها أن يختم للانسان فيها بالرحمة والرضوان وتتلقاه الملائكة بالبشرى عند الموت . قال : فان قلت العاقبة المحمودة والمذمومة كلاهما يصح أن يسمى عاقبة لأن الدنيا إما أن تكون خاتمتها خيراً أو شراً ، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر ؟ قلت : لأن الله سبحانه وتعالى وضع الدنيا مجازاً للآخرة وأراد لعباده فيها أن يعبدوه ولا يعملوا إلا الخير وما خلقهم إلا لأجله ، كما قال :

واو ، على مافى مصاحف أهل مكة ، وهى قراءة حسنة ؛ لأنّ الموضع موضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عليه السلام عند تسميتهم مثل تلك الآيات الباهرة : سحرا مفترى . ووجه الأخرى : أنهم قالوا ذلك ، وقال موسى عليه السلام هذا ، ليوازن الناظر بين القول والمقول ، ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر :

* وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ * (١)

وقرئ تكون : بالياء والتاء .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى

ـــ (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) فمن عمل فى الدنيا على خلاف ذلك فقد حرف ؛ لأن عاقبتها الأصلية هى عاقبة الخير ، وأما عاقبة الشر فلا اعتداد بها لأنها من تحريف الفجار ، قال أحمد : وقد تقدم من قواعد أهل الحق مايستضاء به فى هذا المقام ، والقدر الذى يحتاج إلى تجديده ههنا : أن استدلاله على أن عاقبة الخير وعبادة الله تعالى هى المرادة له لاسواها بقوله تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) معارض بأمثاله فى أدلة أهل السنة على عقائدهم ، مثل قوله (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس) الآية . والمراد والله أعلم : ولقد جعلنا لعذاب جهنم خلقا كثيراً من الثقلين . ومن ذلك مايروى عن الفاروق رضى الله عنه أنه قال : وإنكم آل المغيرة ذرء النار ، أى : خلقها ، فلئن دلت آية الذاريات ظاهراً على أن الله تعالى إنما خلق الثقلين لتكون عاقبتهم الجنة جزاء وثواباً على عبادتهم له ، فقد دلت آية الأعراف على أنه خلق كثيراً من الثقلين لتكون عاقبتهم جهنم جزاء على كفرهم . وحينئذ يتعين الجمع بين الآيتين ، وحمل عموم آية الذاريات على خصوص الآية الأخرى ، وإن المراد : وما خلقت السعداء من الثقلين إلا لعبادتى ، جمعاً بين الأدلة ، فقد ثبت أن العاقبتين كلتيهما مرادة لله تعالى : هذا بعد تظافر البراهين العقلية على ذلك ، فوجه مجىء العاقبة المطلقة كثيراً وإرادة الخير بها : أن الله تعالى هدى الناس إليها ووعدهم ماورد فى سلوك طريقها من النجاة والنعيم المقيم ، ونهاهم عن ضدها وتوعدهم على سلوكها بأنواع العذاب الأليم ، وركب فيهم عقولا ترشدهم إلى عاقبة الخير ، ومكنهم منها ، وأزاح عللهم ووفر دواعيهم ، فكان من حقهم أن لايعدلوا عن عاقبة الخير ولا يسلكوا غير طريقها ، وأن يتخذوها نصب أعينهم ، فأطلقت العاقبة والمراد بها الخير تفريعاً على ذلك ، والله أعلم . والحاصل : أنها لما كانت هى المأمور بها والمحضوض عليها ، عوملت معاملة ما هو مراد وإن لم تكن مرادة من كثير من الخلق ، وقال لى بعضهم : ما يمنعك أن تقول لم يفهم كون العاقبة المطلقة هى عاقبة الخير من إطلاقها ، ولكن من إضافتها إلى ذويها باللام فى الآى المذكورة ، كقوله (من تكون له عاقبة الدار) ، (وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار) ، (والعاقبة للمتقين) فأفهمت اللام أنها عاقبة الخير ؛ إذ هى لهم وعاقبة السوء عليهم لا لهم ، كما يقولون : الدائرة لفلان ، يعنون : دائرة الظفر والنصر . والدائرة على فلان ، يعنون : دائرة الخذلان والسوء ، فقلت : لقد كان لى فى ذلك مقال لولا ورود (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) ولم يقل عليهم ، فاستعمال اللام مكان «على» دليل على إيفاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير ، والله أعلم .

(١) من يظلم القرناء فى تكليفهم أن يصبحوا وهم له أكفاء
ونذمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتميز الأشياء

لأبى الطيب المتنبى ، يمدح هارون بن عبد العزيز ، أى : أنه تظلم أقرانه فى تكليفهم أن يكونوا مساوين له ، وفى ذلك مشقة عليهم : كناية عن أنه لايساويه أحد . وقوله : وبضدها إلى آخره : دليل على ماقبله . ويروى : تتبين الأشياء ، والمعنى واحد ، أى : الأشياء تعرف بمعرفة معنى أضدادها .

الظَّٰلِمِينَ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)

روى أنه لما أمر ببناء الصرح، جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الاتباع والاجراء، وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير، فشيدوه حتى بلغ مالم يبلغه بنيان أحد من الخلق، فكان البانى لا يقدر أن يقف على رأسه يبنى، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس، فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع: وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل، ووقعت قطعة فى البحر وقطعة فى المغرب، ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك. ويروى فى هذه القصة: أنّ فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابة نحو السماء، فأراد الله أن يفتنهم فردّت إليه وهى ملطوخة بالدم، فقال: قد قتلت إله موسى، فعندها بعث الله جبريل عليه السلام لهدمه، والله أعلم بصحته. قصد بنفى علمه بإله غيره: نفى وجوده، معناه: (مالكم من إله غيرى) كما قال الله تعالى (قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض) معناه بما ليس فيهن، وذلك لأنّ العلم تابع للمعلوم لا يتعلق به إلا على ماهو عليه، فإذا كان الشيء معدوما لم يتعلق به موجود. فمن ثمة كان انتفاء العلم بوجوده لانتفاء وجوده. وعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم بوجوده [1]. ويجوز أن يكون على ظاهره، وأنّ إلها غيره غير معلوم عنده،

(١) قال محمود: «عبر عن نفى المعلوم بنفى العلم، وإنما كان كذلك لأن العلم لا يتعلق بالمعلوم إلا على ما هو عليه إن موجوداً فوجود وإن معدوما فمعدوم، فمن ثم عبر عن نفى كونه موجوداً بنفى كونه معلوما» قال أحمد: لشدة ما بلغ منه الوهم، لم يتأمل كيف سقوط السهم؛ وإنما أتى من حيث أن الله تعالى عبر كثيراً عن نفى المعلوم بنفى العلم فى مثل قوله: قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض، أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض، فلما اطرد ذلك عنده توهم أن هذا التعبير عن نفى المعلوم بنفى العلم يشمل كل علم، ولو لم يتعلق بالمعلوم على ماهو به، وليس هو كذلك، بل هذا التعبير لا يسوغ إلا فى علم الله تعالى لأمر يخص العلم القديم وهو عموم تعلقه حتى لا يعزب عنه أمر، فما لم يتعلق العلم بوجوده يلزم أن لا يكون موجوداً، إذ لو كان موجوداً لتعلق به بخلاف علم الخلق، فلا تلازم بين نفى الشيء ونفى العلم الحادث بوجوده، ولا كذلك العلم القديم، فان بين نفى معلومه ونفى تعلقه بوجوده تلازما سوغ التعبير المذكور، ولكن المعلوم أن فرعون كان يدعى الالهية ويعامل علمه معاملة علم الله تعالى فى أنه لا يعزب عنه شيء، فمن ثم طغى وتكبر. وعبر بنفى علمه عن نفى المعلوم، تدليساً على ملئه، وتلبيساً على عقولهم السخيفة ـ والله أعلم ـ ويناسب تعاظمه هذا قوله (فأوقد لى يا هامان على الطين) ولم يقل: فاطبخ لى آجراً، وذلك من التعاظم، كما قال تعالى ـ وله العظمة والكبرياء، ومن ارتدى بردائهما قصمه ـ: (ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية) فذكر هذه العبارة الجامعة لأنواع الكفر على وجه الكبرياء تهاوناً بها، وذلك من تجبر الملوك ـ جل الله وعز ـ ومن تعاظم فرعون أيضاً: نداؤه لوزيره باسمه، وبحرف النداء وتوسيط ندائه خلال الأمر. وبناؤه الصرح ورجاؤه الاطلاع: دليل على أنه لم يكن مصمما على الجحود. قال الزمخشرى: وذلك مناقض لما أظهر من الجحد الجازم فى قوله (ما علمت لكم من إله غيرى) فاما أن يخفى هذا التناقض على قومه لغباوتهم وكآبة أذهانهم. وإما أن يتفطنوا لها ويخافوا نقمته فيصبروا. قال أحمد: وللقائل ـ والله أعلم ـ أن يحمل قوله (ما علمت لكم من إله غيرى) على الشك، ونفى علمه خاصة، وإجرائه مجرى سائر علوم الخلق فى أنه لا يلزم من

ولكنه مظنون بدليل قوله (وإنى لأظنه من الكاذبين) ، وإذا ظنّ موسى عليه السلام كاذبا فى إثباته إلها غيره ولم يعلمه كاذبا ، فقد ظنّ أن فى الوجود إلها غيره ، ولولم يكن المخذول ظانا ظناً كاليقين ، بل عالما بصحة قول موسى عليه السلام لقول موسى له (لقد علمت ماأنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) لما تكلف ذلك البنيان العظيم ، ولما تعب فى بنائه ماتعب ، لعله يطلع بزعمه إلى إله موسى عليه السلام ، وإن كان جاهلا مفرط الجهل به وبصفاته ، حيث حسب أنه فى مكان كما كان هو فى مكان ، وأنه يطلع إليه كما كان يطلع إليه إذا قعد فى عليته ، وأنه ملك السماء كما أنه ملك الأرض . ولا ترى بينة أثبت شهادة على إفراط جهله وغباوته وجهل ملئه وغباوتهم : من أنهم راموا نيل أسباب السموات بصرح يبنونه ، وليت شعرى ؛ أكان يلبس على أهل بلاده ويضحك من عقولهم ، حيث صادفهم أغبى الناس وأخلاهم من الفطن وأشبههم بالبهائم بذلك ؟ أم كان فى نفسه بتلك الصفة ؟ وإن صحّ ما حكى من رجوع النشابة إليه ملطوخة بالدم ، فتهكم به بالفعل ، كما جاء التهكم بالقول فى غير موضع من كتاب الله بنظرائه من الكفرة . ويجوز أن يفسر الظن على القول الأوّل باليقين ، كقوله :

* فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجِ * (١)

ويكون بناء الصرح مناقضة لما ادعاه من العلم واليقين ، وقد خفيت على قومه لغباوتهم وبلههم . أولم تخف عليهم ، ولكن كلا كان يخاف على نفسه سوطه وسيفه ، وإنما قال ﴿أوقد لى ياهامان

═ نفى تعلقه بوجود أمر نفى ذلك الأمر ، لجواز أن يكون موجوداً عازباً عن علمه . وحينئذ لا يكون تناقضاً ، ولو لم يكن حمله هذا هو الأصل لما سوغنا أن يرفع التناقض عن كلامه ، لأنه أحقر من ذلك .

(١)
وكل تباريح المحب لقيتها ... سوى أننى لم ألق حتفى بمرصدى
نصحت لعارض وأصحاب عارض ... ورهط بنى السوداء والقوم شهدى
فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج ... سراتهم فى الفارسى المسرد

لدريد بن الصمة ، ينذر قومه بهجوم العدو . ودريد : هو معاوية بن الحرث بن بكر بن علقمة الجشمى : قتل مشركا يوم حنين ، أى : كل الشدائد التى يلقاها المحب من محبوبه لقيتها . والحتف : الهلاك . والمرصد ، والمرصاد : الطريق ، وفى إضافته لنفسه معنى لطيف ، أى : لم أسلك طريقا فيه حتف لى ، بل أسلك غيره فطريقى لاضرر فيه . ونصحه ونصح له : خلص وصفا . والشهد ـ بالتشديد : جمع شاهد . ودججه تدجيجا : غطاه تغطية . والدجة ـ بالتشديد ـ : الظلمة . والدج : المشى بتؤدة . والمدجج : التام السلاح . وقيل : هو بالفتح : الفرس ، وبالكسر : الفارس . والسراة : السادة الأشراف بفتح السين ، وهى فى الأصل : أعلى ظهر الحيوان ، فاستعيرت لهم ، وقد تضم ، فوزنها « فعلة » جمع سرى وزن فعيل على غير قياس ؛ إذ قياسه أفعلاء ، وهو فى الأصل : النهر الصغير : استعير للخير الرئيس ، والفارسى : الدروع المعمولة بفارس . والسرد والتسريد : متابعة النسج ، يقول : أيقنوا بهجوم جيش عظيم . والألفان : كناية عن الكثرة ، أى : جيش كثير مغطى بالسلاح ، أشرافه فى الدروع الفارسية المتتابعة النسج . والظرفية دالة على سبوغ الدروع لهم . ويروى المسود بالواو وليس بذاك .

على الطين﴾ ولم يقل : اطبخ لى الآجر واتخذه ، لأنه أوّل من عمل الآجر ، فهو يعلمه الصنعة ، ولأن هذه العبارة أحسن طباقا لفصاحة القرآن وعلو طبقته وأشبه بكلام الجبابرة . وأمر هامان وهو وزيره ورديفه بالإيقاد على الطين منادى باسمه بيا فى وسط الكلام : دليل التعظيم [١] والتجبر . وعن عمر رضى الله عنه أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر فقال : ما علمت أن أحداً بنى بالآجر غير فرعون . والطلوع والإطلاع : الصعود . يقال : طلع الجبل وأطلع : بمعنى .

وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾

الاستكبار بالحق : إنما هو لله تعالى ، وهو المتكبر على الحقيقة ، أى : المتبالغ فى كبرياء الشأن . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكى عن ربه : «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما ألقيته فى النار» [٢] . وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق ﴿يرجعون﴾ بالضم والفتح ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم﴾ من الكلام الفخم الذى دل به على عظمة شأنه وكبرياء سلطانه . شبههم استحقاراً لهم واستقلالا لعددهم [٣] . وإن كانوا الكثر الكثير والجم الغفير ، بحصيات أخذهن آخذ فى كفه فطرحهن فى البحر . ونحو ذلك قوله ﴿وجعلنا فيها رواسى شامخات﴾ ، ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ . ﴿وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾ وماهى إلا تصويرات وتمثيلات لاقتداره ، وأن كل مقدور وإن عظم وجل ، فهو مستصغر إلى جنب قدرته .

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

فإن قلت : مامعنى قوله ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ ؟ قلت : معناه : ودعوناهم أئمة

---

(١) قوله « دليل التعظيم » لعله التعظم . (ع)

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه .

(٣) عاد كلامه . قال : «وقوله تعالى (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) مقابلة لاستكباره بفعل عبر عنه بما صورته أخذ حصيات ممتهنات ، ثم نبذها ، أى : طرحها فى اليم بهوان ، فذلك تمثيل لاستهانته به وإهلاكه بهذا النوع من الهلاك . والله أعلم .

دعاة إلى النار (١) ، وقلنا : إنهم أئمة دعاة إلى النار ، كما يدعى خلفاء الحق أئمة دعاة إلى الجنة . وهو من قولك : جعله بخيلا وفاسقا ، إذا دعاه وقال : إنه بخيل وفاسق (٢) . ويقول أهل اللغة فى تفسير فسقه وبخله : جعله بخيلا وفاسقا . ومنه قوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) ومعنى دعوتهم إلى النار : دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصى ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ كما ينصر الأئمة الدعاة إلى الجنة . ويجوز : خذلناهم حتى كانوا أئمة الكفر . ومعنى الخذلان : منع الألطاف ، وإنما يمنعها من علم أنها لا تنفع فيه ، وهو المصمم على الكفر الذى لا تغنى عنه الآيات والنذر ، ومجراه مجرى الكناية ؛ لأن منع الألطاف يردف التصميم ، والغرض بذكره : التصميم نفسه ، فكأنه قيل : صمموا على الكفر حتى كانوا أئمة فيه دعاة إليه وإلى سوء عاقبته . فإن قلت : فأى فائدة فى ترك المردوف إلى الرادفة ؟ قلت : ذكر الرادفة يدل على وجود المردوف فيعلم وجود المردوف مع الدليل الشاهد بوجوده ، فيكون أقوى لإثباته من ذكره . ألا ترى أنك تقول : لولا أنه مصمم على الكفر مقطوع أمره مثبوت حكمه لما منعت منه الألطاف ، فبذكر منع الألطاف يحصل العلم بوجود التصميم على الكفر وزيادة ، وهو قيام الحجة على وجوده . وينصر هذا الوجه قوله (ويوم القيامة لا ينصرون) كأنه قيل . وخذلناهم فى الدنيا وهم يوم القيامة مخذولون ، كما قال ﴿وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة﴾ أى طرداً وإبعاداً عن الرحمة ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ أى من المطرودين المبعدين .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿بصائر﴾ نصب على الحال . والبصيرة : نور القلب الذى يستبصر به ، كما أن البصر نور العين الذى تبصر به ، يريد : آتيناه التوراة أنواراً للقلوب ، لأنها كانت عمياء لا تستبصر ولا تعرف

(١) قوله «ودعوناهم أئمة دعاة إلى النار» هذا التأويل وما يأتى بعده فى قوله : ويجوز خذلناهم ... إلى آخره : مبنيان على أنه تعالى يجب عليه الصلاح ولا يجوز عليه خلق الشر ، وهذا مذهب المعتزلة . أما مذهب أهل السنة فهو أنه لا يجب عليه تعالى شىء ، ويجوز عليه خلق الشر كالخير . وقد حقق فى التوحيد فلا داعى إلى تأويل الآية بمثل هذا التكلف . (ع)

(٢) قال محمود : «معناه دعوناهم أئمة دعاة إلى النار ، كما تقول : جعلته بخيلا فاسقاً إذا دعوته بذلك» قال أحمد : لا فرق عند أهل السنة بين قوله تعالى (وجعل الظلمات والنور) ، (وجعلنا الليل والنهار آيتين) وبين هذه الآية ، فمن حمل الجعل على التسمية فيما نحن فيه فراراً من اعتقاد أن دعاءهم إلى النار مخلوق لله تعالى ، فهو بمثابة من حمله على التسمية فى قوله تعالى «وجعلنا الليل والنهار آيتين» : فراراً من جعل الليل والنهار مخلوقين لله تعالى ، فلا فرق بين نفى مخلوق واحد عن قدرته تعالى ونفى كل مخلوق ، نعوذ بالله من ذلك .

حقا من باطل . وإرشادا : لأنهم كانوا يخبطون فى ضلال ﴿ورحمة﴾ لأنهم لوعملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة ﴿لعلهم يتذكرون﴾ إرادة أن يتذكروا . شبهت الإرادة بالترجى فاستعير لها . ويجوز أن يراد به ترجى موسى عليه السلام [1] لتذكرهم ، كقوله تعالى (لعله يتذكر) .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾

﴿الغربى﴾ المكان الواقع فى شق الغرب ، وهو المكان الذى وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له فى الألواح . والأمر المقضى إلى موسى عليه السلام : الوحى الذى أوحى إليه ؛ والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وما كنت حاضرا المكان الذى أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام ، ولا كنت ﴿من﴾ جملة ﴿الشاهدين﴾ للوحى إليه ، أو على الوحى إليه : وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات ، حتى تقف من جهة المشاهدة على ماجرى من أمر موسى عليه السلام فى ميقاته . وكتبة التوراة له فى الألواح ، وغير ذلك .

وَلَـٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾

فإن قلت : كيف يتصل قوله ﴿ولكنا أنشأنا قرونا﴾ بهذا الكلام؟ ومن أى وجه يكون استدراكا له ؟ قلت : اتصاله به وكونه استدراكا له ، من حيث أن معناه : ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قرونا كثيرة ﴿فتطاول﴾ على آخرهم : وهو القرن الذى أنت فيهم ﴿العمر﴾ أى أمد انقطاع الوحى واندرست العلوم ، فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك وكسبناك [2] العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى عليهم السلام . كأنه قال : وما كنت شاهدا لموسى وما جرى عليه ، ولكنا أوحينا إليك . فذكر سبب الوحى الذى هو إطالة الفترة ؛ ودلّ به على المسبب على عادة الله عز وجل فى اختصاراته ، فإذاً هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده ﴿وما كنت ثاويا﴾ أى مقيما ﴿فى أهل مدين﴾ وهم شعيب والمؤمنون به ﴿تتلوا عليهم آياتنا﴾ تقرؤها عليهم تعلما منهم ، يريد : الآيات التى فيها قصة شعيب وقومه ،

(١) قال محمود : «معناه إرادة تذكرهم ، لأن الارادة تشبه الترجى ، فاستعير لها . أو يراد به ترجى موسى عليه السلام» قال أحمد : الوجه الثانى هو الصواب ، واحذر الأول فانه قدرى .

(٢) قوله «وكسبناك العلم» كسب يتعدى إلى مفعولين ، فيقال : كسبت أهلى خيراً ، وكسبت الرجل مالا ، كما فى الصحاح . (ع)

ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمنا كها .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

﴿إذ نادينا﴾ يريد مناداة موسى عليه السلام ليلة المناجاة وتكليمه ، و ﴿لكن﴾ علمناك ﴿رحمة﴾ وقرئ : رحمة ، بالرفع : أى هى رحمة ﴿ما أتاهم﴾ من نذير فى زمان الفترة بينك وبين عيسى وهى خمسمائة وخمسون سنة ، ونحوه قوله (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم) :

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

﴿لولا﴾ الأولى امتناعية وجوابها محذوف ، والثانية تحضيضية ، وإحدى الفاءين للعطف ، والأخرى جواب لولا ، لكونها فى حكم الأمر ، من قبل أن الأمر باعث على الفعل ، والباعث والمحضض من واد واحد . والمعنى : ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصى : هلا أرسلت إلينا رسولا ، محتجين علينا بذلك : لما أرسلنا إليهم ، يعنى : أن إرسال الرسول إليهم إنما هو ليلزموا الحجة ولا يلزموها ، كقوله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ، (أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) . (لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك) . فإن قلت : كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هى السبب فى الإرسال لا القول ، لدخول حرف الامتناع عليها دونه ؟ قلت : القول هو المقصود بأن يكون سببا لإرسال الرسل ، ولكن العقوبة لما كانت هى السبب للقول وكان وجوده بوجودها ، جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال بواسطة القول ، فأدخلت عليها لولا ، وجيء بالقول معطوفا عليها بالفاء المعطية معنى السببية [1] ، ويؤول معناه إلى قولك : ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم

(١) قال محمود : «لولا الأولى امتناعية ، والثانية تحضيضية . والفاء الأولى عاطفة والثانية جواب لولا . والمعنى : لولا أنهم قائلون إذا عوقبوا : لولا أرسلت إلينا رسولا ، محتجين بذلك لما أرسلت إليهم أحداً . فان قلت : كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة سبباً فى الارسال لا القول ، لدخول حرف الامتناع عليها دونه ؟ قلت : العقوبة سبب القول ، وهى سبب السبب ، فجعلت سبباً وعطف السبب الأصلى عليها بالفاء السببية» قال أحمد : وذلك مثل قوله تعالى (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) والسر فى جعل سبب السبب سبباً ، وعطف السبب الأصلى عليه أمران ، أحدهما : أن مزيد العناية يوجب التقديم ، وهذا هو السر الذى أبداه سيبويه . الثانى أن فى هذا النظم تنبيها على سببية كل واحد منهما : أما الأول فلاقترانه بحرف التعليل ، وهو « أن » ، وأما الثانى فلاقترانه بفاء السبب ، ولا يتعاطى هذا المعنى إلا من قولك (أن تضل إحداهما فتذكر) لامن قول القائل : أن

مصيبة لما أرسلنا ، ولكن اختيرت هذه الطريقة لنكتة : وهى أنهم لو لم يعاقبوا مثلا على كفرهم وقد عاينوا ما ألجئوا به إلى العلم اليقين : لم يقولوا (لولا أرسلت إلينا رسولا) وإنما السبب فى قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم . وفى هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفى ، كقوله تعالى (ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه) . ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدى : جعل كل عمل معبرا عنه باجتراح الأيدى وتقديم الأيدى وإن كان من أعمال القلوب ، وهذا من الاتساع فى الكلام وتصيير الأقل تابعا للأكثر وتغليب الأكثر على الأقل .

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾

﴿فلما جاءهم الحق﴾ وهو الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات وقطعت معاذيرهم وسدّ طريق احتجاجهم ﴿قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى﴾ من الكتاب المنزل جملة واحدة ، ومن قلب العصا حية وفلق البحر وغيرهما من الآيات ؛ فجاءوا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد ، كما قالوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، وما أشبه ذلك ﴿أو لم يكفروا﴾ يعنى أبناء جنسهم ومن مذهبهم مذهبهم وعنادهم عنادهم ، وهم الكفرة فى زمن

ـــ تذكر إحداهما الأخرى إذا ضلت ، وكان بعض النحاة يورد هذه الآية إشكالا على النحاة وعلى أهل السنة من المتكلمين ، فيقول : «لولا» عند أهل الفن تدل على امتناع جوابها لوجود ما بعدها ، وحينئذ يكون الواقع بعدها فى الآية موجوداً وهو عقوبة هؤلاء المذكورين بتقدير عدم بعثة الرسل ، وجوابها المحذوف غير واقع وهو عدم الارسال ، لأنه ممتنع بالأولى . ومتى لم يقع عدم الارسال كان الارسال واقعاً ضرورة ، فيشكل الواقع بعدها على أهل السنة ؛ لأنهم يقولون : لا ظلم قبل بعثه الرسل ، فلا تتصور العقوبة بتقدير عدم البعثة ، وذلك لأنها واقعة جزاء على مخالفة أحكام الشرع . فان لم يكن شرع فلا مخالفة ولا عقوبة . ويشكل الجواب على النحاة ؛ لأنه يلزم أن لا يكون واقعاً وهو عدم بعثة الرسل ، لكن الواقع بعدها يقتضى وقوعه ، ثم كان مورد هذا الاشكال يجيب عنه بتقدير محذوف . والأصل : ولولا كراهة أن تصيبهم مصيبة وحينئذ يزول الاشكال عن الطائفتين . والتحقيق عندى فى الجواب خلاف ذلك ، وإنما جاء الاشكال من حيث عدم تجويز النحاة لمعنى لولا أن يقولون : أنها تدل على أن ما بعدها موجود وأن جوابها ممتنع به ، والتحرير فى معناها أنها تدل على أن ما بعدها مانع من جوابها ، عكس «لو» فان معناها لزوم جوابها لما بعدها ، ثم المانع قد يكون موجوداً وقد يكون مفروضا ، والآية من قبيل فرض وجود المانع ، وكذلك اللزوم فى «لو» قد يكون الشىء الواحد لازما للشيئين ، فلا يلزم نفيه من نفى أحد ملزوميه . وعلى هذا التحرير يزول الاشكال الوارد على «لو» فى قوله : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، فتأمل هذا الفصل فتحته فوائد للتأمل ، والله الموفق .

موسى عليه السلام ﴿بما أوتى موسى﴾ وعن الحسن رحمه الله: قد كان للعرب أصل فى أيام موسى عليه السلام، فمعناه على هذا: أو لم يكفر آباؤهم ﴿قالوا﴾ فى موسى وهرون ﴿ساحران تظاهرا﴾ أى تعاونا. وقرئ: إظهاراً على الإدغام. وسحران. بمعنى: ذوا سحر. أو جعلوهما سحرين مبالغة فى وصفهما بالسحر. أو أرادوا نوعان من السحر ﴿بكل﴾ بكل واحد منهما. فإن قلت: بم علقت قوله من قبل فى هذا التفسير؟ قلت: بأو لم يكفروا، ولى أن أعلقه بأوتى، فينقلب المعنى إلى أن أهل مكة الذين قالوا هذه المقالة كما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن فقد كفروا بموسى عليه السلام وبالتوراة، وقالوا فى موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام: ساحران تظاهرا. أو فى الكتابين: سحران تظاهرا، وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم، فأخبروهم أنه نعته وصفته، وأنه فى كتابهم، فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: ساحران تظاهرا.

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَـٰبٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾

﴿هو أهدى منهما﴾ مما أنزل على موسى عليه السلام ومما أنزل علىّ. هذا الشرط من نحو ماذكرت أنه شرط المدل بالأمر المتحقق لصحته؛ لأنّ امتناع الإتيان بكتاب أهدى من الكتابين أمر معلوم متحقق لا مجال فيه للشك. ويجوز أن يقصد بحرف الشك: التهكم بهم.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

فإن قلت: ماالفرق بين فعل الاستجابة فى الآية، وبينه فى قوله:

* فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ * (١)

حيث عدى بغير اللام؟ قلت: هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعى باللام، ويحذف الدعاء إذا عدى إلى الداعى فى الغالب، فيقال: استجاب الله دعاءه أو استجاب له، ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه. وأما البيت فمعناه: فلم يستجب دعاءه، على حذف المضاف. فإن قلت: فالاستجابة تقتضى دعاء ولا دعاء ههنا. قلت: قوله فأتوا بكتاب أمر بالإتيان والأمر بعث على الفعل ودعاء إليه، فكأنه قال: فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، فاعلم أنهم قد ألزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى، ثم قال ﴿ومن أضل ممن﴾ لا يتبع فى

(١) قوله «فلم يستجبه عند ذاك مجيب» صدره: * وداع دعا يا من يجيب إلى الندى * اهـ عليان. قلت: وقد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤٥٦ فراجعه إن شئت اهـ مصححه.

دينه إلا ﴿هواه بغير هدى من الله﴾ أى مطبوعا على قلبه ممنوع الألطاف ﴿إنّ الله لا يهدى﴾ أى لا يلطف بالقوم الثابتين على الظلم الذين اللاطف بهم عابث. وقوله بغير هدى فى موضع الحال، يعنى: مخذولا مخلى بينه و بين هواه.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

قرئ ﴿وصلنا﴾ بالتشديد والتخفيف. والمعنى: أن القرآن أتاهم متتابعا متواصلا، وعداً ووعيداً، وقصصاً وعبراً، ومواعظ ونصائح: إرادة أن يتذكروا فيفلحوا. أو نزل عليهم نزولا متصلا بعضه فى أثر بعض. كقوله (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين).

الَّذِينَ ءاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب وعن رفاعة بن قرظة: نزلت فى عشرة أنا أحدهم. وقيل: فى أربعين من مسلمى أهل الإنجيل: اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفر من أرض الحبشة، وثمانية من الشام. والضمير فى ﴿من قبله﴾ للقرآن.

وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾

فإن قلت: أى فرق بين الاستئنافين إنه وإنا؟ قلت: الأول تعليل للإيمان به، لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به. والثانى: بيان لقوله (آمنا به) لأنه يحتمل أن يكون إيمانا قريب العهد وبعيده، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم؛ لأنّ آباءهم القدماء قرؤا فى الكتب الأول ذكره وأبناءهم من بعدهم ﴿من قبله﴾ من قبل وجوده ونزوله ﴿مسلمين﴾ كائنين على دين الإسلام؛ لأن الإسلام صفة كل موحد مصدّق للوحى.

أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾

﴿بما صبروا﴾ بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن. أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله. أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب. ونحوه (يؤتكم كفلين من رحمته)، ﴿بالحسنة السيئة﴾ بالطاعة المعصية المتقدمة. أو بالحلم الأذى.

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

﴿سلام عليكم﴾ توديع ومتاركة. وعن الحسن رضى الله عنه: كلمة حلم من المؤمنين ﴿لا نبتغى الجاهلين﴾ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم فإن قلت: من خاطبوا بقولهم (ولكم أعمالكم)؟ قلت: اللاغين الذين دل عليهم قوله (وإذا سمعوا اللغو).

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

﴿لا تهدى من أحببت﴾ لا تقدر أن تدخل فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم، لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره ﴿ولكن الله﴾ يدخل فى الإسلام ﴿من يشاء﴾ وهو الذى علم أنه غير مطبوع على قلبه، وأن الألطاف تنفع فيه، فيقرن به ألطافه حتى تدعوه إلى القبول ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ بالقابلين من الذين لا يقبلون. قال الزجاج: أجمع المسلمون أنها نزلت فى أبى طالب، وذلك أن أبا طالب قال عند موته: يا معشر بنى هاشم، أطيعوا محمداً وصدّقوه تفلحوا وترشدوا، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك؟ قال: فما تريد يا ابن أخى؟ قال: أريد منك كلمة واحدة فإنك فى آخر يوم من أيام الدنيا: أن تقول لا إله إلا الله. أشهد لك بها عند الله. قال: يا ابن أخى، قد علمت إنك لصادق، ولكنى أكره أن يقال: خرع عند الموت[1]، ولولا أن تكون عليك وعلى بنى أبيك غضاضة[2] ومسبة بعدى، لقلتها، ولأقررت بها عينك عند الفراق، لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك، ولكنى سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف.

وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

قالت قريش، وقيل: إن القائل الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف: نحن نعلم أنك على الحق، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك ـ وإنما نحن أكلة رأس، أى: قليلون ـ أن يتخطفونا من أرضنا، فألقمهم الله الحجر. بأنه مكن لهم فى الحرم الذى آمنه بحرمة البيت وآمن قطانه بحرمته، وكانت العرب فى الجاهلية حولهم يتغاورون ويتناحرون، وهم آمنون فى حرمهم لا يخافون، وبحرمة البيت هم قارون بواد غير ذى زرع، والثمرات والأرزاق تجبى إليهم من كل

(١) قوله «أكره أن يقال خرع عند الموت» فى الصحاح: خرع الرجل ـ بالكسر ـ: ضعف، فهو خرع. (ع)

(٢) قوله «غضاضة» أى: مذلة ومنقصة. (ع)

(٣) لم أجده، وقصة وفاة أبى طالب فى الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن ابنه بغير هذا السياق أو أخصر منه.

أوب ، فإذا خولهم الله ماخولهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخوّف والتخطف ، ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام. وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة ، وإلى الحرم مجاز ﴿تجبى إليه﴾ تجلب وتجمع . قرئ : بالياء والتاء . وقرئ : تجنى ، بالنون ، من الجنى . وتعديته بإلى كقوله : يجنى إلىّ فيه ، ويجنى إلى الخافة [١] . وثمرات : بضمتين وبضمة وسكون . ومعنى الكلية : الكثرة كقوله (وأوتيت من كل شيء) . ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ متعلق بقوله (من لدنا) أى قليل منهم يقرون بأنّ ذلك رزق من عند الله ، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولا يفطنون له ، ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده . ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به وخلعوا أنداده . فإن قلت : بم انتصب رزقا ؟ قلت : إن جعلته مصدراً جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله ؛ لأنّ معنى (يجبى إليه ثمرات كل شيء) ويرزق ثمرات كل شيء : واحد ، وأن يكون مفعولا له . وإن جعلته بمعنى : مرزوق ، كان حالا من الثمرات لتخصصها بالإضافة ، كما تنتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)

هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا فى مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود فى ظلال الأمن وخفض العيش، فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر ، [٢] فدمرهم الله وخرب ديارهم . وانتصبت ﴿معيشتها﴾ إما بحذف الجار وإيصال الفعل، كقوله تعالى (واختار موسى قومه) وإما على الظرف بنفسها ، كقولك : زيد ظنى مقيم [٣] . أو بتقدير حذف الزمان المضاف، أصله : بطرت أيام معيشتها ، كخفوق النجم ، ومقدم الحاج : وإما بتضمين (بطرت) معنى : كفرت وغمطت . وقيل : البطر سوء احتمال الغنى : وهو أن لا يحفظ حق الله فيه ﴿إلا قليلا﴾ من السكنى . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يسكنها إلا المسافر ومارّ الطريق يوماً أو ساعة ويحتمل أنّ شؤم معاصى المهلكين بقى أثره فى ديارهم ، فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا

(١) قوله « ويجنى إلى الخافة » فى الصحاح « الخافة » : خريطة من أدم يشتار فيها بعسل . وفيه « يشتار » : يجتنى . (ع)

(٢) قوله « فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر » أى بطروها وحقروها . والأشر والبطر : شدة المرح والمرح : شدة الفرح ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله « كقولك زيد ظنى مقيم » أى : فى ظنى . (ع)

قليلا ﴿وكنا نحن الوارثين﴾ لتلك المساكن من ساكنيها ، أى : تركناها على حال لا يسكنها أحد ، أو خربناها وسوّيناها بالأرض .

تَتَخَلَّفُ الآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا حِيناً وَيُدْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَتْبَعُ (١)

****

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ (٥٩)

وما كانت عادة ربك أن يهلك القرى فى كل وقت ﴿حتى يبعث فى﴾ القرية التى هى أمّها ، أى : أصلها وقصبتها التى هى أعمالها وتوابعها ﴿رسولا﴾ لإلزام الحجة وقطع المعذرة ، مع علمه أنهم لا يؤمنون ؛ أو وما كان فى حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى فى الأرض حتى يبعث فى أم القرى ـ يعنى مكة ـ رسولا وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء . وقرئ : أمها ، بضم الهمزة وكسرها لاتباع الجر ، وهذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم ، حيث أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الهلاك بظلمهم (٢) ، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل ، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم ، ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين ، كما قال تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) فنصّ فى قوله (بظلم) أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما منه ، وأنّ حاله فى غناه وحكمته منافية للظلم ، دلّ على ذلك بحرف النفى مع لامه ، كما قال الله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) .

---

(١)
أين الذى الهرمان من بنيانه ما قومه ما يومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع

لأبى الطيب حين دخل مصر ورأى الأهرام التى بناها الملك سورند . وقيل : سنان بن مشلشل . وقيل : إدريس عليه السلام . والهرمان : تثنية هرم ـ كسبب ـ وأراد بهما القريبين من مصر ، ويومه : هو زمن ملكه ، ويجوز أنه يوم موته ، كما أن المصرع مكان الموت ، والاستفهام عن هذا بعد الاستفهام عن قومه لاستحضار الصورتين والفرق بين الحالتين . ثم قال : تتخلف ، أى : تتأخر الآثار من البنيان والأشجار وغير ذلك زمنا طويلا بعد أصحابها . ثم يلحقها الفناء فتتبع أصحابها ولو طال زمن تخلفها . ويجوز أن المعنى : حينا قليلا . فالتنوين للتكثير أو التقليل .

(٢) قال محمود : «هذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم حتى أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا العذاب ولا يستحقوا حتى تتأكد عليهم الحجة ببعثة الرسل» قال أحمد : هذا إسلاف من الزمخشرى لجواب ساقط عن سؤال وارد على القدرية لا جواب لهم عنه ، ينشأ السؤال فى هذه الآية فيقال : لو كانت العقول تحكم عن الله تعالى بأحكام التكليف ، لقامت الحجة على الناس وإن لم يكن بعث رسل ، إذ العقل حاكم ، فلا يجدون للخلاص من هذا السؤال سبيلا .

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

وأى شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياما قلائل، وهى مدة الحياة المتقضية ﴿وما عند الله﴾ وهو ثوابه ﴿خير﴾ فى نفسه من ذلك ﴿وأبقى﴾ لأنّ بقاءه دائم سرمد وقرئ: يعقلون، بالياء. وهو أبلغ فى الموعظة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف: المؤمن، والمنافق، والكافر؛ فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع.

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

هذه الآية تقرير وإيضاح للتى قبلها. والوعد الحسن: الثواب؛ لأنه منافع دائمة على وجه التعظيم والاستحقاق، وأى شيء أحسن منها، ولذلك سمى الله الجنة بالحسنى. و﴿لاقيه﴾ كقوله تعالى. ولقاهم نضرة وسروراً، وعكسه (فسوف يلقون غيا). ﴿من المحضرين﴾ من الذين أحضروا النار. ونحوه (لكنت من المحضرين)، (فكذبوه فإنهم لمحضرون) قيل: نزلت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى جهل. وقيل: فى على وحمزة وأبى جهل. وقيل: فى عمار ابن ياسر والوليد بن المغيرة. فإن قلت: فسر لى الفاءين وثم، وأخبرنى عن مواقعها. قلت: قد ذكر فى الآية التى قبلها متاع الحياة الدنيا وماعند الله وتفاوتهما، ثم عقبه بقوله (أفمن وعدناه) على معنى: أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوى بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا، فهذا معنى الفاء الأولى وبيان موقعها. وأما الثانية فللتسبيب: لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد الذى هو الضمان فى الخير. وأما «ثم» فلتراخى حال الإحضار عن حال التمتيع، لا لتراخى وقته عن وقته. وقرئ (ثم هو) بسكون الهاء، كما قيل عضْد فى عضُد. تشبيهاً للمنفصل بالمتصل. وسكون الهاء فى: فهو، وهو، ولهو: أحسن؛ لأنّ الحرف الواحد لاينطق به وحده فهو كالمتصل.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾

﴿شركائى﴾ مبنى على زعمهم. وفيه تهكم. فإن قلت: زعم يطلب مفعولين، كقوله:

* ... وَلَمْ أَزْعُمْكِ عَنْ ذَاكَ مَعْزِلَا * (١)

---

(١) وإن الذى قد عاش يا أم مالك يموت ولم أزعمك عن ذاك معزلا

يقول. وإن كل حى ـ وإن طال عمره ـ يموت. ولم أظنك يا أم مالك معزلا عن ذلك الحكم أو الموت. والمعزل: =

فأين هما؟ قلت: محذوفان، تقديره: الذين كنتم تزعمونهم شركائى. ويجوز حذف المفعولين فى باب ظننت، ولا يصح الاقتصار على أحدهما.

قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾

﴿الذين حق عليهم القول﴾ الشياطين أو أئمة الكفر ورءوسه. ومعنى حق عليهم القول: وجب عليهم مقتضاه وثبت، وهو قوله (لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين) و﴿هؤلاء﴾ مبتدأ، و﴿والذين أغوينا﴾ صفته، والراجع إلى الموصول محذوف، و﴿أغويناهم﴾ الخبر. والكاف صفة مصدر محذوف، تقديره: أغويناهم، فغووا غيا مثل ماغوينا، يعنون: أنا لم نغو إلا باختيارنا، لاأن فوقنا مغوين أغرونا بقسر منهم وإلجاء. أو دعونا إلى الغىّ وسوّلوه لنا، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم؛ لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلا لاقسرا وإلجاء، فلا فرق إذاً بين غينا وغيهم. وإن كان تسويلنا داعيا لهم إلى الكفر، فقد كان فى مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل، وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر، وناهيك بذلك صارفا عن الكفر وداعياً إلى الإيمان. وهذا معنى ماحكاه الله عن الشيطان (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلاأن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) والله تعالى قدم هذا المعنى أوّل شىء، حيث قال لإبليس (إنّ عبادى ليس لك عليهم سلطان إلامن اتبعك من الغاوين). ﴿تبرأنا إليك﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر بأنفسهم، هوى منهم للباطل ومقتاً للحق، لابقوّة منا على استكراههم ولاسلطان ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾ إنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم. وإخلاء الجملتين من العاطف، لكونهما مقررتين لمعنى الجملة الأولى.

وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾

﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب. أو لو أنهم كانوا مهتدين

== مكان العزلة والانفراد، أى: لم أظنك فى معزل عنه، أو ذات معزل، أو معتزلة، أو نفس المقول مبالغة.

مؤمنين ، لما رأوه . أو تمنوا لو كانوا مهتدين . أو تحيروا عند رؤيته وسدروا (١) فلا يهتدون طريقا . حكى أولا مايوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ، ثم مايقوله الشياطين أو أئمتهم عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة ، اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم وزينوا لهم عبادتها ، ثم مايشبه الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ، ثم مايبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿فعميت عليهم الأنباء﴾ فصارت الأنباء كالعمى عليهم جميعاً لاتهتدى إليهم ﴿فهم لايتساءلون﴾ لايسأل بعضهم بعضا كما يتساءل الناس فى المشكلات ، لأنهم يتساوون جميعا فى عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب . وقرئ : فعميت ، والمراد بالنبإ : الخبر عما أجاب به المرسل إليه رسوله ، وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتتعتعون فى الجواب عن مثل هذا السؤال ، ويفوضون الأمر إلى علم الله ، وذلك قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ؟ قالوا لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب) فما ظنك بالضلال من أممهم .

فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

﴿فأما من تاب﴾ من المشركين من الشرك ، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فعسى أن﴾ يفلح عند الله ، و «عسى» من الكرام تحقيق . ويجوز أن يراد : ترجى التائب وطمعه ، كأنه قال : فليطمع أن يفلح .

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾

الخيرة من التخير ، كالطيرة من التطير : تستعمل بمعنى المصدر هو التخير ، وبمعنى المتخير كقولهم : محمد خيرة الله من خلقه ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ بيان لقوله (ويختار) لأن معناه : ويختار ما يشاء ، ولهذا لم يدخل العاطف . والمعنى : أن الخيرة لله تعالى فى أفعاله ، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه . قيل : السبب فيه قول الوليد بن المغيرة : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يعنى : لا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم . وقيل : معناه ويختار الذى لهم فيه الخيرة ، أى : يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح ، وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم ، من قولهم فى الأمرين : ليس فيهما خيرة لمختار . فإن قلت : فأين الراجع من الصلة إلى الموصول إذا جعلت ما موصولة ؟ قلت : أصل الكلام : ما كان لهم فيه

(٢) قوله «وسدروا» أى تحيروا . أفاده الصحاح . (ع)

الخيرة ، فحذف « فيه » ، كما حذف « منه » في قوله (إنّ ذلك لمن عزم الأمور) لأنه مفهوم ﴿سبحان الله﴾ أي الله برىء من إشراكهم وما يحملهم عليه من الجراءة على الله واختيارهم عليه ما لا يختار .

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

﴿ما تكن صدورهم﴾ من عداوة رسول الله وحسده (وما يعلنون) من مطاعنهم فيه . وقولهم : هلا اختير عليه غيره في النبوّة ﴿وهو الله﴾ وهو المستأثر بالإلهية المختص بها ، و ﴿لا إله إلا هو﴾ تقرير لذلك ، كقولك : الكعبة القبلة ، لا قبلة إلا هي . فإن قلت : الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة ؟ قلت : هو قولهم (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) ، (الحمد لله الذي صدقنا وعده) (وقيل الحمد لله ربّ العالمين) والتحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة . وفي الحديث : يلهمون التسبيح والتقديس[١] ﴿وله الحكم﴾ القضاء بين عباده .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

﴿أرأيتم﴾ وقرئ أريتم : بحذف الهمزة ، وليس بحذف قياسي . ومعناه : أخبروني من يقدر على هذا ؟ والسرمد : الدائم المتصل ، من السرد وهو المتابعة . ومنه قولهم في الأشهر الحرم : ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، والميم مزيدة . ووزنه فعمل . ونظيره . دلامص ، من الدلاص[٢] . فإن قلت : هلا قيل : بنهار تتصرفون فيه ، كما قيل : (بليل تسكنون فيه) ؟ قلت ذكر الضياء وهو ضوء

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر في أثناء حديث في صفة أهل الجنة : وفيه « يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس » وفي رواية له « التسبيح والتكبير » .

(٢) قوله « ونظيره دلامص من الدلاص » في الصحاح ، الدلاص : اللين البراق . والدلامص : البراق . يقال : دلصت الدرع ـ بالفتح . (ع)

الشمس : لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ، ليس التصرف في المعاش وحده ، والظلام ليس بتلك المنزلة ، ومن ثمة قرن بالضياء ﴿أفلا تسمعون﴾ لأنّ السمع يدرك مالا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل ﴿أفلا تبصرون﴾ لأنّ غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره . وأنت من السكون ونحوه ﴿ومن رحمته﴾ زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة : لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ، ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار ولإرادة شكركم .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾

وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء : إيذان بأن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به ، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده . اللهم فكما أدخلتنا في أهل توحيدك ، فأدخلنا في الناجين من وعيدك .

وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

﴿ونزعنا﴾ وأخرجنا ﴿من كل أمة شهيداً﴾ وهو نبيهم : لأن أنبياء الأمم شهداء عليهم ، يشهدون بما كانوا عليه ﴿فقلنا﴾ للأمة ﴿هاتوا برهانكم﴾ فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول ﴿فعلموا﴾ حينئذ ﴿أن الحق لله﴾ ولرسوله ، لالهم ولشياطينهم ﴿وضلّ عنهم﴾ وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ﴿ما كانوا يفترون﴾ من الكذب والباطل .

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

﴿قارون﴾ اسم أعجمي مثل هرون ، ولم ينصرف للعجمة والتعريف ، ولو كان فاعولا من قرن لانصرف . وقيل : معنى كونه من قومه أنه آمن به . وقيل . كان إسرائيلياً ابن عم موسى : هو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب . وموسى بن عمران بن قاهث . وقيل : كان موسى ابن أخيه ، وكان يسمى المنور لحسن صورته ، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة ، ولكنه

نافق كما نافق السامرى وقال : إذا كانت النبوة لموسى عليه السلام ، والمذبح والقربان إلى هرون فمالى ؟ وروى : أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة والحبورة لهرون يقرّب القربان ويكون رأساً فيهم ـ وكان القربان إلى موسى فجعله موسى إلى أخيه ـ وجد قارون فى نفسه وحسدهما ، فقال لموسى : الأمر لكما ولست على شىء ، إلى متى أصبر؟ قال موسى : هذا صنع الله قال : والله لا أصدق حتى تأتى بآية ، فأمر رؤساء بنى إسرائيل أن يجىء كل واحد بعصاه ، فحزمها وألقاها فى القبة التى كان الوحى ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل ، فأصبحوا وإذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر ، وكانت من شجر اللوز ، فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر ﴿فبغى عليهم﴾ من البغى وهو الظلم . قيل : ملكه فرعون على بنى إسرائيل فظلمهم . وقيل : من البغى وهو الكبر والبذخ : تبذخ عليهم بكثرة ماله وولده . قيل : زاد عليهم فى الثياب شبراً . المفاتح : جمع مفتح بالكسر : وهو ما يفتح به . وقيل هى الخزائن ، وقياس واحدها : مفتح ـ بالفتح . ويقال : ناء به الحمل ، إذا أثقله حتى أماله . والعصبة : الجماعة الكثيرة والعصابة : مثلها . واعصوصبوا : اجتمعوا . وقيل : كانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلا ، لكل خزانة مفتاح ، ولا يزيد المفتاح على أصبع . وكانت من جلود . قال أبو رزين : يكفى الكوفة مفتاح ، وقد بولغ فى ذكر ذلك بلفظ : الكنوز ، والمفاتح ، والنوء ، والعصبة ، وأولى القوة . وقرأ بديل بن ميسرة : لينوء بالياء . ووجهه أن يفسر المفاتح بالخزائن ، ويعطيها حكم ما أضيفت إليه للملابسة والاتصال ، كقولك ذهبت أهل اليمامة . ومحل إذ منصوب بتنوء ﴿لا تفرح﴾ كقوله (ولا تفرحوا بما آتاكم) وقول القائل :

* وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إِذَا الدَّهْرُ سَرَّنِى * (١)

وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن . وأمّا من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب ، لم تحدّثه نفسه بالفرح . وما أحسن ما قال القائل :

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدِى فِى سُرُورٍ ... تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالاَ (٢)

---

(١) ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ... ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أبتغى شراً إذا الشر تاركى ... ولكن متى أحمل على الشر أركب

لهدبة بن خشرم لما قاده معاوية إلى الحرة ليقتص منه فى زياد بن زيد العذرى ، فلقيه عبدالرحمن بن حسان فاستنشده فأنشده ذلك . والمفراح : كثير الفرح . والمراد : نفى الفرح من أصله . وصرف الدهر : حدثانه . وإذا : شرطية فلا بد بعدها من فعل ، أى : إذا كان الشر تاركى . وأحمل مبنى للمجهول ، وأركب للفاعل . والمعنى : أنى جربت الدهر فاذا هو خئون ، ومع ذلك لاأتضعضع .

(٢) لأبى الطيب ، أى : أشد الغم عندى وقت السرور الذى تيقن صاحبه الانتقال عنه ، وهكذا سرور الدنيا كله .

﴿وابتغ فيما آتاك الله﴾ من الغنى والثروة ﴿الدار الآخرة﴾ بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب إليه . وتجعله زادك إلى الآخرة ﴿ولا تنس نصيبك﴾ وهو أن تأخذ منه ما يكفيك ويصلحك ﴿وأحسن﴾ إلى عباد الله ﴿كما أحسن الله إليك﴾ أو أحسن بشكرك وطاعتك لله كما أحسن إليك . والفساد في الأرض : ما كان عليه من الظلم والبغي . وقيل إن القائل موسى عليه السلام . وقرئ : واتبع .

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

﴿على علم﴾ أي على استحقاق واستيجاب لما فيّ من العلم الذي فضلت به الناس ، وذلك أنه كان أعلم بني إسرائيل بالتوراة . وقيل : هو علم الكيمياء . عن سعيد بن المسيب : كان موسى عليه السلام يعلم علم الكيمياء . فأفاد يوشع بن نون ثلثه ، وكالب بن يوفنا ثلثه ، وقارون ثلثه ، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبا . وقيل : علم الله موسى علم الكيمياء ، فعلمه موسى أخته ، فعلمته أخته قارون . وقيل : هو بصره بأنواع التجارة والدهقنة [1] وسائر المكاسب . وقيل ﴿عندي﴾ معناه : في ظني ، كما تقول الأمر عندي كذا ، كأنه قال : إنما أوتيته على علم ، كقوله تعالى (ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم) ثم زاد (عندي) أي هو في ظني ورأيي هكذا . يجوز أن يكون إثباتا لعلمه بأن الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأغنى ، لأنه قد قرأه في التوراة ، وأخبر به موسى ، وسمعه من حفاظ التواريخ والأيام كأنه قيل ﴿أولم يعلم﴾ في جملة ما عنده من العلم هذا ، حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته . ويجوز أن يكون نفياً لعلمه بذلك ، لأنه لما قال : أوتيته على علم عندي ، فتنفج بالعلم [2] وتعظم به . قيل : أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين ﴿وأكثر جمعا﴾ للمال ، أو أكثر جماعة وعددا . فإن قلت : ما وجه اتصال قوله ﴿ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون﴾ بما قبله ؟ قلت : لما ذكر قارون من أهلك من قبله من القرون الذين كانوا أقوى منه وأغنى ، قال على سبيل التهديد له : والله مطلع على ذنوب المجرمين ، لا يحتاج إلى سؤالهم عنها واستعلامهم . وهو قادر على أن يعاقبهم عليها ، كقوله تعالى (والله خبير بما تعملون) ، (والله بما تعملون عليم) وما أشبه ذلك .

---

(١) قوله «والدهقنة» أي الزراعة ، كما عبر غيره . (ع)
(٢) قوله «فتنفج بالعلم» أي ترفع وتفاخر وتكبر . أفاده الصحاح . (ع)

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَـٰرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾

﴿في زينته﴾ قال الحسن : فى الحمرة والصفرة . وقيل : خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان[١] وعليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف على زيه . وقيل : عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر ، وعن يمينه ثلثمائة غلام ، وعن يساره ثلثمائة جارية ، بيض عليهن الحلى والديباج . وقيل فى تسعين ألفا عليهم المعصفرات ، وهو أوّل يوم رؤى فيه المعصفر : كان المتمنون قوما مسلمين وإنما تمنوه على سبيل الرغبة فى اليسار والاستغناء كما هو عادة البشر . وعن قتادة : تمنوه ليتقربوا به إلى الله وينفقوه فى سبل الخير . وقيل : كانوا قوما كفارا . الغابط : هو الذى يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه . والحاسد : هو الذى يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه فمن الغبطة قوله تعالى (ياليت لنا مثل ماأوتى قارون) ومن الحسد قوله (ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض) وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل يضر الغبط ؟ فقال[٢] : «لا إلا كما يضر العضاه الخبط[٣]» والحظ : الجد ، وهو البخت والدولة : وصفوه بأنه رجل مجدود مبخوت ، يقال : فلان ذو حظ ، وحظيظ ، ومحظوظ . وما الدنيا إلا أحاظ وجدود .

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

ويلك : أصله الدعاء بالهلاك ، ثم استعمل فى الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى ، كما استعمل : لا أبا لك . وأصله الدعاء على الرجل بالإقراف[٤] فى الحث على الفعل . والراجع

---

(١) قوله «بغلة شهباء عليها الأرجوان» فى الصحاح : قطيفة حمراء أرجوان . وفيه أيضا : الأرجوان صبغ أحمر شديد الحمرة ، ويقال : هو بالفارسية أرغوان ، وهو شجر له نور أحمر أحسن ما يكون . (ع)

(٢) ذكره ثابت السرقسطى فى الغريب هكذا بغير إسناد . وأخرجه إبراهيم الحربى فى الغريب من طريق ابن أبى حسين «أن سائلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم أيضر الناس الغبط ؟ قال : نعم كما يضر العضاه الخبط» بهذا اللفظ أخرجه الطبرانى من رواية أم الدرداء قالت : قلت يارسول الله . فذكره . لكن قال «الشجر» بدل العضاه . قال الحربى الغبط إرادة السعة . وقال ثابت : الغبط الحسد .

(٣) قوله «إلا كما يضر العضاه الخبط» فى الصحاح «العضاه» : كل شجر يعظم وله شوك . وفيه «والخبط» : ضرب الشجرة بالعصا ليسقط ورقها . (ع)

(٤) قوله «والدعاء على الرجل بالإقراف» أى بفساد الأب . أفاده الصحاح . (ع)

فى ﴿ولا يلقاها﴾ للكلمة التى تكلم بها العلماء . أو للثواب ، لأنه فى معنى المثوبة أو الجنة ، أو للسيرة والطريقة ، وهى الإيمان والعمل الصالح ﴿الصابرون﴾ على الطاعات وعن الشهوات وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير . كان قارون يؤذى نبى الله موسى عليه السلام كل وقت ، وهو يداريه للقرابة التى بينهما ، حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل ألف درهم على درهم ، فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه ، فجمع بنى إسرائيل وقال : إنّ موسى أرادكم على كل شىء ، وهو يريد أن يأخذ أموالكم ، فقالوا : أنت كبيرنا وسيدنا ، فمر بما شئت ، قال : نبرطل فلانة البغىّ حتى ترميه بنفسها فيرفضه بنو إسرائيل ، فجعل لها ألف دينار . وقيل : طستا من ذهب . وقيل : طستا من ذهب مملوءة ذهبا . وقيل : حكمها فلما كان يوم عيد قام موسى فقال : يابنى إسرائيل ، من سرق قطعناه ، ومن افترى جلدناه ، ومن زنى وهو غير محصن جلدناه ، وإن أحصن رجمناه ، فقال قارون : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ، قال : فإنّ بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة . فأحضرت ، فناشدها موسى بالذى فلق البحر ، وأنزل التوراة أن تصدق . فتداركها الله فقالت : كذبوا ، بل جعل لى قارون جعلا على أن أقذفك لنفسى ، فخرّ موسى ساجدا يبكى وقال : يارب ، إن كنت رسولك فاغضب لى . فأوحى إليه : أن مر الارض بما شئت ، فإنها مطيعة لك . فقال : يابنى إسرائيل ، إنّ الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون ، فمن كان معه فليلزم مكانه ، ومن كان معى فليعتزل ، فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ثم قال : ياأرض خذيهم ، فأخذتهم إلى الركب ، ثم قال : خذيهم ، فأخذتهم إلى الأوساط ، ثم قال : خذيهم ، فأخذتهم إلى الاعناق ، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم ، وموسى لا يلتفت اليهم لشدّة غضبه ، ثم قال : خذيهم ، فانطبقت عليهم [1] . وأوحى الله إلى موسى : ماأفظك : استغاثوا بك مرارا فلم ترحمهم ، أما وعزتى لو إياى دعوا مرة واحدة لوجدونى قريبا مجيبا ، فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم : إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه ، فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ﴿من المنتصرين﴾ من المنتقمين من موسى عليه السلام ، أو من الممتنعين من عذاب الله . يقال : نصره من عدوه فانتصر ، أى : منعه منه فامتنع .

(١) أخرجه عبدالرزاق والطبرانى . من رواية على بن زيد عن عبدالله بن الحارث بن نوفل الهاشمى . قال ، فذكره موقوفا . ووصله الحاكم بذكر ابن عباس . قال «ولما أتى موسى قومه أمرهم بالزكاة فجمعهم قارون . فذكره باختصار . قوله وفى الأخبار والآثار مايدل عليه ، يعنى وقوع الرعب فى قلوب جميع الناس يوم الموقف يمكن أن يستدل له بحديث الشفاعة الطويل . فنى المتفق عليه عن أبى هريرة فى حديث الشفاعة قال «يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعى وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون . وفيه قول آدم وغيره : نفسى نفسى» واتفقا عليه من حديث أنس كذلك

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)

قد يذكر الأمس ولا يراد به اليوم الذى قبل يومك. ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة ﴿مكانه﴾ منزلته من الدنيا ﴿وى﴾ مفصولة عن كأن، وهى كلمة تنبّه على الخطأ وتندم. ومعناه: أن القوم قد تنبهوا على خطئهم فى تمنيهم وقولهم (ياليت لنا مثل ما أوتى قارون) وتندموا ثم قالوا (كأنه لا يفلح الكافرون) أى: ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح، وهو مذهب الخليل وسيبويه. قال:

وَىْ كَأَنَّ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْـــبَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ (١)

وحكى الفراء أنّ أعرابية قالت لزوجها: أين ابنك؟ فقال: وى كأنه وراء البيت. وعند الكوفيين أنّ «ويك» بمعنى: ويلك، وأنّ المعنى ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون. ويجوز أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى وى، كقوله:

* ... ... وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ * (٢)

(١) سألتانى الطلاق أن رأتا قل مالى قد جئتمانى بنكر
وى كأن من يكن له نشب يحـــبب ومن يفتقر يعش عيش ضر
ويجنب سر النجى ولكن أخا المال محضر كل سر

لزيد بن عمرو بن نفيل القرشى. وقيل: لسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة. وقيل: لنبيه بن الحجاج بن عامر، قتل كافراً يوم بدر. وسألتانى بقلب الهمزة ألفا للوزن، وهى لغة قليلة، والضمير لزوجتيه، والطلاق مفعول ثان، وأن رأتا: أى لرؤيتهما، وقيل: يحتمل أنه فعل ماض، فلا بد به من تقدير محذوف قبله به يتم الكلام، أى: لأن رأتانى قل مالى. أو لرؤيتهما أنى قل مالى. ويحتمل أنه اسم بمعنى قليل، ولا حذف فى الكلام، فالمعنى: لأن رأتا قليل مالى، أى: مالى القليل، والتفت من الغيبة إلى خطابهما بقوله: قد جئتمانى بنكر، أى: منكر. وفيه معنى التعجيب من حالها، و«وى»: اسم فعل للتعجب، وقيل: لفظه تيقظ وتندم، وكأن: للظن أو للتحقيق، كما أجازه الكوفيون، وهى مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. وقيل: لا اسم للمخففة. والنشب: المال. ويعش عيش ضر، أى: يبغض. والنجى ـ بالتشديد ـ: المناجى، أى: المتكلم بالسر. ويجنب: مبنى للمجهول. وسر: مفعوله الثانى. وأخا المال: صاحب المال. ومحضر: اسم مفعول، وكل: مفعوله الثانى.

(٢) ولقد شفى نفسى وأذهب سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

لعنترة بن شداد من معلقته. ويروى: وأبرأ سقمها. ويروى: وأذهب غمها. ويروى: قول، بدل: قيل. وكلاهما مصدر. وويك: اسم فعل للتعجب، لكن لا يلائم البيت. وقيل: كلمة تنبيه، والكاف حرف خطاب. وقال

وأنه بمعنى لأنه ، واللام لبيان المقول لأجله هذا القول ، أو لأنه لا يفلح الكافرون كان ذلك ، وهو الخسف بقارون ، ومن الناس من يقف على (وى) ويبتدئ (كأنه) ومنهم من يقف على (ويك) . وقرأ الأعمش : لولا منّ الله علينا . وقرئ ﴿لخسف بنا﴾[1] وفيه ضمير الله . ولانخسف بنا ، كقولك : انقطع به . ولتخسف بنا .

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

﴿تلك﴾ تعظيم لها وتفخيم لشأنها ، يعنى : تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها . لم يعلق الموعد[2] بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما ، كما قال : (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) فعلق الوعيد بالركون . وعن على رضى الله عنه : إنّ الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه ، فيدخل تحتها[3] . وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال . ذهبت الأمانى ههنا[4] . وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يردّدها حتى قبض . ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون ، والفساد لقارون ، متعلقا بقوله (إنّ فرعون علا فى الأرض) ، (ولا تبغ الفساد فى الأرض) ويقول : من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ، ولا يتدبر قوله ﴿والعاقبة للمتقين﴾ كما تدبره علىّ والفضيل وعمر .

= الكسائى : أصل «ويك» : ويلك ، فالكاف ضمير مجرور ، لكن تبعد ملاءمته للبيت . وعنتر : منادى مرخم ، وحسن الترخيم وحذف حرف النداء : أن المقام للاهتمام وسرعة الكلام ، وأقدم : أى أقبل على العدو ، لتمنما بأسه .

(١) قوله : «وقرئ : لخسف بنا» يفيد أن القراءة المشهورة : لخسف ، مبنيا للمجهول . (ع)

(٢) قوله «لم يعلق الموعد» لعله : الوعد . (ع)

(٣) أخرجه الطبرى والواحدى من رواية وكيع عن أشعث السمان عن أبى سلام الأعرج عن على بهذا موقوفا وإسناده ضعيف .

(٤) قال محمود : «لم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك إرادتهما ، كما قال تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) فعلق الوعيد بالركون إلى الظلمة . وعن على أن الرجل يعجبه أن يكون شراك نعله خيراً من شراك نعل أخيه فيدخل تحتها . وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرددها حتى قبض . وعن الفضيل أنه قرأها وقال : ذهبت الأمانى ههنا . ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون ، لقوله (إن فرعون علا فى الأرض) وقوله (ولا تبغ الفساد فى الأرض) ويقول : من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ، ولا يتدبر قوله (والعاقبة للمتقين) كما تدبرها على وعمر والفضيل» قال أحمد : هو تعرض لغمص أهل السنة ، فان كل موحد من أهل الجنة ، وإنما طمعوا حيث أطمعهم الله تعالى ، بل وحقق طمعهم فى رحمته حيث يقول رسوله عليه الصلاة والسلام : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق ... ثلاثا ، وفى الثالثة : وإن رغم أنف أبى ذر » اللهم اقسم لنا من رجاء رحمتك ما تعصمنا به من القنوط ، ومن خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، والله الموفق للصواب .

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

معناه : فلا يجزون ، فوضع ﴿الذين عملوا السيئات﴾ موضع الضمير ؛ لأن فى إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً . فضل تهجين لحالهم ، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ إلا مثل ما كانوا يعملون، وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزى السيئة إلا بمثلها ، ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة ، وهو معنى قوله (فله خير منها) .

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾

﴿فرض عليك القرآن﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه ، يعنى : أن الذى حملك صعوبة هذا التكليف لمثيبك عليها ثوابا لا يحيط به الوصف. و﴿لرادك﴾ بعد الموت ﴿إلى معاد﴾ أى معاد ليس لغيرك من البشر وتنكير المعاد لذلك : وقيل . المراد به مكة : ووجهه أن يراد رده إليها يوم الفتح : ووجه تنكيره أنها كانت فى ذلك اليوم معاداً له شأن ، ومرجعاً له اعتداد ؛ لغلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ، وقهره لأهلها ، ولظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه . والسورة مكية ، فكأن الله وعده وهو بمكة فى أذى وغلبة من أهلها : أنه مهاجر به منها ، ويعيده إليها ظاهرا ظافرا . وقيل : نزلت عليه حين بلغ الجحفة فى مهاجره . وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم ، فنزل جبريل فقال له: أتشتاق إلى مكة؟ قال: نعم ، فأوحاها إليه . فإن قلت : كيف اتصل قوله تعالى ﴿قل ربى أعلم﴾ بما قبله ؟ قلت : لما وعد رسوله الرد إلى معاد ، قال : قل للمشركين : (ربى أعلم من جاء بالهدى) يعنى نفسه وما يستحقه من الثواب فى معاده ﴿ومن هو فى ضلال مبين﴾ يعنيهم وما يستحقونه من العقاب فى معادهم .

وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

فإن قلت : قوله ﴿إلا رحمة من ربك﴾ ما وجه الاستثناء فيه ؟ قلت : هذا كلام محمول على المعنى ، كأنه قيل : وما ألقى عليك الكتاب إلا رحمة من ربك . ويجوز أن يكون إلا بمعنى لكن للاستدراك ، أى : ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك .

وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾

وقرئ: يصدنك، من أصدّه بمعنى صدّه، وهي في لغة كلب. وقال:

أُنَاسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمُو صُدُودَ السَّوَاقِي عَنْ أُنُوفِ الْحَوَائِمِ (١)

﴿بعد إذ أنزلت إليك﴾ بعد وقت إنزاله (٢)، وإذ تضاف إليه أسماء الزمان، كقولك: حينئذ وليلتئذ ويومئذ وما أشبه ذلك. والنهي عن مظاهرة الكافرين ونحو ذلك من باب التهييج الذي سبق ذكره.

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

﴿إلا وجهه﴾ إلا إياه. والوجه يعبر به عن الذات.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ طسم القصص كان له الأجر بعدد من صدق موسى وكذب به، ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقا أن كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون» (٣).

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ٥٣٨ فراجعه إن شئت اه مصححه.

(٢) قوله «بعد وقت إنزاله» لعله: إنزالها. (ع)

(٣) أخرجه الثعلبي وابن مردويه. والواحدي من حديث أبي بن كعب بأسانيدهم المتقدم ذكرها.

سورة العنكبوت

مكية [إلا من آية ١ إلى غاية آية ١١ فمدنية]

وآياتها ٦٩ [نزلت بعد الروم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)

الحسبان لا يصح تعليقه بمعانى المفردات ، ولكن بمضامين الجمل . ألا ترى أنك لو قلت : حسبت زيدا وظننت الفرس : لم يكن شيئا حتى تقول : حسبت زيدا عالما ، وظننت الفرس جوادا ، لأن قولك : زيد عالم ، أو الفرس جواد : كلام دال على مضمون ، فأردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتا عندك على وجه الظن لا اليقين . فلم تجد بدا فى العبارة عن ثباته عندك على ذلك الوجه ، من ذكر شطرى الجملة مدخلا عليهما فعل الحسبان ، حتى يتم لك غرضك . فإن قلت : فأين الكلام الدال على المضمون الذى يقتضيه الحسبان فى الآية ؟ قلت : هو فى قوله ﴿أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ وذلك أن تقديره : أحسبوا تركهم غير مفتونين ، لقولهم : آمنا ، فالترك أول مفعولى حسب : ولقولهم : آمنا ، هو الخبر . وأما ، غير مفتونين ، فتتمة الترك ، لأنه من الترك الذى هو بمعنى التصيير ، كقوله :

* فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّبَاعِ يَنُشْنَهُ * (١)

ألا ترى أنك قبل المجىء بالحسبان ، تقدر أن تقول : تركهم غير مفتونين ، لقولهم : آمنا ، على تقدير : حاصل ومستقر ، قبل اللام . فإن قلت : (أن يقولوا) هو علة تركهم غير مفتونين ، فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ ؟ قلت : كما تقول خروجه لمخافة الشر ، وضربه للتأديب . وقد كان التأديب والمخافة فى قولك : خرجت مخافة الشر ، وضربته تأديبا : تعليلين . وتقول أيضا : حسبت خروجه لمخافة الشر ، وظننت ضربه للتأديب ، فتجعلهما مفعولين كما جعلتهما مبتدأ

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٧٥ فراجعه إن شئت اه مصححه .

وخبرا . والفتنة : الامتحان بشدائد التكليف : من مفارقة الأوطان ، ومجاهدة الأعداء ، وسائر الطاعات الشاقة ، وهجر الشهوات والملاذ ، وبالفقر ؛ والقحط ، وأنواع المصائب فى الأنفس والأموال . وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم . والمعنى : أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان : أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ، بل يمحنهم الله بضروب المحن ، حتى يبلو صبرهم ، وثبات أقدامهم ، وصحة عقائدهم ، ونصوع نياتهم ، ليتميز المخلص من غير المخلص ، والراسخ فى الدين من المضطرب ، والمتمكن من العابد على حرف ، كما قال (لتبلونّ فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) وروى أنها نزلت فى ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جزعوا من أذى المشركين . وقيل فى عمار بن ياسر : وكان يعذب فى الله . وقيل : فى ناس أسلموا بمكة ، فكتب إليهم المهاجرون : لا يقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا ، فخرجوا فتبعهم المشركون فردّوهم ، فلما نزلت كتبوا بها إليهم ؛ فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا . وقيل :فى مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو أول قتيل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سيد الشهداء مهجع ، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة [1] ، فجزع عليه أبواه وامرأته ﴿ولقد فتنا﴾ موصول بأحسب أو بلا يفتنون ، كقولك : ألا يمتحن فلان وقد امتحن من هو خير منه ، يعنى : أن أتباع الأنبياء عليهم السلام قبلهم ، قد أصابهم من الفتن والمحن نحو ما أصابهم . أو ما هو أشدّ منه فصبروا ، كما قال : (وكأين من نبيّ قتل معه ربيون كثير فما وهنوا ... الآية) وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «قد كان مَن قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ؛ ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه» [2] ﴿فليعلمن الله﴾ بالامتحان ﴿الذين صدقوا﴾ فى الإيمان ﴿وليعلمن الكاذبين﴾ فيه . فإن قلت : كيف وهو عالم بذلك فيما لم يزل ؟ قلت : لم يزل يعلمه معدوما ، ولا يعلمه موجوداً إلا إذا وجد [3] ، والمعنى :

(١) ذكره الثعلبي عن مقاتل قال «نزلت هاتان الآيتان فى مهجع بن عبد الله مولى عمر ، كان أول من قتل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمى بسهم فقتله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة» وسنده إلى مقاتل فى أول كتابه . وفى الدلائل لابن أبى شيبة من طريق القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود قال «أول من استشهد يوم بدر مهجع مولى عمر» .

(٢) أخرجه البخارى من حديث خباب بن الأرت به ، وأتم منه .

(٣) قال محمود : «إن قلت هو لم يزل يعلم الصادقين والكاذبين قبل الامتحان ، فما وجه هذا الكلام ؟ قلت : لم يزل يعلمه معدوما ولا يعلمه موجوداً إلا إذا وجد» قال أحمد : فيما ذكر إيهام بمذهب فاسد ، =

وليتميزن الصادق منهم من الكاذب. ويجوز أن يكون وعداً ووعيداً، كأنه قال: وليثيبن الذين صدقوا وليعاقبن الكاذبين. وقرأ على رضى الله عنه والزهرى: وليعلمن، من الإعلام، أى: وليعرفنهم الله الناس من هم. أو ليسمنهم بعلامة يعرفون بها من بياض الوجوه وسوادها، وكحل العيون وزرقتها.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤)

﴿أن يسبقونا﴾ أن يفوتونا، يعنى أنّ الجزاء يلحقهم لا محالة، وهم لم يطمعوا فى الفوت، ولم يحدّثوا به نفوسهم، ولكنهم لغفلتهم وقلة فكرهم فى العاقبة وإصرارهم على المعاصى: فى صورة من يقدر ذلك ويطمع فيه. ونظيره (وما أنتم بمعجزين فى الأرض)، (ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون). فإن قلت: أين مفعولا «حسب»؟ قلت: اشتمال صلة أن على مسند ومسند إليه سدّ مسدّ المفعولين؛ كقوله تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر وأم منقطعة. ومعنى الإضراب فيها: أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأوّل، لأن ذاك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه. وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه ﴿ساء ما يحكمون﴾ بئس الذى يحكمونه حكمهم هذا. أو بئس حكما يحكمونه حكمهم هذا، فحذف المخصوص بالذم.

مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥)

لقاء الله: مثل للوصول إلى العاقبة، من تلقى ملك الموت، والبعث، والحساب، والجزاء: مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل، وقد اطلع مولاه على ما كان يأتى ويذر، فإما أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضى من أفعاله، أو بضد ذلك لما سخطه منها، فمعنى قوله ﴿من كان يرجو لقاء الله﴾: من كان يأمل تلك الحال. وأن يلقى فيها الكرامة من الله والبشر ﴿فإن أجل الله﴾ وهو الموت ﴿لآت﴾ لا محالة، فليبادر العمل الصالح الذى يصدق رجاءه، ويحقق أمله، ويكتسب به القربة عند الله والزلفى ﴿وهو السميع العليم﴾ الذى لا يخفى عليه شيء مما يقوله عباده ومما يفعلونه، فهو حقيق بالتقوى والخشية. وقيل (يرجو): يخاف من قول الهذلى فى صفة عسال:

═ وهو اعتقاد أن العلم بالكائن غير العلم بأن سيكون. والحق أن علم الله تعالى واحد يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبله وبعده على ماهو عليه، وفائدة ذكر العلم ههنا وإن كان سابقا على وجود المعلوم: التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء، كأنه قال تعالى: لنعلمنهم فلنجازينهم بحسب علمه فيهم، والله أعلم.

* إِذَا لَسَعَتْهُ الدَّبْرُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا * (١)

فإن قلت : فإن أجل الله لآت ، كيف وقع جوابا للشرط ؟ قلت : إذا علم أن لقاء الله عنيت به تلك الحال الممثلة والوقت الذى تقع فيه تلك الحال هو الأجل المضروب للموت : فكأنه قال : من كان يرجو لقاء الله فإن لقاء الله لآت ، لأن الأجل واقع فيه اللقاء ، كما تقول : من كان يرجو لقاء الملك فإن يوم الجمعة قريب ، إذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة .

وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦)

﴿ ومن جاهد ﴾ نفسه فى منعها ما تأمر به وحملها على ما تأباه ﴿ فإنما يجاهد ﴾ لها ، لأن منفعة ذلك راجعة إليها ، وإنما أمر الله عز وجل ونهى ، رحمة لعباده وهو الغنى عنهم وعن طاعتهم .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٧)

إما أن يريد قوماً مسلمين صالحين قد أساءوا فى بعض أعمالهم وسيئاتهم مغمورة بحسناتهم فهو يكفرها عنهم ، أى يسقط عقابها بثواب الحسنات ويجزيهم أحسن الذى كانوا يعملون ، أى : أحسن جزاء أعمالهم : وإما قوما مشركين آمنوا وعملوا الصالحات ، فالله عز وجل يكفر سيئاتهم بأن يسقط عقاب ما تقدم لهم من الكفر والمعاصى ويجزيهم أحسن جزاء أعمالهم فى الإسلام (١) .

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)

(١) إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها وحالفها فى بيت نوب عوامل

لأبى ذؤيب ، يصف عسالا يجتنى العسل : بأنه إذا لسعته الدبر ـ بالفتح والكسر ـ : ذكور النحل والزنابير . وروى كذلك : لم يرج ، أى : لم يخف لسعها إذا أرادت لسعه . أو لسعته بالفعل لم يخف من مثله ، أو لم يرتقبه ويعتنى به ، وحالفها : أى لازمها . ويروى بالمعجمة ، أى : خالف مرادها . أو جاء خلفها بعد أن خرجت ترعى . والنوب : ضرب من النحل واحده نائب ؛ لأنه يذهب إلى بيته نوبة بعد نوبة ، عوامل : كثيرة العسل . وروى : عوامل ، بالميم لأنها تعمل العسل .

(٢) قال محمود : « المراد بهؤلاء أحد فريقين : إما قوم مسلمون سيئاتهم صغائر مغمورة بالحسنات ، وإما قوم آمنوا وعملوا الصالحات بعد كفر فالاسلام يجب ماقبله » قال أحمد : حجر واسعا من رحمة الله تعالى ، بناء على أصله الفاسد فى وجوب الوعيد على مرتكب السيئات الكبائر لا بالتوبة ، وأطلق تكفير الصغائر وإن لم تكن توبة إذا غمرتها الحسنات ، وكلا الأصلين قدرى مجتنب ، والله الموفق .

«وصى» حكمه حكم «أمر» فى معناه وتصرفه. يقال: وصيت زيداً بأن يفعل خيراً، كما تقول: أمرته بأن يفعل. ومنه بيت الإصلاح:

وَذُبْيَانِيَّةٍ وَصَّتْ بَنِيهَا بِأَنْ كَذَبَ القَرَاطِفُ وَالقُرُوفُ (١)

كما لو قال: أمرتهم بأن ينتهبوها. ومنه قوله تعالى (ووصى بها إبراهيم بنيه) أى وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها، وقولك: وصيت زيداً بعمرو، معناه: وصيته بتعهد عمرو ومراعاته ونحو ذلك. وكذلك معنى قوله ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا﴾: وصيناه بإيتاء والديه حسنا، أو بإيلاء والديه حسناً؛ أى: فعلا ذا حسن. أو ما هو فى ذاته حسن لفرط حسنه، كقوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) وقرئ: حسنا. وإحسانا. ويجوز أن تجعل (حسنا) من باب قولك: زيداً، بإضمار «اضرب» إذا رأيته متهيئا للضرب، فتنصبه بإضمار أولها. أو افعل بهما، لأن التوصية بهما دالة عليه، وما بعده مطابق له، كأنه قال: قلنا أولها معروفا و﴿لا تطعهما﴾ فى الشرك إذا حملاك عليه. وعلى هذا التفسير إن وقف على (بوالديه) وابتدأ (حسنا) حسن الوقف، وعلى التفسير الأول لا بد من إضمار القول، معناه: وقلنا إن جاهداك أيها الإنسان ﴿ما ليس لك به علم﴾ أى لا علم لك بإلهيته. والمراد بنفى العلم: نفى المعلوم، كأنه قال: لتشرك بى شيئاً لا يصح أن يكون إلها ولا يستقيم: وصاه بوالديه وأمره بالإحسان إليهما، ثم نبه بنهيه عن طاعتهما إذا أراداه على ما ذكر، على أن كل حق وإن عظم ساقط إذا جاء حق الله، وأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ثم قال: إلىّ مرجع من آمن منكم ومن أشرك، فأجازيكم حق جزائكم. وفيه شيئان، أحدهما: أن الجزاء إلىّ، فلا تحدث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما، ولا تحرمهما برك ومعروفك فى الدنيا، كما أنى لا أمنعهما رزقى. والثانى: التحذير من متابعتهما على الشرك، والحث على الثبات والاستقامة فى الدين بذكر المرجع والوعيد. روى أن سعد بن أبى وقاص الزهرى رضى الله عنه حين أسلم قالت أمه ـ وهى حمنة بنت أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس ـ: يا سعد، بلغنى أنك قد صبأت، فوالله لا يظلنى سقف بيت من الضح (٢)

(١) لمعقر بن حمار البارقى، أنشده ابن السكيت فى كتابه المسمى: إصلاح المنطق، أى: امرأة منسوبة إلى قبيلة ذبيان وصت بنيها. وأن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وخبرها: كذب، وهو قد يكون بمعنى وجب كما فى الصحاح. وفى الحديث: ثلاثة أسفار كذبن عليكم، أى: وجبن. وعن عمر رضى الله عنه: كذب عليكم الحج، أى وجب. وفى الكلام معنى الحث والاغراء. والقراطف: جمع قرطف، وهو القطيفة المخملة. والقروف: أوعية من أدم يجعل فيها اللحم المشوى. والقرف ـ بالكسر ـ: المقشر. والقرفة: قشر يداوى به. والقرف ـ بالفتح ـ وعاء من جلد يدبغ بالقرفة. واقترف، واقترب: متقاربان لفظا ومعنى، أى: وصتهم باغتنامها وحفظها معهم.

(٢) قوله «من الضح» فى الصحاح «الضح»: الشمس. وفى الحديث: «لا يقعدن أحدكم بين الضح والظل، فإنه مقعد الشيطان» اه. (ع)

والريح ؛ وإن الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر بمحمد ـ وكان أحبّ ولدها إليها ـ فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك ، فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه ، فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الأحقاف ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يداريها ويترضاها بالإحسان [١] . وروى أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي ، وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما مترافقين حتى نزلا المدينة [٢] ، فخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام ـ أخواه لأمه أسماء بنت مخرمة : امرأة من بني تميم من بني حنظلة ـ فنزلا بعياش وقالا له : إن من دين محمد صلة الأرحام وبر الوالدين ، وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوى بيتا حتى تراك ، وهي أشد حباً لك منا فاخرج معنا ، وفتلا منه في الذروة والغارب [٣] فاستشار عمر رضي الله عنه فقال : هما يخدعانك ، ولك عليّ أن أقسم مالي بيني وبينك ، فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر ، فقال له عمر : أما إذ عصيتني فخذ ناقتي ، فليس في الدنيا بعير يلحقها ، فإن رابك منهما ريب فارجع ، فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل : إن ناقتي قد كلت فاحملني معك . قال : نعم ، فنزل ليوطئ لنفسه وله ، فأخذاه وشداه وثاقا ، وجلده كل واحد منهما مائة جلدة ، وذهبا به إلى أمه فقالت : لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد ، فنزلت :

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾

﴿ فى الصالحين ﴾ في جملتهم . والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متمنى أنبياء الله . قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) وقال في إبراهيم عليه السلام : (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) أو في مدخل الصالحين وهي الجنة، وهذا نحو قوله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) الآية .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللهُ

(١) ذكره الواحدي والثعلبي والواقدي هكذا بغير سند والقصة في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص بغير هذا السياق .

(٢) تقدم الكلام عليه في سورة النساء وهذا السياق أورده الثعلبي عن مقاتل وسنده إليه في أول كتابه ، وأخرجه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه البزار قال : حدثني نافع عن ابن عمر عن عمر مطولا .

(٣) قوله « وفتلا منه في الذروة والغارب » في الصحاح : مازال فلان يفتل من فلان في الذروة والغارب ، أي : يدور من وراء خديعته . (ع)

بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)

هم ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم ، فإذا مسهم أذى من الكفار وهو المراد بفتنة الناس ، كان ذلك صارفا لهم عن الإيمان ، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر . أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفا . وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا ﴿إنا كنا معكم﴾ أى مشايعين لكم فى دينكم ، ثابتين عليه ثباتكم ، ما قدر أحد أن يفتننا ، فأعطونا نصيبنا من المغنم . ثم أخبر سبحانه أنه أعلم ﴿بما فى صدور العالمين﴾ من العالمين بما فى صدورهم ، ومن ذلك ما تكنّ صدور هؤلاء من النفاق . وهذا إطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه ، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين . وقرئ : ليقولنّ ، بفتح اللام .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

أمروهم باتباع سبيلهم وهى طريقتهم التى كانوا عليها فى دينهم ، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر ، وأرادوا : ليجتمع هذان الأمران فى الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن نحمل خطاياكم . والمعنى : تعليق الحمل بالاتباع ، وهذا قول صناديد قريش : كانوا يقولون لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم ، فإن عسى كان ذلك فإنا نتحمل عنكم الإثم . وترى فى المتسمين بالإسلام من يستنّ بأولئك فيقول لصاحبه ـ إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم ـ : افعل هذا وإثمه فى عنقى . وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامّة وجهلتهم ـ ومنه ما يحكى أنّ أبا جعفر المنصور رفع إليه بعض أهل الحشو حوائجه ، فلما قضاها قال : يا أمير المؤمنين ، بقيت الحاجة العظمى . قال : وماهى ؟ قال شفاعتك يوم القيامة . فقال له عمرو بن عبيد رحمه الله : إياك وهؤلاء ، فإنهم قطاع الطريق فى المأمن [1] . فإن قلت : كيف سماهم

(١) قال محمود : «وبعض المتسمين بالاسلام إذا أراد أن يشجع صاحبه على ذنب قال له : افعل هذا وإثمه فى عنق . ومنه ما يحكى أن رجلا رفع إلى المنصور حوائجه فلما قضاها ، قال يا أمير المؤمنين ، بقيت لى إليك حاجة هى العظمى . قال : وما هى ؟ قال : شفاعتك فى المحشر . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، إياك وهؤلاء فهم قطاع الطريق فى المأمن» قال أحمد : عمرو بن عبيد أول القدرية المنكرين للشفاعة فاحذره ، وليست الآية مطابقة للحكاية ، ولكن الزمخشري يبنى على أنه لا فرق بين اعتقاد الشفاعة واعتقاد أن الكفار يحملون خطايا أتباعهم ، =

كاذبين ، وإنما ضمنوا شيئا علم الله أنهم لا يقدرون على الوفاء به ، وضامن مالا يعلم اقتداره على الوفاء به ، لا يسمى كاذبا لا حين ضمن ولا حين عجز ، لأنه في الحالين لا يدخل تحت حدّ الكاذب وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه ؟ قلت : شبه الله حالهم حيث علم أن ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفوا به ، فكان ضمانهم عنده لا على ما عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ما عليه المخبر عنه . ويجوز أن يريد أنهم كاذبون ، لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه ، كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف ﴿ وليحملن أثقالهم ﴾ أي أثقال أنفسهم ﴿ وأثقالا ﴾ يعنى أثقالا أخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها ، وهي أثقال الذين كانوا سبباً في ضلالهم ﴿ وليسئلن ﴾ سؤال تقريع ﴿ عما كانوا يفترون ﴾ أي يختلقون من الأكاذيب والأباطيل . وقرئ : من خطيآتهم .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

كان عمر نوح عليه السلام ألفاً وخمسين سنة ، بعث على رأس أربعين ، ولبث في قومه تسعمائة وخمسين ، وعاش بعد الطوفان ستين . وعن وهب : أنه عاش ألفا وأربعمائة سنة . فإن قلت : هلا قيل تسعمائة وخمسين سنة ؟ قلت : ما أورده الله أحكم . لأنه لو قيل كما قلت ، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره ، وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك ، وكأنه قيل : تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد ، إلا أنّ ذلك أخصر وأعذب لفظا وأملأ بالفائدة [1] ، وفيه نكتة أخرى : وهي أنّ القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمّته وما كابده من طول المصابرة ، تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيتا له ، فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه ، أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدّة صبره . فإن قلت : فلم جاء المميز أوّلا بالسنة وثانياً بالعام ؟ قلت : لأنّ تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد

ـــــــــــــــــــ

= فلذلك ساقهما مساقا واحداً نعوذ بالله من ذلك . وفي قوله تعالى : (إنهم لكاذبون) نكتة حسنة يستدل بها على صحة مجيء الأمر بمعنى الخبر ، فان من الناس من أنكره والتزم تخريج جميع ما ورد في ذلك على أصل الأمر ، ولم يتم له ذلك في هذه الآية ، لأن الله تعالى أردف قولهم : ولنحمل خطاياكم ، على صيغة الأمر بقوله (إنهم لكاذبون) والتكذيب إنما يتطرق إلى الاخبار .

(١) قال محمود : «عدل عن تسعمائة وخمسين لأنه يحتمل فيه إطلاق العدد على أكثره بخلاف مجيئه مع الاستثناء» قال أحمد : لأن الاستثناء استدراك ورجوع على الجملة بالتنقيص ، تحريراً للعدد ، فلا يحتمل المبالغة لأنها لا يجوز معها العدد .

حقيق بالاجتناب في البلاغة ، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل[١] أو تنويه أو نحو ذلك . و﴿الطوفان﴾ ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة ، من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما . قال العجاج :

* وَغَمَّ طُوفَانُ الظَّلَامِ الأَثْأَبَا * [٢]

﴿أصحاب السفينة﴾ كانوا ثمانية وسبعين نفسا : نصفهم ذكور ، ونصفهم إناث ، منهم أولاد نوح عليه السلام : سام ، وحام ، ويافث ، ونساؤهم . وعن محمد بن إسحق : كانوا عشرة . خمسة رجال وخمس نسوة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم «كانوا ثمانية : نوح وأهله وبنوه الثلاثة» [٣] والضمير في ﴿وجعلناها﴾ للسفينة أو للحادثة والقصة .

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾

نصب ﴿إبراهيم﴾ بإضمار اذكر ، وأبدل عنه ﴿إذ﴾ بدل الاشتمال ، لأن الأحيان تشتمل على ما فيها . أو هو معطوف على (نوحا) وإذ ظرف لأرسلنا ، يعني : أرسلناه حين بلغ من السن والعلم مبلغا صلح فيه لأن يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى

(١) عاد كلامه . قال : «وفيه نكتة أخرى ، وهي أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح وكابده من طول المصابرة ، تسلية له عليه السلام فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع على الغرض . قال : وإنما خالف بين اللفظين فذكر في الأول السنة وفي الثاني العام ، تجنبا للتكرار الذي لا يعمد إلا لقصد تفخيم أو تعظيم» قال أحمد : ولو فخم المستثنى لعاد ذلك ببعض تفخيم المستثنى منه وتكبيره عند السامع ، والله أعلم .

(٢) حتى إذا ما يومها تصببا وعم طوفان الظلام الأثأبا

للعجاج يصف بقرة وحشية . وما : زائدة . ويروى : عم ، بالمهملة وبالمعجمة ، والمعنيان متقاربان . والطوفان : كل ما طاف حول الشيء وأحاط به من ظلام أو ماء أو نحوهما . والأثأب : نوع من الشجر يشبه شجر التين ، الواحدة : أثأبة ونسبة التصبب لليوم : مجاز عقلي من باب الاسناد للزمان . أو على تقدير التمييز ، أي : تصبب مطراً ، وستر ظلامه الشجر الذي كانت فيه .

(٣) تقدم في هود

وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة رحمهما الله. وإبراهيم، بالرفع على معنى: ومن المرسلين إبراهيم ﴿إن كنتم تعلمون﴾ يعني: إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم. أو إن نظرتم بعين الدراية المبصرة دون عين الجهل العمياء: علمتم أنه خير لكم: وقرئ: تخلقون من خلق بمعنى التكثير في خلق. وتخلقون، من تخلق بمعنى تكذب وتخرص. وقرئ: إفكا، فيه وجهان: أن يكون مصدرا، نحو: كذب ولعب. والإفك: مخفف منه، كالكذب واللعب من أصلهما، وأن يكون صفة على فعل، أي خلقا إفكا، أي ذا إفك وباطل. واختلاقهم الإفك: تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله أو شفعاء إليه. أو سمى الأصنام: إفكا، وعملهم لها ونحتهم: خلقا للإفك. فإن قلت: لم نكر الرزق ثم عرفه؟ قلت: لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئا من الرزق، فابتغوا عند الله الرزق كله. فإنه هو الرزاق وحده لا يرزق غيره ﴿إليه ترجعون﴾ وقرئ: بفتح التاء، فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه، وإن تكذبوني فلا تضرونني بتكذيبكم، فإن الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم، وما ضروهم وإنما ضروا أنفسهم، حيث حل بهم ما حل بسبب تكذيب الرسل: وأما الرسول فقد تم أمره حين بلغ البلاغ المبين الذي زال معه الشك، وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته. أو: وإن كنت مكذبا فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة وسلوة حيث كذبوا، وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب، وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله (فما كان جواب قومه) محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم صلوات الله عليه لقومه، وأن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم وآخرها. فإن قلت: إذا كانت من قول إبراهيم فما المراد بالأمم قبله؟ قلت: قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم، وكفى بقوم نوح أمة في معنى أمم جمة مكذبة، ولقد عاش إدريس ألف سنة في قومه إلى أن رفع إلى السماء. وآمن به ألف إنسان منهم على عدد سنيه، وأعقابهم على التكذيب.

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ
إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ
تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ
دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

فإن قلت : فما تصنع بقوله (قل سيروا فى الأرض) ؟ قلت : هى حكاية كلام حكاه إبراهيم عليه السلام لقومه ، كما يحكى رسولنا صلى الله عليه وسلم كلام الله على هذا المنهاج فى أكثر القرآن فإن قلت : فإذا كانت خطابا لقريش فما وجه توسطهما بين طرفى قصة إبراهيم والجملة ؟ أو الجمل الاعتراضية لابد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ؟ ألا تراك لاتقول : مكة ـ وزيد أبوه قائم ـ خير بلاد الله ؟ قلت : إيراد قصة إبراهيم ليس إلا إرادة للتنفيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن تكون مسلاة له ومتفرجا بأنّ أباه إبراهيم خليل الله كان ممنوا بنحو مامنى[1] به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان ، فاعترض بقوله : وإن تكذبوا ، على معنى إنكم يامعشر قريش إن تكذبوا محمداً فقد كذب إبراهيم قومه وكل أمة نبيها ؛ لأن قوله (فقد كذب أمم من قبلكم) لابد من تناوله لأمة إبراهيم ، وهو كما ترى اعتراض واقع[2] متصل ، ثم سائر الآيات الواطئة عقبها من أذيالها وتوابعها ، لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله ، وهدم الشرك وتوهين قواعده ، وصفة قدرة الله وسلطانه ، ووضوح حجته وبرهانه . قرئ (يروا) بالياء والتاء . ويبدئ ويبدأ . وقوله ﴿ثم يعيده﴾ ليس بمعطوف على يبدئ ، وليست الرؤية واقعة عليه ، وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت ، كما وقع النظر فى قوله تعالى : (فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) على البدء دون الإنشاء ، ونحوه قولك : مازلت أوثر فلانا وأستخلفه على من أخلفه[3] . فإن قلت : هو معطوف بحرف العطف ، فلا بد له من معطوف عليه ، فما هو ؟ قلت : هو جملة قوله (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق) وكذلك : وأستخلفه ، معطوف على جملة قوله : مازلت أوثر فلانا ﴿ذلك﴾ يرجع إلى مايرجع إليه هو فى قوله (وهو أهون عليه) من معنى يعيد . دل بقوله ﴿النشأة الاخرة﴾ على أنهما نشأتان ، وأن كل واحدة منهما إنشاء ، أى : ابتداء واختراع ، وإخراج من العدم إلى الوجود ، لاتفاوت بينهما إلا أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله ، والأولى ليست كذلك . وقرئ : النشأة والنشاءة ، كالرأفة والرآفة . فإن قلت : مامعنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ فى قوله (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) بعد إضماره فى قوله : كيف بدأ الخلق ؟

---

(١) قوله «كان ممنوا بنحو مامنى به» أى : مبتلى . فى الصحاح : منوته ومنيته ، إذا ابتليته . (ع)

(٢) قوله «وهو كما ترى اعتراض واقع» لعله : واقع موقعه . (ع)

(٣) قال محمود : «يعيده ليس معطوفا على يبدئ ، وإنما هو إخبار على حياله ، كما وقع (كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) كقولك مازلت أوثر فلانا وأستخلفه بعدى» قال أحمد : وقد تقدم له عند قوله تعالى (أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده) أنه معطوف ، وصحح العطف ـ وإن كانوا ينكرون الاعادة ـ لأن الاعتراف بها لازم لهم ، وقد أبى ههنا جعله معطوفا ، فالفرق والله أعلم أنه ههنا لو عطف الاعادة على البداءة لدخلت فى الرؤية الماضية ، وهى لم تقع بعد ، ولا كذلك فى آية النمل ، ولقائل أن يقول : هي وإن لم تقع ، إلا أنها باخبار الله تعالى بوقوعها كالواقعة المرئية ، فعوملت معاملة مارؤى وشوهد إلا أن جعله خبراً ثانياً أوضح ، والله أعلم .

وكان القياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة؟ قلت: الكلام معهم كان واقعاً فى الإعادة، وفيها كانت تصطك الركب، فلما قررهم فى الإبداء بأنه من الله، احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا كان الله الذى لا يعجزه شيء هو الذى لم يعجزه الإبداء، فهو الذى وجب أن لا تعجزه الإعادة[1]، فكأنه قال: ثم ذاك الذى أنشأ النشأة الأولى هو الذى ينشئ النشأة الآخرة، فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ ﴿يعذب من يشاء﴾ تعذيبه ﴿ويرحم من يشاء﴾ رحمته، ومتعلق المشيئتين مفسر مبين فى مواضع من القرآن[2] وهو من يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا، ومن المعصوم والتائب ﴿تقلبون﴾ تردون وترجعون ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ ربكم أى لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه ﴿فى الأرض﴾ الفسيحة ﴿ولا فى السماء﴾ التى هى أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها، كقوله تعالى: (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا)، وقيل: ولا من فى السماء[3] كما قال حسان رضى الله عنه:

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ[4]

ويحتمل أن يراد: لا تعجزونه كيفما هبطتم فى مهاوى الأرض وأعماقها، أو علوتم فى البروج والقلاع الذاهبة فى السماء، كقوله تعالى (ولو كنتم فى بروج مشيدة) أو لا تعجزون أمره الجارى فى السماء والأرض أن يجرى عليكم، فيصيبكم ببلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

﴿بآيات الله﴾ بدلائله على وحدانيته وكتبه ومعجزاته ولقائه والبعث ﴿يئسوا من رحمتى﴾ وعيد، أى ييأسون يوم القيامة، كقوله: (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون). أو هو وصف

---

(١) قال محمود: «إن قلت ما وجه الافصاح باسمه تعالى مع النشأة الآخرة، بعد إضماره فى البداءة أولا؟ قلت: لأن النشأة الآخرة هى المقصودة وفيها كانت تصطك الركب، فكانت خليقة بإبراز اسمه تعالى تحقيقاً لنسبة الاعادة إلى من نسبت إليه الأولى» قال أحمد: والأصل الاظهار ثم الاضمار، ويليه لقصد التفخيم: الاظهار بعد الاظهار، ويليه وهو أفخم الثلاثة: الاظهار بعد الاضمار كما فى الآية، والله أعلم.

(٢) قوله «ومتعلق المشيئتين مفسر مبين فى مواضع من القرآن» تفسيره بما يأتى مبنى على أنه تعالى يجب عليه تعذيب الكافر والفاسق إذا لم يتوبا وإثابة المعصوم والتائب، وهو مذهب المعتزلة. ولا يجب عليه تعالى شيء عند أهل السنة، فالمشيئة فى الآية على إطلاقها. (ع)

(٣) قوله «وقيل ولا من فى السماء» عبارة الخازن: ولا من فى السماء بمعجز. (ع)

(٤) تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات بالجزء الثانى صفحة ٥٦٣ فراجعه إن شئت اه مصححه.

الحالم ؛ لأنّ المؤمن إنمـا يكون راجيا خاشيا ، فأما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولاخوف . أوشبه حالهم فى انتفاء الرحمة عنهم بحال من يئس من الرحمة : وعن قتادة رضى الله عنه . إن الله ذمّ قوما هانوا عليـه فقال (أولئك يئسوا من رحمتى) وقال (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) فينبغى للمؤمن أن لا ييأس من روح الله ولا من رحمته ، وأن لا يأمن عذابه وعقابه صفة المؤمن [1] أن يكون راجيا لله عز وجل خائفا .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

قرئ ﴿جواب قومه﴾ بالنصب والرفع ﴿قالوا﴾ قال بعضهم لبعض . أو قاله واحد منهم وكان الباقون راضين ، فكانوا جميعاً فى حكم القائلين . وروى أنه لم ينتفع فى ذلك اليوم بالنار ، نعنى : يوم ألقى إبراهيم فى النار ، وذلك لذهاب حرها .

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾

قرئ على النصب بغير إضافة وبإضـافة ، وعلى الرفع كذلك ، فالنصب على وجهين : على التعليل ، أى لتتوادوا بينكم وتتواصلوا ، لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها وائتلافكم ، كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم . وأن يكون مفعولا ثانياً ، كقوله (اتخذ إلهه هواه) أى اتخذتم الأوثان سبب المودّة بينكم ، على تقدير حذف المضاف . أو اتخذتموها مودّة بينكم ، بمعنى مودودة بينكم ، كقوله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) وفى الرفع وجهان : أن يكون خبراً لأنّ ، على أن ما موصولة . وأن يكون خبر مبتدإ محذوف . والمعنى : أنّ الأوثان مودّة بينكم ، أى : مودودة ، أو سبب مودّة . وعن عاصم : مودّة بينكم : بفتح بينكم مع الإضافة ، كما قرئ (لقد تقطع بينكم) ففتح وهو فاعل . وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه : أوثاناً إنمـا مودّة بينكم فى الحياة الدنيا ، أى : إنما تتوادّون عليها ، أو تودّونها فى الحياة الدنيا ﴿ثم يوم القيامة﴾ يقوم بينكم التلاعن

(١) قوله «صفة المؤمن» لعله : لأن صفة المؤمن ... الخ . (ع)

والتباغض والتعادى : يتلاعن العبدة ، ويتلاعن العبدة والأصنام ، كقوله تعالى (ويكونون عليهم ضداً) .

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾

كان لوط ابن أخت إبراهيم عليهما السلام ، وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه ﴿ وقال ﴾ يعني إبراهيم ﴿ إني مهاجر ﴾ من «كوثى» وهي من سواد الكوفة إلى «حرّان» ثم منها إلى فلسطين ، ومن ثمة قالوا : لكل نبي هجرة ولإبراهيم هجرتان ، وكان معه في هجرته : لوط ، وامرأته سارّة ، وهاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ﴿ إلى ربي ﴾ إلى حيث أمرني بالهجرة إليه ﴿ إنه هو العزيز ﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما هو مصلحتي .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

﴿ أجره ﴾ الثناء الحسن ، والصلاة عليه آخر الدهر والذرية الطيبة والنبوّة ، وأن أهل الملل كلهم يتولونه . فإن قلت : ما بال إسماعيل عليه السلام لم يذكر ، وذكر إسحق وعقبه ؟ قلت : قد دلّ عليه في قوله (وجعلنا في ذريته النبوّة والكتاب) وكفى الدليل لشهرة أمره وعلوّ قدره . فإن قلت : ما المراد بالكتاب ؟ قلت : قصد به جنس الكتاب ، حتى دخل تحته ما نزل على ذرّيته من الكتب الأربعة : التي هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن ؟

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

﴿ ولوطاً ﴾ معطوف على إبراهيم ، أو على ما عطف عليه . و ﴿ الفاحشة ﴾ الفعلة البالغة في القبح . و ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة ، كأن قائلا قال : لم كانت فاحشة ؟ فقيل له : لأن أحداً قبلهم لم يقدم عليها اشمئزازا منها في طباعهم لإفراط قبحها ، حتى أقدم عليها قوم لوط لخبث طينتهم وقذر طباعهم . قالوا لم ينزُ ذكر على ذكر قبل قوم لوط قط . وقرئ : إنكم ، بغير استفهام في الأوّل دون الثاني : قال أبو عبيدة :

وجدته في الإمام بحرف واحد بغير ياء، ورأيت الثاني بحرفين الياء والنون. وقطع السبيل: عمل قطاع الطريق، من قتل الأنفس وأخذ الأموال. وقيل: اعتراضهم السابلة بالفاحشة. وعن الحسن: قطع النسل بإتيان ما ليس بحرث. و ﴿المنكر﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما هو الخذف بالحصى، والرمى بالبنادق، والفرقعة، ومضغ العلك، والسواك بين الناس، وحل الأزرار، والسباب، والفحش في المزاح. وعن عائشة رضى الله عنها: كانوا يتحابقون[1]. وقيل السخرية بمن مرّ بهم. وقيل: المجاهرة في ناديهم بذلك العمل. وكل معصية فإظهارها أقبح من سترها، ولذلك جاء: من خرق جلباب الحياء فلا غيبة له. ولا يقال للمجلس: ناد، إلا ما دام فيه أهله، فإذا قاموا عنه لم يبق نادياً ﴿إن كنت من الصادقين﴾ فيما تعدناه من نزول العذاب. كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش طوعاً وكرهاً ولأنهم ابتدعوا الفاحشة وسنوها فيمن بعدهم، وقال الله تعالى (الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) فأراد لوط عليه السلام أن يشتد غضب الله عليهم، فذكر لذلك صفة المفسدين في دعائه.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾

﴿بالبشرى﴾ هي البشارة بالولد. والنافلة: وهما إسحق ويعقوب. وإضافة مهلكو إضافة تخفيف لا تعريف. والمعنى الاستقبال. والقرية: سدوم التي قيل فيها: أجور من قاضي سدوم ﴿كانوا ظالمين﴾ معناه أنّ الظلم قد استمر منهم إيجاده في الأيام السالفة، وهم عليه مصرون، وظلمهم: كفرهم وألوان معاصيهم ﴿إن فيها لوطاً﴾ ليس إخباراً لهم بكونه فيها، وإنما هو جدال في شأنه: لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم: اعترض عليهم بأن فيها من هو برىء من الظلم، وأراد بالجدال: إظهار الشفقة عليهم، وما يجب للمؤمن من التحزن لأخيه، والتشمر في نصرته وحياطته، والخوف من أن يمسه أذى أو يلحقه ضرر. قال قتادة: لا يرى المؤمن ألا يحوط المؤمن، ألا ترى إلى جوابهم بأنهم أعلم منه ﴿بمن فيها﴾ يعنون: نحن أعلم منك

---

(١) قوله «كانوا يتحابقون» في الصحاح «الحبق» بالكسر: الردام. وفيه أيضا «الردام» بالضم: الحبق اه، وهو دور فلينظر حله، ثم رأيت فيه في مادة «ضرط» الضراط: الردام، وقد ضرط يضرط ضرطا بكسر الراء، مثال: حبق يحبق حبقا اه فالتحابق: المضارطة، كما عبر النسفي. (ع)

وأخبر بحال لوط وحال قومه ، وامتيازه منهم الامتياز البين ، وأنه لا يستأهل ما يستأهلون ، فخفض على نفسك وهوّن عليك الخطب . وقرئ ﴿ لننجينه ﴾ بالتشديد والتخفيف ، وكذلك منجوك .

وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾

﴿ أن ﴾ صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر فى وقتين متجاورين لا فاصل بينهما ؛ كأنهما وجدا فى جزء واحد من الزمان ، كأنه قيل : كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث [1] ، خيفة عليهم من قومه ﴿ وضاق بهم ذرعاً ﴾ وضاق بشأنهم وبتدبير أمرهم ذرعه أى طاقته ، وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع : عبارة عن فقد الطاقة ، كما قالوا : رحب الذراع بكذا ، إذا كان مطيقا له ، والأصل فيه أنّ الرجل إذا طالت ذراعه نال مالا يناله القصير الذراع ، فضرب ذلك مثلا فى العجز والقدرة .

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

الرجز والرجس : العذاب ، من قولهم : ارتجز وارتجس إذا اضطرب ، لما يلحق المعذب من القلق والاضطراب . وقرئ ﴿ منزلون ﴾ مخففاً ومشدّداً ﴿ منها ﴾ من القرية ﴿ آية بينة ﴾ هى آثار منازلهم الخربة . وقيل : بقية الحجارة . وقيل : الماء الأسود على وجه الأرض . وقيل : الخبر عما صنع بهم ﴿ لقوم ﴾ متعلق بتركنا أو ببينة .

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾

﴿ وارجوا ﴾ وافعلوا ما ترجون به العاقبة . فأقيم المسبب مقام السبب . أو أمروا بالرجاء : والمراد : اشتراط ما يسوّغه من الإيمان ، كما يؤمر الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط . وقيل : هو من الرجاء بمعنى الخوف . والرجفة : الزلزلة الشديدة . وعن الضحاك : صيحة جبريل عليه السلام ؛ لأنّ القلوب رجفت لها ﴿ فى دارهم ﴾ فى بلدهم وأرضهم . أو فى ديارهم ، فاكتفى بالواحد

(١) قوله «من غير ريث» أى بطء . (ع)

لأنه لا يلبس ﴿جاثمين﴾ باركين على الركب ميتين .

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

﴿وعادا﴾ منصوب بإضمار « أهلكنا » لأن قوله (فأخذتهم الرجفة) يدل عليه ، لأنه فى معنى الإهلاك ﴿وقد تبين لكم﴾ ذلك : يعني ما وصفه من إهلاكهم ﴿من﴾ جهة ﴿مسكنهم﴾ إذا نظرتم إليها عند مروركم بها . وكان أهل مكة يمرون عليها فى أسفارهم فيبصرونها ﴿وكانوا مستبصرين﴾ عقلاء متمكنين من النظر والافتكار ، ولكنهم لم يفعلوا . أو كانوا متبينين أن العذاب نازل بهم لأن الله تعالى قد بين لهم على ألسنة الرسل عليهم السلام ، ولكنهم لجوا حتى هلكوا .

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾

﴿سابقين﴾ فائتين ، أدركهم أمر الله فلم يفوتوه .

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

الحاصب : لقوم لوط ، وهى ريح عاصف فيها حصباء . وقيل : ملك كان يرميهم . والصيحة : لمدين وثمود . والخسف : لقارون . والغرق : لقوم نوح وفرعون .

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾

الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلا ومعتمداً فى دينهم وتولوه من دون الله ، بما هو مثل عند الناس فى الوهن وضعف القوة . وهو نسج العنكبوت . ألا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾ ؟ فإن قلت : ما معنى قوله ﴿لو كانوا يعلمون﴾ وكل

أحد يعلم وهن بيت العنكبوت ؟ قلت : معناه لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن . ووجه آخر : وهو أنه إذا صحّ تشبيه ما اعتمدوه فى دينهم ببيت العنكبوت ، وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت ، فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون . أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز ، فكأنه قال : وإن أوهن ما يعتمد عليه فى الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون . ولقائل أن يقول : مثل المشرك الذى يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذى يعبد الله ، مثل عنكبوت يتخذ بيتاً . بالإضافة إلى رجل يبنى بيتاً بآجر وجص أو ينحته من صخر ، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون . قرئ : تدعون ، بالتاء والياء . وهذا توكيد للمثل وزيادة عليه ، حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ فيه تجهيل لهم حيث عبدوا ما ليس بشىء ؛ لأنه جماد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلا ، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شىء ، الحكيم الذى لا يفعل شيئاً إلا بحكمة وتدبير .

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣)

كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون إنّ ربّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، ويضحكون من ذلك ، فلذلك قال ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ أى لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها إلا هم ، لأنّ الأمثال والتشبيهات إنما هى الطرق إلى المعانى المحتجبة فى الأستار حتى تبرزها وتكشف عنها وتصوّرها للأفهام ، كما صوّر هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلا هذه الآية فقال : « العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه [1] » :

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)

﴿بالحق﴾ أى بالغرض الصحيح[2] الذى هو حق لا باطل ، وهو أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم ، ودلائل على عظم قدرته : ألا ترى إلى قوله ﴿إنّ فى ذلك لآية للمؤمنين﴾ ونحوه قوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) ثم قال (ذلك ظنّ الذين كفروا)

---

(١) أخرجه داود بن المحبر فى كتاب العقل والحارث بن أبى أسامة فى مسنده عنه من حديث جابر ، وأخرجه من طريق الحارث الثعلبي والواحدى : والبغوى ، وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات .

(٢) قال محمود : «أى بالغرض الصحيح» قال أحمد : لفظة قدرية ومعتقد ردىء قد تقدم إنكاره على القدرية ، ولو كان ما قالوه حقاً من حيث المعنى ، لوجب اجتناب هذه العبارة التى لا تليق بالأدب . والله سبحانه وتعالى أعلم .

اتْلُ مَاأُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَاتَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

الصلاة تكون لطفاً فى ترك المعاصى، فكأنها ناهية عنها. فإن قلت: كم من مصل يرتكب ولا تنهاه صلاته؟ قلت الصلاة التى هى الصلاة عند الله المستحق بها الثواب: أن يدخل فيها مقدما للتوبة النصوح، متقياً؛ لقوله تعالى (إنما يتقبل الله من المتقين) ويصليها خاشعاً بالقلب والجوارح، فقد روى عن حاتم: كأن رجلى على الصراط والجنة عن يمينى والنار عن يسارى وملك الموت من فوق، وأصلى بين الخوف والرجاء؛ ثم يحوطها بعد أن يصليها فلا يحبطها، فهى الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً.(١) وعن الحسن رحمه الله: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، فليست صلاته بصلاة، وهى وبال عليه. وقيل: من كان مراعياً للصلاة جرّه ذلك إلى أن ينتهى عن السيئات يوما ما، فقد روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنّ فلانا يصلى بالنهار ويسرق بالليل. فقال «إنّ صلاته لتردعه»(٢) وروى أنّ فتى من الأنصار كان يصلى معه الصلوات، ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه، فوصف له فقال «إن صلاته ستنهاه» فلم يلبث أن تاب(٣). وعلى كل حال إنّ المراعى للصلاة لا بدّ أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها. وأيضاً فكم من مصلين تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر، واللفظ لا يقتضى أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها، كما تقول: إنّ زيداً ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناكير، وإنما تريد أنّ هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم ﴿ولذكر الله أكبر﴾ يريد: وللصلاة أكبر من غيرها من الطاعات، وسماها

---

(١) أخرجه الطبرانى من رواية العلاء بن المسيب عمن ذكره عن ابن عباس بهذا موقوفا. ورواه الطبرانى وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق ليث عن عطاء عن ابن عباس مرفوعا. وفى الباب عن ابن عمر. أخرجه الدارقطنى فى غرائب مالك. وفى إسناده محمد بن الحسن البصرى. قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به. يروى عن مالك ما لا أصل له. وأخرجه أحمد فى الزهد من قول ابن مسعود. وأخرجه عبد الرزاق والطبرى والبيهقى فى الشعب من مرسل الحسن

(٢) أخرجه أحمد وإسحاق وابن حبان والبزار وأبو يعلى من طريق عيسى بن يونس ووكيع ومجاهد عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة. قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن فلانا يصلى بالليل فاذا أصبح سرق. فقال إن صلاته ستنهاه ورواه البزار من طريق زياد البكائى وأبو يعلى من طريق أبى إسحاق الفزارى كلاهما عن الأعمش عن أبى صالح عن جابر. قال البزار: اختلف فيه عن الأعمش فقيل عنه أيضا عن أبى سفيان عن جابر

(٣) لم أجده

بذكر الله كما قال (فاسعوا إلى ذكر الله) وإنما قال: ولذكر الله: ليستقلّ بالتعليل، كأنه قال: وللصلاة أكبر، لأنها ذكر الله. أو ولذكر الله عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر، فكان أولى بأن ينهى من اللطف الذي في الصلاة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ من الخير والطاعة، فيثيبكم أحسن الثواب.

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)

﴿بالتي هي أحسن﴾ بالخصلة التي هي أحسن: وهي مقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم. والسورة بالأناة، كما قال. (ادفع بالتي هي أحسن)، (إلا الذين ظلموا) فأفرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق. فاستعملوا معهم الغلظة، وقيل: إلا الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: إلا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة. وقيل: معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمّة المؤدّين للجزية إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ومنعوا الجزية. فإن أولئك مجادلتهم بالسيف. وعن قتادة: الآية منسوخة بقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) ولا مجادلة أشدّ من السيف: وقوله ﴿قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا﴾ من جنس المجادلة بالتي هي أحسن. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: ماحدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم. وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان باطلا لم تصدّقوهم، وإن كان حقاً لم تكذبوهم [1].

وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧)

ومثل ذلك الإنزال ﴿أنزلنا إليك الكتاب﴾ أي: أنزلناه مصدّقا لسائر الكتب السماوية، تحقيقا لقوله آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم. وقيل: كما أنزلنا الكتب إلى من كان قبلك أنزلنا

(١) أخرجه أبو داود، وابن حبان وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني، من طريق الزهري أخبرني ابن أبي نملة الأنصاري أن أباه أبا نملة الأنصاري أخبره. قال «بينا هو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فذكر قصة هذا فيها» هذا هو المعروف في إسناد هذا الحديث وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين من رواية بقية عن الزبير عن الزهري عن سالم عن أبيه عن عامر بن ربيعة به. وأصل الحديث في البخاري من حديث أبي هريرة باختصار

إليك الكتاب ﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾ هم عبد الله بن سلام ومن آمن معه ﴿ومن هؤلاء﴾ من أهل مكة وقيل : أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب . ومن هؤلاء ممن فى عهده منهم ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ مع ظهورها وزوال الشبهة عنها ، إلا المتوغلون فى الكفر المصممون عليه . وقيل : هم كعب بن الأشرف وأصحابه .

وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَا إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

وأنت أمىّ ماعرفك أحد قط بتلاوة كتاب ولا خط ﴿إذاً﴾ لو كان شيء من ذلك ، أى ، من التلاوة والخط ﴿لارتاب المبطلون﴾ من أهل الكتاب وقالوا : الذى نجده فى كتبنا أمى لايكتب ولا يقرأ وليس به . أو لارتاب مشركو مكة وقالوا : لعله تعلمه أو كتبه بيده . فإن قلت : لم سماهم مبطلين ، ولو لم يكن أميا وقالوا : ليس بالذى نجده فى كتبنا لكانوا صادقين محقين ؟ ولكان أهل مكة أيضا على حق فى قولهم لعله تعلمه أو كتبه فإنه رجل قارئ كاتب ؟ قلت : سماهم مبطلين لأنهم كفروا به وهو أمىّ بعيد من الريب ، فكأنه قال : هؤلاء المبطلون فى كفرهم به لو لم يكن أميا لارتابوا أشدّ الريب ، فحين ليس [1] بقارئ كاتب فلا وجه لارتيابهم . وشيء آخر : وهو أن سائر الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا أميين ، ووجب الإيمان بهم وبما جاؤا به ، لكونهم مصدقين من جهة الحكيم بالمعجزات ، فهب أنه قارئ كاتب فمالهم لم يؤمنوا به من الوجه الذى آمنوا منه بموسى وعيسى عليهما السلام ؟ على أن المنزلين [2] ليسا بمعجزين ، وهذا المنزل معجز ، فإذاً هم مبطلون حيث لم يؤمنوا به وهو أمى ، ومبطلون لو لم يؤمنوا به وهو غير أمى . فان قلت : مافائدة قوله بيمينك ؟ قلت ذكر اليمين وهى الجارحة التى يزاول بها الخط : زيادة تصوير لما نفى عنه من كونه كاتبا . ألا ترى أنك إذا قلت فى الإثبات : رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمينه ، كان أشد لإثباتك أنه تولى كتبته ، فكذلك النفى ﴿بل﴾ القرآن ﴿آيات بينات فى صدور﴾ العلماء به وحفاظه ، وهما من خصائص القرآن : كون آياته بينات الإعجاز ، وكونه محفوظا فى الصدور يتلوه أكثر الأمة ظاهراً : بخلاف سائر الكتب ، فإنها لم تكن معجزات ،

(١) قوله «فحين ليس» لعله فحين كان ليس . (ع)
(٢) قوله «على أن المنزلين ليسا بمعجزين» لعله : المنزلين عليهما . (ع)

وما كانت تقرأ إلا من المصاحف . ومنه ماجاء فى صفة هذه الأمة «صدورهم أناجيلهم»[1] ﴿ومايجحد﴾ بآيات الله الواضحة ، إلا المتوغلون فى الظلم المكابرون .

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

قرئ : آية ، وآيات . أرادوا : هلاأنزل عليه آية مثل ناقةصالح ومائدة عيسى عليهماالسلام ونحو ذلك ﴿إنما الآيات عند الله﴾ ينزل أيتها شاء ، ولوشاء أن ينزل ماتقترحونه لفعل ﴿وإنما أنا نذير﴾ كلفت الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات ، وليس لى أن أتخير على الله آياته فأقول : أنزل علىّ آية كذا دون آية كذا ، مع علمى أنّ الغرض من الآية ثبوت الدلالة ، والآيات كلها فى حكم آية واحدة فى ذلك ، ثم قال ﴿أولم يكفهم﴾ آية مغنية عن سائر الآيات - إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين - هذا القرآن الذى تدوم تلاوته عليهم فى كل مكان وزمان فلا يزال معهم آية ثابتة لاتزول ولا تضمحلّ ، كما تزول كل آية بعد كونها ، وتكون فى مكان دون مكان . إنّ فى مثل هذه الآية الموجودة فى كل مكان وزمان إلى آخر الدهر ﴿لرحمة﴾ لنعمة عظيمة لاتشكر . وتذكرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ وقيل : أولم يكفهم ، يعنى اليهود : أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم بتحقيق ما فى أيديهم من نعتك ونعت دينك . وقيل : إنّ ناسا من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتف قد كتبوا فيها بعض مايقول اليهود ، فلما أن نظر إليها ألقاها وقال : كفى بها حماقة قوم أوضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ماجاء به غير نبيهم ، فنزلت[2] . والوجه ماذكرناه ﴿كفى بالله بينى وبينكم شهيداً﴾ أنى قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم ، وأنكم قابلتمونى بالجحد والتكذيب ﴿يعلم ما فى السموات

---

(١) أخرجه الطبرانى من رواية سنان بن الحارث عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود مرفوعا فى أثناء حديث وروى الواقدى فى الردة عن إسماعيل بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن أبى ربيعة عن أبيه أن يهوديا من أهل سبأ يقال له نعمان ، وكان أعلم أحبار يهود فذكر قصة فيها صفة النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر عندهم مختوم وفيه هذا .

(٢) أخرجه الطبرى وأبوداود فى المراسيل من طريق يحيى بن جعدة «أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه قوم من المسلمين بكتاب فى كتف» فذكر نحوه ولفظ الطبرى كالأصل .

والأرض﴾ فهو مطلع على أمرى وأمركم، وعالم بحقى وباطلكم ﴿والذين آمنوا بالباطل﴾ منكم وهو ماتعبدون من دون الله ﴿وكفروا بالله﴾ وآياته ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان. إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف، كقوله (وإنا أوإياكم لعلى هدى أوفى ضلال مبين) وكقول حسان:

* فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ * [1]

وروى أن كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا: يامحمد، من يشهد لك بأنك رسول الله، فنزلت.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)

كان استعجال العذاب استهزاء منهم وتكذيبا، والنضر بن الحرث هو الذى قال: اللهم أمطر علينا حجارة من السماء، كما قال أصحاب الأيكة: فأسقط علينا كسفا من السماء ﴿ولولا أجل﴾ قد سماه الله وبينه فى اللوح لعذابهم، وأوجبت الحكمة تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى ﴿لجاءهم العذاب﴾ عاجلا. والمراد بالأجل: الآخرة، لما روى أن الله تعالى وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لايعذب قومه ولا يستأصلهم، وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة [2]. وقيل: يوم بدر. وقيل: وقت فنائهم بآجالهم ﴿لمحيطة﴾ أى ستحيط بهم ﴿يوم يغشاهم العذاب﴾ أو هى محيطة بهم فى الدنيا: لأن المعاصى التى توجبها محيطة بهم. أو لأنها مآلهم ومرجعهم لامحالة فكأنها الساعة محيطة بهم. و (يوم يغشاهم) على هذا منصوب بمضمر، أى: يوم يغشاهم العذاب كان كيت وكيت. ﴿من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ كقوله تعالى (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل)، ﴿ونقول﴾ قرئ بالنون والياء ﴿ما كنتم تعملون﴾ أى جزاءه.

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)

معنى الآية: أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة فى بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه كما يحب

(١) تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات بالجزء الثانى صفحة ٥٦٣ فراجعه إن شئت اه مصححه.
(٢) لم أجده.

فليهاجر عنه إلى بلد يقدّر أنه فيه أسلم قلبا وأصح دينا وأكثر عبادة وأحسن خشوعا . ولعمرى إن البقاع تتفاوت فى ذلك التفاوت الكثير ، ولقد جربنا وجرّب أوّلونا ، فلم نجد فيما درنا وداروا : أعون على قهر النفس وعصيان الشهوة وأجمع للقلب المتلفت وأضم للهم المنتشر وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من كثير من الفتن وأضبط للأمر الدينى فى الجملة - من سكنى حرم الله وجوار بيت الله ، فلله الحمد على ماسهل من ذلك وقرب ، ورزق من الصبر وأوزع من الشكر . وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض ، استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم [(١)] ومحمد» وقيل : هى فى المستضعفين بمكة الذين نزل فيهم (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) وإنما كان ذلك لأنّ أمر دينهم ما كان يستتب لهم بين ظهرانى الكفرة ﴿ فإياى فاعبدون ﴾ فى المتكلم ، نحو : إياه ضربته ، فى الغائب وإياك عضتك ، فى المخاطب . والتقدير : فإياى فاعبدوا : فاعبدون . فإن قلت : مامعنى الفاء فى (فاعبدون) وتقديم المفعول ؟ قلت : الفاء جواب شرط محذوف ؛ لأنّ المعنى : إنّ أرضى واسعة فإن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها لى فى غيرها ، ثم حذف الشرط وعوّض من حذفه تقديم المفعول ، مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾

لما أمر عباده بالحرص على العبادة وصدق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد وإن شسعت [(٢)] ، أتبعه قوله ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ أى واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المذوق . ومعناه : إنكم ميتون فواصلون الى الجزاء ، ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له بد من التزود لها والاستعداد بجهده .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

﴿ لنبوئنهم ﴾ لننزلنهم ﴿ من الجنة ﴾ علالى . وقرئ : لنثوينهم ، من الثواء وهو النزول للإقامة . يقال : ثوى فى المنزل ، وأثوى هو ، وأثوى غيره وثوى : غير متعد ، فإذا تعدى بزيادة همزة

---

(١) أخرجه الثعلبي من مرسل الحسن وقد تقدم فى النساء .

(٢) قوله «وأوفق البلاد وإن شسعت» أى بعدت . (ع)

النقل لم يتجاوز مفعولا واحدا، نحو: ذهب، وأذهبته. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف: إمّا إجراؤه مجرى لننزلنهم ونبوئنهم. أو حذف الجار وإيصال الفعل: أو تشبيه الظرف المؤقت [1] بالمبهم. وقرأ يحيى بن وثاب: فنعم، بزيادة الفاء ﴿الذين صبروا﴾ على مفارقة الاوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين، وعلى المحن والمصائب، وعلى الطاعات، وعن المعاصى، ولم يتوكلوا فى جميع ذلك إلا على الله.

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسلم بمكة بالهجرة، خافوا الفقر والضيعة، فكان يقول الرجل منهم: كيف أقدم بلدة ليست لى فيها معيشة، فنزلت. والدابة: كل نفس دبت على وجه الأرض، عقلت أو لم تعقل. ﴿تحمل رزقها﴾ لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ﴿الله يرزقها وإياكم﴾ أى لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أيضا أيها الأقوياء إلا هو وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها، لأنه لو لم يقدركم ولم يقدّر لكم أسباب الكسب، لكنتم أعجز من الدواب التى لا تحمل، وعن الحسن (لا تحمل رزقها) لا تدّخره، إنما تصبح فيرزقها الله. وعن ابن عيينة: ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والنملة والفأرة. وعن بعضهم: رأيت البلبل يحتكر فى حضنيه. ويقال: للعقعق مخابىء إلا أنه ينساها ﴿وهو السميع﴾ لقولكم: نخشى الفقر والضيعة ﴿العليم﴾ بما فى ضمائركم.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾

الضمير فى ﴿سألتهم﴾ لأهل مكة ﴿فأنى يؤفكون﴾ فكيف يصرفون عن توحيد الله وأن لا يشركوا به، مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض.

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

قدر الرزق وقتره بمعنى إذا ضيقه. فإن قلت: الذى رجع إليه الضمير فى قوله ﴿ويقدر له﴾ هو من يشاء، فكأن بسط الرزق وقدره جعلا لواحد. قلت: يحتمل الوجهين جميعاً: أن يريد ويقدر لمن يشاء، فوضع الضمير موضع من يشاء، لأن (من يشاء) مبهم غير معين، فكان الضمير مبهما مثله، وأن يريد تعاقب الأمرين على واحد على حسب المصلحة ﴿إن الله

(١) قوله «والظرف المؤقت» أى المحدد، وهو الغرف. (ع)

بكل شيء عليم﴾ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

استحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به ؛ ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفي الأنداد والشركاء عنه ، ولم يكن إقراراً عاطلا كاقرار المشركين ؛ وعلى أنهم أقروا بما هو حجة عليهم حيث نسبوا النعمة إلى الله وقد جعلوا العبادة للصنم ، ثم قال ﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾ ما يقولون وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد . أو لا يعقلون ما تريد بقولك الحمد لله ، ولا يفطنون لم حمدت الله عند مقالتهم ؟

وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

﴿هذه﴾ فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها ، وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة . يريد : ما هي ـ لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها ـ إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت [١] فيها ، فكأنها في ذاتها حياة . والحيوان : مصدر حي ، وقياسه حييان ، فقلبت الياء الثانية واواً ، كما قالوا : حيوة ، في اسم رجل ، وبه سمي ما فيه حياة : حيوانا . قالوا : اشتر من الموتان ، ولا تشتر من الحيوان [٢] . وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة ، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب ، كالنزوان والنغصان واللهبان [٣] ، وما أشبه ذلك . والحياة : حركة ، كما أن الموت سكون ، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة ، مبالغة في معنى الحياة ، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضي للمبالغة ﴿لو كانوا يعلمون﴾ فلم يؤثروا الحياة الدنيا عليها .

---

(١) قال محمود : «إنما عدل عن الحياة إلى هذا البناء تنبيها على تعظيم حياة الآخرة ودوامها» قال أحمد : والذي يخص هذا البناء به إفادة ما لا يخلو من الحركة ، كالنزوان والجولان . والحيوان من ذلك ، والله أعلم .

(٢) قوله «اشتر من الموتان ... الخ» الذي في الصحاح : اشتر الموتان ، ولا تشتر الحيوان . أي : اشتر الأرض والدور ، ولا تشتر الرقيق والدواب اهـ (ع)

(٣) قوله «كالنزوان والنغصان واللهبان» في الصحاح ، اللهبان ، بالتحريك : اتقاد النار . (ع)

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)

فإن قلت : بم اتصل قوله (فإذا ركبوا) ؟ قلت : بمحذوف دلّ عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم ، معناه : هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ كائنين فى صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين ، حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون معه إلها آخر . وفى تسميتهم مخلصين : ضرب من التهكم ﴿ فلما نجاهم إلى البر ﴾ وآمنوا عادوا إلى حال الشرك : واللام فى ﴿ ليكفروا ﴾ محتملة أن تكون لام كى ، وكذلك فى ﴿ وليتمتعوا ﴾ فيمن قرأها بالكسر . والمعنى : أنهم يعودون إلى شركهم ليكونوا ـ بالعود إلى شركهم ـ كافرين بنعمة النجاة ، قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير ، على خلاف ما هو عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة : إذا أنجاهم الله أن يشكروا نعمة الله فى إنجائهم ، ويجعلوا نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة ، لا إلى التمتع والتلذذ ، وأن تكون لام الأمر وقراءة من قرأ وليتمتعوا بالسكون تشهد له . ونحوه قوله تعالى (اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير) . فإن قلت : كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر وبأن يعمل العصاة ما شاءوا ، وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه ؟ قلت : هو مجاز عن الخذلان والتخلية ، وأن ذلك الأمر متسخط إلى غاية . ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر ، وعندك أنّ ذلك الأمر خطأ ، وأنه يؤدى إلى ضرر عظيم ، فتبالغ فى نصحه واستنزاله عن رأيه ، فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم ، حردت [1] عليه وقلت : أنت وشأنك وافعل ما شئت ، فلا تريد بهذا حقيقة الأمر . وكيف والآمر بالشيء مريد له ، وأنت شديد الكراهة متحسر ، ولكنك كأنك تقول له : فإذ قد أبيت قبول النصيحة ، فأنت أهل ليقال لك : افعل ما شئت وتبعث عليه ، ليتبين لك ـ إذا فعلت ـ صحة رأى الناصح وفساد رأيك .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧)

كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضا ، ويتغاورون ، ويتناهبون ، وأهل مكة قارّون آمنون فيها ، لا يغزون ولا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب ، فذكرهم الله هذه النعمة الخاصة عليهم ، ووبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذى هم عليه ، ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة

(١) قوله «حردت عليه» أى غضبت . أفاده الصحاح . (ع)

وغيرها من النعم التي لا يقدر عليها إلا الله وحده مكفورة عندهم .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨)

افتراؤهم على الله كذبا : زعمهم أن لله شريكا . وتكذيبهم بما جاءهم من الحق : كفرهم بالرسول والكتاب . وفى قوله ﴿ لما جاءه ﴾ تسفيه لهم ، يعنى : لم يتلعثموا فى تكذيبه وقت سمعوه ، ولم يفعلوا كما يفعل المراجيح العقول المثبتون فى الأمور : يسمعون الخبر فيستعملون فيه الروية والفكر ، ويستأنون إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه ﴿ أليس ﴾ تقرير لثوائهم فى جهنم . كقوله :

* أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا * (١)

قال بعضهم : ولو كان استفهاما ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل . وحقيقته : أن الهمزة همزة الإنكار دخلت على النفى ، فرجع إلى معنى التقرير ، فهما وجهان ، أحدهما : ألا يثوون فى جهنم ، وألا يستوجبون الثواء فيها ، وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله ، وكذبوا بالحق هذا التكذيب والثانى : ألم يصح عندهم أن فى جهنم مثوى للكافرين ، حتى اجترؤا مثل هذه الجرأة ؟ .

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ، ليتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الأمارة بالسوء والشيطان وأعداء الدين ﴿ فينا ﴾ فى حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصاً ﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾ لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً ، كقوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وعن أبى سليمان الدارانى : والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا . وعن بعضهم : من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم . وقيل : إن الذى نرى من جهلنا بما لا نعلم ، إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم ﴿ لمع المحسنين ﴾ لناصرهم ومعينهم .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين (٢) » .

(١) ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

لجرير : فى عبدالملك بن مروان . والاستفهام للانكار ، يعنى : لاتنتفى زيادتكم فى الفضل والكرم على جميع الناس ومن ركب المطايا : كناية عنهم ، لأن الركوب من خواصهم . والراح : اسم جمع واحده راحة ، وهى ماعدا الأصابع من الكف ، وذلك كناية عن الكرم ؛ لأن بها بذل المعروف فى العادة . قيل : لما بلغ جرير هذا البيت فى القصيدة ، كان عبد الملك متكئاً فاستوى جالساً فرحاً وقال : هكذا مدحنا . وأعطاه مائة من الابل .

(٢) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى من حديث أبى بن كعب .

سورة الروم

مكية ، إلا آية ١٧ فمدنية

وآياتها ٦٠ [نزلت بعد الانشقاق]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥)

القراءة المشهورة الكثيرة «غلبت» بضم الغين . وسيغلبون بفتح الياء . والأرض : أرض العرب ، لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم . والمعنى : غلبوا في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام . أو أراد أرضهم ، على إنابة اللام مناب المضاف إليه ، أى : في أدنى أرضهم إلى عدوّهم . قال مجاهد : هي أرض الجزيرة ، وهي أدنى أرض الروم إلى فارس . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الأردن وفلسطين . وقرئ : في أداني الأرض . والبضع ما بين الثلاث إلى العشر عن الأصمعي . وقيل : احتربت الروم وفارس بين أذرعات وبصرى ، فغلبت فارس الروم ، فبلغ الخبر مكة فشق على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين[1] ؛ لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب ، وفرح المشركون وشمتوا وقالوا : أنتم والنصارى أهل الكتاب ، ونحن وفارس أميون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ، ولنظهرنّ نحن عليكم ، فنزلت . فقال لهم

(١) أخرجه سعيد بن أبي داود في تفسيره : حدثني حجاج هو ابن محمد الأعور عن أبي بكر بن عبد الله عن عكرمة قال « كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الأبطال فدعاها كسرى فقال إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلا من بنيك فأشيري عليّ : أيهم أستعمل ؟ فأشارت عليه بولد لها يدعي شهرابرز . فاستعمله . قال أبو بكر بن عبد الله فحدثت هذا الحديث عطاء الخراساني فقال حدثني يحي بن يعمر أن قيصر بعث رجلا يدعى قطمة بجيش من الروم فالتقيا بأذرعات وبصرى فغلبتهم فارس فذكر القصة قلت ولها طرق جمعتها في أول شرحي الكبير على البخاري ، وقصة أبي بكر في المراهنة رواها الترمذي وغيره من حديث نيار بن مكرم الأسلمي وسياقها مخالف لسياق هذه القصة .

أبو بكر رضى الله عنه : لا يقرّر الله أعينكم ، فوالله لتظهرنّ الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبى بن خلف . كذبت يا أبا فصيل ، اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه . والمناحبة : المراهنة فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما ، وجعلا الأجل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايده فى الخطر وماده فى الأجل . فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين . ومات أبىّ من جرح رسول الله ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية ، وذلك عند رأس سبع سنين . وقيل : كان النصر يوم بدر للفريقين ، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبى ، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : تصدق به . وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة ، وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله . وقرئ : غلبهم ، بسكون اللام . والغلب والغلاب . مصدران كالجلب والجلب . والحلب والحلب . وقرئ : غلبت الروم ، بالفتح . وسيغلبون ، بالضم . ومعناه أن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون فى بضع سنين . وعند انقضاء هذه المدة أخذ المسلمون فى جهاد الروم ، وإضافة غلبهم تختلف باختلاف القراءتين ، فهى فى إحداهما إضافة المصدر إلى المفعول . وفى الثانية إضافته إلى الفاعل . ومثالها (محرم عليكم إخراجهم) ، (ولن يخلف الله وعده) . فإن قلت : كيف صحت المناحبة وإنما هى قمار ؟ قلت : عن قتادة رحمه الله أنه كان ذلك قبل تحريم القمار . ومن مذهب أبى حنيفة ومحمد : أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة فى دار الحرب بين المسلمين والكفار . وقد احتجا على صحة ذلك بما عقده أبو بكر بينه وبين أبىّ بن خلف ﴿من قبل ومن بعد﴾ أى فى أوّل الوقتين وفى آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون ، كأنه قيل : من قبل كونهم غالبين ، وهو وقت كونهم مغلوبين . ومن بعد كونهم مغلوبين ، وهو وقت كونهم غالبين . يعنى أن كونهم مغلوبين أوّلا وغالبين آخرا ليس إلا بأمر الله وقضائه (وتلك الأيام نداولها بين الناس) وقرئ : من قبل ومن بعد ، على الجر من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه . كأنه قيل : قبلا وبعدا ، بمعنى أوّلا وآخرا ﴿ويومئذ﴾ ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله عزّ وجل من غلبتهم ﴿يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له . وغيظ من شمت بهم من كفار مكة . وقيل : نصر الله : هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم وقيل نصر الله . أنه ولى بعض الظالمين بعضا وفرق بين كلمهم ، حتى تفانوا وتناقصوا ، وفل (١) هؤلاء شوكة هؤلاء وفى ذلك قوة للإسلام . وعن أبى سعيد الخدرى : وافق ذلك يوم بدر ، وفى هذا اليوم نصر المؤمنون ﴿وهو العزيز الرحيم﴾ ينصر عليكم تارة وينصركم أخرى .

---

(١) قوله « وفل هؤلاء شوكة هؤلاء » أى كسرها . أفاده الصحاح . (ع)

وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾

﴿وعد الله﴾ مصدر مؤكد، كقولك: لك علىّ ألف درهم عرفا: لأنّ معناه: أعترف لك بها اعترافا، ووعد الله ذلك وعداً؛ لأنّ ماسبقه فى معنى وعد. ذمّهم الله عزّ وجل بأنهم عقلاء فى أمور الدنيا، بله فى أمر الدين، وذلك أنهم كانوا أصحاب تجارات ومكاسب. وعن الحسن. بلغ من حذق أحدهم أنه يأخذ الدرهم فينقره بأصبعه، فيعلم أردىء هو أم جيد. وقوله ﴿يعلمون﴾ بدل من قوله (لا يعلمون) وفى هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه، وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه، ليعلمك أنه لافرق بين عدم العلم الذى هو الجهل، وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز الدنيا. وقوله ﴿ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطنا، فظاهرها مايعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم [1] بملاذها. وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة: يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة. وفى تنكير الظاهر: أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة الظواهر. و«هم» الثانية يجوز أن يكون مبتدأ. و﴿غافلون﴾ خبره، والجملة خبر «هم» الأولى، وأن يكون تكريراً للأولى، وغافلون خبر الأولى. وأيه كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرّها ومعلمها، وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾

﴿فى أنفسهم﴾ يحتمل أن يكون ظرفا، كأنه قيل: أولم يحدثوا التفكر فى أنفسهم، أى: فى قلوبهم الفارغة من الفكر، والتفكر لا يكون إلا فى القلوب، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقولك: اعتقده فى قلبك وأضمره فى نفسك. وأن يكون صلة للتفكر، كقولك: تفكر فى الأمر وأجال فيه فكره. و﴿ماخلق﴾ متعلق بالقول المحذوف، معناه: أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول. وقيل: معناه: فيعلموا، لأنّ فى الكلام دليلا عليه ﴿إلا بالحق وأجل

---

(١) قال محمود: «يعلمون بدل من الأول، وفى البدل نكتة وهى الاشعار بأنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل وبين العلم بظاهر الدنيا، حتى كأنهما شىء واحد، فأبدل أحدهما من الآخر. وفائدة تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها» قال أحمد: وفى التنكير تقليل لمعلومهم وتقليله يقربه من النفى حتى يطابق المبدل منه. وروى عن الحسن أنه قال فى تلاوته هذه الآية: بلغ من صدق أحدهم فى ظاهر الحياة الدنيا أنه ينقر الدينار بأصبعه فيعلم أجيد هو أم ردىء.

مسمى﴾ أى ماخلقها باطلا وعبثا بغير غرض صحيح وحكمة بالغة ، ولا لتبقى خالدة : وإنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة ، وبتقدير أجل مسمى لابد لها من أن تنتهى إليه ، وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب . ألاترى إلى قوله تعالى ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينالاترجعون) كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثا . والباء فى قوله (إلا بالحق) مثلها فى قولك : دخلت عليه بثياب السفر ، واشترى الفرس بسرجه ولجامه ، تريد : اشتراه وهو ملتبس بالسرج واللجام ، غير منفك عنهما . وكذلك المعنى ماخلقها إلاوهى ملتبسة بالحق مقترنة به ، فإن قلت : إذا جعلت (فى أنفسهم) صلة للتفكر ، فما معناه ؟ قلت : معناه : أولم يتفكروا فى أنفسهم التى هى أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات ، وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ماعداها ، فتدبروا ماأودعها الله ظاهراً وباطنامن غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال وأنه لابد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذى دبر أمرها على الإحسان إحسانا وعلى الإساءة مثلها ، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لابد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت ، والمراد بلقاء ربهم : الأجل المسمى .

أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

﴿أولم يسيروا﴾ تقرير لسيرهم فى البلاد ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية ، ثم أخذ يصف لهم أحوالهم وأنهم ﴿كانوا أشدمنهم قوة وأثاروا الأرض﴾ وحرثوها قال الله تعالى (لاذلول تثير الأرض) وقيل لبقر الحرث : المثيرة . وقالوا : سمى ثوراً لإثارته الأرض وبقرة ؛ لأنها تبقرها أى تشقها ﴿وعمروها﴾ يعنى أولئك المدمرون ﴿أكثر مما عمروها﴾ من عمارة أهل مكة . وأهل مكة : أهل وادغير ذى زرع ، مالهم إثارة الأرض أصلا ، ولا عمارة لها رأسا فما هو إلا تهكم بهم ، وبضعف حالهم فى دنياهم ؛ لأنّ معظم مايستظهر به أهل الدنيا ويتباهون به أمر الدهقنة [1] ، وهم أيضاً ضعاف القوى . فقوله (كانوا أشد منهم قوة) أى عاد وثمود وأضرابهم من هذا القبيل . كقوله (أولم يروا أنّ الله الذى خلقهم هو أشدّ منهم قوة) وإن كان هذا أبلغ ، لأنه خالق القوى والقدر . فما كان تدميره إياهم ظلماً لهم ، لأنّ حاله منافية للظلم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم .

(١) قوله «أمر الدهقنة» أي الزراعة (ع)

ثُمَّ كَانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا السُّوأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَٰتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

قرئ عاقبة بالنصب والرفع . و ﴿السوأى﴾ تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن . والمعنى : أنهم عوقبوا فى الدنيا بالدمار ، ثم كانت عاقبتهم سوأى : إلا أنه وضع المظهر موضع المضمر ، أى : العقوبة التى هى أسوأ العقوبات فى الآخرة ، وهى جهنم التى أعدّت للكافرين . و﴿أن كذبوا﴾ بمعنى لأن كذبوا . ويجوز أن يكون أن بمعنى : أى ؛ لأنه إذا كان تفسير الإساءة التكذيب والاستهزاء كانت فى معنى القول ، نحو : نادى . وكتب ، وما أشبه ذلك . ووجه آخر : وهو أن يكون (أساؤا السوأى) بمعنى اقترفوا الخطيئة التى هى أسوأ الخطايا، و (أن كذبوا) عطف بيان لها ، وخبر كان محذوف كما يحذف جواب لما ولو ، إرادة الإبهام .

اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

﴿ثم إليه ترجعون﴾ أى إلى ثوابه وعقابه . وقرئ بالتاء والياء .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾

الإبلاس : أى يبقى بائساً ساكناً متحيراً . يقال : ناظرته فأبلس . إذا لم ينبس [1] ويئس من أن يحتج . ومنه الناقة المبلاس : التى لا ترغو . وقرئ : يبلس ، بفتح اللام . من أبلسه إذا أسكته ﴿من شركائهم﴾ من الذين عبدوهم من دون الله ﴿وكانوا بشركائهم كافرين﴾ أى يكفرون بإلهيتهم ويجحدونها . أو وكانوا فى الدنيا كافرين بسببهم . وكتب ﴿شفعوا﴾ فى المصحف بواو قبل الألف ، كما كتب (علموا بنى إسرائيل) وكذلك كتبت (السوأى) بألف قبل الياء إثباتا للهمزة على صورة الحرف الذى منه حركتها .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَٰتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰٓئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

---

(١) قوله «إذا لم ينبس» أى لم يتكلم . أفاده الصحاح . (ع)

الضمير فى ﴿ يتفرقون ﴾ للمسلمين والكافرين ، لدلالة ما بعده عليه . وعن الحسن رضى الله عنه: هو تفرق المسلمين والكافرين : هؤلاء فى عليين ، وهؤلاء فى أسفل السافلين - وعن قتادة رضى الله عنه : فرقة لا اجتماع بعدها ﴿ فى روضة ﴾ فى بستان ، وهى الجنة . والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه . والروضة عند العرب : كل أرض ذات نبات وماء . وفى أمثالهم : أحسن من بيضة فى روضة ، يريدون : بيضة النعامة ﴿ يحبرون ﴾ يسرون . يقال : حبره إذا سرّه سرورا تهلل له وجهه وظهر فيه أثره . ثم اختلفت فيه الأقاويل لاحتماله وجوه جميع المسارّ : فعن مجاهد رضى الله عنه: يكرمون . وعن قتادة : ينعمون . وعن ابن كيسان : يحلون . وعن أبى بكر بن عياش : التيجان على رءوسهم . وعن وكيع : السماع فى الجنة . وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم [١] ، وفى آخر القوم أعرابىّ فقال : يارسول الله ، هل فى الجنة من سماع ؟ قال : « نعم يا أعرابى ، إنّ فى الجنة لنهرا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خوصانية ، يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط ، فذلك أفضل نعم الجنة » قال الراوى : فسألت أبا الدرداء : بم يتغنين ؟ قال : بالتسبيح . وروى « إنّ فى الجنة لأشجاراً عليها أجراس من فضة ، فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحاً من تحت العرش فتقع فى تلك الأشجار ، فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا [٢] » ﴿ محضرون ﴾ لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم ، كقوله : (وما هم بخارجين منها) ، (لا يفتر عنهم) .

فَسُبْحَٰنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

لما ذكر الوعد والوعيد ، أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد وينجى من الوعيد . والمراد بالتسبيح ظاهره الذى هو تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير فى هذه الأوقات لما يتجدّد فيها من نعمة الله الظاهرة . وقيل : الصلاة . وقيل لابن عباس رضى الله عنهما : هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن ؟ قال : نعم ، وتلا هذه الآية ﴿ تمسون ﴾ صلاتا المغرب والعشاء ﴿ وتصبحون ﴾ صلاة

(١) فى طريق سليمان بن عطاء عن مسلمة بن عبدالله الجهنى عن عمه أبى مشجعة عن أبى الدرداء قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الناس فذكر الجنة وما فيها ... الحديث » وسليمان منكر الحديث .

(٢) أخرجه الثعلبى من رواية عبدالله بن عرادة الشيبانى أحد الضعفاء عن القاسم بن مطيب عن مغيرة عن إبراهيم بهذا . وروى إسحاق فى مسنده من رواية مجاهد قيل لأبى هريرة « هل فى الجنة من سماع ؟ قال نعم شجرة أصلها من ذهب وأغصانها من الفضة وثمرها الياقوت والزبرجد . يبعث لها ريح فيحرك بعضها بعضا . فما سمع شىء قط أحسن منه » .

الفجر ﴿وعشياً﴾ صلاة العصر . و﴿تظهرون﴾ صلاة الظهر . وقوله (وعشياً) متصل بقوله (حين تمسون) وقوله ﴿وله الحمد فى السموات والأرض﴾ اعتراض بينهما . ومعناه : إنّ على المميزين كلهم من أهل السموات والأرض أن يحمدوه . فإن قلت : لم ذهب الحسن رحمه الله إلى أنّ هذه الآية مدنية ؟ قلت : لأنه كان يقول : فرضت الصلوات الخمس بالمدينة وكان الواجب بمكة ركعتين فى غير وقت معلوم . والقول الأكثر أنّ الخمس إنما فرضت بمكة . وعن عائشة رضى الله عنها : فرضت الصلاة ركعتين [1] فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أقرّت صلاة السفر ، وزيد فى صلاة الحضر . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل : فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . . . الآية [2]» وعنه عليه السلام «من قال حين يصبح (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ـ إلى قوله ـ وكذلك تخرجون) أدرك مافاته فى يومه . ومن قالها حين يمسى أدرك مافاته فى ليلته [3]» وفى قراءة عكرمة: حينا تمسون وحينا تصبحون . والمعنى : تمسون فيه وتصبحون فيه . كقوله (يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا) بمعنى فيه ﴿الحىّ من الميت﴾ الطائر من البيضة ، و﴿الميت من الحى﴾ البيضة من الطائر . وإحياء الأرض : إخراج النبات منها ﴿وكذلك تخرجون﴾ ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور وتبعثون . والمعنى : أنّ الإبداء والإعادة متساويان فى قدرة من هو قادر على الطرد والعكس من إخراج الميت من الحىّ وإخراج الحى من الميت وإحياء الميت وإماتة الحى . وقرئ : الميت ، بالتشديد [4] . وتخرجون ، بفتح التاء .

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

﴿خلقكم من تراب﴾ لأنه خلق أصلهم منه . و﴿إذا﴾ للمفاجأة . وتقديره : ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين فى الأرض ، كقوله (وبث منهما رجالا كثيراً ونساء) . ﴿من أنفسكم أزواجا﴾ لأن حوّاء خلقت من ضلع آدم عليه السلام ، والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال . أو من شكل أنفسكم وجنسها ، لا من جنس آخر ، وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الألف والسكون ،

(١) متفق عليه من حديث عائشة واللفظ لأحمد وسياقه أتم

(٢) أخرجه الثعلبى من حديث أنس وفى إسناده بشر بن الحسين وهو ساقط .

(٣) أخرجه أبوداود والعقيلى وابن عدى من حديث ابن عباس . وإسناده ضعيف . وقال البخارى : لايصح .

(٤) قوله «وقرئ الميت بالتشديد» يفيد أن القراءة المشهورة بالتخفيف . (ع)

وما بين الجنسين المختلفين من التنافر ﴿وجعل بينكم﴾ التوادّ والتراحم بعصمة الزواج، بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة، ولا لقاء، ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم. وعن الحسن رضى الله عنه: المودة كناية عن الجماع، والرحمة عن الولد، كما قال (ورحمة منا) وقال: (ذكر رحمة ربك عبده). ويقال: سكن إليه، إذا مال إليه، كقولهم: انقطع إليه، واطمأن إليه. ومنه السكن. وهو الإلف المسكون إليه. فعل بمعنى مفعول. وقيل: إن المودة والرحمة من قبل الله وإن الفرك من قبل الشيطان[1].

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾

الألسنة: اللغات. أو أجناس النطق وأشكاله. خالف عزّ وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين فى همس واحد، ولا جهارة، ولا حدّة، ولا رخاوة، ولا فصاحة، ولا لكنة، ولا نظم، ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله، وكذلك الصور وتخطيطها، والألوان وتنويعها، ولاختلاف ذلك وقع التعارف، وإلا فلو اتفقت وتشاكلت وكانت ضربا واحداً لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت مصالح كثيرة، وربما رأيت توأمين يشتبهان فى الحلية، فيعروك الخطأ فى التمييز بينهما، وتعرف حكمة الله فى المخالفة بين الحلىّ وفى ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد، وفرعوا من أصل فذ، وهم على الكثرة التى لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون. وقرئ: للعالمين بفتح اللام وكسرها، ويشهد للكسر قوله تعالى (وما يعقلها إلا العالمون).

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

هذا من باب اللفّ وترتيبه: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، إلا أنه فصل بين القرينين الأولين بالقرينين الآخرين. لأنهما زمانان. والزمان والواقع فيه كشىء واحد، مع إعانة اللفّ على الاتحاد. ويجوز أن يراد: منامكم فى الزمانين، وابتغاؤكم فيهما، والظاهر هو الأول لتكرره فى القرآن. وأسدّ المعانى ما دل عليه القرآن يسمعونه بالآذان الواعية.

---

(١) قوله «وإن الفرك من قبل الشيطان» فى الصحاح «الفرك» بالكسر: البغض. (ع)

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

فى ﴿يريكم﴾ وجهان : إضماران ، وإنزال الفعل منزلة المصدر ، وبهما فسر المثل : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . وقول القائل :

وَقَالُوا مَاتَشَاءُ فَقُلْتُ أَلْهُو إِلَى الإصبَاحِ آثِرَ ذِى أَثِيرِ [1]

﴿خوفا﴾ من الصاعقة أو من الإخلاف ﴿وطمعا﴾ فى الغيث . وقيل : خوفا للمسافر ، وطمعا للحاضر ، وهما منصوبان على المفعول له . فإن قلت : من حق المفعول له أن يكون فعلا لفاعل الفعل المعلل ؛ والخوف والطمع ليسا كذلك . قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن المفعولين فاعلون فى المعنى ، لأنهم راءون ، فكأنه قيل : يجعلكم رائين البرق خوفا وطمعا . والثانى : أن يكون على تقدير حذف المضاف ، أى : إرادة خوف وإرادة طمع [2] ، فحذف المضاف وأقيم المضاف

---

(١) أرقت وصحبتى بمضيق عمق لبرق من تهامة مستطير
سقونى الخمر ثم تكنفونى عداة الله من كذب وزور
وقالوا ما تشاء فقلت ألهو إلى الاصباح آثر ذى أثير

لعروة بن الورد العبسى ، وأرقت : سهرت . والواو للمعية . والمضيق المكان الضيق . وعمق ـ بكسر فسكون ـ : نهر ببلاد الحجاز ، وبضم ففتح : موضع منخفض عند مكة ، ولعله سكن هنا للوزن ، ولبرق : متعلق بأرقت ، أى سهرت فى هذا الموضع لأجل برق من تهامة جهة محبوبتى ، ويحتمل أن الواو حالية ، وصحبتى مبتدأ خبره بمضيق عمق ، وإذا كان أصحابه فيه فهو فيه ، فرجع إلى الأول . ومستطير : منتشر . وروى : سقونى النسىء . ونسأت اللبن : خلطته بماء ، فالنسىء : هو اللبن المخلوط بماء . وتكنفونى : أحاطوا بى ، وعداة : جمع عاد بمعنى عدو . وقيل : جمع عدو ، أى : هم أعداء الله من أجل كذبهم وزورهم ، وهى جملة اعتراضية ، ويحتمل أن «عداة» بدل من ضمير الفاعل . أو فاعل على لغة من قال : أكلونى البراغيث ، أى : أحاطوا بى وقالوا : ما الذى تريده ، فقلت : ألهو ، أى : هو أن ألهو ، فأن : مقدرة معنى ، وإن لم ينصب الفعل لفظاً . وقال الجوهرى : يقال افعل هذا آثر ذى أثير ، أى : أول كل شىء ، فأشار إلى أن آثر : نصب على الظرفية المجازية أو الحالية ، أى افعله حال كونه أول كل شىء يؤثر ، فهو أفعل تفضيل بمعنى المفعول ، ونص ابن الحاجب على جواز ذلك ووروده قليلا ، وأثره بقصر الهمزة ومدها : إذا قدمه على غيره ، وأثير : اسم مفعول بمعنى مأثور . أو حقيق بالتقدم ، فالمعنى : أول كل شىء صاحب شىء مأثور ، فيكون هو الأثير المقدم . أو التقدير : لهوى طول الليل هو المقدم عندى .

(٢) قال محمود : فان قلت : أينصب خوفا وطمعا مفعولا لها وليسا فعلى فاعل الفعل المعلل ، فما وجه ذلك ؟ قلت : المفعولون هنا فاعلون لأنهم راءون ، فتقديره : يجعلكم رائين البرق خوفا وطمعا . أو على حذف مضاف ، تقديره : إرادة خوفكم وطمعكم» قال أحمد : الخوف والطمع من جملة مخلوقات الله تعالى وآثار قدرته ، وحينئذ يلزم اجتماع شرائط النصب فيهما وهى كونهما مصدرين ومقارنين فى الوجود ، والفاعل الخالق واحد ، فلا بد من التنبيه على تخريج =

إليه مقامه. ويجوز أن يكونا حالين: أى: خائفين وطامعين. وقرئ: ينزل بالتشديد[1].

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾

﴿ومن آياته﴾ قيام السموات والأرض واستمساكهما بغير عمد ﴿بأمره﴾ أى بقوله: كونا قائمتين. والمراد بإقامته لهما: إرادته لكونهما على صفة القيام دون الزوال. وقوله ﴿إذا دعاكم﴾ بمنزلة قوله: يريكم، فى إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى، كأنه قال: ومن آياته قيام السموات والأرض، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة: يا أهل القبور اخرجوا. والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث، كما يجيب الداعى المطاع مدعوه، كما قال القائل:

دَعَوْتُ كُلَيْبًا دَعْوَةً فَكَأَنَّمَا دَعَوْتُ بِهِ ٱبْنَ ٱلطَّوْدِ أَوْ هُوَ أَسْرَعُ[2]

يريد بابن الطود: الصدى. أو الحجر إذا تدهدى. وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بثم، بيانا لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور، قوموا: فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر، كما قال تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون). قولك: دعوته من مكان كذا، كما يجوز أن يكون مكانك يجوز أن يكون مكان صاحبك، تقول: دعوت زيداً من أعلى الجبل فنزل علىّ؛ ودعوته من أسفل

ـــ النصب على غير هذا الوجه، فنقول: معنى قول النحاة فى المفعول له لابد وأن يكون فعل الفاعل، أى: ولابد أن يكون الفاعل متصفا به، مثاله إذا قلت: جئتك إكراما لك، فقد وصفت نفسك بالاكرام فقلت فى المعنى: جئتك مكرما لك، والله تعالى ـ وإن خلق الخوف والطمع لعباده ـ إلا أنه مقدس عن الاتصاف بهما، فمن ثم احتيج إلى تأويل النصب على المذهبين جميعاً. والله أعلم.

(١) قوله «وقرئ ينزل بالتشديد» يفيد أن المشهور بالتخفيف. (ع)

(٢) يقول: دعوت كليبا. ويروى: خليداً. دعوة واحدة فأجابنى بسرعة كأنى دعوت به ابن الطود: وهو الجبل العظيم، وابنه الصدى: الذى يحاكى صوت الصائح عقب صياحه. أو: الحجر إذا هوى منه متدهدها متدحرجا إلى أسفل. وسمى ابنه على سبيل الاستعارة التصريحية، لأنه ناشئ منه وملازم له. ثم إن فيه تجريدا حيث انتزع من كليب أمراً آخر يشبه ابن الطود فى السرعة، والباء للملابسة، أى كأنى دعوت ابن الطود ملابسا له. ويحتمل أنها للبدل، أى: دعوت بدله ابن الطود. أو بمعنى من، أى: دعوت منه ابن الطود. وقوله: أو هو، أى: كليب أسرع من ابن الطود فى الاجابة.

الوادى فطلع إلىّ . فإن قلت : بم تعلق ﴿من الأرض﴾ أبالفعل أم بالمصدر ؟ قلت : هيهات ، إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل . فإن قلت : ما الفرق بين إذا وإذا ؟ قلت : الأولى للشرط ، والثانية للمفاجأة ، وهى تنوب مناب الفاء فى جواب الشرط . وقرئ : تخرجون ، بضم التاء وفتحها ﴿قانتون﴾ منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه .

وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

﴿وهو أهون عليه﴾ فيما يجب عندكم وينقاس على أصولكم ويقتضيه معقولكم ؛ لأنّ من أعاد منكم صنعة شىء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها ، وتعتذرون للصانع إذا خطئ فى بعض ما ينشئه بقولكم : أوّل الغزو أخرق ، وتسمون الماهر فى صناعته معاودا ، تعنون أنه عاودها كرّة بعد أخرى ؛ حتى مرن عليها وهانت عليه . فإن قلت : لم ذكر الضمير فى قوله (وهو أهون عليه) والمراد به الإعادة ؟ قلت : معناه : وأن يعيده أهون عليه . فإن قلت : لم أخرت الصلة فى قوله (وهو أهون عليه) وقدّمت فى قوله (هو علىّ هين) [1] ؟ قلت : هناك قصد الاختصاص وهو محزه ، فقيل : هو علىّ هين ، وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هِمٍّ [2] وعاقر ؛ وأما ههنا فلا معنى للاختصاص ، كيف والأمر مبنى على ما يعقلون من أنّ الإعادة أسهل من الابتداء ؛ فلو قدمت الصلة لتغير المعنى . فإن قلت : ما بال الإعادة استعظمت فى قوله (ثم إذا دعاكم) حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض بأمره [3] ، ثم هوّنت بعد ذلك ؟ قلت :

(١) قال محمود : «إن قلت : لم أخرت الصلة ههنا وقد قدمت فى قوله تعالى (هو على هين) ؟ قلت : لأن المقصود مما نحن فيه خلاف المقصد هناك ، فانه اختصاص الله تعالى بالقدرة على إيلاد الهم والعاقر ، وأما المقصد هنا فلا معنى للاختصاص فيه ، كيف والأمر مبنى على ما يعتقدونه فى الشاهد من أن الاعادة أسهل من الابتداء ، فالاختصاص يغير المعنى» قال أحمد : كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر لا بالحبر ، وإنما يلق الاختصاص من تقديم ماحقه أن يؤخر ، وقد علمت مذهبه فى مثل ذلك .

(٢) قوله «أن يولد بين همّ وعاقر» فى الصحاح «الهم» بالكسر . الشيخ الفانى . (ع)

(٣) قال محمود : «إن قلت : ما بال الاعادة استعظمت فى قوله (ثم إذا دعاكم) حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض ؟ قلت : الاعادة فى نفسها عظيمة ، ولكنها هونت بالنسبة إلى الانشاء» قال أحمد : إنما يلق فى السؤال تعظيم الاعادة من عطفها بثم ، إيذاناً بتغاير مرتبتها وعلو شأنها . وقوله فى الجواب : إنها هونت بالنسبة إلى الانشاء لا يخلص ، فان الاعادة ذكرت ههنا عقيب قيام السموات والأرض بأمره . وقيامهما ابتداء وإنشاء أعظم من الاعادة ، فيلزم تعظيم الاعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه عن الانشاء . ويعود الاشكال . والمخلص - والله أعلم - جعل ثم على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب ، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا ، ومرتبة المعطوف هى الدنيا . وذلك نادر فى مجيئها لتراخي المراتب ، فان المعطوف حينئذ فى أكثر المواضع أرفع درجة من المعطوف عليه ، والله أعلم .

الإعادة في نفسها عظيمة ، ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء . وقيل الضمير في عليه للخلق . ومعناه: أنّ البعث أهون على الخلق من الإنشاء ، لأن تكوينه في حدّ الاستحكام والتمام أهون عليه وأقل تعبا وكبدا ، من أن يتنقل في أحوال ويندرج فيها إلى أن يبلغ ذلك الحدّ . وقيل: الأهون بمعنى الهين . ووجه آخر : وهو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله ، والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بدّ له من فعله ، لأنها لجزاء الأعمال وجزاؤها واجب [1] ، والأفعال : إما محال والمحال ممتنع أصلا [2] خارج عن المقدور ، وأما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح ، وهو رديف المحال ؛ لأنّ الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة . وإما تفضل والتفضل حالة بين بين ، للفاعل أن يفعله وأن لا يفعله . وإما واجب لا بدّ من فعله ، ولا سبيل إلى الإخلال به ، فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول . فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب ، كانت أبعد الأفعال من الامتناع . وإذا كانت أبعدها من الامتناع ، كانت أدخلها في التأتي والتسهل ، فكانت أهون منها .[3] وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء ﴿وله المثل الأعلى﴾ أي الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله قد عرف به . ووصف في السموات والأرض على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل ، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي القاهر لكل مقدور ، الحكيم الذي يجرى كل فعل على قضايا حكمته وعلمه . وعن مجاهد : المثل الأعلى : قول لا إله إلا الله ، ومعناه : وله الوصف الأعلى الذي هو الوصف بالوحدانية . ويعضده قوله تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) وقال الزجاج : وله المثل الأعلى في السموات والأرض ، أي : قوله تعالى (وهو أهون عليه) قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب ويسهل . يريد : التفسير الأوّل .

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ

(١) قوله «وجزاؤها واجب ... الخ» هذا عند المعتزلة ، ولا يجب على الله شيء عند أهل السنة كما تقدم في محله . (ع)

(٢) عاد كلامه : قال في تقرير معنى قوله وهو أهون عليه : الأفعال إما ممتنع عقلا لذاته ، وإما ممتنع لصارف يصرف الحكيم عن فعله . وإما تفضل يتخير الحكيم فيه بين أن يفعل وأن لا . وإما واجب على الحكيم أن يفعله فالإنشاء الأول من قبيل التفضل ، وأما الاعادة فواجبة على الله تعالى لأجل الجزاء ، فلما كانت واجبة كانت أبعد الأفعال عن الممتنع ، فلذلك وصفت بالتسهيل وكانت أهون من الانشاء» قال أحمد : لقد ضل وصد عن السبيل ، فلا نوافقه ولا نرافقه ، والحق : أن لا واجب على الله تعالى ؛ وكل ما ذكره في هذا الفصل نزغات قدرية ، على أنها أيضا غير مستقيمة على أصولهم المجتثة ، فان مقتضاها وجوب الانشاء في الحكمة ؛ إذ لولا مصلحة اقتضت الانشاء لما وقع ، وتلك المصلحة توجب متعلقها . فقد وضح أن المصنف لا إلى معالي السنة رقى ، ولا في حضيض الاعتزال بقى ، فلله العصمة .

(٣) قوله «فكانت أهون منها» أي من بقية الأفعال . (ع)

شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

فإن قلت : أى فرق بين الأولى والثانية والثالثة فى قوله تعالى (من أنفسكم) ، (مما ملكت أيمانكم) ، (من شركاء) ؟ قلت : الأولى للابتداء ، كأنه قال : أخذ مثلا وانتزعه من أقرب شيء منكم وهى أنفسكم ولم يبعد ، والثانية للتبعيض ، والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجارى مجرى النفي . ومعناه : هل ترضون لأنفسكم ـ وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد ـ أن يشاركم بعضهم ﴿فيما رزقناكم﴾ من الأموال وغيرها تكونون أنتم وهم فيه على السواء ، من غير تفصلة بين حر وعبد : تهابون أن تستبدوا بتصرف دونهم ، وأن تفتاتوا بتدبير عليهم كما يهاب بعضكم بعضا من الأحرار ، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم ، فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء ؟ ﴿كذلك﴾ أى مثل هذا التفصيل ﴿نفصل الآيات﴾ أى نبينها : لأن التمثيل مما يكشف المعانى ويوضحها : لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها . ألا ترى كيف صور الشرك بالصورة المشوهة ؟

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾

﴿الذين ظلموا﴾ أى أشركوا ، كقوله تعالى : إن الشرك لظلم عظيم ﴿بغير علم﴾ أى اتبعوا أهواءهم جاهلين ، لأن العالم إذا ركب هواه ربما ردعه علمه وكفه . وأما الجاهل فيهيم على وجهه كالبهيمة لا يكفه شيء ﴿من أضل الله﴾ من خذله [1] ولم يلطف به ، لعلمه أنه ممن لا لطف له ، فمن يقدر على هداية مثله . وقوله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

(١) قوله « من أضل الله : من خذله » تأويل الاضلال بذلك مبنى على أنه تعالى لا يخلق الشر ، وهو مذهب المعتزلة ، وذهب أهل السنة إلى أنه يخلق الشر كالخير ، فالآية على ظاهرها . (ع)

﴿فأقم وجهك للدين﴾ فقوّم وجهك له وعدّله ، غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا ، وهو تمثيل لإقباله على الدين ، واستقامته عليه ، وثباته ، واهتمامه بأسبابه ، فإنّ من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه ، وسدّد إليه نظره ، وقوّم له وجهه ، مقبلا به عليه . و ﴿حنيفا﴾ حال من المأمور . أو من الدين ﴿فطرت الله﴾ أي الزموا فطرة الله . أو عليكم فطرة الله . وإنما أضمرته على خطاب الجماعة لقوله (منيبين إليه) ومنيبين : حال من الضمير في : الزموا . وقوله (واتقوه وأقيموا . . . ولا تكونوا) معطوف على هذا المضمر . والفطرة : الخلقة . ألا ترى إلى قوله (لا تبديل لخلق الله) والمعنى : أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الاسلام ، غير نائين عنه ولا منكرين له ، لكونه مجاوبا للعقل ، مساوقا للنظر الصحيح ، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر ، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين [1] عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري [2] » وقوله عليه السلام : كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه وينصرانه » [3] ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي ما ينبغي أن تبدّل تلك الفطرة أو تغير . فإن قلت . لم وحد الخطاب أولا ، ثم جمع ؟ قلت : خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا ، وخطاب الرسول خطاب لأمته مع ما فيه من التعظيم للامام ، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص ﴿من الذين﴾ بدل من المشركين ﴿فارقوا دينهم﴾ تركوا دين الإسلام . وقرئ : فرّقوا دينهم بالتشديد ، أي : جعلوه أديانا مختلفة لاختلاف أهوائهم ﴿وكانوا شيعا﴾ فرقا ، كل واحدة تشايع إمامها الذي أضلها ﴿كل حزب﴾ منهم فرح بمذهبه مسرور ، يحسب باطله حقاً ـ ويجوز أن يكون (من الذين) منقطعاً مما قبله ، ومعناه : من المفارقين دينهم كل حزب فرحين بما لديهم ، ولكنه رفع فرحون على الوصف لكل ، كقوله :

* وَكُلُّ خَلِيلٍ غَيْرُ هَاضِمِ نَفْسِهِ * [4]

---

(١) قوله « فاجتالتهم الشياطين » أدارتهم . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه مسلم من حديث عياض بن حمار به وأتم منه .

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٤) وكل خليل غير هاضم نفسه فبالصد والاعراض عنه جدير

للشماخ . ويروى : بدل الشطر الثاني : بوصل خليل صارم أو مصادر . وغير هاضم ـ بالرفع ـ : صفة كل . أو بالجر : صفة خليل ، أي : من لم يخفض نفسه لصاحبه فهو حقيق بالصد والاعراض عنه لا بالمودة . وزادت الفاء ، لأن المبتدأ فيه معنى الشرط . والصارم : القاطع . والمصادر : المجانب ، أي : من لم يهضم نفسه لوصل خليله ، أدى به ذلك إلى القطيعة ، فان لم تكن فالى المجانبة ، فكأنه مقاطع ، أو مجانب بالفعل .

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)

الضر: الشدّة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك. والرحمة: الخلاص من الشدّة. واللام فى ﴿ليكفروا﴾ مجاز مثلها فى (ليكون لهم عدوّا). ﴿فتمتعوا﴾ نظير (اعملوا ماشئتم) ﴿فسوف تعلمون﴾ وبال تمتعكم. وقرأ ابن مسعود: وليتمتعوا.

أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥)

السلطان: الحجة، وتكلمه. مجاز، كما تقول: كتابه ناطق بكذا، وهذا مما نطق به القرآن. ومعناه: الدلالة والشهادة، كأنه قال: فهو يشهد بشركهم وبصحته. وما فى ﴿بما كانوا﴾ مصدرية أى: بكونهم بالله يشركون. ويجوز أن تكون موصولة ويرجع الضمير إليها. ومعناه: فهو يتكلم بالأمر الذى يسببه يشركون. ويحتمل أن يكون المعنى: أم أنزلنا عليهم ذا سلطان، أى: ملكا معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذى بسببه يشركون.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)

﴿وإذا أذقنا الناس رحمة﴾ أى نعمة من مطر أو سعة أو صحة ﴿فرحوا بها وإن تصبهم سيئة﴾ أى بلاء من جدب أو ضيق أو مرض ـ والسبب فيها شؤم معاصيهم ـ قنطوا من الرحمة.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)

ثم أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض، فما لهم يقنطون من رحمته، وما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصى التى عوقبوا بالشدّة من أجلها، حتى يعيد إليهم رحمته.

فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨)

حق ذى القربى: صلة الرحم. وحق المسكين وابن السبيل: نصيبهما من الصدقة المسماة لهما.

وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية فى وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب . وعند الشافعى رحمه الله : لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالدين : قاس سائر القرابات على ابن العم ، لأنه لاولاد بينهم . فإن قلت : كيف تعلق قوله ﴿فآت ذا القربى﴾ بما قبله حتى جيء بالفاء ؟ قلت : لما ذكر أنّ السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم ، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك ﴿يريدون وجه الله﴾ يحتمل أن يراد بوجهه ذاته أو جهته وجانبه ، أى : يقصدون بمعروفهم إياه خالصا وحقه ، كقوله تعالى (إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) أو يقصدون جهة التقرّب إلى الله لا جهة أخرى ، والمعنيان متقاربان ، ولكن الطريقة مختلفة .

وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِى أَمْوَٰلِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

هذه الآية فى معنى قوله تعالى (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) سواء بسواء ، يريد : وما أعطيتم أكلة الربا ﴿من ربا ليربو فى﴾ أموالهم : ليزيد ويزكو فى أموالهم ، فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه ﴿وما آتيتم من زكاة﴾ أى صدقة تبتغون به وجهه خالصا ، لاتطلبون به مكافأة ولا رياء وسمعة ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ ذوو الإضعاف من الحسنات . ونظير المضعف : المقوى والموسر ، لذى القوّة واليسار : وقرئ بفتح العين . وقيل : نزلت فى ثقيف ، وكانوا يربون . وقيل : المراد أن يهب الرجل للرجل أو يهدى له ، ليعوّضه أكثر مما وهب أو أهدى ، فليست تلك الزيادة بحرام ، ولكن المعوّض لايثاب على تلك الزيادة . وقالوا : الربا ربوان : فالحرام : كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه : أو يجرّ منفعة . والذى ليس بحرام : أن يستدعى بهبته أو بهديته أكثر منها . وفى الحديث «المستغزر يثاب من هبته»[1] وقرئ : وما أتيتم من ربا ، بمعنى : وما غشيتموه أو رهقتموه من إعطاء ربا . وقرئ : لتربوا ، أى : لتزيدوا فى أموالهم ، كقوله تعالى (ويربى الصدقات) أى يزيدها . وقوله تعالى (فأولئك هم المضعفون) التفات حسن ، كأنه قال للملائكته وخواص خلقه : فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم : هم المضعفون . فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون . والمعنى : المضعفون به ، لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى ما ، ووجه آخر : وهو أن يكون تقديره : فمؤتوه أولئك هم المضعفون . والحذف لما فى الكلام من الدليل عليه ، وهذا أسهل مأخذا ، والأول أملأ بالفائدة .

اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم

(١) أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق من وجهين عن ابن سيرين عن شريح بهذا موقوفا .

مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)

﴿الله﴾ مبتدأ وخبره ﴿الذى خلقكم﴾ أى الله هو فاعل هذه الأفعال الخاصة التى لا يقدر على شىء منها أحد غيره، ثم قال ﴿هل من شركائكم﴾ الذين اتخذتموهم أندادا له من الأصنام وغيرها ﴿من يفعل﴾ شيئا قط من تلك الأفعال: حتى يصح ما ذهبتم إليه، ثم استبعد حاله من حال شركائهم. ويجوز أن يكون (الذى خلقكم) صفة للمبتدإ، والخبر: هل من شركائكم، وقوله ﴿من ذلكم﴾ هو الذى ربط الجملة بالمبتدإ، لان معناه: من أفعاله. ومن الأولى والثانية والثالثة: كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد، لتعجيز شركائهم، وتجهيل عبدتهم.

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)

﴿الفساد فى البر والبحر﴾ نحو: الجدب، والقحط، وقلة الريع فى الزراعات والربح فى التجارات، ووقوع الموتان فى الناس والدواب، وكثرة الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين[1] والغاصة، ومحق البركات من كل شىء، وقلة المنافع فى الجملة وكثرة المضار. وعن ابن عباس: أجدبت الأرض وانقطعت مادة البحر. وقالوا: إذا انقطع القطر عميت دواب البحر. وعن الحسن أن المراد بالبحر: مدن البحر وقراه التى على شاطئه. وعن عكرمة: العرب تسمى الأمصار البحار. وقرئ فى البر والبحور ﴿بما كسبت أيدى الناس﴾ بسبب معاصيهم وذنوبهم، كقوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وعن ابن عباس (ظهر الفساد فى البر) بقتل ابن آدم أخاه. وفى البحر بأن جلندى كان يأخذ كل سفينة غصبا: وعن قتادة: كان ذلك قبل البعث، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع راجعون عن الضلال والظلم. ويجوز أن يريد ظهور الشر والمعاصى بكسب الناس ذلك. فإن قلت: ما معنى قوله ﴿ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون﴾؟ قلت أما على التفسير الأول فظاهر، وهو أن الله قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة، لعلهم يرجعون عما هم عليه. وأما على الثانى فاللام مجاز، على معنى أن ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم إرادة الرجوع، فكأنهم إنما أفسدوا وتسببوا لفشو المعاصى فى الأرض لأجل ذلك. وقرئ: لنذيقهم، بالنون.

---

(١) قوله «وإخفاق الصيادين» فى الصحاح: أخفق الصائد، إذا رجع ولم يصطد. (ع)

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢)

ثم أكد تسبب المعاصي لغضب الله ونكاله: حيث أمرهم بأن يسيروا فى الأرض فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقهم سوء العاقبة لمعاصيهم، ودل بقوله ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ على أنّ الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم، وأنّ ما دونه من المعاصى يكون سبباً لذلك.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣)

القيم: البليغ الاستقامة، الذى لا يتأتى فيه عوج ﴿من الله﴾ إمّا أن يتعلق بيأتى، فيكون المعنى: من قبل أن يأتى من الله يوم لا يردّه أحد، كقوله تعالى (فلا يستطيعون ردّها) أو بمردّ، على معنى: لا يردّه هو بعد أن يجيء به، ولا ردّ له من جهته. والمردّ: مصدر بمعنى الردّ ﴿يصدّعون﴾ يتصدّعون: أى: يتفرّقون، كقوله تعالى: (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرّقون).

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)

﴿فعليه كفره﴾ كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضار، لأنّ من كان ضاره كفره، فقد أحاطت به كلّ مضرّة ﴿فلأنفسهم يمهدون﴾ أى يسوّون لأنفسهم ما يسوّيه لنفسه الذى يمهد فراشه ويوطئه، لئلا يصيبه فى مضجعه ما ينبيه عليه وينغص عليه مرقده: من نتوء أو قضض [1] أو بعض ما يؤذى الراقد. ويجوز أن يريد: فعلى أنفسهم يشفقون، من قولهم فى المشفق: أمّ فرشت فأنامت. وتقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على أنّ ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر لا يتعدّاه. ومنفعة الإيمان والعمل الصالح: ترجع إلى المؤمن لا تتجاوزه ﴿ليجزى﴾ متعلق بيمهدون تعليل له ﴿من فضله﴾ مما يتفضل عليهم بعد توفية الواجب من الثواب؛ وهذا يشبه الكناية، لأن الفضل تبع للثواب، فلا يكون إلا بعد حصول ما هو تبع له: أو أراد من عطائه وهو ثوابه؛ لأن الفضول والفواضل هى الأعطية عند العرب. وتكرير ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح. وقوله ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ تقرير بعده تقرير، على الطرد والعكس.

(١) قوله «من نتوء أو قضض» النتوء: الارتفاع. والقضض: صغار الحصى. أفاده الصحاح. (ع)

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

﴿الرياح﴾ هي الجنوب والشمال والصبا، وهي رياح الرحمة. وأما الدبور، فريح العذاب. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «اللهمّ اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحاً [(١)]». وقد عدد الأغراض في إرسالها، وأنه أرسلها للبشارة بالغيث ولإذاقة الرحمة، وهي نزول المطر وحصول الخصب الذي يتبعه، والروح الذي مع هبوب الريح وزكاء الأرض. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض [(٢)]» وإزالة العفونة من الهواء، وتذرية الحبوب، وغير ذلك ﴿ولتجرى الفلك﴾ في البحر عند هبوبها. وإنما زاد ﴿بأمره﴾ لأن الريح قد تهب ولا تكون مؤاتية [(٣)]، فلا بد من إرساء السفن والاحتيال لحبسها، وربما عصفت فأغرقتها ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ يريد تجارة البحر؛ ولتشكروا نعمة الله فيها. فإن قلت: بم يتعلق وليذيقكم؟ قلت: فيه وجهان: أن يكون معطوفا على مبشرات على المعنى، كأنه قيل: ليبشركم وليذيقكم. وأن يتعلق بمحذوف تقديره: وليذيقكم، وليكون كذا وكذا: أرسلناها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

اختصر الطريق إلى الغرض بأن أدرج تحت ذكر الانتصار والنصر ذكر الفريقين، وقد أخلى الكلام أولا عن ذكرهما. وقوله ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ تعظيم للمؤمنين، ورفع من شأنهم، وتأهيل لكرامة سنية، وإظهار لفضل سابقة ومزية، حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم، وقد يوقف على (حقا). ومعناه: وكان الانتقام منهم حقاً، ثم يبتدأ: (علينا نصر المؤمنين) وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم «ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة [(٤)]». ثم

---

(١) أخرجه الشافعي: أخبرني من لا أتهم عن العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا نحوه، ومن طريقه. أخرجه في المعرفة وفي الدعوات. وهذا المبهم: هو إبراهيم بن أبي يحيى وهو ضعيف. وله طريق أخرى عند أبي يعلى والطبراني وابن عدي من رواية حسين بن قيس عن عكرمة به وحسين ضعيف أيضاً

(٢) لم أجده.

(٣) قوله «ولا تكون مؤاتية» في الصحاح: آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة، إذا وافقته. والعامة تقول: واتيته. (ع)

(٤) أخرجه الترمذي وأحمد والطبراني من حديث أبي الدرداء وقال حسن. ورواه إسحاق والطبراني وأبو يعلى وابن عدي من طريق شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مرفوعا نحوه وإسناده ضعيف. واختلف فيه على شهر

تلا قوله تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين).

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩)

﴿فيبسطه﴾ متصلا تارة ﴿ويجعله كسفا﴾ أى قطعاً تارة ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ فى التارتين جميعاً. والمراد بالسماء. سمت السماء وشقها، كقوله تعالى (وفرعها فى السماء)، وبإصابة العباد: إصابة بلادهم وأراضيهم ﴿من قبله﴾ من باب التكرير والتوكيد، كقوله تعالى (فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها). ومعنى التوكيد فيه: الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد، فاستحكم بأسهم وتمادى إبلاسهم (١) فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك.

فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)

قرئ: أثر وآثار، على الوحدة والجمع. وقرأ أبو حيوة وغيره: كيف تحيي، أى: الرحمة ﴿إن ذلك﴾ يعنى إنّ ذلك القادر الذى يحيي الأرض بعد موتها، هو الذى يحيي الناس بعد موتهم ﴿وهو على كل شيء﴾ من المقدورات قادر، وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء.

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣)

﴿فرأوه﴾ فرأوا أثر رحمة الله. لأنّ رحمة الله هى الغيث، وأثرها: النبات. ومن قرأ بالجمع: رجع الضمير إلى معناه؛ لأنّ معنى آثار الرحمة النبات. واسم النبات يقع على القليل والكثير، لأنه مصدر سمى به ما ينبت. ولئن: هى اللام الموطئة للقسم، دخلت على حرف الشرط، و﴿لظلوا﴾ جواب القسم سدّ مسدّ الجوابين، أعنى: جواب القسم وجواب الشرط، ومعناه: ليظلنّ ذمّهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم القطر قنطوا من رحمته وضربوا أذقانهم

═ ابن حوشب: فقال المداج عنه هكذا، وقال ليث بن أبى سليم عنه عن أبى هريرة. أخرجه ابن مردويه.

(١) قوله «إبلاسهم» الابلاس: اليأس من الخير، والسكوت، والانكسار غما وحزناً. أفاده الصحاح. (ع)

على صدورهم مبلسين ، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر : استبشروا وابتهجوا ، فإذا أرسل ريحاً فضرب زروعهم بالصفار ، ضجوا وكفروا بنعمة الله . فهم فى جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة ، كان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله ، فقنطوا . وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها ، فلم يزيدوا على الفرح والاستبشار . وأن يصبروا على بلائه ، فكفروا . والريح التى اصفر لها النبات : يجوز أن تكون حروراً وحرجفا ، فكلتاهما مما يصوح[(١)] له النبات ويصبح هشيما . وقال : مصفراً : لأن تلك صفرة حادثة . وقيل : فرأو السحاب مصفراً ، لأنه إذا كان كذلك لم يمطر .

اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

قرئ : بفتح الضاد وضمها ، وهما لغتان . والضم أقوى فى القراءة ، لما روى ابن عمر رضى الله عنهما : قال : قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ضَعف ، فأقرأنى من ضُعف[(٢)] . وقوله ﴿خلقكم من ضعف﴾ كقوله (خلق الإنسان من عجل) يعنى أن أساس أمركم وما عليه جبلتكم وبنيتكم الضعف (وخلق الإنسان ضعيفا) أى ابتدأناكم فى أول الأمر ضعافا . وذلك حال الطفولة والنشء حتى بلغتم وقت الاحتلام والشبيبة . وتلك حال القوة إلى الاكتهال وبلوغ الأشد ، ثم رددتم إلى أصل حالكم وهو الضعف بالشيخوخة والهرم . وقيل : من ضعف من النطف ، كقوله تعالى (من ماء مهين) وهذا الترديد فى الأحوال المختلفة ، والتغيير من هيئة إلى هيئة وصفة إلى صفة : أظهر دليل وأعدل شاهد على الصانع العليم القادر .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

﴿الساعة﴾ القيامة ، سميت بذلك لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا . أو لأنها تقع بغتة وبديهة . كما تقول : «فى ساعة» لمن تستعجله . وجرت علما لها كالنجم للثريا ، والكوكب للزهرة . وأرادوا : لبثهم فى الدنيا ، أو فى القبور ، أو فيما بين فناء الدنيا إلى البعث . وفى الحديث :

(١) قوله «وحرجفا ... الخ» فى الصحاح «الحرجف» : الريح الباردة . وفيه أيضاً «صوحته الريح» : أيبسته . (ع)

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى وإسحاق والبزار من حديث عطية عن ابن عمر دون التفسير ورواه ابن مردويه من رواية أبى عمرو بن العلاء عن نافع عن ابن عمر لكن فى إسناده سلام بن سليمان .

«ما بين فناء الدنيا إلى وقت البعث أربعون» [1] قالوا : لا نعلم أهي أربعون سنة أم أربعون ألف سنة؟ وذلك وقت يفنون فيه وينقطع عذابهم ، وإنما يقدّرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له . أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ أى مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق فى الدنيا ، وهكذا كانوا يبنون أمرهم على خلاف الحق . أو مثل ذلك الإفك كانوا يؤفكون فى الاغترار بما تبين لهم الآن أنه ما كان إلا ساعة .

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

القائلون : هم الملائكة ، والأنبياء ، والمؤمنون ﴿فى كتاب الله﴾ فى اللوح . أو فى علم الله وقضائه . أو فيما كتبه ، أى : أوجبه بحكمته . ردّوا ما قالوه وحلفوا عليه ، وأطلعوهم على الحقيقة ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم ﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ أنه حق لتفريطكم فى طلب الحق واتباعه . فإن قلت : ما هذه الفاء؟ وما حقيقتها؟ قلت : هى التى فى قوله :

* فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَا * [2]

وحقيقتها : أنها جواب شرط يدل عليه الكلام . كأنه قال : إن صح ما قلتم من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان ، وآن لنا أن نخلص ، وكذلك إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث ، أى فقد تبين بطلان قولكم . وقرأ الحسن يوم البعث ، بالتحريك ﴿لا ينفع﴾ قرئ بالياء والتاء . ﴿يستعتبون﴾ من قولك : استعتبنى فلان فأعتبته . أى : استرضانى فأرضيته . وذلك إذا كنت جانيا عليه . وحقيقة أعتبته : أزلت عتبه . ألا ترى إلى قوله :

غَضِبَتْ تَمِيمٌ أَنْ تُقَتَّلَ عَامِرٌ يَوْمَ النِّسَارِ فَأُعْتِبُوا بِالصَّيْلَمِ [3]

---

(1) لم أجده هكذا . وفى الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعا «ما بين النفختين ، أربعون قالوا : يا أبا هريرة أربعون سنة؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهراً؟ قال : أبيت قالوا : أربعون يوما؟ قال : أبيت» .

(2) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٢٧١ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(3) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٠٥ فراجعه إن شئت اه مصححه .

كيف جعلهم غضابا، ثم قال: فأعتبوا، أى: أزيل غضبهم. والغضب فى معنى العتب. والمعنى: لايقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة، ومثله قوله تعالى (لايخرجون منها)، (ولاهم يستعتبون). فإن قلت: كيف جعلوا غير مستعتبين فى بعض الآيات، وغير معتبين فى بعضها، وهو قوله (وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين؟ قلت: أما كونهم غير مستعتبين: فهذا معناه. وأما كونهم غير معتبين، فمعناه: أنهم غير راضين بما هم فيه، فشبهت حالهم بحال قوم جنى عليهم، فهم عاتبون على الجانى غير راضين عنه، فإن يستعتبوا الله: أى يسألوه إزالة ماهم فيه، فما هم من المجابين إلى إزالته.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

﴿ولقد﴾ وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل فى غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة، وقصتهم، ومايقولون ومايقال لهم، ومالاينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، ولكنهم ـ لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة ـ إذا جئتهم بآية من آيات القرآن، قالوا: جئتنا بزور وباطل، ثم قال: مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الجهلة. ومعنى طبع الله: منع الألطاف [1] التى ينشرح لها الصدور حتى تقبل الحق، وإنما يمنعها من علم أنها لاتجدى عليه ولاتغنى عنه، كما يمنع الواعظ الموعظة من يتبين له أنّ الموعظة تلغو ولاتنجع فيه، فوقع ذلك كناية عن قسوة قلوبهم وركوب الصدإ والرين إياها. فكأنه قال: كذلك تقسو وتصدأ قلوب الجهلة، حتى يسموا المحقين مبطلين، وهم أعرق خلق الله [2] فى تلك الصفة ﴿فاصبر﴾ على عداوتهم ﴿إن وعد الله﴾ بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله ﴿حق﴾ لابدّ من إنجازه والوفاء به، ولايحملنك على الخفة والقلق جزعا مما يقولون ويفعلون فإنهم قوم شاكون ضالون لايستبدع منهم ذلك. وقرئ بتخفيف النون. وقرأ ابن أبى إسحق

(١) قوله «ومعنى طبع الله منع الألطاف» أوله بذلك بناء على أنه تعالى لايخلق الشر وهو مذهب المعتزلة. وذهب أهل السنة إلى أنه يخلقه كالخير، فالآية على ظاهرها. (ع)

(٢) قوله «وهم أعرق خلق الله» فى الصحاح: أعرق الرجل، أى: صار عريقاً، وهو الذى له عرق فى الكرم. (ع)

ويعقوب : ولا يستحقنك ، أى : لا يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض وأدرك ماضيع فى يومه وليلته »[1] .

سورة لقمان

مكية [إلا الآيات ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ فمدنية]

وآياتها ٣٤ وقيل ٣٣ [نزلت بعد الصافات]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾
أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

﴿الكتاب الحكيم﴾ ذى الحكمة . أو وصف بصفة الله تعالى على الإسناد المجازى . ويجوز أن يكون الأصل : الحكيم قائله ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، فبانقلابه مرفوعا بعد الجر استكن فى الصفة المشبهة ﴿هدى ورحمة﴾ بالنصب على الحال عن الآيات ، والعامل فيها : مافى تلك من معنى الإشارة . وبالرفع على أنه خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدإ محذوف ﴿للمحسنين﴾ للذين يعملون الحسنات وهى التى ذكرها : من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإيقان بالآخرة ونظيره قول أوس :

الأَلْمَعِيُّ الَّذِى يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَأَنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا[2]

---

(١) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

(٢) أيتها النفس اجملى جزعا   إن الذى تحذرين قد وقعا
إن الذى جمع السماحة والنـجدة والبر والتقى جمعا
الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

حكى عن الأصمعى : أنه سئل عن الألمعى فأنشده ولم يزد . أو للذين يعملون جميع ما يحسن من الأعمال ، ثم خص منهم القائمين بهذه الثلاث بفضل اعتداد بها .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

اللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعنى و﴿لهو الحديث﴾ نحو السمر بالأساطير والأحاديث التى لا أصل لها ، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام ، وما لا ينبغى من كان وكان ، ونحو الغناء وتعلم الموسيقار [1]، وما أشبه ذلك . وقيل: نزلت فى النضر بن الحرث ، وكان يتجر إلى فارس ، فيشترى كتب الأعاجم فيحدث بها قريشا ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة ، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن . وقيل : كان يشترى المغنيات ، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه . وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهن ولا أثمانهن [2]» وعنه صلى الله عليه وسلم «ما من رجل

= أودى فلا تنفع الاشاحة من أمر لمن يحاول البدعا

لأوس بن حجر ، يرثى فضالة بن كلدة . يقول : يا نفس احتملى جزعا عظيما ، إن الذى تخافين منه قد حصل ، وبينه بقوله : إن الذى جمع المكارم كلها أودى ، أى : هلك . وجمع - بالضم - : توكيد للصفات قبله . والألمعى : نصب على الصفة للذى ، وفسره بأنه الذى يظن بك ، يعنى كل مخاطب ، أى : يظن الظن الحق ، كأنه قد رأى وسمع ما ظنه أو يظن الظن فيصيب ، كأنه قد رآه إن كان فعلا ، أو سمعه إن كان قولا . وفيه نوع من البديع يسمى التفسير ، وهو أن يؤتى بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفته بدون تفسيره ، ذكره السيوطى فى شرح عقود الجمان . والاشاحة : الشجاعة والجد فى القتال . وضمن «تنفع» معنى «تحفظ» فعداه بمن ، أى : فلا تحفظ الشجاعة من مكروه أحداً . وعداه باللام ، نظراً للفظه . والأقرب أن من واللام زائدتان لتوكيد الكلام ، أى : فلا تنفع الاشاحة شيئاً من النفع أحداً من الناس يحاول ويطلب بدائع الأمور وعظائمها ، يعنى : أن فضالة كان كذلك فمات . وفيه نوع تسل .

(١) قوله «وتعلم الموسيقار» يونانية . ومعناه : علم الغناء ، وبغير راء : ذات الغناء ، كذا قيل . (ع) .

(٢) أخرجه الطبرى وابن أبى حاتم وغيرهما من رواية عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة بهذا . وهو عند أحمد وابن أبى شيبة والترمذى وأبى يعلى من هذا الوجه وهو ضعيف ، ورواه الطبرانى من طريق يحى بن الحارث عن القاسم نحوه . وله طريق آخر عند ابن ماجه من رواية عبيد الله الأفريقى عن أبى أمامة ، قال : «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع المغنيات وعن شرائهن ، وعن كسبهن وعن أكل أثمانهن وفى الباب عن عمر . أخرجه الطبرانى وابن عدى من رواية يزيد بن عبد الملك النوفلى عن يزيد بن =

يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين: أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذى يسكت [١]» وقيل: الغناء منفدة للمال، مسخطة للرب، مفسدة للقلب. فإن قلت: مامعنى إضافة اللهو إلى الحديث؟ قلت: معناها التبيين، وهى الإضافة بمعنى من. وأن يضاف الشىء إلى ماهو منه، كقولك: صفة خز، وباب ساج [٢]. والمعنى: من يشترى اللهو من الحديث؛ لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره، فبين بالحديث. والمراد بالحديث. الحديث المنكر، كما جاء فى الحديث: «الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش [٣]» ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى «من» التبعيضية، كأنه قيل: ومن الناس من يشترى بعض الحديث الذى هو اللهو منه. وقوله (يشترى) إما من الشراء، على ماروى عن النضر: من شراء كتب الأعاجم أو من شراء القيان. وإمامن قوله (اشتروا الكفر بالإيمان) أى استبدلوه منه واختاروه عليه. وعن قتادة: اشتراؤه: استحبابه، يختار حديث الباطل على حديث الحق. وقرئ: ﴿ليضل﴾ بضم الياء وفتحها. و﴿سبيل الله﴾ دين الإسلام أو القرآن. فإن قلت: القراءة بالضم بينة، لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو: أن يصدّ الناس عن الدخول فى الإسلام واستماع القرآن ويضلهم عنه، فما معنى القراءة بالفتح؟ قلت: فيه معنيان. أحدهما: ليثبت على ضلاله الذى كان عليه، ولا يصدف عنه، ويزيد فيه ويمدّه، فإن المخذول كان شديد الشكيمة فى عداوة الدين وصدّ الناس عنه. والثانى: أن يوضع ليضل موضع ليضل، من قبل أن من أضل كان ضالا لامحالة، فدل بالرديف على المردوف. فإن قلت: مامعنى قوله ﴿بغير علم﴾؟ قلت: لما جعله مشتريا لهو الحديث بالقرآن قال: يشترى بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها، حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق. ونحوه قوله تعالى (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) أى: وما كانوا مهتدين للتجارة بصراء بها: وقرئ ﴿ويتخذها﴾ بالنصب والرفع عطفا على يشترى. أو ليضل، والضمير للسبيل؛ لأنها مؤنثة، كقوله تعالى (وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا).

= خصيف عن السائب بن يزيد عن عمر نحوه، ويزيد بن عبد المطلب ضعيف وعن على أخرجه أبو يعلى وابن عدى. وفيه الحارث بن نبهان وهو ضعيف، وعن عائشة أخرجه البيهقى وفيه ليث بن أبى سليم وهو ضعيف.

(١) أخرجه أبو يعلى وإسحاق والحارث من طريق أبى أمامة وهو عند الطبرانى من رواية يحيى بن الحارث عن القاسم فى الحديث الذى قبله.

(٢) قوله «كقولك صفة خز وباب ساج» لعله محرف. وأصله جبة خز، ثم رأيت فى الصحاح: صفة الدار والسرج: واحدة الصفف اهـ. فلعل صفة السرج تكون من خز. (ع)

(٣) تقدم فى براءة.

﴿ولى مستكبراً﴾ زاما(١) لايعبأ بها ولا يرفع بها رأساً : تشبه حاله فى ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع ﴿كأن فى أذنيه وقرا﴾ أى ثقلا ولا وقر فيهما ، وقرئ : بسكون الذال . فإن قلت : ما محل الجملتين المصدرتين بكأن ؟ قلت : الأولى حال من مستكبراً والثانية من لم يسمعها : ويجوز أن تكونا استئنافين ، والأصل فى كأن المخففة : كأنه ، والضمير : ضمير الشأن .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

﴿وعد الله حقاً﴾ مصدران مؤكدان ، الأول : مؤكد لنفسه والثانى مؤكد لغيره ؛ لأن قوله (لهم جنات النعيم) فى معنى : وعدهم الله جنات النعيم ، فأكد معنى الوعد بالوعد . وأما (حقا) فدال على معنى الثبات : أكد به معنى الوعد . ومؤكدهما جميعاً قوله (لهم جنات النعيم) ﴿وهو العزيز﴾ الذى لا يغلبه شىء ولا يعجزه ، يقدر على الشىء وضده ، فيعطى النعيم من شاء والبؤس من شاء ، وهو ﴿الحكيم﴾ لا يشاء إلا ما توجبه الحكمة والعدل ﴿ترونها﴾ الضمير فيه للسموات ، وهو استشهاد برؤيتهم لها ، غير معمودة على قوله (بغير عمد) كما تقول لصاحبك : أنا بلا سيف ولا رمح ترانى فإن قلت : ما محلها من الإعراب ؟ قلت : لا محل لها لأنها مستأنفة . أو هى فى محل الجر صفة للعمد أى : بغير عمد مرئية ، يعنى : أنه عمدها بعمد لا ترى ، وهى إمساكها بقدرته ﴿هذا﴾ إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته . والخلق بمعنى المخلوق . و ﴿الذين من دونه﴾ آلهتهم ، بكتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله وأنشأه . فأرونى ماذا خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة ، ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورط فى ضلال ليس بعده ضلال .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

هو لقمان بن باعورا : ابن أخت أيوب أو ابن خالته . وقيل : كان من أولاد آزر ، وعاش

(١) قوله «زاما لا يعبأ بها» فى الصحاح : زم بأنفه ، أى : تكبر ، فهو زام . (ع)

ألف سنة ، وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم ، وكان يفتى قبل مبعث داود عليه السلام ، فلما بعث قطع الفتوى ، فقيل له ؟ فقال : ألا أكتفى إذا كفيت ؟ وقيل : كان قاضياً فى بنى إسرائيل ، وأكثر الأقاويل أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لقمان لم يكن نبياً ولا ملكا . ولكن كان راعياً أسود ، فرزقه الله العتق ، ورضى قوله ووصيته ، فقص أمره فى القرآن لتمسكوا بوصيته . وقال عكرمة والشعبى : كان نبياً . وقيل : خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة [1] . وعن ابن المسيب : كان أسود من سودان مصر خياطاً ، وعن مجاهد : كان عبداً أسود غليظ الشفتين متشقق [2] القدمين . وقيل : كان نجاراً . وقيل : كان راعياً وقيل : كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة . وعنه أنه قال لرجل ينظر إليه : إن كنت ترانى غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت ترانى أسود فقلبى أبيض . وروى أن رجلا وقف عليه فى مجلسه فقال : ألست الذى ترعى معى فى مكان كذا ؟ قال : بلى . قال ما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث والصمت عما لا يعنينى . وروى أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع وقد لين الله له الحديد كالطين ، فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت ، فلما أتمها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت . فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله ، فقال له داود : بحق ما سميت حكيما . وروى أن مولاه أمره بذبح شاة وبأن يخرج منها أطيب مضغتين ، فأخرج اللسان والقلب ، ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج اللسان والقلب ، فسأله عن ذلك ؟ فقال : هما أطيب ما فيها إذا طابا ، وأخبث ما فيها إذا خبثا . وعن سعيد بن المسيب أنه قال لأسود : لا تحزن ، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر ، ولقمان . ﴿إن﴾ هى المفسرة ، لأنّ إيتاء الحكمة فى معنى القول ، وقد نبه الله سبحانه على أنّ الحكمة الأصلية والعلم الحقيق : هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له ، حيث فسر إيتاء الحكمة بالبعث على الشكر ﴿غنى﴾ غير محتاج إلى الشكر ﴿حميد﴾ حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

قيل : كان اسم ابنه «أنعم» وقال الكلبى : «أشكم» وقيل : كان ابنه وامرأته كافرين ، فما زال

(١) ذكر محمود فى ذلك اختلاف العلماء فى نبوته ، وذكر أثناء ذلك أنه خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة . قال أحمد : وفى هذا بعد بين ، وذلك أن الحكمة داخلة فى النبوة ، وقطرة من بحرها ، وأعلى درجات الحكماء تنحط عن أدنى درجات الأنبياء بما لا يقدر قدره . وليس من الحكمة اختيار الحكمة المجردة من النبوة ،

(٢) قوله «متشفق» فى الصحاح : «الشفق» : الردىء من الأشياء . يقال : عطاء مشفق ، أى : مقلل اهـ والظاهر أنه متشقق بقافين . (ع)

بهما حتى أسلما ﴿لظلم عظيم﴾ لأنّ التسوية بين من لا نعمة إلا هي منه ، ومن لا نعمة منه البتة ولا يتصوّر أن تكون منه ـ : ظلم لا يكتنه عظمه .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

أى ﴿حملته﴾ تهن ﴿وهنا على وهن﴾ كقولك رجع عودا على بدء ، بمعنى : يعود عوداً على بدء ، وهو فى موضع الحال . والمعنى : أنها تضعف ضعفاً فوق ضعف ، أى : يتزايد ضعفها ويتضاعف ؛ لأنّ الحمل كلما ازداد وعظم ، ازدادت ثقلا وضعفاً . وقرئ : وهنا على وهن ، بالتحريك عن أبى عمرو . يقال : وهن يوهن . ووهن يهن . وقرئ : وفصله ﴿أن اشكر﴾ تفسير لوصينا ﴿ماليس لك به علم﴾ أراد بنفى العلم به نفيه ، أى : لاتشرك بى ماليس بشىء[1] ، يريد الأصنام ، كقوله تعالى (مايدعون من دونه من شىء) . ﴿معروفا﴾ صحابا ، أو مصاحبا معروفا حسنا بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة ، وما يقتضيه الكرم والمروءة ﴿واتبع سبيل من أناب إلىّ﴾ يريد : واتبع سبيل المؤمنين فى دينك ولا تتبع سبيلهما فيه ـ وإن كنت مأمورا بحسن مصاحبتهما فى الدنيا ـ ثم إلىّ مرجعك ومرجعهما ، فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما ، علم بذلك حكم الدنيا وما يجب على الإنسان فى صحبتهما ومعاشرتهما : من مراعاة حق الأبوة وتعظيمه ، ومالها من المواجب التى لا يسوغ الاخلال بها ، ثم بين حكمهما وحالهما فى الآخرة . وروى : أنها نزلت فى سعد بن أبى وقاص وأمّه . وفى القصة : أنها مكثت ثلاثا لا تطعم ولا تشرب حتى شجروا فاها[2] بعود . وروى أنه قال : لو كانت لها سبعون نفسا فخرجت ، لما ارتددت إلى الكفر . فإن قلت : هذا الكلام كيف وقع فى أثناء وصية لقمان ؟ قلت : هو كلام اعترض به على سبيل الاستطراد ، تأكيداً لما فى وصية لقمان من النهى عن الشرك . فإن قلت : فقوله (حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين) كيف اعترض به بين المفسر والمفسر ؟ قلت : لما

(١) قال محمود : «معناه : ماليس بشىء ، وعبر بنفى العلم عن نفى المعلوم» قال أحمد : هو من باب قوله : «على لاحب لايهتدى بمناره» أى : ماليس باله فيكون لك علم بالالهية . وليس كما ذكره فى قول فرعون (ما علمت لكم من إله غيرى) وقد مر معناه فيما تقدم .

(٢) قوله «حتى شجروا فاها بعود» فى الصحاح : شجره بالرمح ، أى : طعنه . (ع)

وصى بالوالدين : ذكر ماتكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب فى حمله وفصاله هذه المدّة المتطاولة ، إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصاً [١] . وتذكيراً بحقها العظيم مفرداً ، ومن ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن قال له : من أبر ؟ «أمك ثم أمك ثم أمك، ثم قال بعد ذلك ثم أباك [٢]» . وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول فى حدائه بنفسه :

أَحْمِـلُ أُمِّي وَهِيَ الْحَمَّالَهْ * تُرْضِعُنِي الدِّرَّةَ وَالْعُلَالَهْ * وَلَا يُجَازَى وَالِدٌ فَعَالَهْ [٣]

فإن قلت : مامعنى توقيت الفصال بالعامين ؟ قلت المعنى فى توقيته بهذه المدة أنها الغاية التى لاتتجاوز ، والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم : إن علمت أنه يقوى على الفطام فلها أن تفطمه . ويدل عليه قوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) وبه استشهد الشافعي رضى الله عنه على أن مدة الرضاع سنتان ، لاتثبت حرمة الرضاع بعد انقضائهما ، وهو مذهب أبى يوسف ومحمد . وأما عند أبى حنيفة رضى الله عنه . فمدة الرضاع ثلاثون شهراً . وعن أبى حنيفة : إن فطمته قبل العامين فاستغنى بالطعام ثم أرضعته، لم يكن رضاعا . وإن أكل أكلا ضعيفاً لم يستغن به عن الرضاع ثم أرضعته ، فهو رضاع محرم .

يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَـٰوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

قرئ (مثقال حبة) بالنصب والرفع ، فمن نصب كان الضمير للهنة [٤] من الإساءة أو الإحسان،

(١) قال محمود : «فيه تخصيص حق الأم ، وهو مطابق لبدايته ، فذكرها فى وجوب البر فى الحديث المأثور» قال أحمد : وهذا من قبيل ما يقوله الفقهاء : إن اللام من عمل الولد قبل الحلم جله ، وهو مما يفيد تأكيد حقها ، والله أعلم .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال «قلت يارسول الله من أبر ؟ الحديث» وله شاهد فى الصحيحين من حديث أبى زرعة عن أبى هريرة قال «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من أحق بصحابتى ؟ ـ الحديث»

(٣) لعربى يحمل أمه إلى الحج ، وهى الحالة : جملة حالية ، أى : كثيرة الحمل بحسب ما كان . أو من عادتها ذلك ، وترضع : حال متداخلة ، والدرة ـ بالضم : كثرة اللبن وسيلانه ، والمراد بها : اللبن الكثير . والعلالة ـ بالضم ـ : بقية اللبن ، والحلبة بين الحلبتين ، وتطلق على بقية جرى الفرس . والعلل : الشرب الثانى ، والشرب الأول النهل : وروى ترضعنى الدرة . والفعال ـ بالفتح ـ : فعل الخير وأراد بالوالد : الأم ، أو ما يشمل الأب والأم .

(٤) قوله «للهنة من الاساءة» فى الصحاح «هن» : على وزن أخ : كلمة كناية . ومعناه : شىء ، ومؤنثه : هنة . والقماءة : الصغر والحقارة . كذا فى الصحاح (ع)

أى : إن كانت مثلا فى الصغر والقماءة كحبة الخردل ، فكانت مع صغرها فى أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة [١] أو حيث كانت فى العالم العلوى أو السفلى ﴿يأت بها الله﴾ يوم القيامة فيحاسب بها عاملها ﴿إن الله لطيف﴾ يتوصل علمه إلى كل خفى ﴿خبير﴾ عالم بكنهه. وعن قتادة : لطيف باستخراجها ، خبير بمستقرها . ومن قرأ بالرفع : كان ضمير القصة ، وإنما أنث المثقال لإضافته إلى الحبة ، كما قال :

* كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ * [٢]

وروى أنّ ابن لقمان قال له : أرأيت الحبة تكون فى مقل البحر ـ أى : فى مغاصه ـ يعلمها الله ؟ فقال : إنّ الله يعلم أصغر الأشياء فى أخفى الأمكنة ؛ لأنّ الحبة فى الصخرة أخفى منها فى الماء . وقيل : الصخرة هى التى تحت الأرض ، وهى السجين يكتب فيها أعمال الكفار . وقرئ : فتكن ، بكسر الكاف . من وكن الطائر يكن : إذا استقر فى وكنته ، وهى مقره ليلا .

يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾

﴿واصبر على ما أصابك﴾ يجوز أن يكون عاما فى كل ما يصيبه من المحن ، وأن يكون خاصا بما يصيبه فيما أمر به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : من أذى من يبعثهم على الخير وينكر عليهم الشر ﴿إنّ ذلك﴾ مما عزمه الله من الأمور ، أى : قطعه قطع إيجاب وإلزام . ومنه الحديث «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل [٣]» أى لم يقطعه بالنية : ألا ترى إلى قوله عليه السلام «لمن لم يبيت الصيام» [٤] ومنه «إنّ الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه» [٥]

(١) قال محمود : «هذا من البديع الذى يسمى التتميم» قال أحمد : يعنى أنه تم خلفاءها فى نفسها بخفاء مكانها من الصخرة ، وهو من وادى قولها كأنه علم فى رأسه نار .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٩٥ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٣) تقدم فى البقرة .

(٤) تقدم أيضاً .

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة وابن عدى من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة «أن رجلا قال يارسول الله ، أقصر الصلاة فى سفرى ؟ قال : نعم ، إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بفريضته» وفيه عمر بن عبدالله بن أبى خثعم اليمامى وهو منكر الحديث : قاله ابن عدى ، وأخرجه أيضا من طريق سعد بن سعيد بن أبى سعيد ، حدثنى أخى عبد الله عن أبيه . عن أبى هريرة مرفوعا نحوه ، ورواه ابن حبان وأحمد والبزار ، وأبو يعلى من رواية حرب ابن قيس عن نافع عن ابن عمر بلفظ «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه» وفى الباب عن ابن عباس . أخرجه ابن حبان والطبرانى وأبو نعيم فى الحلية من رواية هشام بن حسان عن عكرمة عنه بلفظ ابن عمر =

وقولهم : عزمة من عزمات ربنا . ومنه : عزمات الملوك . وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده : عزمت عليك إلا فعلت كذا ، إذا قال ذلك لم يكن للمعزوم عليه بد من فعله ولا مندوحة فى تركه . وحقيقته : أنه من تسمية المفعول بالمصدر ، وأصله من معزومات الأمور ، أى : مقطوعاتها ومفروضاتها . ويجوز أن يكون مصدرا فى معنى الفاعل . أصله : من عازمات الأمور ، من قوله تعالى (فإذا عزم الأمر) كقولك : جد الأمر ، وصدق القتال . وناهيك بهذه الآية مؤذنة بقدم هذه الطاعات ، وأنها كانت مأمورا بها فى سائر الأمم ، وأن الصلاة لم تزل عظيمة الشأن ، سابقة القدم على ما سواها ، موصى بها فى الأديان كلها .

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

تصاعر ، وتصعر : بالتشديد والتخفيف . يقال : أصعر خده ، وصعره ، وصاعره : كقولك أعلاه وعلاه وعالاه : بمعنى . والصعر والصيد : داء يصيب البعير يلوى منه عنقه . والمعنى : أقبل على الناس بوجهك تواضعا ، ولا تولهم شق وجهك وصفحته ، كما يفعل المتكبرون . أراد : ﴿ولا تمش﴾ تمرح ﴿مرحا﴾ أو أوقع المصدر موقع الحال بمعنى مرحا . ويجوز أن يريد : ولا تمش لأجل المرح والأشر ، أى لا يكن غرضك فى المشى البطالة والأشر كما يمشى كثير من الناس لذلك ، لا لكفاية مهم دينى أو دنيوى . ونحوه قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس) . والمختال : مقابل للماشى مرحا . وكذلك الفخور للمصعر خده كبرا ﴿واقصد فى مشيك﴾ واعدل فيه حتى يكون مشيا بين مشيين : لا تدب دبيب المتماوتين ، ولا تثب وثيب الشطار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن»[1] وأما قول

= وعن ابن مسعود أخرجه الطبرانى والعقيلى وأبو نعيم من رواية معمر بن عبد الله الأنصارى عن شعبة عن الحكم عن إبراهيم عن علقمة عنه تفرد برفعه معمر ، ووقفه غندر وروح بن عبادة وغيرهما عن شعبة . أخرجه ابن أبى شيبة وغيره . وعن عائشة : أخرجه ابن عدى من رواية الحكم بن عبد الله الأيلى عن القاسم عن عائشة ومن رواية عمر بن عبيد البصرى عن هشام عن أبيه عنها والحكم وعمر ضعيفان . وأخرجه الطبرانى فى الأوسط من طريق إسماعيل بن عيسى العطار ، حدثنا عمر بن عبد الجبار ، حدثنا عبد الله بن زيد بن آدم عن أبى الدرداء وأبى أمامة وواثلة وأنس به وقال : لايروى إلا بهذا الاسناد تفرد به إسماعيل . قلت : والاسناد مجهول . قوله «وقولهم عزمة من عزمات ربنا» هذا طرف من حديث أخرجه أبو داود والنسائى وأحمد والحاكم والبيهقى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، فى أثناء حديثه قال فيه «ومن منعها يعنى الزكاة فانا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا ليس لآل محمد منها شىء» وإسناده حسن .

(١) جاء من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وابن عمر ، وأخرجه ابن عدى من رواية عمار بن مطرد وهو =

عائشة فى عمر رضى الله عنهما ، كان إذا مشى أسرع »[١] فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت. وقرئ: وأقصد، بقطع الهمزة، أى: سدّد فى مشيك من أقصد الرامى إذا سدّد سهمه نحو الرمية ﴿واغضض من صوتك﴾ وانقص منه واقصر ؛ من قولك : فلان يغض من فلان إذا اقصر به ووضع منه ﴿أنكر الأصوات﴾ أوحشها ، من قولك : شىء نكر ، إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت . والحمار مثل فى الذم البليغ والشتيمة ، وكذلك نهاقه . ومن استفحاشهم لذكره مجردا وتفاديهم من اسمه : أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به ، فيقولون : الطويل الأذنين ، كما يكنى عن الأشياء المستقذرة : وقد عدّ فى مساوى الآداب : أن يجرى ذكر الحمار فى مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وإن بلغت منه الرجلة[٢] ، فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة ـ وإن جعلوا حميرا وصوتهم نهاقا ـ ومبالغة شديدة فى الذم والتهجين وإفراط فى التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه . وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان . فإن قلت : لم وحد صوت الحمير ولم يجمع ؟ قلت : ليس المراد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع ، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت ، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس ، فوجب توحيده .

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَٰدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾

﴿مافى السموات﴾ الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك ﴿ومافى الأرض﴾ البحار والأنهار والمعادن والدواب ومالا يحصى ﴿وأسبغ﴾ وقرئ بالسين والصاد ، وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف ، تقول فى سلخ ، صلخ ؛ وفى سقر : صقر ، وفى سالغ : صالغ[٣]

ــــ متروك ، وقد تابعه الوليد بن سلمة وهو أوهى منه ، لكنه قال : عن ابن أبى ذئب عن المغيرة عن أبى سعيد والوليد بن سلمة . وفيه إسناد آخر أخرجه ابن عدى من روايته عن عمرو بن صهبان عن نافع عن ابن عمر ، وأخرجه أبو نعيم فى الحلية من طريق أبى معشر عن سعيد عن أبى هريرة وإسناده ضعيف أيضاً

(١) ذكره ابن الأثير فى النهاية ، قلت : لعله أخذه عن الفائق ، وفى الطبقات لابن سعد من رواية سليمان ابن أبى حثمة قال قالت الشفاء بنت عبد الله ، وهى أم سليمان : كان عمر إذا مشى ... فذكره .

(٢) قوله « منه الرجلة » أى : المشى برجله ، يعنى : وإن أتعبه المشى وعدم الركوب . وفى الصحاح «الرجل» بالتحريك : مصدر قولك : رجل ـ بالكسر ـ أى : بقى راجلا . (ع)

(٣) قوله «وفى سالغ صالغ» فى الصحاح : سلغت البقرة والشاة ، إذا أسقطت السن التى خلفت السديس ــــ

وقرئ : نعمه ، ونعمة ، ونعمته . فإن قلت : ما النعمة ؟ قلت : كل نفع قصد به الاحسان ، والله تعالى خلق العالم كله نعمة ؛ لأنه إما حيوان ، وإما غير حيوان . فما ليس بحيوان نعمة على الحيوان ، والحيوان نعمة من حيث أنّ إيجاده حياً نعمة عليه . لأنه لولا إيجاده حياً لما صح منه الانتفاع ، وكل ما أدى إلى الانتفاع وصححه فهو نعمة . فإن قلت : لم كان خلق العالم مقصوداً به الإحسان ؟ قلت: لأنه لا يخلقه إلا لغرض ، وإلا كان عبثاً ، والعبث لا يجوز عليه ولا يجوز أن يكون لغرض راجع إليه من نفع ، لأنه غنى غير محتاج إلى المنافع ، فلم يبق إلا أن يكون لغرض يرجع إلى الحيوان وهو نفعه . فإن قلت : فما معنى الظاهرة والباطنة ؟ قلت : الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة ، والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل ، أو لا يعلم أصلا ، فكم فى بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدى إلى العلم بها ، وقد أكثروا فى ذلك : فعن مجاهد : الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء ، والباطنة : الأمداد من الملائكة . وعن الحسن رضى الله عنه : الظاهرة : الإسلام . والباطنة الستر . وعن الضحاك : الظاهرة : حسن الصورة ، وامتداد القامة . وتسوية الأعضاء . والباطنة : المعرفة . وقيل : الظاهرة البصر ، والسمع ، واللسان ، وسائر الجوارح الظاهرة . والباطنة : القلب ، والعقل ، والفهم ، وما أشبه ذلك . ويروى فى دعاء موسى عليه السلام : إلهى ، دلنى على أخفى نعمتك على عبادك ؛ فقال : أخفى نعمتى عليهم النفس . ويروى : أن أيسر ما يعذب به أهل النار : الأخذ بالأنفاس [1] .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾

معناه ﴿ أ ﴾ يتبعونهم ﴿ولو كان الشيطان يدعوهم﴾ أى فى حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب .

وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾

قرأ على بن أبى طالب رضى الله عنه : ومن يسلّم بالتشديد ، يقال : أسلم أمرك وسلم أمرك إلى الله . فإن قلت : ماله عدّى بإلى ، وقد عدّى باللام فى قوله (بلى من أسلم وجهه لله) ؟ قلت : معناه مع اللام : أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله . أى خالصاً له . ومعناه ـ مع إلى ـ :

= والسلوغ فى ذوات الأظلاف : بمنزلة البزول فى ذوات الأخفاف . (ع)

(١) لم أجده .

أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه . والمراد : التوكل عليه والتفويض إليه ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ من باب التمثيل : مثلت حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق ، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾ أى هى صائرة إليه .

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

قرئ : يحزنك ، ويحزنك : من حزن ، وأحزن . والذى عليه الاستعمال المستفيض : أحزنه ويحزنه . والمعنى : لا يهمنك كفر من كفر وكيده للإسلام ، فإن الله عزّ وجلّ دافع كيده فى نحره ، ومنتقم منه ، ومعاقبه على عمله ﴿إنّ الله﴾ يعلم ما فى صدور عباده ، فيفعل بهم على حسبه ﴿نمتعهم﴾ زمانا ﴿قليلا﴾ بدنياهم ﴿ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ شبه إلزامهم التعذيب وإرهاقهم إياه باضطرار المضطر إلى الشىء الذى لا يقدر على الانفكاك [1] منه . والغلظ : مستعار من الأجرام الغليظة . والمراد . الشدّة والثقل على المعذب .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

﴿قل الحمد لله﴾ إلزام لهم على إقرارهم بأنّ الذى خلق السموات والأرض هو الله وحده ، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر . وأن لا يعبد معه غيره ، ثم قال ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أنّ ذلك يلزمهم ، وإذا نبهوا عليه لم ينتبهوا ﴿إنّ الله هو الغنى﴾ عن حمد الحامدين المستحق للحمد ، وإن لم يحمدوه .

---

(١) قال محمود : «شبه إلزامهم التعذيب باضطرار المضطر إلى الشىء الذى لا يقدر على الانفكاك منه» قال أحمد : وتفسير هذا الاضطرار فى الحديث فى أنهم لشدة ما يكابدون من النار يطلبون البرد ، فيرسل الله عليهم الزمهرير . فيكون عليهم كشدة اللهب ، فيتمنون عود اللهب اضطراراً ، فهو إخبار عن اضطرار . وبأذيال هذه البلاغة تعلق الكندى حيث يقول :

يرون الموت قداما وخلفا فيختارون والموت اضطرار

قرئ : والبحر ، بالنصب عطفاً على اسم إنّ ، وبالرفع عطفاً على محل إن ، ومعمولها على . ولو ثبت [١] كون الأشجار أقلاما ، وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر . أوعلى الابتداء والواو للحال ، على معنى . ولو أنّ الأشجار أقلام فى حال كون البحر ممدوداً . وفى قراءة ابن مسعود : وبحر يمده على التنكير ، ويجب أن يحمل هذا على الوجه الأول . وقرئ : يمده ، ويمدّه . وبالتاء والياء . فإن قلت : كان مقتضى الكلام أن يقال : ولو أنّ الشجر أقلام ، والبحر مداد . قلت : أغنى عن ذكر المداد قوله : يمدّه ، لأنه من قولك : مدّ الدواة وأمدّها ، جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة ، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مداداً ، فهى تصب فيه مدادها أبداً صباً لا ينقطع . والمعنى : ولو أنّ أشجار الأرض أقلام ، والبحر ممدود بسبعة أبحر . وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله ، لما نفدت كلماته ونفدت الأقلام والمداد ، كقوله تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى) . فإن قلت : زعمت أنّ قوله (والبحر يمدّه) حال فى أحد وجهى الرفع ، وليس فيه ضمير راجع إلى ذى الحال . قلت : هو كقوله :

* وَقَدِ اغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِى وُكُنَاتِهَا * [٢]

و : جئت والجيش مصطف ، وما أشبه ذلك من الأحوال التى حكمها حكم الظروف . ويجوز أن يكون المعنى : وبحرها ، والضمير للأرض . فإن قلت : لم قيل (من شجرة) على التوحيد دون اسم الجنس الذى هو شجر ؟ قلت : أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة ، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بريت أقلاما . فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التكثير لا التقليل . فهلا قيل : كلم الله ؟ قلت : معناه أنّ كلماته لا تفى بكتبتها البحار ، فكيف بكلمه ؟ وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنها نزلت جوابا لليهود لما قالوا «قد أوتينا التوراة وفيها كل الحكمة» وقيل : إن المشركين قالوا : إنّ هذا يعنون الوحى ـ كلام سينفد ، فأعلم الله أن كلامه لا ينفد . وهذه الآية عند بعضهم مدنية ، وأنها نزلت بعد الهجرة ، وقيل هى مكية ، وإنما أمر اليهود وفد قريش أن يقولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألست تتلو فيما أنزل عليك : أنا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شىء ﴿إنّ الله عزيز﴾ لا يعجزه شىء ﴿حكيم﴾ لا يخرج من علمه وحكمته شىء ، ومثله لا تنفد كلماته وحكمه .

---

(١) قوله «ومعمولها على : ولو ثبت» لعله : على معنى ولو ... الخ . (ع)

(٢) وقد اغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

لامرئ القيس من معلقته . وقد : للتكثير . والوكنات : جمع وكنة بضمتين . وبتثليث أوله وسكون ثانيه : موضع الطير الذى يبيت فيه ، والباء للملابسة ، والمنجرد : دقيق الشعر قصيره . أو سريع الجرى . وشبه الفرس بالقيد تشبيها بليغا : أى : لا تنفك منه الأوابد : وهى الوحوش ، ولا تفوته هيكل : عظيم الجسم .

مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)

﴿إلا كنفس واحدة﴾ إلا كخلقها وبعثها ، أى : سواء فى قدرته القليل والكثير ، والواحد والجمع ، لا يتفاوت ، وذلك أنه إنما كانت تتفاوت النفس الواحدة والنفوس الكثيرة العدد : أن لو شغله شأن عن شأن وفعل عن فعل ، وقد تعالى عن ذلك ﴿إن الله سميع بصير﴾ يسمع كل صوت ويبصر كل مبصر فى حالة واحدة ، لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض ، فكذلك الخلق والبعث .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠)

كل واحد من الشمس والقمر يجرى فى فلكه ، ويقطعه إلى وقت معلوم : الشمس إلى آخر السنة ، والقمر إلى آخر الشهر . وعن الحسن : الأجل المسمى : يوم القيامة . لأنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ . دلّ أيضا بالليل والنهار وتعاقبهما وزيادتهما ونقصانهما وجرى النيرين فى فلكيهما كل ذلك على تقدير وحساب . وبإحاطته بجميع أعمال الخلق : على عظم قدرته وحكمته . فإن قلت : يجرى لأجل مسمى ، ويجرى إلى أجل مسمى : أهو من تعاقب الحرفين ؟ قلت : كلا ، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن [1] . ولكن المعنيين . أعنى الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض : لأن قولك يجرى إلى أجل مسمى : معناه يبلغه وينتهى
كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض ؛ لأن قولك يجرى إلى أجل مسمى : معناه يبلغه وينتهى
إليه . وقولك : يجرى لأجل مسمى : تريد يجرى لإدراك أجل مسمى ، تجعل الجرى مختصا بإدراك أجل مسمى . ألا ترى أن جرى الشمس مختص بآخر السنة ، وجرى القمر مختص بآخر الشهر ، فكلا المعنيين غير ناب به موضعه ﴿ذلك﴾ الذى وصف من عجائب قدرته وحكمته التى يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون . فكيف بالجماد الذى تدعونه من دون الله ، إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت إلهيته . وأن من دونه باطل الإلهية ﴿وأن الله هو العلىّ﴾ الشأن ﴿الكبير﴾ السلطان . أو ذلك الذى أوحى إليك من هذه الآيات بسبب بيان أن الله هو الحق ، وأن إلها غيره باطل ، وأن الله هو العلىّ الكبير عن أن يشرك به .

---

(١) قوله «إلا بليد الطبع ضيق العطن» فى الصحاح : أنه مبرك الابل عند الماء ، لتشرب عللا بعد نهل . (ع)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ ءَايَـٰتِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

قرئ : الفلك ، بضم اللام . وكل فعل : يجوز فيه فعل ، كما يجوز فى كل فعل فعل ، على مذهب التعويض . و بنعمات الله : بسكون العين . وعين فعلات يجوز فيها الفتح والكسر والسكون ﴿ بنعمة الله ﴾ بإحسانه ورحمته ﴿صبار﴾ على بلائه ﴿شكور﴾ لنعمائه ، وهما صفتا المؤمن ، فكأنه قال : إنّ فى ذلك لآيات لكل مؤمن .

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَـٰتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

يرتفع الموج ويتراكب ، فيعود مثل الظلل ، والظلة : كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما وقرئ : كالظلال . جمع ظلة . كقلة وقلال ﴿فمنهم مقتصد﴾ متوسط فى الكفر والظلم ، خفض من غلوائه ، وانزجر بعض الانزجار . أو مقتصد فى الإخلاص الذى كان عليه فى البحر ، يعنى أنّ ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف ، لا يبقى لأحد قط ، والمقتصد قليل نادر . وقيل : مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه الله فى البحر . والختر : أشدّ الغدر . ومنه قولهم : إنك لا تمدّ لنا شبراً من غدر إلا مددنا لك باعا من ختر ، قال :

وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْرٍ مَلَأْتَ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرٍ وَخَتْرِ [1]

يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾

﴿لا يجزى﴾ لا يقضى عنه شيئا . ومنه قيل للمتقاضى : المتجازى . وفى الحديث فى جذعة

(١) الغدر : أشد الختر . وروى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا عد بأصابع يده اليمنى : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وبأصابع اليسرى : اللهم اغفر لى وارحمنى واهدنى وارزقنى واجبرنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ملأت يديك خيراً ، شبه المعقول بالمحسوس على سبيل المكنية . وملء اليدين : تخييل ، وذكرهما لأن الرجل عد بهما ، فضربه الشاعر مثلا لحال أبى عمير ومن يراه على سبيل الاستعارة التمثيلية التهكمية ، فان من رآه وعد معايبه ، كأنه ملأ يديه شراً لا خيراً ، وحذف العد إشارة إلى أنه بمجرد الرؤية يحصل ذلك .

ابن نيار : تجزى عنك ولاتجزى عن أحد بعدك [١] . وقرئ : لاتجزئ : لايغنى [٢] . يقال : أجزأت عنك مجزأ فلان . والمعنى : لايجزى فيه ، فحذف (الغرور) الشيطان . وقيل : الدنيا وقيل : تمنيكم فى المعصية المغفرة . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه : الغرّة بالله : أن يتمادى الرجل فى المعصية ويتمنى على الله المغفرة . وقيل : ذكرك لحسناتك ونسيانك لسيئاتك غرة . وقرئ بضم الغين وهو مصدر غره غروراً . وجعل الغرور غارّاً ، كما قيل : جدّ جدّه . أو أريد زينة الدنيا لأنها غرور . فإن قلت : قوله (ولامولود هو جاز عن والده شيئا) وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ماهو معطوف [٣] عليه . قلت : الأمر كذلك ؛ لأنّ الجملة الإسمية آكد من الفعلية ، وقد انضم إلى ذلك قوله (هو) وقوله (مولود) والسبب فى مجيئه على هذا السنن : أنّ الخطاب للمؤمنين وعليتهم [٤] : قبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلى ، فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم : أن ينفعوا آباءهم فى الآخرة ، وأن يشفعوا لهم ، وأن يغنوا عنهم من الله شيئا ؛ فلذلك جىء به على الطريق الآكد . ومعنى التوكيد فى لفظ المولود : أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذى ولد منه ، لم تقبل شفاعته ، فضلا أن يشفع لمن فوقه من أجداده ؛ لأنّ الولد يقع على الولد وولد الولد ؛ بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك .

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

روى أنّ رجلا من محارب وهو الحرث بن عمرو بن حارثة أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، أخبرنى عن الساعة متى قيامها ، وإنى قد ألقيت حباتى فى الأرض وقد

(١) تقدم فى أوائل البقرة .
(٢) قوله «وقرئ لايجزئ لايغنى» لعله : أى لايغنى . (ع)
(٣) قال محمود : «إن قلت : لم أكد الجملة الثانية دون الأولى ؟ قلت : لأن أكثر المسلمين كان آباؤهم قد ماتوا على الكفر ، فلما كان إغناء الكافر عن المسلم بعيداً لم يحتج تأكيداً . ولما كان إغناء المسلم عن الكافر قد يقع فى الأوهام أكد نفيه» قال أحمد : وهذا الجواب تتوقف صحته على أن هذا الخطاب كان خاصاً بالموجودين حينئذ ، والصحيح أنه عام لهم ولكل من ينطلق عليه اسم الناس ، فالجواب المعتبر ـ والله أعلم ـ أن الله تعالى لما أكد الوصية على الآباء ، وقرن شكرهم بوجوب شكره عز وجل ، وأوجب على الولد أن يكفى والده ما يسوءه بحسب نهاية إمكانه قطع ههنا وهم الوالد فى أن يكون الولد فى القيامة يجزيه بحقه عليه ، ويكفيه مايلقاه من أهوال القيامة كما أوجب الله عليه فى الدنيا ذلك فى حقه ، فلما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون الوقوع ـ لأن الله حضه عليه فى الدنيا ـ كان جديراً بتأكيد النفى لإزالة هذا الوهم ، ولا كذلك العكس ، فهذا جواب كاف شاف للعليل ، إن شاء الله تعالى .
(٤) قوله «وعليتهم» أى أشرافهم وعظماؤهم . (ع)

أبطأت عنا السماء ، فمتى تمطر ؟ وأخبرنى عن امرأتى فقد اشتملت ما فى بطنها ، أذكر أم أنثى ؟ وإنى علمت ماعلمت أمس ، فما أعمل غدا ؟ وهذا مولدى قد عرفته ، فأين أموت [١] ؟ فنزلت وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «مفاتح الغيب خمس» [٢] وتلا هذه الآية . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب ، إياكم والكهانة فإن الكهانة تدعو إلى الشرك والشرك وأهله فى النار . وعن المنصور أنه أهمه معرفة مدة عمره ، فرأى فى منامه كأن خيالا أخرج يده من البحر وأشار إليه بالأصابع الخمس ، فاستفتى العلماء فى ذلك ، فتأولوها بخمس سنين ، وبخمسة أشهر ، وبغير ذلك ، حتى قال أبو حنيفة رحمه الله : تأويلها أن مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، وأن ماطلبت معرفته لاسبيل لك إليه ﴿عنده علم الساعة﴾ أيان مرساها ﴿وينزل الغيث﴾ فى إبانه من غير تقديم ولا تأخير ، وفى بلد لايتجاوزه به ﴿ويعلم مافى الأرحام﴾ أذكر أم أنثى ، أتام أم ناقص ، وكذلك ماسوى ذلك من الأحوال ﴿وما تدرى نفس﴾ برة أو فاجرة ﴿ماذا تكسب غدا﴾ من خير أو شر ، وربما كانت عازمة على خير فعملت شرا ، وعازمة على شر فعملت خيرا ﴿وما تدرى نفس﴾ أين تموت ، وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت : لاأبرحها وأقبر فيها ، فترمى بها مرامى القدر حتى تموت فى مكان لم يخطر ببالها ، ولا حدثتها به ظنونها . وروى أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فقال الرجل من هذا ؟ قال : ملك الموت ، فقال : كأنه يريدنى . وسأل سليمان أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ، ففعل ، ثم قال ملك الموت لسليمان كان دوام نظرى إليه تعجبا منه ، لأنى أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك [٣] . وجعل العلم لله والدراية للعبد ، لما فى الدراية من معنى الختل والحيلة . والمعنى : أنها لا تعرف ـ وإن أعملت حيلها ـ مايلصق بها ويختص ولا يتخطاها ، ولاشىء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته ، فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما ، كان من معرفة ماعداهما أبعد . وقرئ : بأية أرض . وشبه سيبويه تأنيث «أى» بتأنيث «كل» فى قولهم : كلتهن .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرا عشرا بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر» [٤].

(١) هكذا ذكره الواحدى والثعلبى بغير سند . وأخرجه الطبرى وابن أبى حاتم من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد ، قال «جاء رجل من أهل البادية فقال يامحمد إن امرأتى حبلى فأخبرنى متى تلد ؟ فذكره»

(٢) أخرجه البخارى من حديث ابن عمر

(٣) موقوف . رواه أحمد فى الزهد وابن أبى شيبة قالا حدثنا عبد الله بن نمير عن الأعمش عن خيثمة عن شهر بن حوشب قال «دخل ملك الموت . فذكره»

(٤) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم عن أبى بن كعب .

سورة السجدة

مكية [إلا من آية ١٦ إلى غاية آية ٢٠ فمدنية]

وآياتها ٣٠ وقيل ٢٩ [نزلت بعد المؤمنون]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

﴿ الٓمٓ ﴾ على أنها اسم السورة مبتدأ خبره ﴿تنزيل الكتاب﴾ وإن جعلتها تعديدا للحروف ارتفع (تنزيل الكتاب) بأنه خبر مبتدإ محذوف : أوهو مبتدأ خبره ﴿لاريب فيه﴾ والوجه أن يرتفع بالابتداء ، وخبره ﴿من رب العالمين﴾ و (لاريب فيه) : اعتراض لا محل له . والضمير فى (فيه) راجع إلى مضمون الجملة ، كأنه قيل : لاريب فى ذلك ، أى فى كونه منزلا من رب العالمين ويشهد لوجاهته قوله ﴿أم يقولون افتراه﴾ لأنّ قولهم : هذا مفترى . إنكار لأن يكون من رب العالمين ، وكذلك قوله ﴿بل هو الحق من ربك﴾ ومافيه من تقدير أنه من الله ، وهذا أسلوب صحيح محكم : أثبت أولا أن تنزيله من رب العالمين ، وأن ذلك مالاريب فيه ، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله (أم يقولون افتراه) لأن «أم» هى المنقطعة الكائنة بمعنى : بل والهمزة . إنكاراً لقولهم وتعجيباً منه لظهور أمره : فى عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ، ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك . ونظيره أن يعلل العالم فى المسئلة بعلة صحيحة جامعة ، قد احترز فيها أنواع الاحتراز . كقول المتكلمين : النظر أوّل الأفعال الواجبة على الإطلاق التى لايعرى عن وجوبها مكلف ، ثم يعترض عليه فيها ببعض ماوقع احترازه منه ، فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك ، ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته . فإن قلت : كيف نفى أن يرتاب فى أنه من الله ، وقد أثبت ماهو أطم من الريب ، وهو قولهم (افتراه) ؟ قلت : معنى (لاريب فيه) أن لامدخل للريب فى أنه تنزيل الله ، لأن نافى الريب ومميطه معه لاينفك عنه وهو كونه معجزاً

للبشر ، ومثله أبعد شيء من الريب . وأما قولهم (افتراه) فإما قول متعنت مع علمه أنه من الله لظهور الإعجاز له ، أو جاهل يقوله قبل التأمل والنظر لأنه سمع الناس يقولونه ﴿ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ كقوله : ما أنذر آباؤهم ، وذلك أن قريشاً لم يبعث الله إليهم رسولا [1] قبل محمد صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : فإذا لم يأتهم نذير لم تقم عليهم حجة . قلت : أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل فلا ، وأما قيامها بمعرفة الله وتوحيده وحكمته فنعم ؛ لأن أدلة العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان ﴿لعلهم يهتدون﴾ فيه وجهان : أن يكون على الترجي من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان (لعله يتذكر) على الترجي من موسى وهرون عليهما السلام ، وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤)

فإن قلت : مامعنى قوله ﴿مالكم من دونه من ولىّ ولا شفيع﴾ ؟ قلت : هو على معنيين ، أحدهما : أنكم إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً ، أي : ناصراً ينصركم ولا شفيعاً يشفع لكم . والثاني : أن الله وليكم الذي يتولى مصالحكم ، وشفيعكم أي ناصركم على سبيل المجاز ؛ لأن الشفيع ينصر المشفوع له ، فهو كقوله تعالى (وما لكم من دون الله من ولىّ ولا نصير) فإذا خذلكم لم يبق لكم ولىّ ولا نصير .

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)

﴿الأمر﴾ المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مدبراً ﴿من السماء إلى الأرض﴾ ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه ذلك المأمور به خالصاً كما يريده ويرتضيه إلا في مدة متطاولة ؛ لقلة عمال الله والخلص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة ، لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص

---

(١) قال محمود : «يعنى قريشاً لأنها لم يبعث لها نبي قط . فان قلت : إن لم يتقدم بعث نبي إليهم فيما قامت عليهم الحجة . قلت : قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل لا سبيل إليه . وأما قيامها بمعرفة الله تعالى وتوحيده وحكمته فنعم ؛ لأن أدلة العقل معهم في كل زمان» قال أحمد : مذهب أهل السنة : أنه لا يدرك علم شيء من أحكام الله تعالى التكليفية إلا بالشرع وما ذكره الزمخشري تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل ، وقد مجها السمع فلم يبح بها القلم ، فأعرض عنه حتى يخوض في حديث غيره . وإنما قامت الحجة على العرب بمن تقدم من الرسل إليهم كأبيهم إسماعيل وغيره ، والمراد بقوله تعالى (ما أتاهم من نذير) يعنى ذرية العرب في زمانه عليه الصلاة والسلام ، إذ لم يبعث إليهم نذير معاصر . فلطف الله تعالى بهم وبعث فيهم رسولا منهم .

ودل عليه قوله على أثره (قليلا ماتشكرون) أو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض : لكل يوم من أيام الله وهو ألف سنة، كما قال (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون)، ﴿ثم يعرج إليه﴾ أى يصير إليه، ويثبت عنده، ويكتب فى صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدّة : مايرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدة آخرها، ثم يدبر أيضاً ليوم آخر، وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة. وقيل : ينزل الوحى مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض، ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحى أو ردّه مع جبريل، وذلك فى وقت هو فى الحقيقة ألف سنة : لأن المسافة مسيرة ألف سنة فى الهبوط والصعود، لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل؛ لأنه يقطع مسيرة ألف سنة فى يوم واحد. وقيل : يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله، أى يصير إليه ليحكم فيه ﴿فى يوم كان مقداره ألف سنة﴾ وهو يوم القيامة. وقرأ ابن أبى عبلة : يعرج، على البناء للمفعول. وقرئ : يعدون، بالتاء والياء.

ذَٰلِكَ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

﴿أحسن كل شىء﴾ حسنه، لأنه ما من شىء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة : فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن، كما قال (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وقيل : علم كيف يخلقه من قوله : قيمة المرء ما يحسن. وحقيقته، يحسن معرفته أى يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإتقان. وقرئ : خلقه : على البدل، أى : أحسن. فقد خلق كل شىء[1] وخلقه : على الوصف، أى : كل شىء خلقه فقد أحسنه. سميت الذرية نسلا : لأنها تنسل منه، أى : تنفصل منه وتخرج من صلبه[2] ونحوه قولهم للولد : سليل ونجل. و ﴿سوّاه﴾ قومه،

(١) قوله «أى أحسن فقد خلق كل شىء» لعل لفظ «فقد» مزيدة من قلم الناسخ. وعبارة النسفى : على البدل، أى : أحسن خلق كل شىء ويمكن أنه ليس مزيداً، بل هذا حاصل المعنى على البدل، كما أن عكسه الآتى هو حاصل المعنى على الوصف. (ع)

(٢) قوله «وتخرج من صلبه» لعل قبله سقطا تقديره : كما سميت النطفة سلالة، لأنها تسل منه. وفى الصحاح النجل : النسل. ونجله أبوه، أى : ولده. (ع)

كقوله تعالى (فى أحسن تقويم) ودل بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو، كقوله (ويسألونك عن الروح ... الآية) كأنه قال: ونفخ فيه من الشيء الذى اختص هو به وبمعرفته.

وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)

﴿وقالوا﴾ قيل القائل أبى بن خلف، ولرضاهم بقوله أسند إليهم جميعاً. وقرئ: أئنا. وأنا. على الاستفهام وتركه ﴿ضللنا﴾ صرنا ترابا، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض. لا نتميز منه، كما يضل الماء فى اللبن أو غبنا ﴿فى الأرض﴾ بالدفن فيها، من قوله:

* وَآبَ مُضِلُّوهُ بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ * (١)

وقرأ على وابن عباس رضى الله عنهما: ضللنا، بكسر اللام. يقال: ضل يضل وضل يضل. وقرأ الحسن رضى الله عنه: صللنا. من صلّ اللحم وأصلّ: إذا أنتن. وقيل: صرنا من جنس الصلة وهى الأرض. فإن قلت: بم انتصب الظرف فى (أئذا ضللنا)؟ قلت: بما يدل عليه (إنا لفى خلق جديد) وهو نبعث. أو يجدد خلقنا. لقاء ربهم: هو الوصول إلى العاقبة، من تلقى ملك الموت وماوراءه. فلما ذكر كفرهم بالإنشاء. أضرب عنه إلى ماهو أبلغ فى الكفر، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون فى العاقبة، لا بالإنشاء وحده: ألا ترى كيف خوطبوا بتوفى ملك الموت وبالرجوع إلى ربهم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء، وهذا معنى لقاء الله على ماذكرنا والتوفى: استيفاء النفس وهى الروح. قال الله تعالى (الله يتوفى الأنفس) وقال: أخرجوا أنفسكم، وهو أن يقبض كلها لا يترك منها شيء. من قولك: توفيت حقى من فلان، واستوفيته إذا أخذته وافيا كاملا من غير نقصان. والتفعل والاستفعال: يلتقيان فى مواضع: منها: تقصيته واستقصيته، وتعجلته واستعجلته. وعن مجاهد رضى الله عنه: حويت لملك الموت الأرض، وجعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء. وعن قتادة: يتوفاهم ومعه أعوان من الملائكة. وقيل: ملك الموت: يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها.

---

(١) وآب مضلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل
يرثى ميتاً. والاياب: الرجوع. والاضلال: الدفن والتغييب. وجولان: جبل بالشام. والنائل: العطاء يعنى: بترك ذلك الموصوف بالحزم والكرم، فقد ترك الوصفات هناك.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿ولو ترى﴾ يجوز أن يكون خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيه وجهان : أن يراد به التمنى ،كأنه قال : وليتك ترى ، كقوله صلى الله عليه وسلم للمغيرة : «لو نظرت إليها»(١) والتمنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،كما كان الترجى له فى (لعلهم يهتدون) لأنه تجرع منهم الغصص ومن عداوتهم وضرارهم ، فجعل الله له تمنى أن يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والخزى والغم ليشمت بهم ، وأن تكون لو الامتناعية قد حذف جوابها ، وهو : لرأيت أمراً فظيعاً . أو : لرأيت أسوأ حال ترى . ويجوز : أن يخاطب به كل أحد ، كما تقول : فلان لئيم ، إن أكرمته أهانك ، وإن أحسنت إليه أساء إليك ، فلا تريد به مخاطبا بعينه ، فكأنك قلت : إن أكرم وإن أحسن إليه، ولو وإذ :كلاهما للمضى ،وإنما جاز ذلك ؛لأن المترقب من الله بمنزلة الموجود المقطوع به فى تحققه ، ولا يقدر لترى ما يتناوله ،كأنه قيل : ولو تكون منك الرؤية ، وإذ ظرف له . يستغيثون بقولهم ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ فلا يغاثون ، يعنى : أبصرنا صدق وعدك ووعيدك وسمعنا منك تصديق رسلك . أو كنا عميا وصما فأبصرنا وسمعنا ﴿فارجعنا﴾ هى الرجعة إلى الدنيا ﴿لآتينا كل نفس هداها﴾ على طريق الإلجاء والقسر ، ولكننا بنينا الأمر على الاختيار(٢) دون الاضطرار ،فاستحبوا العمى على الهدى، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء. ألا ترى إلى ما عقبه به من قوله ﴿فذوقوا بما نسيتم﴾ فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم : من نسيان العاقبة،

(١) هذا طرف من حديث أخرجه الترمذى ، والنسائى وابن ماجه وابن أبى شيبة وابن حبان . والحاكم . وأحمد والبزار . وغيرهم من حديث المغيرة «أنه خطب امرأة فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم انظر إليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما» ورواه أبو عبيد فى الغريب بلفظ أنه قال للمغيرة وقد خطب امرأة «لو نظرت إليها» الحديث.

(٢) قوله «ولكننا بنينا الأمر على الاختيار» لما أوجب المعتزلة على الله الصلاح قالوا : إنه قد شاء الهدى للكل ، ولكن مشيئة تخيير ، لا مشيئة إجبار ، فلذا لم يهتد الكل بل البعض ، ولو شاء مشيئة قسر لاهتدى الكل . وأهل السنة لم يوجبوا على الله شيئاً ، وقالوا : كل ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، خيراً كان أو شراً . واستلزام الارادة لوقوع المراد لا يستلزم القسر والاجبار للعباد ؛ لما لهم من الكسب فى أفعالهم ، وإن كانت فى الحقيقة مخلوقة لله تعالى ، كما تقرر فى علم التوحيد . (ع)

وقلة الفكر فيها ، وترك الاستعداد لها . والمراد بالنسيان : خلاف التذكر ، يعنى : أن الانهماك فى الشهوات أذهلكم وألهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها ، ثم قال ﴿إنا نسيناكم﴾ على المقابلة ، أى : جازيناكم جزاء نسيانكم . وقيل : هو بمعنى الترك ، أى : تركتم الفكر فى العاقبة ، فتركناكم من الرحمة . وفى استئناف قوله إنا نسيناكم وبناء الفعل على إن واسمها تشديد فى الانتقام منهم . والمعنى فذوقوا هذا أى ما أنتم فيه من نكس الرءوس والخزى والغم بسبب نسيان اللقاء ، وذوقوا العذاب المخلد فى جهنم بسبب ما عملتم[1] من المعاصى والكبائر الموبقة[2].

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

﴿إذا ذكروا بها﴾ أى وعظوا : سجدوا تواضعا لله وخشوعا ، وشكرا على ما رزقهم من الإسلام ﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾ ونزهوا الله من نسبة القبائح إليه ، وأثنوا عليه حامدين له ﴿وهم لا يستكبرون﴾ كما يفعل من يصر مستكبرا كأن لم يسمعها . ومثله قوله تعالى (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا) : ﴿تتجافى﴾ ترتفع وتتنحى ﴿عن المضاجع﴾ عن الفرش ومواضع النوم ، داعين ربهم عابدين له ؛ لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم فى رحمته ، وهم المتهجدون . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسيرها «قيام العبد من الليل»[3] وعن الحسن رضى الله عنه : أنه التهجد . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادى بصوت يسمع الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم . ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؛ فيقومون وهم قليل . ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى البأساء

---

(١) قال محمود : «ومعناه بما كنتم تعملون من الكفر والكبائر الموبقة» قال أحمد : قد تمهد من مذاهب أهل السنة أن المقتضى لاستحقاق الخلود فى العذاب هو الكفر خاصة . وأما مادونه من الكبائر فلا يوجب خلوداً ، والمسئلة سمعية . وأدلتها من الكتاب والسنة قطعية ، خلافا للقدرية .

(٢) قوله «والكبائر الموبقة» أى : المهلكة . (ع)

(٣) أخرجه أحمد وابن أبى شيبة وإسحاق والحاكم من رواية أبى وائل عن معاذ فى أثناء حديث مرفوع قال «وصلاة الرجل فى جوف الليل ثم قرأ : تتجافى جنوبهم عن المضاجع»

والضراء، فيقومون وهم قليل، فيسرحون جميعا إلى الجنة. ثم يحاسب سائر الناس»[١]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: كان أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة، فنزلت فيهم[٢]. وقيل: هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها ﴿ما أخفى لهم﴾ على البناء للمفعول. ما أخفى لهم على البناء للفاعل، وهو الله سبحانه. وما أخفى لهم. وما نخفى لهم. وما أخفيت لهم: الثلاثة للتكلم، وهو الله سبحانه. وما: بمعنى الذى، أو بمعنى أى[٣]. وقرئ: من قرة أعين. وقرات أعين. والمعنى: لا تعلم النفوس ـ كلهن ـ ولا نفس واحدة منهن لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ـ أى نوع عظيم من الثواب ادخر الله لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه، لا يعلمه إلا هو مما تقر به عيونهم، ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمح وراءها، ثم قال ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ فحسم أطماع المتمنين[٤]: وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين[٥] ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر،

(١) أخرجه إسحاق وأبو يعلى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مطولا وهو عند الحاكم باختصار

(٢) أخرجه ابن مردويه من رواية الحرث بن رحبة عن مالك بن دينار «سألت أنس بن مالك عن قوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع ـ الآية) فقال: كان ناس ـ فذكره» ورواه أبو داود من حديث سعيد عن قتادة عن أنس نحوه، قال: وكان الحسن يقول «هو قيام الليل» والبزار من طريق زيد بن أسلم عن أبيه. قال قال بلال «كنا نجلس وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يصلون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية» قال: ولا نعلم له طريقاً إلا هذه. ولا روى أسلم عن بلال غيره

(٣) قوله «أو بمعنى أى» لعله: أى شيء. (ع)

(٤) قال محمود: «هذا حسم لأطماع المتمنين» قال أحمد: يشير إلى أهل السنة لاعتقادهم أن المؤمن العاصى موعود بالجنة، ولا بد من دخوله إياها وفاء بالوعد الصادق، وأن أحداً لا يستحق على الله بعمله شيئا، فلما وجد قوله تعالى (جزاء بما كانوا يعملون) اغتنم الفرصة فى الاستشهاد على معتقد القدرية فى أن الأعمال أسباب موجبة للجزاء، ولا دليل فى ذلك لمعتقدهم مع قوله صلى الله عليه وسلم «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله بفضل منه ورحمة» فهذا الحديث يوجب حمل الآية على وجه يجمع بينها وبينه، وذلك إما أن تحمل الآية على أن المراد منها قسمة المنازل بينهم فى الجنة فانه على حسب الأعمال، وليس بذاك فان المذكور فى الآية مجرد دخول الجنة لاانقسام درجاتها. وإما أن تحمل ـ وهو الظاهر، والله أعلم ـ على أن الله تعالى لما وعد المؤمن جنته ـ ووعده يجب أن يكون حقاً وصدقا، تعالى وتقدس ـ صارت الأعمال بالوعد كأنها أسباب موجبات، فعوملت فى هذه العبارة معاملتها، والمقصود من ذلك: تأكيد صدق الوعد فى النفوس، وتصوره بصورة المستحق بالعمل، كالأجرة المستحقة شاهداً على العمل من باب مجاز التشبيه، والله أعلم. وذكر الزمخشرى الحديث المشهور وهو «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، اقرؤا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين» وكان جدى رحمه الله يستحسن أن تقرأ الآية تلو الحديث المذكور بسكون الياء من أخفى، ورده إلى المتكلم، وهى من القراآت المستفيضة. والسبب فى اختيار ذلك مطابقة صدر الحديث وهو: أعددت لعبادى مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ليكون الكل راجعا إلى الله تعالى، مسنداً إلى ضمير اسمه عز وجل صريحا، والله الموفق.

(٥) متفق عليه من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه.

بله [١] ما أطلعتهم عليه . اقرؤا إن شئتم : فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » وعن الحسن رضى الله عنه : أخفى القوم أعمالا فى الدنيا ، فأخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

﴿كان مؤمنا﴾ و ﴿كان فاسقا﴾ محمولان على لفظ من ، و ﴿لا يستوون﴾ محمول على المعنى ، بدليل قوله تعالى ﴿أما لذين آمنوا ... وأما الذين فسقوا﴾ ونحوه قوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك) . و ﴿جنات المأوى﴾ نوع من الجنان . قال الله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى) سميت بذلك لما روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : تأوى إليها أرواح الشهداء . وقيل : هى عن يمين العرش . وقرئ : جنة المأوى ، على التوحيد ﴿نزلا﴾ عطاء بأعمالهم . والنزل : عطاء النازل ، ثم صار عاما ﴿فمأواهم النار﴾ أى ملجؤهم ومنزلهم . ويجوز أن يراد : فجنة مأواهم النار . أى النار لهم ، مكان جنة المأوى للمؤمنين : كقوله (فبشرهم بعذاب أليم) . ﴿العذاب الأدنى﴾ عذاب الدنيا من القتل والأسر ، وما محنوا به من السنة [٢] سبع سنين . وعن مجاهد رضى الله عنه : عذاب القبر . و ﴿العذاب الأكبر﴾ عذاب الآخرة ، أى : نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة ﴿لعلهم يرجعون﴾ أى يتوبون [٣] عن الكفر . أو لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه ، كقوله تعالى

---

(١) قوله « بله ما أطلعتهم عليه » فى الصحاح « بله » : كلمة مبنية على الفتح مثل كيف ، ومعناها : دع ، كما أجازه الأخفش فى قول كعب بن مالك :

تذر الجماجم ضاحيا هاماتها   بله الأكف كأنها لم تخلق

ويقال : معناها سوى . وفى الحديث : « أعددت لعبادى ... الخ » . (ع)

(٢) قوله « وما محنوا به من السنة » أى الجدبة . أو المراد بها الجدب ، كما يؤخذ من الصحاح . (ع)

(٣) قال محمود : « معناه لعلهم يتوبون . فان قلت : من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ولعل من الله إرادة ، وإذا أراد الله شيئاً كان ، وتوبتهم مما لا يكون ؛ لأنهم لو تابوا لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر . قلت : إرادة الله تعالى تتعلق بأفعاله وأفعال عباده فاذا أراد شيئا من أفعاله كان ولم يمتنع ، للاقتدار وخلوص الداعى . وأما أفعال عباده فاما أن يريدها وهم مختارون لها ، أو مضطرون إليها بقسره ، فان أرادها وقد قسرهم عليها فحكمها حكم ═

(فارجعنا نعمل صالحا) وسميت إرادة الرجوع رجوعا ، كما سميت إرادة القيام قياما فى قوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة) ويدل عليه قراءة من قرأ : يرجعون، على البناء للمفعول . فإن قلت: من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ؟ و«لعل» من الله إرادة ، وإذا أراد الله شيئا كان ولم يمتنع ، وتوبتهم مما لا يكون ، ألا ترى أنها لو كانت مما يكون لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر ؟ قلت : إرادة الله تتعلق بأفعاله وأفعال عباده ، فإذا أراد شيئا من أفعاله كان ولم يمتنع ، للاقتدار وخلوص الداعى . وأما أفعال عباده : فإما أن يريدها وهم مختارون لها ، أو مضطرون إليها بقسره وإلجائه . فإن أرادها وقد قسرهم عليها فحكمها حكم أفعاله ، وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك فى اقتداره [1] ، كما لا يقدح فى اقتدارك إرادتك أن يختار عبدك طاعتك وهو لا يختارها ، لأن اختياره لا يتعلق بقدرتك ، وإذا لم يتعلق بقدرتك لم يكن فقده دالا على عجزك . وروى فى نزولها : أنه شجر بين على بن أبى طالب رضى الله عنه والوليد بن عقبة بن أبى معيط يوم بدر كلام ، فقال له الوليد : اسكت فإنك صبى : أنا أشب منك شبابا ، وأجلد منك جلداً ، وأذرب منك لسانا ، وأحد منك سنانا ، وأشجع منك جنانا ، وأملأ منك حشواً فى الكتيبة . فقال له على رضى الله عنه : اسكت ، فإنك فاسق [2] ، فنزلت عامة للمؤمنين والفاسقين ، فتناولتهما وكل من كان فى مثل حالها [3] . وعن الحسن بن على رضى

ـــ أفعاله . وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك فى اقتداره . كما لا يقدح فى اقتدارك : إرادتك أن يختار عبدك الطاعة لك وهو لا يختارها ، لأن اختيارها لا يتعلق بقدرتك فلا يكون فقده عجزاً منك » قال أحمد : هذا الفصل ردىء جداً مفرع على الاشراك الجلى لاهل الاشراك الخفى ، فاعتصم بدليل الوحدانية على رده واجتنابه من أصله ، والله المستعان . وإنما جره فى تفسير لعل إلى الارادة ، والحق فى تفسيرها أنها لترجى المخاطبين امتناع الترجى على الله تعالى ، كذا فسرها سيبويه فيما تقدم . والله أعلم .

(١) قوله «لم يقدح ذلك فى اقتداره» أى عدم وقوعها وعدم اختيارهم إياها . فهذا على مذهب المعتزلة : من أنه قد يريد الشيء ولا يكون ، ومذهب أهل السنة : أن كل ما أراده الله كان . (ع)

(٢) أخرجه ابن مردويه والواحدى من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال «قال الوليد بن عقبة بن أبى معيط لعلى : أنا أحد منك سنانا وأبسط منك لسانا وأملأ منك للكتيبة . فقال له على : اسكت يا فاسق ، فانما أنت فاسق . فنزلت» وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما (تنبيه) قوله : أن ذلك شجر بينهما يوم بدر، غلط فاحش . فما كان الوليد حينئذ رجلا

(٣) قال محمود : «سبب نزولها أنه شجر بين على بن أبى طالب كرم الله وجهه والوليد ابن عقبة يوم بدر كلام فقال له الوليد اسكت فانك صبى أنا أشب منك شباباً وأجلد جلداً وأذرب لساناً وأحد منك سناناً وأشجع جناناً وأملأ حشواً فى الكتيبة ، فقال له على : اسكت فانك فاسق . قال الزمخشرى : فنزلت عامة للمؤمنين والكافرين تتناولهما معا» قال أحمد : ذكر للسبب المحقق : لأن المراد بالفاسق وبالذين فسقوا : الذين كفروا ، لأنها نزلت فى الوليد وهو كافر حينئذ ، ثم أدرج فيه المؤمن تعصباً لمذهبه فى وجوب خلود فساق المؤمنين كفساق الكافرين . فلم يزل يورد هذه العقائد الفواسد ، ولقد اتسع الخرق على الراقع .

الله عنهما : أنه قال للوليد : كيف تشتم علياً وقد سماه الله مؤمناً فى عشر آيات ، وسماك فاسقا ؟

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

ثم فى قوله ﴿ثم أعرض عنها﴾ للاستبعاد . والمعنى : أنّ الإعراض عن مثل آيات الله فى وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد فى العقل والعدل ، كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الانتهاز . ومنه ثم فى بيت الحماسة :

لَا يَكْشِفُ الْغَمَّاءَ إِلَّا ابْنُ حُرَّةٍ يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا (١)

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدّتها . فإن قلت : هلا قيل : إنا منه منتقمون ؟ قلت : لما جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامّة بالانتقام منهم ، فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام ، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

---

(١) ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
نقاسمهم أسيافنا شر قسمة ففينا غواشيها وفيهم صدورها

لجعفر بن علبة الحارثى . شبه الداهية الغماء بأمر محسوس يغشى الناس ويغطيهم على طريق المكنية ، والكشف تخييل وقال «ابن حرة» أى كريم ؛ ليكون تهييجاً للسامع وبعثا له على الهيجاء . والغمرة : الشدة . وغمرات الموت : شدائده وأهواله ، كأحوال المعركة الشديدة . وقوله «ثم يزورها» أى يلاقيها برغبة ، كلقاء المحبوب . وعطفه بثم ؛ لأن بين رؤية الأهوال المفزعة ، وبين الانحدار إليها برغبة بون بعيد فى العادة والتعقل . وشبه السيوف ممتدة متوسطة بينهم بشىء تجرى فيه المقاسمة ، وتقاسمهم تخييل لذلك . ثم فرع على تلك المقاسمة أن لهم غواشيها ، أى مايغشاهم منها وهى مقابضها . أو لأنها زائدة على النصل فهى غاشية له ولأعدائه «صدورها» أى أطرافها المتقدمة منها . وصدر كل شىء : مقدمه . وعبر بفى دون اللام ، لأن «فى» تفيد مجرد اشتمال الأعداء على الصدور لدخولها فى أجسامهم ، واللام تفيد التملك وليس مراداً ، وإن كان مقتضى القسمة ، فلعله دفع توهمه بالعدول إلى «فى» وذكرها أولا تمهيداً للثانية .

﴿الكتاب﴾ للجنس والضمير فى ﴿لقائه﴾ له . ومعناه : إنا آتينا موسى عليه السلام مثل ما آتيناك من الكتاب ، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحى ، فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله ولقيت نظيره كقوله تعالى : (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) ونحو قوله (من لقائه) قوله (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) وقوله (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا) . وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه السلام ﴿هدى﴾ لقومه ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون﴾ الناس ويدعونهم إلى ما فى التوراة من دين الله وشرائعه ، لصبرهم وإيقانهم بالآيات . وكذلك لنجعلنّ الكتاب المنزل إليك هدى ونوراً ، ولنجعلنّ من أمّتك أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من نصرة الدين وثبتوا عليه من اليقين . وقيل : من لقائك موسى عليه السلام ليلة الإسراء أو يوم القيامة وقيل : من لقاء موسى عليه السلام الكتاب ، أى : من تلقيه له بالرضا والقبول . وقرئ : لما صبروا . ولما صبروا ، أى لصبرهم . وعن الحسن رضى الله عنه : صبروا عن الدنيا . وقيل : إنما جعل الله التوراة هدى لبنى إسرائيل خاصة ، ولم يتعبد بما فيها ولد إسمعيل عليه السلام ﴿يفصل بينهم﴾ يقضى ، فيميز المحق فى دينه من المبطل .

أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

الواو فى ﴿أو لم يهد﴾ للعطف على معطوف عليه منوى من جنس المعطوف ، والضمير فى ﴿لهم﴾ لأهل مكة . وقرئ بالنون والياء ، والفاعل ما دلّ عليه ﴿كم أهلكنا﴾ لأنّ كم لا تقع فاعلة ، لا يقال : جاءنى كم رجل ، تقديره : أو لم يهد لهم كثرة إهلاكنا القرون . أو هذا الكلام كما هو بمضمونه ومعناه ، كقولك : يعصم لا إله إلا الله الدماء والأموال . ويجوز أن يكون فيه ضمير الله بدلالة القراءة بالنون . و ﴿القرون﴾ عاد وثمود وقوم لوط ﴿يمشون فى مساكنهم﴾ يعنى أهل مكة ، يمرون فى متاجرهم على ديارهم وبلادهم . وقرئ : يمشون : بالتشديد .

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

﴿الجرز﴾ الأرض التى جرز نباتها أى قطع ، إمّا لعدم الماء ، وإمّا لأنه رعى وأزيل ، ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ : جرز . ويدل عليه قوله ﴿فنخرج به زرعاً﴾ وعن ابن عباس

رضى الله عنه : إنها أرض اليمن . وعن مجاهد رضى الله عنه : هى أبين[١] . (به) بالماء ﴿تأكل﴾ من الزرع ﴿أنعامهم﴾ من عصفه ﴿وأنفسهم﴾ من حبه . وقرئ : يأكل ، بالياء .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

الفتح : النصر ، أو الفصل بالحكومة ، من قوله (ربنا افتح بيننا) وكان المسلمون يقولون إنّ الله سيفتح لنا على المشركين . ويفتح بيننا وبينهم ، فإذا سمع المشركون قالوا ﴿متى هذا الفتح﴾ أى فى أىّ وقت يكون ﴿إن كنتم صادقين﴾ فى أنه كائن . و ﴿يوم الفتح﴾ يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ، ويوم نصرهم عليهم . وقيل : هو يوم بدر . وعن مجاهد والحسن رضى الله عنهما : يوم فتح مكة . فإن قلت : قد سألوا عن وقت الفتح . فكيف ينطبق هذا الكلام جواباً على سؤالهم . قلت : كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح ، استعجالا منهم على وجه التكذيب والاستهزاء ، فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم فى سؤالهم فقيل لهم : لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا ، فكأنى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم ، وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان ، واستنظرتم فى إدراك العذاب فلم تنظروا . فإن قلت : فمن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لا ينفعهم الإيمان ، وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناساً يوم بدر . قلت : المراد أنّ المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم فى حال القتل ، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق ﴿وانتظر﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿إنهم منتظرون﴾ الغلبة عليكم وهلاككم ، كقوله تعالى (فتربصوا إنا معكم متربصون) وقرأ ابن السميفع رحمه الله : منتظرون . بفتح الظاء . ومعناه : وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم . يعنى أنهم هالكون لا محالة . أو وانتظر ذلك ؛ فإن الملائكة فى السماء ينتظرونه .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ الم تنزيل وتبارك الذى بيده الملك ، أعطى من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر[٢] » وقال : « من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام »[٣] .

(١) قوله « هى أبين » فى الصحاح « أبين » : اسم رجل نسب إليه عدن ، فيقال : عدن أبين . اه فتدبر . (ع)
(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى عن أبى وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية أبى عصمة عن زيد العمى عن أبى بصرة عن ابن عباس عن أبى . وعند ابن مردويه مزوجه آخر عن نافع عن ابن عمر . وفى إسناده داود بن معاذ : وهو ساقط .
(٣) لم أجده .

سورة الأحزاب

مدنية ، وهى ثلاث وسبعون آية

[نزلت بعد آل عمران]

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)

عن زرّ قال : قال لى أبىّ بن كعب رضى الله عنه : كم تعدّون سورة الأحزاب ؟ قلت : ثلاثا وسبعين آية . قال : فوالذى يحلف به أبىّ بن كعب ، إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول . ولقد قرأنا منها آية الرجم : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم [١] . أراد أبىّ رضى الله عنه أنّ ذلك من جملة مانسخ من القرآن . وأمّا ما يحكى : أن تلك الزيادة كانت فى صحيفة فى بيت عائشة رضى الله عنها فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض [٢] . جعل نداءه بالنبىّ والرسول فى قوله ﴿يا أيها النبىّ اتق الله﴾ (يا أيها النبى لم تحرم) . (يا أيها الرسول بلغ ماأنزل إليك) وترك نداءه باسمه كما قال : يا آدم . ياموسى ، ياعيسى . يا داود : كرامة له وتشريفا ، وربئا بمحله وتنويها بفضله . فإن قلت : إن لم يوقع اسمه فى النداء فقد أوقعه فى الإخبار فى قوله (محمد رسول الله) . (وما محمد إلا رسول) . قلت : ذاك لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به ، فلا تفاوت بين النداء والإخبار ،

(١) أخرجه النسائى وابن حبان والحاكم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه كلهم من هذا الوجه .

(٢) قلت : بل راويها ثقة غير متهم . قال إبراهيم الحربى فى الغريب : حدثنا هرون بن عبد الله أن الرجم أنزل فى سورة الأحزاب مكتوباً فى خوصة فى بيت عائشة . فأكلتها شاتها ، وروى أبو يعلى والدارقطنى والبزار والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى المعرفة ، كلهم من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر عن عائشة وعن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة انتهى . وكأن المصنف فهم أن ثبوت هذه الزيادة يقتضى ماتدعيه الروافض : أن القرآن ذهب منه أشياء . وليس ذلك بلازم ، بل هذا مما نسخت تلاوته وبقى حكمه . وأكل الدواجن لها وقع بعد النسخ

ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ماذكره فى النداء (لقد جاءكم رسول من أنفسكم)، (وقال الرسول يارب)، (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة)، (والله ورسوله أحق أن يرضوه)، (النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، (إن الله وملائكته يصلون على النبيّ)، (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبيّ). اتق الله: واظب على ما أنت عليه من التقوى، واثبت عليه، وازدد منه، وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ لا تساعدهم على شيء. ولا تقبل لهم رأيا ولا مشورة، وجانبهم واحترس منهم، فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين، لا يريدون إلا المضارّة والمضادّة. وروى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان يحب إسلام اليهود قريظة والنضير وبنى قينقاع وقد بايعه ناس منهم على النفاق فكان يلين لهم جانبه ويكرم صغيرهم وكبيرهم. وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه. وكان يسمع منهم[1] فنزلت. وروى أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبا الأعور السلمى قدموا عليه فى الموادعة التى كانت بينه وبينهم. وقام معهم عبدالله بن أبىّ ومعتب بن قشير والجد بن قيس، فقالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تشفع وتنفع وندعك وربك، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين وهموا بقتلهم[2]. فنزلت: أى اتق الله فى نقض العهد ونبذ الموادعة، ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك. وروى أنّ أهل مكة دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم، وأن يزوجه شيبة بن ربيعة بنته، وخوفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع. فنزلت ﴿إنّ الله كان عليما﴾ بالصواب من الخطإ، والمصلحة من المفسدة ﴿حكيما﴾ لا يفعل شيئا ولا يأمر به إلا بداعى الحكمة ﴿واتبع ما يوحى إليك﴾ فى ترك طاعة الكافرين والمنافقين وغير ذلك ﴿إنّ الله﴾ الذى يوحى إليك خبير ﴿بما تعملون﴾ فموح إليك ما يصلح به أعمالكم، فلا حاجة بكم إلى الاستماع من الكفرة. وقرئ: يعملون، بالياء، أى: بما يعمل المنافقون من كيدهم لكم ومكرهم بكم ﴿وتوكل على الله﴾ وأسند أمرك إليه وكله إلى تدبيره ﴿وكيلا﴾ حافظا موكولا إليه كل أمر.

مَاجَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّـٰئِي تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ

(١) لم أجده.

(٢) هكذا ذكره الثعلبى والواحدى بغير سند.

فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا ءَابَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾

ماجمع الله قلبين فى جوف، ولازوجية وأمومة فى امرأة، ولا بنوة ودعوة فى رجل. والمعنى: أن الله سبحانه كما لم ير فى حكمته أن يجعل للإنسان قلبين ـ لأنه لايخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل مايفعل بالآخر من أفعال القلوب فأحدهما فضلة غير محتاج إليها، وإما أن يفعل بهذا غير مايفعل بذاك، فذلك يؤدى إلى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها. عالما ظانا. موقنا شاكا فى حالة واحدة ـ لم ير أيضا أن تكون المرأة الواحدة أمّاً لرجل زوجا له؛ لأن الأم مخدومة مخفوض لها جناح الذل. والزوجة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره كالمملوكة وهما حالتان متنافيتان. وأن يكون الرجل الواحد دعيا لرجل وابنا له: لأنّ البنوة. أصالة فى النسب وعراقة فيه، والدعوة: إلصاق عارض بالتسمية [1] لاغير، ولا يجتمع فى الشيء الواحد أن يكون أصيلا غير أصيل، وهذا مثل ضربه الله فى زيد بن حارثة وهو رجل من كلب سبي صغيراً. وكانت العرب فى جاهليتها يتغاورون ويتسابون. فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة. فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له. وطلبه أبوه وعمه، فخير فاختار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعتقه. وكانوا يقولون: زيد بن محمد [2]، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية. وقوله (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) وقيل: كان أبو معمر رجلا من أحفظ العرب وأرواهم، فقيل له: ذو القلبين. وقيل: هو جميل بن أسد الفهرى، وكان يقول: إن لى قلبين. أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد، فروى أنه انهزم يوم بدر، فمرّ بأبى سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى فى رجله. فقال له: مافعل الناس؟ فقال: هم ما بين مقتول وهارب. فقال له: مابال إحدى نعليك فى رجلك والأخرى فى يدك؟ فقال: ماظننت إلا أنهما

(١) قال محمود: «أسد ماذكر فيه من التأويلات أنهم كانوا يدعون لابن خطل قلبين، فنفى الله صحة ذلك وقرنه بما كانوا يقولونه من الأقاويل المتناقضة، كجعل الأدعياء أبناء والزوجات أمهات. قال: وهذه الأمور الثلاثة متنافية: أما الأول فلأنه يلزم من اجتماع القلبين قيام أحد المعنيين بأحدهما وضده فى الآخر، وذلك كالعلم والجهل والأمن والخوف وغير ذلك. وأما الثانى فلأن الزوجة فى مقام الامتهان والأم فى محل الاكرام، فنافى أن تكون الزوجة أما. وأما الثالث فلأن النبوة أصالة وعراقة. والدعوة لاصقة عارضة، فهما متنافيان. وذكر الجوف ليصور به صورة اجتماع القلبين فيه حتى يبادره السامع بالانكار.

(٢) هكذا ذكره ابن إسحاق وابن أبى خيثمة من طريقه. وزاد فى آخره «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منه بعشر سنين فتبناه» وعن سالم عن أبيه قال «ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى أنزل الله (ادعوهم لآبائهم) انتهى. وهذه الزيادة فى الصحيحين عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه «ما كنا ندعو زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن (ادعوهم لآبائهم ـ الآية)

فى رجلٍ ، فأكذب الله قوله وقولهم ، وضربه مثلا فى الظهار والتبنى . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كان المنافقون يقولون : لمحمد قلبان فأكذبهم الله . وقيل : سها فى صلاته ، فقالت اليهود : له قلبان : قلب مع أصحابه ، وقلب معكم . وعن الحسن : نزلت فى أن الواحد يقول : نفس تأمرنى ونفس تنهانى . والتنكير فى رجل ، وإدخال من الاستغراقية على قلبين تأكيدان لما قصد من المعنى ، كأنه قال : ماجعل الله لأمة الرجال ولالواحد منهم قلبين البتة فى جوفه . فإن قلت : أى فائدة فى ذكر الجوف ؟ قلت : الفائدة فيه كالفائدة فى قوله (القلوب التى فى الصدور) وذلك مايحصل للسامع من زيادة التصور التجلى للمدلول عليه ، لأنه إذا سمع به صور لنفسه جوفا يشتمل على قلبين ، فكان أسرع إلى الإنكار . وقرئ : اللائى[1] ، بياء وهمزة مكسورتين . واللائى . بياء ساكنة بعد الهمزة : وتظاهرون : من ظاهر . وتظاهرون . من اظاهر ، بمعنى تظاهر . وتظهرون : من أظهر ، بمعنى تظهر . وتظهرون : من ظهر ، بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد . وتظهرون : من ظهر ، بلفظ فعل من الظهور . ومعنى ظاهر من امرأته : قال لها : أنت علىّ كظهر أمى . ونحوه فى العبارة عن اللفظ : لبى المحرم ، إذا قال لبيك . وأفف الرجل : إذا قال : أف وأخوات لهنّ . فإن قلت : فما وجه تعديته وأخواته بمن ؟ قلت : كان الظهار طلاقا عند أهل الجاهلية . فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها كما يتجنبون المطلقة ، فكان قولهم : تظاهر منها تباعد منها بجهة الظهار ، وتظهر منها : تحرز منها . وظاهر منها : حاذر منها ، وظهر منها : وحش منها[2] . وظهر منها : خلص منها . ونظيره : آلى من امرأته ، لما ضمن معنى التباعد منها عدى بمن . وإلا فآلى فى أصله الذى هو بمعنى : حلف وأقسم ، ليس هذا بحكمه . فإن قلت : ما معنى قولهم : أنت علىّ كظهر أمى ؟ قلت : أرادوا أن يقولوا : أنت علىّ حرام كبطن أمى ، فكنوا عن البطن بالظهر ؛ لئلا يذكروا البطن الذى ذكره يقارب ذكر الفرج ، وإنما جعلوا الكناية عن البطن بالظهر لأنه عمود البطن . ومنه حديث عمر رضى الله عنه : يجىء به أحدهم على عمود بطنه : أراد على ظهره . ووجه آخر : وهو أن إتيان المرأة وظهرها إلى السماء كان محرماً عندهم محظوراً . وكان أهل المدينة يقولون : إذا أتيت المرأة ووجهها إلى الأرض جاء الولد أحول . فلقصد المطلق منهم إلى التغليظ فى تحريم امرأته عليه ، شبهها بالظهر ثم لم يقنع

---

(١) قوله «وقرئ اللائى . بياء وهمزة مكسورتين» لعل مراده قراءتان إحداهما بياء مكسورة والأخرى بهمزة مكسورة ، لكن الياء ليست ياء صرفة ، بل هى همزة مسهلة ينطق بها بين الهمزة والياء والحاصل : أنه قرئ اللائى بياء ساكنة بعد الهمز . وقرئ اللاء بهمزة مكسورة من غير ياء . وقرئ : اللائى بشبه الياء مكسورة وهى الهمزة التى ينطق بها بين بين . وقرئ : اللاى بياء ساكنة بعد الألف من غير همز . فهذه أربع قراآت فى لفظ اللائى أينما كان فى القرآن ، كما فى شرح الشاطبية . (ع)

(٢) قوله «وحش منها» أى خلا منها أفاده الصحاح . (ع)

بذلك حتى جعله ظهر أمه فلم يترك . فإن قلت : الدعىّ فعيل بمعنى مفعول ، وهو الذى يُدعى ولداً فما له جمع على افعلاء ، وبابه : ما كان منه بمعنى فاعل ، كتقى وأتقياء ، وشقىّ وأشقياء ، ولا يكون ذلك فى نحو رمى وسمى . قلت : إن شذوذه عن القياس كشذوذ قتلاء وأسراء ، والطريق فى مثل ذلك التشبيه اللفظى ﴿ذلكم﴾ النسب هو ﴿قولكم بأفواهكم﴾ هذا ابنى لا غير من غير أن يواطئه اعتقاد لصحته وكونه حقاً . والله عز وجل لا يقول إلا ما هو حق ظاهره وباطنه ، ولا يهدى إلا سبيل الحق . ثم قال ماهو الحق وهدى إلى ما هو سبيل الحق ، وهو قوله ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ وبين أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين فى القسط والعدل . وفى فصل هذه الجمل ووصلها [1] : من الحسن والفصاحة مالا يخفى على عالم بطرق النظم . وقرأ قتادة : وهو الذى يهدى السبيل . وقيل : كان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه جلد الرجل وظرفه : ضمه إلى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه ، وكان ينسب إليه فيقال : فلان ابن فلان ﴿فإن لم تعلموا﴾ لهم آباء تنسبونهم إليهم ﴿فـ﴾ـهم ﴿إخوانكم فى الدين﴾ وأولياؤكم فى الدين فقولوا : هذا أخى وهذا مولاى ، ويا أخى ، ويا مولاى : يريد الأخوة فى الدين والولاية فيه ﴿ما تعمدت﴾ فى محل الجر عطفاً على ما أخطأتم . ويجوز أن يكون مرتفعاً على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره : ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح . والمعنى : لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهى ، ولكن الإثم فيما تعمدتموه بعد النهى . أو لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم يا بنىّ على سبيل الخطإ وسبق اللسان ، ولكن إذا قلتموه متعمدين . ويجوز أن يراد العفو عن الخطإ دون العمد على طريق العموم ، كقوله عليه الصلاة والسلام «ما أخشى عليكم الخطأ ولكن أخشى عليكم العمد» [2] وقوله عليه الصلاة والسلام «وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه» [3] ، ثم تناول لعمومه خطأ التبنى وعمده . فإن قلت : فإذا وجد التبنى فما حكمه ؟ قلت : إذا كان المتبنى مجهول النسب وأصغر سناً من المتبنى ثبت نسبه منه ، وإن كان عبداً له عتق مع ثبوت النسب ، وإن كان لا يولد مثله لمثله لم

---

(١) قوله «وفى فصل هذه الجمل ووصلها» أى : فصل ما فصل منها ووصل ما وصل . (ع)

(٢) أخرجه ابن حبان والحاكم والبيهقى فى الشعب من طريق جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبى هريرة مرفوعا أتم منه . وأخرجه الطبرانى فى الأوسط وفى مسند الشاميين من رواية ثابت بن عجلان حدثنى عطاء عن عائشة رضى الله عنها .

(٣) أخرجه ابن عدى من رواية حسن بن برقة حدثنى أبى عن الحسن عن أبى بكرة رفعه «رفع الله عن هذه الأمة ثلاثا : الخطأ والنسيان والأمر المكرهون عليه» هذه من منكرات جعفر . وأخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث ابن عباس . فأما ابن حبان فقال : عن عطاء عن عبيد بن عمير عنه ، بلفظ «إن الله تجاوز» وأما ابن ماجه فقال عن الأوزاعى «إن الله وضع»

يثبت النسب، ولكنه يعتق عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وعند صاحبيه لا يعتق. وأما المعروف النسب فلا يثبت نسبه بالتبني وإن كان عبداً عتق ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ لعفوه عن الخطأ وعن العمد إذا تاب العامد [1].

النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

﴿النبيّ أولى بالمؤمنين﴾ في كل شيء من أمور الدين والدنيا ﴿من أنفسهم﴾ ولهذا أطلق ولم يقيد، فيجب عليهم أن يكون أحبّ إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقه آثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وأن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب، ووقاءه إذا لقحت حرب، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصرفهم عنه، لأنّ كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين وما صرفهم عنه، فأخذ بحجزهم [2] لئلا يتهافتوا فيما يرمى بهم إلى الشقاوة وعذاب النار. أو هو أولى بهم، على معنى أنه أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم، كقوله تعالى (بالمؤمنين رؤف رحيم) وعن النبي صلى الله عليه وسلم «ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة. اقرؤا إن شئتم (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فأيما مؤمن هلك وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعا فإليّ» [3] وفي قراءة ابن مسعود: النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أب لهم. وقال مجاهد: كل نبيّ فهو أبو أمته. ولذلك صار المؤمنون إخوة: لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم أبوهم في الدين ﴿وأزواجه أمّهاتهم﴾ تشبيه لهنّ بالأمهات في بعض الأحكام، وهو وجوب تعظيمهنّ واحترامهن. وتحريم نكاحهن: قال الله تعالى (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) وهنّ فيما وراء ذلك بمنزلة الأجنبيات، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: لسنا أمهات النساء [4]. تعني أنهنّ إنما كنّ أمّهات الرجال، لكونهنّ

(١) قوله «وعن العمد إذا تاب العامد» هذا عند المعتزلة. وقد يغفر بمجرد الفضل عند أهل السنة. (ع)
(٢) قوله «فأخذ بحجزهم» في الصحاح «حجزة الازار»: معقده. وحجزة السراويل: التي فيها التكة. (ع)
(٣) أخرجه البخاري من طريق عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة رضى الله عنه بمعناه.
(٤) أخرجه الدارقطني من رواية معضر الأعتق حدثني حرفاء قالت: قلت لعائشة «يا أم. فقالت: لست أم النساء. إنما أنا أم الرجال» وفي الطبقات من طريق مسروق قال، قالت امرأة لعائشة: يا أم. فقالت عائشة إني لست بأمك إنما أنا أم الرجال».

محرمات عليهم كتحريم أمهاتهم . والدليل على ذلك : أنّ هذا التحريم لم يتعد إلى بناتهن ، وكذلك لم يثبت لهن سائر أحكام الأمهات . كان المسلمون فى صدر الإسلام يتوارثون بالولاية فى الدين وبالهجرة لا بالقرابة، كما كانت تتألف قلوب قوم بإسهام لهم فى الصدقات ، ثم نسخ ذلك لما دجا الإسلام [1] وعزّ أهله ، وجعل التوارث بحق القرابة ﴿فى كتاب الله﴾ فى اللوح . أو فيما أوحى الله إلى نبيه وهو هذه الآية . أو فى آية المواريث . أو فيما فرض الله كقوله (كتاب الله عليكم). ﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾ يجوز أن يكون بيانا لأولى الأرحام ، أى : الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضا من الأجانب . ويجوز أن يكون لابتداء الغاية ، أى : أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الولاية فى الدين ، ومن المهاجرين بحق الهجرة . فإن قلت : مم استثنى ﴿أن تفعلوا﴾ ؟ قلت : من أعم العام فى معنى النفع والإحسان ، كما تقول: القريب أولى من الأجنبي إلا فى الوصية ، تريد : أنه أحق منه فى كل نفع من ميراث وهبة وهدية وصدقة وغير ذلك، إلا فى الوصية . والمراد بفعل المعروف : التوصية لأنه لا وصية لوارث وعدى تفعلوا بإلى ، لأنه فى معنى : تسدوا وتزلوا [2] والمراد بالأولياء : المؤمنون والمهاجرون للولاية فى الدين ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر فى الآيتين جميعا . وتفسير الكتاب : ما مر آنفا. والجملة مستأنفة كالخاتمة لما ذكر من الأحكام .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨)

﴿و﴾ اذكر حين ﴿أخذنا من النبيين﴾ جميعا ﴿ميثاقهم﴾ بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم ﴿ومنك﴾ خصوصا ﴿ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى﴾ وإنما فعلنا ذلك ﴿ليسأل﴾ الله يوم القيامة عند تواقف الأشهاد المؤمنين الذين صدقوا عهدهم ووفوا به ، من جملة من أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴿عن صدقهم﴾ عهدهم وشهادتهم ، فيشهد لهم الأنبياء بأنهم صدقوا عهدهم وشهادتهم وكانوا مؤمنين . أو ليسأل المصدقين الأنبياء عن تصديقهم . لأن من قال للصادق : صدقت ، كان صادقا فى قوله . أو ليسأل الأنبياء ما الذى أجابتهم به أممهم. وتأويل مسألة الرسل : تبكيت الكافرين بهم ، كقوله (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون

(١) قوله « دجا الاسلام » فى الصحاح : دجا الاسلام ، أى : قوى وألبس كل شىء . (ع)

(٢) قوله « لأنه فى معنى تسدوا وتزلوا » فى الصحاح : أزلت إليه نعمة ، أى : أسديتها . وفى الحديث : « من أزلت إليه نعمة فليشكرها » اهـ . (ع)

الله) . فإن قلت : لم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على نوح فمن بعده [١] قلت : هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذراريهم [٢] ، فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء المفضلين : قدم عليهم لبيان أنه أفضلهم ، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه . فإن قلت : فقد قدم عليه نوح عليه السلام فى الآية التى هى أخت هذه الآية ، وهى قوله (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك) ثم قدم على غيره . قلت : مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك ، وذلك أنّ الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة فكأنه قال : شرع لكم الدين الأصيل الذى بعث عليه نوح فى العهد القديم ، وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء فى العهد الحديث ، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير . فإن قلت : فماذا أراد بالميثاق الغليظ ؟ قلت : أراد به ذلك الميثاق بعينه . معناه : وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقا غليظا . والغلظ : استعارة من وصف الأجرام ، والمراد : عظم الميثاق وجلالة شأنه فى بابه . وقيل الميثاق الغليظ : اليمين بالله على الوفاء بما حملوا . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿ وأعد للكافرين ﴾ ؟ قلت : على أخذنا من النبيين ، لأن المعنى أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين ، وأعد للكافرين عذابا أليما . أو على ما دل عليه (ليسأل الصادقين) كأنه قال : فأثاب المؤمنين وأعدّ للكافرين .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

---

(١) قال محمود : « قدم النبي صلى الله عليه وسلم على نوح لأنهم ذكروا تخصيصاً بعد التعميم تفضيلا لهم فقدم أفضل المخصوصين » قال أحمد : وليس التقديم فى الذكر بمقتض لذلك . ألا ترى الى قوله :

بهاليل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد المتخير

فأخر ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ليختم به تشريفاً له ، وإذا ثبت أن التفضيل ليس من لوازمه التقديم ، فيظهر والله أعلم فى سر تقديمه عليه الصلاة والسلام على نوح ومن بعده فى الذكر : أنه هو المخاطب من بينهم ، والمنزل عليه هذا المتلو ، فكان تقديمه لذلك ، ثم لما قدم ذكره عليه الصلاة والسلام : جرى ذكر الأنبياء صلوات الله عليهم بعده على ترتيب أزمنة وجودهم ، والله أعلم .

(٢) قوله « هم مشاهيرهم وذراريهم » لعله « دراريهم » بالدال المهملة . والدراري : الكواكب العظام ، كما أفاده الصحاح . (ع)

﴿اذكروا﴾ ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق ﴿إذ جاءتكم جنود﴾ وهم الأحزاب ، فأرسل الله عليهم ريح الصبا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»[1] ﴿وجنودا لم تروها﴾ وهم الملائكة وكانوا ألفا : بعث الله عليهم صبا باردة فى ليلة شاتية ، فأخصرتهم[2] وسفت التراب فى وجوههم . وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وماجت الخيل بعضها فى بعض ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، وكبرت الملائكة فى جوانب عسكرهم ، فقال طليحة بن خويلد الأسدى : أما محمد فقد بدأكم بالسحر ، فالنجاء النجاء ، فانهزموا من غير قتال ، وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة . أشار عليه بذلك سلمان الفارسى رضى الله عنه ، ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا فى الآطام[3] واشتدّ الخوف ، وظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من المنافقين حتى قال معتب بن قشير : كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر لا نقدر أن نذهب إلى الغائط . وكانت قريش قد أقبلت فى عشرة آلاف من الأحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان ، وخرج غطفان فى ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة بن حصن . وعامر بن الطفيل فى هوازن . وضامتهم اليهود من قريظة والنضير ، ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامى بالنبل والحجارة ، حتى أنزل الله النصر[4] ﴿تعملون﴾ قرئ بالتاء والياء . ﴿من فوقكم﴾ من أعلى الوادى من قبل المشرق : بنو غطفان ﴿ومن أسفل منكم﴾ من أسفل الوادى من قبل المغرب : قريش تحزبوا وقالوا : سنكون جملة واحدة حتى نستأصل محمداً ﴿زاغت الأبصار﴾ مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخوصاً . وقيل : عدلت عن كل شىء فلم تلتفت إلا إلى عدوّها لشدة الروع . الحنجرة : رأس الغلصمة وهى منتهى الحلقوم . والحلقوم : مدخل الطعام والشراب ، قالوا : إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب أو الغمّ الشديد : ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة ، ومن ثمة قيل للجبان : انتفخ سحره . ويجوز أن يكون ذلك مثلا فى اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ خطاب للذين آمنوا . ومنهم الثبت القلوب والأقدام ،

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) قوله «فأخصرتهم» فى الصحاح «الخصر» بالتحريك : البرد . وقد خصر الرجل : إذا آلمه البرد فى أطرافه اه ، فأخصرتهم : أوقعتهم فى الخصر أى البرد . (ع)

(٣) قوله «فرفعوا فى الآطام» أى الحصون ، وهو جمع أطم كعنق . (ع)

(٤) أخرجه ابن إسحاق فى المغازى . ومن طريقه الطبرى عن يزيد بن رومان عن عروة عن عبد الله بن أبى بكر ومحمد بن كعب وغيرهم من علمائنا ، فذكر القصة بطولها وأتم مما ههنا . وهو فى السيرة لابن هشام من قول إسحاق .

والضعاف القلوب : الذين هم على حرف ، والمنافقون : الذين لم يوجد منهم الإيمان إلا بألسنتهم فظن الأولون بالله أنه يبتليهم ويفتنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال ، وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكى عنهم . وعن الحسن : ظنوا ظنونا مختلفة : ظن المنافقون أنّ المسلمين يستأصلون ، وظنّ المؤمنون أنهم يبتلون . وقرئ : الظنون ، بغير ألف فى الوصل والوقف وهو القياس ، وبزيادة ألف فى الوقف زادوها فى الفاصلة ، كما زادها فى القافية من قال :

* أَقِلِّي اللَّوْمَ عَاذِلَ وَالعِتَابَا * (١)

وكذلك الرسولا والسبيلا . وقرئ بزيادتها فى الوصل أيضاً ، إجراء له مجرى الوقف . قال أبو عبيد : وهنّ كلهنّ فى الإمام بألف . وعن أبى عمرو إشمام زاى زلزلوا . وقرئ زلزالا بالفتح . والمعنى : أنّ الخوف أزعجهم أشد الإزعاج

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَاوَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَٰأَهْلَ يَثْرِبَ لَامُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤)

﴿إلا غروراً﴾ قيل قائله : معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال : يعدنا محمد فتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا (٢) ، ما هذا إلا وعد غرور ﴿طائفة منهم﴾ هم أوس بن قيظى ومن وافقه على رأيه . وعن السدى عبد الله بن أبىّ وأصحابه . ويثرب : اسم

---

(١) أقلى اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا
إذا غضبت على بنو تميم وجدت الناس كلهم غضابا

لجرير ، وزاد الألف فى القافية للاطلاق ، وبنو تميم ينشدون مثل ذلك بتنوين الترنم بدل حرف الاطلاق . قال الزمخشرى : إذا وصل المنشد ولم يقف ، وظاهر كلام النحويين : أنه إنما يجىء فى الوقف . وعاذل : منادى ، مرخم عاذلة . يقول : اتركى ملامى وعتابى ، وإن فعلت صواباً فاعترفى به ، ويروى بكسر التاء ، فالمعنى : أن لومك خطأ فاذا أردت الصواب فقولى : لقد أصاب ، وجعل غضب بنى تميم غضب كل الناس ؛ لأن ماعداهم تبع . أو كالمعدوم . ويروى : إذا غضبت عليك ، والخطاب لكل سامع .

(٢) قوله « فرقا » أى خوفا . (ع)

المدينة. وقيل: أرض وقعت المدينة فى ناحية منها ﴿لا مقام لكم﴾ قرئ بضم الميم وفتحها، أى لا قرار لكم ههنا، ولا مكان تقيمون فيه أو تقومون ﴿فارجعوا﴾ إلى المدينة: أمروهم بالهرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: قالوا لهم: ارجعوا كفارا وأسلموا محمداً، وإلا فليست يثرب لكم بمكان. قرئ: عورة، بسكون الواو وكسرها، فالعورة: الخلل، والعورة: ذات العورة، يقال: عور المكان عوراً إذا بدا فيه خلل يخاف منه العدو والسارق. ويجوز أن تكون (عورة) تخفيف: عورة، اعتذروا أنّ بيوتهم معرّضة للعدو ممكنة للسراق، لأنها غير محرزة ولا محصنة، فاستأذنوه ليحصنوها ثم يرجعوا إليه، فأكذبهم الله بأنهم لايخافون ذلك، وإنما يريدون الفرار ﴿ولو دخلت عليهم﴾ المدينة. وقيل: بيوتهم، من قولك: دخلت على فلان داره ﴿من أقطارها﴾ من جوانبها، يريد: ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التى يفرون خوفا منها مدينتهم وبيوتهم من نواحيها كلها. وانثالت [١] على أهاليهم وأولادهم ناهبين سابين، ثم سئلوا عند ذلك الفزع وتلك الرجفة ﴿الفتنة﴾ أى الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين، لأتوها: لجاؤها وفعلوها. وقرئ: لآتوها: لأعطوها ﴿وما تلبثوا بها﴾ وما ألبثوا إعطاءها ﴿إلا يسيراً﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف. أو وما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيراً، فإن الله يهلكهم. والمعنى: أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم، ويتمحلون ليفروا عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. وعن مصافة الأحزاب الذين ملؤهم هولا ورعبا؛ وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا [٢] عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر وقيل لهم كونوا على المسلمين، لسارعوا إليه وما تعللوا بشيء، وما ذاك إلا لمقتهم الإسلام. وشدة بغضهم لأهله، وحبهم الكفر وتهالكهم على حزبه.

وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٦﴾

عن ابن عباس: عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم. وقيل: هم قوم غابوا عن بدر فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن. وعن محمد بن إسحق عاهدوا يوم أحد أن لا يفرّوا بعدما نزل فيهم مانزل ﴿مسؤلا﴾ مطلوبا مقتضى حتى يوفى به ﴿لن ينفعكم الفرار﴾ مما لا بد لكم من نزوله بكم من حتف أنف أو قتل. وإن نفعكم الفرار مثلا فمنعتم

(١) قوله «وانثالت» فى الصحاح: انثال عليه الناس من كل وجه، أى: انصبوا. (ع)
(٢) قوله «لو كبسوا» فى الصحاح: كبسوا دار فلان: أغاروا عليها فجأة. (ع)

بالتأخير : لم يكن ذلك التمتيع إلا زمانا قليلا . وعن بعض المروانية : أنه مرّ بحائط مائل فأسرع ، فتليت له هذه الآية فقال : ذلك القليل نطلب .

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴿١٧﴾

فإن قلت : كيف جعلت الرحمة قرينة السوء فى العصمة ولا عصمة إلا من السوء ؟ قلت : معناه أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة ، فاختصر الكلام وأجرى مجرى قوله :

* مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا * (١)

أو حمل الثانى على الأوّل لما فى العصمة من معنى المنع .

قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِى الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢٠﴾

﴿المعوّقين﴾ المثبطين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون : كانوا يقولون ﴿لإخوانهم﴾ من ساكنى المدينة من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس (٢) ، ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، فخلوهم و ﴿هلمّ إلينا﴾ أى قربوا

(١) ورأيت زوجك فى الوغى متقلدا سيفا ورمحا
الوغى : الحرب . ورمحا : نصب بمحذوف يناسبه ، أى : متقلداً سيفاً وحاملا رمحا . وروى بدل الشطر الأول : «ياليت زوجك قد غدا » أى : ذهب إلى الحرب غدوة لابساً سلاحه .

(٢) قوله « ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس » أى قليلون يشبعهم رأس واحد ، وهو جمع آكل ، والالتهام : الابتلاع ، كذا فى الصحاح . (ع)

أنفسكم إلينا. وهى لغة أهل الحجاز: يستوون فيه بين الواحد والجماعة. وأمّا تميم فيقولون: هلمّ يارجل، وهلموا يارجال، وهو صوت سمى به فعل متعدّ مثل احضر وقرب (قل هلمّ شهداءكم) ﴿إلا قليلا﴾ إلا إتيانا قليلا يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم، ولا تراهم يبارزون ويقاتلون إلا شيئا قليلا إذا اضطروا إليه، كقوله (ماقاتلوا إلا قليلا). ﴿أشحة عليكم﴾ فى وقت الحرب أضناء بكم، يترفرفون عليكم كما يفعل الرجل بالذاب عنه المناضل دونه عند الخوف ﴿ينظرون إليك﴾ فى تلك الحالة كما ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً ولواذاً بك، فإذا ذهب الخوف وحيزت الغنائم ووقعت القسمة: نقلوا ذلك الشحّ و تلك الضنة والرفرفة عليكم إلى الخير ـ وهو المال والغنيمة ـ ونسوا تلك الحالة الأولى، واجترؤا عليكم وضربوكم بألسنتهم وقالوا: وفروا قسمتنا فإنا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوّكم وبنا نصرتم عليه. ونصب ﴿أشحة﴾ على الحال أو على الذم. وقرىء: أشحة، بالرفع. وصلقوكم بالصاد. فإن قلت: هل يثبت للمنافق عمل حتى يرد عليه الإحباط؟ قلت: لا ولكنه تعليم لمن عسى يظن أنّ الإيمان باللسان إيمان وإن لم يوطئه القلب، وأن مايعمل المنافق من الأعمال يجدى عليه، فبين أنّ إيمانه ليس بإيمان، وأن كل عمل يوجد منه باطل. وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح، وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء على غير أساس، وأنها مما يذهب عند الله هباء منثوراً. فإن قلت: مامعنى قوله ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ وكل شيء عليه يسير؟ قلت: معناه: أن أعمالهم حقيقة بالإحباط، تدعو إليه الدواعى، ولا يصرف عنه صارف ﴿يحسبون﴾ أنّ الأحزاب لم ينهزموا، وقد انهزموا فانصرفوا عن الخندق إلى المدينة راجعين لما نزل بهم من الخوف الشديد ودخلهم من الجبن المفرط ﴿وإن يأت الأحزاب﴾ كرّة ثانية. تمنوا لخوفهم مما منوا [1] به هذه الكرّة أنهم خارجون إلى البدو حاصلون بين الأعراب ﴿يسألون﴾ كل قادم منهم من جانب المدينة عن أخباركم وعما جرى عليكم ﴿ولو كانوا فيكم﴾ ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال ـ لم يقاتلوا إلا تعلة [2] رياء وسمعة. وقرىء: بدّى، على فعّل جمع باد كغاز وغزّى. وفى رواية صاحب الإقليد: بدىّ، بوزن عدىّ. ويساءلون، أى: يتساءلون. ومعناه. يقول بعضهم لبعض: ماذا سمعت؟ ماذا بلغك؟ أو يتساءلون الأعراب كما تقول: رأيت الهلال وتراءيناه: كان عليكم أن تواسوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفسكم فتوازروه وتثبتوا معه، كما آساكم بنفسه فى

(١) قوله «مما منوا به» أى ابتلوا به. (ع)

(٢) قوله «إلا تعلة» فى الصحاح: علله بالشيء، أى: لهاه به، كما يعلل الصبي بشيء من الطعام يتجزأ به عن اللبن. يقال: فلان يعلل نفسه بتعلة. (ع)

الصبر على الجهاد والثبات فى مرحى الحرب [١] . حتى كسرت رباعيته يوم أحد وشجّ وجهه .

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا (٢١)

فإن قلت : فما حقيقة قوله ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله إسوة حسنة ﴾ وقرئ : أسوة ، [٢] بالضم ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أنه فى نفسه أسوة حسنة ، أى : قدوة ، وهو المؤتسى ، أى : المقتدى به ، كما تقول : فى البيضة عشرون منا حديد ، أى : هى فى نفسها هذا المبلغ من الحديد . والثانى : أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع . وهى المواساة بنفسه ﴿ لمن كان يرجو الله ﴾ بدل من لكم ، كقوله (للذين استضعفوا لمن آمن منهم) يرجو الله واليوم الآخر : من قولك رجوت زيداً وفضله ، أى : فضل زيد . أو يرجو أيام الله . واليوم الآخر خصوصا . والرجاء بمعنى الأمل أو الخوف ﴿ وذكر الله كثيرا ﴾ وقرن الرجاء بالطاعات الكثيرة والتوفر على الأعمال الصالحة ، والمؤتسى برسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان كذلك .

وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَـٰذَا مَاوَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)

وعدهم الله أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه فى قوله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) فلما جاء الأحزاب وشخص بهم واضطربوا ورعبوا الرعب الشديد ﴿ قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ﴾ وأيقنوا بالجنة والنصر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : إن الأحزاب سائرون إليكم تسعاً أو عشرا ، أى : فى آخر تسع ليال أو عشر ، فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك [٣] . وهذا إشارة إلى الخطب أو البلاء ﴿ إيمانا ﴾ بالله وبمواعيده ﴿ وتسليما ﴾ لقضاياه وأقداره .

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَاعَـٰهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ

---

(١) قوله «فى مرحى الحرب» أى مكان إدارة رحاها . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله «وقرئ أسوة بالضم» يفيد أن قراءة الكسر هى المشهورة . (ع)

(٣) لم أجده

وَيُعَذِّبَ الْمُنَـٰفِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم : عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل . وحمزة ، ومصعب بن عمير ، وغيرهم ، رضى الله عنهم ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ يعنى حمزة ومصعبا ﴿ومنهم من ينتظر﴾ يعنى عثمان وطلحة . وفى الحديث «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة»[1] فإن قلت : ما قضاء النحب ؟ قلت : وقع عبارة عن الموت ؛ لأنّ كل حى لابدّ له من أن يموت . فكأنه نذرٌ لازم فى رقبته ، فإذا مات فقد قضى نحبه ، أى : نذره . وقوله (فمنهم من قضى نحبه) يحتمل موته شهيدا ، ويحتمل وفاءه بنذره من الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : فما حقيقة قوله ﴿صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ ؟ قلت : يقال : صدقنى أخوك وكذبنى ، إذا قال لك الصدق والكذب . وأما المثل : صدقنى سنّ بكره . فمعناه : صدقنى فى سن بكره ، بطرح الجار وإيصال الفعل ، فلا يخلو (ما عاهدوا الله عليه) إما أن يكون بمنزلة السنّ فى طرح الجار ، وإمّا أن يجعل المعاهد عليه مصدوقا على المجاز ، كأنهم قالوا للمعاهد عليه : سنفى بك ، وهم وافون به فقد صدقوه ، ولو كانوا ناكثين لكذبوه ولكان مكذوبا ﴿وما بدلوا﴾ العهد ولا غيروه ، لا المستشهد ولا من ينتظر الشهادة ، ولقد ثبت طلحة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتى أصيبت يده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أوجب طلحة»[2] وفيه تعريض بمن بدلوا من أهل النفاق ومرض القلوب : جعل

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه والحاكم من طريق الصلت بن دينار عن أبى نصرة عن جابر . والصلت ضعيف وله طريق أخرى عند الطبرانى من طريق أولاد طلحة عن طلحة .

(٢) أخرجه الثعلبى من رواية جرير بن حازم عن عروة فى قوله تعالى «من المؤمنين رجال صدقوا ـ الآية» منهم طلحة بن عبيد الله فذكره . وقد روى مفرقا من غير هذا الوجه . فقضيته أن يده أصيبت . أخرجها البخارى من رواية قيس بن أبى حازم «رأيت يد طلحة شلاء ، وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد» والنسائى =

المنافقون، كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم لأنّ كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنهما استويا في طلبهما والسعى لتحصيلهما. ويعذبهم ﴿إن شاء﴾ إذا لم يتوبوا ﴿أو يتوب عليهم﴾ إذا تابوا ﴿ورد الله الذين كفروا﴾ الأحزاب ﴿بغيظهم﴾ مغيظين، كقوله (تنبت بالدهن). ﴿لم ينالوا خيرا﴾ غير ظافرين، وهما حالان بتداخل أو تعاقب. ويجوز أن تكون الثانية بيانا للأولى أو استئنافا ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ بالريح والملائكة ﴿وأنزل الذين﴾ ظاهروا الأحزاب من أهل الكتاب ﴿من صياصيهم﴾ من حصونهم. والصيصية ماتحصن به. يقال لقرن الثور والظبى: صيصية، ولشوكة الديك، وهي مخلبه التي في ساقه، لأنه يتحصن بها. روى أنّ جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا سلاحهم ـ على فرسه الحيزوم والغبار على وجه الفرس وعلى السرج، فقال: ماهذا ياجبريل؟ قال: من متابعة قريش: فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الغبار عن وجه الفرس وعن السرج، فقال: يارسول الله. إن الملائكة لم تضع السلاح، إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظه وأنا عامد إليهم. فإن الله داقهم دق البيض على الصفا، وإنهم لكم طعمة فأذن في الناس: أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلى العصر إلا في بنى قريظة. فما صلى كثير من الناس العصر إلا بعد العشاء الآخرة، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم. فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: تنزلون على حكمى؟ فأبوا، فقال: على حكم سعد بن معاذ؟ فرضوا به، فقال سعد: حكمت فيهم أن تقتل مقاتلهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم، فكبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[1] ثم استنزلهم وخندق في سوق المدينة خندقا، وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة وقيل كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير[2]. وقرئ: الرعب، بسكون

ـــ من طريق عمارة بن غزية عن أبي الزبير عن جابر قال «لما كان يوم أحد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناحية في اثنى عشر رجلا من الأنصار. فذكر القصة مطولة فوله أوجب طلحة» أخرجها الترمذي وابن حبان والحاكم وابن أبي شيبة وإسحاق وأبو يعلى والبزار من طريق محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبيد الله بن الزبير عن أبيه به.

(١) قوله «من فوق سبعة أرقعة» في الصحاح «الرقيع» سماء الدنيا. وكذلك سائر السموات. وفي الحديث «من فوق سبعة أرقع» على لفظ التذكير، كأنه ذهب إلى السقف. (ع)

(٢) هو في سيرة ابن هشام في غزوة بنى قريظة عن ابن إسحاق إلى القدر الأخير فأسنده ابن إسحاق عن عاصم ابن عمر عن عبد الرحمن أن عمر بن سعد بن معاذ عن علقمة بن وقاص الليثى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فذكره. وروى أبو نعيم في الدلائل من طريق معاذ بن رفاعة عن أبي الزبير عن جابر رضى الله عنه قال «لما رابطهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يغسل رأسه»

العين وضمها. وتأسرون، بضم السين. وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقالت الأنصار فى ذلك. فقال: إنكم فى منازلكم، وقال عمر رضى الله عنه: أما تخمس كما خمست يوم بدر؟ قال: لا. إنما جعلت هذه لى طعمة دون الناس. قال: رضينا بما صنع الله ورسوله [1] ﴿وأرضا لم تطؤوها﴾ عن الحسن رضى الله عنه: فارس والروم. وعن قتادة رضى الله عنه: كنا نحدث أنها مكة. وعن مقاتل رضى الله عنه: هى خيبر. وعن عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة. ومن بدع التفاسير: أنه أراد نساءهم.

يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيماً (٢٩)

أردن شيئا من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة وتغاير، فغم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت. فبدأ بعائشة رضى الله عنها ـ وكانت أحبهن إليه ـ فخيرها وقرأ عليها القرآن، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، فرؤى الفرح فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم اختارت جميعهن اختيارها، فشكر لهن الله ذلك، فأنزل (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج) [2]. روى أنه قال لعائشة: إنى ذاكر لك أمراً. ولا عليك أن لا تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ثم قرأ عليها القرآن فقالت: أفى هذا أستأمر أبوى، فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة [3]. وروى أنها قالت: لا تخبر أزواجك أنى اخترتك، فقال: إنما بعثنى الله مبلغاً ولم يبعثنى متعنتاً [4]. فإن قلت: ما حكم التخيير فى الطلاق؟ قلت: إذا قال لها اختارى، فقالت: اخترت نفسى. أو قال: اختارى نفسك، فقالت: اخترت، لا بد من ذكر النفس فى

(١) أخرجه الواقدى من رواية حارثة بن زيد عن أم العلاء. قالت «لما غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير ـ الحديث» ومن طريق المسور بن رفاعة قال قال عمر يا رسول الله ألا تخمس ما أصبت من بنى النضير الخ؟»

(٢) أخرجه الطبرى من رواية سعيد عن قتادة عن الحسن نحو هذا

(٣) متفق عليه من رواية الزهرى عن أبى سلمة عن عائشة: وزاد ثم فعل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت»

(٤) أخرجه سالم من رواية أبى الزبير عن جابر فى قصة التخيير. وفى آخره «وأسألك أن تخبر امرأة من نسائك. فانه لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثنى معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثنى معلماً ميسراً» وفى الصحيحين من رواية معمر عن الزهرى عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس ـ فذكر القصة مطولا. وفى آخره عند مسلم قال معمر فأخبرنا أيوب أن عائشة قالت له لا تخبر نساءك أنى اخترتك. قال: إن الله أرسلنى مبلغاً ولم يرسلنى متعنتاً».

قول الخير أو المخيرة ـ وقعت طلقة بائنة عند أبي حنيفة وأصحابه ، واعتبروا أن يكون ذلك في المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدل على الإعراض ، واعتبر الشافعي اختيارها على الفور وهي عنده طلقة رجعية وهو مذهب عمر وابن مسعود . وعن الحسن وقتادة والزهري رضي الله عنهم : أمرها بيدها في ذلك المجلس وفي غيره ، وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء بإجماع فقهاء الأمصار . وعن عائشة رضي الله عنها : خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه ولم يعده طلاقا [1] . وروى : أفكان طلاقا . وعن علىّ رضي الله عنه . إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية ، وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة وروى عنه أيضاً أنها إن اختارت زوجها فليس بشيء . أصل تعال : أن يقوله من في المكان المرتفع ، لمن في المكان المستوطئ ، ثم كثر حتى استوت في استعماله الأمكنة . ومعنى تعالين : أقبلن بإرادتكن واختياركن لأحد أمرين ، ولم يرد نهوضهنّ إليه بأنفسهن . كما تقول: أقبل . يخاصمني. وذهب يكلمني . وقام يهددني ﴿أمتعكنّ﴾ أعطكنّ متعة الطلاق . فإن قلت : المتعة في الطلاق واجبة أم لا ؟ قلت : المطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها في العقد ، متعتها واجبة عند أبي حنيفة وأصحابه ، وأما سائر المطلقات فمتعتهن مستحبة وعن الزهري رضي الله عنه : متعتان ، إحداهما : يقضى بها السلطان : من طلق قبل أن يفرض ويدخل بها . والثانية . حق على المتقين من طلق بعد ما يفرض ويدخل . وخاصمت امرأة إلى شريح في المتعة فقال : متعها إن كنت من المتقين ولم يجبره . وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه : المتعة حق مفروض . وعن الحسن رضي الله عنه : لكل مطلقة متعة إلا المختلعة والملاعنة ، والمتعة : درع وخمار وملحفة على حسب السعة والإقتار ، إلا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك ، فيجب لها الأقل منهما . ولا تنقص من خمسة دراهم ؛ لأن أقل المهر عشرة دراهم فلا ينقص من نصفها . فإن قلت : ما وجه قراءة من قرأ : أمتعكنّ وأسرحكنّ بالرفع ؟ قلت : وجهه الاستئناف ﴿سراحا جميلا﴾ من غير ضرار طلاقا بالسنة ﴿منكنّ﴾ للبيان لا للتبعيض .

يَـٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

الفاحشة : السيئة البليغة في القبح وهي الكبيرة . والمبينة : الظاهرة فحشها، والمراد كل ما اقترفن من الكبائر . وقيل هي عصيانهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشوزهنّ . وطلبهن منه

(١) متفق عليه باللفظين .

مايشق عليه أو مايضيق به ذرعه ويغتم لأجله وقيل : الزنا ، والله عاصم رسوله من ذلك ، كما مرّ فى حديث الإفك ، وإنما ضوعف عذابهنّ لأن ماقبح من سائر النساء كان أقبح منهنّ وأقبح ؛ لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة وزيادة النعمة على العاصى من المعصى ، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي صلى الله عليه وسلم ولا على أحد منهنّ مثل ما لله عليهن من النعمة ، والجزاء يتبع الفعل ، وكون الجزاء عقابا يتبع كون الفعل قبيحا ، فتى ازداد قبحا ازداد عقابه شدّة ، ولذلك كان ذم العقلاء للعاصى العالم : أشدّ منه للعاصى الجاهل ؛ لأن المعصية من العالم أقبح ، ولذلك فضل حدّ الأحرار على حد العبيد ، حتى أن أبا حنيفة وأصحابه لا يرون الرجم على الكافر ﴿وكان ذلك على الله يسيرا﴾ إيذان بأن كونهن نساء النبي صلى الله عليه وسلم ليس بمغن عنهن شيئاً ، وكيف يغنى عنهن وهو سبب مضاعفة العذاب ، فكان داعياً إلى تشديد الأمر عليهنّ غير صارف عنه . قرئ : يأت ، بالتاء والياء . مبينة : بفتح الياء وكسرها ، من بين بمعنى تبين . يضاعف ، ويضعف : على البناء للمفعول . ويضاعف ، ونضعف : بالياء والنون . وقرئ : تقنت ، وتعمل : بالتاء والياء . ونؤتها : بالياء والنون . والقنوت : الطاعة ، وإنما ضوعف أجرهنّ لطلبهنّ رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق ، وطيب المعاشرة والقناعة ، وتوفرهنّ على عبادة الله والتقوى .

يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾

أحد فى الأصل بمعنى وحد ، وهو الواحد ، ثم وضع فى النفى العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد وماوراءه . ومعنى قوله ﴿لستن كأحد من النساء﴾ لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء ، أى : إذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والسابقة ، ومثله قوله تعالى (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم) (١) يريد بين

(١) قال محمود : «ومعناه لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء ، أى : إذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والسابقة ، ومثله : ولم يفرقوا بين أحد منهم» قال أحمد : إنما بعثه على جعل التفضيل بين نساء النبي عليه الصلاة والسلام وبين جماعات النساء لا آحادهن : أن يطابق بين المتفاضلين ؛ لأن الأول جماعة ، وقد كان مستغنياً عن ذلك بحمل الكلام على واحدة ، ويكون المعنى أبلغ ، والتقدير : ليست واحدة منكن كأحد من النساء ، أى : كواحدة من النساء ، ويلزم من تفضيل كل واحدة منهن على كل واحدة من آحاد النساء تفضيل جماعتهن على كل جماعة ، ولا يلزم ذلك فى العكس ، فتأمله والله أعلم وجاء التفضيل ههنا كمجيئه فى قوله تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق) وقوله (وليس الذكر كالأنثى) فى تقديم الأفضل عند التفضيل . وقد مضت فى ذلك نكتة حسنة ، والله الموفق .

جماعة واحدة منهم ، تسوية بين جميعهم فى أنهم على الحق المبين ﴿إن اتقيتن﴾ إن أردتن التقوى ، وإن كنتن (١) متقيات ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ فلا تجبن بقولكن خاضعاً ، أى : لينا خنثا مثل كلام المريبات والمومسات ﴿فيطمع الذى فى قلبه مرض﴾ أى ريبة وفجور . وقرئ بالجزم ، عطفاً على محل فعل النهى ، على أنهن نهين عن الخضوع بالقول . ونهى المريض القلب عن الطمع ، كأنه قيل : لاتخضعن فلا يطمع . وعن ابن محيصن أنه قرأ بكسر الميم ، وسبيله ضم الياء مع كسرها وإسناد الفعل إلى ضمير القول ، أى : فيطمع القول المريب ﴿قولا معروفا﴾ بعيداً من طمع المريب بجد وخشونة من غير تخنث ، أو قولا حسنا مع كونه خشنا .

وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَـٰهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ الزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

﴿وقرن﴾ بكسر القاف ، من قر يقر وقاراً . أو من قر يقر ، حذفت الأولى من رائى : أقررن ، ونقلت كسرتها إلى القاف ، كما تقول : ظلن ، وقرن : بفتحها ، وأصله : أقررن ، فحذفت الراء وألقيت فتحتها على ماقبلها ، كقولك : ظلن ، وذكر أبو الفتح الهمدانى فى كتاب التبيان : وجها آخر ، قال : قار يقار : إذا اجتمع . ومنه . القارة ، لاجتماعها ، ألا ترى إلى قول عضل والديش (٢) : اجتمعوا فكونوا قارة . و﴿الجاهلية الأولى﴾ هى القديمة التى يقال لها الجاهلية الجهلاء ، وهى الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام : كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال ، وقيل : ما بين آدم ونوح . وقيل : بين إدريس ونوح . وقيل : زمن داود وسليمان ، والجاهلية الأخرى : ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام . ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى : جاهلية الكفر قبل الإسلام . والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور فى الإسلام . فكأن المعنى : ولاتحدثن بالتبرج جاهلية فى الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر . ويعضده ماروى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى الدرداء رضى الله عنه «إن فيك جاهلية» قال جاهلية كفر أم إسلام ؟ فقال «بل جاهلية كفر» (٣)

---

(١) قوله «وإن كنتن متقيات» لعله «أو إن» كعبارة النسفى . (ع)

(٢) قوله «إلى قول عضل والديش» فى الصحاح «عضل» : قبيلة ، وهو عضل بن الهون بن خزيمة أخو الديش ، وهما القارة . وفيه أيضاً «الديش بن الهون بن خزيمة» وربما قالوه بفتح الدال ، وهو أحد القارة ، والآخر عضل ابن الهون ، يقال لهما جميعاً : القارة . (ع)

(٣) لم أجده عن أبى الدرداء ، وإنما هو فى الصحيحين عن أبى ذر . ولم يقل جاهلية كفر ... إلى آخره .

أمرهن أمراً خاصا بالصلاة والزكاة . ثم جاء به عاما فى جميع الطاعات : لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات : من اعتنى بهما حق اعتنائه جرّتاه إلى ماوراءهما ، ثم بين أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن ، لئلا يقارف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المآثم ، وليتصونوا عنها بالتقوى . واستعار للذنوب : الرجس ، وللتقوى : الطهر ؛ لأنّ عرض المقترف للقبحات يتلوث بها ويتدنس ، كما يتلوث بدنه بالأرجاس . وأما المحسنات ، فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر . وفى هذه الاستعارة ماينفر أولى الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه ، ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به . و ﴿أهل البيت﴾ نصب على النداء . أو على المدح . وفى هذا دليل بين على أنّ نساء النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيته .

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

ثم ذكرهن أنّ بيوتهن مهابط الوحى ، وأمرهن أن لاينسين مايتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين : هو آيات بينات تدل على صدق النبوّة ؛ لأنه معجزة بنظمه . وهو حكمة وعلوم وشرائع ﴿إن الله كان لطيفاً خبيرا﴾ حين علم ما ينفعكم ويصلحكم فى دينكم فأنزله عليكم . أو علم من يصلح لنبوّته ومن يصلح لأن يكونوا أهل بيته . أوحيث جعل الكلام الواحد جامعا بين الغرضين .

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

يروى أنّ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلن : يارسول الله ، ذكر الله الرجال فى القرآن بخير ، أفما فينا خير نذكر به ؟ إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة [1] . وقيل : السائلة أم سلمة [2] .

---

(١) أخرجه الطبرانى وابن مردويه من رواية ابن ظبيان عن ابن عباس : «قال النساء : يارسول الله ، مالنا لا نذكر فى القرآن ... الحديث» .

(٢) أخرجه النسائى من رواية شريك عن محمد بن عمر عن أبى سلمة عن أم سلمة قالت «يارسول الله مالى أسمع الرجال يذكرون فى القرآن والنساء لايذكرن . فأنزل الله تعالى إن المسلمين والمسلمات ـ الآية» وأخرجه الطبرانى =

وروى أنه لما نزل فى نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما نزل، قال نساء المسلمين: فما نزل فينا شيء؟[1] فنزلت. والمسلم: الداخل فى السلم بعد الحرب، المنقاد الذى لا يعاند، أو المفوّض أمره إلى الله المتوكل عليه من أسلم وجهه إلى الله. والمؤمن: المصدق بالله ورسوله وبما يجب أن يصدق به. والقانت: القائم بالطاعة الدائم عليها. والصادق: الذى يصدق فى نيته وقوله وعمله. والصابر: الذى يصبر على الطاعات وعن المعاصى. والخاشع: المتواضع لله بقلبه وجوارحه. وقيل: الذى إذا صلى لم يعرف من عن يمينه وشماله. والمتصدق: الذى يزكى ماله ولا يخل بالنوافل. وقيل: من تصدّق فى أسبوع بدرهم فهو من المتصدّقين. ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين. والذاكر الله كثيراً: من لا يكاد يخلو من ذكر الله بقلبه أو لسانه أو بهما. وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من استيقظ من نومه وأيقظ امرأته فصليا جميعا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»[2] والمعنى: والحافظاتها والذاكراته، فحذف؛ لأنّ الظاهر يدل عليه. فإن قلت: أى فرق بين العطفين، أعنى عطف الإناث على الذكور، وعطف الزوجين على الزوجين؟ قلت: العطف الأوّل نحو قوله تعالى (ثيبات وأبكارا) فى أنهما جنسان مختلفان، إذا اشتركا فى حكم لم يكن بد من توسيط العاطف بينهما. وأما العطف الثانى فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع، فكأنّ معناه: إنّ الجامعين والجامعات لهذه الطاعات ﴿أعدّ الله لهم﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب على مولاه زيد بن حارثة، فأبت وأبى أخوها عبد الله، فنزلت، فقال: رضينا يا رسول الله، فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهما وخمارا وملحفة ودرعا وإزاراً وخمسين مداً من طعام وثلاثين صاعا من تمر[3]. وقيل: هى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، وهى أوّل من

= والطبرى من وجه آخر عن محمد بن عمر. ورواه أحمد وابن راهويه والنسائى من رواية عثمان بن حكيم عن عبد الرحمن ابن شيبة عن أم سلمة. وأخرجه الحاكم من طريق مجاهد عن أم سلمة وروى الترمذى عن أم عمارة نحوه.

(١) أخرجه الطبرى من رواية سعيد عن قتادة قال «دخل نساء من المؤمنات على نساء النبي صلى الله عليه وسلم فقلن: قد ذكرنا الله فى القرآن - الحديث» وأخرجه ابن سعد عن الواقدى عن معمر عن قتادة.

(٢) أخرجه أصحاب السنن إلا الترمذى من رواية الأغر عن أبى سعيد وأبى هريرة مرفوعا.

(٣) لم أجده موصولا. وأوله فى الدارقطنى من رواية الكميت بن زيد الأسدى الشاعر عن مذكور بن زيد الأسدى مولى زينب بنت جحش عن زينب بنت جحش «قالت: خطبنى عدة من قريش. فأرسلت أختى حمنة =

هاجر من النساء، وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: قد قبلت، وزوّجها زيدا. فسخطت هي وأخوها وقالا: إنما أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزوّجنا عبده [1] والمعنى وماصح لرجل ولا امرأة من المؤمنين ﴿إذا قضى الله ورسوله﴾ أى رسول الله أو لأنّ قضاء رسول الله هو قضاء الله ﴿أمراً﴾ من الأمور: أن يختاروا من أمرهم ماشاؤا، بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه، واختيارهم تلوا لاختياره. فإن قلت: كان من حق الضمير أن يوحد كما تقول: ماجاءنى من رجل ولا امرأة إلا كان من شأنه كذا. قلت: نعم ولكنهما وقعا تحت النفى، فعما كل مؤمن ومؤمنة، فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ. وقرئ: يكون، بالتاء والياء. و ﴿الخيرة﴾ ما يتخير.

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

﴿للذى أنعم الله عليه﴾ بالإسلام الذى هو أجل النعم، وبتوفيقك لعتقه ومحبته واختصاصه ﴿وأنعمت عليه﴾ بما وفقك الله فيه، فهو متقلب فى نعمة الله ونعمة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو زيد بن حارثة ﴿أمسك عليك زوجك﴾ يعنى زينب بنت جحش رضى الله عنها، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصرها بعد ما أنكحها إياه، فوقعت فى نفسه، فقال: سبحان الله مقلب القلوب، وذلك أنّ نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لاتريدها. ولو أرادتها لاختطبها، وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطن وألقى الله فى نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى أريد أن أفارق صاحبتى، فقال: مالك: أرابك منها شىء؟ قال: لا والله: ما رأيت منها إلا خيرا، ولكنها تتعظم علىّ لشرفها وتؤذينى، فقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله، ثم طلقها بعد. فلما اعتدت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أجد أحداً أوثق فى نفسى منك، اخطب علىّ زينب. قال زيد: فانطلقت فإذا هى تخمر عجينتها، فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر

ـــ تستشير رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال لها: أين هى من بعلها؟ كتاب الله ـ الحديث وإسناده ضعيف. وليس فيه ذكر مقدار المهر. نعم أخرجه ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان مقطوعا.

(١) أخرجه الثعلبى بهذا بغير سند وروى الطبرى من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من قوله ذلك.

إليها ، حين علمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها ، فوليتها ظهرى وقلت: يازينب ، أبشرى إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك ، ففرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن [1] (زوّجناكها) فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بها ، وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها : ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتدّ النهار . فإن قلت : ما أراد بقوله ﴿ واتق الله ﴾ ؟ قلت : أراد : واتق الله فلا تطلقها ، وقصد نهى تنزيه لا تحريم ، لأن الأولى أن لا يطلق . وقيل : أراد : واتق الله فلا تذمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج . فإن قلت : ما الذى أخفى فى نفسه ؟ قلت : تعلق قلبه بها . وقيل : مودة مفارقة زيد إياها . وقيل : علمه بأن زيدا سيطلقها وسينكحها ، لأن الله قد أعلمه بذلك . وعن عائشة رضى الله عنها : لو كتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا مما أوحى إليه لكتم هذه الآية .[2] فإن قلت : فماذا أراد الله منه أن يقوله حين قال له زيد : أريد مفارقتها ، وكان من الهجنة أن يقول له : افعل ، فإنى أريد نكاحها ؟ قلت : كأن الذى أراد منه عز وجل أن يصمت عند ذلك ، أو يقول له : أنت أعلم بشأنك ، حتى لا يخالف سره فى ذلك علانيته ؛ لأن الله يريد من الأنبياء تساوى الظاهر والباطن ، والتصلب فى الأمور ، والتجاوب فى الأحوال ، والاستمرار على طريقة مستتبة ، كما جاء فى حديث إرادة رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل عبد الله بن أبى سرح واعتراض عثمان بشفاعته له : أن عمر قال له : لقد كان عينى إلى عينك ، هل تشير إلىّ فأقتله ، فقال : إن الأنبياء لا تومض ،[3] ظاهرهم وباطنهم واحد .[4] فإن قلت :

---

(١) ذكره الثعلبى بغير سند . وأخرج الطبرى معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله ، وفى الصحيحين عن أنس قصة زينب وزيد مختصرة . وليس فيه مما فى أوله .

(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٣) قوله «لا تومض» فى الصحاح : أومضت المرأة ، إذا سارقت النظر . (ع)

(٤) لم أجده ، وفى الدلائل للبيهقى من رواية الحسن بن بشر عن الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال «أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس يوم فتح مكة إلا أربعة من الناس - فذكر الحديث قال «ونذر رجل من الأنصار أن يقتل عبد الله بن سعد إذا رآه فأتى به عثمان فشفع له ، فجعل الأنصارى يتردد ويكره أن يقدم عليه . فبايعه النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال للأنصارى : قد انتظرتك . قال : يارسول الله أفلا أومضت إلى ؟ قال : إنه ليس للنبى أن يومض» وأخرجه الطبرى من رواية سعيد عن قتادة مرسلا . وروى عبد الرزاق من طريق مقسم مولى ابن عباس قال «لما كانت المدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش - فذكر الحديث بطوله وفيه «وأمن الناس إلا أربعة . وفيه فجاء عثمان بابن أبى سرح . فقال : بايعه يارسول الله فأعرض عنه ثم جاء فبايعه فقال لقد أعرضت عنه ليقتله بعضكم فقال رجل من الأنصار هلا أومضت إلينا يا رسول الله ؟ قال : إن النبى لا يومض» وهذا مرسل أيضاً وأخرجه أبو داود وغيره من حديث سعد بن أبى وقاص نحو الأول ، لكن فى آخره «ثم أقبل على أصحابه فقال : أفما كان فيكم رجل رشيد ، يقوم إلى هذا حيث رآنى كففت يدى عنه فيقتله ؟ قالوا : ومايدرينا يارسول الله مافى نفسك ، هلا أومأت إلينا بعينك ؟ قال : لاينبغى لنبى أن يكون له خائنة الأعين .

كيف عاتبه الله فى ستر ما استهجن التصريح به ولا يستهجن النبىّ صلى الله عليه وسلم التصريح بشىء إلا والشىء فى نفسه مستهجن ، وقالة الناس لا تتعلق إلا بما يستقبح فى العقول والعادات ؟ وماله لم يعاتبه فى نفس الأمر ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع إلى زينب وتتبعها ؟ ولم يعصم نبيه صلى الله عليه وسلم عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالة ؟ قلت : كم من شىء يتحفظ منه الإنسان ويستحيي من اطلاع الناس عليه ، وهو فى نفسه مباح متسع ، وحلال مطلق ، لا مقال فيه ولا عيب عند الله ، وربما كان الدخول فى ذلك المباح سلما إلى حصول واجبات يعظم أثرها فى الدين ويجل ثوابها ، ولو لم يتحفظ منه لأطلق كثير من الناس فيه ألسنتهم إلا من أوتى فضلا وعلما ودينا ونظراً فى حقائق الأمور ولبوبها دون قشورها . ألا ترى أنهم كانوا إذا طعموا فى بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوا مرتكزين فى مجالسهم لا يريمون مستأنسين بالحديث ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذيه قعودهم ويضيق صدره حديثهم . والحياء يصده أن يأمرهم بالانتشار ، حتى نزلت (إنّ ذلكم كان يؤذى النبىّ فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق) ولو أبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم مكنون ضميره وأمرهم أن ينتشروا ، لشق عليهم ، ولكان بعض المقالة ، (1) فهذا من ذاك القبيل ، لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتهياته من امرأة أو غيرها غير موصوف بالقبح فى العقل ولا فى الشرع ، لأنه ليس بفعل الإنسان ولا وجوده باختياره ، وتناول المباح بالطريق الشرعى ليس بقبيح أيضا . وهو خطبة زينب ونكاحها من غير استنزال زيد عنها ، ولا طلب إليه وهو أقرب منه من زر قميصه أن يواسيه بمفارقها ، مع قوة العلم بأن نفس زيد لم تكن من التعلق بها فى شىء ، بل كانت تجفو عنها ، ونفس رسول الله صلى الله عليه وسلم متعلقة بها ، ولم يكن مستنكراً عندهم أن ينزل الرجل عن امرأته لصديقه ، ولا مستهجناً إذا نزل عنها أن ينكحها الآخر ؛ فإنّ المهاجرين حين دخلوا المدينة استهم الأنصار بكل شىء ، حتى إن الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداهما وأنكحها المهاجر ، وإذا كان الأمر مباحا من جميع جهاته ولم يكن فيه وجه من وجوه القبح ولا مفسدة ولا مضرّة بزيد ولا بأحد ، بل كان مستجراً مصالح ، ناهيك بواحدة منها أن بنت عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمنت الأيمة والضيعة ونالت الشرف وعادت أُما من أمّهات المسلمين . إلى ما ذكر الله عز وجل من المصلحة العامّة فى قوله (لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا) فبالحرى أن يعاتب الله رسوله حين كتمه وبالغ فى كتمه بقوله (أمسك عليك زوجك واتق الله) وأن لا يرضى له إلا اتحاد الضمير والظاهر ، والثبات

(1) قوله « ولكان بعض المقالة » لعله : القالة . (ع)

فى مواطن الحق، حتى يقتدى به المؤمنون فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وإن كان مرا. فإن قلت: الواو فى (وتخفى فى نفسك)، (وتخشى الناس والله أحق) ما هى؟ قلت: واو الحال، أى: تقول لزيد: أمسك عليك زوجك مخفياً فى نفسك إرادة أن لا يمسكها، وتخفى خاشياً قالة الناس وتخشى الناس، حقيقاً فى ذلك بأن تخشى الله. أو واو العطف، كأنه قيل: وإذ تجمع بين قولك. أمسك، وإخفاء خلافه، وخشية الناس. والله أحق أن تخشاه، حتى لا تفعل مثل ذلك. إذا بلغ البالغ حاجته من شىء له فيه همة قيل: قضى منه وطره. والمعنى: فلما لم يبق لزيد فيها حاجة، وتقاصرت عنها همته، وطابت عنها نفسه، وطلقها، وانقضت عدتها ﴿زوجنا كها﴾ وقراءة أهل البيت: زوّجتكها. وقيل لجعفر بن محمد رضى الله عنهما: أليس تقرأ علىّ غير ذلك، فقال: لا والذى لا إله إلا هو، ما قرأتها على أبى إلا كذلك، ولا قرأها الحسن بن علىّ على أبيه إلا كذلك. ولا قرأها على بن أبى طالب على النبى صلى الله عليه وسلم إلا كذلك ﴿وكان أمر الله مفعولا﴾ جملة اعتراضية، يعنى: وكان أمر الله الذى يريد أن يكونه، مفعولا مكونا لا محالة، وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب، ومن نفى الحرج عن المؤمنين فى إجراء [1] أزواج المتبنين مجرى أزواج البنين فى تحريمهن عليهم بعد انقطاع علائق الزواج بينهم وبينهن. ويجوز أن يراد بأمر الله: المكون، لأنه مفعول بكن، وهو أمر الله.

مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾

﴿فرض الله له﴾ قسم له وأوجب، من قولهم: فرض لفلان فى الديوان كذا. ومنه فروض العسكر لرزقاتهم ﴿سنة الله﴾ اسم موضوع موضع المصدر - كقولهم: تربا، وجندلا - : مؤكد لقوله تعالى (ماكان على النبى من حرج) كأنه قيل: سنّ الله ذلك سنة فى الأنبياء الماضين، وهو أن لا يحرج عليهم فى الاقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم فى باب النكاح وغيره، وقد كانت تحتهم المهائر والسرارى، وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلثمائة سرية، ولسليمان عليه السلام ثلثمائة وسبعمائة ﴿فى الذين خلوا﴾ فى الأنبياء الذين مضوا ﴿الذين يبلغون﴾ يحتمل

(١) قوله «ومن نفى الحرج عن المؤمنين فى إجراء» لعله فى عدم إجراء، ويمكن أن المراد: الحرج الذى يكون فى الاجراء والتسوية لو حصل ذلك الاجراء. (ع)

وجوه الاعراب : الجر ، على الوصف الأنبياء . والرفع والنصب ، على المدح على هم الذين يبلغون . أوعلى : أعنى الذين يبلغون . وقرئ : رسالة الله . قدراً مقدوراً : قضاء مقضياً ، وحكما مبتوتا ، ووصف الأنبياء بأنهم لايخشون إلا الله : تعريض بعد التصريح فى قوله تعالى (وتخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه) . ﴿حسيباً﴾ كافياً للمخاوف ، أو محاسباً على الصغيرة والكبيرة ، فيجب أن يكون حقّ الخشية من مثله .

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠)

﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ أى لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة ، حتى يثبت بينه وبينه مايثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ﴿ولكن﴾ كان ﴿رسول الله﴾ وكل رسول أبو أمّته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم . ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه ، لافى سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء ، وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة ، فكان حكمه حكمكم ، والادعاء والتبنى من باب الاختصاص والتقريب لاغير ﴿و﴾ كان ﴿خاتم النبيين﴾ يعنى أنه لو كان له ولد بالغ مبلغ الرجال لكان نبياً ولم يكن هو خاتم الأنبياء ، كما روى أنه قال فى إبراهيم حين توفى . لوعاش لكان نبياً .[1] فإن قلت : أما كان أبا للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم ؟ قلت : قدأخرجوا من حكم النفى بقوله (من رجالكم) من وجهين ، أحدهما : أنّ هؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال . والثانى : أنه قد أضاف الرجال إليهم وهؤلاء رجاله لارجالهم . فإن قلت : أما كان أباً للحسن والحسين ؟ قلت : بلى ولكنهما لم يكونا رجلين حينئذ ، وهما أيضاً من رجاله لامن رجالهم ، وشىء آخر : وهو أنه إنما قصد ولده خاصة ، لا ولد ولده ، لقوله تعالى (وخاتم النبيين) ألا ترى أن الحسن والحسين قد عاشا إلى أن نيف أحدهما[2] على الأربعين والآخر على الخمسين . قرئ . ولكن رسول الله بالنصب ، عطفاً على (أبا أحد) وبالرفع على : ولكن هو رسول الله . ولكنّ ، بالتشديد على حذف الخبر ، تقديره : ولكنّ رسول الله من عرفتموه ، أى : لم يعش له ولد ذكر . وخاتم بفتح التاء بمعنى الطابع ، وبكسرها بمعنى الطابع وفاعل الختم . وتقويه قراءة ابن مسعود : ولكنّ نبياً ختم النبيين . فإن قلت : كيف كان آخر الأنبياء وعيسى ينزل فى آخر الزمان ؟ قلت : معنى كونه آخر الأنبياء أنه

( ) أخرجه ابن ماجه من طريق مقسم عن ابن عباس فى أثناء حديث . وللبخارى من حديث ابن أبى أوفى «ولو قضى أن يكون بعد محمد نبى لعاش ابنه ، ولكن لانبى بعده» .

(٢) قوله «نيف أحدهما» أى : زاد . والنيف ـ بالتشديد والتخفيف ـ : الزيادة ، كذا فى الصحاح . (ع)

لا ينبأ أحد بعده ، وعيسى ممن نبئ قبله ، وحين ينزل ينزل عاملا على شريعة محمد ، مصليا إلى قبلته ، كأنه بعض أمته .

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾

﴿اذكروا الله﴾ أثنوا عليه بضروب الثناء من التقديس والتحميد والتهليل والتكبير وماهو أهله ، وأكثروا ذلك ﴿بكرة وأصيلا﴾ أى فى كافة الأوقات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذكر الله على فم كل مسلم [١] . وروى فى قلب كل مسلم . وعن قتادة : قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وعن مجاهد : هذه كلمات يقولها الطاهر والجنب . والفعلان ، أعنى اذكروا وسبحوا موجهان إلى البكرة والأصيل ، كقولك : صم وصلّ يوم الجمعة ، والتسبيح من جملة الذكر ، وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ، ليبين فضله على سائر الأذكار ، لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال ، وتبرئته من القبائح . ومثال فضله على غيره من الأذكار فضل وصف العبد بالنزاهة من أدناس المعاصى ، والطهر من أرجاس المآثم ، على سائر أوصافه من كثرة الصلاة والصيام ، والتوفر على الطاعات كلها ، والاشتمال على العلوم ، والاشتهار بالفضائل . ويجوز أن يريد بالذكر وإكثاره : تكثير الطاعات ، والإقبال على العبادات ؛ فإن كل طاعة وكل خير من جملة الذكر ، ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلا وهى الصلاة فى جميع أوقاتها لفضل الصلاة على غيرها . أو صلاة الفجر والعشاءين ؛ لأنّ أداءها أشقّ ومراعاتها أشدّ .

هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

لما كان من شأن المصلى أن ينعطف فى ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره حنوّاً عليه وترؤفا . كعائد المريض فى انعطافه عليه ، والمرأة فى حنوّها على ولدها ، ثم كثر حتى استعمل فى الرحمة والترؤف ومنه قولهم : صلى الله عليك ، أى ترحم عليك وترأف . فإن قلت : قوله ﴿هو

(١) لم أجده بهذا اللفظ . وروى الدارقطني والبيهق وابن عدى من حديث أبى هريرة قال « سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ؟ قال : اسم الله على فم كل مسلم » وفيه مروان بن سالم . وهو ضعيف جداً .

الذى يصلى عليكم﴾ إن فسرته بيترحم عليكم ويترأف [١] . فما تصنع بقوله : ﴿وملائكته﴾ ومامعنى صلاتهم ؟ قلت : هى قولهم : اللهم صل على المؤمنين ، جعلوا لكونهم مستجابى الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والرأفة . ونظيره قوله : حياك الله ، أى أحياك وأبقاك ، وحييتك ، أى : دعوت لك بأن يحييك الله ؛ لأنك لاتكالك على إجابة دعوتك كأنك تبقيه على الحقيقة ، وكذلك : عمرك الله ، وعمرتك ، وسقاك الله ، وسقيتك ، وعليه قوله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) أى ادعوا الله بأن يصلى عليه . والمعنى : هو الذى يترحم عليكم ويترأف : حيث يدعوكم إلى الخير ويأمركم بإكثار الذكر والتوفر على الصلاة والطاعة (ليخرجكم) من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾ دليل على أنّ المراد بالصلاة الرحمة . ويروى أنه لما نزل قوله تعالى (إنّ الله وملائكته يصلون على النبىّ) قال أبو بكر رضى الله عنه : ماخصك يارسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه ، فأنزلت ﴿تحيتهم﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول ، أى : يحيون يوم لقائه بسلام ، فيجوز أن يعظمهم الله بسلامه عليهم ، كما يفعل بهم سائر أنواع التعظيم ، وأن يكون مثلا كاللقاء على مافسرنا . وقيل : هو سلام ملك الموت والملائكة معه عليهم وبشارتهم بالجنة . وقيل : سلام الملائكة عند الخروج من القبور . وقيل : عند دخول الجنة ، كما قال (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) والأجر الكريم : الجنة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾

﴿شاهداً﴾ على من بعثت إليهم ، وعلى تكذيبهم وتصديقهم ، أى : مقبولا قولك عند الله لهم وعليهم ، كما يقبل قول الشاهد العدل فى الحكم . فإن قلت : وكيف كان شاهداً وقت الإرسال ، وإنما يكون شاهداً عند تحمل الشهادة أو عند أدائها ؟ قلت : هى حال مقدرة ، كمسئلة الكتاب : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا ، أى : مقدرا به الصيد غدا . فإن قلت : قد فهم من قوله : إنا أرسلناك داعياً : أنه مأذون له فى الدعاء ، فما فائدة قوله ﴿بإذنه﴾ ؟ قلت : لم يرد

---

(١) قال محمود : « إن جعلت يصلى بمعنى يرحم فما بال عطف الملائكة عليه ؛ فأجاب بأنهم لما كانوا يدعون الله بالرحمة ويستجيب دعاءهم بذلك ، جعلوا كأنهم فاعلون الرحمة . كما تقول : حياك الله ، بمعنى أحياك ، ثم تقول حييته ، بمعنى دعوت الله له بالحياة ، والمقصد بذلك جعل الحياة محققة له ، كأنك قلت : دعوت له بالحياء فاستجيبت الدعوة » قال أحمد : كثيراً مايفر الزمخشرى من اعتقاد إرادة الحقيقة والمجاز معاً بلفظ واحد ، وقد التزمه ههنا ، ولكن جعل الصلاة من الله حقيقة ، ومن الملائكة مجازاً ؛ لأنه حملها على الرحمة . وأما غيره فحملها على الدعاء ، وجعلها من الملائكة حقيقة ، ومن الله مجازاً ، والله أعلم .

به حقيقة الإذن . وإنما جعل الإذن مستعاراً للتسهيل والتيسير ؛ لأن الدخول فى حق المالك متعذر ، فإذا صودف الإذن تسهل وتيسر ، فلما كان الإذن تسهيلا لما تعذر من ذلك ، وضع موضعه ، وذلك أن دعاء أهل الشرك والجاهلية إلى التوحيد والشرائع أمر فى غاية الصعوبة والتعذر ، فقيل : بإذنه . للإيذان بأن الأمر صعب لا يتأتى ولا يستطاع إلا إذا سهله الله ويسره ، ومنه قولهم فى الشحيح : أنه غير مأذون له فى الإنفاق ، أى : غير مسهل له الإنفاق لكونه شاقا عليه داخلا فى حكم التعذر . جلى به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون ، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به . أو أمد الله بنور نبوته نور البصائر ، كما يمد بنور السراج نور الأبصار . ووصفه بالإنارة لأن من السراج مالا يضىء إذا قل سليطه ودقت فتيلته . وفى كلام بعضهم : ثلاثة تضنى : رسول بطىء ، وسراج لا يضىء ، ومائدة ينتظر لها من يجىء . وسئل بعضهم عن الموحشين ؟ فقال : ظلام ساتر ، وسراج فاتر . وقيل : وذا سراج منير . أو وتاليا سراجا منيرا . ويجوز على هذا التفسير أن يعطف على كاف (أرسلناك) .

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيرًا ﴿٤٧﴾

الفضل : ما يتفضل به عليهم زيادة على الثواب ، وإذا ذكر المتفضل به وكبره فما ظنك بالثواب . ويجوز أن يريد بالفضل : الثواب ، من قولهم للعطايا : فضول وفواضل . وأن يريد أنّ لهم فضلا كبيرا على سائر الأمم ، وذلك الفضل من جهة الله ، وأنه آتاهم ما فضلوهم به .

وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴿٤٨﴾

﴿ولا تطع الكافرين﴾ معناه : الدوام والثبات على ما كان عليه . أو التهييج ﴿أذاهم﴾ يحتمل إضافته إلى الفاعل والمفعول . يعنى : ودع أن تؤذيهم بضرر أو قتل . وخذ بظاهرهم . وحسابهم على الله فى باطنهم . أو : ودع ما يؤذونك به ولا تجازهم عليه حتى تؤمر ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هى منسوخة بآية السيف ﴿وتوكل على الله﴾ فإنه يكفيكهم . وكفى به مفوضا إليه . ولقائل أن يقول : وصفه الله بخمسة أوصاف ، وقابل كلا منها بخطاب مناسب له ، قابل الشاهد بقوله : وبشر المؤمنين ، لأنه يكون شاهدا على أمته وهم يكونون شهداء على سائر الأمم ، وهو الفضل الكبير والمبشر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين ، لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين ، وهو مناسب للبشارة والنذير بدع أذاهم ، لأنه إذا ترك أذاهم فى الحاضر ـ والأذى لابد له من عقاب عاجل أو آجل ـ كانوا منذرين به فى المستقبل ، والداعى إلى الله

بتيسيره بقوله (وتوكل على الله) لأنّ من توكل على الله يسر عليه كل عسير، والسراج المنير بالاكتفاء به وكيلا؛ لأن من أناره الله برهانا على جميع خلقه، كان جديراً بأن يكتفى به عن جميع خلقه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)

النكاح: الوطء. وتسمية العقد نكاحا لملابسته له، من حيث أنه طريق إليه. ونظيره تسميتهم الخمر إثماً؛ لأنها سبب في اقتراف الإثم، ونحوه في علم البيان قول الراجز:

* أَسْنِمَةُ الآبَالِ فِي سَحَابِهْ * (١)

سمى الماء بأسنمة الآبال؛ لأنه سبب سمن المال وارتفاع أسنمته، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد؛ لأنه في معنى الوطء من باب التصريح به. ومن آداب القرآن: الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والتغشي والإتيان. فإن قلت: لم خصّ المؤمنات والحكم الذى نطقت به الآية تستوى فيه المؤمنات والكتابيات؟ قلت: في اختصاصهنّ تنبيه على أن أصل أمر المؤمن والأولى به: أن يتخير لنطفته. وأن لا ينكح إلا مؤمنة عفيفة، ويتنزه عن مزاوجة الفواسق فما بال الكوافر، ويستنكف أن يدخل تحت لحاف واحد عدوة الله ووليه، فالتي في سورة المائدة: تعليم ما هو جائز غير محرّم، من نكاح المحصنات من الذين أوتوا الكتاب. وهذه فيها تعليم ما هو الأولى بالمؤمنين من نكاح المؤمنات. فإن قلت: ما فائدة ثم في قوله ﴿ثم طلقتموهن﴾؟ قلت: فائدته نفي التوهم عمن عسى يتوهم تفاوت الحكم: بين أن يطلقها وهي قريبة العهد من النكاح، وبين أن يبعد عهدها بالنكاح ويتراخى بها المدة في حبالة الزواج ثم يطلقها: فإن قلت: إذا خلا بها خلوة يمكنه معها المساس، هل يقوم ذلك مقام المساس؟

(١) أقبل كالمستن من ربابه كأنما الوابل في مصابه أسنمة الآبال في سحابه

يصف مطراً بالكثرة والثروة. ويقال: استن الفرس، إذا قص ولعب، وهو أن يرفع يديه ويطرحهما تارة ورجليه أخرى على التعاقب. وقص البحر بالسفينة: إذا حركها، فرفع مقدمها تارة ومؤخرها أخرى، فالمستن: اسم فاعل منه، واستعير للسحاب: إذ أقبل يتحرك وفيه المطر. والرباب: السحاب الأبيض المتلاصق. وضمير «أقبل» و«ربابه» للمطر. والوابل: إظهار في مقام الاضمار، للدلالة على الكثرة. وفي مصابه: حال له. وأسنمة الآبال: مبتدأ. وفي سحابه: خبر، والجملة خبر الوابل، وأطلق الأسنمة على الماء لأنه سبب سمنها، والمصاب: مصدر على زنة المفعول. الوابل: المطر الشديد الوقع. والأسنمة: جمع سنام. والآبال - بمد الهمزة -: جمع الإبل

قلت : نعم عند أبى حنيفة وأصحابه حكم الخلوة الصحيحه حكم المساس ، وقوله ﴿فما لكم عليهن من عدة﴾ دليل على أن العدة حق واجب على النساء للرجال ﴿تعتدونها﴾ تستوفون عددها ، من قولك : عددت الدراهم فاعتدها ، كقولك . كلته فاكتاله ، ووزنته فاتزنه . وقرئ : تعتدونها، مخففاً : أى : تعتدون فيها ، كقوله :

* وَيَوْمٌ شَهِدْنَاهُ * (١)

والمراد بالاعتداد ما فى قوله تعالى (ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا) . فإن قلت : ما هذا التمتيع أواجب أم مندوب إليه ؟ قلت إن كانت غير مفروض لها كانت المتعة واجبة ، ولا تجب المتعة عند أبى حنيفة إلا لها وحدها دون سائر المطلقات ، وإن كانت مفروضاً لها : فالمتعة مختلف فيها : فبعض على الندب والاستحباب ، ومنهم أبو حنيفة . وبعض على الوجوب ﴿سراحا جميلا﴾ من غير ضرار ولا منع واجب .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)

﴿أجورهن﴾ مهورهن : لأن المهر أجر على البضع . وإيتاؤها : إما إعطاؤها عاجلا . وإما فرضها وتسميتها فى العقد . فإن قلت : لم قال : (اللاتى آتيت أجورهن) و (مما أفاء الله عليك) و(اللاتى هاجرن معك) وما فائدة هذه التخصيصات ؟ قلت : قد اختار الله لرسوله الأفضل الأولى ، واستحبه بالأطيب الأزكى ، كما اختصه بغيرها من الخصائص ، وآثره بما سواها من الأثر ، وذلك أن تسمية المهر فى العقد أولى وأفضل من ترك التسمية ، وإن وقع العقد جائزاً ؛ وله أن

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٤٠٨ فراجعه إن شئت اه مصححه .

يماسها وعليه مهر المثل إن دخل بها ، والمتعة إن لم يدخل بها . وسوق المهر إليها عاجلا أفضل من أن يسميه ويؤجله ، وكان التعجيل ديدن السلف وسنتهم ، وما لا يعرف بينهم غيره . وكذلك الجارية إذا كانت سبية مالكها ، وخطبة سيفه ورمحه ، ومما غنمه الله من دار الحرب أحل وأطيب مما يشترى من شق الجلب . والسبي على ضربين : سبي طيبة ، وسبي خبثة : فسبي الطيبة : ماسبي من أهل الحرب . وأما من كان له عهد فالمسبي منهم سبي خبثة ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿مما أفاء الله عليك﴾ لأن فيء الله لا يطلق إلا على الطيب دون الخبيث ، كما أنّ رزق الله يجب إطلاقه على الحلال دون الحرام[1] ، وكذلك اللاتى هاجرن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرائبه غير المحارم أفضل من غير المهاجرات معه . وعن أم هانئ بنت أبى طالب : خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرنى ، ثم أنزل الله هذه الآية ، فلم أحلّ له ؛ لأنى لم أهاجر معه ، كنت من الطلقاء[2] . وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها ولا تطلب مهراً من النساء المؤمنات إن اتفق ذلك ، ولذلك نكرها . واختلف فى اتفاق ذلك ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما : لم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد منهنّ بالهبة . وقيل الموهوبات أربع : ميمونة بنت الحرث ، وزينب بنت خزيمة أمّ المساكين الأنصارية ، وأمّ شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم ـ رضى الله عنهن . قرئ ﴿إن وهبت﴾ على الشرط . وقرأ الحسن رضى الله عنه ﴿أن﴾ بالفتح ، على التعليل بتقدير حذف اللام . ويجوز أن يكون مصدراً محذوفا معه الزمان ، كقولك : اجلس مادام زيد جالساً ، بمعنى وقت دوامه جالساً ، ووقت هبتها نفسها . وقرأ ابن مسعود بغير أن . فإن قلت : ما معنى الشرط الثانى مع الأوّل ؟ قلت : هو تقييد له شرط فى الإحلال هبتها نفسها ، وفى الهبة : إرادة استنكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأنه قال : أحللناها لك إن وهبت لك نفسها وأنت تريد أن تستنكحها ؛ لأنّ إرادته هى قبول الهبة وما به تتم . فإن قلت : لم عدل عن الخطاب إلى الغيبة فى قوله تعالى ﴿نفسها للنبى إن أراد النبى﴾ ثم رجع إلى الخطاب ؟ قلت : للإيذان بأنه مما خص به وأوثر ، ومجيئه على لفظ النبى للدلالة على أن الاختصاص تكرمة له لأجل النبوّة ، وتكريره تفخيم له وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته . واستنكاحها : طلب نكاحها والرغبة فيه ، وقد استشهد به أبو حنيفة على جواز عقد النكاح بلفظ الهبة : لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمّته سواء فى الأحكام إلا فيما خصه الدليل . وقال الشافعى : لا يصح . وقد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى الهبة ولفظها جميعاً ؛ لأنّ اللفظ تابع للمعنى ، والمدعى

(١) قوله «كما أن رزق الله يجب إطلاقه على الحلال» هذا عند المعتزلة . أما أهل السنة فيطلقونه على القسمين . (ع)

(٢) أخرجه الترمذى والحاكم وابن أبى شيبة وإسحاق والطبرى والطبرانى وابن أبى حاتم كلهم من رواية السدى عن أبى صالح عنها

للاشتراك فى اللفظ يحتاج إلى دليل . وقال أبو الحسن الكرخى : إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز ، لقوله تعالى (اللاتى آتيت أجورهنّ) وقال أبو بكر الرازى : لا يصح ؛ لأنّ الإجارة عقد مؤقت ، وعقد النكاح مؤبد ، فهما متنافيان ﴿خالصة﴾ مصدر مؤكد ، كوعد الله، وصبغة الله، أى : خلص لك إحلال ما أحللنا لك خالصة ، بمعنى خلوصا ، والفاعل والفاعلة فى المصادر غير عزيزين ، كالخارج والقاعد ، والعافية والكاذبة . والدليل على أنها وردت فى أثر الإحلالات الأربع مخصوصة برسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التوكيد لها قوله : ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم﴾ بعد قوله (من دون المؤمنين) وهى جملة اعتراضية ، وقوله ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ متصل بخالصة لك من دون المؤمنين ، ومعنى هذه الجملة الاعتراضية أنّ الله قد علم ما يجب فرضه على المؤمنين فى الأزواج والإماء ، وعلى أى حدّ وصفة يجب أن يفرض عليهم ففرضه . وعلم المصلحة فى اختصاص رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اختصه به ففعل : ومعنى (لكيلا يكون عليك حرج) لئلا يكون عليك ضيق فى دينك : حيث اختصصناك بالتنزيه واختيار ما هو أولى وأفضل . وفى دنياك : حيث أحللنا لك أجناس المنكوحات وزدنا لك الواهبة نفسها . وقرئ : خالصة ، بالرفع ، أى : ذلك خلوص لك وخصوص من دون المؤمنين ومن جعل خالصة نعتا للمرأة ، فعلى مذهبه : هذه المرأة خالصة لك من دونهم ﴿وكان الله غفوراً﴾ للواقع فى الحرج إذا تاب ﴿رحيما﴾ بالتوسعة على عباده . روى أن أمهات المؤمنين حين تغايرن وابتغين زيادة النفقة وغظن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هجرهنّ شهراً ، ونزل التخيير ، فأشفقن أنّ يطلقهنّ ، فقلن : يا رسول الله ، افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت [1] . وروى أن عائشة رضى الله عنها قالت : يا رسول الله إنى أرى ربك يسارع فى هواك [2] ﴿ترجى﴾ بهمز وغير همز : تؤخر ﴿وتؤوى﴾ تضمّ ، يعنى : تترك مضاجعة من تشاء منهن ، وتضاجع من تشاء . أو تطلق من تشاء ، وتمسك من تشاء .

---

(١) هذا ملفق من أحاديث . فأوله عند مسلم من طريق أبى الزبير عن جابر قال «دخل أبو بكر على النبي صلى الله عليه وسلم والناس على الباب جلوس . . الحديث » وفيه قول أبى بكر وعمر قال «فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة - فذكر الحديث - وفيه : فأنزل الله آية التخيير» وقوله «وهجرهن شهراً» هذا هو من حديث عائشة فى الصحيحين . وقوله «فأشفقن أن يطلقهن - إلى آخره» أخرجه ابن أبى شيبة من رواية رزين أن النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يفارق نساءه فقلن له : اقسم لنا من نفسك ومالك ما شئت ودعنا على حالنا» وهذا مرسل . وروى ابن مردويه من طريق سالم الأفطس عن مجاهد قال كان للنبي صلى الله عليه وسلم تسع نسوة وخشين أن يطلقهن ، فقلن : يارسول الله اقسم لنا من نفسك ومالك ما شئت ولا تطلقنا . فنزلت (ترجي من تشاء منهن) الآية

(٢) متفق عليه من حديث هشام عن أبيه عن عائشة فى أثناء حديث ووهم الحاكم فاستدركه

أولا تقسم لأيتهن شئت، وتقسم لمن شئت. أو تترك تزوج من شئت من نساء أمتك، وتتزوج من شئت. وعن الحسن رضى الله عنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب امرأة لم يكن لأحد أن يخطبها حتى يدعها، وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض: لأنه إما أن يطلق، وإما أن يمسك؛ فإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أو لم يقسم. وإذا طلق وعزل، فإما أن يخلى المعزولة لا يبتغيها، أو يبتغيها. روى أنه أرجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة، فكان يقسم لهن ما شاء كما شاء، وكانت ممن آوى إليه: عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب رضى الله عنهن أرجى خمساً وآوى أربعاً [١]. وروى أنه كان يسوّى مع ما أطلق له وخير فيه إلا سودة، فإنها وهبت ليلتها لعائشة وقالت: لا تطلقنى حتى أحشر فى زمرة نسائك [٢] ﴿ذلك﴾ التفويض إلى مشيئتك ﴿أدنى﴾ إلى قرة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعاً؛ لأنه إذا سوّى بينهن فى الإيواء والإرجاء والعزل والابتغاء. وارتفع التفاضل، ولم يكن لإحداهن مما تريد ومما لا تريد إلا مثل ما للأخرى. وعلمن أنّ هذا التفويض من عند الله بوحيه ـ اطمأنت نفوسهن وذهب التنافس والتغاير، وحصل الرضا وقرت العيون، وسلت القلوب ﴿والله يعلم ما فى قلوبكم﴾ فيه وعيدٌ لمن لم ترض منهنّ بما دبر الله من ذلك وفوّض إلى مشيئة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعثٌ على تواطئ قلوبهن والتصافى بينهن والتوافق على طلب رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فيه طيب نفسه. وقرئ: تقرّ أعينهنّ، بضم التاء ونصب الأعين. وتقرّ أعينهن، على البناء للمفعول ﴿وكان الله عليما﴾ بذات الصدور ﴿حليما﴾ لا يعاجل بالعقاب، فهو حقيق بأن يتقى ويحذر، ﴿كلهنّ﴾ تأكيد لنون يرضين، وقرأ ابن مسعود: ويرضين كلهن. بما آتيتهنّ. على التقديم. وقرأ: كلهن، تأكيداً لـ (هنّ) فى (آتيتهنّ).

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾

﴿لا تحل﴾ وقرئ بالتذكير، لأنّ تأنيث الجمع غير حقيقى. وإذا جاز بغير فصل فى قوله تعالى

(١) أخرجه ابن أبى شيبة عن جرير وعبدالرزاق عن معمر كلاهما عن منصور عن أبى رزين وهذا مرسل.

(٢) أما كونه كان يسوى فمن حديث عائشة رضى الله عنها «كان يقسم فيعدل» وأما قصة سودة فروى الترمذى عن ابن عباس «أن سودة خشيت أن يطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يارسول الله لا تطلقنى، وأمسكنى واجعل يومى لعائشة، ففعل» وفى الطبرانى من رواية ابن أبى الزناد عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت «ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضل بعضنا على بعض فى القسم. وكان قل يوم إلا وهو يطيف بنا ويدنو من كل واحدة منا من غير مسيس حتى ينتهى إلى التى هى يومها فيبيت عندها، ولقد قالت له سودة بنت زمعة وقد أراد أن يفارقها: يومى منك ونصيبى لعائشة. فقبل ذلك منها. وفيها نزلت (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضا) الآية».

(وقال نسوة) كان مع الفصل أجوز ﴿من بعد﴾ من بعد التسع ، لأنّ التسع نصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأزواج ، كما أن الأربع نصاب أمته منهنّ . فلا يحل له أن يتجاوز النصاب ﴿ولا أن تبدل بهنّ﴾ ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجا أخر بكلهنّ أو بعضهن ، أراد الله لهنّ كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين . فقصر النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهنّ ، وهي التسع[1] اللاتي مات عنهن : عائشة بنت أبي بكر . حفصة بنت عمر . أمّ حبيبة بنت أبي سفيان . سودة بنت زمعة . أمّ سلمة بنت أبي أمية . صفية بنت حي الخيبرية . ميمونة بنت الحرث الهلالية . زينب بنت جحش الأسدية . جويرية بنت الحرث المصطلقية ، رضى الله عنهن[2] . من في ﴿من أزواج﴾ لتأكيد النفي ، وفائدته استغراق جنس الأزواج بالتحريم . وقيل معناه : لا تحل لك النساء من بعد النساء اللاتي نص إحلالهنّ لك من الأجناس الأربعة من الأعرابيات والغرائب ، أو من الكتابيات ، أو من الإماء بالنكاح . وقيل في تحريم التبدل : هو من البدل الذي كان في الجاهلية كان يقول الرجل للرجل : بادلني بامرأتك ، وأبادلك بامرأتي . فينزل كل واحد منهما عن امرأته لصاحبه . ويحكى أنّ عيينة بن حصن دخل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة من غير استئذان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عيينة ، أين الاستئذان ؟ قال : يا رسول الله ، ما استأذنت على رجل قط ممن مضى منذ أدركت . ثم قال : من هذه الجميلة إلى جنبك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : هذه عائشة أمّ المؤمنين . قال عيينة : أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنّ الله قد حرّم ذلك . فلما خرج قالت عائشة رضى الله عنها : من هذا يا رسول الله ؟ قال : أحمق مطاع ، وإنه ـ على ما ترين ـ لسيد قومه[3] . وعن عائشة رضى الله عنها : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء ، يعنى : أنّ الآية قد نسخت[4]

---

(١) قوله «وهي التسع» لعله «وهن» . (ع)

(٢) هذا مجمع عليه كما قال الواقدي وغيره ، لكن اختلف في ريحانة وروى ابن أبي خيثمة عن الزهري وعن قتادة وقال أبو عبيد : صح عندنا وثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج خديجة فلم يتزوج عليها حتى ماتت ، ثم تزوج سودة ، ثم عائشة ، ثم أم سلمة . ثم حفصة ، ثم زينب بنت جحش ، ثم جويرية ، ثم أم حبيبة ، ثم صفية ثم ميمونة ، ثم فاطمة بنت سريج ، ثم زينب بنت خزيمة ، ثم هند بنت يزيد ، ثم أسماء بنت النعمان ، ثم هيلة بنت قيس أخت الأشعث . ثم أسماء بنت سبأ ، وقال الواحدي : والمجمع عليه أنه تزوج أربع عشرة : التسع اللوات مات عنهن وتزوج أيضا خديجة وزينب بنت خزيمة وريحانة ومن عنده ، وتزوج أيضا فاطمة بنت الضحاك وأسماء بنت النعمان ولم يدخل بهما .

(٣) أخرجه البزار من حديث أبي هريرة بهذا وأتم منه وفيه إسحق بن عبد الله القروي وهو متروك . وله شاهد من حديث جرير أخرجه الطبراني ، وآخر عن عائشة أخرجه ابن سعد .

(٤) أخرجه الترمذي وأحمد وإسحق والنسائي وأبو يعلى والطبري والبزار وابن حبان والحاكم من حديث عائشة رضى الله عنها بالحديث دون التفسير وأخرجه ابن أبي حاتم وابن سعد من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

ولايخلو نسخها إما أن يكون بالسنة ، وإما بقوله تعالى (إنا أحللنا لك أزواجك) وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف ﴿ولو أعجبك﴾ فى موضع الحال من الفاعل ، وهو الضمير فى (تبدل) لا من المفعول الذى هو (من أزواج) لأنه موغل فى التنكير ، وتقديره : مفروضا إعجابك بهن . وقيل : هى أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبى طالب ، والمراد أنها ممن أعجبه حسنهن ، واستثنى ممن حرم عليه : الإماء ﴿رقيبا﴾ حافظا مهيمنا ، وهو تحذير عن مجاوزة حدوده وتخطى حلاله إلى حرامه .

يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّآ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

﴿أن يؤذن لكم﴾ فى معنى الظرف تقديره وقت أن يؤذن لكم . و ﴿غير ناظرين﴾ حال من (لاتدخلوا) وقع الاستثناء على الوقت والحال معا . كأنه قيل : لاتدخلوا بيوت النبى صلى الله عليه وسلم إلاوقت الإذن ، ولا تدخلوها إلا غير ناظرين . وهؤلاء قوم كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه . ومعناه : لا تدخلوا يا هؤلاء المتحينون للطعام ، إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، وإلا فلو لم يكن لهؤلاء خصوصا ، لما جاز لأحد أن يدخل بيوت النبى صلى الله عليه وسلم إلا أن يؤذن له إذنا خاصا ، وهو الإذن إلى الطعام فحسب . وعن ابن أبى عبلة أنه قرأ : غير ناظرين ، مجروراً صفة لطعام ، وليس بالوجه ، لأنه جرى على غير ما هو له ، فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ ، فيقال : غير ناظرين إناه أنتم ، كقولك : هند زيد ضاربته هى . وإنى الطعام : إدراكه . يقال : أنى الطعام إنىً ، كقولك : قلاه قلىً . ومنه قوله (بين حميم آن) بالغ إناه . وقيل (إناه) : وقته ، أى : غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أولم على زينب بتمر وسويق وشاة ، وأمر أنسا أن يدعو بالناس ، فترادفوا أفواجا يأكل فوج فيخرج ، ثم يدخل فوج إلى أن قال : يا رسول الله ، دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه ، فقال : ارفعوا طعامكم وتفرق الناس ، وبقى ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا : فقام رسول الله صلى الله

عليه وسلم ليخرجوا ، فانطلق إلى حجرة عائشة رضى الله عنها فقال : السلام عليكم أهل البيت فقالوا : عليك السلام يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ وطاف بالحجرات فسلم عليهن ودعون له ؛ ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحياء ، فتولى ، فلما رأوه متوليا خرجوا ، فرجع [١] ونزلت : ﴿ولا مستأنسين لحديث﴾ نهوا عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدثه به . أو عن أن يستأنسوا حديث أهل البيت . واستئناسه : تسمعه وتوجسه ، وهو مجرور معطوف على ناظرين . وقيل : هو منصوب على : ولا تدخلوها مستأنسين . لا بد فى قوله ﴿فيستحيي منكم﴾ من تقدير المضاف ، أى : من إخراجكم ، بدليل قوله (والله لا يستحيي من الحق) يعنى أن إخراجكم حق ما ينبغى أن يستحيا منه . ولما كان الحياء مما يمنع الحيي من بعض الأفعال ، قيل ﴿لا يستحيي من الحق﴾ بمعنى لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحيي منكم ، وهذا أدبٌ أدّب الله به الثقلاء . وعن عائشة رضى الله عنها : حسبك فى الثقلاء أنّ الله تعالى لم يحتملهم وقال : فإذا طعمتم فانتشروا . [٢] وقرئ : لا يستحى ، بياء واحدة . الضمير فى ﴿سألتموهن﴾ لنساء النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكرن لأنّ الحال ناطقة بذكرهن ﴿متاعا﴾ حاجة ﴿فاسألوهنّ﴾ المتاع . قيل : إن عمر رضى الله عنه كان يحب ضرب الحجاب عليهن محبة شديدة ، وكان يذكره كثيراً ، ويود أن ينزل فيه ، وكان يقول : لو أُطاع فيكن ما رأتكن عين ، وقال : يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، [٣] فنزلت . وروى أنه مر عليهن وهن مع النساء فى المسجد [٤] فقال : لئن احتجبتن ، فإن لكن على النساء فضلا ، كما أن لزوجكن على الرجال الفضل ، فقالت زينب رضى الله عنها : يا ابن الخطاب ، إنك لتغار علينا والوحى ينزل فى بيوتنا ، فلم يلبثوا

(١) متفق عليه من حديث أنس وله طرق عندهما وألفاظ .

(٢) أخرجه الثعلبى من طريق العلاء . سمعت عائشة بهذا . قلت : كذا بخط المخرج . وهو غلط واضح جداً . فان العلاء إنما يروى عن ابن عائشة صاحب النوادر ولم يدرك أصحاب أصحابه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فضلا عنها ولعله كان فى الأصل ابن عائشة فسقط ابن

(٣) متفق عليه من حديثين هذا أحدهما . أخرجه النسائى والبخارى فى الأدب المفرد والطبرانى فى الصغير من طريق مجاهد عن عائشة قالت وكنت آكل مع النبى صلى الله عليه وسلم حيسا فى قصعة فمر عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعه أصبعى . فقال عمر : أواه لو أطاع فيكن ماراتكن عين فنزل الحجاب، ورواه ابن أبى شيبة والطبرى من طريق مجاهد مرسلا وصوبه الدارقطنى فى العلل والثانى أخرجه النسائى أيضا من طريق أنس عن عمر رضى الله عنه قال «وقلت يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو حجبت أمهات المؤمنين فأنزل الله آية الحجاب) وأصله فى الصحيح) .

(٤) أخرجه الثعلبى من رواية مجاهد عن الشعبى قال «مر عمر على نساء النبى صلى الله عليه وسلم » فذكره

إلا يسيرا حتى نزلت. وقيل: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم ومعه بعض أصحابه، فأصابت يد رجل منهم يد عائشة، فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك،[١] فنزلت آية الحجاب. وذكر أنّ بعضهم قال: أننهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب، لئن مات محمد لأتزوجن عائشة. فأعلم الله أن ذلك محرم[٢] ﴿وما كان لكم﴾ وما صح لكم إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نكاح أزواجه من بعده. وسمى نكاحهن بعده عظيما عنده، وهو من أعلام تعظيم الله لرسوله وإيجاب حرمته حياً وميتاً، وإعلامه بذلك مما طيب به نفسه وسر قلبه واستغزر شكره. فإن نحو هذا مما يحدث الرجل به نفسه ولا يخلى منه فكره. ومن الناس من تفرط غيرته على حرمته حتى يتمنى لها الموت لئلا تنكح من بعده. وعن بعض الفتيان أنه كانت له جارية لا يرى الدنيا بها شغفاً واستهتاراً،[٣] فنظر إليها ذات يوم فتنفس الصعداء وانتحب فعلا نحيبه مما ذهب به فكره هذا المذهب، فلم يزل به ذلك حتى قتلها، تصورا لما عسى يتفق من بقائها بعده وحصولها تحت يد غيره. وعن بعض الفقهاء أن الزوج الثانى فى هدم الثلاث مما يجرى مجرى العقوبة؛ فصين رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يلاحظ ذلك.

إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥٤)

(إن تبدوا شيئاً) من نكاحهن على ألسنتكم ﴿أو تخفوه﴾ فى صدوركم ﴿فإن الله﴾ يعلم ذلك فيعاقبكم به، وإنما جاء به على أثر ذلك عاما لكل باد وخاف، ليدخل تحته نكاحهن وغيره ولأنه على هذه الطريقة أهول وأجزل.

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥)

(١) وهو فى حديث النسائى الذى قدمناه أولا.

*(٢) أخرجه ابن سعد عن الواقدى عن عبدالله بن جعفر عن ابن أبى عون عن ابن بكر بن حزام فى هذه الآية نزلت فى طلحة قال: إذا توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجت عائشة» وقال عبدالرزاق أخبرنا معمر عن قتادة أن رجلا قال «لوقد مات محمد لأتزوجن عائشة رضى الله عنها» فأنزل الله تعالى (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله الآية» وروى ابن أبى حاتم وابن مردويه من رواية داود عن عكرمة عن ابن عباس فى هذه الآية قال «نزلت فى رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم ـ الحديث» من طريق السدى أن الذى عزم على ذلك عائشة رضى الله عنها.

(٣) قوله «لايرى الدنيا بها شغفا واستهتاراً» فى الصحاح: فلان مستهتر بالشراب، أي: مولع به، لايبالى ماقيل فيه. (ع)

روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : يا رسول الله ، أو نحن أيضا نكلمهن من وراء الحجاب ، فنزلت ﴿لاجناح عليهن﴾ أى لا إثم عليهن فى أن لا يحتجبن من هؤلاء ولم يذكر العم والخال ، لأنهما يجريان مجرى الوالدين ، وقد جاءت تسمية العم أبا. قال الله تعالى : (وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق) وإسمعيل عم يعقوب . وقيل . كره ترك الاحتجاب عنهما لأنهما يصفانها لأبنائهما ، وأبناؤهما غير محارم . ثم نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب ، وفى هذا النقل ما يدل على فضل تشديد . فقيل ﴿واتقين الله﴾ فيما أمرتن به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحى من الاستتار ، واحططن فيه وفيما استثنى منه ماقدرتن . واحفظن حدودهما واسلكن طريق التقوى فى حفظهما ؛ وليكن عملكن فى الحجب أحسن مما كان وأنتن غير محجبات ، ليفضل سركن علنكن ﴿إن الله كان على كل شىء﴾ من السر والعلن وظاهر الحجاب وباطنه ﴿شهيدا﴾ لا يتفاوت فى علمه الأحوال .

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)

قرئ : وملائكته بالرفع ، عطفا على محل إن واسمها ، وهو ظاهر على مذهب الكوفيين ، ووجهه عند البصريين . أن يحذف الخبر لدلالة يصلون عليه ﴿صلوا عليه وسلموا﴾ أى قولوا الصلاة على الرسول والسلام . ومعناه : الدعاء بأن يترحم عليه الله ويسلم . فإن قلت : الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبة ، وقد اختلفوا فى حال وجوبها . فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره . وفى الحديث : « من ذكرت عنده فلم يصل علىّ فدخل النار فأبعده [1] الله » ويروى أنه قيل : يارسول الله ، أرأيت قول الله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبى) فقال صلى الله عليه وسلم : « هذا من العلم المكنون ولولا أنكم سألتمونى عنه ما أخبرتكم به ، إنّ الله وكل بى ملكين فلا أذكر عند عبد مسلم فيصلى علىّ إلا قال ذانك الملكان : غفر الله لك . وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين: آمين. ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلى علىّ إلا قال ذانك الملكان : لا غفر الله لك ، وقال الله وملائكته

(١) أخرجه ابن حبان من طريق محمد بن عمر عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فقال : آمين آمين آمين قال : إن جبريل أتانى فذكر الحديث وفيه «ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله» وفى الباب عن مالك بن الحويرث عند ابن حبان والطبرانى . وعن ابن عباس فى الطبرانى وكذلك عن جابر بن سمرة وعبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدى وعن بريدة عند إسحاق بن راهويه وعن عمار بن ياسر عند البزار وعن جابر بن عبدالله عند البيهقى فى الشعب .

لذينك الملكين : آمين »[١] ومنهم من قال : تجب فى كل مجلس مرة ، وإن تكرر ذكره ، كما قيل فى آية السجدة وتشميت العاطس ، وكذلك فى كل دعاء فى أوله وآخره . ومنهم من أوجبها فى العمر مرة ، وكذا قال فى إظهار الشهادتين . والذى يقتضيه الاحتياط . الصلاة عليه عند كل ذكر ، لما ورد من الأخبار[٢] . فإن قلت : فالصلاة عليه فى الصلاة ، أهى شرط فى جوازها أم لا ؟ قلت : أبو حنيفة وأصحابه لا يرونها شرطا . وعن إبراهيم النخعى : كانوا يكتفون عن ذلك ـ يعنى الصحابة ـ بالتشهد ، وهو السلام عليك أيها النبي ، وأما الشافعى رحمه الله فقد جعلها شرطا . فإن قلت : فما تقول فى الصلاة على غيره ؟ قلت : القياس جواز الصلاة على كل مؤمن ، لقوله تعالى (هو الذى يصلى عليكم) وقوله تعالى (وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) وقوله صلى الله عليه وسلم « اللهم صل على آل أبى أوفى »[٣] ولكن للعلماء تفصيلا فى ذلك : وهو أنها إن كانت على سبيل التبع كقولك : صلى الله على النبي وآله ، فلا كلام فيها . وأما إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة كما يفرد هو ، فمكروه ، لأن ذلك صار شعاراً لذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأنه يؤدى إلى الاتهام بالرفض . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم[٤]

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ

---

(١) أخرجه الطبراني وابن مردويه والثعلبي من حديث الحسن بن على . وفيه الحكم بن عبدالله بن خطاف وهو متروك .

(٢) ومنها حديث أبى هريرة رفعه « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على » أخرجه الترمذى وابن حبان ، وفى الباب عن كعب بن عجرة أخرجه الطبرانى والبيهقى فى الشعب . وعن جابر فى الأدب المفرد للبخارى ، وفى الطبرانى الأوسط . وعن عبدالله بن الحارث بن جزء فى كتاب فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لابن أبى عاصم ومنها حديث على رضى الله عنه « البخيل من ذكرت عنده فلم يصل على » أخرجه الترمذى من طريق عمارة بن غزية عن عبد الله بن على بن حسين عن أبيه عن حسين بن على عن على رضى الله عنه ، وأخرجه النسائى وابن حبان من هذا الوجه بغير ذكر على . وأخرجه الحاكم من هذا الوجه فقال عن عبدالله بن على بن الحسين عن أبى هريرة ومنها حديث أنس رفعه « من ذكرت عنده فليصل على فمن صلى على مرة صلى الله عليه عشراً » أخرجه النسائي . ومنها حديث ابن عباس ـ رفعه ـ « من نسى الصلاه علىّ خطئ طريق الجنه » أخرجه ابن ماجه . وله طريق أخرى عن الحسين بن على عند الطبرانى . وأخرى عند البيهقى فى القضايا من المعرفة عن أبى هريرة وأخرى عند ابن إسحاق وأبى يعلى عن أبى ذر بلفظ « إن أضل الناس من ذكرت عنده فلم يصل على ، ومنها حديث عمر رضى الله عنه قال « الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شىء حتى يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم » أخرجه الترمذى والبيهقى فى الشعب عن على نحوه ومنها حديث عبدالله بن عامر بن ربيعة عن أبيه ـ رفعه « من صلى على صلت عليه الملائكة ما صلى على ، فليقل من ذلك أو ليكثر ، أخرجه ابن ماجه ، والأحاديث فى فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة جداً .

(٣) متفق عليه . وقد تقدم فى سورة براءة

(٤) تقدم فى يوسف

عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾

﴿يؤذون الله ورسوله﴾ فيه وجهان، أحدهما: أن يعبر بإيذائهما عن فعل ما يكرهانه ولا يرضيانه: من الكفر والمعاصى، وإنكار النبوة، ومخالفة الشريعة، وما كانوا يصيبون به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنواع المكروه، على سبيل المجاز. وإنما جعلته مجازاً فيهما جميعاً. وحقيقة الإيذاء صحيحة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا أجعل العبارة الواحدة معطية معنى المجاز والحقيقة. والثانى: أن يراد يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل فى أذى الله: هو قول اليهود والنصارى والمشركين: يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه. وقيل: قول الذين يلحدون فى أسمائه وصفاته. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكى عن ربه «شتمنى ابن آدم ولم ينبغ له أن يشتمنى، وآذانى ولم ينبغ له أن يؤذينى. فأما شتمه إياى فقوله: إنى اتخذت ولداً. وأما أذاه فقوله: إن الله لا يعيدنى بعد أن بدأنى، وعن عكرمة: فعل أصحاب التصاوير الذين يرومون تكوين خلق مثل خلق الله[1]»، وقيل فى أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم قولهم: ساحر، شاعر، كاهن، مجنون. وقيل: كسر رباعيته وشج وجهه يوم أحد. وقيل: طعنهم عليه فى نكاح صفية بنت حيى، وأطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق أبداً. وأما أذى المؤمنين والمؤمنات، فمنه ومنه. ومعنى ﴿بغير ما اكتسبوا﴾ بغير جناية واستحقاق للأذى. وقيل: نزلت فى ناس من المنافقين يؤذون علياً رضى الله عنه ويسمعونه. وقيل: فى الذين أفكوا على عائشة رضى الله عنها. وقيل: فى زناة كانوا يتبعون النساء وهنّ كارهات. وعن الفضيل: لا يحل لك أن تؤذى كلباً أو خنزيراً بغير حق، فكيف[2] وكان ابن عون لا يكرى الحوانيت إلا من أهل الذمة، لما فيه من الروعة عند كرّ الحول.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾

الجلباب: ثوب واسع أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: الرداء الذى يستر من فوق إلى أسفل.

(١) أخرجه الطبرى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه. ومن حديث ابن عباس رضى الله عنهما نحوه.
(٢) «فكيف» عبارة النسفى: فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات. (ع)

وقيل : الملحفة وكل مايستتر به من كساء أو غيره . قال أبو زيد :

* مُجَلْبَبٌ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ جِلْبَابَا * (١)

ومعنى ﴿ يدنين عليهنّ من جلابيبهن ﴾ يرخينها عليهنّ ، ويغطين بها وجوههنّ وأعطافهنّ . يقال : إذا زل الثوب عن وجه المرأة : أدنى ثوبك على وجهك ، وذلك أن النساء كنّ فى أول الإسلام على هجيراهنّ فى الجاهلية متبذلات ، تبرز المرأة فى درع وخمار فصل بين الحرّة والامة ، وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرّضون إذا خرجن بالليل إلى مقاضى حوائجهنّ فى النخيل والغيطان للإماء ، وربمـا تعرّضوا للحرّه بعلة الأمة ، يقولون : حسبناها أمة ، فأمرن أن يخالفن بزيهنّ عن زى الإماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس والوجوه ، ليحتشمن ويهبن فلا يطمع فيهن طامع ، وذلك قوله ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن ﴾ أى أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرّض لهن ولا يلقين ما يكرهن . فإن قلت : ما معنى (من) فى (من جلابيبهن) ؟ قلت : هو للتبعيض ، إلا أن معنى التبعيض محتمل وجهين ، أحدهما : أن يتجلببن ببعض مالهنّ من الجلابيب ، والمراد أن لا تكون الحرة متبذلة فى درع وخمار ، كالأمة والمـاهنة ولهـا جلبابان فصاعدا فى بيتها . والثانى : أن ترخى المرأة بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز من الأمة . وعن ابن سيرين : سألت عبيدة السلمانى عن ذلك فقال : أن تضع رداءها فوق الحاجب ثم تديره حتى تضعه على أنفها . وعن السدى : أن تغطى إحدى عينيها وجبهتها ، والشق الآخر إلا العين . وعن الكسائى : يتقنعن بملاحفهن منضمة عليهنّ ، أراد بالانضمام معنى الإدناء ﴿ وكان الله غفورا ﴾ لمـا سلف منهن من التفريط مع التوبة (٢) ؛ لأن هذا مما يمكن معرفته بالعقل .

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا

(١) أهلا بضيف أنى ما استفتح البابا مجلبب من سواد الليل جلبابا

لأبى زيد . وأهلا : مفعول لمحذوف وجوبا ، أى : أتيت أهلا . وبضيف : متعلق بمحذوف ، أى . أرحب بضيف : ويجوز تعلقه بأهلا ؛ لأن فيه معنى الترحيب . وما : مصدرية ، أى : مدة استقامة الباب . والمراد منه التعميم ، أى : فى أى وقت يطلب فتح الباب : وصفه بالآتى فى سواد الليـل ، مبالغة فى التمدح بالكرم . ويجوز أن الضيف محبوبته . فيكون الليل أستر لها . وشبه استتار ضيفه بظلام الليل بلبس اللباس ، والتجوز فى الجلببة أو فى الجلباب على طريق التصريحية . ويجوز لأن ما نافية ، وعلى هذا فيصح أن يكون خطابا لملك الموت ، حيث دخل ولم يطلب فتح الباب ، وإن كان الضيف والحبيب قد يفعلان ذلك أيضا

(٢) قوله «لمـا سلف منهن من التفريط مع التوبة» هذا عند المعتزلة . أو بمجرد الفضل عند أهل السنة . (ع)

أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴿٦٢﴾

﴿الذين فى قلوبهم مرض﴾ قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه. وقيل: هم الزناة وأهل الفجور من قوله تعالى (فيطمع الذى فى قلبه مرض). ﴿والمرجفون﴾ ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون: هزموا وقتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين. يقال: أرجف بكذا، إذا أخبر به على غير حقيقة، لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت، من الرجفة وهى الزلزلة. والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدكم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء: لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التى تسوءهم وتنوءهم[1]، ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة، وإلى أن لا يساكنوك فيها ﴿إلا﴾ زمناً ﴿قليلا﴾ ريثما يرتحلون ويلتقطون أنفسهم وعيالاتهم[2]، فسمى ذلك إغراء. وهو التحريش على سبيل المجاز ﴿ملعونين﴾ نصب على الشتم أو الحال، أى: لا يجاورونك إلا ملعونين، دخل حرف الاستثناء على الظرف والحال معاً، كما مرّ فى قوله (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه) ولا يصح أن ينتصب عن (أخذوا) لأنّ ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها. وقيل فى (قليلا) وهو منصوب على الحال أيضاً. ومعناه. لا يجاورونك إلا أقلاء أذلاء ملعونين. فإن قلت: ما موقع لا يجاورونك؟ قلت: لا يجاورونك عطف على لنغرينك، لأنه يجوز أن يجاب به القسم. ألا ترى إلى صحة قولك: لئن لم ينتهوا لا يجاورونك. فإن قلت: أما كان من حق لا يجاورونك أن يعطف بالفاء، وأن يقال لنغرينك بهم فلا يجاورونك؟ قلت: لو جعل الثانى مسبباً عن الأول لكان الأمر كما قلت، ولكنه جعل جواباً آخر للقسم معطوفا على الأول، وإنما عطف بثم، لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم وأعظم من جميع ما أصيبوا به، فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه ﴿سنة الله﴾ فى موضع مصدر مؤكد، أى: سن الله فى الذين ينافقون الأنبياء أن يقتلوا حيثما ثقفوا وعن مقاتل: يعنى كما قتل أهل بدر وأسروا.

(١) قوله «الأفاعيل التى تسوءهم وتنوءهم» فى الصحاح، يقال: له عندى ماساءه وناءه، أى أثقله، وما يسوءه وينوءه، وقال بعضهم أراد ساءه وناءه وإنما قال ناءه وهو لا يتعدى لأجل ساءه، ليزدوج الكلام. (ع)

(٢) قال محمود: «المراد بقوله تعالى (إلا قليلا) ريثما يلتقطون عيالاتهم وأنفسهم لا غير» قال أحمد: «وفيها إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعى، يمهل ريثما ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهة من الزمان، حتى يتحصل له منزل آخر على حسب الاجتهاد، والله أعلم.

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾

كان المشركون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة استعجالا على سبيل الهزء، واليهود يسألونه امتحاناً؛ لأن الله تعالى عمى وقتها فى التوراة وفى كل كتاب، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به، لم يطلع عليه ملكا ولا نبيا، ثم بين لرسوله أنها قريبة الوقوع، تهديدا للمستعجلين، وإسكاتا للممتحنين ﴿قريبا﴾ شيئا قريباً. أو لأن الساعة فى معنى اليوم، أو فى زمان قريب.

إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾

السعير: النار المسعورة الشديدة الإيقاد.

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾

وقرئ: تقلب، على البناء المفعول. وتقلب، بمعنى تتقلب. ونقلب، أى: نقلب نحن. وتقلب، على أن الفعل للسعير[1]. ومعنى تقليبها: تصريفها فى الجهات، كما ترى البضعة تدور فى القدر إذا غلت فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة. أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها. أو طرحها فى النار مقلوبين منكوسين. وخصت الوجوه بالذكر، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده. ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة، وناصب الظرف (يقولون) أو محذوف. وهو «اذكر» وإذا نصب بالمحذوف كان (يقولون) حالا.

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

وقرئ: سادتنا وساداتنا: وهم رؤساء الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم. يقال: ضل السبيل وأضله إياه، وزيادة الألف لإطلاق الصوت: جعلت فواصل الآى كقوافى الشعر، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع، وأن ما بعده مستأنف. وقرئ: كثيراً، تكثيراً لإعداد اللاعن. وكبيرا، ليدل على أشد اللعن وأعظمه ﴿ضعفين﴾ ضعفاً لضلاله وضعفاً لإضلاله: يعترفون، ويستغيثون، ويتمنون، ولا ينفعهم شىء من ذلك.

(١) قوله «على أن الفعل للسعير» يعنى: وجوههم، بالنصب. (ع)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

﴿لا تكونوا كالذين آذوا موسى﴾ قيل : نزلت فى شأن زيد وزينب ، وماسمع فيه من قالة بعض الناس . وقيل : فى أذى موسى عليه السلام : هو حديث المومسة التى أرادها قارون على قذفه بنفسها ، وقيل : اتهامهم إياه بقتل هرون ، وكان قد خرج معه الجبل فمات هناك ، فحملته الملائكة ومروا به عليهم ميتاً فأبصروه حتى عرفوا أنه غير مقتول . وقيل : أحياه الله فأخبرهم ببراءة موسى عليه السلام . وقيل : قرفوه بعيب[1] فى جسده من برص أو أدرة ، فأطلعهم الله على أنه برىء منه ﴿وجيهاً﴾ ذا جاه ومنزلة عنده ، فلذلك كان يميط عنه التهم ، ويدفع الأذى ، ويحافظ عليه ، لئلا يلحقه وصم ولا يوصف بنقيصة ، كما يفعل الملك بمن له عنده قربة ووجاهة . وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوة . وكان عبدالله وجيها . قال ابن خالويه : صليت خلف ابن شنبوذ فى شهر رمضان ، فسمعته يقرؤها . وقراءة العامة أوجه : لأنها مفصحة عن وجاهته عند الله ، كقوله تعالى (عند ذى العرش مكين) وهذه ليست كذلك . فإن قلت : قوله (مما قالوا) معناه : من قولهم ، أو من مقولهم ؛ لأن (ما) إما مصدرية أو موصولة ، وأيهما كان فكيف تصح البراءة منه؟ قلت المراد بالقول أو المقول : مؤداه ومضمونه ، وهو الأمر المعيب . ألا ترى أنهم سموا السبة بالقالة[2] ، والقالة بمعنى القول؟

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

﴿قولا سديدا﴾ قاصدا إلى الحق والسداد : القصد إلى الحق ، والقول بالعدل . يقال : سدّد السهم نحو الرميّة : إذا لم يعدل به عن سمتها ، كما قالوا : سهم قاصد ، والمراد : نهيهم عما خاضوا

---

(١) قوله «وقيل قرفوه بعيب» فى الصحاح : قرفت الرجل ، أى : عبته ، ويقال : هو يقرف بكذا ، أى : يرمى به ويتهم . (ع)

(٢) قوله «ألا ترى أنهم سموا السبة بالقالة» فى الصحاح : صار هذا الأمر سبة عليه ـ بالضم ، أى : عارا (ع)

فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول ، والبعث على أن يسد قولهم [١] فى كل باب : لأنّ حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله . والمعنى : راقبوا الله فى حفظ ألسنتكم ، وتسديد قولكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم الله ما هو غاية الطلبة : من تقبل حسناتكم والإثابة عليها ، ومن مغفرة سيآتكم وتكفيرها . وقيل إصلاح الأعمال التوفيق فى المجيء بها صالحة مرضية وهذه الآية مقررة للتى قبلها ، بنيت تلك على النهى عما يؤذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى فى حفظ اللسان ؛ ليترادف عليهم النهى والأمر ، مع اتباع النهى ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام ، وإتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعى إلى تركه . لما قال ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ وعلق بالطاعة الفوز العظيم ، أتبعه قوله ﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ وهو يريد بالأمانة الطاعة ، فعظم أمرها وفخم شأنها ، وفيه وجهان ، أحدهما : أنّ هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله عز وعلا انقياد مثلها ـ وهو ما يتأتى من الجمادات ـ وأطاعت له الطاعة التى تصح منها وتليق بها ـ حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجاداً وتكويناً وتسوية على هيآت مختلفة وأشكال متنوعة ، كما قال (قالتا أتينا طائعين) وأما الإنسان فلم تكن حاله ـ فيما يصح منه من الطاعات ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه . وهو حيوان عاقل صالح للتكليف ـ مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع ، والمراد بالأمانة : الطاعة ؛ لأنها لازمة الوجود ، كما أن الأمانة لازمة الأداء . وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها : مجاز . وأما حمل الأمانة فمن قولك : فلان حامل للأمانة ومحتمل لها ، تريد: أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج عن عهدتها ؛ لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها . ألا تراهم يقولون : ركبته الديون ، ولى عليه حق ، فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملا لها . ونحوه قولهم ، لا يملك مولى لمولى نصراً . يريدون: أنه يبذل النصرة له ويسامحه بها ، ولا يمسكها كما يمسكها الخاذل . ومنه قول القائل :

أَخُوكَ الَّذِى لَا تَمْلِكُ الْحِسَّ نَفْسُهُ ... وَتَرْفَضُّ عِنْدَ الْمُحْفِظَاتِ الْكَتَائِفُ [٢]

أى لا يمسك الرقة والعطف إمساك المالك الضنين ما فى يده ، بل يبذل ذلك ويسمح به . ومنه قولهم ابغض حق أخيك ؟ لأنه إذا أحبه لم يخرجه إلى أخيه ولم يؤده ، وإذا أبغضه أخرجه وأداه ،

(١) قوله «على أن يسد قولهم» فى الصحاح : سد قوله يسد ـ بالكسر ـ : أى صار سديداً . (ع)

(٢) للقطامى . وقيل : لذى الرمة . وحس له حسا : رق له وعطف . والحس أيضاً : العقل والتدبير والنظر فى العواقب ، والارفضاض من الترشرش والتناثر ، وأحفظه إحفاظاً : أغضبه ، فالمحفظات : المغضبات . والكتائف : جمع كتيفة ، وهى الضغينة والحقد . يقول : أخوك هو الذى لا تملك نفسه الرحمة ، بل يبذلها لك . أو لا تقدر نفسه على التدبر بالتأنى ، بل يسرع إليك بغتة وترتعد وتذهب ضغائنه من جهتك عند الأمور المغضبة لك ، لأنها تغضبه أيضاً .

فمعنى : فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان ، فأبين إلا أن يؤدينها وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملا لها لا يؤديها . ثم وصفه بالظلم لكونه تاركا لأداء الأمانة ، وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أداؤها . والثانى : أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله : أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه وأشده : أن يتحمله ويستقل به ، فأبى حمله والاستقلال به وأشفق منه ، وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته ﴿إنه كان ظلوما جهولا﴾ حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها ، وضمنها ثم خاس [1] بضمانه فيها ، ونحو هذا من الكلام كثير فى لسان العرب . وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم من ذلك قولهم : لو قيل للشحم : أين تذهب؟ لقال : أسوى العوج . وكم وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات . وتصور مقاولة الشحم محال ، ولكن الغرض أنّ السمن فى الحيوان مما يحسن قبيحه ، كما أن العجف مما يقبح حسنه ، فصوّر أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع فى نفس السامع ، وهى به آنس وله أقبل ، وعلى حقيقته أوقف ، وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها . فإن قلت : قد علم وجه التمثيل فى قولهم للذى لا يثبت على رأى واحد : أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ؛ لأنه مثلت حاله ـ فى تميله وترجحه بين الرأيين وتركه المضى على أحدهما ـ بحال من يتردد فى ذهابه فلا يجمع رجليه للمضى فى وجهه . وكل واحد من الممثل والممثل به شىء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة ، وليس كذلك ما فى هذه الآية ؛ فإن عرض الأمانة على الجماد وإباءه وإشفاقه محال فى نفسه ، غير مستقيم ، فكيف صح بناء التمثيل على المحال ، وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئا والمشبه به غير معقول . قلت : الممثل به فى الآية وفى قولهم : لو قيل للشحم أين تذهب . وفى نظائره مفروض ، والمفروضات تتخيل فى الذهن كما المحققات : مثلت حال التكليف فى صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها . واللام فى (ليعذب) لام التعليل على طريق المجاز ؛ لأنّ التعذيب نتيجة حمل الأمانة ، كما أن التأديب فى ضربته للتأديب نتيجة الضرب . وقرأ الأعمش . ويتوب ؛ ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل ، ويبتدئ : ويتوب الله [2] . ومعنى قراءة العامة : ليعذب الله حامل الأمانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها ، لأنه إذا تيب على الوافى كان ذلك نوعا من عذاب الغادر ، والله أعلم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه، أعطى الأمان من عذاب القبر [3] » .

(١) قوله «ثم خاس بضمانه فيها» فى الصحاح : خاس به يخيس ويخوس ، أى : غدر به . يقال : خاس بالعهد ، إذا نكث . (ع)

(٢) قوله «ويتوب» أى بالرفع ، كما فى النسفى . (ع)

(٣) أخرجه الثعلبى وابن مردويه من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه .

سورة سبإ

مكية، [إلا آية ٦ فمدنية]

وآياتها ٥٤ [نزلت بعد لقمان]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)

مافى السموات والأرض كله نعمة من الله، وهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجله، ولما قال ﴿الحمد لله﴾ ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية، كان معناه: أنه المحمود على نعم الدنيا، كما تقول: احمد أخاك الذى كساك وحملك، تريد: احمده على كسوته وحملانه. ولما قال ﴿وله الحمد فى الآخرة﴾ علم أنه المحمود على نعم الآخرة وهو الثواب. فإن قلت: ماالفرق بين الحمدين؟ قلت: أمّا الحمد فى الدنيا فواجب، لأنه على نعمة متفضل بها، وهو الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة وهى الثواب. وأمّا الحمد فى الآخرة فليس بواجب [1]، لأنه على نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها [2]، إنما هو تتمة سرور المؤمنين وتكملة اغتباطهم: يلتذون به كما يلتذ من به العطاش [3] بالماء البارد ﴿وهو الحكيم﴾ الذى أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته ﴿الخبير﴾ بكل كائن يكون. ثم ذكر مما يحيط به علما ﴿مايلج فى الأرض﴾ من

---

(١) قال محمود: «الحمد الأول واجب لأنه على نعمة متفضل بها، والثانى: ليس بواجب، لأنه على نعمة واجبة على المنعم» قال أحمد: والحق فى الفرق بين الحمدين: أن الأول عبادة مكلف بها، والثانى غير مكلف به ولا متكلف، وإنما هو فى النشأة الثانية كالجبليات فى النشأة الأولى، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس» وإلا فالنعمة الأولى كالثانية بفضل من الله تعالى على عباده، لا عن استحقاق. والله الموفق.

(٢) قوله «نعمة واجبة الايصال إلى مستحقها» مبنى على مذهب المعتزلة، أما أهل السنة فلا يوجبون على الله شيئاً، ولايجب الحمد فى الآخرة، لأنها ليست دار تكليف. (ع)

(٣) قوله «كما يلتذ من به العطاش» فى الصحاح «العطاش»: داء يصيب الانسان: يشرب الماء فلا روى. (ع)

الغيث كقوله (فسلكه ينابيع فى الارض) ومن الكنوز والدفائن والأموات . وجميع ما هى له كفات ﴿وما يخرج منها﴾ من الشجر والنبات ، وماء العيون ، والغلة ، والدواب ، وغير ذلك ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير ، كما قال تعالى (وفى السماء رزقكم وما توعدون) ﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة وأعمال العباد ﴿وهو﴾ مع كثرة نعمه وسبوغ فضله ﴿الرحيم الغفور﴾ للمفرطين فى أداء مواجب شكرها . وقرأ على بن أبى طالب رضى الله عنه : ننزّل ، بالنون والتشديد .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

قولهم ﴿لا تأتينا الساعة﴾ نفى للبعث وإنكار لمجىء الساعة . أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية ، كقولهم (متى هذا الوعد) . أوجب ما بعد النفى ببلى على معنى : أن ليس الأمر إلا إتيانها ، ثم أعيد إيجابه مؤكداً بما هو الغاية فى التوكيد والتشديد ، وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل ، ثم أمد التوكيد القسمى إمداداً بما أتبع المقسم به من الوصف بما وصف به ، إلى قوله (ليجزى) لأنّ عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وشدّة ثباته واستقامته ، لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر ، وكلما كان المستشهد به أعلى كعباً وأبين فضلا وأرفع منزلة ، كانت الشهادة أقوى وآكد ، والمستشهد عليه أثبت وأرسخ . فإن قلت : هل للوصف الذى وصف به المقسم به وجه اختصاص بهذا المعنى ؟ قلت : نعم وذلك أن قيام الساعة من مشاهير الغيوب ، وأدخلها فى الخفية ، وأولها مسارعة إلى القلب : إذا قيل عالم الغيب ، فحين أقسم باسمه على إثبات قيام الساعة ، وأنه كائن لا محالة ، ثم وصف بما يرجع إلى علم الغيب ، وأنه لا يفوت علمه شىء من الخفيات ، واندرج تحته إحاطته بوقت قيام الساعة ، فجاء ما تطلبه من وجه الاختصاص مجيئا واضحاً . فإن قلت : الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه ، فهب أنه حلف لهم بأغلظ الأيمان وأقسم عليهم جهد القسم ، فيمين من هو فى معتقدهم مفتر على الله كذبا كيف تكون مصححة لما أنكروه ؟ قلت : هذا لو اقتصر على اليمين ولم يتبعها الحجة القاطعة والبينة الساطعة وهى قوله (ليجزى) فقد وضع الله فى العقول وركب فى

الغرائز وجوب الجزاء [١] ، وأن المحسن لا بدّ له من ثواب ، والمسيء لا بد له من عقاب . وقوله (ليجزى) متصل بقوله (لتأتينكم) تعليلا له . قرئ : لتأتينكم بالتاء والياء . ووجه من قرأ بالياء : أن يكون ضميره للساعة بمعنى اليوم . أو يسند إلى عالم الغيب ، أى ليأتينكم أمره كما قال تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك) وقال (أو يأتى أمر ربك) . وقرئ : عالم الغيب ، وعلام الغيب : بالجر ، صفة لربى . وعالم الغيب ، وعالم الغيوب : بالرفع ، على المدح . ولا يعزب : بالضم والكسر فى الزاى ، من العزوب وهو البعد . يقال : روض عزيب : بعيد من الناس ﴿مثقال ذرّة﴾ مقدار أصغر نملة ﴿ذلك﴾ إشارة إلى مثقال ذرّة . وقرئ : ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . بالرفع على أصل الابتداء . وبالفتح على نفى الجنس ، كقولك : لا حول ولا قوة إلا بالله ، بالرفع والنصب . وهو كلام منقطع عما قبله . فإن قلت : هل يصح عطف المرفوع على مثقال ذرّة ، كأنه قيل : لا يعزب عنه مثقال ذرة وأصغر وأكبر وزيادة ، لا لتأكيد النفى . وعطف المفتوح على ذرّة بأنه فتح فى موضع الجر لامتناع الصرف ، كأنه قيل : لا يعزب عنه مثقال ذرّة ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر ؟ قلت : يأبى ذلك حرف الاستثناء ، إلا إذا جعلت الضمير فى (عنه) للغيب . وجعلت (الغيب) اسما للخفيات . قبل أن تكتب فى اللوح لأنّ إثباتها فى اللوح نوع من البروز عن الحجاب ، على معنى أنه لا ينفصل عن الغيب شيء ، ولا يزل عنه إلا مسطورا فى اللوح .

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

وقرئ معجزين . وأليم ، بالرفع والجر . وعن قتادة : الرجز : سوء العذاب .

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾

وقرئ معجزين . فأليم : بالرفع والجر ، وعن قتادة : الرجز : سوء العذاب . ويرى فى موضع الرفع ، أى : ويعلم أولو العلم ، يعنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يطأ أعقابهم من أمته . أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا مثل كعب الأحبار وعبد الله ابن سلام رضى الله عنهما . (الذى أنزل إليك... الحق) هما مفعولان ليرى ، وهو فصل من قرأ (الحق) بالرفع : جعله مبتدأ و (الحق) خبرا ، والجملة فى موضع المفعول الثانى . وقيل (يرى) فى موضع النصب معطوف على (ليجزى) أى : وليعلم أولو العلم عند مجىء الساعة أنه الحق . علما

(١) قوله « وركب فى الغرائز وجوب الجزاء » هذا مقتضى الحكمة وإن لم يجب على الله تعالى شيء عند أهل السنة ، فتدبر . (ع)

لايزاد عليه فى الإيقان، ويحتجوا به على الذين كذبوا وتولوا. ويجوز أن يريد: وليعلم من لم يؤمن من الأحبار أنه هو الحق فيزدادوا حسرة وغما.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨)

﴿الذين كفروا﴾ قريش. قال بعضهم لبعض: ﴿هل ندلكم على رجل﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم: يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب: أنكم تبعثون وتنشئون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتا وترابا ويمزق أجسادكم البلى كل ممزق، أى: يفرقكم ويبدد أجزاءكم كل تبديد. أهو مفتر على الله كذبا فيما ينسب إليه من ذلك؟ أم به جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه؟ ثم قال سبحانه ليس محمد من الافتراء والجنون فى شىء، وهو مبرأ منهما؛ بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث: واقعون فى عذاب النار وفيما يؤديهم إليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك. وذلك أجنّ الجنون وأشده إطباقا على عقولهم: جعل وقوعهم فى العذاب رسيلا لوقوعهم فى الضلال، كأنهما كائنان فى وقت واحد: لأنّ الضلال لما كان العذاب من لوازمه وموجباته: جعلا كأنهما فى الحقيقة مقترنان. وقرأ زيد بن علىّ رضى الله عنه: ينبيكم. فإن قلت: فقد جعلت الممزق مصدرا، كبيت الكتاب:

أَلَمْ تَعْلَمْ مُسَرَّحِي الْقَوَافِى فَلَا عِيًّا بِهِنَّ وَلَا اجْتِلَابَا (١)

فهل يجوز أن يكون مكانا؟ قلت نعم. معناه ما حصل من الأموات فى بطون الطير والسباع، وما مرّت به السيول فذهبت به كل مذهب، وما سفته الرياح فطرحته كل مطرح. فإن قلت: ما العامل فى إذا؟ قلت: ما دلّ عليه (إنكم لفى خلق جديد) وقد سبق نظيره. فإن قلت: الجديد فعيل بمعنى فاعل أم مفعول؟ قلت: هو عند البصريين بمعنى فاعل، تقول: جد فهو جديد، كحد فهو حديد، وقلّ فهو قليل. وعند الكوفيين بمعنى: مفعول، من جده إذا قطعه. وقالوا: هو

(١) لجرير، وهو من أبيات الكتاب. والمسرح: مصدر على زنة المفعول، فهو بمعنى التسريح، أى: الارسال أو التسوية. وسرحت الجارية شعرها: مشطته، فاسترسل وحسن، وهو مضاف لياء الفاعل. والقوافى: مفعول، ونصب العى لشبهه بالمضاف، أو نونه للضرورة، أى: لا أعيى بها، ولا أعجز عنها، ولا أجتلبها، ولا أسرقها، ويجوز أن العى ركاكة المعنى. والاجتلاب: الاستتار، من جلبة الجرح، وهى قشرته الساترة له. فبهن: بمعنى فيهن.

الذى جدّه الناسج الساعة فى الثوب؛ ثم شاع. ويقولون: ولهذا قالوا [١] ملحفة جديد، وهى عند البصريين كقوله تعالى (إنّ رحمة الله قريب) ونحو ذلك. فإن قلت: لم أسقطت الهمزة فى قوله (افترى) دون قوله (أ لسحر)، وكلتاهما همزة وصل؟ قلت: القياس الطرح، ولكن أمراً اضطرهم إلى ترك إسقاطها فى نحو (آلسحر) وهو خوف التباس الاستفهام بالخبر، لكون همزة الوصل مفتوحة كهمزة الاستفهام. فإن قلت: ما معنى وصف الضلال بالبعد؟ قلت هو من الإسناد المجازى؛ لأنّ البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادّة، وكلما ازداد عنها بعدا كان أضل. فإن قلت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهورا علما فى قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعا عندهم، فما معنى قوله (هل ندلكم على رجل ينبئكم) فنكروه لهم، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول فى أمر مجهول. قلت: كانوا يقصدون بذلك الطنز والسخرية، فأخرجوه مخرج التحلى ببعض الأحاجى التى يتحاجى بها للضحك والتلهى متجاهلين به وبأمره.

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)

أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله عز وجلّ، ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفا، لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وبما جاء به، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة (إنّ فى ذلك) النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما يدلان عليه من قدرة الله (لآية) ودلالة (لكل عبد منيب) وهو الراجع إلى ربه المطيع له؛ لأنّ المنيب لا يخلو من النظر فى آيات الله، على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به. قرئ يشأ ويخسف ويسقط: بالياء؛ لقوله تعالى (أفترى على الله كذبا) وبالنون لقوله (ولقد آتينا) وكسفاً: بفتح السين وسكونه. وقرأ الكسائى: يخسف بهم، بالإدغام وليست بقوية.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠)

أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)

(١) قوله «ولهذا قالوا» أى العرب. (ع)

وَلِسُلَيْمَـٰنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)

﴿ياجبال﴾ إمّا أن يكون بدلا من (فضلا) ، وإمّا من (آتينا) بتقدير : قولنا ياجبال . أو : قلنا ياجبال . وقرئ : أوّبى ، وأوبى : من التأويب . والأوب : أى رجعى معه التسبيح . أو ارجعى معه فى التسبيح كلما رجع فيه ؛ لأنه إذا رجعه فقد رجع فيه : ومعنى تسبيح الجبال : أنّ الله سبحانه وتعالى يخلق فيها تسبيحا كما خلق الكلام فى الشجرة ، فيسمع منها ما يسمع من المسبح : معجزة لداود . وقيل : كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين ، وكانت الجبال تسعده على نوحه بأصدائها [١] والطير بأصواتها . وقرئ : والطير ، رفعاً ونصبا ، عطفاً على لفظ الجبال ومحلها . وجوّزوا أن ينتصب مفعولا معه ، وأن يعطف على فضلا ، بمعنى وسخرنا له الطير . فإن قلت : أى فرق بين هذا النظم وبين أن يقال (وآتينا داود منا فضلا) تأويب الجبال معه والطير ؟ قلت : كم بينهما . ألاترى إلى مافيه من الفخامة التى لاتخفى : من الدلالة على عزّة الربوبية وكبرياء الإلهية ، حيث جعلت الجبال منزّلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذادعاهم سمعوا وأجابوا : إشعاراً بأنه مامن حيوان وجماد وناطق وصامت ، إلاوهو منقاد لمشيئته ، غير ممتنع على إرادته ﴿وألنا له الحديد﴾ وجعلناه له ليناً كالطين والعجين والشمع ، يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولاضرب بمطرقة . وقيل : لان الحديد فى يده لما أوتى من شدّة القوة . وقرئ صابغات ، وهى الدروع الواسعة الضافية ، وهو أوّل من اتخذها وكانت قبل صفائح . وقيل : كان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ، ويتصدّق على الفقراء . وقيل : كان يخرج حين ملك بنى إسرائيل متنكراً ، فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم : ماتقولون فى داود ؟ فيثنون عليه ، فقيض الله له ملكا فى صورة آدمى فسأله على عادته ، فقال : نعم الرجل لولا خصلة فيه فريع داود ، فسأله ؟ فقال: لولا أنه يطعم عياله من بيت المال ، فسأل عند ذلك ربه أن يسبب له ما يستغنى به عن بيت المال ، فعلمه صنعة الدروع ﴿وقدّر﴾ لاتجعل المسامير دقاقا فتقلق ، ولا غلاظاً فتقصم الحلق . والسرد : نسج الدروع ﴿واعملوا﴾ الضمير لداود وأهله ﴿و﴾ سخرنا ﴿لسليمان الريح﴾ فيمن نصب : ولسليمان الريح مسخرة ، فيمن رفع ، وكذلك فيمن قرأ :

---

(١) قوله «بأصدائها» جمع صدى ، وهو الذى يجيبك بمثل صوتك فى الجبال وغيرها ، كذا فى الصحاح . (ع)

الرياح ، بالرفع ﴿غدوها شهر﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر ، وجريها بالعشى كذلك . وقرئ : غدوتها وروحتها . وعن الحسن رضى الله عنه : كان يغدو فيقيل باصطخر ، ثم يروح فيكون رواحه بكابل . ويحكى أنّ بعضهم رأى مكتوباً فى منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان : نحن نزلناه وما بنيناه ومبنياً وجدناه ، غدونا من اصطخر فقلناه ، ونحن رائحون منه فبائتون بالشام إن شاء الله . القطر : النحاس المذاب من القطران . فإن قلت : ماذا أراد بعين القطر ؟ قلت : أراد بها معدن النحاس ولكنه أساله[1] كما ألان الحديد لداود ، فنبع كما ينبع الماء من العين ؛ فلذلك سماه عين القطر باسم ما آل إليه ، كما قال (إنى أرانى أعصر خمراً) وقيل : كان يسيل فى الشهر ثلاثة أيام ﴿بإذن ربه﴾ بأمره ﴿ومن يزغ منهم﴾ ومن يعدل ﴿عن أمرنا﴾ الذى أمرناه به من طاعة سليمان وقرئ . يزغ من أزاغه . وعذاب السعير : عذاب الآخرة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما وعن السدى : كان معه ملك بيده سوط من نار ، كلما استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجنى . المحاريب : المساكن والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال : سميت محاريب لأنه يحامى عليها ويذب عنها . وقيل : هى المساجد . والتماثيل : صور الملائكة والنبيين والصالحين ، كانت تعمل فى المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم . فإن قلت : كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير ؟ قلت : هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع ؛ لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب ، وعن أبى العالية : لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرّما . ويجوز أن يكون غير صور الحيوان كصور الأشجار وغيرها ؛ لأنّ التمثال كل ما صوّر على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان . أو تصوّر محذوفة الرؤس . وروى أنهم عملوا له أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما . والجوابى : الحياض الكبار ، قال :

تَرُوحُ عَلَى آلِ الْمُحَلِّقِ جَفْنَةٌ ... كَجَابِيَةِ السَّيْحِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ[2]

لأنّ الماء يجبى فيها ، أى : يجمع . جعل الفعل لها مجازاً وهى من الصفات الغالبة كالدابة . قيل : كان يقعد على الجفنة ألف رجل . وقرئ بحذف الياء اكتفاء بالكسرة . كقوله تعالى (يوم

(١) قوله «ولكنه أساله كما ألان الحديد» لعله : أساله له (ع)

(٢) للأعشى فى مدح المحلق . وروى «تلوح» بدل تروح ؛ لأنها تظهر عند خروجها من البيت أول النهار مستعلية عليهم . والجفنة : قصعة الثريد . والجابية : الحوض يجبى الماء ، أى : يجمعه إلى الحوض . والسيح : الماء الكثير الجارى . وفهق يفهق ، كفرح يفرح : اتسع وامتلأ وتدفق . ومنه الحديث : أنه قام إلى باب الجنة فانفهقت له ، أى : انفتحت واتسعت . والمتفيهق : المكثر من الكلام . فقوله «تفهق» أى تمتلئ مع اتساعها حتى تكاد تتدفق

يدع الداع) . ﴿راسيات﴾ ثابتات على الأثافى لا تنزل عنها لعظمها ﴿اعملوا آل داود﴾ حكاية ماقيل لآل داود . وانتصب ﴿شكراً﴾ على أنه مفعول له ، أى : اعملوا لله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه . وفيه دليل على أن العبادة يجب أن تؤدى على طريق الشكر . أو على الحال ، أى : شاكرين . أو على تقدير اشكروا شكرا ، لأن اعملوا فيه معنى اشكروا ، من حيث أن العمل للمنعم شكر له . ويجوز أن ينتصب باعملوا مفعولا به . ومعناه : إنا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ماشئتم ، فاعملوا أنتم شكراً على طريق المشاكلة ﴿والشكور﴾ المتوفر على أداء الشكر ، الباذل وسعه فيه : قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه ، اعتقاداً واعترافا وكدحا ، وأكثر أوقاته . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من يشكر على أحواله كلها . وعن السدى : من يشكر على الشكر . وقيل : من يرى عجزه عن الشكر . وعن داود أنه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله ، فلم تكن تأتى ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى . وعن عمر رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول : اللهم اجعلنى من القليل ، فقال عمر ماهذا الدعاء؟ فقال الرجل : إنى سمعت الله يقول (وقليل من عبادى الشكور) فأنا أدعوه أن يجعلنى من ذلك القليل . فقال عمر : كل الناس أعلم من عمر [1] .

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

قرئ : فلما قضى عليه الموت . ودابة الأرض : الأرضة ، وهى الدويبة التى يقال لها السرفة والأرض فعلها ، فأضيفت إليه . يقال : أرضت الخشبة أرضاً . إذا أكلتها الأرضة . وقرئ بفتح الراء ، من أرضت الخشبة أرضا ، وهو من باب فعلته ففعل ، كقولك : أكلت القوادح الأسنان أكلا ، فأكلت أكلا . والمنسأة : العصا . لأنه ينسأ بها ، أى : يطرد ويؤخر وقرئ بفتح الميم وبتخفيف الهمزة قلبا وحذفا وكلاهما ليس بقياس ، ولكن إخراج الهمزة بين بين هو التخفيف القياسى . ومنساءته على مفعالة . كما يقال فى الميضأة ميضاءة . ومن سأته ، أى : من طرف عصاه ، سميت بسأة [2] القوس على الاستعارة . وفيها لغتان . كقولهم : قحة وقحة [3] . وقرئ : أكلت منسأته ﴿تبينت الجن﴾ من تبين الشىء إذا ظهر وتجلى . و﴿أن﴾ مع صلتها بدل من الجن بدل الاشتمال ، كقولك : تبين زيد جهله : والظهور له فى المعنى ، أى : ظهر أن الجن ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب﴾ أو علم الجن كلهم علما بينا ـ بعد التباس الأمر

(١) أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الله بن أحمد فى زيادات الزهد من رواية التيمى قال قال عمر ـ فذكره نحوه

(٢) قوله « سميت بسأة القوس » فى الصحاح « سية القوس » : ما عطف من طرفيها ، وكان رؤبة يهمز : سية القوس ، وسائر العرب لا يهمزونها . (ع)

(٣) قوله « كقولهم قحة وقحة » كسعة وكدة ، بمعنى الوقاحة : وهى الصلابة . (ع)

على عامّتهم وضعفتهم وتوهمهم ـ أنّ كبارهم يصدّقون فى ادعائهم علم الغيب . أو علم المدّعون علم الغيب منهم عجزهم ، وأنهم لا يعلمون الغيب وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم ، وإنما أريد التهكم بهم كما تتهكم بمدّعى الباطل إذا دحضت حجته [1] وظهر إبطاله بقولك : هل تبينت أنك مبطل . وأنت تعلم أنه لم يزل كذلك متبينا . وقرئ : تبينت الجن ، على البناء للمفعول ، على أن المتبين فى المعنى هو (أن) مع ما فى صلتها ، لأنه بدل . وفى قراءة أبىّ : تبينت الإنس . وعن الضحاك : تباينت الإنس بمعنى تعارفت وتعالمت . والضمير فى (كانوا) للجن فى قوله (ومن الجن من يعمل بين يديه) أى علمت الإنس أن لو كان الجن يصدقون فيما يوهمونهم من علمهم الغيب ؛ ما لبثوا . وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : تبينت الإنس أنّ الجنّ لو كانوا يعلمون الغيب. روى أنه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف فى مسجد بيت المقدس المدد الطوال ، فلما دنا أجله لم يصبح إلا رأى فى محرابه شجرة نابتة قد أنطقها الله ، فيسألها : لأى شىء أنت؟ فتقول لكذا ، حتى أصبح ذات يوم فرأى الخروبة ، فسألها ، فقالت : نبت لخراب هذا المسجد : فقال : ما كان الله ليخربه وأنا حىّ ، أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس ، فنزعها وغرسها فى حائط له وقال : اللهم عم عن الجن موتى ، حتى يعلم الناس أنهم لا يعلمون الغيب . لأنهم كانوا يسترقون السمع ويموّهون على الإنس أنهم يعلمون الغيب ، وقال لملك الموت : إذا أمرت بى فأعلمنى ، فقال : أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة ؛ فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب ، فقام يصلى متكئا على عصاه ، فقبض روحه وهو متكئ عليها ؛ وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى ، فلم يكن شيطان ينظر إليه فى صلاته إلا احترق فمر به شيطان فلم يسمع صوته ، ثم رجع فلم يسمع ، فنظر فإذا سليمان قد خر ميتاً . ففتحوا عنه فإذا العصا قد أكلتها الأرضة ، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته ، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها فى يوم وليلة مقداراً ، فحسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة . وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حياً ، فأيقن الناس أنهم لو علموا الغيب لما لبثوا فى العذاب سنة ، وروى أنّ داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى عليه السلام ، فمات قبل أن يتمه ، فوصى به إلى سليمان ، فأمر الشياطين بإتمامه ، فلما بقى من عمره سنة سأل أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه ، وليبطل دعواهم علم الغيب . روى أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه ، فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها ، فلم يجسر أحد بعدُ أن يدنو منه ، وكان عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة : ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فبقى فى ملكه أربعين سنة ، وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه .

(١) قوله «إذا دحضت حجته» فى الصحاح : بطلت . (ع)

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)

قرئ ﴿لسبأ﴾ بالصرف ومنعه، وقلب الهمزة ألفا. ومسكنهم: بفتح الكاف وكسرها، وهو موضع سكناهم: وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها. أو مسكن كل واحد منهم. وقرئ: مساكنهم. و﴿جنتان﴾ بدل من آية. أو خبر مبتدإ محذوف، تقديره: الآية جنتان. وفي الرفع معنى المدح، تدل عليه قراءة من قرأ: جنتين، بالنصب على المدح. فإن قلت: ما معنى كونهما آية؟ قلت: لم يجعل الجنتين في أنفسهما آية، وإنما جعل قصتهما، وأن أهلهما أعرضوا عن شكر الله تعالى عليهما فخربهما، وأبدلهم عنهما الخمط والأثل: آية، وعبرة لهم، ليعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم. ويجوز أن تجعلهما آية، أي: علامة دالة على الله، وعلى قدرته وإحسانه ووجوب شكره. فإن قلت: كيف عظم الله جنتي أهل سبأ وجعلهما آية، ورب قرية من قريات العراق يحتف بها من الجنان ما شئت؟ قلت: لم يرد بستانين اثنين فحسب، وإنما أراد جماعتين من البساتين: جماعة عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها، وكل واحد من الجماعتين في تقاربها وتضامها. كأنها جنة واحدة. كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها. أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله، كما قال: جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ﴿كلوا من رزق ربكم﴾ إما حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم، أو لما قال لهم لسان الحال. أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك، ولما قال (كلوا من رزق ربكم) ﴿واشكروا له﴾ أتبعه قوله ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ يعني: هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة، وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت أخصب البلاد وأطيبها: تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير بين تلك الشجر، فيمتلىء المكتل بما يتساقط فيه من الثمر (طيبة) لم تكن سبخة. وقيل: لم يكن فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية. وقرئ: بلدة طيبة وربا غفورا، بالنصب على المدح. وعن ثعلب: معناه اسكن واعبد ﴿العرم﴾ الجرذ[1]

(١) قوله «العرم الجرذ» في الصحاح «الجرذ»: ضرب من الفأر. وفيه: سكرت النهر سكراً، إذا شددته. (ع)

الذى نقب عليهم السكر . ضربت لهم بلقيس الملكة بسدّ ما بين الجبلين بالصخر والقار ، فحقنت به ماء العيون والأمطار ، وتركت فيه خروقا على مقدار ما يحتاجون إليه فى سقيهم ، فلما طغوا قيل : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيا يدعونهم إلى الله ويذكرونهم نعمته عليهم ، فكذبوهم وقالوا ما نعرف لله نعمة سلط الله على سدّهم الخلد ،(١) فنقبه من أسفله فغرقهم . وقيل : العرم جمع عرمة . وهى الحجارة المركومة . ويقال للكدس من الطعام : عرمة ، والمراد : المسناة (٢) التى عقدوها سكراً : وقيل : العرم اسم الوادى : وقيل : العرم المطر الشديد . وقرئ : العرم ؛ بسكون الراء . وعن الضحاك : كانوا فى الفترة التى بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم . وقرئ : أكل ، بالضم والسكون ، وبالتنوين والإضافة . والأكل : الثمر . والخمط : شجر الأراك : وعن أبى عبيدة : كل شجر ذى شوك . وقال الزجاج : كل نبت أخذ طعما من مرارة ، حتى لا يمكن أكله . والأثل : شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عوداً . ووجه من نون : أن أصله ذواتى أكل أكل خمط . فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . أو وصف الأكل بالخمط ، كأنه قيل : ذواتى أكل بشع . ومن أضاف وهو أبو عمرو وحده ، فلأن أكل الخمط فى معنى البرير ،(٣) كأنه قيل : ذواتى برير . والأثل والسدر : معطوفان على أكل ، لا على خمط لأن الأثل لا أكل له . وقرئ : وأثلا . وشيئا : بالنصب ، عطفا على جنتين . وتسمية البدل جنتين ، لأجل المشاكلة وفيه : ضرب من التهكم . وعن الحسن رحمه الله . قلل السدر ، لأنه أكرم ما بدلوا . وقرئ : وهل يجازى . وهل نجازى ، بالنون . وهل يجازى والفاعل الله وحده . وهل يجزى ؛ والمعنى : أن مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر ، وهو العقاب العاجل . وقيل : المؤمن تكفر سيآته بحسناته . والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما عمله من السوء ، ووجه آخر : وهو أن الجزاء عام لكل مكافأة ، يستعمل تارة فى معنى المعاقبة ، وأخرى فى معنى الإثابة ، فلما استعمل فى معنى المعاقبة فى قوله (جزيناهم بما كفروا) بمعنى : عاقبناهم بكفرهم . قيل : (وهل يجازى إلا الكفور) بمعنى : وهل يعاقب ؟ وهو الوجه الصحيح ؛ وليس لقائل أن يقول : لم قيل : وهل يجازى إلا الكفور ، على اختصاص الكفور بالجزاء . والجزاء عام للكافر والمؤمن ، لأنه لم يرد الجزاء العام ، وإنما أراد الخاص وهو العقاب ، بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه . ألا ترى أنك لو قلت : جزيناهم بما كفروا ، وهل يجازى إلا الكافر والمؤمن :

(١) قوله «سلط الله على سدهم الخلد فنقبه» فى الصحاح «الخلد» : ضرب من الجرذان أعمى . وفيه «المكدس» بالضم : واحد أكداس الطعام . (ع)

(٢) قوله «والمراد المسناة التى عقدوها» فى الصحاح : المسناة : العرم وفيه : العرم المسناة . وفى ذلك دور . (ع)

(٣) قوله «فلأن أكل الخمط فى معنى البرير» فى الصحاح «البرير» : ثمر الأراك . (ع)

لم يصح ولم يسد كلاما . فتبين أن ما يتخيل من السؤال مضمحل ، وأن الصحيح الذى لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)

﴿القرى التى باركنا فيها﴾ وهى قرى الشام ﴿قرى ظاهرة﴾ متواصلة : يرى بعضها من بعض لتقاربها ، فهى ظاهرة لأعين الناظرين . أو راكبة متن الطريق : ظاهرة للسابلة : لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم ﴿وقدرنا فيها السير﴾ قيل : كان الغادى منهم يقيل فى قرية ، والرائح يبيت فى قرية إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعا ولا عطشا ولا عدواً . ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ﴿سيروا فيها﴾ وقلنا لهم : سيروا : ولا قول ثم . ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه : كأنهم أمروا بذلك وأذن لهم فيه . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ليالى وأياما﴾ ؟ قلت : معناه سيروا فيها ، إن شئتم بالليل وإن شئتم بالنهار ، فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات . أو سيروا فيها آمنين لا تخافون ، وإن تطاولت مدة سفركم فيها وامتدت أياما وليالى . أو سيروا فيها لياليكم وأيامكم مدة أعماركم ، فإنكم فى كل حين وزمان ، لا تلقون فيها إلا الأمن . قرئ : ربنا باعد بين أسفارنا . وبعد . ويا ربنا ، على الدعاء . بطروا النعمة ، وبشموا من طيب العيش[1] ، وملوا العافية ، فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المنّ والسلوى ، وقالوا : لو كان جنى جناننا أبعد كان أجدر أن نشتهيه ، وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشأم مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد ، فجعل الله لهم الإجابة . وقرئ ربنا بعد بين أسفارنا ، وبعد بين أسفارنا على النداء ، وإسناد الفعل إلى بين ورفعه به ، كما تقول : سير فرسخان ، وبوعد بين أسفارنا . وقرئ : ربنا باعد بين أسفارنا . وبين سفرنا . وبعد ، برفع ربنا على الابتداء ، والمعنى خلاف الأول ، وهو استبعاد مسايرهم على قصرها ودنوها لفرط تنعمهم وترفههم ، كأنهم كانوا يتشاجون[2] على ربهم

(١) قوله « وبشموا من طيب العيش » بشموا ، أى : سئموا . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله « كأنهم كانوا يتشاجون » فى الصحاح « الشجو » : الهم والحزن . (ع)

ويتحازنون عليه ﴿أحاديث﴾ يتحدث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم، وفرقناهم تفريقا اتخذه الناس مثلا مضروبا، يقولون: ذهبوا أيدى سبا. وتفرقوا أيادى سبا. قال كثير:

أَيَادِى سَبَا يَاعَزَّ مَا كُنْتُ بَعْدَكُمْ ... فَلَمْ يَحْلُ بِالْعَيْنَيْنِ بَعْدَكِ مَنْظَرُ (١)

لحق غسان بالشأم، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة. والأزد بعمان ﴿صبار﴾ عن المعاصى ﴿شكور﴾ للنعم.

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)

قرئ: صدق، بالتشديد والتخفيف، ورفع إبليس ونصب الظن، فمن شدّد فعلى: حقق عليهم ظنه، أو وجده صادقا؛ ومن خفف فعلى: صدق فى ظنه أو صدّق يظن ظنا، نحو: فعلته جهدك، وبنصب إبليس ورفع الظن؛ فمن شدّد فعلى: وجده ظنه صادقا؛ ومن خفف فعلى: قال له ظنه الصدق حين خيله إغواءهم، يقولون: صدقك ظنك، وبالتخفيف ورفعهما على: صدق عليهم ظن إبليس؛ ولو قرئ بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة فى صدق، كقوله: صدقت فيهم ظنونى،

(١) لكثير صاحب عزة. وسبأ: بلدة كانت كثيرة الخصب طيبة البساتين، فكفر أهلها نعمة الله فأرسل عليهم السيل، وبدلهم بالخصب جدبا، وبالرغد ضيقا، وبالسمن غثا، فصاروا لا ينالون الأقوات إلا من جهات بعيدة. والمراد بالأيادى: النعم، وأيادى سبا: استعارة لأحوال نفسه التى تشبه أحوال سبأ فى التشتت والتنغص. أو تشبيه بليغ على الخلاف. وفيه مجاز بالحذف، أى: أيادى أهل سبأ ما كنته بعدكم. أى: ما كنت متصفا به من الأحوال كأحوال سبأ. ويجوز أن ما مصدرية، أى: أكوانى وأحوالى بعدكم كأحوال سبأ. أو المراد بأيادى سبأ: أصحابها الذين كانوا يعمرونها، ففرقوا أنفسهم بأيديهم فشبه نفسه بهم لعدم استقراره. وتطلق سبأ على قبيلة كانت تسكنها. ويحتمل أنها المراد هنا، بل هو أظهر. ويجوز أن المراد أبوها، وهو سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان: كان ذا مال وبنين، فتفرق بنوه بعضهم إلى اليمن وبعضهم إلى الشام إلى غير ذلك، فأطلق الأيادى عليهم؛ لأن بهم قوته كالأيادى، ثم شبه نفسه بهم فى الشتات. وعز: مرخم، وفى ندائها معنى التوجع والاستعطاف، وخاطبها بضمير جمع المذكر تعظيما، ولذلك لا تجده فى مواضع ذمهن، وجملة النداء معترضة بين الخبر والمبتدأ؛ ويحتمل أن التقدير: أنا كأيادى سبأ مدة كونى بعدكم، فهى معترضة بين الجملة والظرف المتعلق بها، وحلا يحلو كدعا يدعو وغيره قليل، شبه الحسن بالحلاوة بجامع اللذة. وقيل: حلى يحلى، كرضى يرضى فى المنظر. وحلا يحلو فى الطعم، وماهنا من الأول فلا مجاز. والمنظر مصدر بمعنى النظر، ويجوز أن الحلاوة الحسن والمنظر ـ بالفتح ـ: مكان النظر. ويجوز أنه الناظر. أى: فلم يحسن لعينى غيرك، ويجوز أن المراد بعدكم بعد ارتحالك أنت وأهلك. فالخطاب لها ولحيها! ولكن موارد الاستعمال يعضدها ما تقدم، وروى: فلن يحل، فزعم بعضهم أن «لن» قد تجزم كما هنا، وعلى المنع فحذف آخر الفعل للضرورة أو التخفيف.

ومعناه: أنه حين وجد آدم ضعيف العزم قد أصغى إلى وسوسته قال: إنّ ذرّيته أضعف عزما منه، فظنّ بهم اتباعه وقال: لأضلنهم، لأغوينهم. وقيل: ظنّ ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها. والضمير في (عليهم) و(اتبعوه) إمّا لأهل سبأ، أو لبنى آدم. وقلل المؤمنين بقوله ﴿إلا فريقا﴾ لأنهم قليل بالإضافة إلى الكفار، كما قال (لأحتنكن ذرّيته إلا قليلا)، (ولا تجد أكثرهم شاكرين). (وما كان له عليهم) من تسليط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء إلا لغرض صحيح وحكمة بينة، وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها. وعلل التسليط بالعلم والمراد ما تعلق به العلم. وقرئ: ليعلم على البناء للمفعول ﴿حفيظ﴾ محافظ عليه، وفعيل ومفاعل: متآخيان.

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

﴿قل﴾ لمشركي قومك ﴿ادعوا الذين﴾ عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتموهم باسمه كما تدعون الله، والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلتجئون إليه. وانتظروا استجابتهم لدعائكم ورحمتهم كما تنتظرون أن يستجيب لكم ويرحمكم، ثم أجاب عنهم بقوله ﴿لا يملكون مثقال ذرّة﴾ من خير أو شر، أو نفع أو ضر ﴿في السموات ولا في الأرض وما لهم﴾ في هذين الجنسين من شركة في الخلق ولا في الملك، كقوله تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض) وماله منهم من عون يعينه على تدبير خلقه، يريد: أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية، فكيف يصح أن يُدعوا كما يدعى ويُرجوا كما يرجى، فإن قلت. أين مفعولا زعم؟ (قلت): أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول. وأمّا الثاني فلا يخلو إمّا أن يكون (من دون الله) أو (لا يملكون) أو محذوفا فلا يصح الأول، لأنّ قولك: هم من دون الله، لا يلتئم كلاما، ولا الثاني، لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك، فكيف يتكلمون بما هو حجة عليهم؛ وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد؟ فبقى أن يكون محذوفا تقديره: زعمتموهم آلهة من دون الله فحذف الراجع إلى الموصول كما حذف في قوله (أهذا الذى بعث الله رسولا) استخفافا، لطول الموصول لصلته. وحذف آلهة لأنه موصوف صفته (من دون الله) والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوما، فإذاً مفعولا زعم محذوفان جميعا بسببين مختلفين.

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

تقول : الشفاعة لزيد ، على معنى أنه الشافع ، كما تقول : الكرم لزيد . وعلى معنى أنه المشفوع له ، كما تقول : القيام لزيد ، فاحتمل قوله ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ أن يكون على أحد هذين الوجهين ، أى : لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له . أو لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له ، أى : لشفيعه ، أوهى اللام الثانية فى قولك : أذن لزيد لعمرو ، أى لأجله ، وكأنه قيل : إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله ، وهذا وجه لطيف وهو الوجه ، وهذا تكذيب لقولهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . فإن قلت : بما اتصل قوله ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ ولأى شىء وقعت حتى غاية ؟ قلت : بما فهم من هذا الكلام ، من أن ثم انتظارا للإذن وتوقعا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء ، هل يؤذن لهم أو لا يؤذن ؟ وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملى من الزمان . وطول من التربص ، ومثل هذه الحال دلّ عليه قوله عزوجلّ (رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) كأنه قيل : يتربصون ويتوقفون كليا فزعين وهلين ، حتى إذا فزع عن قلوبهم ، أى : كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة فى إطلاق الإذن : تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضا ﴿ماذا قال ربكم قالوا﴾ قال ﴿الحق﴾ أى القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى . وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فاذا أذن لمن أذن أن يشفع فزعته الشفاعة[1] . وقرئ أذن له ، أى : أذن له الله ، وأذن له على البناء للمفعول . وقرأ الحسن : فزع ، مخففا ، بمعنى فزع . وقرئ فزع ، على البناء للفاعل ، وهو الله وحده ، وفرغ ، أى : نفى الوجل عنها وأفنى ، من قولهم : فرغ الزاد ، إذا لم يبق منه شىء . ثم ترك ذكر الوجل وأسند إلى الجار والمجرور ، كما تقول : دفع إلىّ زيد ، إذا علم ما المدفوع وقد تخفف ، وأصله : فرغ الوجل عنها ، أى : انتفى عنها ، وفنى ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور . وقرأ : افرنقع عن قلوبهم ، بمعنى : انكشف عنها . وعن أبى علقمة أنه هاج به المرار[2] فالتف عليه الناس ، فلما أفاق قال : مالكم تكأكأتم علىّ تكأكؤكم على ذى جنة ؟ افرنقعوا عنى . والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين ، كما ركب ، اقمطر ، من حروف القمط ، مع زيادة الراء . وقرئ الحق بالرفع ، أى : مقوله الحق ﴿وهو العلى الكبير﴾ ذو العلو والكبرياء ، ليس لملك ولا نبىّ أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه ، وأن يشفع إلا لمن ارتضى .

---

(١) لم أجده

(٢) قوله «وأنه هاج به المرار» فى الصحاح ، المرار ، بضم الميم : شجر مر ، إذا أكلت منه الابل قلصت عنه مشافرها . ومنه : بنو آكل المرار : وهم قوم من العرب . (ع)

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤)

أمره بأن يقررهم بقوله ﴿من يرزقكم﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم الله. وذلك للإشعار بأنهم مقرون به بقلوبهم، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به؛ لأن الذى تمكن فى صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته، ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم: لزمهم أن يقال لهم: فمالكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق، ألا ترى إلى قوله (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار) حتى قال: (فسيقولون الله) ثم قال (فماذا بعد الحق إلا الضلال) فكأنهم كانوا يقرون بألسنتهم مرة، ومرة كانوا يتلعثمون عناداً وضرارا وحذارا من إلزام الحجة، ونحوه قوله عزّ وجلّ (قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا﴾ وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذى إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين﴾ ومعناه: وإنّ أحد الفريقين من الذين يتوحدون الرازق من السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذى لا يوصف بالقدرة، لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال، وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك، وفى درجه بعد تقدمة ماقدم من التقرير البليغ: دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو فى الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية أنضل[1] بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم وفلّ شوكته[2] بالهوينا. ونحوه قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق منى ومنك، وإن أحدنا لكاذب[3]. ومنه بيت حسان:

(١) قوله «ولكن التعريض والتورية أفضل» فى الصحاح «ناضله»: راماه. يقال: ناضلت فلانا فنضلته إذا غلبته اهـ؛ فالأنضل الأشد رميا، فلذا عدى بالى. (ع)

(٢) قوله «وفل شوكته» أى كسرها. (ع)

(٣) قال محمود: «لما ألزمهم الحجة فى قوله (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير) وهلم جرا إلى الآية المذكورة - وهذا الالزام إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه - أمره أن يقول (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ومعناه: أن أحد الفريقين من الموحدين الرازق من السموات والأرض بالعبادة، ومن الذين يشركون به الجماد الذى لا يوصف بالقدرة على ذرة: لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال، وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موافق أو مخالف قال للمخاطب به: قد أنصفك صاحبك، والتعريض أنضل بالمجادل إلى الغرض، ==

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ (١)

فإن قلت : كيف خولف بين حرفى الجرّ الداخلين على الحق والضلال ؟ قلت : لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء ، والضال كأنه منغمس فى ظلام مرتبك فيه لا يدرى أين يتوجه . وفى قراءة أبيّ : وإنا أو إياكم إما على هدى أو فى ضلال مبين .

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦)

هذا أدخل فى الإنصاف وأبلغ فيه من الأوّل ، حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين والعمل إلى المخاطبين ، وإن أراد بالإجرام : الصغائر والزلات التى لا يخلو منها مؤمن ، وبالعمل: الكفر والمعاصى العظام (٢) . وفتح الله بينهم : وهو حكمه وفصله : أنه يدخل هؤلاء الجنة وأولئك النار .

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)

فإن قلت : مامعنى قوله ﴿أرونى﴾ وكان يراهم ويعرفهم ؟ قلت : أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم فى إلحاق الشركاء بالله ، وأن يقايس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على إحالة القياس إليه والإشراك به . و ﴿كلا﴾ ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسده بإبطال المقايسة ، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) بعد ما حجهم . وقد نبه على تفاحش

ـــ وأجم به على الغلبة ، مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا . ونحوه قول الرجل لصاحبه : الله يعلم الصادق منى ومنك ، وإن أحدنا لكاذب ومنه قول حسان :

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

قال أحمد : وهذا تفسير مهذب وافتنان مستعذب ، رددته على سمعى فزاد رونقاً بالترديد ، واستعاذه الخاطر كأنى بطىء الفهم حين يفيد ، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التى أكثر تعاطيها متأخرو الفقهاء فى مجادلاتهم ومحاوراتهم ، وذلك قولهم : أحد الأمرين لازم على الابهام ، فهذا المسلك من هذا الوادى غير بعيد ، فتأمله والله الموفق .

(١) تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات بالجزء الثانى صفحة ٥٦٣ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) قال محمود : «وهذا القول أدخل فى الانصاف من الاول ، حيث أسند الاجرام إلى النفس وأراد به الزلات والصغائر التى لا يخلو عنها مؤمن ، وأسند العمل إلى المخاطبين وأراد به الكفر والمعاصى والكبائر» قال أحمد : فعبر عن الهفوات بما يعبر به عن العظائم ، وعن العظائم بما يعبر به عن الهفوات ، التزاما للانصاف ، وزيادة على ذلك أنه ذكر الاجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضى الذى يعطى تحقيق المعنى ، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بما لا يعطى ذلك ، والله أعلم .

غلطهم وإن لم يقدروا الله حق قدره بقوله ﴿هو الله العزيز الحكيم﴾ كأنه قال : أين الذين ألحقتم به شركاء من هذه الصفات وهو راجع إلى الله وحده . أو ضمير الشأن ، كما فى قوله تعالى (قل هو الله أحد) .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

﴿إلا كافة للناس﴾ إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم ؛ لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم . وقال الزجاج المعنى أرسلناك جامعا للناس فى الإنذار والإبلاغ ، فجعله حالا من الكاف وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كتاء الراوية والعلامة ، ومن جعله حالا من المجرور متقدما عليه فقد أخطأ ؛ لأنّ تقدم حال المجرور عليه فى الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار ، وكم ترى ممن يرتكب هذا الخطأ ثم لا يقنع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى ؛ لأنه لا يستوى له الخطأ الأوّل إلا بالخطأ الثانى ، فلا بد له من ارتكاب الخطأين .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لاَ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

قرئ : ميعاد يوم . وميعاد يوم . وميعاد يوما . والميعاد : ظرف الوعد من مكان أو زمان ، وهو ههنا الزمان . والدليل عليه قراءة من قرأ : ميعاد يوم فأبدل منه اليوم . فإن قلت : فما تأويل من أضافه إلى يوم ، أو نصب يوما ؟ قلت . أما الإضافة فإضافة تبيين ، كما تقول : سحق ثوب ، وبعير سانية . وأما نصب اليوم فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره : لكم ميعاد ، أعنى يوما أو أريد يوما من صفته كيت وكيت . ويجوز أن يكون الرفع على هذا ، أعنى التعظيم . فإن قلت : كيف انطبق هذا جوابا على سؤالهم ؟ قلت : ماسألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتا ، لا استرشاداً ، فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقا لمجىء السؤال على سبيل الإنكار والتعنت ، وأنهم مرصدون ليوم يفاجؤهم . فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدّما عليه .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ وَلاَ بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

الذى بين يديه : ما نزل قبل القرآن من كتب الله : يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتبهم ، فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدّمه من كتب الله عز وجل فى الكفر . فكفروا بها جميعاً . وقيل : الذى بين يديه يوم القيامة . والمعنى : أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله تعالى ، وأن يكون لما دلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة ، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم فى الآخرة فقال لرسوله عليه الصلاة والسلام أو للمخاطب ﴿ولو ترى﴾ فى الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم ، لرأيت العجيب [1] ، فحذف الجواب . والمستضعفون : هم الأتباع ، والمستكبرون : هم الرءوس والمقدمون .

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

أولى الاسم أعنى ﴿نحن﴾ حرف الإنكار ؛ لأنّ الغرض إنكار أن يكونوا هم الصادين لهم عن الإيمان ، وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه ، وأنهم أتوا من قبل اختيارهم . كأنهم قالوا : أنحن أجبرناكم وحلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين ﴿بعد إذ جاءكم﴾ بعد أن صممتم على الدخول فى الإيمان وصحت نياتكم فى اختياره ؟ بل أنتم منعتم أنفسكم حظها وآثرتم الضلال على الهدى وأطعتم آمر الشهوة دون آمر النهى ، فكنتم مجرمين كافرين لاختياركم لا لقولنا وتسويلنا . فإن قلت : إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية ، فلم وقعت إذ مضافا إليها ؟ قلت : قد اتسع فى الزمان ما لم يتسع فى غيره ، فأضيف إليها الزمان ، كما أضيف إلى الجمل فى قولك : جئتك بعد إذ جاء زيد ، وحينئذ ، ويومئذ ، وكان ذلك أوان الحجاج أمير ، وحين خرج زيد . لما أنكر المستكبرون بقولهم (أنحن صددناكم) أن يكونوا هم السبب فى كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أن ذلك بكسبهم واختيارهم . كرّ عليهم المستضعفون بقولهم ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم ، كأنهم قالوا : ما كان الإجرام من جهتنا ، بل من

(١) قوله «لرأيت العجيب» لعله : العجب ، كعبارة النسفى . (ع)

جهة مكركم لنا دائباً ليلا ونهاراً، وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد. ومعنى مكر الليل والنهار: مكركم في الليل والنهار، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه. أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي. وقرئ: بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين. وبل مكرّ الليل والنهار بالرفع والنصب. أي تكرّون الإغواء مكرّا دائباً لا تفترون عنه. فإن قلت: ما وجه الرفع والنصب؟ قلت: هو مبتدأ أو خبر، على معنى: بل سبب ذلك مكركم أو مكرّكم، أو مكركم أو مكرّكم سبب ذلك. والنصب على: بل تكرّون الإغواء مكرّ الليل والنهار: فإن قلت: لم قيل: (قال الذين استكبروا)، بغير عاطف؛ وقيل (وقال الذين استضعفوا)؟ قلت: لأن الذين استضعفوا مرّ أولا كلامهم، فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين، فعطف على كلامهم الأول فإن قلت: من صاحب الضمير في ﴿وأسروا﴾ قلت: الجنس المشتمل على النوعين من المستكبرين والمستضعفين، وهم الظالمون في قوله (إذ الظالمون موقوفون عند ربهم) يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم، والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين ﴿في أعناق الذين كفروا﴾ أي في أعناقهم، فجاء بالصريح للتنويه بذمهم، وللدلالة على ما استحقوا به الأغلال. وعن قتادة: أسروا الكلام بذلك بينهم. وقيل: أسروا الندامة أظهروها، وهو من الأضداد.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾

هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما منى [1] به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به، والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد، والمفاخرة [2] وزخارفها، والتكبر بذلك على المؤمنين، والاستهانة بهم من أجله. وقولهم (أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً) وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة وكادوه بنحو ما كادوه به، وقاسوا أمر الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمر الدنيا، واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم، ولولا أنّ المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم؛ فعلى قياسهم ذلك قالوا ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم، نظرا إلى أحوالهم في الدنيا.

(١) قوله «مما منى به من قومه» أي ابتلى به. (ع)

(٢) قوله «والمفاخرة وزخارفها» لعله «والمفاخرة بالدنيا وزخارفها». (ع)

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

وقد أبطل الله تعالى حسبانهم بأنّ الرزق فضل من الله يقسمه كما يشاء على حسب ما يراه من المصالح، فربما وسع على العاصى وضيق على المطيع، وربما عكس، وربما وسع عليهما وضيق عليهما، فلا ينقاس عليه أمر الثواب الذى مبناه على الاستحقاق. وقدر الرزق: تضييقه. قال تعالى (ومن قدر عليه رزقه) وقرئ يقدّر، بالتشديد والتخفيف.

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾

أراد: وماجماعة أموالكم ولاجماعة أولادكم بالتى تقربكم، وذلك أنّ الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء فى حكم التأنيث، ويجوز أن يكون التى هى التقوى وهى المقربة عند الله زلفى وحدها، أى: ليست أموالكم بتلك الموضوعة للتقريب. وقرأ الحسن: باللاتى تقربكم؛ لأنها جماعات. وقرئ: بالذى يقربكم، أى: بالشيء الذى يقرّبكم. والزلفى والزلفة: كالكربى والكربة، ومحلها النصب، أى: تقرّبكم قربة، كقوله تعالى (أنبتكم من الأرض نباتاً). ﴿إلا من آمن﴾ استثناء من (كم) فى (تقربكم)، والمعنى: أنّ الأموال لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذى ينفقها فى سبيل الله، والأولاد لا تقرب أحداً إلا من علمهم الخير وفقههم فى الدين ورشحهم للصلاح والطاعة، جزاء ﴿الضعف﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، أصله: فأولئك لهم أن يجازوا الضعف، ثم جزاء الضعف، ثم جزاء الضعف. ومعنى جزاء الضعف: أن تضاعف لهم حسناتهم، الواحدة عشرا. وقرئ: جزاء الضعفُ، على: فأولئك لهم الضعف جزاء وجزاءُ الضعف على: أن يجازوا الضعف، وجزاء الضعف مرفوعان: الضعف بدل من جزاء. قرئ ﴿فى الغرفات﴾ بضم الراء وفتحها وسكونها. وفى الغرفة.

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

﴿فهو يخلفه﴾ فهو يعوّضه لا معوّض سواه: إما عاجلا بالمال، أو بالقناعة التى هى كنز

لا ينفد . وإما آجلا بالثواب الذى كل خلف دونه . وعن مجاهد : من كان عنده من هذا المال مايقيمه فليقتصد ، فإنّ الرزق مقسوم ، ولعل ماقسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه ، فينفق جميع مافى يده ثم يبقى طول عمره فى فقر ، ولا يتأولن : وماأنفقتم من شىء فهو يخلفه ، فإن هذا فى الآخرة . ومعنى الآية : وماكان من خلف فهو منه ﴿خير الرازقين﴾ وأعلاهم رب العزة ، بأن كل مارزق غيره : من سلطان يرزق جنده ، أوسيد يرزق عبده ، أو رجل يرزق عياله : فهو من رزق الله ، أجراه على أيدى هؤلاء . وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التى بها ينتفع المرزوق بالرزق . وعن بعضهم : الحمد لله الذى أوجدنى[1] وجعلنى ممن يشتهى : فكم من مشته لا يجد ، وواجد لا يشتهى .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)

هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، وارد على المثل السائر :

* إِيَّاكِ أَعْنِي وَٱسْمَعِي يَاجَارَهْ * [2]

ونحوه قوله تعالى (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) وقد علم سبحانه كون

---

(١) قوله «والحمد لله الذى أوجدنى» فى الصحاح : وجد مطلوبه وأوجده الله مطلوبه ، أى أظفره به وأوجده ، أى : أغناه . (ع)

(٢)
ياأخت خير البدو والحضاره كيف ترين فى فتى فزاره
أصبح يهوى حرة معطاره إياك اعنى فاسمعي ياجاره

لسهل بن مالك الفزارى ، يخاطب أخت حارثة بن لأم ، وكان قد سألها على أخيها فلم يجده فأنزلته وأكرمته ، فرآها فى غاية الجمال والكمال ، فأنشد ذلك ، فأجابته بقولها :

إنى أقول يا فتى فزاره لا أبتغى الزوج ولا الدعاره
ولا فراق أهل هذى الحاره فارحل إلى أهلك باستحاره

فارتحل ، ثم نزل عند أخيها مرة أخرى ، وكان حسن الطلعة ، فأرسلت إليه خفية أن يخطبها ، ففعل ، وتزوجها وارتحل بها . والبدو : هو البادية . والحضارة : هى الحاضرة . والمراد أهلهما ، وكيف : اسم استفهام نصب على المفعولية بترين . والمعنى : أى حال ترين فى فتى هذه القبيلة ؟ يعنى نفسه . وفيه تعريض بخطبتها . والمعطارة : كثيرة التعطر . ولحاق تاء التأنيث لمفعال شاذ ـ إن كانت للفرق بين المذكر والمؤنث كما هنا ـ ويمكن أنها لزيادة المبالغة ، لا للتأنيث . والدعارة : الفسق والخبث والفساد . وهذى : اسم إشارة . وقولها : باستحارة ، أى بكمال وعدم نقص . أو بتحير وعدم اهتداء . يقال : استحار الاناء ، إذا امتلأ وتكامل . واستحار الرجل : إذا تحير فى رأيه .

الملائكة وعيسى منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير ، والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ؛ فيكون تقريعهم أشد . وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم : وهو أنه ألزم ، ويكون اقتصاص ذلك لطفاً لمن سمعه ، وزاجرا لمن اقتص عليه . والموالاة : خلاف المعاداة . ومنها : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . وهى مفاعلة من الولى وهو القرب ، كما أنّ المعاداة من العدواء وهى البعد ، والولى : يقع على الموالى والموالى جميعاً . والمعنى أنت الذى نواليه من دونهم ، إذ لا موالاة بيننا و بينهم ، فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار : براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم ؛ لأنّ من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك ﴿بل كانوا يعبدون الجنّ﴾ يريدون الشياطين ، حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله . وقيل : صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها . وقيل : كانوا يدخلون فى أجواف الأصنام إذا عبدت . فيعبدون بعبادتها . وقرئ : نحشرهم . ونقول ، بالنون والياء .

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

الأمر فى ذلك اليوم لله وحده ، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرّة لأحد ؛ لأنّ الدار دار ثواب وعقاب ، والمثيب والمعاقب هو الله . فكانت حالها خلاف حال الدنيا التى هى دار تكليف ، والناس فيها مخلى بينهم ، يتضارّون ويتنافعون . والمراد : أنه لاضارّ ولانافع يومئذ إلا هو وحده ، ثم ذكر معاقبته الظالمين بقوله ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ معطوفاً على (لايملك) .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾

الإشارة الأولى : إلى النبى صلى الله عليه وسلم . والثانية إلى القرآن . والثالثة : إلى الحق ، والحق أمر النبوّة كله ودين الإسلام كما هو . وفى قوله ﴿وقال الذين كفروا﴾ وفى أن لم يقل وقالوا ، وفى قوله ﴿للحق لما جاءهم﴾ وما فى اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه ، وفى لما من المبادهة بالكفر : دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد ، وتعجيب من أمرهم بليغ ، كأنه قال : وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ فبتوا القضاء على أنه سحر ، ثم بتوه على

أنه بين ظاهر كل عاقل تأمله سماه سحراً .

وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

وما آتيناهم كتباً يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ، ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا ، كما قال عز وجل (أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) أو وصفهم بأنهم قوم أميون أهل جاهلية لاملة لهم وليس لهم عهد بإنزال كتاب ولا بعثة رسول كما قال (أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون) فليس لتكذيبهم وجه متشبث ، ولا شبهة متعلق ، كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين : نحن أهل كتب وشرائع ، ومستندون إلى رسل من رسل الله . ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله ﴿وكذب الذين﴾ تقدموهم من الأمم والقرون الخالية كما كذبوا ، وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار وقوة الأجرام وكثرة الأموال ، فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال ، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون ، فما بال هؤلاء ؟ وقرئ : يدرّسونها ، من التدريس وهو تكرير الدرس . أو من درّس الكتاب ، ودرّس الكتب : ويدّرسونها ، بتشديد الدال : يفتعلون من الدرس . والمعشار كالمرباع ، وهما : العشر ، والربع . فإن قلت : مامعنى ﴿فكذبوا رسلى﴾ وهو مستغنى عنه بقوله (وكذب الذين من قبلهم) ؟ قلت : لما كان معنى قوله (وكذب الذين من قبلهم) : وفعل الذين من قبلهم التكذيب ، وأقدموا عليه : جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه ونظيره أن يقول القائل : أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن ينعطف على قوله : وما بلغوا ، كقولك : مابلغ زيد معشار فضل عمرو فتفضل عليه ﴿فكيف كان نكير﴾ [1] أى للمكذبين الأولين ، فليحذروا من مثله .

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

﴿بواحدة﴾ بخصلة واحدة ، وقد فسرها بقوله ﴿أن تقوموا﴾ على أنه عطف بيان لها ، وأراد بقيامهم : إما القيام عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقهم عن مجتمعهم عنده وإما القيام الذى لايراد به المثول على القدمين ، ولكن الانتصاب فى الأمر والنهوض فيه بالهمة

(١) قوله «فكيف كان نكير» وفى النسفى : أن يعقوب قرأ «نكيرى» بالياء فى الوصل والوقف . (ع)

والمعنى : إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم : وهى : أن تقوموا لوجه الله خالصاً . متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ﴿ثم تتفكروا﴾ فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، أما الاثنان : فيتفكران ويعرض كلّ واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين متناصفين ، لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه ، وكذلك الفرد : يفكر فى نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقرّ عنده من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم ، والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى : أنّ الاجتماع مما يشوّش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الروية ، ويخلط القول : ومع ذلك يقل الإنصاف ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب . ولا يسمع إلا نصرة المذهب ، وأراهم بقوله ﴿ما بصاحبكم من جنة﴾ أن هذا الأمر العظيم الذى تحته ملك الدنيا والآخرة جميعاً ، لا يتصدى لادعاء مثله إلا رجلان : إمّا مجنون لا يبالى بافتضاحه إذا طولب بالبرهان فعجز ، بل لا يدرى ما الافتضاح وما رقبة العواقب . وإمّا عاقل راجح العقل مرشح للنبوة ، مختار من أهل الدنيا ، لا يدعيه إلا بعد صحته عنده بحجته وبرهانه ، وإلا فما يجدى على العاقل دعوى شيء لا بينة له عليه ، وقد علمتم أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم ما به من جنة ، بل علمتموه أرجح قريش عقلا ، وأرزنهم حلما وأثقبهم ذهنا وآصلهم رأيا ، وأصدقهم قولا ، وأنزههم نفساً ، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به ؛ فكان مظنة لأن تظنوا به الخير ، وترجحوا فيه جانب الصدق على الكذب ؛ وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية ؛ فإذا أتى بها تبين أنه نذير مبين . فإن قلت : (ما بصاحبكم) بم يتعلق ؟ قلت : يجوز أن يكون كلاما مستأنفا تنبيها من الله عز وجل على طريقة النظر فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يكون المعنى : ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة ، وقد جوّز بعضهم أن تكون ما استفهامية ﴿بين يدى عذاب شديد﴾ كقوله عليه الصلاة والسلام [1] : «بعثت فى نسم الساعة [2]» .

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فهو لكم﴾ جزاء الشرط الذى هو قوله (ما سألتكم من أجر) تقديره : أىّ شيء سألتكم

(١) تقدم فى الأنبياء.

(٢) قوله «بعثت فى نسم الساعة» فى الصحاح «نسم الريح» : أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد . ومنه الحديث «بعثت فى نسم الساعة» أى : حين ابتدأت وأقبلت أوائلها . والنسم أيضاً : جمع نسمة وهى النفس . (ع)

من أجر فهو لكم ، كقوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة) وفيه معنيان ، أحدهما : نفى مسألة الأجر رأسا ، كما يقول الرجل لصاحبه : إن أعطيتنى شيئا فخذه ، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئا ولكنه يريد به البت ؛ لتعليقه الأخذ بما لم يكن . والثانى : أن يريد بالأجر ما أراد فى قوله تعالى (قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) وفى قوله (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) لأنّ اتخاذ السبيل إلى الله نصيبهم وما فيه نفعهم ، وكذلك المودة فى القرابة ، لأنّ القرابة قد انتظمته وإياهم ﴿على كل شىء شهيد﴾ حفيظ مهيمن ، يعلم أنى لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه ، ولا أطمع منكم فى شىء .

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

القذف والرمى : تزجية [1] السهم ونحوه بدفع واعتماد ، ويستعاران من حقيقتهما لمعنى الإلقاء ومنه قوله تعالى (وقذف فى قلوبهم الرعب) . (أن اقذفيه فى التابوت) ومعنى ﴿يقذف بالحق﴾ يلقيه وينزله إلى أنبيائه . أو يرمى به الباطل فيدمغه ويزهقه ﴿علام الغيوب﴾ رفع محمول على محل إن واسمها ، أو على المستكن فى يقذف ، أو هو خبر مبتدإ محذوف . وقرئ بالنصب صفة لربى ، أو على المدح . وقرئ : الغيوب بالحركات الثلاث ، فالغيوب كالبيوت . والغيوب كالصبور وهو الأمر الذى غاب وخفى جداً .

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

والحىّ إما أن يبدئ فعلا أو يعيده فإذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة ، فجعلوا قولهم : لا يبدئ ولا يعيد مثلا فى الهلاك . ومنه قول عبيد :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عَبِيدُ فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِى وَلَا يُعِيدُ [2]

والمعنى : جاء الحق وهلك الباطل ، كقوله تعالى : (جاء الحق وزهق الباطل) وعن ابن مسعود

---

(١) قوله « القذف والرمى تزجية السهم » فى الصحاح : زجيت الشىء تزجية إذا دفعته برفق . (ع)

(٢) لعبيد بن الأبرص . وأقفر : خلا أو هلك عبيد من أهله . والابداء والاعادة من لوازمهما الحياة ، فنفيهما كناية عن نفيها بالموت . كان المنذر بن ماء السماء يخرج فى يوم من كل سنة فينعم على كل من يلقاه ، وفى آخر فيقتل أول من يلقاه ، فصادفه فيه عبيد ، فقيل له : امدحه بشعر لعله يعفو عنك ، فقال : حال الجريض دون القريض ، أى منعت الغصة الشعر ، فضرب ذلك مثلا وقال هذا البيت بعد ذلك تحسرا . وفى مجانى الادب : أن المنذر قال له : أنشدنى : أقفر من أهله ملحوب ، فقال : أقفر من أهله عبيد . وملحوب : اسم موضع ، استنشده بيتا قديما فعلم أنه يريد هلاكه ، فقال : لا قدرة لى على إبداء شعر جديد ، ولا على إعادة شعر قديم ، ودخل فى حشو البيت الزحاف الطى ، ومن العلل القطع ، فصار مستفعلن على وزن مستعل بسكون اللام ، وذلك فى قوله «أهله» ،

رضى الله عنه : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما ، فجعل يطعنها بعود نبعة [1] ويقول (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) ، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) [2]. والحق : القرآن . وقيل : الإسلام . وقيل : السيف . وقيل الباطل : إبليس لعنه الله ، أى : ما ينشئ خلقاً ولا يعيده ، المنشئ والباعث : هو الله تعالى . وعن الحسن : لا يبدئ لأهله خيراً ولا يعيده ، أى : لا ينفعهم فى الدنيا والآخرة . وقال الزجاج : أىّ شىء ينشئ إبليس ويعيده ، فجعله للاستفهام . وقيل للشيطان : الباطل ؛ لأنه صاحب الباطل ؛ أو لأنه هالك كما قيل له : الشيطان ، من شاط إذا هلك .

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

قرئ ، ضللت أضلّ ، بفتح العين مع كسرها . وضللت أضلّ ، بكسرها مع فتحها ، وهما لغتان ، نحو : ظللت أظلّ ، وظللت أظلّ . وقرئ إضلّ : بكسر الهمزة مع فتح العين . فإن قلت : أين التقابل بين قوله (فإنما أضلّ على نفسى) وقوله (فبما يوحى إلىّ ربى) ، وإنما كان يستقيم أن يقال : فإنما أضل على نفسى ، وإن اهتديت فإنما أهتدى لها ، كقوله تعالى (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها . أو يقال : فإنما أضل بنفسى . قلت : هما متقابلان من جهة المعنى ؛ لأنّ النفس كل ما عليها فهو بها ، أعنى : أن كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بها وبسببها : لأن الأمّارة بالسوء ، وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه ، وهذا حكم عامّ لكل مكلف . وإنما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسنده إلى نفسه ؛ لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به ﴿إنه سميع قريب﴾ يدرك قول كل ضالّ ومهتد ، وفعله لا يخفى عليه منهما شىء .

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾

﴿ولو ترى﴾ جوابه محذوف ، يعنى : لرأيت أمراً عظيما وحالا هائلة . و « لو » و « إذ » والأفعال التى هى « فزعوا » و « أخذوا » وحيل بينهم : كلها للمضى . والمراد بها الاستقبال ؛ لأن ما الله فاعله فى المستقبل بمنزلة ما قد كان ووجد لتحققه ، ووقت الفزع : وقت البعث وقيام الساعة . وقيل : وقت الموت . وقيل : يوم بدر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت

---

(١) قوله « فجعل يطعنه بعود نبعة » لعله « معه » كعبارة النسفى . (ع)

(٢) متفق عليه وقد تقدم فى الاسراء .

فى خسف البيداء ، وذلك أن ثمانين ألفاً يغزون الكعبة ليخربوها ، فإذا دخلوا البيداء خسف بهم ﴿ فلافوت ﴾ فلا يفوتون الله ولا يسبقونه . وقرئ : فلافوت . والأخذ من مكان قريب : من الموقف إلى النار إذا بعثوا . أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا . أو من صحراء بدر إلى القليب . أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿ وأخذوا ﴾ ؟ قلت : فيه وجهان : العطف على فزعوا ، أى : فزعوا وأخذوا فلافوت لهم . أو على لافوت ، على معنى : إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا . وقرئ : وأخذ ، وهو معطوف على محل لافوت . ومعناه : فلافوت هناك ، وهناك أخذ .

وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾

﴿ آمنا به ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم لمرور ذكره فى قوله (ما بصاحبكم من جنة) : والتناوش والتناول : أخوان : إلا أنّ التناوش تناول سهل لشىء قريب ، يقال ناشه ينوشه ، وتناوشه القوم . ويقال : تناوشوا فى الحرب : ناش بعضهم بعضاً . وهذا تمثيل لطلبهم مالا يكون ، وهو أن ينفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا : مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشىء من غلوة [1] كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولا سهلا لا تعب فيه وقرئ التناؤش : همزت الواو المضمومة كما همزت فى أجؤه وأدؤر وعن أبى عمرو التناؤش بالهمز التناول من بعد من قولهم : نأشت إذا أبطأت وتأخرت . ومنه البيت :

* تَمَنَّى نَئِيشًا أَنْ يَكُونَ أَطَاعَنِى * [2]

(١) قوله « أن يتناول الشىء من غلوة » فى الصحاح : غلوت بالسهم غلواً ، إذا رميت به أبعد ماتقدر عليه . والغلوة : الغاية مقدار رمية ، وفيه : يقال بينهما قيس رمح وقاس رمح ، أى : قدر رمح . (ع)

(٢)
ومولى عصانى واستبد برأيه ... كما لم يطع فيما أشار قصير
فلما رأى ماغب أمرى وأمره ... وناءت بأعجاز الأمور صدور
تمنى نئيشا أن يكون أطاعنى ... وقد حدثت بعد الأمور أمور

لنهشل بن حرى ، واستبد : انفرد واستغنى بأمره . وقصير : علم رجل كان حسن الرأى ، وهو فاعل أشار . ومفعول « يطع » محذوف لدلالة المذكور عليه . أو لأن الفعل منزل منزلة اللازم ، والأوجه رواية لم يطع مبنيا للمجهول . وقصير : نائب الفاعل ، وضميره فاعل أشار ، وبالعكس على الخلاف فى باب التنازع . وغب الأمر : بلغ غبه بالكسر عاقبته . وناء ـ بالمد ـ : أصله نأى ، فقلب : أى بعد ، وشبه الأمر بشىء له صدر وعجز على

أى أخيراً ﴿ ويقذفون ﴾ معطوف على قد كفروا ، على حكاية الحال الماضية ، يعنى : وكانوا يتكلمون ﴿ بالغيب ﴾ ويأتون به ﴿ من مكان بعيد ﴾ وهو قولهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاعر . ساحر . كذاب . وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفى ، لأنهم لم يشاهدوا منه سحرا ولا شعرا ولا كذبا ، وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله ، لأن أبعد شىء مما جاء به : الشعر والسحر ، وأبعد شىء من عادته التى عرفت بينهم وجربت : الكذب والزور : وقرئ : ويقذفون بالغيب ، على البناء للمفعول ، أى : يأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه ، وإن شئت فعلقه بقوله (وقالوا آمنا به) على أنه مثلهم فى طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان فى الدنيا بقولهم آمنا فى الآخرة ، وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئا من مكان بعيد لا مجال للظن فى لحوقه ، حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائبا عنه شاحطا ، والغيب : الشىء الغائب ، ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد فى قوله (بين يدى عذاب شديد) وكانوا يقولون : وما نحن بمعذبين ، إن كان الامر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ، ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا ، قايسين أمر الآخرة على أمر الدنيا : فهذا كان قذفهم بالغيب ، وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة ؛ لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف ﴿ ما يشتهون ﴾ من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنة . أو من الرد إلى الدنيا ، كما حكى عنهم (ارجعنا نعمل صالحا) . ﴿ بأشياعهم ﴾ بأشباههم من كفرة الأمم ومن كان مذهبه مذهبهم ﴿ مريب ﴾ إما من أرابه ، إذا أوقعه فى الريبة والتهمة . أو من أراب الرجل ، إذا صار ذا ريبة ودخل فيها ، وكلاهما مجاز : إلا أن بينهما فريقا : وهو أن المريب من الأول منقول ممن يصح أن يكون مريبا من الأعيان إلى المعنى ، والمريب من الثانى منقول من صاحب الشك إلى الشك ، كما تقول : شعر شاعر .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبىّ إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحا [1] » .

ـــ طريق المكنية وإثباتهما له تخييل ، كأن أوائل الامور مضت بأواخرها ، فلما مضت الأوائل ظهرت الأواخر بعد خفائها . ويقال : نأش بالهمز إذا تأخر . وتنيشا : نصب على الظرف ، أى أخيراً ، أى : تمنى فى آخر الأمر أن يكون أطاعنى فى نصيحتى لما رأى عاقبة أمرى حسنة وعاقبة أمره سيئة . والحال أنه قد حدثت بعد الأمور السهلة أمور صعبة كانت خفية أوجبت تمنيه ، فهى حال مبينة للمراد من الظرف . أو حدثت بعد الأمور السهلة التى كان يمكنه معها مطاوعتى أمور صعبة تمنعه من التخلص من ربكته ، كما نصحته بذلك أولا فلم يسمع ومضى على رأيه .

(١) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم عن أبى بن كعب .

سورة الملائكة

مكية ، وهى خمس وأربعون آية [نزلت بعد الفرقان]

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

﴿فاطر السموات﴾ مبتدئها ومبتدعها . وعن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما : ما كنت أدرى ما فاطر السموات والأرض ، حتى اختصم إلىّ أعرابيان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها[1] ، أى ابتدأتها . وقرئ : الذى فطر السموات والأرض وجعل الملائكة . وقرئ : جاعل الملائكة ، بالرفع على المدح ﴿رسلا﴾ بضم السين وسكونها ﴿أولى أجنحة﴾ أصحاب أجنحة ، وأولو : اسم جمع لذو ، كما أن أولاء اسم جمع لذا ، ونظيرهما فى المتمكنة : المخاض والخلفة ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ صفات لأجنحة ، وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها . ذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أخر ، كما عدل عمر عن عامر . وحذام عن حاذمة ، وعن تكرير إلى غير تكرير . وأما الوصفية فلا يفترق الحال فيها بين المعدولة والمعدول عنها . ألا تراك تقول : مررت بنسوة أربع ، وبرجال ثلاثة ، فلا يعرج عليها ، والمعنى : أن الملائكة[2] خلقاً أجنحتهم اثنان اثنان ، أى : لكل واحد منهم جناحان ، وخلقاً أجنحتهم ثلاثة ثلاثة ، وخلقا أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يزيد فى الخلق ما يشاء﴾ أى : يزيد فى خلق الأجنحة ، وفى غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته . والأصل الجناحان ؛ لأنهما بمنزلة اليدين ، ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل ، وذلك أقوى للطيران وأعون عليه . فإن قلت : قياس الشفع من الأجنحة أن يكون فى كل شق نصفه ، فما صورة الثلاثة ؟ قلت : لعل الثالث يكون فى وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة . أو لعله لغير الطيران ؛ فقد مرّ بى فى بعض الكتب أن صنفا من الملائكة لهم ستة أجنحة فجناحان يلفون بها أجسادهم ، وجناحان يطيرون بهما فى الأمر من أمور الله ، وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه رأى جبريل عليه السلام

(١) تقدم فى أول الأنعام

(٢) قوله « وأن الملائكة خلقا » لعله : متنوعة خلقا ... الخ . (ع)

ليلة المعراج وله ستمائة جناح[1] ، وروى أنه سأل جبريل عليه السلام أن يتراءى له فى صورته فقال : إنك لن تطيق ذلك . قال : « إنى أحب أن تفعل[2] فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة مقمرة ، فأتاه جبريل فى صورته فغشى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه ، فقال : سبحان الله ! ما كنت أرى أن شيئا من الخلق هكذا ، فقال جبريل : فكيف لو رأيت إسرافيل : له اثنا عشر جناحا : جناح منها بالمشرق ، وجناح بالمغرب . وإن العرش على كاهله ، وإنه ليتضاءل الأحايين لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع[3] وهو العصفور الصغير . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (يزيد فى الخلق ما يشاء) : « هو الوجه الحسن ، والصوت الحسن ، والشعر الحسن » وقيل « الخط الحسن » وعن قتادة : الملاحة فى العينين ، والآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق : من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام فى الأعضاء ؛ وقوة فى البطش ؛ وحصافة فى العقل[4] ، وجزالة فى الرأى ، وجراءة فى القلب ، وسماحة فى النفس ، وذلاقة[5] فى اللسان ولباقة فى التكلم[6] ؛ وحسن تأتّ فى مزاولة الأمور ؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف .

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)

استعير الفتح للإطلاق والإرسال. ألا ترى إلى قوله (فلا مرسل له من بعده) مكان : لا فاتح له. يعنى : أى شىء يطلق الله من رحمة أى من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التى لا يحاط بعددها . وتنكيره الرحمة للإشاعة والإبهام ، كأنه قال : من أية رحمة كانت سماوية أو أرضية ، فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها ، وأىّ شىء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه. فإن قلت : لم أنث الضمير أوّلا ، ثم ذكر آخرا ؟ وهو راجع فى الحالين إلى الاسم المتضمن معنى الشرط ؟ قلت : هما لغتان : الحمل على المعنى وعلى اللفظ ، والمتكلم على الخيرة

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود «أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح» ولفظ ابن حبان «رأيت جبريل عند سدرة المنتهى وله ستمائة جناح ينتثر فى ريشه الدر والياقوت»

(٢) أخرجه ابن المبارك فى الزهد . والثعلبى من طريقه أخبرنا الليث عن عقيل عن الزهرى بهذا . وزاد «والوصع عصفور صغير حتى ما يحمل عرشه إلا عظمته» الوصع بفتح الصاد المهملة بعدها مهملة أيضاً

(٣) قوله «مثل الوصع وهو العصفور» فى الصحاح «الوصع» : طائر أصغر من العصفور . (ع)

(٤) قوله «وحصافة» أى : إحكام . أفاده الصحاح . (ع)

(٥) قوله «وذلاقة» أى : حدة وطلاقة ، أفاده الصحاح . (ع)

(٦) قوله «ولباقة فى التكلم» أى حذق . أفاده الصحاح . (ع)

فيهما ، فأنث على معنى الرحمة ، وذكر على أن لفظ المرجوع إليه لا تأنيث فيه ، ولأنّ الأوّل فسر بالرحمة ، فحسن اتباع الضمير التفسير ، ولم يفسر الثانى فترك على أصل التذكير وقرئ فلا مرسل لها . فإن قلت : لابد للثانى من تفسير ، فما تفسيره ؟ قلت : يحتمل أن يكون تفسيره مثل تفسير الأوّل ، ولكنه ترك لدلالته عليه ، وأن يكون مطلقاً فى كل مايمسكه من غضبه ورحمته ، وإنما فسر الأوّل دون الثانى للدلالة على أن رحمته سبقت غضبه . فإن قلت : فما تقول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى ابن عباس رضى الله عنهما ؟ قلت : إن أراد بالتوبة الهداية لها والتوفيق فيها ـ وهو الذى أراده ابن عباس رضى الله عنهما إن قاله ـ فمقبول ؛ وإن أراد أنه إن شاء أن يتوب العاصى تاب ، وإن لم يشأ لم يتب ؛ فمردود ؛ لأنّ الله تعالى يشاء التوبة أبداً [١] ، ولا يجوز عليه أن لا يشاءها ﴿من بعده﴾ من بعد إمساكه ، كقوله تعالى (فمن يهديه من بعد الله) ، (فبأى حديث بعد الله) أى من بعد هدايته وبعد آياته ﴿وهو العزيز﴾ الغالب القادر على الإرسال والإمساك ﴿الحكيم﴾ الذى يرسل ويمسك ما تقتضى الحكمة إرساله وإمساكه .

يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣)

ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط ، ولكن به وبالقلب ، وحفظها من الكفران والغمط [٢] وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليها . ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه : اذكر أيادىّ عندك . يريد حفظها وشكرها والعمل على موجبها . والخطاب عام للجميع لأنّ جميعهم مغمورون فى نعمة الله . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : يريد : ياأهل مكة اذكروا نعمة الله عليكم . حيث أسكنكم حرمه ومنعكم من جميع العالم ، والناس يتخطفون من حولكم . وعنه : نعمة الله العافية . وقرئ : غير الله ، بالحركات الثلاث ؛ فالجرّ والرفع على الوصف لفظا ومحلا ، والنصب على الاستثناء . فإن قلت : ما محل ﴿يرزقكم﴾ ؟ قلت : يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعته صفة لخالق [٣] وأن لا يكون له محل إذا رفعت محل من خالق ، بإضمار يرزقكم ، وأوقعت يرزقكم تفسيراً له . أو جعلته كلاما مبتدأ بعد قوله (هل من خالق غير

---

(١) قوله «يشاء التوبة أبدا» هذا وما بعده على مذهب المعتزلة ، من أنه تعالى يجب عليه الصلاح للعبد . وعند أهل السنة : لا يجب عليه شىء . فالكلام على ظاهره ، ورده مردود . (ع)

(٢) قوله «وحفظها من الكفران والغمط» أى : الاحتقار . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قال محمود : «إن قلت : ما محل يرزقكم ؟ قلت : يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعته صفة لخالق ، وأن لا يكون له محل إذا جعلته تفسيراً وجعلت من خالق مرفوع المحل بفعل يدل عليه هذا ، كأنه قيل : هل يرزقكم خالق غير الله ، أو جعلت يرزقكم كلاما مبتدأ» قال أحمد : والوجه المؤخر أوجهها

الله) . فإن قلت : هل فيه دليل على أنّ الخالق لا يطلق على غير الله تعالى[١] ؟ قلت : نعم إن جعلت (يرزقكم) كلاما مبتدأ وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة . وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير . فقد يقيد فيهما بالرزق من السماء والأرض ، وخرج من الإطلاق ، فكيف يستشهد به على اختصاصه ، بالإطلاق ؛ والرزق من السماء المطر ، ومن الأرض النبات ﴿لا إله إلا هو﴾ جملة مفصولة لا محل لها ، مثل : يرزقكم في الوجه الثالث ، ولو وصلتها كما وصلت يرزقكم لم يساعد عليه المعنى ؛ لأنّ قولك : هل من خالق آخر سوى الله لا إله إلا ذلك الخالق : غير مستقيم ؛ لأن قولك : هل من خالق سوى الله إثبات لله . فلو ذهبت تقول ذلك : كنت مناقضا بالنفي بعد الإثبات ﴿فأنى تؤفكون﴾ فمن أى وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك ؟

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾

نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله ، وتكذيبهم بها ، وسلى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن له في الأنبياء قبله أسوة حسنة ، ثم جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد : من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقانه . وقرئ : ترجع ، بضم التاء وفتحها . فإن قلت : ما وجه صحة جزاء الشرط ؟ ومن حق الجزاء أن يتعقب الشرط وهذا سابق له . قلت : معناه : وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك ، فوضع (فقد كذبت رسل من قبلك) موضع : فتأس ، استغناء بالسبب عن المسبب : أعني بالتكذيب عن التأسي . فإن قلت : ما معنى التنكير في رسل ؟ قلت : معناه فقد كذبت رسل ، أى رسل ذوو عدد كثير . وأولو آيات ونذر . وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم ، وما أشبه ذلك . وهذا أسلى له ، وأحث على المصابرة .

---

(١) عاد كلامه . قال : فان قلت : هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله تعالى ؟ قلت : نعم إن جعلت يرزقكم كلاما مبتدأ ، وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة . وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير فقد تقيد فيهما بالرزق من السموات والأرض ، وخرج من الاطلاق ، فكيف يستشهد به على نفيه مطلقا . قال أحمد : القدرية إذا قرعت هذه الآية أسماعهم قالوا بجرأة على الله تعالى : نعم ثم خالق غير الله ؛ لأن كل أحد عندهم يخلق فعل نفسه ، فلهذا رأيت الزمخشري وسع الدائرة ، وجلب الوجوه الشاردة النافرة ، وجعل الوجهين يطابقان معتقده في إثبات خالق غير الله ، ووجهها هو الحق والظاهر ، وأخره في الذكر تناسيا له ، والذي يحقق الوجه الثالث وأنه هو المراد : أن الآية خوطب بها قوم على أنهم مشركون ، إذا سئلوا عن رازقهم من السموات والأرض ، قالوا : الله ، فقرروا بذلك وقرعوا به ، إقامة للحجة عليهم باقرارهم ، ولو كان على غير هذا الوجه قيد ، لكان مفهومه إثبات خالق غير الله ، لكنه لا يرزق وهؤلاء الكفرة قد تبرؤا عن ذلك ، فلا وجه لتقريعهم بما يلائم قولهم هذا ترجيح الوجه الثالث من حيث مقصود سياق الآية . وأما من حيث النظم اللفظي ، فلأن الجملتين اللتين هما قوله (يرزقكم) وقوله (لا إله إلا هو) سيقتا سياقا واحداً . والثانية مفصولة اتفاقا مما تقدم ، فكذلك (وزينتها) .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

وعد الله الجزاء بالثواب والعقاب ﴿فلا تغرنكم﴾ فلاتخدعنكم ﴿الدنيا﴾ ولايذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عندالله ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ لا يقولن لكم اعملوا ما شئتم فإن الله غفور يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة [1]. والغرور الشيطان لأن ذلك ديدنه. وقرئ بالضم وهو مصدر غره كاللزوم والنهوك أو جمع غارّ كقاعد وقعود أخبرنا الله عز وجل أن الشيطان لنا عدوّ مبين، واقتص علينا قصته وما فعل بأبينا آدم عليه السلام، وكيف انتدب لعداوة جنسنا من قبل وجوده وبعده، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا، فوعظنا عز وجل بأنه كما علمتم عدوّكم الذى لا عدوّ أعرق فى العداوة منه، وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله ﴿فاتخذوه عدوّا﴾ فى عقائدكم وأفعالكم، ولا يوجدن منكم إلا ما يدل على معاداته ومناصبته فى سركم وجهركم. ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأنّ غرضه الذى يؤمه فى دعوة شيعته ومتبعى خطواته: هو أن يوردهم مورد الشقوة والهلاك، وأن يكونوا من أصحاب السعير. ثم كشف الغطاء وقشر اللحاء [2]، ليقطع الأطماع الفارغة والأمانى الكاذبة، فبنى الأمر كله على الإيمان والعمل وتركهما.

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

لما ذكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا، قال لنبيه ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ يعنى: أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين، كمن لم يزين له، فكأن رسول الله صلى

(١) قال محمود: «معناه: ولا يقولن لكم الشيطان: اعملوا ما شئتم فان الله غفور، يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة» قال أحمد: هو يعرض بأهل السنة فى اعتقادهم جواز مغفرة الكبائر للموحد، وإن لم يكن توبة. وهذا لا يناقض صدق وعده تعالى؛ لأن الله تعالى حيث توعد على الكبائر قرن الوعد بالمشيئة فى مثل قوله لهم ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء﴾ فهم إذاً مصدقون بوعد الله تعالى، موقنون به على حسب ما ورد.

(٢) قوله «وقشر اللحاء» فى الصحاح: اللحاء ـ ممدود ـ: قشر الشجر. (ع)

الله عليه وسلم قال «لا» فقال ﴿فإن الله يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ ومعنى تزيين العمل والإضلال: واحد، وهو أن يكون العاصى على صفة لاتجدى عليه المصالح، حتى يستوجب بذلك خذلان الله تعالى وتخليته وشأنه، فعند ذلك يهيم فى الضلال ويطلق آمر النهى، ويعتنق طاعة الهوى، حتى يرى القبيح حسناً والحسن قبيحاً، كأنما غلب على عقله وسلب تمييزه، ويقعد تحت قول أبى نواس:

أَسْقِنِي حَتَّى تَرَانِي   حَسَنًا عِنْدِي الْقَبِيحُ (١)

وإذا خذل الله المصممين على الكفر وخلاهم وشأنهم، فإنّ على الرسول أن لا يهتم بأمرهم ولا يلقى بالا إلى ذكرهم، ولا يحزن ولا يتحسر عليهم: اقتداء بسنة الله تعالى فى خذلانهم وتخليتهم. وذكر الزجاج أنّ المعنى: أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرة، فحذف الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه: أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله، فحذف لدلالة (فإنّ الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) عليه. حسرات: مفعول له يعنى: فلا تهلك نفسك للحسرات. وعليهم صلة تذهب، كما تقول: هلك عليه حبا، ومات عليه حزناً. أوهو بيان للمتحسر عليه. ولا يجوز أن يتعلق بحسرات؛ لأنّ المصدر لا يتقدم عليه صلته. ويجوز أن يكون حالا، كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر، كما قال جرير:

مَشَقَ الْهَوَاجِرُ لَحْمَهُنَّ مَعَ السُّرَى   حَتَّى ذَهَبْنَ كَلَاكِلاً وَصُدُورَا (٢)

يريد: رجعن كلاكلا وصدوراً، أى: لم يبق إلا كلاكلها وصدورها. ومنه قوله:

فَعَلَى إِثْرِهِمْ تَسَاقَطُ نَفْسِي   حَسَرَاتٍ وَذِكْرُهُمْ لِي سَقَامُ (٣)

وقرئ: فلا تذهب نفسك ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾ وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

---

(١) نحن نخفيها فتأبى   طيب ريح متفوح
اسقنى حتى ترانى   حسناً عندى القبيح

لأبى نواس. ونخفيها، أى: الخمر. فتفوح: أى رائحتها، ثم قال لساقى الخمر: اسقنى حتى أسكر، فيحسن عندى القبيح. وحسناً: المفعول الثانى، والقبيح مرفوع به، واستحسانه: كناية عن اشتداد السكر.

(٢) لجرير يصف نوقا بالهزال. يقال: فرس ممشوق، أى: طويل مهزول. وجارية ممشوقة: رقيقة القوام. والهاجرة: شدة الحر. والسرى ـ بالضم ـ: سير الليل. والكلكل والكلكال: الصدر، وعطف الصدور على الكلاكل للتفسير، أى: صرن من شدة الحر والسير كأنهم عظام فقط لا لحم عليهن.

(٣) لما أصابه الحزن بعد ذهاب الأحباب وتمكن من نفسه، تخيل أنها تتناثر وتنزل من جسمه حال كونها حسرات متتابعة، وجعل النفس حسرات لامتزاجها بها، فكأنها هى. أو تتساقط بعدهم لأجل الحسرات والأحزان وهو أرجح. وذكرهم: أى تذكرهم سقام لى، وهو بالفتح مصدر كالسقم.

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩)

وقرئ : أرسل الريح . فإن قلت : لم جاء (فتثير) على المضارعة دون ما قبله ، وما بعده ؟ قلت : ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تميز وخصوصية ، بحال تستغرب ، أو تهم المخاطب ، أو غير ذلك ، كما قال تأبط شراً :

بِأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوِي ... بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ

فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهَشٍ فَخَرَّتْ ... صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ (١)

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها ، مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول ، وثباته عند كل شدّة . وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها : لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : فسقنا ، وأحيينا ؛ معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه . والكاف في ﴿كذلك﴾ في محلّ الرفع ، أي : مثل إحياء الموات نشور الأموات وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال «هل مررت بوادى أهلك محلا ثم مررت به يهز (٢) خضراً ، قال : نعم . قال : «فكذلك يحيي

---

(١)
فمن ينكر وجود الغول إني ... أخبر عن يقين بل عيان
بأني لقد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعاً لليدين وللجران

لتأبط شراً . والغول : أنثى الشياطين . والعيان : المشاهدة بالعين . والهوى : الهبوط . والمراد : سرعة العدو . والسهب ـ بالفتح ـ : الفضاء المستوى البعيد الأطراف . والصحيفة : الكتاب . والصحصحان والصحصمان ـ بالفتح ـ : المستوى من الأرض . والجران ـ ككتاب ـ : مقدم عظم العنق من الحلق إلى اللبة ، وجمعه جرنة ككتبة ، وأجرنة كأفئدة . يقول : فمن ينكر وجود الغول فقد كذب ، فإني أخبر عن يقين . ويجوز أن المعنى : فيا من تنكر وجود الغول ، إني أخبر إخباراً ناشئاً عن يقين ، وهو ما كان بدليل قاطع بل عيان ومشاهدة بالعين ، بأني قد لقيتها تسرع في مكان متسع مستو ، وكرر الوصف بذلك توكيداً ، وأظهر موضع الاضمار لزيادة تمكين الغول في ذهن السامع والتهويل ، وكان الظاهر أن يقول : فضربتها ، لكن عدل إلى المضارع ليحكى الحال الماضية كأنها موجودة الآن مشاهدة فيتعجب منها ، وتعلم شجاعته ، أي : فجعلت أضربها بلا خوف فسقطت مطروحة على يديها وعنقها . وفعيل : يوصف به المذكر والمؤنث كما هنا .

(٢) قوله «ثم مررت به يهز خضراً» في الخازن : «يهتز» . (ع)

الله الموتى وتلك آيته فى خلقه[1] وقيل يحيي الله الخلق، بماء يرسله من تحت العرش كمنى الرجال، تنبت منه أجساد الخلق.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠)

كان الكافرون يتعزون بالأصنام، كما قال عز وجل (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا) والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم: كانوا يتعززون بالمشركين، كما قال تعالى (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإنّ العزة لله جميعا) فبين أن لا عزة إلا لله ولأوليائه. وقال (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) والمعنى فليطلبها عند الله، فوضع قوله ﴿فلله العزة جميعا﴾ موضعه، استغناء به عنه لدلالته عليه؛ لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه ومالكه. ونظيره قولك: من أراد النصيحة فهى عند الأبرار، تريد: فليطلبها عندهم؛ إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه. ومعنى (فلله العزة جميعا) أنّ العزة كلها مختصة بالله: عزة الدنيا وعزة الآخرة. ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ والكلم الطيب: لا إله إلا الله. عن ابن عباس رضى الله عنهما: يعنى أنّ هذه الكلم لا تقبل. ولا تصعد إلى السماء فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة، كما قال عز وجل (إنّ كتاب الأبرار لفى عليين) إلا إذا اقترن بها العمل الصالح الذى يحققها ويصدقها فرفعها وأصعدها. وقيل: الرافع الكلم، والمرفوع العمل؛ لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد. وقيل: الرافع هو الله تعالى، والمرفوع العمل. وقيل: الكلم الطيب: كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك. وعن النبى صلى الله عليه وسلم: «هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل[2] منه». وفى الحديث «لا يقبل

(١) أخرجه أحمد وإسحاق وابن أبى شيبة والحاكم والبيهقى فى البعث كلهم من طريق حماد بن سلمة عن يعلى ابن عطاء عن وكيع بن عدى عن عمه أبى رزين العقيلى أنه قال «يارسول الله أكلنا يرى ربه يوم القيامة. وما آية ذلك فى خلقه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أليس كلكم ينظر إلى القمر مختليا به؟ قالوا بلى. قال: فالله أعظم. قال: قلت: يارسول الله، كيف يحيي الله الموتى. وما آية ذلك فى خلقه؟ قال: أما مررت بوادى أهلك محلا؟ قال: بلى. قال ثم مررت به يهتز خضرا؟ قال: قلت: بلى. قال: فكذلك يحيي الله الموتى. وذلك آية فى خلقه» وأوله فى سنن أبى داود وابن ماجه دون مقصود الكتاب.

(٢) أخرجه الثعلبى وابن مردويه من رواية على بن عاصم عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة مرفوعا، ورواه الحاكم والبيهقى فى الأسماء والطبرى مرفوعا عن ابن مسعود رضى الله عنه.

الله قولا إلا بعمل ، ولا يقبل قولا ولا عملا إلا بنية ، ولا يقبل قولا وعملا ونية إلا بإصابة السنة [١]. وعن ابن المقفع : قول بلا عمل كثريد بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر . وقرئ : (إليه يصعد الكلم الطيب) على البناء للمفعول . و(إليه يصعد الكلم الطيب) على تسمية الفاعل ، من أصعد . والمصعد : هو الرجل أي يصعد إلى الله عز وجل الكلم الطيب ، وإليه يصعد الكلام الطيب . وقرئ : (والعمل الصالح يرفعه) ، بنصب العمل والرافع الكلم أو الله عز وجل . فإن قلت : مكر : فعل غير متعد . لا يقال : مكر فلان عمله فبم نصب ﴿السيئات﴾ ؟ قلت : هذه صفة للمصدر ، أو لما في حكمه ، كقوله تعالى (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله) أصله والذين مكروا المكرات السيئات . أو أصناف المكر السيئات ، وعنى بهن مكرات قريش حين اجتمعوا في دار الندوة وتداوروا الرأي في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله صلى الله عليه وسلم : إما إثباته ، أو قتله ، أو إخراجه كما حكى الله سبحانه عنهم (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) . ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ يعنى : ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور ، أي : يكسد ويفسد ، دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر ، فجمع عليهم مكراتهم جميعاً وحقق فيهم قوله (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وقوله . ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

﴿أزواجا﴾ أصنافا ، أو ذكرانا وإناثا ، كقوله تعالى (أو يزوجهم ذكرانا وإناثا) وعن قتادة رضى الله عنه : زوج بعضهم بعضا ﴿بعلمه﴾ في موضع الحال ، أي : إلا معلومة له . فإن قلت : ما معنى قوله . (وما يعمر من معمر) ؟ قلت : معناه (وما يعمر من أحد . وإنما سماه معمراً بما هو صائر إليه . فإن قلت: الإنسان إما معمر ، أي طويل العمر : أو منقوص العمر ، أي قصيره . فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال ، فكيف صح قوله ﴿وما يعمر

(١) أخرجه الخطيب في الجامع من رواية بقية بن إسماعيل بن عبد الله عن أبان عن أنس بهذا مرفوعا . وأبان متروك . وله طريق أخرى عن أبي هريرة مرفوعا أخرجه ابن عدي وابن حبان ، كلاهما في الضعفاء عن خالد بن عبد الدائم عن نافع بن يزيد عن زهرة بن معبد عن سعيد بن المسيب عنه ، بلفظ وقرآن في صلاة خير من قرآن في غير صلاة ـ الحديث . وفيه : ولا قول إلا بعمل إلى آخره . ورواه ابن حبان أيضاً من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب عن ابن مسعود . وفيه أحمد بن الحسن المصري . وهو كذاب .

من معمر ولا ينقص من عمره﴾ ؟ قلت : هذا من الكلام المتسامح فيه . ثقة فى تأويله بأفهام السامعين ، واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم ، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر فى عمر واحد . وعليه كلام الناس المستفيض . يقولون : لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق . وما تنعمت بلداً ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائى .[1] وفيه تأويل آخر : هو أنه لا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلا فى كتاب ، وصورته : أن يكتب فى اللوح : إن حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة ، وإن حج وغزا فعمره ستون سنة ، فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر . وإذا أفرد أحدهما فلم يتجاوز به الأربعون ، فقد نقص من عمره الذى هو الغاية وهو الستون . وإليه أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله « إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان فى الأعمار [2] » وعن كعب أنه قال حين طعن عمر رضى الله عنه : لو أن عمر دعا الله لأخر فى أجله.[3] فقيل لكعب : أليس قد قال الله ﴿إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ قال : فقد قال الله ﴿وما يعمر من معمر﴾ وقد استفاض على الألسنة : أطال الله بقاءك ، وفسح فى مدتك وما أشبهه . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه : يكتب فى الصحيفة عمره كذا وكذا سنة، ثم يكتب فى أسفل ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتى على آخره . وعن قتادة رضى الله عنه : المعمر من بلغ ستين سنة ، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة ، والكتاب: اللوح . عن ابن عباس رضى الله عنهما : ويجوز أن يراد بكتاب الله : علم الله . أو صحيفة الإنسان . وقرئ : ولا ينقص ، على تسمية الفاعل من عمره بالتخفيف .

وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

ضرب البحرين : العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر ، ثم قال على سبيل الاستطراد فى صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه ﴿ومن كل﴾ أى: ومن كل واحد منهما ﴿تأكلون لحما طريا﴾ وهو السمك ﴿وتستخرجون حلية﴾ وهى اللؤلؤ والمرجان ﴿وترى الفلك فيه﴾

(١) قوله «ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائى» أى : كرهت المقام به ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه أحمد من طريق القاسم عن عائشة ، لكن قال «وحسن الخلق» بدل «الصدقة» ورواه البيهقى فى الشعب من هذا الوجه كذلك ، وزاد «وحسن الجوار» وله طريق أخرى عند الأصبهانى عن أبى سعيد بلفظ «صلة الرحم وحسن الخلق وبر الوالدين» وزاد «وإن كان القوم فجارا»

(٣) أخرجه إسحق فى آخر مسند ابن عباس رضى الله عنهما ، أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن سعيد .

فى كل ﴿مواخر﴾ شواق للماء بجريها، يقال: مخرت السفينة الماء. ويقال للسحاب: بنات مخر، لأنها تمخر الهواء والسفن الذى اشتقت منه السفينة قريب من المخر، لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره ﴿من فضله﴾ من فضل الله، ولم يجر له ذكر فى الآية، ولكن فيما قبلها، ولو لم يجر لم يشكل، لدلالة المعنى عليه. وحرف الرجاء مستعار لمعنى الإرادة، ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل، كأنما قيل: لتبتغوا، ولتشكروا. والفرات: الذى يكسر العطش. والسائغ: المرىء السهل الانحدار لعذوبته. وقرئ: سيغ، بوزن سيد: وسيغ بالتخفيف. وملح: على فعل. والأجاج: الذى يحرق بملوحته. ويحتمل غير طريقة الاستطراد: وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر: بأنه قد شارك العذب فى منافع من السمك واللؤلؤ: وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع، فهو فى طريقة قوله تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) ثم قال (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله.

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

﴿ذلكم﴾ مبتدأ. و﴿الله ربكم له الملك﴾ أخبار مترادفة. أو (الله ربكم) خبران. وله الملك: جملة مبتدأة واقعة فى قران قوله ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ ويجوز فى حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الإشارة. أو عطف بيان. وربكم خبراً. لولا أن المعنى يأباه. والقطمير: لفافة النواة، وهى القشرة الرقيقة الملتفة عليها.

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

إن تدعوا الأوثان ﴿لا يسمعوا دعاءكم﴾ لأنهم جماد ﴿ولو سمعوا﴾ على سبيل الفرض والتمثيل ﴿ما استجابوا لكم﴾ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية، ويتبرءون منها. وقيل: ما نفعوكم ﴿يكفرون بشرككم[1] ولا ينبئك مثل خبير﴾ ولا يخبرك بالأمر مخبر هو

(١) قوله «يكفرون بشرككم» كأن تفسيره قد سقط. وفى النسفى: يكفرون بشرككم: باشراككم لهم وعبادتكم إياهم، ويقولون: ما كنتم إيانا تعبدون، ولاينبئك ... الخ. (ع)

مثل خبير عالم به . ويريد : أن الخبير بالأمر وحده ، هو الذى يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به . والمعنى : أنّ هذا الذى أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق ، لأنى خبير بما أخبرت به . وقرئ : يدعون ، بالياء والتاء .

يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

فإن قلت : لم عرف الفقراء ؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم ، لأن الفقر مما يتبع الضعف ، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف فى قوله (وخلق الإنسان ضعيفا) وقال سبحانه وتعالى (الله الذى خلقكم من ضعف) ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء . فإن قلت : قد قوبل الفقراء بالغنى ، فما فائدة الحميد ؟ قلت : لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم ـ وليس كل غنى نافعا بغناه إلا إذا كان الغنىّ جواداً منعما ، فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد ـ ذكر الحميد ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه ، الجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه . الحميد على ألسنة مؤمنيهم ﴿ بعزيز ﴾ بممتنع ، وهذا غضب عليهم لاتخاذهم له أنداداً ، وكفرهم بآياته ومعاصيهم ، كما قال(وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئا .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

الوزر والوقر : أخوان ، ووزر الشىء إذا حمله . والوازرة : صفة للنفس ، والمعنى : أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذى اقترفته : لا تؤخذ نفس بذنب نفس ، كما تأخذ جبابرة الدنيا : الولى بالولى ، والجار بالجار . فإن قلت : هلا قيل : ولا تزر نفس وزر أخرى ؟ ولم قيل وازرة ؟ قلت : لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها ، لا وزر غيرها . فإن قلت : كيف توفق بين هذا وبين قوله (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) ؟ قلت : تلك الآية فى الضالين المضلين ، وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم ، وذلك كله أوزارهم ما فيها شىء من وزر غيرهم . ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى فى

قولهم (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) بقوله تعالى (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء). فإن قلت : ما الفرق بين معنى قوله ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وبين معنى ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ﴾ ؟ قلت : الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه ، وأنه تعالى لا يؤاخذ نفسا بغير ذنبها ، والثاني في أن لا غياث يومئذ لمن استغاث ، حتى أن نفسا قد أثقلها الأوزار وبهظتها ، لو دعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث ، وإن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ. فإن قلت: إلام أسند كان في ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ ؟ قلت : إلى المدعو المفهوم من قوله (وإن تدع مثقلة) . فإن قلت : لم ترك ذكر المدعو ؟ قلت: ليعم ، ويشمل كل مدعو . فإن قلت : كيف استقام إضمار العام ؟ ولا يصح أن يكون العام ذا قربى للمثقلة ؟ قلت : هو من العموم الكائن على طريق البدل . فإن قلت : ما تقول فيمن قرأ (ولو كان ذو قربى) على كان التامة ، كقوله تعالى (وإن كان ذو عسرة) ؟ قلت : نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة ؛ لأن المعنى على أن المثقلة إن دعت أحداً إلى حملها لا يحمل منه شيء ، وإن كان مدعوها ذا قربى ، وهو معنى صحيح ملتئم ، ولو قلت : ولو وجد ذو قربى ، لتفكك وخرج من اتساقه والتئامه [1] ، على أن ههنا ماساغ أن يستتر له ضمير في الفعل بخلاف ماأوردته ﴿ بالغيب ﴾ حال من الفاعل أو المفعول ، أي : يخشون ربهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه غائباً عنهم . وقيل : بالغيب في السر ، وهذه صفة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ، فكانت عادتهم المستمرة أن يخشوا الله ، وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوها مناراً منصوباً وعلماً مرفوعاً ، يعني : إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك ، وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم دون متمرديهم وأهل عنادهم ﴿ ومن تزكى ﴾ ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي . وقرئ : ومن ازكى فإنما يزكى ، وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة ، لأنهما من جملة التزكي ﴿ وإلى الله المصير ﴾ وعد للمتزكين بالثواب . فإن قلت : كيف اتصل قوله (إنما تنذر) بما قبله ؟ قلت . لما غضب عليهم في قوله (إن يشأ يذهبكم) أتبعه الإنذار بيوم القيامة وذكر أهوالها ، ثم قال (إنما تنذر) كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمعهم ذلك ، فلم ينفع ، فنزل (إنما تنذر) أو أخبره الله تعالى بعلمه فيهم .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾

(١) قوله «وخرج من اتساقه والتئامه» أي : انتظامه . (ع)

﴿الأعمى والبصير﴾ مثل للكافر والمؤمن ، كما ضرب البحرين مثلا لهما أو للصنم والله عزّ وجلّ ، والظلمات والنور والظلّ والحرور : مثلان للحق والباطل ، وما يؤدّيان إليه من الثواب والعقاب . والأحياء والأموات : مثل للذين دخلوا فى الإسلام والذين لم يدخلوا فيه ، وأصروا على الكفر والحرور : السموم ؛ إلا أنّ السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار . وقيل : بالليل خاصة . فإن قلت : لا المقرونة بواو العطف ما هى ؟ قلت : إذا وقعت الواو فى النفى قرنت بها لتأكيد معنى النفى . فإن قلت : هل من فرق بين هذه الواوات ؟ قلت : بعضها ضمت شفعاً إلى شفع ، وبعضها وتراً إلى وتر ﴿إنّ الله يسمع من يشاء﴾ يعنى أنه قد علم من يدخل فى الإسلام ممن لا يدخل فيه ، فيهدى الذى قد علم أنّ الهداية تنفع فيه ، ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه . وأمّا أنت فخفى عليك أمرهم ، فلذلك تحرص وتتهالك على إسلام قوم من المخذولين . ومثلك فى ذلك مثل من لا يريد أن يسمع المقبورين وينذر ، وذلك ما لا سبيل إليه ، ثم قال ﴿إن أنت إلا نذير﴾ أى ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر ، فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع ، وإن كان من المصرين فلا عليك . ويحتمل أنّ الله يسمع من يشاء وأنه قادر على أن يهدى المطبوع على قلوبهم على وجه القسر والإلجاء ، وغيرهم على وجه الهداية والتوفيق ، وأما أنت فلا حيلة لك فى المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾

﴿بالحق﴾ حال من أحد الضميرين ، يعنى : محقاً أو محقين ، أو صفة للمصدر ، أى : إرسالا مصحوباً بالحق . أو صلة لبشير ونذير على : بشيراً بالوعد الحق ، ونذيراً بالوعيد الحق . والأمّة الجماعة الكثيرة . قال الله تعالى : وجد عليه أمّة من الناس ، ويقال لأهل كل عصر : أمّة ، وفى حدود المتكلمين : الأمّة هم المصدقون بالرسول صلى الله عليه وسلم دون المبعوث إليهم ، وهم الذين يعتبر إجماعهم ، والمراد ههنا : أهل العصر . فإن قلت : كم من أمّة فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ولم يخل فيها نذير ؟ قلت : إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس ، وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير فى آخر الآية بعد ذكرهما ؟ قلت لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة ، دلّ ذكرها على ذكرها ، لا سيما قد اشتملت الآية على ذكرهما

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

﴿ بالبينات ﴾ بالشواهد على صحة النبوّة وهى المعجزات ﴿ وبالزبر ﴾ وبالصحف ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ نحو التوراة والإنجيل والزبور . لما كانت هذه الأشياء فى جنسهم أسند المجىء بها إليهم إسناداً مطلقاً ، وإن كان بعضها فى جميعهم : وهى البينات ، وبعضها فى بعضهم : وهى الزبر والكتاب . وفيه مسلاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)

﴿ ألوانها ﴾ أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها . والجدد : الخطط والطرائق . قال لبيد :

* أَوْ مَذْهَبٌ جُدَدٌ عَلَى أَلْوَاحِهِ *

ويقال : جدة الحمار للخطة السوداء على ظهره ، وقد يكون للظبى جدتان مسكيتان تفصلان بين لونى ظهره وبطنه ﴿ وغرابيب ﴾ معطوف على بيض أو على جدد ، كأنه قيل : ومن الجبال مخطط ذو جدد ، ومنها ما هو على لون واحد غرابيب[1] . وعن عكرمة رضى الله عنه : هى الجبال الطوال السود . فإن قلت : الغربيب تأكيد للأسود . يقال : أسود غربيب ، وأسود حلكوك : وهو الذى أبعد فى السواد وأغرب فيه . ومنه الغراب . ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك : أصفر فاقع ، وأبيض يقق[3] وما أشبه ذلك . قلت : وجهه أن يضمر المؤكد قبله ويكون الذى بعده تفسيراً لما أضمر ، كقول النابغة :

* وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِذَاتِ الطَّيْرِ[4]... *

(١) قوله «ما هو على لون واحد غرابيب» لعله . غربيب . (ع)

(٢) قوله «وأبيض يقق» بفتح القاف الأولى ، وحكى كسرها . أفاده الصحاح . (ع)

(٣)
فلا لعمر الذى طيفت بكعبته … وما هريق على الأنصاب من جسد
والمؤمن العائذات الطير يرقبها … ركبان مكة بين الغيل والسند
ما إن أتيت بشىء أنت تكرهه … إذا فلا رفعت سوطى إلى يدى

للنابغة . يعتذر للنعمان بن المنذر ، ولا زائدة قبل القسم ، لأنه فى الغالب لنفى دعوى الخصم . والعمر : الحياة ، وهو مبتدأ حذف خبره وجوبا ، وطاف به يطيف طيفا . أتى عليه ونزل به ، وطاف به يطوف طوافا وطوفانا ، =

وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد ، حيث يدل على المعنى الواحد من طريق الإظهار والإضمار جميعاً ، ولا بد من تقدير حذف المضاف فى قوله تعالى (ومن الجبال جدد) بمعنى : ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود ، حتى يؤول إلى قولك : ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال : ثمرات مختلفاً ألوانها ﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه﴾ يعنى : ومنهم بعض مختلف ألوانه . وقرئ : ألوانها . وقرأ الزهرى جدد ، بالضم : جمع جديدة ، وهى الجدة . يقال : جديدة وجدد وجدائد ، كسفينة وسفن وسفائن . وقد فسر بها قول أبى ذؤيب يصف حمار وحش .

* جُونُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعُ * (١)

وروى عنه : جدد ، بفتحتين ، وهو الطريق الواضح المسفر وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض . وقرئ . والدواب مخففاً ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ (ولا الضألين) لأنّ كل واحد منهما فرار من التقاء الساكنين ، فحرك ذاك أولهما ، وحذف هذا آخرهما . وقوله ﴿كذلك﴾ أى كاختلاف الثمرات والجبال . المراد : العلماء به الذين علموه بصفاته وعدله وتوحيده ، وما يجوز عليه وما لا يجوز . فعظموه وقدروه حق قدره ، وخشوه حق خشيته ، ومن ازداد به علماً ازداد منه خوفاً ، ومن كان علمه به أقل كان آمن . وفى الحديث :

—— إذا دار حوله » ومنه : طيفت ، وهو مبنى للمجهول ، ونائب الفاعل : الجار والمجرور ، ولما كان مؤنثا لحقت التاء الفعل شذوذا ، والفصيح تركها فى مثله . والغيل والسند : أجمتان بجانب منى . وقيل : موضعا ماء بجانبى الحرم ، وهو قريب مما قبله . أى : حياة الذى طاف الحجيج بكعبته قسمى ، وما هريق ، والمؤمن : بالرفع عطف على المبتدأ والعائذات منصوب بالمؤمن ، والطير : عطف بيان للعائذات ، ويجوز جعله بدلا منه ، وكذا كل موصوف تبع صفته ، وهريق : أصله أريق . والجسد : البدن ، وجسد به الدم : إذا لصق به ، فهو جاسد وجسد . فعلى الأول «أريق» بمعنى ذبح ، وعلى الثانى على ظاهره ، لكنه كناية عن الذبح ، أى وما ذبح على الحجارة المنصوبة حول الكعبة من الهدى ، والذى آمن الطير العائذات اللائذات بالحرم ، حال كونها ينظرها الحجاج فى منى ولا يؤذونها لاحرامهم . وروى : يمسحها وهو أبلغ فى الأمن ، وما أتيت جواب القسم ، وإن زائدة . ويجوز أنها نافية مؤكدة ثم دعا على نفسه فقال : إذا كان ذلك منى فلا رفعت سوطى إلى يدى : بيان يدى ، كناية عن أنه يضعف غاية الضعف ، وروى «سوطاه» بدل «سوطى» أى يضعف حتى لا يقدر على رفعه .

(١) والدهر لا يبقى على حدثانه جون السراة له جدائد أربع

لأبى ذؤيب فى مرثية بنيه . والجون : الأسود ويطلق على الأبيض ، فهو من الأضداد . وسراة الظهر : أعلاه ، وسراة كل شىء : أعلاه . وجديدة وجدد وجدائد ، كسفينة وسفن وسفائن . والجدائد : الأتن التى جف لبنها . والمرأة الجداء : التى لا ثدى لها : يسلى عن بنيه بأن لك عادة الدهر ، فهو لا يبقى مع ما فيه من الحدثان أحداً ، حتى أسود الظهر كناية عن حمار الوحش له أتن أربع يرعى معهن فى البرارى وينزو عليهن . وقيل : إنه يعيش مائتى سنة فربما يتوهم أنه لا يصيبه الدهر بشىء . ويجوز قراءة «يبقى» بالفتح . وجون بالرفع فاعل . وله جدائد : جملة حالية أى : لا بد أن تهلك أتنه واحدة بعد واحدة ، أو يهلك هو .

« أعلمكم بالله أشدّكم له خشية »[(١)] وعن مسروق : كفى بالمرء علماً أن يخشى ، وكفى بالمرء جهلا أن يعجب بعلمه . وقال رجل للشعبي : أفتنى أيها العالم ، فقال : العالم من خشى الله . وقيل : نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه . فإن قلت : هل يختلف المعنى إذا قدم المفعول فى هذا الكلام أو أخر؟ قلت : لا بد من ذلك ، فإنك إذا قدمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى : إنّ الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم ، وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله ، كقوله تعالى (ولا يخشون أحداً إلا الله) وهما معنيان مختلفان . فإن قلت : ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله ؟ قلت : لما قال (ألم تر) بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء ، وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته ، أتبع ذلك ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ كأنه قال : إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك : ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم[(٢)] به » . فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وهو عمر بن عبد العزيز ويحكى عن أبى حنيفة ؟ قلت : الخشية فى هذه القراءة استعارة ، والمعنى : إنما يجلهم ويعظمهم ، كما يجل المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده ﴿إن الله عزيز غفور﴾ تعليل لوجوب الخشية ، لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم ، والمعاقب المثيب : حقه أن يخشى .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)

﴿يتلون كتاب الله﴾ يداومون على تلاوته وهى شأنهم وديدنهم . وعن مطرف رحمه الله : هى آية القراء . وعن الكلبي رحمه الله : يأخذون بما فيه . وقيل : يعلمون ما فيه ويعملون به . وعن السدى رحمه الله : هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم . وعن عطاء : هم المؤمنون ﴿يرجون﴾ خبر إن ، والتجارة : طلب الثواب بالطاعة . و ﴿ليوفيهم﴾ متعلق بلن تبور ، أى : تجارة ينتفى عنها الكساد وتنفق[(٣)] عند الله ليوفيهم بنفاقها عنده ﴿أجورهم﴾

(١) لم أجده هكذا . وفى الصحيح : «وأنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية» .

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج عن زيد بن أسلم . ومالك فى الموطأ والشافعى عنه عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار به مرسلا فى أثناء حديث أوله «أن رجلا قبل امرأته وهو صائم»

(٣) قوله «وتنفق عند الله» أى تروج . أفاده الصحاح . (ع)

وهى ما استحقوه من الثواب ﴿ويزيدهم﴾ من التفضل على المستحق . وإن شئت جعلت (يرجون) فى موضع الحال على : وأنفقوا راجين ليوفيهم ، أى فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق فى سبيل الله لهذا الغرض ، وخبر إن قوله ﴿إنه غفور شكور﴾ على معنى : غفور لهم شكور لأعمالهم . والشكر مجاز عن الإثابة .

وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

﴿الكتاب﴾ القرآن . ومن للتبيين أو الجنس . ومن للتبعيض ﴿مصدقا﴾ حال مؤكدة ؛ لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿لما بين يديه﴾ لما تقدمه من الكتب ﴿لخبير بصير﴾ يعنى أنه خبرك وأبصر أحوالك ، فرآك أهلا لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذى هو عيار على سائر الكتب .

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : إنا أوحينا إليك القرآن ثم أورثنا من بعدك أى حكمنا بتوريثه . أو قال : أورثناه وهو يريد نورثه ، لما عليه أخبار الله ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة ؛ لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم ، وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس ، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله ، وحمل الكتاب الذى هو أفضل كتب الله ، ثم قسمهم إلى ظالم لنفسه مجرم وهو المرجأ لأمر الله ، ومقتصد : هو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، وسابق من السابقين . والوجه الثانى : أنه قدم إرساله فى كل أمة رسولا وأنهم كذبوا برسلهم وقد جاؤهم بالبينات والزبر والكتاب المنير ، ثم قال : إن الذين يتلون

كتاب الله، فأثنى على التالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم واعترض بقوله (والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) ثم قال (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) أى من بعد أولئك المذكورين، يريد بالمصطفين من عباده: أهل الملة الحنيفية، فإن قلت: فكيف جعلت ﴿جنات عدن﴾ بدلا من الفضل الكبير(١) الذى هو السبق بالخيرات المشار إليه بذلك؟ قلت: لما كان السبب فى نيل الثواب، نزل منزلة المسبب، كأنه هو الثواب، فأبدلت عنه جنات عدن، وفى اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين مافيه من وجوب الحذر، فليحذر المقتصد، وليملك الظالم لنفسه حذراً وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله، ولا يغترا بما رواه عمر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له (٢)»، فإنّ شرط ذلك صحة التوبة(٣) لقوله تعالى (عسى الله أن يتوب عليهم) وقوله (إمّا يعذبهم وإمّا يتوب عليهم) ولقد نطق القرآن بذلك فى مواضع من استقرأها اطلع على حقيقة الأمر ولم يعلل نفسه بالخدع. وقرئ سباق. ومعنى (بإذن الله) بتيسيره وتوفيقه فإن قلت: لم قدم الظالم؟ ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت: للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل. وقرئ: جنة عدن على الإفراد، كأنها جنة مختصة بالسابقين. وجنات عدن:

---

(١) قال محمود: «يعنى بالمصطفين أمة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم قسمهم الآية إلى ظالم لنفسه: هو المرجأ لأمر الله، وإلى مقتصد: وهو الذى خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً، وإلى سابق. ثم قال الزمخشرى: فان قلت: كيف جعل الجنات بدلا من الفضل الكبير. وذلك فى تتمة الآية فى قوله (ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها) قلت: لان الاشارة بالفضل إلى السبق بالخيرات وهو السبب فى الجنات ونيل الثواب، فأقام السبب مقام المسبب، وفى اختصاص السابقين بذكر الجزاء دون الآخرين ما يوجب الحذر فليحذر المقتصد، وليملك الظالم لنفسه حذراً، وعليهما بالتوبة النصوح، ولا يغترا بما رواه عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له» فان شرط ذلك صحة التوبة فلا يملل نفسه بالخدع» قال أحمد: وقد صدرت هذه الآية بذكر المصطفين من عباد الله، ثم قسمهم إلى الظالم والمقتصد والسابق ليلزم اندراج الظالم لنفسه من الموحدين فى المصطفين، وإنه لمهم، وأى نعمة أتم وأعظم من اصطفائه للتوحيد والعقائد السالمة من البدع، فما بال المصنف يطنب فى التسوية بين الموحد المصطفى والكافر المجترئ، وقوله (جنات عدن يدخلونها) الضمير فيه راجع إلى المصطفين عموما، والجنات جزاؤهم على توحيدهم جميعاً، وإعرابها: جنات مبتدأ، ويدخلونها الخبر، وقوله (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) ... إلى آخر الآية: خبر بعد خبر، وخبر على خبر، والله المستعان.

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب من رواية ميمون بن سياه عن عمر رضى الله عنه مرفوعا. وهذا منقطع وأخرجه الثعلبى وابن مردويه من وجه آخر عن ميمون بن سياه عن أبى عثمان النهدى عن عمر. فيه الفضل بن عميرة: وهو ضعيف. ورواه سعيد بن منصور عن فرج بن فضالة عن أزهر بن عبد الله الحرازى عمن سمع عمر فذكره موقوفا

(٣) قوله «فان شرط ذلك صحة التوبة» هذا عند المعتزلة. أما أهل السنة فيجوزون الغفران بمجرد الفضل. (ع)

بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر ، أى يدخلون جنات عدن يدخلونها ، ويدخلونها ، على البناء للمفعول . ويحلون : من حليت : المرأة ، فهى حال ﴿ولؤلؤا﴾ معطوف على محل من أساور ، ومن داخلة للتبعيض ، أى : يحلون بعض أساور من ذهب ، كأنه بعض سابق لسائر الابعاض ، كما سبق المسوّرون به غيرهم : وقيل : إنّ ذلك الذهب فى صفاء اللؤلؤ . وقرئ : ولو لؤاؤا بتخفيف الهمزة الاولى ، وقرئ : الحزن ، والمراد : حزن المتقين ، وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة ، كقوله تعالى (إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين) فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : حزن الاعراض والآفات . وعنه : حزن الموت . وعن الضحاك : حزن إبليس ووسوسته . وقيل : همّ المعاش . وقيل : حزن زوال النعم ، وقد أكثروا حتى قال بعضهم : كراء الدار ، ومعناه : أنه يعم كل حزن من أحزان الدين والدنيا حتى هذا . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى محشرهم ولا فى مسيرهم ؛ وكأنى بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن [1] » وذكر الشكور : دليل على أن القوم كثيرو الحسنات ، المقامة : بمعنى الإقامة ، يقال : أقمت إقامة ومقاما ومقامة ﴿من فضله﴾ من عطائه وإفضاله ، من قولهم : لفلان فضول على قومه وفواضل ، وليس من الفضل الذى هو التفضل ؛ لأن الثواب بمنزلة الأجر المستحق ، والتفضل كالتبرع . وقرئ : لغوب ، بالفتح : وهو اسم ما يلغب منه ، أى : لا نتكلف عملا يلغبنا : أو مصدر كالقبول والولوغ ، أو صفة للمصدر ، كأنه[2] لغوب لغوب ، كقولك : موت مائت ، فإن قلت : ما الفرق بين النصب واللغوب ؟ قلت : النصب التعب والمشقة التى تصيب المنتصب للأمر المزاول له . وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب ، فالنصب : نفس المشقة والكلفة . واللغوب : نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا

(١) أخرجه أبو يعلى وابن أبى حاتم والبيهقى فى أول الشعب والطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عمر . وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف وله طريق أخرى عند الطبرانى والنسائى فى الكنى عن ابن عمر . وأخرى عند البيهقى فى الشعب . وفى الباب عن ابن عباس أخرجه تمام فى فوائده والخطيب فى ترجمة محمد بن سعيد الطائفى وعن أنس عند ابن مردويه

(٢) «كأنه» لعله : كأنه قال . (ع)

نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَـيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَايَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ ٱلنَّـذِيرُ فَذُوقُوا فَمَـا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾

﴿فيموتوا﴾ جواب النفى ، ونصبه بإضمار أن : وقرئ : فيموتون ، عطفاً على يقضى ، وإدخالا له فى حكم النفى ، أى : لا يقضى عليهم الموت فلا يموتون ، كقوله تعالى (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) . ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿نجزى﴾ وقرئ : يجازى . ونجزى ﴿كل كفور﴾ بالنون[1] ﴿يصطرخون﴾ يتصارخون : يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدة . قال

* كَصَرْخَةِ حُبْلَى أَسْلَمَتْهَا قَبِيلُهَا * [2]

واستعمل فى الاستغاثة لجهد المستغيث صوته . فإن قلت : هلا اكتفى بصالحاً كما اكتفى به فى قوله تعالى (فارجعنا نعمل صالحاً) وما فائدة زيادة ﴿غير الذى كنا نعمل﴾ على أنه يؤذن أنهم يعملون صالحاً آخر غير الصالح الذى عملوه ؟ قلت : فائدته زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به . وأما الوهم فزائل لظهور حالهم فى الكفر وركوب المعاصى ، ولأنهم[3] كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة ، كما قال الله تعالى (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) فقالوا . أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نحسبه صالحاً فنعمله ﴿أو لم نعمركم﴾ توبيخ من الله يعنى : فنقول لهم . وقرئ : ما يذكر فيه ، من أذكر على الإدغام وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر ؛ إلا أن التوبيخ فى المتطاول أعظم . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «العمر الذى أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة[4]» . وعن

---

(١) قوله «ونجزى كل كفور بالنون» ونصب كل فى هذه القراءة ورفعه فيما قبلها . (ع)

(٢) قصدت إلى عنس لأحدج رحلها ... وقد حان من تلك الديار رحيلها
فأنت كما أن الأسير وصرخت ... كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها

للأعشى . وعنست المرأة عنساً : إذا لم تخرج من بيتها للزواج مع بلوغها من السن . والعنس : الناقة الصلبة الصعبة وحدج من باب ضرب : إذا شد الرحل على الناقة . والحدوج : الرحال والهوادج ، وهو بتأخير الجيم . وأما الجدح ـ بتأخير المهملة ـ : فهو اللت والخوض والمزج ، أى : عمدت إلى ناقة صلبة لأشد رحلها عليها ، والحال أنه جاء حين رحليها من تلك الديار . والأنين : الصوت المنخفض للتحزن ، أى : أنت كأنين الأسير فى الأول ، وصرخت برفع صوتها ثانياً كصرخة حبلى عند الطلق أسلمتها وتركتها قبيلها التى تخدمها عند الولادة . والقبيل والقبول والقابلة : التى تقوم بمصلحة المرأة عند الولادة وتتلق الولد عند خروجه .

(٣) قوله «ولأنهم كانو يحسبون» لعله : أو لأنهم كانوا . (ع)

(٤) أخرجه البزار من رواية سعيد المقبرى عن أبى هريرة مرفوعا بهذا . وأصله فى البخارى ، بلفظ «من عمره الله ستين سنة فقد أعذر الله إليه فى العمر» ووهم الحاكم فاستدركه . ورواه ابن مردويه به من حديث سهل بن سعد

مجاهد : ما بين العشرين إلى الستين . وقيل : ثماني عشر وسبع عشر . و﴿النذير﴾ الرسول صلى الله عليه وسلم . وقيل : الشيب . وقرئ : وجاءتكم النذر . فإن قلت : علام عطف وجاءكم النذير ؟ قلت : على معنى : أو لم نعمركم ؛ لأن لفظه لفظ استخبار . ومعناه معنى إخبار ، كأنه قيل : قد عمرناكم وجاءكم النذير .

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ كالتعليل ، لأنه إذا علم ما في الصدور وهو أخفى ما يكون ، فقد علم كل غيب في العالم وذات الصدور : مضمراتها ، وهي تأنيث ذو في نحو قول أبي بكر رضي الله عنه : ذو بطن خارجة جارية [1] وقوله :

* لِتُغْنِيَ عَنِّي ذَا إِنَائِكَ أَجْمَعَا * [2]

المعنى ما في بطنها من الحبل ، وما في إنائك من الشراب ؛ لأن الحبل والشراب يصحبان البطن والإناء . ألا ترى إلى قولهم : معها حبل ، وكذلك المضمرات تصحب الصدور وهي معها . وذو : موضوع لمعنى الصحبة .

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

(١) أخرجه في الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة «أن أبا بكر كان نحلها جداد عشرين وسقا — الحديث» وفيه «إنما هي أسماء فمن الأخرى ؟ قال : ذو بطن بنت خارجة أراها جارية ، فولدت جارية» وقد تقدم طرف منه في الإسراء.

(٢) وناولته من رسل كوماء جلدة وأغضيت عنه الطرف حتى تضلعا
إذا قال قدني قلت بالله حلفة لتغني عني ذا إنائك أجمعا

لحريث بن عناب الطائي . والرسل — بالكسر — : اللبن القليل . والكوماء : السمينة . والجلدة : الصلبة . والاغضاء الغض والاغماض . والتضلع : امتلاء البطن حتى يرتفع الجنبان والضلوع . وغض طرفه عن الضيف كي لا يستحي إذا قال الضيف : قدني ، أي حسبي من الشرب قلت : بالله . وروى : قال بالله ، فكأنه عبر عن نفسه بطريق الغيبة . ويروى : إذا قلت قدني قال ، على أن الشاعر الضيف وليس بذاك . وحلفة : نصب بمعنى القسم قبله ، أي : أحلف بالله حلفة ، ولتغني : جواب القسم وفتح آخره لاتصاله تقديراً بنون التوكيد الخفيفة ، أي : لتمنعي عني . وروى ثعلب لتغنن بنون التوكيد الثقيلة ، أي : لتبعدن عني ، وكان حقه على اللغة المشهورة لتغنين ، لكن حذفت ياؤه بعد الكسرة على لغة فزارة . وروى لتغني بكسر اللام للتعليل ، أي : اشرب لتغني عني صاحب إنائك وهو اللبن ، وأضافه للإناء لأنه فيه ، وأضاف الاناء لضمير الضيف لأنه في يده ، وتبرأ من نسبته إلى نفسه دلالة على الكرم ، وأجمع : توكيد للبن ، أي لا ترد إلى ما في الاناء ، بل أشربه كله .

يقال للمستخلف : خليفة وخليف ؛ فالخليفة تجمع خلائف ، والخليف : خلفاء ، والمعنى : أنه جعلكم خلفاءه فى أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها ، وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فمن كفر﴾ منكم وغمط مثل هذه النعمة[1] السنية ، فوبال كفره راجع عليه . وهو مقت الله الذى ليس وراءه خزى وصغار وخسار الآخرة الذى ما بعده خسار ، والمقت : أشد البغض . ومنه قيل لمن ينكح امرأة أبيه : مقتى ، لكونه ممقوتاً فى كل قلب ، وهو خطاب للناس . وقيل : خطاب لمن بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلكم أمة خلفت من قبلها ، ورأت وشاهدت فيمن سلف ما ينبغى أن تعتبر به ، فمن كفر منكم فعليه جزاء كفره من مقت الله وخسار الآخرة ، كما أن ذلك حكم من قبلكم .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَٰوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

﴿أرونى﴾ بدل من أرأيتم : لأن المعنى : أرأيتم أخبرونى ، كأنه قال : أخبرونى عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة أرونى أى جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله أم لهم مع الله شركة فى خلق السموات ، أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب . أو يكون الضمير فى (آتيناهم) للمشركين ، كقوله تعالى (أم أنزلنا عليهم سلطاناً) أم آتيناهم كتاباً من قبله ، بل إن يعد بعضهم وهم الرؤساء ﴿بعضاً﴾ وهم الأتباع ﴿إلا غروراً﴾ وهو قولهم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقرئ : بينات .

إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

﴿أن تزولا﴾ كراهة أن تزولا . أو يمنعهما من أن تزولا : لأن الإمساك منع ﴿إنه كان حليما غفورا﴾ غير معاجل بالعقوبة ، حيث يمسكهما ، وكانتا جديرتين بأن تهدا هداً ، لعظم كلمة الشرك كما قال (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض) . وقرئ : ولو زالتا ، وإن أمسكهما : جواب القسم فى (ولئن زالتا) سد مسد الجوابين ، ومن الأولى مزيدة لتأكيد النفى ، والثانية للابتداء . من بعده : من بعد إمساكه . وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال لرجل مقبل من

---

(١) قوله «وغمط مثل هذه النعمة» أى : واحتقر . (ع)

الشام : من لقيت به ؟ قال : كعبا . قال : وما سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول : إن السموات على منكب ملك . قال : كذب كعب . أما ترك يهوديته بعد[1] ثم قرأ هذه الآية .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)

بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم ، فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبوه . وفى ﴿إحدى الأمم﴾ وجهان ، أحدهما : من بعض الأمم ، ومن واحدة من الأمم من اليهود والنصارى وغيرهم . والثانى : من الأمة التى يقال لها إحدى الأمم ، تفضيلا لها على غيرها فى الهدى والاستقامة ﴿ما زادهم﴾ إسناد مجازى ، لأنه هو السبب فى أن زادوا أنفسهم . نفوراً عن الحق وابتعاداً عنه كقوله تعالى (فزادهم رجساً إلى رجسهم) . ﴿استكبارا﴾ بدل من نفورا . أو مفعول له ، على معنى : فما زادهم إلا أن نفروا استكباراً وعلواً ﴿فى الأرض﴾ أو حال بمعنى : مستكبرين وماكرين برسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين . ويجوز أن يكون ﴿ومكر السيئ﴾ معطوفا على نفورا فإن قلت : فما وجه قوله (ومكر السيئ) ؟ قلت : أصله : وأن مكروا السيئ ، أى المكر السيء ، ثم ومكرا السيء ، ثم ومكر السيئ . والدليل عليه قوله تعالى ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾ ومعنى يحيق : يحيط وينزل . وقرئ : ولا يحيق المكر السيئ ، أى : لا يحيق الله ، ولقد حاق بهم يوم بدر. وعن النبى صلى الله عليه وسلم « لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً ؛[2] فإن الله تعالى يقول (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله) ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا ، يقول الله تعالى : إنما بغيكم على

(١) لم أجده . وروى الطبرى من رواية أبى وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام فذكره مثله ، إلا أنه لم يقل ماترك يهوديته »

(٢) أخرجه ابن المبارك فى الزهد . وقد تقدم فى أول يونس

أنفسكم » . وعن كعب أنه قال لابن عباس رضى الله عنهما : قرأت فى التوراة : من حفر مغواة[١] وقع فيها . قال : أنا وجدت ذلك فى كتاب الله ، وقرأ الآية . وفى أمثال العرب : من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكبا . وقرأ حمزة : ومكر السيىء ، بإسكان الهمزة ، وذلك لاستثقاله الحركات مع الياء والهمزة ، ولعله اختلس فظنّ سكونا أو وقف وقفة خفيفة ، ثم ابتدأ (ولا يحيق) وقرأ ابن مسعود : ومكراً سيئا ﴿سنت الأولين﴾ إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم ، وجعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم ، وبين أنّ عادته التى هى الانتقام من مكذبى الرسل عادة لا يبدلها ولا يحولها ، أى : لا يغيرها ، وأنّ ذلك مفعول له لامحالة ، واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه فى مسايرهم ومتاجرهم فى رحلهم إلى الشام والعراق واليمن : من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم ﴿ليعجزه﴾ ليسبقه ويفوته .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَآبَّةٍ وَلَـٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٣٨﴾

﴿بما كسبوا﴾ بما اقترفوا من معاصيهم ﴿على ظهرها﴾ على ظهر الأرض ﴿من دابة﴾ من نسمة تدب عليها ، يريد بنى آدم . وقيل : ما ترك بنى آدم وغيرهم من سائر الدواب بشؤم ذنوبهم . وعن ابن مسعود : كاد الجعل يعذب فى جحره بذنب ابن آدم ،[٢] ثم تلا هذه الآية . وعن أنس : إن الضب ليموت هزالا فى جحره بذنب ابن آدم [٣] . وقيل : يحبس المطر فيهلك كل شىء ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى يوم القيامة ﴿كان بعباده بصيراً﴾ وعيد بالجزاء .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة : أن أدخل من أى باب شئت » [٤]

---

(١) قوله «من حفر مغواة وقع فيها» فى الصحاح : وقع الناس فى أغوية ، أى : فى داهية . والمغويات ـ بفتح الواو مشددة ـ : جمع المغواة ، وهى حفرة كالزبية ، يقال : من حفر مغواة وقع فيها ، والزبية : حفرة تحفر للأسد اه أى : لصيد الأسد . (ع)

(٢) أخرجه الحاكم وقد تقدم فى النحل .

(٣) لم أجده عن أنس وقد تقدم فى النحل عن أبى هريرة . وعزاه إليه المصنف فيه على الصواب

(٤) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه .

فهرست

الجزء الثالث

من تفسير الكشاف للزمخشرى

تم بعون الله تعالى الجزء الثالث ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الرابع

وأوله : ســـورة يس